مكتبة الأسرة 1999

مهرجان القراءة للجميع

المصريات

تاريخ مصر

منذ أقدم العصور إلى العصر الفارسي

جيمس هنري برستد

ترجمة: حسن كمال

مراجعة: محمد حسنين الغمراوي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

تاريخ مصر

تاريخ مصر

من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى

تأليف : جيمس هنرى برستد

ترجمة : حسن كمال

مراجعة : محمد حسنين الغمراوى



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة المصريات)

تاريخ مصر (من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى)

تأليف: جيمس هنرى برستد

ترجمة: حسن كمال مراجعة: محمد حسنين الغمراوى

الجهات المشاركة:	
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية	
وزارة الثقافة	
وزارة الإعلام	الغلاف
وزارة التعليم	والإشراف الفنى:
وزارة التنمية الريفية	الفنان: محمود الهندى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة	المشرف العام:
التنفيذ : هيئة الكتاب	د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

الكتاب الأول

مدخل إلى تاريخ مصر القديم

الفصل الأول

أرض مصر

يرجع أصل المدنية الحديثة الى الأمم التي نشأت على شواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقية والى البلاد المجاورة لتلك الجهة وذلك منذ نحو ستة آلاف سنة تقريبا • وكانت بلاد العراق مركزا ثانيا لمدنية قديمة لكنها لم تشترك في تكوين حضارتنا الحديثة لعدم اتصالها بسكان شواطىء البحر الأبيض المتوسط • ويعزى ذلك الى عدم اتصال هذا البحر بنهر الفرات مع أنهما كانا متصلين قديما قبل ظهور هذه الحضارة • لذلك اعتبر المؤرخون أن حضارتنا الحالية نشأت على شاطىء البحر الأبيض المتوسط من المحيط الأطلنطي الى الأراضي الصحراوية شمالي أفريقية والى الخليج الذى كان متصلا بالبحر الأحمر ثم الى الشمال في القارة الآسيوية • ويخترق هذا الاقليم الشاسع واديان عظيمان متجهان شمالا وجنوبا يعرف أولهما بوادى الدجلة والفرات وهو في القارة الآسيوية • أما الثاني فبأفريقية ويقال له وادى النيل • وهذان الواديان هما منشأ المدنية القديمة فصارا لذلك الجهتين اللتين يبحث فيهما عن تاريخ الانسان القديم حتى ظهور الحضارة الأوربية الحديثة • وقد كانا أيضا المهدين الوحيدين لحضارتين مختلفتين عمتا تدريجيا البلاد المجاورة حتى التقتا معا بآسيا الصغرى ثم انتشرتا الى جنوبى أوربا •

ومعلوم أن وادى النيل مسقط رأس قدماء المصريين يبدأ جنوبى خط الاستواء بثلاث درجة ويتجه شمالا نحو البحر الأبيض المتوسط فيبلغه على بعد ٣١ر٥° درجة شمالى خط الاستواء ، ويقدر طوله بأربعة آلاف ميل تقريبا فهو لذلك من أطول أنهار الدنيا وأضخمها • وينبع هذا النهر من عدة بحيرات بمنطقة خط الاستواء حيث يعرف بالنيل الأبيض • وبجوار الخرطوم وبالقرب من منطقة خط العرض السادس عشر وعلى بعد ألف وثلثمائة ميل من البحر الأبيض المتوسط يلتقى النيل من جهته الشرقية

بفرعه الأكبر المعروف بالنيل الأزرق الذى يجلب اليه الغرين والمياه الغزيرة من جبال بلاد الحبشة الشامخة · بعد ذلك بمائة وأربعين ميلا يصب فيه نهر العطبرة وهو أصغر حجما وأقصر طولا من النيل الأزرق · ومن ثم يتعرج النيل تعرجا عظيما أشبه بحرف «S» اللاتينى وسط صحراء قاحلة (لوحة ٥٦) وهناك تعترضه عدة شلالات صخرية غير منتظمة يبلغ عددها ستة لكنها ليست شاهقة الارتفاع كشلال نياجارا بأمريكا ، بل منخفضة ومكونة من عدة صخور متفرقة شاخصة أمام تيار النيل الجارف وقد شق مجرى عميق الغور فيها كما فعل بالأراضى الرملية المجاورة (لوحة ١) وهذه الشلالات تعوق الملاحة النهرية · وأهم هذه الشلالات الأول والثانى والرابع · وبالقرب من جزيرة أسوان يعترض النيل شلاله الأول المعروف بشلال أسوان وهو عبارة عن صخور شامخة من الجرانيت تعترض طريق ذلك النهر العظيم ثم يسير حتى يصب فى البحر الأبيض المتوسط ·

أما القطر المصرى فهو جزء وادى النيل شمالى الشلال الأول · والنيل سهل الجريان بهذا القطر لعدم وجود صخور رملية فى تربته · ويلاحظ فى اقليم ادفو ـ الذى يبعد عن الشلال الأول ثمانين ميلا تقريبا ، والذى يكون الحد الشمالى لسطح الصحراء الصخرى ـ أن الصخور الرملية تتبدل تدريجا الى حصى صغير مستدير الشكل رقيق السمك أشبه كثيرا بالعملة · وبما أن هذا الحصى قليل المقاومة لتيار النيل الجارف سهل على هذا النهر العظيم أن يشق لنفسه فى ذلك الاقليم مجرى عميقا واسعا مخترقا القسم الشرقى من صحراء أفريقية العظمى الى البحر الأبيض المتوسط (لوحة ٣ ولوحة ٧) · ويأخذ وادى النيل فى الاتساع تدريجا ابتداء من الشلال الأول حيث يبلغ اتساعه عشرة أميال تقريبا وعند مصبه يبلغ اتساعه واحدا وثلاثين ميلا تقريبا · أما قرار النيل فمكون من مواد طينية رملية يجرى فوقها تيار المياه بسرعة تبلغ أحيانا ثلاثة أميال فى الساعة · وأقصى عرض يبلغه نهر النيل هو ألف ومائة ياردة تقريبا وذلك فى موضعين اثنين على طول مجراه · وبالقرب من أسيوط يتفرع من شاطئه الغربى بحر يوسف البالغ طوله مائتى ميل تقريبا ويسير شمالا الى اقليم الفيوم · ويعرف هذا الفرع قديما ببحر « الشمال » ثم الى الشمال الغربى من منف حتى يدرك البحر الأبيض المتوسط قرب الاسكندرية · وعلى بعد نيف ومائة ميل من البحر الأبيض المتوسط يتفرع النيل الى عدة أفرع بشكل مثلث أطلق عليه اليونان اسم الدلتا نسبة الى أحد أحرف هجائهم المثلث الشكل · ولا يخفى أن الدلتا كانت سابقا خليجا بحريا امتلأ تدريجا بغرين النهر الذى أخذ يتفرع وقتئذ الى سبعة أفرع تصب مياهها فى البحر

الأبيض المتـوسط ، لكن لم يبق الآن من هذه الأفرع الا اثنـان يحددان الدلتا هما فرع رشيد (الغربى) وفرع دمياط (الشرقى) ٠

وكان مسطح الوجه البحرى منخفضا فى مبدأ تكوينه ثم علا تدريجيا برسوب الغرين عليه فتوارت آثار مدنه الكثيرة القديمـــة تحت الطبقات الطينية المتجددة ٠ ولابد أن مستنقعات الدلتا وقتئذ كانت شاملة معظم مساحته ثم أخذ حجمها يقل تدريجا برسوب الغرين حتى اقتربت شواطئها من البحر الأبيض المتوسط ٠ ويتراوح سمك طبقة الأرض الطينية بمصر العليا من ثلاثة وثلاثين الى ثمانية وثلاثين قدما ، ويبلغ أقصى عرض لهـــا حوالى عشرة أميال ٠ وتقدر مساحة الأراضى المزروعة فى القطر المصرى من الشلال الأول الى البحر الأبيض المتوسط بأقل من عشرة آلاف ميل وربع ، فهى بذلك تقرب من مساحة أرض ولاية مارى لاند وتقل عن مساحة بلاد البلجيك بنحو عشرة فى المائة ٠ ويبلغ متوسط ارتفاع سلسلتى جبال وادى النيل بضع مئات من الأقدام لكنه يبلغ أحيانا علوا شاهقا يقدر بألف قدم (لوحة ٣) ٠ ويلى هذه الجبال صحار قاحلة اخترقها النيل منذ القدم ٠ ففى الجهة الغربية صحراء ليبيا المعروفة بالصحراء الكبرى المترامية الأطراف الكثيرة التـلال والرمال والصـخور ويتراوح ارتفـاع مسطحها عن مسطح النيل بين ستمائة وخمسين الى ألف من الأقدام ٠ وفى وسط هذا المسطح الرملى القاحل العظيم عدة أراض صغيرة منخفضة تروى بعيون الماء الارتوازى تعـرف بالواحات وهى على خط متقطع مواز تقريبا لمجرى النيل الذى تستمد منه مياهها الراشحة بين طبقات الرمال ٠ وأعظم هذه الواحات حجما هو اقليم الفيوم ، وكانت تفصله سلسلة جبال ليبيا ثم اخترقه بحر يوسـف حاملا اليه ماء النيل حتى بلغه فأخصبه وأحسن تربته ٠ وفيما عدا ذلك كانت الصحراء الغربية عديمة الفائدة الاقتصادية لقدماء المصريين ٠ أما الصحراء الشرقية المعروفة بصحراء العرب فيقطنها الأعراب المعروفون بالعبابدة وموارد الحياة بها لا تكاد تسد رمق سكانها القليلين ٠ وبهذه الصـحراء سلسلة جرانيتية موازية لشاطىء البحر الأحمر يكثر بين صـخورها الصـلبة معـدن الذهب النفيس ٠ ولا يقتصر وجود هذا المعدن على هـذه السلسلة الجبلية بل يعثر عليه أيضـا فى عـدة جهـات بين النيل والبحـر الأحمـر بالصحراء نفسها ٠ ولكثرة الأحجار المرمرية والصخور الصلبة النارية بتلك الصحراء وجه الموصل من موانىء البحر الأحمر التجارية الى وادى النيل ، أنشأ المصريون قدماء المصريين همتهم الى حفرها وكشفها٠ ولوجود هذه المناجم على الطريق عدة طرق توصل هذه المناجم بالطريق التجارى المذكور ٠ وقديمـا عثر

على مثل هذه المعادن والأحجار بطور سيناء فاهتم للأمر قدماء المصريين ودرسوا جغرافية ذلك الاقليم وقاموا بالحفائر والأعمال المنتجة فيه ٠

والقطر المصرى فى عزلة عن البلاد المجاورة ، ذلك لأن الجزء الآهل بالسكان ينفصل شرقا وغربا بصحراوين شاسعتين وهو شمالا يحده شاطىء الدلتا البحرى الخالى من الموانىء والمرافىء الآهلة ٠ وأما فى الجنوب فشلال أسوان الصخرى العظيم يفصل القطر فصلا تاما عن أواسط افريقية ٠ وتبع ذلك أن الغزوات الأجنبية كانت تشن على مصر عادة من طرفى الحدود الشمالية ، فمن الطرف الشرقى دخلت مصر الأجناس السامية مخترقة صحراء طور سيناء الشاسعة ، ومن الطرف الغربى دخل الليبيون وهم قوم يحتمل أنهم من أصل أوربى ٠ والشلال الأول وان كان منيعا لم يحل دون تدفق المصنوعات والنتاج السودانى الى القطر المصرى ، فقد تأسس بالطرف الأسفل منه سوق سميت «سوان» (وهى كلمة معناها السوق) وتعرف الآن بأسوان لتشجيع التجارة بين مصر والسودان ٠ بعد ذلك أخذت التجارة النيلية بين هذين القطرين تزيد باطراد ٠ ومن ثم يرى أن حدود مصر الطبيعية كانت حدا منيعا صعب الاختراق تمكن به المصريون من مقاومة مهاجميهم مدة كانت تكفى أن يحشدوا فى أثنائها جيشا لتلافى خطر الهجوم الأجنبى ٠

ولموقع مصر الجغرافى أيضا تأثير كبير فى رقيها السياسى ، لأنها عبارة عن اقليم مستطيل ضيق (ما عدا الوجه البحرى) يبلغ سبعمائة وخمسين ميلا تقريبا فهو لذلك فى أشد الاحتياج الى الوسائل اللازمة لبسط نفوذ حكومته على سائر أقسامه المتطرفة ٠ وكل قسم من هذه الأقسام يتصل شمالا وجنوبا بالأقسام الأخرى المجاورة ٠ ولقد كان تباين الشعور وتنوع الأفكار فى تلك الأقسام عاملين شديدين مستمرين يميزان كل قسم عن الآخر ٠ كما أن اختلاف اللهجات الكلامية كان متعددا لدرجة تعذر فيها على ساكن الوجه البحرى أن يفهم كلام ساكن الوجه القبلى ٠ لذلك لم تكن هناك سبيل لاتحاد أقسام القطر اللهم الا نهر النيل الذى سهل المواصلات والتعاون ، بالرغم من بعد المسافة بين أقسامه ٠

فنهر النيل هو السبب الأعظم لتوطيد العلاقة بين سكان مصر وضمان سعادتهم ورفاهيتهم وعليه الاعتماد فى انتقالهم وترويج تجارتهم ٠ زد على ذلك أن كمية الأمطار التى تهطل على القطر المصرى ليست كافية لارواء الصعيد ٠ من ذلك يتضح أن ثروة القطر وحياته مترتبتان على نيله ٠ ثم أن خصب الأرض وقوتها الزراعية مترتبتان أيضا على غرين النيل وفيضانه السنوى ، لأن الفيضان الذى يأتى من بلاد الحبشة منحدرا الى

النيل الأزرق نتيجة ذوبان الجليد وهطول الأمطور الربيعية على تلك البلاد الإفريقية ·

ويبدأ فيضان النيل السـنوى بهطول الأمطار الغزيرة على جبال الحبشة الشامخة فتنحدر منها المياه جارفة معها مواد طينية تعرف بالغرين ومحدثة في سيرها تيارا شديدا مخترقا بلاد النوبة · ويلاحظ عادة فى أوائل شهر يونيه جهة الشلال الأول ارتفاع يسير فى منسوب النيل هو نتيجة ذلك الفيضان · ثم يرتفع المنسوب تدريجا فيبلغ أقصاه فى أواخر شهر أكتوبر أو أوائل نوفمبر · لكن العادة أن هذا الفيضـان يقف قليلا مدة شهر تقريبا ابتداء من آخر سبتمبر من كل سنة ، بعد ذلك يستمر فى زيادته على الطريقة المذكورة · ويقدر الفرق جهة الشلال الأول بين أقصى ارتفـاع للنيل وقت الفيضـان وارتفـاعه وقت التحاريق بخمسين قدما · أما فى القـاهرة فالفرق بين هذين المنسوبين يبلغ نصف ذلك المقـدار · والسبب فى حفـر الترع واقامة الجسـور وغير ذلك من مشـاريع الرى الجسيمة فى تلك الأزمنة ، يرجع الى رغبة أهالى وادى النيل فى حجز مياه النيل وتصريفها الى حيضان الأراضى المزروعة حيث تغمرها وتمكث فيها مدة يرسب فى أثنائها على الأرض غرين النيل فيكسبها خصبا · وما أجمل منظر الأراضى وقتئذ وهى معمورة بالماء فى وسطها الغرس وأشجار النخيل الخضراء التى لا يصل اليها الانسان الا بجسور الترع ! (لوحة ٢) · بهذه الطريقة تستعيض التربة المصرية عزمها وخصبها من كل زراعـة سنوية فتبقى الأرض يانعة خصبة على مر السنين والدهور ·

فاذا جاء وقت هبوط النيل انخفض منسوب ميـاه النهر والترع المستمدة منه عن مسطح الأراضى المزروعة فتتهدد وقتئذ البـلاد بالعطش لبعد مياه النيل عنها · وهذا هو السبب الذى جعل الأهالى يقبلون على انشاء الترع لارواء الأراضى أيام التحاريق (لوحة ٦) (١) · من ذلك يتضح أن أراضى وادى النيل الخصبة الفتية تستحث زارعيها منذ العهد القديم على ابداء المهارة فى توزيع مياه النيل الحيوية فلا غرابة اذا لاحظنا أن هؤلاء برعوا فى هندسة الرى منذ أقدم العصور ، والحاجة أم الاختراع،

---

(١) وهذه الطريقة هى المعروفة بالشادوف الواردة صورته (لوحة ٦) وهو عبارة عن عرق خشبى طويل مرتكن على عمود خشبى آخر من الوسط ومثقل فى أحد طرفيـه بكتلة حجرية أو طينية ومعلق بالطرف الآخر اناء جلدى أو معدنى ينقل به الماء فى النهر أو البئر الى مكان أعلى وفى حالة انخفاض مسطح الماء كثيرا عن الأرض المراد ريها تستعمل لذلك عدة شواديف للتغلب على تلك الصعوبة · وتتراوح كمية المياه اللازمة لرى الفدان الواحد لمدة مائة يوم بين ألف وستمائة وألفى طن ·

ولما كانت مصر أم الفنون الآلية ، وجب علينا أن نذكر فى هذا المقام أن نهر النيل كان أهم الأسباب التى أنجبت ذلك الفن فى القطر .

ولما كان هذا القطر زراعيا بطبيعته مستعينا على اخراج خيراته بمياه النيل التى تكسبه خصبا بفيضانها السنوى، فلاغرابة اذا وجدنا أن مصر لا تزال باقية كما كانت بلادا زراعية على رغم التطورات والانقلابات . وسيأتى الكلام على ذلك فيما بعد . أما مزروعات هذا القطر فكافية لتغذية سكانه العديدين الذين بلغوا أيام الرومان حوالى سبعة ملايين نسمة والذين يزيدون الآن على تسعة ملايين نسمى وهى كما لا يخفى نسبة عظيمة ليست فى أية بقعة بالقارة الأوربية (٢) . ولما كان من الأصوب الآن عدم التعرض لموارد القطر المصرى الأخرى أرجأت ذلك الى فرصة أخرى عند الكلام على التدرج التاريخى لهذه الموارد .

معلوم أن من ميزات مصر جفاف طقسها الذى يأخذ بالباب السياح العديدين فى شتاء كل سنة . أما هواؤها فصحراوى لوقوعها وسط الأراضى القاحلة فهو لذلك نقى جاف . وبالرغم من شدة ارتفاع الحرارة أحيانا لايشعر الانسان الا بضيق يسير لسهولة تبخر العرق وقتئذ ، ويبلغ متوسط درجة حرارة الوجه البحرى شتاء ٥٦° فهرنهايت والوجه القبلى ٦٦° فهرنهايت . أما فى الصيف فمتوسط حرارة الوجه البحرى ٨٣° فهرنهايت وأقصاها فى الوجه القبلى ١٢٢° فهرنهايت .

وبالرغم من ارتفاع حرارة الصيف بهذه الكيفية فالمعيشة بمصر محتملة وقتئذ بنسبة ما يعانيه الانسان فى مثل هذه الظروف بالبلاد الأخرى . ويصحب ليالى الصيف نسيم عليل بارد آت من المزارع والحقول الشاسعة يخفى حرارة الجو . وما أكبر الفرق فى مصر بين البرد القارس الذى يحس به الانسان أيام الشتاء قبيل الفجر والحرارة الجميلة وقت الظهيرة فى الفصل نفسه ! . وقد ألمعنا سابقا الى ندرة الأمطار ، لكن هطولها بالوجه القبلى أحيانا نتيجة اضطرابات جوية جنوبى البحر الأبيض المتوسط أو شمالى صحراء أفريقية العظمى ، فيترتب عليه طرد السحب الثقيلة الى مصر شرقا . أما الاضطرابات الجوية الشرقية فلا تاثير لها فى طقس مصر ، لأن الجبال الشامخة التى على شاطىء

---

(٢) ديودور الصقلى

البحر الأحمر الغربى تقاوم السحب وتشتتها فتطردها الى أعلى • وعليه ، فشمالى الوجه البحرى واقع ضمن منطقة الأمطار الشمالية •

وبالرغم مما يتركه الفيضـان من البرك والمستنقعات بوادى النيل فالهواء الصحراوى الجاف الذى يهب عليها باستمرار سرعان ما يجففها فتتلاشى بذلك وسـائل تفشى الملاريا بجميع جهـات الوجه القبلى ومعظم جهات الوجه البحرى • فمصر المتاخمة للمنطقة الحارة تمتاز بنقاوة هوائها المعتـدل عـديم النظير الخالى من برد الشـتاء القـارس وقيظ الصيف الصعب الاحتمال المشاهد عادة بالمنطقة الحارة •

لا شك أن منظر القطر المصرى عموما كان وما يزال أمام المصرى ثابتا لا يتغير لأن وادى النيل الذى هو هدية ذلك النهر عبـارة عن أراض طينية يكسوها الزرع على طولها وعرضها تحـده على الجانبين صخور صـفراء عديمة الجبال والغابات ، اللهم الا اذا استثنينا بعض النخيل النابت على شاطىء النيل وحول القرى ذات المساكن الهادئة السوداء (لوحة ٤) وكذا بعض أشجار الجميز والأثل والسنط • وتتخلل هذه الأراضى شبكة من الترع أشبه كثيرا بالدورة الشريانية فى الجسم الحيوانى • وقد تتعدى أحيانا رمال الصحراء حدود وادى النيل الصخرية فتحتل بعض تربته الخصبة وحينئذ يتمكن الانسـان من الوقوف باحدى قدميه فوق أرض وادى النيل المزروعة وبالأخـرى فوق الأرض الرمليـة • بهذا الوصف ثبت فى مخيلة المصرى القـديم منظـر معيشته الدنيوية التى تتلخص فى واد منخفض ضيق كثير الخصب والتعريج تحده الصحارى المقفرة القاحلة عديمة النظير التى تفصله عن جهات العالم كلها ، وما كان أعظم كثيرا هذه العوامل فى ذاكرته وأفكاره الخاصة بالعالم وبقوته المدبرة • لذلك ترى المصرى شب متخذا مجرى النيل مرشدا له فى غدواته وروحـاته فقال « صعد أو نزل مع النهـر » بمعنى سار جنوبا أو شـمالا • لكنه لما بلغ نهر الفرات ببلاد العراق سـمى ذلك النهر بذى المياه المنعكسة المجرى التى تنزل مع النهر (أى تسير جنوبا) بدلا من (تجرى شمالا) • وقد قسم قدماء المصريين العالم الى « الأرض السوداء » وعنوانها وادى النيل و « الأرض الحمراء » وأرادوا بها الصحراء • ثم أطلقوا على الأولى اسـم « الأراضى المنخفضة » وعلى الثانية « الأرض العالية » عانين بذلك وادى النيل المنخفض وأراضى الصحراء الجبلية المرتفعة وجرت العادة وقتئذ أن يدعى الأجنبى « برجل الأرض الجبلية » وأن يقال « صـعدا الى كذا » بمعنى هاجر من وطنـه الى مكان آخـر و « هبط كذا » بمعنى آب الى بلده من الخارج • تلك أمثلة لفظية تثبت درجـة تأثر الذهن المصرى القديم فيما

يحيط بوطنه من الصحارى الواسعة ومنها يستدل على مقدار التأثير الذى عم أحواله المعاشية والدينية ٠

وقسم المصرى الأفق الى أفق شرقي وأفق غربي وتصور لكل منهما شمسا ثم تخيل عدة معبودات مدبرة لهذا الكون أملاها عليه ضميره وصورها له ذهنه ٠

هذا وصف اجمالى لأهالى وادى النيل الذين كانت لهم اليد الطولى فى انشاء المدنية بشرقى البحر الأبيض المتوسط لما كانت أوربا ساعية فى التملص من وحشيتها وجهالتها ، جارية وراء الحضارة والمدنية التى استضاءت بها البلاد الشرقية ٠ وبدهى أن وادى النيل هو المكان الوحيد فى العالم الذى يحوى آثارا لمدنية عظيمة قديمة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ٠ وقد كانت الدلتا موطنا لحروب وغزوات عدة أكثر من الوجه القبلى ، ومقرا لرسوب غرين النيل على مدنها الفرعونية القديمة ، ومع ذلك فان آثارها ما تزال شاغلة مساحات عظيمة بشكل كتل جرانيتية ضخمة وأحجار جيرية ورملية وأجزاء مسلات وقواعد صروح شامخة ، مما يثبت تماما عظم ثروة وقوة سكان تلك العصور الغابرة ٠ أما الوجه القبلى فكثيرا ما يؤمه السياح العديدون الذين أخذوا يزدادون كل سنة لكثرة آثاره الشامخة فى كل بقعة حتى يخيل للرائى أنها تحييه أينما ذهب وحيثما حل على امتداد الوادى ٠ والحق يقال انه لا يوجد فى هذا العالم جهة كمصر تحوى مثل هذه المبانى الحجرية الشامخة ومثل هذا الطقس البديع الجاف المصحوب بندرة المطر ، وهو الذى ساعد كثيرا على حفظ احسن وأعظم آثار العالم القديمة ، تلك الآثار التى هى دليل العز والرفاهية والتمدين القديم ٠ ومما لاجدال فيه أن المدنية الأوربية مدينة بكثير من آدابها الى المصريين الأقدمين ٠ ولما أخذت أنظار الشرق والغرب تتجه الى هذا القطر التعس الغنى بآثاره القيمة تدفقت عليه أهالى تلك الجهات من كل صوب حتى أوشكت أن تبتلعه ٠ ومن الواجب فى هذا المقام أن نعترف بتأثير مدنية القطر المصرى فى ذلك القطر وفى البلدان الأجنبية ، وبما كان لهذه المدنية من الفضل العظيم والمنزلة السامية ٠ وسنتكلم فيما بعد على خيرات مصر المعاشية التى جعلتها للسابقين واللاحقين ارثا يتغنى به المادحون ٠

الفصل الثانى

نظرة عامة فى تاريخ مصر القديم ،

توقيت التاريخ ، مراجع التاريخ

قبل الكلام على تاريخ الفراعنة بالتفصيل يجب أن نبحث بالاجمال فى تاريخهم لنجعله فى ذهننا أساسا تبنى عليه المعلومات والأخبار التى ترد تباعا فى فصولها وأبوابها بلا تعب ولا عناء . ولا يخفى أن تاريخ هذه العصور يضم حوادث أربعة آلاف سنة أى منذ ابتدأ ظهور الحضارة على سواحل البحر الأبيض المتوسط لما كان العالم عائشا فى ظلمات الجهل والوحشية . ولعل أهم ما يلفت نظر الباحث فى هذا الموضوع ما انتاب البلاد من غزو الأجانب واختلاطهم تدريجا بالمصريين وتأثير ذلك فى الأذهان والأخلاق الوطنية . أما أول عصر ذكر فيه الأوروبيون فى الآثار المصرية فهو القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ومن ثم أخذت سلطة الفراعنة تضعف تدريجا وأخذ شرف الحضارة وصولجان القوة ينتقلان من أيدى هؤلاء الحكام الى أهالى القارة الأوربية الفتية حتى صارت مصر فى آخر تاريخها القديم طعمة التهمها أولا الفرس ثم اليونان ثم الرومان .

وينقسم تاريخ سكان وادى النيل الأقدمين الى عدة عصور متباينة مرتبط بعضها ببعض بانقلابات وتطورات . ولما أتى مانيتو المؤرخ المصرى القديم قسم هذه العصور تقسيما عرفيا مفيدا مبتدئا بالعصر التاريخى وسمى هذه الأقسام بالأسرات الملكية . ومانيتو كاهن سمنودى عاش أيام بطلميوس الأول الذى حكم مصر من سنة ٣٠٥ الى سنة ٢٨٥ قبل الميلاد وصنف تاريخا عن وطنه باللغة اليونانية لم تصل الينا منه سوى مقدمته التى نقلها يوليوس أفريكانوس (Julius Africanus) ويوسيبيوس

وتاريخ مانيتو · Josephus ولخصها جوسيفوس (Eusebius)
هذا قليل الأهمية لارتكانه على روايات عاميـــة وخرافات متداولة وقتئذ
خاصة بالملوك الأقدمين · وقد قسم مانيتو ملوك مصر الى ثلاثين أسرة ملكية
ومع أن هذا التقسيم اصطلاحى وأنه كثيرا ما حصل نزاع بين ملوك الأسر
اعتبرهم هذا المؤرخ أسرة واحدة ولقد ساعد تقسيمه كثيرا على فهم تاريخ
مصر القديم · لذلك وافقه على رأيه كل من خلفه من المؤرخين حتى الحديثين
منهم فلم نجد نحن بدا من اتباع تقسيم ذلك المؤرخ القديم ·

كان القطر المصرى فى مبدأ مدنيتـه منقسما الى عدة امارات صغيرة
مستقلة أخذت تلتئم تدريجـا حتى تكونت منها مملكتان عظيمتان احداهما
بالوجه القبلى والأخرى بالوجه البحرى وامتازت المملكة الأخيرة منهما بسرعة
تقدمها فى الحضارة وقد ألهمت سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد أن السنة الشمسية
تتكون من ثلثمائة وخمسة وستين يوما · وهذا التاريخ (أى سنة ٤٢٤١
قبل الميــلاد) هو أقدم تاريخ معروف للآن على ظهــر البسيطة ومن ذلك
الوقت لقبت مصر « بأرض القطرين » نسبة الى جزءيها البحرى والقبلى ·
وفى عام ٣٤٠٠ قبل الميلاد انضم هذان الوجهـــان تحت سلطة الملك مينا
فكان هذا الملك أول من حكم أرض مصر مجتمعة وأول ملوك الأسرة الأولى
المصرية · واعتبر المؤرخون عهد مينا هذا حدا فاصلا فى تاريخ مصر القديم
قسمه الى عهدين : العهد الأول يرجع تاريخه الى زمن ما قبل الأسر والعهد
الثانى الى حكم الأسر · وقد أثبتت لنا الأبحاث والحفائر الأثرية التى أجريت
مدة عشر السنوات الأخيرة أن زمن حكم الأسر جاء نتيجة مباشرة لرقى
وتقدم تدريجى فى حضارة الزمن السابق ·

والفضل فى رقى القطر المصرى مدة حكم الأسر الأولى التى تقدر بحوالى
أربعة قرون يرجع الى ضم سائر جهاته تحت حكم الملك مينـــا وسلالته
الذين اتخذوا مركزهم فى بادىء الأمــر مدينة طينة بالقرب من العرابة
المدفونة ثم انتقلوا بعد ذلك الى منف · فى هذه المدة ارتقت حضارة البلاد
وزاد عمرانها وقوى نفوذها فسمى الأثريون هذا العهد «الدولة القديمة» ·
وصارت مدينة منف عاصمة البلاد فى عهــد ملوك الأسر الثالثة والرابعة
والخامسة والسادسة الذين تربعوا فى دست الحكم من سنة ٢٩٨٠ الى
سنة ٢٤٧٥ قبل الميلاد تقريبا · ويمتاز هذا العصر بارتقاء آدابه وعلومه
الآلية اللذين بلغا درجة عظيمة لم تبلغها البلاد قبل ذلك العصر أو بعده ·
وفى هذا العهد أيضا تجلت حكومة البلاد وادارتها الداخلية بأجلى مظاهر
الكمال بدرجة لم تكن معهودة · وأخذ النفوذ المصرى يمتـــد الى ما بعد
حدود المملكة وبلغ المصريون شبه جزيرة طور ســـيناء · ثم واصلوا عمل

الحفائر والكشف عن المدن الذى بدأ به ملوك الأسرة الأولى بهمة ونشاط ·
أما التجارة المصرية وقتئذ فبلغت شـــواطىء فينيقيا وجزر البحر الأبيض
المتوسط شمالا ثم توغلت أساطيل الفراعنة حتى وصلت الى ساحل بلاد
الصومال جنوبى البحر الأحمر · وتمكن فرعون مصر من بسط نفوذه على
أسفل بلاد النوبة واقرار الأمن على طريق التجارة هناك وذلك باستمرار
شن الغارات والحروب · ولـمـا تولت الأسرة السادسة الحكم سنة ٢٦٢٥
قبل الميلاد ساست القطر حتى عام ٢٤٧٥ قبل الميلاد ، وفى عهدها أخذ
يدب فى نفوس حكام الأقسام شـــعور الاستقلال والكبرياء وقد كانوا
احتفظوا بمراكزهم الادارية لأسرهم من زمن الأسرة الخامسة التى تولت
زمام الحكم من سنة ٢٧٥٠ الى سنة ٢٦٢٥ قبل الميلاد · بهذه الطريقـــة
مهد هؤلاء الحكام الطريق لتجزئة القطر المصرى الى امارات مستقلة صغيرة
وشل نفوذ السلطة المركزية بالبلاد ·

هكذا تمكن حكام الأقاليم المصرية من اسقاط بيتهم الفرعونى المالك
فى أواخر حكم الأسرة السادسة حوالى سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد · بعد ذلك
أخذت أهمية منف الادارية تضعف تدريجـا بمرور الزمن · ومن دواعى
الأسف أننا لم نهتد الى كيفية تطور تلك الأمور وغاية ما وصل الينا عن
ذلك العصر قائمة بأسماء ملكية اعتبر مانيتو أصحابها الأسرتين السابعة
والثامنة المنفيين وقال انهم حكموا مدة لا تزيد على ثلاثين سنة ·

ولما أتى زمن الأسرتين التاسعة والعاشرة قويت سلطة حكام الفيوم
فاغتصبوا عرش مصر وحكموا القطر جاعلين مركزهم مدينـــة اهناســـيا
المعروفة عند اليونان باســـم هيراكليوبوليس **Heracleopolis** ويبلغ
عدد ملوك هاتين الأسرتين ثمانية عشر ملكا تقريبا ·

بعد ذلك أخذت شمس طيبة تبزغ تدريجا لأول مرة فى أفق التاريخ
فأخذ حكامها ينافسون ملوك أهناسيا ودار بين الطرفين نزاع طويل انتهى
بفوز طيبة وانتقال مقاليد الحكم الى سكان الصعيد · ولم نهتد بالضبط
الى معرفة طول المدة التى مضت منذ سقوط الدولة القديمة الى ابتداء حكم
طيبة لكننا نقدرها تقريبا بنحو مائتين وسبعين أو ثلثمائة سنة وهذا تقدير
لا يبعد أن يكون فرقه بالزيادة أو النقصان أكثر من مائة سنة ·

ولـمـــا تولت الأسرة الحادية عشرة الطيبية مقاليد الحـــكم حـــوالى
سنة ٢١٦٠ قبل الميلاد وجدت القطر فى حـــالة شقاق ونزاع بين أمرائه
العديدين فوجه ملوك هذه الأسرة معظم همهم الى نزع السلطة من أيدى
هؤلاء الأمراء · ولما تولت الأسرة الثانية عشرة الحكم (ومؤسسها امنمحات

الأول الذى يظن أنه اغتصب الملك قهرا) أخذت تسوس الامارات الصغيرة بالحلم والدهاء فتقدم القطر كثيرا ولبست البلاد ثوب التمدين والنعيم لمدة تنيف على مائتى سنة تقريبا أى من سنة ٢٠٠٠ الى سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد. ويعرف هذا العصر عند الأثريين « بعصر الآداب » لأنهـا بلغت فيه أعظم شأوها ، فالشعر والنثر بلغا أقصى درجاتهما من حيث المتـانة والجودة كما أن الحفر والعمارة تقدما بدرجة مدهشة . وفاقت المصنوعات الفنيـة وأمثالها فى العصور الغابرة وزادت خيرات البلاد كثيرا لما اعتنت الحكومة بأمور النيـل وفيضـانه وقامت بمشروعات الرى العظيمـة جهـة الفيوم فاستخلصت أقاليم شاسعة من الأراضى الزراعية الخصبة بالقـرب من مواطن الملوك المسمى اثنان منهما أمنمحات وسنوسرت المنتميين الى الأسرة الثانية عشرة . أما شـبه جزيرة طور سـيناء فتطلعت اليها النفوس للاستكشاف والحفر بجد ونشاط وشيدت بها القلاع الحصينة وأقيمت على أرضها المعابد الهائلة وخزانات المياه الكبيرة . وشرعت مصر فى هذا العصر تشن الغارات على سورية وتكثر من معاملتها ومعاملة قبائل تلك الجهات السامية . واتضح لنا أن المعاملات التجارية كانت سائرة أيضـا بين مصر وأهالى جزر البحر الأبيض المتوسط الذين أسسوا المدنية اليونانية فيما بعد . أما التجارة مع الصـومال فزادت وربت عما كانت عليه . وأما النوبة فضم منها الجزء الواقع بين الشلالين الأول والثانى الى مصر وصار يدفع لفرعونها الجزية السنوية . بهذه الكيفية تمكن المصريون من استثمار منـاجم الذهب شرقى ذلك الاقليم فتدفقت منها ثروة عظيمـة فى الخزانة الفرعونية .

وفى سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد سقطت الأسرة الثانية عشرة واشتعلت فى البلاد نار ثورة داخلية انتهت بانقسامها وتفرق كلمتها وتطاحن أمراؤها على العرش وقد اعتلى عرش مصر وقتئذ بعض حكام أقوياء لم يعيشـوا طويلا ، تمكن أحدهم من اخضاع أعالى النوبة وابلاغ نفوذه الى أعلى الشلال الثالث ولكن هذه الثمار قد عطبت بعد وفاته وبقيت الحال سيئة مدة قرون تقريبا . بعد ذلك استولى على البلاد قوم من مملكة آسيوية (١) شاسعة سماهم مانيتو الهكسوس حكموا القطر المصرى مدة قرن تقريبا اتخذوا فى أثنائه مدينة هوارة (*) الواقعة شرقى الدلتا مركزا لهم .

ثم أخذ حكام الوجه القبلى يشاكسون ملوك الهكسوس وينازعونهم فانتزعوا منهم السلطة والحكم بالصعيد . ثم أعلن أحد أمراء طيبة نفسه

---

(١) الأرجح أنهم مجموعة من القبائل التى تسربت الى مصر فى عصر من الفوضى والاضطراب .

(*) يرجح فى الوقت الحاضر انها كانت فى منطقة تل الضبعـة بشرق الدلتـا ـ (الملحق) .

ملكا على الوجه القبلي واستمر خلفاؤه يحاربون الهكسوس حتى طردوهم من القطر المصرى وأبعدوهم الى سورية ٠

كان حكم الهكسوس وطردهم من مصر عظة كبيرة للمصريين أفهمتهم لأول مرة معنى الاستعمار وسياسة البطش ، فأنشأوا جيشا عظيما منظما استعملوا فيه العجلات الحربية مستعينين على جرها بالخيل التى جلبها الهكسوس الى القطــر المصرى وقت غزوتهم له ، فتحــولت مصر بذلك الى امبراطورية حربية ٠ واعلم أن أمراء الأقاليم المصرية قد انمحوا وقتئذ من الوجود تقريبا نتيجة غزوة الهكسوس والمنازعات الشخصية التى نشبت بينهم ولذلك لم يبق من هؤلاء الا اليسير انضموا بعد ذلك تحت لواء ملوك طيبة الذين أسسوا الأسرة الثامنة عشرة ٠ وتعتبر الامبراطورية المصرية فى عهد هذه الأسرة من أكبر امبراطوريات العالم لأنها امتدت من سورية وأعالى نهر الفرات شمالا الى شلال النيل الرابع جنوبا ٠ وكان تشييد هذه الامبراطورية المعتبرة الأولى فى العالم مصحوبا بثروة باذخة وعز باهر فى جهاتها الشاسعة بدرجة لم تبلغها مصر فى عصر آخر حتى صارت طيبة مركز التمدن العالمى وصاحبة الآثار الشامخة ٠ وعظمت التجارة المصرية مع البلاد الشرقية وشواطىء البحر الأبيض المتوسط ثم كثرت المصنوعات اليونانية بالقطر المصرى بعد اصطباغها بالصبغة المصرية ٠ ويقدر حكم هذه الامبراطورية بنحو مائتين وثلاثين سنة (اى من ســـنة ١٥٨٠ الى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد) ٠ أما سقوط هذه الامبراطورية فيرجع سببه الى منازعات داخليــة وخارجية اثر ثورة دينيــة عظيمة شنها الفتى النابغة الملك أخناتون على عبادة الأصنام ثم أخذ النفوذ المصرى يضعف تدريجا آسيا الصغرى تحت ضغط الحيثيين ٠ وفى هذا الوقت نفسه هجمت قبائل بدوية على شمالى وجنوبى ممتلكات مصر الأســيوية فزادت الطين بلة ٠ وليلاحظ أن بعض هذه القبائل انضم فيما بعد الى بنى اسرائيــل ولكن المعروف أنها اتحـــدت وقتئذ مع الحيثيين الذين استمروا يزحفون على مستعمرات مصر حتى انفصمت عرى الامبراطورية المصرية بآسيا الى حدود مصر الشمالية الشرقية ٠ على أثر ذلك هبت فى البلاد ثورة داخلية عظيمة انتهت بسقوط الأسرة الثامنة عشرة حوالى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد وأسدل الستار على الدور الأول من تاريخ الامبراطورية المصرية ٠

ثم ظهر على مسرح السياسة قائد مصرى يدعى حر محب كان فيما سبق قائدا فى الجيش فى عهد الأسرة الثامنة عشرة استعمل قوته وشدته فوطد النظام وأرجع الأمن للبلاد وأسس الأسرة التاســـعة عشرة التى تسلمت مقاليد الحكم من سنة ١٣٥٠ الى سنة ١٢٠٥ قبل الميلاد وأخذت تسترجع

ما فقدته مصر من ممتلكاتها الأسيوية · لكن يلاحظ أن سلطة الحيثيين بسورية كانت عظيمة لدرجة عجز عن سحقها هجوم المصريين · نعم ان هجوم سيتي الأول وحروب رمسيس الثاني استمرت حوالى عشر سنوات لكنها لم تجاوز حدود ممتلكات مصر الشمالية الى ما بعد أرض فلسطين وهكذا استحال على المصريين أن يحكموا سورية حكما مستمرا ثانية · وعظم النفوذ السامي بمصر وقتئذ · ثم ظهر الأوربيون (٢) لأول مرة في تاريخ مصر القديم فأنزلوا جنودهم على ساحل غربى الدلتا واتحدوا مع الليبيين على اقتحام الوجه البحرى فصدهم جيش مرنبتاح وأبعدهم الى بلادهم الأصلية · ثم اضطربت أحوال القطر المصرى بعد ذلك ودبت فيه الفوضى وفشا بين أهله الانقسام فسقطت الأسرة التاسعة عشرة حوالى سنة ١٢٠٥ قبل الميلاد ·

في هذا الوقت ظهر فرعون ستنخت وابنه رمسيس الثالث وأسسا الأسرة العشرين التى حكمت البلاد من سنة ١٢٠٠ الى سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد وحافظت في أثناء ذلك على كيان الامبراطورية المصرية على رغم غارات القبائل الشمالية (التى أبادت الحيثيين) وعلى رغم الهجرة الليبية المستمرة داخل البلاد · ولما توفى رمسيس الثالث سنة ١١٦٧ قبل الميلاد فقدت مصر سائر ممتلكاتها عدا النوبة وأسدل الستار على الدور الثانى من عهد الامبراطورية ·

وبقيت مصر محكومة بعدة رعامسة ضعاف (٣) وأخذت تتقهقر في أثناء حكمهم حتى اغتصب منهم قسس آمون عرش مصر · لكن هؤلاء الكهنة سرعان ما خضعوا لخصم آخر بمدينة تنيس التى هى شرقى الدلتا أسس الأسرة الحادية والعشرين المبتدئة من سنة ١٠٩٠ الى سنة ٩٤٥ قبل الميلاد · وفي منتصف القرن العاشر قبل الميلاد دخل الليبيون خدمة الجيش المصرى وصار منهم قواد ورؤساء حربيون · وفي سنة ٩٤٥ قبل الميلاد اغتصب أحد هؤلاء القواد المسمى شيشنق الأول عرش مصر وأسس الأسرة الثانية والعشرين ، وفي عهده ارتقت البلاد نوعا وحاولت استرجاع فلسطين · لكن قواد الجيوش المأجورين قووا مركزهم تدريجا

---

(٢) يشير الى مجموعة من الشعوب مجهولة الأصل اشارت لها المصادر التاريخية باسم شعوب البحر ، وقد استوطن البعض منها بلاد الاغريق وآسيا الصغرى - (المحقق) ·

(٣) نسبة الى رعمسة أو رعمسو ، وهو النطق الصحيح لاسم الملك رمسيس ويعني « وليد (الاله) رع » ، وقد آثرنا الابقاء على الصيغة الاغريقية لاسمه نظرا لشيوعها · وقد حكم مصر ١١ ملكا يحملون هذا الاسم في عصر الأسرتين ١٩ و ٢٠ - (المحقق) ·

في مدن الوجه البحرى فانقسم القطر المصرى الى عدة امارات حربية صغيرة واضمحلت البـــلاد وتقهقرت فى أثنـاء الحـكم الليبى أى مدة حكم الأسر الثـانية والعشرين والثالثـة والعشرين والرابعة والعشرين (أى من سنة ٩٤٥ الى سنة ٧١٢ قبل الميلاد) ٠

فى ذلك الوقت ظهرت بلاد النوبة فى التاريخ تدريجا نتيجة هجرة بعض أعضاء الأسرة المالكة الطيبية على الأرجح الى مدينة نباتا جهة الشلال الرابع حيث أسســوا مملكة مستقلة غزت بعد ذلك مصر وحكمتها من سنة ٧٢٢ الى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد وبقى هؤلاء الأمراء مقيمين بمدينـــة نباتا طول هـذه المدة ، ولكنهم لم يتمكنـوا من اخضـاع أمراء الأقاليم العديدين بمصر فاســتمر لذلك النزاع بين الطرفين ٠ وبينما هم كذلك أغارت جيوش آشور على القطر المصري وأخضعته وفرضت عليه الجزية فيما بين سنة ٦٧٠ وســـنة ٦٦٢ قبل الميلاد ٠ ثم ظهر بسامتيك الأول القائد المصرى الماهر جهة صا الحجر غربى الدلتا سنة ٦٦٣ قبل الميلاد فطرد جيوش نينوى (الأشورية) وانفـــرد بالحكم وبدأ عهد الاصــلاح والرقى ٠ وساعده على ذلك عدم وجود النوبيين بالقطر المصرى لأن الأشوريين طردوهم سابقا ٠ ويطلق الأثريون اسم « دور الاضمحلال » على المدة التى بين سنة ١١٥٠ وسنة ٦٦٣ قبل الميلاد التى تقرب من خمسمائة سنة ٠ وينقسم دور الاضمحلال هذا فيما بعد سنة ١١٠٠ قبل الميلاد الى العهد التنيسى الآمونى (المبتدىء سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد والمنتهى سنة ٩٤٥ قبل الميلاد) والعهد الليبى (المبتدىء سنة ٩٤٥ والمنتهى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد) والعهد الآشورى الذين بدأ فى أواخر العهد الأثيوبى ٠

فى ذلك الوقت ظهرت بلاد النوبة فى التاريخ تدريجا نتيجة هجرة بالوجه البحرى ، والسبب فى ذلك يرجع الى انعدام معظم آثار تلك الجهة٠ وبالرغـم من أن هيرودوت وغيره من المؤرخـين اليونانيين لم يخبرونـا الا بالقليل من تاريخ القطر وقتئذ ، فان العهد الصاوى كان زاهيا بهيجا عظمت فى أثنائه قوة مصر وكثرت اصلاحاتها لآثارها القديمة رغبة فى الوصول الى « عهد الآداب » السابق الذكـر ٠ وليلاحظ أن ملوك عهـد الاصلاح استعانوا على بسط نفوذهم بجنود اغريق مأجورين ٠ أما سياسة الملوك الصاويين فكانت راقية متمشية مع سياسة العهد الاغريقى ، وفى خلال هذه المدة قامت مصر بدور سياسى خطير مراعية فى ذلك بعض سننها القديمة ٠ أما أحوال البلاد الداخلية فقد ساءت حتى حالت دون نجاتها من مطـامع الفرس ولذلك بعد ما حكمت القطر المصرى عدة أسر أغلبها مصرية تغلب عليها قمبيز عام ٥٢٥ قبل الميلاد ٠

الى هنا انتهى ما أردنا سرده من تاريخ مصر القديم على سبيل الاختصار ومنه يظهر للقارىء العوامل الخارجية التى كان لها أعظم تأثير فى تاريخ مصر المستقلة واليك بيان أهم مميزات ذلك التاريخ :

تاريخ اعتبار السنة من خمس وستين وثلثمائة يوم واستعمالها فى المواقيت سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد ·

تاريخ نهاية عهد ما قبل الأسر سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد ·

تاريخ جلوس الملك مينا على عرش مصر سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد ·

مدة حكم الأسرتين الاولى والثانيـة سـنة ٣٤٠٠ الى سنة ٢٩٨٠ قبل الميلاد ·

مدة حـكم الدولة القديمة من الأسرة الثالثة الى الأسرة السادسـة سنة ٢٩٨٠ الى سنة ٤٢٧٥ قبل الميلاد ·

مدة حكم الأسرتين السابعة والثامنة سـنة ٢٤٧٥ الى سنة ٢٤٤٥ قبل الميلاد ·

مدة حكم الأسرتين التاسعة والعاشرة الاهناسيتين سنة ٢٤٤٥ الى سنة ٢١٦٠ قبل الميلاد ·

مدة حكم الدولة الوسطى الأسرتين الحاديه عشرة والثانيـة عشرة سنة ٢١٦٠ الى سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد ·

تاريخ الاضطراب الداخلى وحكم الهكسوس (الرعاة) سنة ١٧٨٨ الى سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد ·

مدة حكم الامبراطورية : الجزء الأول ـ الأسرة الثامنة عشرة سـنة ١٥٨٠ الى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد ·

مدة حكم الامبراطورية : الجزء الثانى ـ الأسرة التاسعة عشرة وجزء من الأسرة العشرين سنة ١٣٥٠ الى سنة ١١٥٠ قبل الميلاد ·

مدة حكم دور الاضمحلال : وهى السنوات الأخيرة من حـكم الأسرة العشرين سنة ١١٥٠ الى سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد ·

مدة حكم دور الاضمحلال : العهد التنيسى الآمونى ويشـمل الأسرة الحادية والعشرين سنة ١٠٩٠ الى سنة ٩٤٥ قبل الميلاد ·

مدة حكم دور الاضمحلال : العهد الليبى من الأسرة الثانية والعشرين الى الأسرة الرابعة والعشرين سنة ٩٤٥ الى سنة ٧١٢ قبل الميلاد ·

مدة حـــكم دور الاضمحلال : العهـــد الأثيوبي وتدخل فيه الأسرة الخامسة والعشرون (سنة ٧١٢ الى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد) سنة ٧٢٢ الى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد •

مدة حكم دور الاضمحلال : العهد الأشورى سنة ٦٧٠ الى سنة ٦٦٢ قبل الميلاد •

مدة حكم دور الاصـــلاح : ويدخل فيه العهد الصاوى زمن الأسرة السادسة والعشرين من سنة ٦٦٣ الى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد •

غزوة الفرس سنة ٥٢٥ قبل الميلاد •

ويجد القارىء فى آخر هذا الكتاب جدولا لمدد حكم فراعنة مصر بشكل أوفى وأوضح من الكشف المذكور هنا (٤) • وقد استعملنا لضبط تواريخنا الأولى طريقتين : الطريقة الأولى تتلخص فى جمع مدد حكم الملوك والطريقة الثانية فلكية أساسها فرق ربع اليوم بين السنة الشمسية والسنة المصرية القديمة • أما الطريقة الأولى فهى جمع أقل مدد يمكن اعتمادها لحكم الملوك ثم وضع كل منهم فى العهد الموافق له بالنسبة الى وقت معين • فاستعمال هذه الطريقة مثلا لتقدير المدة بين مبدأ الأسرة الثامنة عشرة وغزوة الفرس التى حصلت سنة ٥٢٥ قبل الميلاد يرشدنا الى مدة تبلغ ١٠٥٢ سنة على أقل تقدير مع مراعاة أحدث معلوماتنا الأثرية المذكورة فاستنتجنا من ذلك أن الأسرة المذكورة جلست على العرش المصرى حوالى سنة ١٥٧٧ قبل الميلاد على الأقل ان لم يكن قبل ذلك • ولما استعملنا الطريقة الثانية وهى الفلكية المبنية على شروق الشعرى اليمانية ومبادىء الأشهر القمرية وفرق ربع يوم بين السنة الشمسية والســـنة المصرية القديمـــة اتضح لنا أن الأسرة الثامنة عشرة المذكورة جلست على كرسى الملك حوالى سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد ولكن الطريقة الأولى لايمكن استعمالها وحدها لمعرفة تواريخ الحوادث التى حصلت قبل عهـد الأسرة الثامنة عشرة لندرة الآثار المســاعدة على ذلك التقدير • ومن حسن الحظ أن مبدأ حكم الأسرة الثانية عشرة المذكورة ذكر على الآثار مصحوبا بشروق نجم الشعرى اليمانية وباستعمال الطريقة الفلكية لذلك اتضـح لنا أن هـذه الأسرة تولت الحكم فى مصر حـوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد مع فرق طفيف يقدر بنحو سنة • بعد ذلك أمكننا معرفة تواريخ حوادث الأسرة الحادية عشرة باستعمال طريقة الجمع • ولعدم التأكد من طول مدة حكم اهناسيا تعذرت علينا معرفة المدة التى مضت بين عهدى للدولة القديمة والدولة الوســـطى • ومع ذلك لو قدرنا لكل من

(٤) استعضنا عن هـذا الجـدول بقـائمة حديثـة فى آخـر الكتـاب — (المحقق) •

الملوك الثمانية عشر الاهناسيين مـــدة ست عشرة سنة وهى مدة الحكم لأغلبية ملوك البلاد الشرقية لبلغت مدة حكم ملوك اهناسيا ٢٨٨ سنة ٠

اذا اعتبرنا هذه المدة ٢٨٥ سنة انحصر الخطـأ فى مدة لاتزيد على على قرن واحد على وجه التقريب ٠ أما مدة حكم الدولة القديمة فيمكن معرفتها بآثار عصورها وقوائم أسماء ملوكها الواردة على الآثـار مع خطأ بين الزيادة والنقص لا يزيد على مدة جيل أو جيلين ٠ وقد بينا فيما سبق أن غموض مدة حـكم ملوك اهناسيا يؤثر فى التواريخ السابقة له بمدة تقريبية ٠ واستدل من النقوش التاريخية التى على حجر بالرمو أن الأسرتين الأولى والثانية حكمتا مدة تقرب من ٤٢٠ سنة وأن جلوس مينا على عرش مصر وانضمام قطرى هذه المملكة حصلا حوالى سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد ٠ لكن يلاحظ أننا لا نزال نجهل بالضـــبط طول مدة حكم الدولة القديمة كما أننا نجهل مدة حكم ملوك اهناسيا ٠ وعلى كل حـال فهذه التواريخ جاءت موافقة لآثار عصورها التى ترجع الى ما قبل ســـنة ١٢٠٠ قبـل الميلاد ٠ ويرجع السبب فى المبالغة فى المواقيت التى يجدها الباحثون فى بعض الكتب التاريخية الى اتباع ما أوردته المجلدات الأثرية القديمة التى صدقت توقيت النسخ المنقولة عن تاريخ مانيتو العظيم رغم ما يشوبها من الخطأ الكثير والاهمال والتعقيد الذى لا يتفق مع معظم آثـار عصـوره ٠ زد على ذلك أننا لو جمعنا مدد حكم الأسر التى أوردها مانيتو لوجـدناها تبلغ عددا عظيما لا يصدقه العقل ولا يستحق الالتفات لحظة ، لأنه يقرب من ضعف التقـدير المستنتج من الآثار التاريخيـة ٠ لذلك كانت تواريخ مانيتو ضعيفة لا تحتمل المناقشة والجدل ومن ثم ، قلت أعداد الآخذين بها كثيرا حتى صاروا يعدون على الأصابع ٠

وكما أننا اضطررنا بحكم الحال فى أثنـاء توقيتنا لحوادث مصر التاريخية الى الرجوع الى الآثار ، كذلك اضطررنا عنـد البحث عن تاريخ الدولة القديمة الى أن نلجأ الى آثار تلك الأزمنة الغابرة،لكن المعلومات الممكن استيفاؤها بهذه الكيفية قليلة من حيث الحوادث والمآثر ٠ أما البحث فى الآثار عن المدنية فسهل لوضوحها كثيرا فى كل ما وصل الينا من أعمال الحفر والرسم والنقش والهندســـة ٠ وأما الاستعلام عن حياة الأفراد والطوارىء الخارجية القصـيرة المدة فأمر يكاد يكون مستحيلا لشدة ندرة أخباره على الآثار ٠ من ذلك يتضح لنا أن كل مؤرخ يحاول وضع تاريخ لمصر القديمة من آثارها الباقية فقط يجد نفســه فى شـدة الحيرة لنقص هذه الآثار وقلة أخبـــارها ٠ وهو فى هذا الموقف على نقيض زميله الذى يحاول وضع تاريخ لأوربا لأن معلومات الموضوع الأخيرة كثيرة ٠ وبدهى

أن قدماء المؤرخين الأوربيين عانوا مشقات عظيمة أولا تعادل ما يعانيه مدونو تاريخ مصر القديم الآن ·

وما أقل ما وصل الينا من المخاطبات السياسية والمجلات والتواريخ والسجلات الرسمية والتقارير التى يرجع تاريخها الى العصور المصرية القديمة ! · من ذلك يتضح للقارىء ما يقاسيه المؤرخون الذين يريدون وضع تاريخ لمصر القديمة كالذى يعانيه المؤرخ الذى يحاول وضع تاريخ الدولة اليونانية القديمة من نصوص آثارها الباقية الآن · وليعلم أننا لم نحصل للآن على تاريخ مصر القديمة لمؤرخ مصرى الا ما كتبه مانيتو وبناء على خرافات أهل عصره فى القرن الثالث قبل الميلاد · والحقيقة أن كتابة هذا المؤرخ لا تستحق أن تسمى تاريخا · وعلى كل حال فالمؤرخ القديم لم يدر بخاطره ما ستصل اليه نفوس القوم من الأخبار فى الأجيال القادمة · والمعروف أن الأخبار التاريخية كانت تسجل بايجاز من قديم الزمان لكننا لم نهتد للآن الا على سجلين من هذا النوع أولهما حجر بالرمو (٥) الشهير الحاوى لمختصر تاريخ ملوك الأسرة الأولى الى الأسرة الخامسة وثانيهما تاريخ حروب تحوتمس الثالث التى شنها فى سوريا · عدا ذلك لم نعثر الا على النزر اليسير من الآثار ذات المعلومات التاريخية · ونحن فى هذا الموقف لايسعنا الا أن نورد وصفا تقريبيا لمدنية للدولتين القديمة والوسطى مع بعض اشارات الى حوادث قليلة · أما عهد الامبراطورية فقد وصلتنا عنه معلومات قديمة أمكننا بها معرفة حوادثه الخطيرة دون الطفيفة · ومع ذلك فهناك نقط عديدة بشأن تلك العصور لانزال نجهلها ولا نعرف كيف نؤولها · وقد تمكنا من وصف نظام الحكومة وتأليف الاجتماع وأهم أفعال أباطرة تلك العصور مع ذكر طرف من الروح السائدة فى هذا العصر بقدر ما سمحت به الآثار · أما دورا الاضمحلال والاصلاح فمراجعنا الأثرية بخصوصهما تكاد تماثل فى القلة مراجع العصور القديمة لذلك صار المؤرخ يتردد بين التأويل والاحتمالات وقد اضطر المؤلف الى أن يتبع فى كتابه هذا خطة التحفظ الشديد لقلة المراجع التاريخية الخاصة بموضوعه ·

---

(٥) انظر لوحة ٤ ·٢

الفصل الثالث

مصر قبل حكم الأسر

في ذلك الجزء الصحراوي القاحل الشاسع الذي يخترقه نهر النيل عاش في قديم الزمان بعض البشر وساعدت الأمطار الغزيرة على خصب الأرض وزيادة نتاجها • ثم تغير هذا الاقليم فقلت أمطاره وشحت زراعته وانعدمت طبقته الطينية تدريجا فهجره أهله • ويرجع ذلك التغيير الى آلاف السنين قبل ظهور المدنيــة المصرية القديمة التي سنتناول بحثها الآن • ولم يصل الينا من هؤلاء الأقوام الأقدمين الذين قطنوا الصحاري المصرية قبل اقفارها سوى عدة أدوات من حجر الظران (١) وجدت مبعثرة فوق الصحراء اثر تآكل الطبقة الصخرية التي كانت تغطيها • ويعتبر أقوام العهد الحجري المذكور أقدم أناس سكنوا القطر المصري • أما علاقة هؤلاء الأقوام بمدنية مصر وقت الأسر أو قبلها فلا تزال مجهولة جهلا تاما ولذلك اعتبرت آثار تلك الأقوام ضمن مباحث علم طبقات الأرض ورقي الانسان •

أما القوم الذين سنتناول الآن تاريخهم فهم سلالة الليبيين (سكان شمالي أفريقية) وقبائل الجالا والصومال والبيجا (سكان شرقي أفريقية)• والمعروف أن أقواما ساميين من عرب آسيا غزوا وادي النيل وعمموا فيه لغتهم فصبغوه بصبغتهم كما هو ظاهر من النقوش المصرية القديمــة • وبالرغم مما اعترى اللغة من تغيير وتحريف باختلاط السكان فقد حافظت على ساميتها بمرور الزمن • ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن هذه اللغة وجدت كاملة على الآثار منذ أقدم عصورها • واستمر الليبيون وسكان أفريقية الشرقية يختلطون بسكان وادي النيل مدة طويلة في العصــور التاريخية ، وأهم اختلاط حصل بين الليبيين وأهالي وادي النيل هو الوارد ذكره في النقوش الأثرية منذ ثلاثة آلاف سنة تقريبا •

(١) الظران : حجر له حد كحد السكين وهو المشهور بالصوان •



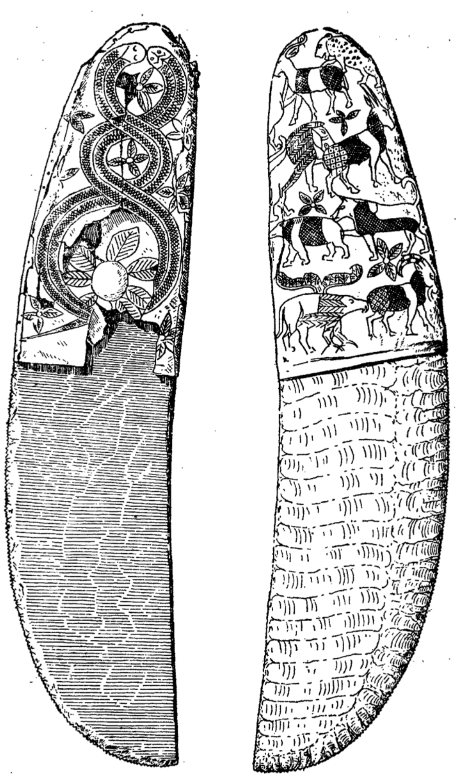
شكل (١) أقدم رسوم معروفة للآن ملونة بالألوان المائية وجدت على حائط قبر يرجع تاريخه الى قبل الأسر الفرعونية ويشاهد فى هذا الرسم صور سفن وحيوانات وحشية وغير ذلك .

أما تاريخ الهجرة السامية الأولى فيرجع بلا مراء الى ما قبل العصور التاريخية المعروفة ، لكن الثابت أن هذه الغزوة تكررت بعد ذلك مرارا فى العصور التالية ، ومحال أن نعرف تاريخ تلك الغزوة السامية والطريق الذى سلكه هؤلاء الغزاة ولكن الأقرب للذهن أنهم أتوا من برزخ السويس كما فعل العرب فى بداية الاسلام • ولما دخل هؤلاء الغزاة مصر عمموا لغتهم السامية لكنهم سرعان ما تطبعوا بطبائع المصريين ودانوا بديانتهم ودليلنا على ذلك أن ديانة النيل حافظت على مصريتها تماما ، فلم تدخلها عوامل بدوية من الخارج • ومما يعزز رأينا بأن هؤلاء الغزاة نشروا لغتهم فقط وجود علاقة أثرية متينة بين صناعة الأوانى الخزفية المستعملة الآن بين قبائل ليبيا الحديثة والتى استعملت سابقا بوادى النيل فى مبدأ حضارته • ورسوم الصوماليين الأقدمين الواردة على الآثار المصرية كثيرة الشبه بالمصريين • لكن من دواعى الأسف أن فحص الجثث المصرية القديمة أسفر عن عدة نتائج متناقضة بين علماء جسم الانسان وانتهى بعدم الوصول الى حقائق ثابتة نحو أصل المصريين الأقدمين • أما الرأى القديم القائل بأن قدماء المصريين من العنصر الزنجى الأفريقى فقد نبذ ولم يعتد به وكل ما يمكن أن يقال عنه انه اذا وجدت مثل هذه العلاقة فهى نتيجة اختلاط قدماء المصريين بزنوج أفريقية بدرجة طفيفة، تماثل اختلاطهم بسائر العناصر الأخرى •

الكلام على المصريين قبل حكم الأسر

لوحظ على هؤلاء القوم شعر أسود وبعض مبادىء الحضارة فرجالهم كانوا يلتحفون أحيانا جلود الحيوانات فوق أكتافهم أو يصنعون منها ألبسة قصيرة وتارة يلبسون المآزر الكتانية البيضاء القصيرة • أما النساء فكن يلبسن الملابس الطويلة المنسوجة غالبا من الكتان مبتدئة من الكتفين وواصلة الى القدمين • وقد وجدت عدة تماثيل صغيرة لتلك العصور تمثل الذكور والاناث عراة واستعملت النعال أحيانا وكذا الوشم • وكان القوم يتزينون بالحلى كالخواتم والأساور والأقراط المصنوعة من الحجر والعاج والعظم والحب المصنوع من الظر والبلور والعقيق والحجر السمانى • وكان النســاء يسرحن شعورهن بالأمشــاط ويستعملن لذلك الدبابيس العاجية المزخرفة • أما أصباغ الوجه وأكحال العيون الخضراء فكانت تستعمل مسحوقة موضوعة على ألواح صغيرة من الاردواز المحفور • واعتاد القوم وقتئذ تشييد مساكنهم بالعساليج (١) الممزوجة أحيانا بالطين أو بناءها باللبن • أما أثاث المساكن فبسيط تتجسم فيه الفنون الجميلة

(١) العساليج واحدها عسلوج وهو ما لان واخضر من قضبان الشجر والكرم •



(شكل (٢) أسلحة من الصوان يرجع تاريخها الى عهد سابق لحكم الأسرات ، أياديها مموهة بالذهب ومزينة بالرسوم الغائرة (ماخوذة عن دى مورجان) ٠

والمهارة الآلية • واستعمل القوم الملاعق العاجية المنقوشة التقاعير والأيدى• وبالرغم من جهلهم بالآلة التى يستعملها الخزاف الآن فقد صنعوا أوانى خزفية عديدة مختلفة الأشكال • وما أكثر ما تحويه دور التحف بأوربا وأمريكا من هذه الأوانى الحمراء أو السوداء المزخرفة بالرسوم الهندسية المختلفة ذات الرسوم المثلة لمراكب وحيوانات وطيور وسمك وأشجار وأناس من تلك العصور القديمة ! (لوحة ٩) • ومع جهل هؤلاء القوم بصناعة الزجاج فقد فقهوا طريقة لمعان الحب والألواح الخزفية وما شاكل ذلك • وقد عثرنا على تماثيل خشبية وعاجية وحجرية غير متقنة الصنع يتبين منها مبادىء تلك الفنون الجميلة فى عصور الأسر الأولى • ووجد الأستاذ بترى ثلاثة تماثيل للمعبود من جهة قفط تتجسم فيها حضارة ذلك العهد السحيق الذى يرجع تاريخه الى ما قبل حكم الأسر • بعد ذلك استبدلوا بصناعة الخزف تدريجا صناعة الحجر المتنوعة فتمكن القوم حينئذ من صناعة الأباريق والأكواز والزلع وما شاكلهـــا باتقان زائد مستعملين لذلك أصلب الأحجار كالصوان والسماقى • وأقصى درجـة بلغتها صناعة حجر الظر يرجع تاريخها الى هذا العهد • وفيه أيضا تمكن القوم من عمل الآلات المعرجة كالمقابض العاجية المنقوشة والفؤوس الحجرية والصوانية ورماح الأسماك ذات الرءوس الظرية والصولجانات والدبابيس أو المقامع (٢) ذات الرءوس الضخمة المماثلة فى الشـكل لثمرة الكمثرى والتى استعملت قديما فى الحروب المصرية والبابلية • وتمكن القوم أيضا من عمل الأســلحة والأدوات النحاسية • لذلك كان هذا العصر عصر الانتقال من العهد الحجرى الى العهد النحاسى • أما المصنوعات الذهبية والفضية والرصاصية فكانت معروفة لكنها نادرة •

ولما كانت الزراعة الحرفة الرئيسية لسكان وادى النيل الخصيب ظهر هؤلاء القوم زراعين ماهرين وتدينوا بديانة مملوءة بروح الزراعة • أما حقول وغابات وادى النيل غير الآهلة بالسكان فكانت مأوى لكثير من الحيوانات • واستدل من كثرة المصنوعات العاجية وتعدد رسوم الفيل على آثار تلك العصــور أن هذا الحيوان كان موجودا بالقطر المصرى • أما الزرافة وجاموس البحر والذئاب الوحشية (التى اعتبرها القوم بعد ذلك رمزا للمعبود ست) فكانت تأوى الغابات أيضا لكنها تلاشت الآن • لذلك برع قدماء المصريين فى صيد البر والبحر فافترسوا أشد الحيوانات

---

(٢) الدبوس او المقمعة هو عصا ذات طرف غليظ قد يشـكل بصور عدة وستخدم لتهشيم رؤوس الاعداء ، ومنها مقامع كانت تستخدم فى بعض الطقوس السحرية الدينية وقد زينت بنقوش ذات قيمة تاريخية عظيمة ـ (المحقق) •

بأسا كالسباع والثيران الوحشية بالأقواس والرماح وخرجوا في سفينة صغيرة مسلحين بالرماح والحراب لصيد جاموس البحر والتمساح ، وأثبتوا ذلك بالرسوم على صخور بوادى النيل مكسوة بطبقة أوكسيدية تعرف بالباتينا نتيجة تأثير الهواء فيها ، وهذه الرسوم تعتبر أقدم وأجمل ما وجد من نوعها فى التاريخ القديم .

ولما زادت صناعة مصر انتشرت تجارتها فى البلاد المجاورة . فقد رئيت على الآثار غير سفينة الصيد الصغيرة صور أخرى لسفن كبيرة ماخرة فى مياه النيل تدفعها الى الأمام سكاكين (٣) ضخمة ومجاديف عديدة . أما السفن الشراعية فكانت معروفة لكنها قليلة العدد . وعلى كل سفينة علم عليه رسوم تشير الى محل معين فمن هذه الرسوم قوسان متقاطعان يرمز بهما دائما الى المعبودة نيت الصاوية ومنها أيضا صورة الفيل يقصد بها غالبا جزيرة الفيل الواقعة جنوبى أسوان . والغالب أن هذا الحيوان كان كثير الوجود بالقطر بدليل كثرة استعمال العاج ورواج تجارته فى الأسواق الجنوبية المصرية . وبفحص هذه الأعلام لوحظ أنها كثيرة الشبه بأعلام أقسام مصر التى تجزأت اليها فيما بعد ، لذلك لا يبعد أن تكون أعلام هذه السفن دليلا كافيا على تقسيم القطر المصرى وقتئذ الى عدة أقسام كالتى سماها اليونانيون فيما بعد (Nomes) وسيأتى الكلام عليها بعد . فان صح هذا الرأى كان الوجه القبلى مقسما وقتئذ الى نيف وعشرين قسما . وعلى كل حال فحضارة تلك العصور كانت راقية بدليل كثرة مدنها الكبيرة وعواصم اقطاعها كما كانت الحالة فى بلاد بابل . وكان لكل مدينة وما جاورها من القرى حاكم قوى ومعبود مستقل ومعبد ساذج وسوق عامة تتعامل فيها أهالى البلاد المجاورة . أما كيفية تكوين وترتيب أقسام مصر وقتئذ فتشبه غالبا ما هو حاصل بالبلدان الأخرى . ويرجع تاريخ تكوين الامارات الصغيرة والمدن الكبيرة المستقلة التى نشأت منها المملكة المصرية الى زمن بعيد جدا يصعب الاهتداء اليه بخلاف الحال فى مملكة بابل الحديثة .

واتحاد هذه الامارات الصغيرة والمدن الكبيرة بعضها مع بعض وتكوين مملكتين منهما بالوجهين البحرى والقبلى لا يمكننا البحث فيه الآن أو فى المستقبل . والمرجح أننا لن نسمع شيئا عن أبطال تلك العصور وغزاتها وحروبها وفتوحاتها وأزمانها والغالب أن هذا التطور الحكومى العظيم تم قبل سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد . وما أقل معارفنا عن المملكتين البحرية والقبلية اذ كل ما يمكننا ذكره عنهما أن الوجه البحرى كان دائما عرضة

---

(٣) السكاكين : واحدها سكان وهو دفة المركب .

لهجوم الليبيين القاطنين غربيه وانه لكثرة هجرة هؤلاء القوم اليه اصطبغ الجزء الغربي منه بالصبغة الليبية التي بقيت ظاهرة حتى زمن هيرودوت المؤرخ الاغريقي الشهير • وتشير أقدم أخبار الوجه البحرى الى منازعات ومشاحنات مستمرة مع الليبيين لذلك لا يبعد أن كانت المملكة البحرية وقتئذ تحت حكم ملوك ليبيا وأنها لذلك اصطبغت بصبغة هؤلاء القوم ودليلنا على ذلك أن معبد مدينة صا الحجر (سايس) الواقعة غربي الدلتا والمعتبرة مركز النفوذ الليبي سمي قديما « بقصر ملك الوجه البحرى » ثم ان رمز معبودة ذلك المعبد وهي نبت استعمل في الوشم كثيرا على أذرع الليبيين • ولا يبعد أن صا الحجر كانت وطنا لملك ليبي قديم • ووجدت رسوم بارزة على جدر معبد هرم ساحورع بأبو صير تمثل أربعة أمراء ليبيين واضعين على جباههم أصلال الفراعنة يغلب أنها وصلت اليهم لصلة دموية بينهم وبين ملوك ليبيا الذين حكموا الوجه البحرى سابقا • واتخذت المملكة البحرية نبات اللوتس رمزا لها لكثرة وجوده بمستنقعات ذلك الاقليم ورمزت لملكها بالنحلة وتوجته بالتـــاج الأحمر ذى الشكل المخصوص • وتشاهد هذه الشارات بكثرة في النصـــوص الهيروغليفية الحديثة • بعد ذلك أعتبر اللون الأحمر خاصـــا بمملكة الوجه البحرى فأطلق على خزانته اسم « البيت الأحمر » •

واختفت آثار الوجه البحرى بتغلب رسوب الغرين عليها سنويا ضاع بذلك أملنا في العثور عليها لسمك الطين الذى يعلوها • والمظنون ان سكان الوجه البحرى سبقوا سكان الوجه القبلي في الحضارة لأنهم تنبهوا في القرن الثالث والأربعين قبل الميـــلاد الى أن السنة الشمسية تكون من ثلثمائة وخمسة وستين يوما وأرخوا مبتدئين بالسنة التي ظهر فيها نجم الشعرى اليمانية مع شروق الشمس • ودلتنا الأبحاث الفلكية أن هذا الحادث حصل سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد • ويعتبر هذا الاكتشاف الميقاتي واستعماله في الشؤون الدنيوية خطوة كبيرة نحو الرقي وشرفا عظيما للوطن الذى كشف فيه • ولم تكتشف دولة من دول العالم منذ أقدم الأزمنة حتى مبدأ العصر الأوربي المتوسط توقيتا سنويا مثله يتخطى الصعوبات الناجمة من استعمال السنتين القمرية والمصرية الشمسية وعدم تقسيم الأشهر القمرية للسنة المصرية الشمسية بالتساوى • لذلك قسم سكان الدلتا سنتهم الى اثنى عشر شهرا وجزءوا كل شهر ثلاثين يوما حفظا للنظام وتسهيلا للمداولات • وهكذا اعتقد سكان الدلتا ان التوقيت شيء عرفي يصطلح عليه القوم بلا مراعاة لتغييرات الطبيعة عدا الأيام والسنين • فقسموا السنة الى أشهر وأيام كما ذكر ثم أضافوا الى آخر ذلك خمسة أيام قدسوها وأقاموا فيها الأعياد مع العلم بأن تاريخ استعمال السنة

المصرية القديمة ابتدأ بظهور نجم الشعرى اليمانية مع شروق الشمس · وقد بحث عنه فلكيا فوجد أنه حصل فى التاسع عشر من شهر يولية سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد (٤) ولما كانت السنة المصرية أقل من السنة الشمسية الحقيقية بربع يوم لوحظ أن الفرق يبلغ يوما كاملا كل أربع سنوات ويبلغ سنة كل ١٤٦٠ سنة وأنه بعد مرور هذه المدة (أى ١٤٦٠ سنة) يتفق ظهور الشعرى اليمانية مع شروق الشمس · من ذلك يتضح للقارىء أنه لو عثر على أخبار لهذا التوافق الفلكى (بين شروق الشعرى والشمس) أمكننا معرفة تاريخ تلك الأخبار باستعمال الطرق الفلكية فلا يزيد الخطأ فيه على نحو أربع سنوات · وليعلم أن يوليوس قيصر الرومان هو أول من أدخل التوقيت المصرى امبراطوريته ثم عم استعماله العالم · من ذلك يتضح أن استعمال التوقيت المصرى عمر مدة ستة آلاف سنة تقريبا وأن الفضل فى ذلك يرجع الى سكان الوجه البحرى الذين عاشوا فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد · وليلاحظ أن تقسيم التوقيت المصرى أفضل كثيرا من التوقيت الرومانى ، لأنه أسهل استعمالا فهو يقسم السنة الى اثنى عشر شهرا والشهر الى ثلاثين يوما ، أما الثانى فيقسم السنة الى اثنى عشر شهرا غير متساوية الأيام ·



شكل (٣) : قبر يرجع تاريخه الى زمن سابق لحكم الأسرات

---

(٤) جوليان ·

ومملكة الوجه القبلي أكثر امعانا في المصرية من الدلتا وعاصمتها مدينة الكاب ويقال لها بالمصرية نخب وشعارها نبات البردي وتاج ملكها أبيض لذلك أصبح البياض اللون الرسمي للصعيد • أما الملك فكان يقطن احدى ضواحي مدينة الكاب المسماة نخن وهي على الشاطيء الغربي للنيل والمعروفة عند اليونان باسم (Hieraconpolis) (٥) • أما عاصمة الوجه البحري فيقال لها بوتو ولها ضاحية يقال لها بي (٦) • ولكل من هاتين العاصمتين معبودة تدرأ عنها الضرر والمصائب • فمعبودة بوتو كان يرمز لها بأفعى تدعى بوتو أيضا • أما معبودة نخب أو الكاب فترسم نسرا وتدعى نخب كذلك • وقد عبد في كل من هاتين العاصمتين المعبود حورس مناضلا عن المملكتين الشمالية والجنوبية • واعتقد أهالي تلك العصور في البعث والحياة الأخروية بشكل يماثل الحياة الدنيوية ، واتخذوا مقابرهم عادة في سلسلة الجبال الغربية على حافة الصحراء • وقد كشفت حديثا آلاف من هذه المقابر فوجدت بيضية أو مستديرة الشكل مسطحة القرار حاوية لجثث منحنية انحناء الجنين في رحم أمه • وأقدم هذه الجثث ملفوفة في جلود الحيوانات ثم استبدل بهذه اللفائف الجلدية أقمشة منسوجة • أما التحنيط فلم يستعمل وقتئذ • ووجد تحت هذه الجثث حصير من القش المضفور وعثر في أيديها وعلى صدورها على ألواح اردوازية صغيرة لسحق الحجر الملكي الأخضر بقصد استعماله لتحسين الوجه والهيئة في الآخرة ووجد هذا المسحوق محفوظا في أكياس صغيرة بجوار الجثة مع أدوات العطر والزينة وشوهدت حول ذلك أوان خزفية وحجرية حاوية لبقايا أغذية أو أشربة أو أدهان تخص الميت في الآخرة • ووجدت أيضا في قبور تلك العصور أسلحة من الظران وأسهم ملبسة بالعاج يستعملها المتوفى للصيد الذي يقتات من لحمه • ولوحظ أيضا مع هـذه الجثث نماذج لمراكب عديدة تسد حاجات صاحبها بعد وفاته • أما أسقف تلك القبور فمصنوعة من أفرع نباتية تعلوها طبقة رملية أو حجرية تبدو منها معالم الحضارة • بعد ذلك استعمل اللبن في تشييد المقابر • وعثر في بعض الجهات على أوان خزفية كبيرة مقلوبة فوق جثث الموتى تؤدي وظيفة السقف •

ويرجع معظم معلوماتنا التاريخية والأثرية عن عصور ما قبل حكم الأسر الى هذه المقابر • ففيها عثرنا على الدعوات الدينية والعزائم السحرية التي اتخذت صيغة مخصوصة بمرور الأيام • وقد اهتدينا الى صيغ هذه الدعوات والعزائم في نقوش أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة اللتين

---

(٥) الكوم الأحمر حاليا ـ (المحقق) •

(٦) تل الفراعين حاليا ـ (المحقق) •

يرجع تاريخهما الى الف سنة تقريبا بعد ابتداء حكم الأسر · وقد أخبرنا ببى الأول أحد ملوك الأسرة السادسة أنه شيد معبدا جهة دندره مماثلا لمعبد هناك أقامه سابقا أحد ملوك الوجه القبلى قبل حكم الأسر ومنه استنتج أن أهالى تلك العصور العتيقة شيدوا معابد على نمط المعبد المذكور ·

وزيادة على ما بلغه هؤلاء القدماء من مبادىء المدنية والرقى ، فانهم نجحوا فى اختراع الكتابة والقراءة · واستدل من الأبحاث التى عملت لكشف طريقة التوقيت المصرية أن قدماء المصريين استعملوا الكتابة منذ نحو خمسة آلاف سنة وأن كتاب الأسرة الخامسة الذين أتوا بعد ذلك بألف سنة دونوا طائفة كبيرة من أسماء ملوك الوجه البحرى وبعض ملوك الوجه القبلى من الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل حكم الأسر (لوحة ٢٤) كما نسخوا أيضا عدة نصوص دينية من كتاب الموتى يرجح أنها نقلت سابقا عدة دفعات · ولا يخفى أن الخط الهيروغليفى الذى استعمل فى الوجه البحرى لاجراءات الحكومة والملك والخزانة لم يخترع فجأة وقت اعتلاء الملك مينا العرش المصرى بل كان مستعملا قبل ذلك بمدة طويلة ، ودليلنا على هذا أن الخط الهيراطيقى كان مستعملا فى مبدأ الأسرة الأولى وهو كما لا يخفى اختزال للخط الهيروغليفى فلابد اذن أن يكون هذا الأخير مستعملا قبل حكم الأسر بزمن طويل ولكن لم تصل الينا معلومات تاريخية عن مآثر ملوك الوجه البحرى والقبلى الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل القرن الرابع والثلاثين قبل الميلاد ، والسبب فى ذلك هو عدم عثورنا على نقوش تاريخية بمقابرهم · وغاية ما اهتدينا اليه من تلك العصور هو مقابر فقراء القوم الخالية من الآثار والنقوش المفيدة · ولا نعرف من أسماء الملوك الأقدمين سوى سبعة من ملوك الوجه البحرى أمثال : سكا وخايو وثيشن · أما ملوك الوجه القبلى فلا نعلم من أسمائهم شيئا لكن يقال ان هناك ملكا كان يلقب بالعقرب اعتبره بعض الأثريين ذا نفوذ عظيم على الوجه القبلى لكثرة وجود اسمه على الآثار خلافا لغيره من ملوك تلك الأوقاف (٧) · والظاهر أن كتاب الأسرة الخامسة لما أرادوا احياء ذكرى هؤلاء الملوك بعد وفاتهم (بحوالى ثمانمائة سنة) ولم يتمكنوا من سرد أعمالهم اقتصروا على ذكر الأسماء فقط · ودلتنا على أن هؤلاء الملوك نعتوا بأنهم « خلفاء حورس » ثم قدسوا فنسبت اليهم كثير من الصفات الالهية ثم قربوا من منزلة المعبودات فاعتبروا وراثا للمعبودات التى حكمت مصر قديما · وهذا يعنى أن المصريين القدماء اعتبروا حكم هؤلاء الملوك وسطا بين عهد الآلهة القديم وبين حكم الأسر البشرية · ونعت مانيتو فى تاريخه هؤلاء الملوك « بالموتى »

---

(٧) ويحتمل وجود اسم آخر على حجر بالرمو وبمقبرة متن (Methen) ·

ومنه يتضح أن أهميتهم التاريخية تلاشت تدريجا وتبدلت وقامت على انقاضها أهميتهم الدينية فاعتبروا آلهة فى عواصم أقسام مصر .

والمعروف أن التقدم البطىء المطرد فى المملكتين الشمالية والجنوبية تكلل فى آخر الأمر باتحادهما . وقد أثبتت لنا الآثار المصرية صدق الرواية اليونانية القائلة بأن الملك مينا هو أول ملك مصرى ضم الى حكمه الوجهين القبلى والبحرى . ومنه يتضح أن هذا الملك الذى كان معتبرا حتى عهدنا هذا فردا من « خلفاء حورس » هو فى الحقيقة رجل ذو مركز تاريخى عظم . والظاهر أنه كان قائدا ماهرا لأنه ضم موارد الوجــه القبلى فى قبضته بقوة وأخضع بها الوجه البحرى فأتم بذلك مجهودات أسلافه وكون للقطر المصرى قوة مركزية حكومية . ومينا هذا من مدينة طينة وهى بلدة قريبة من العرابة لا تكاد تعرف . وقال هيرودوت ان عدم حلول هذه المدينة فى منتصف القطر المصرى دفع مينا الى انشاء خزان عظيم حول به مجرى النيل الى شرقى منف ليتمكن من تخطيط هذه المدينة فى محلها الحالى . فاذا صحت هذه الرواية كانت هذه المدينة مركزا لمينا ومقر ادارته ومنها استمد نفوذه بسهولة على سائر أنحاء القطر . وقد بسط سلطته فى الخارج فارسل جيشا الى الجزء الشمالى للنوبة (٨) الذى هو بين الشلال الأول ومدينة ادفو : قال مانيتو ان هذا الملك تنعم بحكم طويل وسجل له التاريخ ذكرا مخلدا وهو أمر واضح جلى . ودفن بالصعيد بالقرب من طينة مسقط رأسه (جهة العرابة) أو شمالى ذلك بقليل جوار قرية نقادة الحديثة حيث عثر على مقبرة مشيدة باللبن يحتمل أنها له وفى هذه المقبرة وفى أمثالها بالقرب من العرابة عثر على عدة آثار من عهد الأسرة الأولى كبعض الحلى الواردة صورتهــا بهذا الكتاب والمنقوش اسم الملك مينا مؤسس الدولة المصرية القديم عليها (لوحة ١٠) .

لقد عرفنا الآن كثيرا من أخبار ملوك الأسر الأولى المصرية بعد ما كنا نجهل عنهم كل شىء سوى أسمائهم . أما معلوماتنا عنهم فعامة لكنها قيمة وليس منتظرا أن نصل يوما من الأيام الى تاريخ كل أفراد هذه الأسر ولا يسع الباحث فى مآثر هؤلاء الا أن يعترف بأنهم صرفوا كل همهم نحو تأسيس المملكة المصرية واصلاحها وتقدمها . أما الملك فكان يلقب وقتئذ « حورس » نسبة الى ما ورثه من هذا المعبود فى عرش مصر . وقد رسم الصقر (رمز حورس) فوق الآثار الملكية بشكل مستطيل يمثل باب القبر الوهمى (الذى تخــرج وتدخــل منه الروح) وبداخله اســـم الملك

(٨) انظر : Newberry Garstang, History, 20 (from unpublished evidence ?)

الرسمى (٩) • أما اسم الملك الشخصى فيكتب مسبوقا برسم النحلة هما العقاب (وهو رمز نخبت معبودة مدينة الكاب عاصمة الوجه القبلى) هذين القطرين قد خضعا له • ويصحب هذه الرموز غالبا رمزان آخران هما العقاب (وهو رمز نخبت معبودة مدينة الكاب عاصمة الوجه القبلى) والصل (حية الكوبرا) (رمز بوتو (واجيت) معبودة عاصمة الوجه البحرى) • ويشاهد النسر على رءوس التماثيل لملوك تلك الأزمنة مرفرفا بجناحيه ليحميهم من الأذى • ثم أخذت الملوك بمرور الزمن تضع فوق الجباه صلا (معبود المملكة البحرية) مشيرين بذلك الى بسط نفوذهم على الدلتا • ويرسم أحيانا المعبود ست مع المعبود حورس قبل اسم الملك الشخصى اشارة الى ضم القطر المصرى تحت معبودى وجهيه البحرى والقبلى • وجرت العادة أن يتوج الملك أحد تاجى الوجهين ويطلق عليه اسم «صاحب السيادتين»•ومنه يتضح أن قدماء المصريين لم يجدوا وسيلة للدلالة على حكم ملوكهم لقطرى مصر الا اتبعوها • وقد عثر على ألواح حجرية بها رسوم تمثل بعض الملوك مشتركين فى احتفالات رسمية يتقدمهم أربعة أشـــخاص حاملين الأعلام أما الملك فيصحبه فى هذه الاحتفالات مستشاره وخادمه الشخصى أو أحد كتابه أو اثنان من حاملى المراوح • ويشاهد جلالته أحيانا متوجا تاج مصر العليا أو السفلى أو التاج المزدوج • أما الزى الملكى فهو رداء يثبت فوق الكتف وينتهى من الخلف بذيل أسد • بهذه الكيفية احتفل الملوك بانتصاراتهم الحربية أو بحفر الترع (لوحة ١٥) أو تشييد العمائر العامة • وجرت العادة أن يحتفل الملك احتفالا عظيما بمرور ثلاثين عاما على جلوسه فوق العرش وأن يعرف هذا الاحتفال باسم سد أى الذنب ، اشارة على الأرجح الى مرور تلك المدة على ارتدائه الثوب ذا الذنب • واشتهر ملوك تلك العصور بالصيد وبرعوا فيه وباهوا بصيد جاموس البحر واستعملوا لذلك الأسلحة الثمينة المتقنة كما سترى بعد • وأطلق على القصور أسماء مخصوصة وأحيطت بالبساتين اليانعة والكروم الكثيرة المختلفة الأسماء وتعهد خدمتها ومحصولاتها موظفون أخصائيون • أما أثاث هذه القصور فكان غاية فى الأبهة والجمال وسلامة الذوق فمنه الأوانى البديعة المتقنة المصنوعة من أحجار ذات عشرين نوعا ومن أهمها المرمر (لوحة ١١) • ولم تعق القوم صلابة بعض الأحجار كالصوان فصنعوا منها الأوانى الشفافة التى تأخذ بالألباب وقد عثرنا على أوان عديدة مصنوعة من أحجار بلورية غاية فى الجمال • أما صناعة الخزف فانحطت عما بلغته

---

(٩) المستطيل يمثل القصر الملكى فى واقع الأمر وفى أسفله رسوم لمجموعة من الأبواب تؤدى اليه ومن البدهى أنه لا علاقة للملك الحى بالأبواب الوهمية التى تتصل بعقيدة الحياة الاخروية ـ (المحقق) •

قبل حكم الأسر لكثرة استعمال الأحجار فى صنع الأوانى وغيرها · وعثر على صناديق صغيرة من الأبنوس والعاج وبعض المقاعد ذات الأرجل العاجية المصنوعة على مثال أرجل الثيران (لوحة ١٢) · وكفى بما ذكرناه دليلا على تقدم عظيم فى مصنوعات ذلك العصر · أما الأثاث الهش فبلى معظمه · والمعروف أن أهل ذلك العصر برعوا فى تلميع الأوانى الخزفية ونجحوا فى ترصيع ألواح الحلى الحجرية والعاجية وصناعة الأوانى والطاسات والأباريق النحاسية للقصر الملكى (لوحة ١٣) وكذا الآلات النحاسية العديدة التى ساعدت الصناع كثيرا على اتقان الأوانى الحجرية · وبلغت الصياغة شأوا عظيما من حيث سلامة الذوق وبراعة الاتقان كما هو ظاهر فى حلى الملك ونساء الأسرة الملكية حيث تشاهد جمال الصنع وكثرة الترصيع بالأحجار الكريمة (لوحة ١٠) و (لوحة ١٤) (١٠) بشكل يحاكى أعمال صاغتنا الحديثين · أما المصنوعات اليدوية فتقدمت كثيرا لأن فنى الحفر والرسم تحسنا بعد ما كانا فى مبدئهما قبل الأسر فظهرت الرسوم البارزة البديعة والتماثيل الجميلة التى تشهد لصانعيها بالمهارة والاجتهاد ·

وعثر فى معبد حورس بمدينة الكاب على ألواح حجرية للزينة وصولجانات وأوان بارزة النقوش أهداها الملوك وقتئذ الى المعابد تتجسم فيها مهارة الصانع وطول باعه (لوحة ١٦) (١١) وبالامعان فى صور الحيوانات والآدميين من رسم تلك العصور تتضح لنا مهارة هؤلاء القوم فى الرسم ودرجة رقيهم التى بلغوها فيه والتى تمرنوا عليها عدة سنوات · ولما حكمت الأسرة الثالثة أخذت المصنوعات المصرية تتحسن على مرور الزمن فنجم عن ذلك أن تقيدت حرية الصانع فى فنه حتى اضطر أن يتبع فى ذلك أسلوبا واحدا لا يحيد عنه · ويشاهد هذا الأسلوب الفنى فى تماثيل الملك خع سخم التى روعيت فى صناعتها هيئة الجلوس وسحنات الوجه وهى نقطة فنية احتذيت فى التصوير بعد ذلك (لوحة ١٧ و ١٨) ·

---

(١٠) الدمالج المرسومة فى شكل ١٨ مصنوعة من الذهب المطعم بالجمشت والفيروز ويلاحظ فى الدملج العلوى رسم وردة من الذهب بديعة للغاية · ولم نهتد للآن الى فائدة القوس الذهبى الوارد رسمه فى شكل ١٣ ·

(١١) يشاهد فى شكل ١٩ رسم وجهى أكبر هذه الألواح الأردوازية · ففى الصف الأول بالصورة اليسرى يشاهد الملك متبوعا بحامل نعليه ومسبوقا بأربعة من حملة الاعلام وبوزيره وهم يتفقدون رؤوس الأسرى المقطوعة · أما الصف الأوسط فيحوى رسمين لحيوانين خياليين لا ندرى كنههما · وأما الصف الأسفل فيحوى رسما للملك على شكل ثور يحطم مدينة مسورة ويدوس عدوه · ويشاهد فى الصورة اليمنى الملك وهو يحطم رأس عدو له بالمقمعة · ثم رسم صقر (الملك) قابضا باحدى ذراعيه على اشارة الوجه البحرى الحاوية رأس انسان موثوق الفم · ويلاحظ أسفل الصورة رسم الأسرى ساقطين ·

ويرجع الفضل في اظهار معظم آثار تلك الأزمنة القديمة الى الأستاذ فلندرز بترى الذى قام بعدة مباحث جهة العرابة بذمة شريفة وهمة صادقة فكشف مقابر ملوك الأسرتين الأوليين · وبفحص هذه المقابر اتضح لنا أن هندسة العمارة تقدمت كثيرا فاخذت المقابر شكلا مستطيلا وكبرت في الحجم وكسيت أرضها باللبن ثم غطيت بعد ذلك بطبقة خشبية · وأحجم القوم عن وضع أواني الغذاء والشراب حول الجثة فشيدوا لذلك حجرا صغيرة مجاورة ومتصلة بحجرة الميت · ومن دواعي الأسف أننا لم نعثر على جثث تلك الأزمنة لعبث اللصوص بها (لوحة ١٩) و (لوحة ٢١) · لكنا وجدنا بالجهة الشرقية لمقابر العرابة الملكية شاهدين طويلين كتب عليهما اسما ملكين مدفونين هناك · ويوجد على أحد جانبي الغرفة الوسطى بهذه المقابر سلم مبنى باللبن يوصل الى الخارج (لوحة ٢٠) · وجرت العادة أن تدفن مع الملك حاجاته من الأثاث المزخرف والأواني الثمينة والخوابي والدنان والأوعية والأباريق المعدنية وأدوات الزينة الشخصية وغير ذلك مما يقتضيه المقام الملكي في الآخرة · واستعملت الحجر الصغيرة المحيطة بلحد الجثة لتخزين كل ما يحتاج اليه المتوفى من غذاء وخمر في أوان خزفية كبيرة مسدودة بصمامات محكمة من طين النيل الممزوج بالقش والمختوم وقت رطوبته باسم الملك وعنوان المصنع · واعتاد الملوك أن يقفوا جزءا كبيرا من مزارعهم لشراء غذاء ونبيذ وقرابين تقدم لهم بعد الوفاة على موائد القبور كي يأكلوا منها هم وأهلهم وأتباعهم المدفونون حولهم والبالغون أحيانا مائة أو مائتين · وكان المتبع وقتئذ أن يدفن في جوار الملك أقرانه الدنيويون كزوجته وحرسه حتى مضحكه القزم ظنا منهم أن هؤلاء سيقومون بخدمة سيدهم في الآخرة كما فعلوا في دنياهم · هكذا صار نظام المقابر الملكية من قديم الزمان وهو كما لا يخفى مقام على أساس ضمان النعيم الأخروى ·

ورغب القوم في الاحتفاظ بمسكن أبدى لرفات ملوكهم فأثر ذلك كثيرا في فن العمارة فمقابر الأسرة الأولى تثبت استعمال الجرانيت بلاطا ويشاهد ذلك بأرض مقبرة الملك يوسفايس (١٢) · وفي نهاية الأسرة الثانية استعمل الحجر الجيرى المنحوت في تشييد الحجرة الوسطى من مدفن الملك خع سخموى ولذلك اعتبرت هذه الغرفة أقدم بنـاء حجرى معروف للآن (لوحة ٢٢) · وورد في الاثار أن سلف هذا الملك (ويرجح أنه والده) شيد معبدا حجريا وقد عثرنا على عضادة باب من الجرانيت لمعبد بمدينة الكاب شيده الملك خع سخموى ومنه يتضح أن فني الهندسة

(١٢) دن أو أديمو ـ (المحقق) ·

والعمارة بلغا فى تلك العصور درجة عظيمة · وجاء فى الآثار أن القصر الملكى خصص لعمارته مهندسون عديدون ولكننا لا نزال نجهل الكثير عن ذلك لضآلة آثار تلك العصور ·

وكان مستشار الملك أعظم مساعد له فى الحكم فرسم عادة تابعا له فى الاحتفالات الرسمية كما ألمعنا سابقا · وكان للحكومة موظفون عديدون على اتصال بالقصر الملكى بمدينتى (بى) و (نخن) بالوجهين البحرى والقبلى عهد اليهم فى حفظ العدالة والنظام فى الدولة · وشغل الأمراء فيما بعد هذه الوظائف وسيأتى الكلام على ذلك · واستدل من أختام الموظفين على سدادات أوانى المقابر ومن قائمة حساب أحد الكهنة التى وجدت بمقابر العرابة الملكية أنه كان هناك موظفون ملكيون مهمتهم الاشراف على مصروفات الموتى · وكثيرا ما يشاهد هذا التدقيق والاعتناء فى أوقاف مقابر المصريين ومنه استدل على شدة المراقبة المالية على خيرات وقرابين الموتى وقتئذ · ووجد بأختام تلك القرابين ما يشير الى وجود عدة ادارات « كادارة التموين » غرضها الأول التأكد من صحة توزيع الأوقاف الخيرية بالطرق المشروعة · ولما كانت مالية الدولة المصرية تتكون من مالية الوجه البحرى المعروفة « بالبيت الأحمر » ومالية الوجه القبلى المسماة « بالبيت الأبيض » ، فان الباحث يجد بين النقوش الملكية ما يشير مثلا الى « حديقة البيت الأحمر من الأملاك الملكية » · والظاهر أن ضم الوجه البحرى للقبلى وأتبعت « للبيت الأبيض » فأصبح هذا الأخير فى ذلك الوقت مركز البلاد كان تحت اشراف الملك مباشرة · ثم أبطلت ادارة « البيت الأحمر » المالى الحقيقى · أما مالية الوجه البحرى فكانت تذكر على الآثار اسميا من قبيل الرسميات فقط · ومنه يستنتج أن ضم الوجه البحرى تحت ادارة الوجه القبلى كان متعذرا فى بادىء الأمر على الملك مينا وأن ذلك تطلب مدة طويلة · واعتبر القوم ملكهم صاحب الحق المطلق فى التصرف بأراضى الدولة المصرية ، لذلك كان يقسمها ويوزعها على الأمراء ليشرفوا عليها ويديروا أعمالها كما كانت الحال فى العصور التالية لكننا لا نزال نجهل نوع السلطة التى منحت لهؤلاء الأمراء · والمظنون أن معظم أهالى تلك المقاطعات (عدا الصناع والتجار) اعتبروا عبيدا للأمراء يعيشون فى مدن مسورة باللبن الثقيل ويخضعون لأوامر رؤسائهم · وأهم مدن ذاك الوقت الكاب وبوتو وضاحيتاهما نخن المعروفة عند اليونان باسم (Hieraconpolis) و (بى) وكذا مدينة الحائط الأبيض المعروفة فيما بعد بمنف ومدينة طينه (Thinis) مسقط رأس ملوك الأسرتين الأوليين ثم العرابة ومدينة عين شمس واهناسيا وهى المعروفة باسم (Heracleopolis) وصا الحجر (سايس) وغيرها من المدن أخذت تزداد فى الأهمية منذ حكم الأسرة الثالثة ·

وجرت العادة أن يقوم موظفو الحكومة الماليون باحصاء عام للأملاك الفرعونية كافة كل سنتين وأن ينخذ هـذا الاحصـاء وسـيلة لتوقيت الحوادث فكان يقال مثلا ان حادثة كذا وكذا حصلت في « سنة الاحصاء الأول » أو في « السنة التالية للاحصاء الأول » أو « سنة الاحصاء الثاني » وهكذا على حسب ما تقتضيه الحال ٠ واعتاد المصريون أن ينسبوا شؤونهم الى وقت معين ذي حوادث هامة كسنة قتال الأعناد المعروفين عند الأثريين باسم (Troglodytes) وهذه القبائل سحقت اثر قتالهم مع المصريين ٠ ولما كان الاحصاء يعمل سنويا سهل على القوم توقيت شؤونهم بالنسبة اليه ٠ أما الأعمال التجارية والمالية فكانت تصفى كل شهر بحساب الشهر القمري رغم عدم استعمال السنة القمرية في الشؤون الرسمية ٠ ولا يخفى أن مثل هذا النظام الاداري استلزم تدوين كل كبيرة وصغيرة فلا عجب اذا بلغ الخط الهيروغليفي وقتئذ درجة كبيرة من حيث الدقة والاتقان ، وقد اختزل هذا الخط يسيرا فسهل تداوله بين الكتاب (شكل ٢١) ٠ ورغما عما يحتويه الخط الهيروغليفي من الحروف المركبة فهو يحوي أيضا حروفا هجائية بسيطة ٠ والفضل في كشف حروف الهجاء يرجع الى قدماء المصريين الذين توصلوا الى معرفتها منذ نحو ألفين وخمسمائة سنة قبل سائر الأمم ٠ ولما كان المصري بطبيعته شديد التعلق بالعادات ثابر على استعمال الحروف الهيروغليفية المركبة على الرغم من وجود أربعة وعشرين حرفا هجائيا لذلك الخط ومرور ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة على كشف هذه الحروف ٠ والحق يقال ان ترجمة نصوص تلك العصور ليست بالأمر الهين لأننا ما نزال نجهل معنى معظمها ٠ وقد دون أبناء ذلك الوقت بعض معلومات طبية ودينية صار لها فيما بعد تأثير عظيم عند العامة وسجلوا أيضا حوادث تلك العصور باختصار في كل سنة الى آخر أيام كل ملك ٠ لكننا لم نعثر الا على صورة واحدة من تلك السجلات مدونة على حجر أثري يعرف بحجر بالرمو نسبة الى دار التحف بمدينة بالرمو المحفوظ بها)(١٣)٠

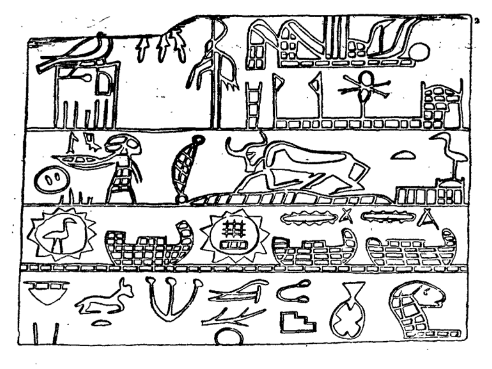
ولما كانت معلوماتنا عن العقائد الدينية لأبناء تلك العصور لا تذكر لقلتها أصبحت معارفنا مقصورة على ديانة الحكومة وقتئذ ومن دواعي الأسف أنه لم يصل الينا الا النادر من عقائد الأهالي في زمن الأسر التالية لعدم اعتناء القوم بتدوينها تدوينا ثابتا ٠ والمعروف أن معبد الملك مينا

---

(١٣) أوردنا (بلوحة ٢٤) صورة لمقدم هذا الحجر ومنها يتضح أن النصوص الواردة بعد السطر الأول تقع في اشـكال كل مستطيل يمثل سنة ٠ ويرى أعلى كل سطر اسم الملك الذي يخصه صف السنوات المذكورة أما مقـدم الحجر فيحوي تواريخ ملوك مصر قبل عهد الأسر (السطر الأعلى) وملوك الأسر الاولى والثانية والثالثة ٠ واما المؤخر فيحـوي تواريخ الملوك حتى الأسرة الخامسة ٠

الرسمى كان بسيط التركيب مكونا من حجرة خشبية لاقامة شعائر الدين يحيط بها حاجز من الحصر (شكل ٤) ، وكان للمعبد حوش ينصب فيه سار تعلوه شارة المعبود · ثم ساريان يظن أنهما أصل المسلات التى شيدت فى الأزمنة التالية أمام المعابد · وفى النصف الأخير من حكم الأسرة الثانية شيد الملوك معابدهم بالحجر وسجلوا على آثارهم اهتمامهم بتلك المعابد وشدة عنايتهم باقامتها ووضع أساسها وتخطيطها · أما آلهة ذلك الوقت فأهمها أزوريس وست حورس وأنوبيس وتحوت وسوكار ومن وآبيس (أحد أشكال بتاح) · وأما الالهات فأهمها حاتحور ونيت · وبقيت منزلة هؤلاء الآلهة شامخة فى نفوس القوم حتى العصور التالية · وترجع عبادة بعض هذه الآلهة مثل حورس الى ما قبل عهد الأسر الفرعونية وتكوين مملكتى الوجه البحرى والقبلى · وحورس أكبر الآلهة مقاما وشأنا عند المصريين أيام الأسر الأولى وقبلها ، ويليه فى المنزلة المعبود رع · وكان لحورس جهة الكاب معبـد له روعة يقيمون فيه كل سنتين احتفالا عظيما يعرف « بتقديس حورس » ورد ذكره فى النصوص الملكية (لوحة ٢٤) واستمرت عبـادة حورس مدى التاريخ فلقب الفراعنة أنفسهم « خلفـاء حورس » مدة حـكم العهـد الطينى · لكن لما تولت الأسرة الثالثة المنفية انحطت عبادة حورس وأهملت · أما كهنة تلك العصور فكانوا عمالا وفعلة مقسمة الى أربع درجات واستمروا كذلك الى العصور التالية ·

وكانت مدة حكم الأسرتين الأوليين التى تقرب من أربعمائة سـنة مقرونة بنمو مطرد فى قوة المملكة الداخلية وحضارتها · وللآن لم نعلم شيئا عن تاريخ الملوك السبعة الذين خلفوا مينا فى الحكم لمدة مائتى سنة تقريبا الا ما يخص اثنين هما ميبيس ويوسفايس وكذا بعض آثار لاثنى عشر ملكا من بين الثمانية عشر ملكا الذين حكموا تلك المدة وكان هم هؤلاء الملوك ارضاء الوجه البحرى والاحتيال على ضمه نهائيا للصعيد · لكن هذا الأمر لم يكن بالهين فقد ألمعنا سابقا الى أن هذين الوجهين كانا فى الحقيقة مستقلين استقلالا داخليا تحت اشراف ملك الوجه القبلى · بعد ذلك أخذ الملوك يحتفلون بتتويجهم بعيد « ضم الأرضين » (أى الوجهين البحرى والقبلى) وأطلقوا هذا الاسم على السنة الأولى من حكم كل منهم · ومع ذلك فلم يتمكنوا من اقناع الأمة بهذا الضم بسرعة لحداثته فى الأذهان وقتئذ ولهذا السبب شق الوجه البحرى عصا الطاعة على الوجه القبلى مرارا ، مثال ذلك ما ورد على الآثار من أن الملك نعرمر الذى يرجع تاريخه غالبا الى مبدأ حكم الأسر شن الغارة على الليبيين غربى الدلتا وأسر منهم حوالى مائة وعشرين ألف نسمة عدا مليون وأربعمائة وعشرين ألفا من الأغنام وأربعمائة ألف من البهائم · وكانت هذه الغارة بمثابة طرد عام



شكل (٤)

لوح من العاج للملك مينا أول ملوك الأسرة الأولى وجد بالعرابة يرجع تاريخه الى حوالى سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد ، تشاهد عليه نقوش تعتبر من اقدم النقوش الهيروغليفية المعروفة للآن · وهو مقسم الى أربعة اقسام : فالقسم العلوى يحوى فى طرفه الأيسر رسم الصقر الملكى الخاص بالملك مينا وفى طرفه الأيمن رسم معبد منصوب فى حوشه رمز المعبودة نيت وتعلو هذا الرسم سفينة · أما القسم الثانى فيشاهد فى طرفه الأيسر الملك مرسوما قابضا على وعاء مميز باسم « مزيج الذهب والفضة » ومقدما القرابين أربع مرات ويشاهد فى الطرف الأيمن رسم ثور داخل حوش يعلو أحد أطرافه طائر (الفنيكس) · والقسم الثالث يحوى رسم النيل تمخر فيه السفن وتشرف عليه المدن وتعترض مجراه الجزر · والقسم الرابع يحوى رسوما هيروغليفية قديمة غير مفهومة ·

لهم . وعثر أيضـــا بمعبد مدينة الكاب على لوح أردوازى لهذا الملك (لوحة ١٦) مصحوب برأس صولجان بديع الصنع مرسوم عليه احتفالات فى مصر قام بها الملك . وورد أيضا على الآثار أن الملك نتريمو حارب مدينة « شمرع » ومدينة « بيت الشمال » الموجودتين بالوجه البحرى . وجاء أيضا أن الملك خع سخم من الأسرة الثانية حارب الوجه البحرى فى سنة سماها « عام حرب وقصاص الوجه البحرى » أسر فيها حوالى سبعة وأربعين ألفا رمائتين وتسعة أسرى ودون ذلك فى معبد حورس بمدينة الكاب حيث قدم اناء مرمريا (١٤) نقش عليه اسمه الملكى واسم ذاك العام وكذا تمثالين بديعين له سجل عليهما عدد أسراه (١٥) (لوحتى ١٧ و ١٨) . بعد ذلك ورد فى الآثار الدينية أن الوجهين البحرى والقبلى اتفقا نهائيا أمام المعبود أزوريس (١٦) .

ورغما عما أصاب مالية الوجـه البحرى من النقص والضعف اثر حملات الوجه القبلى فان موارد القطر عامة زادت وتقدمت بدليل زيادة الأوقاف الملكية وكثرة المعابد والقصور والقلاع والاحتفالات بحفر الترع (لوحة ١٥) واقامة أسوار للمدن كمنف . كل ذلك يثبت بلا مراء ما بلغه القطر من الرقى العظيم فى الهندســة والادارة . ولا يخفى أن المصريين أول من زاول التعدين اذ ورد على الآثار أن الملك سمرخت (١٧) الذى يرجع تاريخه (غالبا) الى الأسرة الأولى أوفد بعثة لاستخراج النحاس من مناجمه بوادى مغارة بشبه جزيرة طور سيناء ، رغما عن أخطار البدو المتوحشين التى اعترضت تلك المشاريع وقد أخبرنا الملك المذكور أنه عاقب هؤلاء البدو وأثبت ذلك على صخور وادى مغارة (شكل ٥) (١٩) واستدل من نقوش قطع عاجية أن الملك (دن) من الأسرة الأولى، أغار على سكان وادى مغارة المذكور وانتصر عليهم انتصارا باهرا ورسم نفسه قاتلا أحد أبناء تلك الجهة الملقب (بشرقى) جاثيا على ركبتيه (لوحة ٢٣) . ومما جاء فى هذا اللوح أن هذه الغزوة أول غزوة للشرقيين ومنها فهم ضمنا أن هذه الغارة تكررت فى عهد فرعون وأن الملك دن انتظر القيام بغزوة ثانية .

---

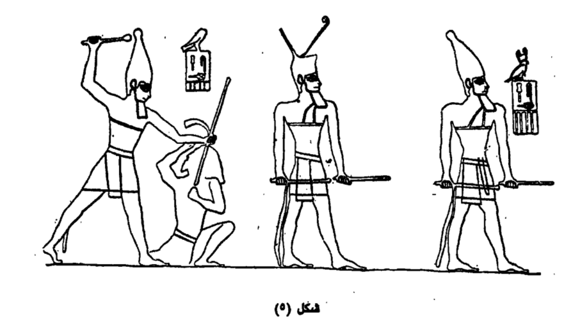
(١٤) انظر : Hierac. I, pl. XXXVI-VII. .

(١٥) انظر : Ibid., pl. XXIX-XLI. .

(١٦) انظر : Louvre Stela C, 2. .

(١٧) تبين فيما بعد أن صاحب النقش هو الملك سخم خت (من الأسرة الثالثة) الذى ظل تاريخه مجهولا حتى اكتشف المرحوم زكريا غنيم هرمه فى سقارة فى الخمسينات — (المحقق) .

(١٨) Weill, Rev. Arch., 1903 II, p. 231, and Recueil des Inscr Egypt du Sinai, p. 96.



شكل (٥)

الملك سخم خت من الأسرة الثالثة يهاجم « بدويا » من طور سيناء · وجدت هذه النقوش محفورة على صخور وادى مغارة وهى اقدم آثار تلك الجهة واقدم الرسوم الكبيرة المعروفة للآن ·

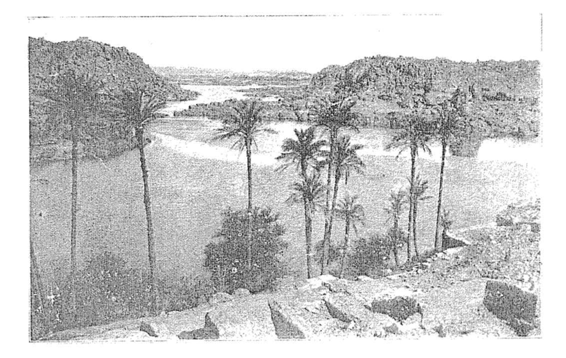
ووجد على نقوش حجر بالرمو (١٩) ما يشير الى أن الملك مايبيس (Miebis) من الأسرة الأولى شن الغارة على أهالى سكان تلك الجهات المعروفين لدى الأثريين باسم (Troglodytes) ولم يقتصر نفوذ الأسرة الأولى على طور سيناء بل تعداه بدليل ما وجد فى مقابر هؤلاء القوم من أجزاء أوان خزفية أجنبية كثيرة الشبه بمصنوعات جزر البحر الأبيض المتوسط ٠ فلو صح أن هذه الأوانى صنعت حقيقة وقت دفن هؤلاء الملوك لثبت أن العلاقات التجارية بلغت أرخبيل اليونان فى الألف الرابعة قبل الميلاد ٠ ورغما عما قام به ملوك الأسرة الأولى من الغزوات الشرقية والتجارة الشمالية فقد وردت نقوش على أسطوانة من العاج (٢٠) تفيد أن الملك نعرمر اضطر أن يغزو الليبيين القاطنين غربى مصر كما ذكرنا سابقا ٠ ووجد ما يدل على أن الملك دن شن الغارة على سكان جنوبى الصحراء الشرقية لبسط الأمن فى تلك الجهة كى يتمكن من استخراج الجرانيت من محاجرها ليبلط احدى حجر قبره بالعرابة ٠

هكذا أسس الفراعنة الطينيون بناء المملكة المصرية ورقوا أخلاقها ومدنيتها ورغما عن قلة آثارهم فان أعمال ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة كافية لاثبات ما بلغته حالة البلاد الاقتصادية من العظم والقوة مدة حكمهم ٠ وقد كشف الى الآن فى جهة العرابة تسع مقابر لملوك هاتين الأسرتين ، ومنها لاحظنا أنه بعد انقضاء نحو ألف سنة على دفنهم نسى القوم تاريخ تلك المقابر وتفرسوا فى مقبرة جر أحد ملوك الأسرة الأولى فظنوها مقبرة أزوريس لذلك وجدت أوان كثيرة بتلك المقبرة قدمها القوم هدايا وقربانا الى المعبود أزوريس ٠ ومن دواعى الأسف أن موميـاوات هؤلاء الملوك انتشلها لصوص شرهون بتروا أعضاءها كى يحصلوا على مصاغها وأحجارها الكريمة ٠ وكل ما وصل الينا منها هو ذراع جافة لزوجة الملك جر وجدت بحفرة داخل حائط قبرها حيث أخفاها أحد اللصـوص وقت ارتكاب الجريمة قصد انتشالها فيما بعد فى الوقت المناسب ٠ ووجد على هذه الذراع حلى بديع وأثواب جميلة تكسوها (لوحة ١٤) ولا يبعد أن سارق هذه الذراع اتضح أمره وقتئذ فأعدم لذلك وبقيت الذراع شاهدة على جنايته الشنيعة ٠ والفضل فى العثور على هذا العضو يرجع الى الأستاذ بترى الذى وجده بمساعدة عماله المهرة عام ١٩٠٢ ميلادية ٠

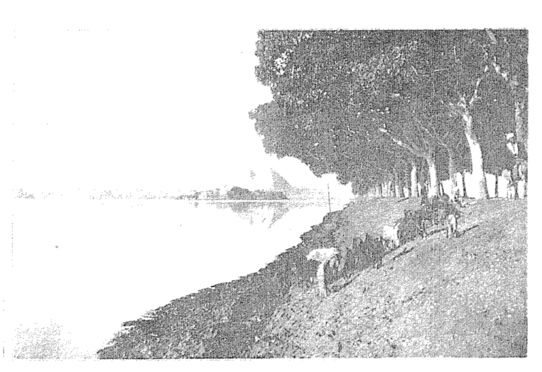
---

(١٩) انظر : I, 104. ٠

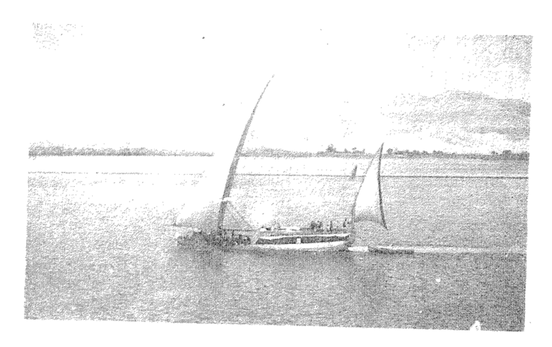
(٢٠) انظر : Hierac. I, pl. XV. No. 7. ٠



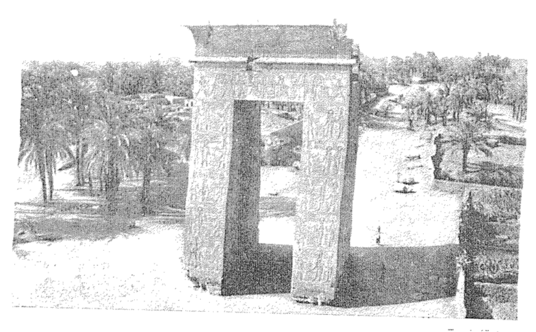
لوحة ١ ـ منظراً لأحد مجاري الشلال الأول مأخوذ بآلة التصوير الشمسية من جزيرة فيلة في اتجاه الشمال، وتشاهد أسفل الصورة بعض الآثار.



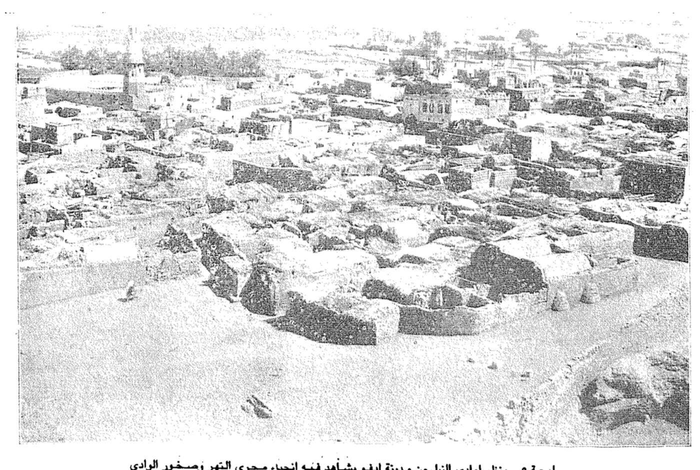
لوحة ٢ ـ فيضان النيل كما يشاهد من طريق أهرام الجيزة. ويري الطريق المذكور إلي اليمين والأهرام المشيدة فوق الهضبة الصحراوية وكفر «نزلة السمان» أسفل الأهرام.



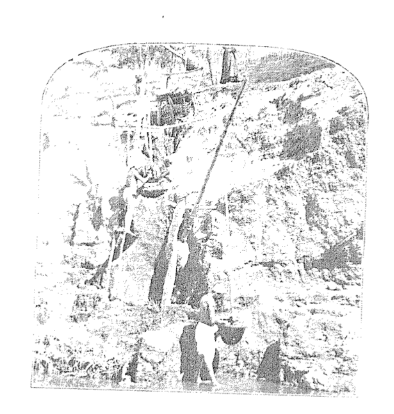
لوحة ٣ ـ منظر للنيل والصخور غربي طيبة (الأقصر) وفيه يشاهد ساحل النيل الوطئ الواصل إلي تلك الصخور.



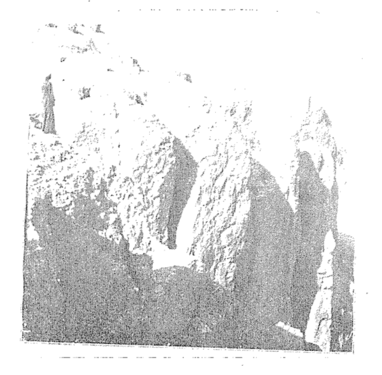
لوحة ٤ ـ أكواخ الأهالي وأدغال النخيل بجوار الكرنك بطيبة كما تشاهد من سقف معبد خونسو ويري وسط الصورة صرح بطليموس الثالث (افرجيت) الذي حكم القطر من سنة ٢٤٧ إلي سنة ٢٢٢ قبل الميلاد. ويبتدئ من هذا الصرح شارع كبير مقامة علي جانبيه تماثيل كباش شيدها امنحتب الثالث، ويصل هذا الشارع معبد الكرنك بمعبد الأقصر.



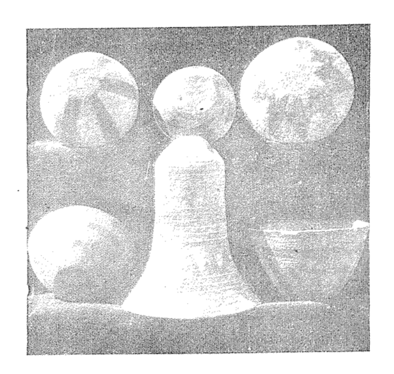
لوحة ٥ ـ منظر لوادي النيل من مدينة ادفو يشاهد فيه انحناء مجري النهر وصخور الوادي الغربية.



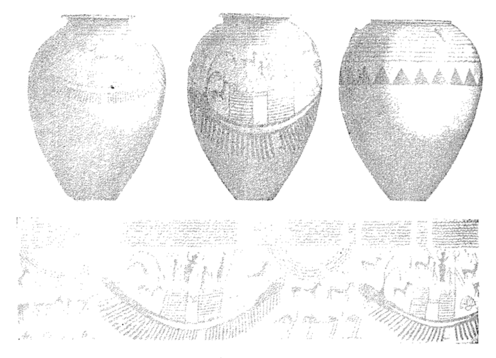
لوحة ٦ ـ ثلاثة شواديف مستعملة لرى الأراضى.



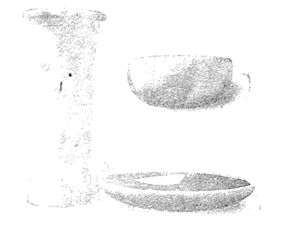
لوحة ٧ ـ صخور وادى النيل غربى طيبة ويشاهد أمامها الوُادى .



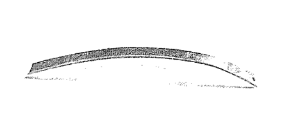
لوحة ٨ ـ أوان خزفية منقوشة يرجع تاريخها إلى عهد سابق لحكم الاسر (مأخوذة عن بترى).



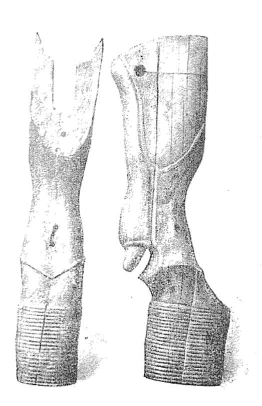
لوحة ٩ ـ أوان خزفية يرجع تاريخها إلى عهد سابق لحكم الاسر تشاهد عليها نقوش محفورة لسفن وحيوانات ورجال ونساء (مأخوذة عن دى مورجان).



لوحة ١١ ـ أوان مرمرية يرجع تاريخها إلى عهد الأسرة الأولى (مأخوذة عن بترى).



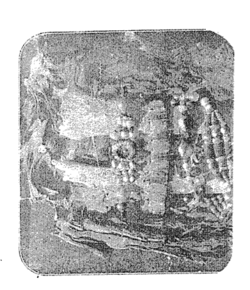
لوحة ١٠ ـ قضيب من الذهب منقوش عليه أسم الملك مينا (٣٤٠٠ قبل الميلاد) وهو أقدم حلى منقوش.



لوحة ١٢ ـ أرجل كراس مصنوعة من العاج المنحوت يرجع تاريخها إلى زمن الأسرة الأولى (دار تحف برلين) «المعروفة الآن دار تحف هاسكل»



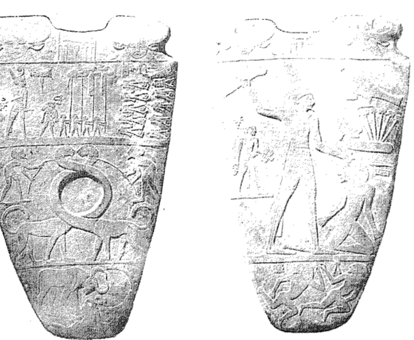
لوحة ١٣ ـ أوان نحاسية يرجع تاريخها إلى زمن الأسرة الأولى (مأخوذة عن بترى).



لوحة ١٤ ـ أربع أساور على ذراع سيدة يرجع تاريخها إلي زمن الأسرة الأولى عثر عليها الأستاذ بترى بجهة العرابة محفوظة الآن بدار تحف القاهرة.



لوحة ١٥ ـ احد ملوك الأسرة الأولى يشق الأرض احتفالاً بحفر قناة جديدة (مأخوذة عن المستر كويبل).



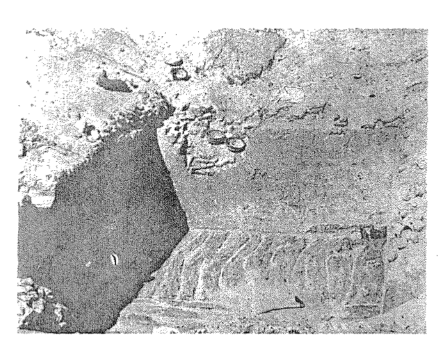
لوحة ١٦ ـ لوح بديع النقش يعرض فى الاحتفالات مصنوع من حجر الاردواز أهداه الملك نعرمر (من الأسرة الأولى) إلي معبد مدينة نخن (هيراكونبوليس) (مأخوذة عن كويبل).



لوحة ١٧ ـ صورتان شمسيتان لرأس تمثال الملك خع سخم مأخوذتان من ناحيتين مختلفتين. ويرجع تاريخ هذا الملك إلى زمن الأسرة الأولى (مأخوذة عن كويبل).



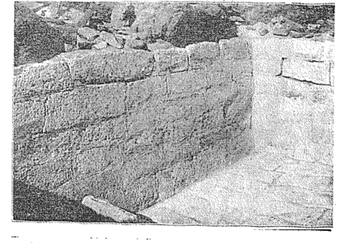
لوحة ١٨ ـ تمثال الملك خع سخم المصور رأسه في شكل ١٧.



لوحة ١٩ ـ حجرة قبر الملك عنخ ايب المغطى أرضها بالخشب والمشيد جدرها باللبن. موجودة بجهة العرابة المدفونة ويرجع تاريخها إلى الأسرة الأولى (مأخوذة عن بترى).



لوحة ٢٠ ـ قبر الملك دن المشيد باللبن بالعرابة المدفونة من الأسرة الأولى (مأخوذة عن بترى).



لوحة ٢٢ ـ اقدم بناء حجرى فى العالم. حجرة مشيدة بالطوب الجيرى بقبر الملك خع سخموى من الأسرة الثانية بجهة العرابة المدفونة (مأخوذة عن بترى).



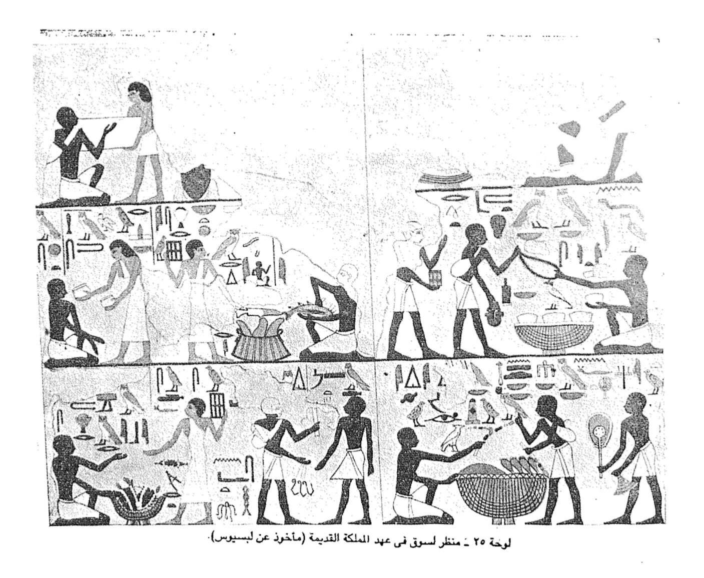
لوحة ٢١ ـ جرات مختومة لحفظ المآكل والمشرب وجدت بقبر مريت نيت من عهد الأسرة الأولى بجهة العرابة المدفونة (مأخوذة عن بترى).



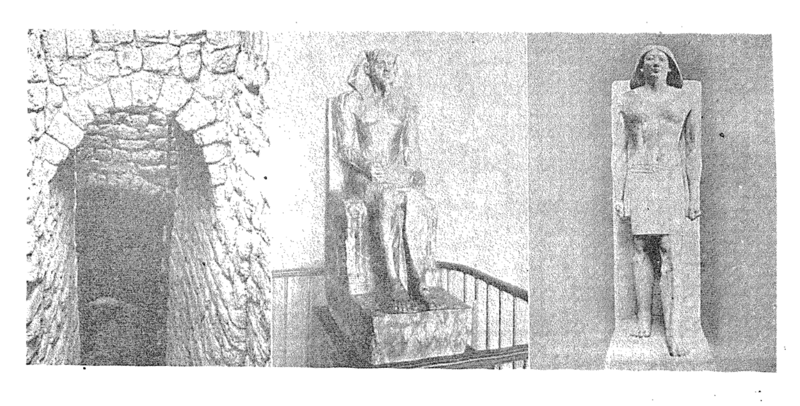
لوحة ٢٣ ـ لوح من العاج للملك دن يهاجم «شرقيا» من الأسرة الأولى (مجموعة اثار ماك جرجور).



لوحة ٢٤ ـ حجر بالرمو، منقوش عليه بعض تاريخ الملوك الأقدمين الذين يقع زمنهم قبل حكم الأسر الفرعونية ومنتصف حكم الأسرة الخامسة. ويرجع تاريخ هذا الأثر إلى منتصف الأسرة الخامسة.



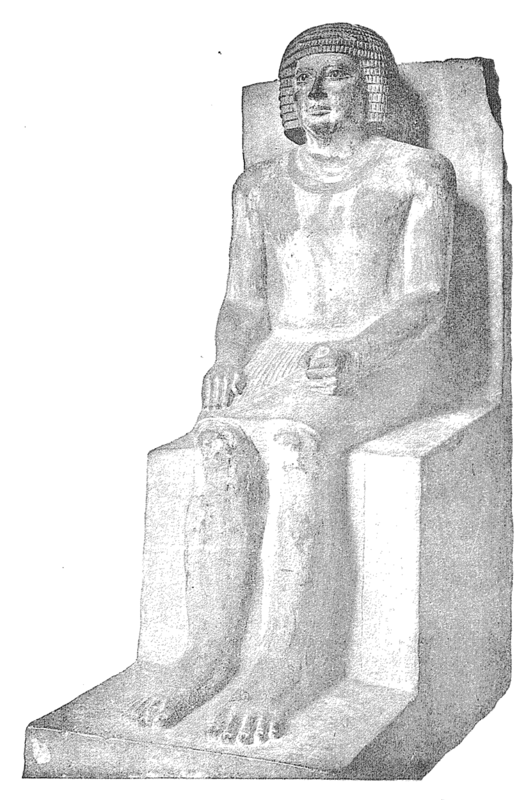
لوحة ٢٥ ـ منظر لسوق فى عهد المملكة القديمة (مأخوذ عن لبسيوس).



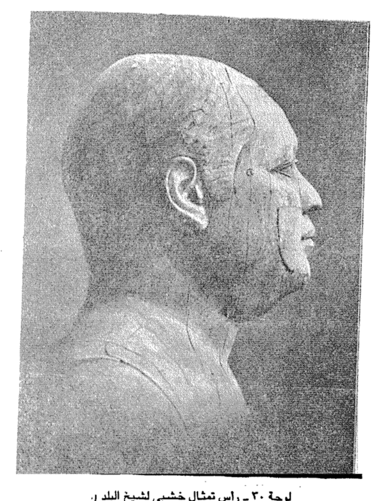
لوحة ٢٨ ـ تمثال لنبيل يقال له (رَعْ نُوفَر) مصنوع من الحجر الجيرى (دار تحف القاهرة).

لوحة ٢٧ ـ تمثال الملك خفرع مصنوع من الحجر الصوان (دار ـف القاهرة).

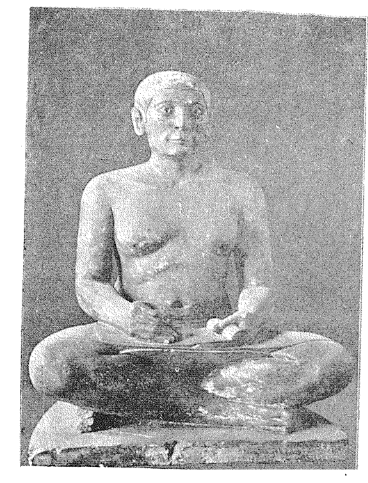
لوحة ٢٦ ـ عقد يرجع تاريخه إلى الأسرة الثالثة كشفه الأستاذ جارستانج فى قبر بجهة بيت الخلاف



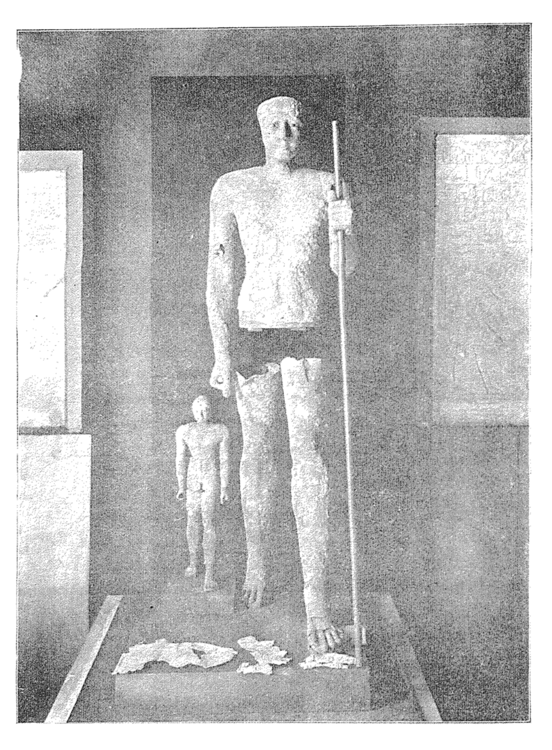
لوحة ٢٩ ـ تمثال لشخص يقال له (حم ست). (دار تحف اللوفر، مأخوذ عن كابلر).



لوحة ٣٠ ـ راس تمثال خشبى لشيخ البلد (.
تحف القاهرة).



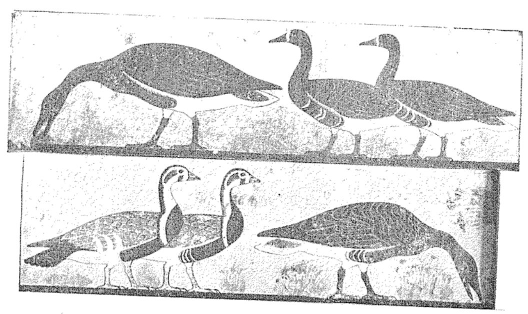
لوحة ٣١ ـ تمثال لكاتب من الحجر الجيرى من عهد الدولة القديمة
(دار تحف اللوفر).



لوحة ٣٢ ـ تمثالات للملك بيبي الأول وابنه يمثلانهما بحجمهما الطبيعي مصنوعان من النحاس المطرّق (دار تحف القاهرة).



لوحة ٢٣ ـ رأس تمثال الملك ببى الأول المصنوع من النحاس وعيناه يظهر أنهما مصنوعتان من البلور الصخرى (دار تحف القاهرة).



لوحة ٢٤ ـ رسم أوز مأخوذ من مقبرة بميدوم يرجع تاريخها إلى عهد الدولة القديمة. ويلاحظ للرسم قسمان أعلى وأسفل وهذان كانا أصلا متصلين بعضهما ببعض فى المسافة بين الأوزتين الآكلتين (دار تحف القاهرة).

الكتاب الثانى

الدولة القديمة

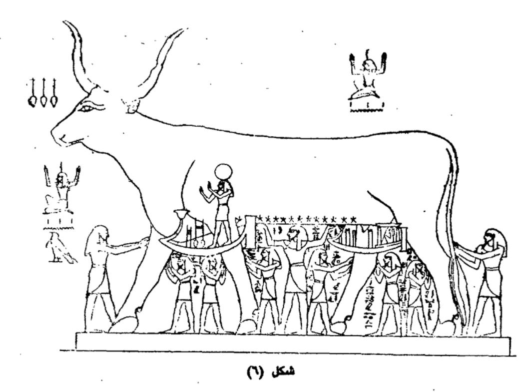
الفصل الرابع

الديانة القديمة

الدين أعظم العوامل تأثيرا فى نفوس قدماء الآدميين لأنه يفسر لهم سر هذا الكون بتعاليمه الجذابة ويردعهم بزواجره الرهيبة ويشجعهم بآماله المستديمة ويؤرخ لهم أوقاتهم بأعياده ويقدمهم فى الفنون والآداب والعلوم بارشادهم نحو الطريق المستقيم ٠ والمصرى القديم كغيره من الأقوام المعاصرين له رأى قوة آلهته مجسمة فيما حوله من المخلوقات كالأشجار والأعين والصخور والتلال والطيور والوحوش فاعتقد هذه الكائنات رموزا للقوة العجيبة والسلطة الخالقة البعيدة عن ادراكه والحال أنها مخلوقة مثله ٠ ثم نظر أيضا الى أرواح بعض هذه المخلوقات نظرة صديق فظنها مدافعة تدرأ عنه الأذى والضرر ٠ واعتقد أن أرواح البعض الآخر أعداء له تعمل لخداعه والكيد له وتتنسم الفرص للاضرار به وتوجيه الأمراض اليه ولذلك سهل عليه تأويل سبب كل ضرر يصيبه أو مرض يعتريه ٠ واعتقد أيضا أن كل مكان فى القطر المصرى تسكنه أرواح معينة معروفة من السهل ارضاؤها والانتفاع بمساعدتها بطرق سهلة ٠ وما أندر ما وصلنا عن هذه الاعتقادات أيام المملكة القديمة لكننا سنتكلم عنها يسيرا فى عهد الامبراطورية ٠ وليلاحظ أن المصرى لم يقتصر على اعتقاده وجود الأرواح على الأرض بل تخيلها أيضا فى السماء وفى الأرض ٠ ولما كانت المعيشة فى وادى النيل على نسق واحد بديعة المنظر أحيانا كانت تخيلات المصرى وقتئذ مقصورة عليها ٠ والمصرى بطبيعته بطىء التأثر بمحاسن الطبيعة على عكس اليونانى الذى أثرت فيه محاسن بلاده أعظم تأثير ٠ لذلك نرى أن بعض قدماء المصريين من الرعاة والزراع الذين يرجع تاريخهم الى مبدأ حكم الأسر تخيلوا السماء على شكل بقرة كبيرة قائمة فى الفلك على أرجلها الأربع متجهة الرأس نحو الغرب ، ثم تصوروا الأرض بين رجليها

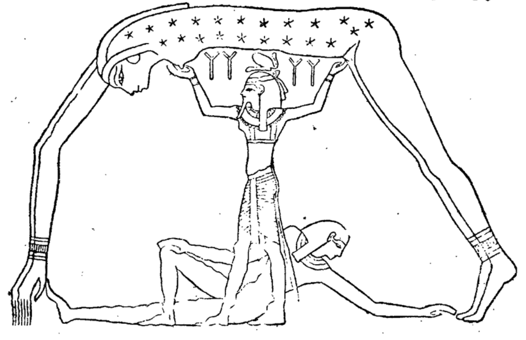
الأماميتين والخلفيتين واعتبروا السماء بطن البقرة مزدانة بالنجوم (شكل ٦) • وتخيل فريق آخر السماء على شكل امرأة منحنية الجسد مستندة الى الأرض شرقا بطرفي رجليها وغربا بطرفي يديها (شكل ٧) • وتراءى لطائفة اخرى أن السماء محيط مائي عظيم مرفوع فوق أربعة عمد في أركانه الأربعة • ولما اختلط الناس بعضهم ببعض تبادلوا الآراء فانبهمت عليهم حقيقة الأمر وصعب على الباحث الاهتداء الى الأصل • واعتقد الذين تخيلوا السماء بقرة أن الشمس تشرق بهيئة عجل واعتقد الذين تخيلوا السماء امرأة أن الشمس تشرق بشكل طفل مولود يجوب السماء في سفينة سماوية ميمما نحو الغرب، حيث يأفل بشكل رجل هرم موشك على الهلاك (شكل ٨) • ورأى البعض سرعة طيران النسر فأعجب به وتخيل للشمس جناحين مثله تطير بهما في الأفق ، لذلك صار قرص الشمس رمزا دينيا هاما •

أما الأرض – التي تنحصر في نظر المصريين الأقدمين في وادى النيل – فتخيلها القوم بشكل رجل منبسط على بطنه ينمو على ظهره النبات ويتحرك الحيوان ويعيش الانسان • والذين تخيلوا السماء محيطا مائيا تمخر فيه الشمس واللآلىء السماوية غربا تصوروها طريقا مائيا شبيها بالنيل واصلا طرفي المحيط السماوى الشرقي والغربي بعضهما ببعض مسهلا بذلك انتقال الشمس من الغرب الى الشرق • وتخيلوا أيضا أن هذا النيل الأسفل يخترق في سيره عدة مغارات ومفاوز ، وعرة وأنه يمد النيل الأرضي بالمياه اللازمة لحياة المصريين آتية من كهفين كبيرين جهة الشلال الأول • من ذلك يتضح أن أصحاب هذا المذهب اعتقدوا أن الدنيا تنتهى عند الشلال الأول حيث يبدأ اليم العظيم المتصل بالنيل جنوبا وبالبحر الأبيض المتوسط شمالا • من أجل ذلك لقبوا هذا المحيط « بالحلقة العظمى » • ولما سرى هذا الرأى الى اليونانيين أطلقوا على المحيط المذكور اسم أقيانوس (Okeanos) وهو لفظ يقابله بالانجليزية (Ocean) •
ويتلخص اعتقاد قدماء المصريين في منشأ معبوداتهم أن هذا الكون كان في ابتداء الأمر يما عظيما ثم ظهرت فوقه بيضة (في اعتقاد البعض) أو زهرة (في اعتقاد الآخرين) ومنها خرج المعبود الشمسى الذى ولد بعد ذلك أربعة آلهة هم : (شو) و (تفنوت) و (جب) و (نوت) • وعاش هؤلاء الآلهة الخمسة نائمين فوق المحيط مدة ثم توسط كل من شو وتفنوت (اللذين يمثلان الجو) بين جب ونوت ففصلاهما بعضهما عن بعض واطئين بقدميهما جب ورافعين بذراعيهما نوت فصارت نوت سماء وكب أرضا • ثم حملت نوت من كب وجاءت بأربعة آلهة وهم أزوريس وايزيس وست



شكل (٦)

البقرة الفلكية ٠ يسند اعضاءها عدة الهة ويرفعونها ٠ فى الوسط اله الهواء شو وقد تخيل المصريون بطن البقرة افقا ذا نجوم عديدة تجتازه سفينة رع الحاملة فى مقدمتها قرص الشمس ٠



شكل (٧) الهة السموات مثبتة فى جسمها النجوم يحملها معبود الهواء شو واسفلها معبود الارض الارض جب منحنيا يسيرا ٠

ونفتيس فأصبح جميع الآلهة مع عدد الشمس منهم تسعة . لذلك لقبوا بالتاسوع المقـدس وهو المعروف عند الافرنج باسـم (Ennead) . .
ويشاهد هذا التاسوع ممثلا بشكل من الأشكال في كل معبد من المعابد المصرية القديمة . ثم انتشرت فكرة التثليث بين المعبودات على توالي الزمن وأصبح لكل مكان بالقطـر ثالوث مقدس ركب منه بعـد ذلك تاسوع على الطريقة المعروفة آنفا . لكن تشعب الآراء عن مبدأ الخليقة لم يقتصر على ما ذكرناه بل تعداه بدليل ما ورد عن بعض المصريين أنهم اعتقدوا أن هذه الدنيا سكنها في بادىء الأمر أناس تحت سلطة المعبود رع . وطال حكم هذا المعبود فكبر وهرم فأخذ عبيده يكيدون له فسلط عليهم المعبودة حاتحور التي فتكت بهم فتكا ذريعا . لكن رع ندم على ذلك في آخـر الأمر فوقف المعبودة المذكورة عن الفتك بالخلق بحيلة ابتكرها بعد ما أفنت عددا عظيما من البشر . ثم ان البقرة السماوية رفعت المعبود رع فوق ظهرها فتخلى عن الدنيا الناكرة للجميل طالبـــا النعيم في الســـماء العـــلوية .

وزيادة على هذه الآلهة الأرضية والهوائية والسماوية تخيل المصري القديم آلهة أخرى ساكنة الدنيا السـفلي المظلمة ومسـيطرة على النيل الأسفل الذي يعبره قرص الشمس مبتدئا من الغرب ومنتهيا الى الشرق . واعتقد المصريون قديما أن أرواح الموتى تقطن هذه الدنيا السفلي محكومة بأزوريس . وأزوريس هذا معبود حكم الأرض بعد رع وساعدته ايزيس زوجته وأخته في الوقت نفسه فأحبه الخلق كثيرا لعدالته وشفقته ، لكن حكمه لم يدم طويلا لأن أخاه ست كاد له حتى قتله . فأجهدت ايزيس نفسها حتى أنقذت جثة أزوريس ثم حنطتها بمساعدة أنوبيس أحد آلهة الآخرة الذي يرسم دائما بشكل ابن آوى والمعتبر عند المصريين اله التحنيط . بعد ذلك تلت ايزيس كثيرا من التعاويذ السحرية القوية على جثة أزوريس فأحيتها ثانية وحركت أعضاءها ، الا أن أزوريس عجز عن استرجاع مركزه الدنيـوي فعكف على الآخرة محتـرما . في ذلك الوقت حملت ايزيس من أزوريس بابن سمته حورس ربته في الخفاء بين أعشاب مستنقعات الوجه البحري على أن يثأر لأبيه ، فلما بلغ رشده ناضل ست نضالا شديدا امتد من أول القطر الى آخره أصيب فيه كل منهما بجروح بليغة ، وانتهى القتال بانتصار حورس واعتلائه عرش أبيه . بعد ذلك اتهم ست المعبود حورس أمام محكمة الآلهة بأنه ليس ابنا شرعيا لأزوريس فلا حق له في الوراثة . ودافع المعبود تحوت اله العلم عن حورس وأخيرا حكمت المحكمة بأن حورس « صادق القول » و « منتصر » .

وجاء في رواية أخرى أن الحكم المذكور صدر لحق « أزوريس » على خلاف المذكور آنفا ٠

ومن هذه المعبودات من مثلها المصريون بتماثيل عديدة واعتبروها آلهة مصر العظمى ومنها من بقى محفوظا في مخيلتهم فقط ، فلم تشيد له معابد لتقديسه بها ٠ ولما كان القطر المصرى ممتازا على سواه بقلة أمطاره كانت لشمسه دائما مكانة عظيمة في نفوس أهله طول حياتهم ، ولذلك شاعت عبادة الشمس في القطر وتركزت في مدينة عين شمس المسماة عند اليونان هليوبوليس وهناك أطلق المصريون على قرص عين الشمس اسم رع ثم لقبوه باسم أتوم وقت الغروب وصوروه بشكل رجل هرم قدمه في القبر ٠ أما وقت الشروق الذى يظهر فيه هذا الكوكب في ريعان شبابه فكانوا يسمونه (خبرا) ويمثلونه بجعل في اللغة الهيروغليفية ٠ وتصور القوم لهذا الكوكب سفينتين يطوف فيهما الأفق تستعمل احداهما صباحا والأخرى مســاء حتى المغيب ٠ بعد ذلك تدخل الشمس الأقاليم السفلى فتخترقها لتشرق على الأرض ثانية جالبة معها النور والفرح والسرور الى سكان الدنيا ٠ وكان يرمز للمعبود رع في مدينة عين شمس بمسلة ٠ أما في ادفو التى هى مركز عبادته بالصــعيد فكان يرمز له بصقر يقـــال له حـــورس ٠

ولما كان المصريون يرتبون مواقيتهم على حسب سير القمر صار لهذا النجم منزلة كبيرة عندهم فاعتبروه اله الحساب والآداب والحكم ٠ وتركزت عبادته بمدينة الأشمونين التى سماها اليونان هرموبوليس نســبة الى معبودهم هرمس (١) القمرى ٠ وجرت العادة أن يرمز للقمر بالطائر ابيس المعروف بأبى منجل ٠ أما السماء فكانت تعبد في كل جهات مصر باسم نوت كما ذكرنا سابقا لكنها لم تخرج عن عالم التخيلات واعتبرها القوم رمز الحب والفرح النسوى ورسموها بشكل البقرة حاتحور بمعبد دندرة ، ولقبت نيت الفرحة في صا الحجر ومثلت بالهرة بست في تل بسطة ٠ أما في منف فرسمت بشكل لبؤة عارية عن العطف والشــفقة شيمتها احداث الزوابع ٠ ولما كانت عقيدة أزوريس آدمية في حوادثها وتطوراتها انتشرت بسرعة بين الخلق قاطبة،لكن ايزيس بقيت لم تتعد مخيلات المصريين الذين اعتبروها مثال الزوجة والأم الواجب الاقتداء بها ٠ وأما حـــورس فيرجع أصله حقيقة الى الشمس دون أزوريس فاعتبره القوم مثال الابن الطيب المنتصر على الباطل ٠ وسيأتى الكلام عن عبادة أزوريس تفصيلا

---

(١) هو الاله تحوت رب الحكمة (المحقق) ٠

وعن تأثيرها في أذهان المصريين في المقام المناسب · وكل ما يجدر بنا ذكره الآن هو أن ازوريس يرجع في الأصل الى مدينة ددو المعروفة عند اليونان باسم بوسيريس (أبو صير) بالوجه البحرى · ولما اعتقد المصريون أن رأس هذا المعبود دفنت بالعرابة بالصعيد،صارت لهذه المدينة الأخيرة شهرة عظيمة من قديم الزمان · ويرسم أزوريس على الآثار عادة بشكل انسان ضيق الملبس نحيف القوام جالس على العرش كأحد الفراعنة · ويرمز له أحيانا بعمود غريب الشكل يرجع تاريخه الى مبدأ عبادته استعمله القوم حجابا سحريا لاستخدام الأرواح في مصالحهم · وقبل الفراغ من ذكر الآلهـــة يجـــدر بنا أن نثبت هنا أن المعبود بتـــاح من أقدم معبودات مصر وأعظمها شأنا وكانت منف مركز عبادته ، ويعتبره القوم أنموذج المثال أو الرسام ولذلك كان أكبر كهنة هذا المعبود رئيس مثالى القصر الملـــكى ·

هذه أشهر معبودات مصر في العهد القديم · وهناك معبودات كثيرة أخرى أقل أهمية من التي ذكرناها لا يسمح لنا ضيق المقام بذكرها مع أن المعابد المصرية حوت كثيرا من تماثيلها ·

واستدل من بساطة هيئة الآلهة المصرية ورموزها أن المعيشة وقتئذ كانت بسيطة أيضا · فمن هذه الآلهة من يمثل قابضا على عصا كالتى يستعملها بدو الصحارى أو على فرع قصب وتزين رءوسها أحيانا بنسيج الغاب أو ريش النعام أو قرنى الأغنام · ولما اعتبر المصريون حيواناتهم المحيطة بهم رموزا للآلهة احترموها وثابروا على ذلك حتى في أرقى العصور مدنية وحضارة · وليلاحظ أن هذه الحيوانات لم تعبد كآلهة الا في آخر التاريخ المصرى وقتمـــا دخل البلد في دور انحطاطه فلم تكن عبـــادة الحيوانات موجودة في العصر الذى نحن بصدده وغاية ما في الأمر أن المصريين اعتبروا وقتئذ بعض الحيوانات كالنسر رمزا لمعبوداتهم كالشمس مثلا ، ومن ثم اعتبر القوم هذا الحيوان كثيرا وأكرموا مثواه في المعابد لكنهم لم يعبـــدوه ولم يقدموا له القرابين كمـــا حصـــل في الأزمنة التـــالية (٢) ·

وبدهي أن العقائد الدينية في وادى النيل كثيرة التباين والاختلاف، فعبادة الشمس مثلا كانت ذات مراكز عديدة وأشكال متعددة واعتبارات متباينة ، حتى ان أهل كل مركز اعتبروا معبودهم الشمسى مخالفا لنظيره فى

(٢) انظر : Erman, Handbuch, p. 25.

المراكز الأخرى ، كما اعتقد أهل مدن ايطاليا أن عذراء كل مدينة تخالف عذراء المدن الأخرى . لكن لما تمت التجارة بين سكان القطر وعمت القوانين السياسية سائر جهاته امتزجت هذه العقائد الدينية بعضها ببعض فتجمعت عقائد أخرى مركبة متباينة كما المعنا سابقا وكما سيتضح أجلا . ومما زاد الطين بلة أن القسوس لم يختزلوا تلك العقائد الى ما هو أبسط وأقرب للفهم بل تركوها تتغير وتتبدل بتقلبات الدهر فانجبت مزيجا دينيا مركبا عسير الادراك . ولا يخفى أن من أهم العوامل المساعدة على ذلك تفوق البلدان على سواها لأن ذلك يعقبه عادة القبض على زمام الحكم ثم بسط ديانة البلد المنتصر على غيره .

وقد تكلمنا سابقا عن معابد المصريين الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل حكم الأسر . أما الآن فنذكر القارىء أن تلك المعابد اعتبرها القوم وقتئذ مساكن لمعبوداتهم . لذلك لا يبعد أن نظم تلك المعابد كانت كثيرة الشبه بنظم منازل ذلك الزمن السحيق . وقد أثبتنا سابقا أن المعابد شيدت أولا من الخشب ثم من الحجر بدون تغيير في هندسة عمارتها . وبقى القوم يعتبرون معابدهم بيوتا لآلهتهم رغما عن جهلهم السبب الأصلى لذلك . ويتلخص وصف المعبد وقتئذ بأنه حوش أمامى غير مسقوف تليه ساحة ذات عمد تتفرع منها عدة حجرات لحفظ الأثاث والأدوات اللازمة . وسيأتى الكلام عن بناء هذه المعابد وزينتها . أما الآن فسنذكر للقارىء أن أوسط الحجرات المتصلة بساحة العمد والمسماة بقدس الأقداس حوت عادة ناووسا مصنوعا من قطعة واحدة من الجرانيت المنحوت جيدا فيه تمثال المعبود الخشبى المطعم بالذهب والفضة والأحجار الكريمة يتراوح طوله بين قدم ونصف وستة أقدام . وتنحصر أشغال موظفى هذه المعابد في تقديم القربان الى المعبود من مأكل وملبس بما يتناسب مع الغنى والجاه المصرى وقتئذ وكذا القيام باحتفالات الطرب كالموسيقى والرقص . ويؤتى بجميع المصروفات اللازمة لهذه الاحتفالات من خيرات الأراضى ومن الهبات الملكية من قمح وشعير وزيت وعسل وما الى ذلك . وكان القصد من هذه القرابين فى بادىء الأمر ارضاء المعبود بلا احتفالات،لكن بمرور الزمن أخذ تقويم هذه القرابين شكل حفلات رسمية اجبارية فى كل معابد القطر فى أوقات معينة . وجرت العادة أن يقام فى الحوش الأول من المعبد مذبح كبير يجتمع حوله الخلق فى الأعياد فيأكلون من الهدايا الكثيرة والقرابين العديدة التى يتمتع بها عادة كهنة وخدم المعبد . وأصل اقامة الأعياد وقتئذ يرجع الى الاحتفال بمرور فصول معينة أو بحوادث مهمة ذات علاقة دينية . وتتلخص هذه الاحتفالات فى أن يخرج القسوس تمثال المعبود ويضعوه فى ناووس على

شكل مركب نيلية تسير الى حيث يرغب القوم • وليلاحظ أن الرهبانية المصرية كانت احدى واجبات الحاكم الذى كان معتبرا فى ذلك الوقت رئيسا لكهنة اقليمه • أما فرعون فكان معتبرا الكاهن الأكبر للمعبودات ، ومنذ أوائل التاريخ كان الرئيس الأعظم لدين الدولة الرسمى والشخص الوحيد الذى يقدس الآلهة • وكان له فى كل معبد نائب يدعى رئيس الكهنه يقدم القربان والخيرات داعيا بطول العمر والسعادة والصحة لفرعون مصر • ويرجع تاريخ بعض وظائف هؤلاء الرؤساء الدينيين الى عهد سحيق جدا وأهمهم المنتمون الى مدينة عين شمس حيث لقب رئيسهم « بالرئيس الأعظم » ، أما فى منف فكان رئيس الكهنة يدعى « سيد المثالين الأكبر » . وتسند هاتان الوظيفتان الى رجلين من عظماء الأمة • أما رؤساء المعابد الأخرى الذين أتوا فى الأزمنة التالية فكانوا يلقبون « برؤساء أو مديرى القسوس » فقط • وتتطلب وظائف هؤلاء الرؤساء ادارة الاحتفالات الدينية والاشراف عليها ومراقبة ايراد المعابد الذى يعيش منه الموظفون ثم قيادة الفرقة الحربية الخاصة لكل معبد زمن الحرب • أما الكهنة الصغار فكانوا عادة من العمال المتطوعين لخدمة المعابد فى أوقات الفراغ وبهذه الطريقة تمكن العمال من الاشتراك فى عبادة المعبود ولو أنهم يعتقدون أن فرعون هو الشخص الوحيد المقدس للمعبودات • أما النساء فكن يتطوعن لخدمة المعابد أيضا كراهبات للمعبودتين نيت وحاتحور مؤديات واجبهن الدينى راقصات ممسكات الصوالجة فى أعياد مخصوصة أمام الآلهة • وهكذا كانت خدمة الآلهة مباحة للجميع • ولما كان المعبد فى اعتبار القوم مأوى المعبود لقب الكهنة « بخدم الاله » •

ثم أخذ هذا التقدم الدينى يبرز فى تشييد المعابد الشامخة وازدادت الكهنة وحبست العقارات لتزويد الموتى بما يلزمهم فى الآخرة حتى فاق المصريون فى ذلك غيرهم من الأمم • والمجهود الجسمى العظيم الذى قام به هؤلاء القوم لحشد المقابر بالحاجيات الدنيوية يعتبر أقدم دليل على اعتقاد الانسان فى البعث بعد الموت • وكان المعتقد وقتئذ أن الأجساد تحركها أشباح حيثما وجدت فى الدنيا أو فى الآخرة • وهذا الشبح كان يدعى « كا » وهو فى اعتقاد القوم مصحوب بروح يرمز له بطائر آدمى الرأس محلق بين الأغصان أو بزهرة أو بنبات اللوتس أو بثعبان أو بتمساح سابح أو غير ذلك • وتخيل القوم أيضا لكل انسان ظلا اعتبروه جزءا ملازما له • ثم كثرت هذه العقائد فصعب على المصرى فهم حقيقتها وعلاقة بعضها ببعض كما صعب على المسيحى فى الجيل السابق فهم العلاقة بين الجسد والروح والشبح • واجتهد المصريون فى تفسير المعيشة الأخروية

فاتبعوا فى ذلك الطرق التى راعوها فى تفسير السماء والأرض ولذلك اعتقدوا أن الموتى يقطنون عالما غربيا يهبط فيه المعبود الشمسى كل يوم بعد الغروب وعلى ذلك لقبوهم « بالغربيين » واجتهدوا فى تشييد مدافنهم فوق الجبال الغربية ۰ واعتقد البعض وجود عالم آخر أسفل هذه الدنيا تقطنه الأموات منتظرة ظهور قرص المعبود الشمسى سائحا فى سفينته المقدسة كى تتمتع بأشعته وتشد حبال سفينته لتنقذها من المأزق الطويل فى ذلك العالم المظلم ۰ وهناك فريق ثالث تأثر كثيرا بصفاء سماء بلاده فاعتقد أن الأموات تتحول طيورا بعد وفاتها وتعلو فوق طبقات الهواء حتى تبلغ رع أى الشمس فتتقابل هناك مع أتباع ذلك المعبود وتعيش كنجوم أزلية ۰ ثم ازداد المصرى تخيلا فى الحياة الأخروية فتوهم فى الجهة الشمالية الشرقية فى السماء حقولا يانعة خضراء سماها « حقول يارو » أو حقول الخيرات كثيرة العدس قمحها أطول من قمح النيل عميقة الرخاء والطمأنينة والسلام والسكون ينال فيها كل فرد نصيبه مما يقدم لمعبوده فى الدنيا من خبز وجعة وملبس زيادة على ما ذكر ۰ ثم استصعبوا الطريق الى حقول الخيرات فتخيلوها محاطة بالماء ، ولذلك ابتكروا طرقا مختلفة للوصول اليها فكان بعضهم يناجى النسر أو الطائر أبى منجل (ابيس) ليحمله فوق طرف جناحه الى تلك الحقول ورجا البعض الآخر أولاد المعبود حورس الأربعة ليحضروا له قاربا يستعين به على عبور المياه وتوسل فريق ثالث الى رع لينقله فى سفينته الى تلك الجهة ۰ لكن العادة المتبعة فى معظم تلك الأحوال أن الميت كان يناجى ربانا لسفينة هناك يدعى « الناظر خلفا » نسبة الى اتجاه وجهه وقت الجدف ليجتاز الماء الى « حقول يارو » ۰ وليس لهذا الربان أن ينقل من يريد بل كان يتحتم عليه أن يتحقق من أن كل شخص ينقله فى سفينته لابد أن يكون قد صدر عليه حكم المعبودات بأنه « برىء من السيئات » أو بأنه « طاهر لا سفينة له » أو بأنه « تقى ورع عادل أمام السماء والأرض وأمام الجزيرة » (٢) التى تحوى النعم والرفاهية لكل آهل بها ۰

هكذا تشعبت عقائد المصريين فى فهم الآخرة لكنها لم تتجاوز شؤون معيشتهم الدنيوية ۰ واعتقد القوم أولا أن الوصول الى حقول الخيرات الأخروية يكون بالاهتمام بالشعائر الدينية والاعتناء بها ۰ وبتوالى الأيام اعتقد الناس أن النعيم الأخروى يكافأ به من يحافظ على طهـــارة الذمة

---

(٢) انظر ايضا : Pyramid of Pepi I, 400 ; Mernere 570, Erman, Zeitschrift für Aegyptische Sproche, XXXI, 76-77.

والشرف والأعمال الصالحة في الدنيا · من ذلك ما ورد في مقبرة أحد أمراء الأسرة الخامسة مترجما : « لقد شيدت مقبرتي هذه بغاية العدل والحق فلا شيء فيها يستحقه غيري ·· ولم أؤذ أي شخص » وما ورد أيضا من النقوش على جدر مقبرة لأحد أبناء تلك العصور مترجما : « أنا لم أعاقب قط في حياتي أمام رجال الحكومة ولم أسرق شيئا من غيري بل فعلت كل ما يرضي غيري » · ولم تقتصر نقوش مقابر تلك العصور على انكار السيئات، بل شملت أيضا فعل الخيرات كما ورد على جدر مقبرة وجيه في الأسرة الخامسة مترجما : « كنت أقدم الخبز لفقراء اقليمي ····· وأكسو عراته ولم أؤذ أحدا طمعا في أملاكه حتى اشتكاني الى معبود بلده ولم أسمح لضعيف أن يخشى بأس قوي فيتظلم من ذلك للاله » ·

وفي هذه العصور القديمة انتشرت بين الخلق عقيدة أزوريس ووفاته واحلال ابنه حورس محله على عرش مصر حتى صار لها مكان عظيم في نقوش الموتى ، فلقب أزوريس بأول الغربيين « وسلطان الصالحين » · ثم اعتقد القوم أن كل فرد بعد وفاته يحصـــل له ما حصـــل لأزوريس فيشبهه ويلقب حينئذ باسم أزوريس أيضا · وكثيرا ما ورد على الآثار ما معناه « ليعش هذا الميت كما عاش المعبود أزوريس · وليدرأ عن هذا المتوفى الفناء كما درأ عن أزوريس الفناء وليحفظ من التلف كما حفظ أزوريس » (٤) · ولما اعتقد المصريون أن أزوريس قطعت أعضاؤه بعد وفاته ثم جمعت وأحييت بمعرفة المعبودات دعوا للميت أن ترد روحه لأعضائه كما حصل لأزوريس· وهكذا أصبحت للمتوفى عندهم منزلة المعبود أزوريس في الآخرة حيث يكون حاكما بين الخلق كما كان في الدنيا · واليك ترجمة ما أورده الأستاذ أدولف ارمان في كتابه (٥) من الدعوات لأحد الأموات : « لقد فتح لك باب السماء وأقفالها اكراما لك وتبجيلا · هناك ستجد المعبود رع في انتظارك فيقودك بيدك الى المحل المقدس في السماء ويجلسك على عرش أزوريس النحاسي فيصبح عرشك وتحكم الأموات الموقرين ···· ثم تقف خلفك خدم المعبود وتصطف أمامك رؤساء الآلهة صائحين مهلا أيها الاله ! مهلا أيها الاله ! مهلا أيها القابض على عرش أزوريس ! ايزيس تحادثك ونفتيس تحييك · الموتى يأتون اليك ساجدين يقبلون الأرض بين قدميك · هأنت ذا قد صارت اليك المنزلة والشرف

---

(٤) انظر : Pyramids, Chap. 15. ·

(٥) مرجع سابق : Erman, Handbuch. pp. 96-99 ·

الالهيين وأصبحت مماثلا لازوريس جالسا على عرس رئيس سكان الغرب ٠ انت العامل لأعماله نحو الاموات والشهداء ٠٠٠٠ انت الرافع منزلك بعد حياتك والدافع الأذى عن أطفالك » ٠ ولما اعتقد المصريون أنهم سيتمتعون بعد وفاتهم كالمعبود أزوريس أو أنهم سيصيرون أزوريس نفسه لم يعودوا ينظرون الى الموت بحوف ووجل فقالوا عن موتاهم : « انهم لا يتركون هذه الدنيا أمواتا بل أحياء » (٦) ٠ ومنه يتضح أن القوم وقتئذ أخذوا يعتقدون بوجود محاكمة فى الاخرة أمام ازوريس وأن هذه المحاكمة ستتناول كل ما أتاه المتوفى فى دنياه من صالح وطالح ٠ وليلاحظ أن محاكمة أزوريس احدثت تاثيرا ادبيا عظيما فى نفوس المصريين ٠ ولو أنهم كانوا حقيقة منذ قديم الزمن ذوى ضمائر ونفوس رادعة الا أنهم كانوا فى احتياج الى زاجر قوى كالوارد فى عقيدة أزوريس ٠ لذلك نشاهد بين نقوش دهاليز أهرام امراء الأسرتين الخامسه والسادسة تحذير كل من يستولى على مقابرهم بانه « سيحاكم على أفعاله امام المعبود الكبير كما ورد فى مقبرة أخرى ما يشـــير الى تجنب الكذب كليـــة « رغبـة فى ارضاء المعبـــود وقت الحســـاب » ٠

كل هذه الحقائق وجدت مدونة بين أقدم نصوص الموتى المعروفة الآن بمصر ٠ وكان الغرض من هذه النصوص ضمان الراحة والنعيم للمتوفين وبالأخص نعيم أزوريس ٠ وقد نقشت هذه النصوص على جدار دهاليز أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة بكمية كبيرة ومنها استخلصنا ما أوردناه هنا بخصوص الآرا المصرية عن الحياة الأخروية (٧) ٠ وبمناسبة وجود معظم النقوش فى الأهرام المذكورة آنفـــا أطلق الاثريون عليها اســـم نصوص الأهرام » ٠ ولا يخفى أن كبيرا من هذه النصوص ما يرجع تاريخه الى ما قبل حكم الأسر وأن بعضه غير وبدل بمرور الزمن كى يتمشى مع عقيدة أزوريس وان لم تكن له بها علاقة بالمرة ٠ وليلاحظ أن هذا التغيير سبب خلط العقائد الدينية كثيرا حتى صعب فهمها بعد ما كانت منفصلة بعضها عن بعض ومتباينة تمام التباين

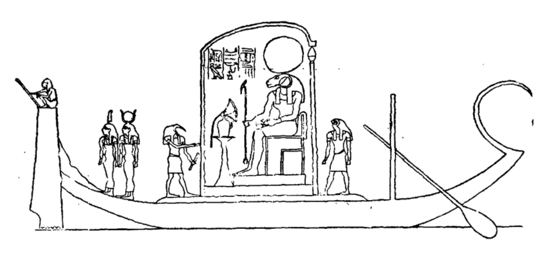
لقد كان لرسوخ العقيدة أو بالأحرى العقائد الخاصة بالحياة بعد الوفاة تاثير كثير فى نفوس المصريين منذ أقدم عصورهم ، فتولدت عندهم عناية كبيرة واهتمام عظيم بأمور موتاهم ٠ ومن الواضح أنه رغما عن كل العقائد الثابتة بأن الحياة الأخروية بعيدة عن الدنيا فان قدماء المصريين

---

(٦) ١ : ٢٥٢

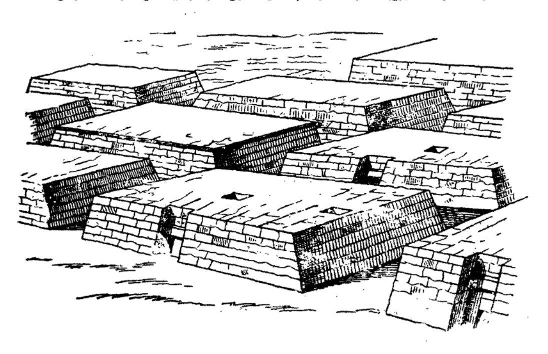
(٧) ٢ : See, Erman, Handbuch .

لم يستطيعوا في وقت من الأوقات ان يفصلوا بين جسم الانسان ونعيمه الأخروى ، لانه كان من الصعب عليهم آن يصدقوا بالحياة بعد الموت اذا تلفت جثتهم وبليت . وقد بدل المصرى مجهوده تدريجا فى ابتكار وسائل ثابتة أمينة لصيانة قبره حتى استعمل فى تشييد لحده الأحجار وزاد فى حجمه فصيره شامخا ، وهكذا أصبحت أهرام الجيزة أكبر مقابر العالم حجما ، وهذه الأهرام محاطة بمقابر أمراء المملكة القديمة ذات البناء الضخم الذى لو حازه ملك قبل تلك العصور ببضعة قرون لافتخر به أيما افتخار .
واليك وزير الملك ببى الأول الذى يرجع عهده الى الأسرة السادسة ، فان مقبرته تحوى ما ينيف على احدى وثلاثين حجرة يعلوها بناء عال مربع الشكل مائل الأضلاع بما يقرب من خمس وسبعين درجة ، وهذا البناء أصم تقريبا الا فى بعض جهاته حيث تشاهد حجرة أو أكثر ، وهو كثير الشبه بالمصطبة التى يتربع عليها الفلاحون أمام حوانيتهم ومساكنهم ، لذلك أطلق الأثريون اسم « مصطبة » على هذا البناء . وأبسط هذه المصاطب هى الصماء التى لا تحوى الا بابا وهميا فى جهتها الشرقية لمرور المتوفى وقت مجيئه من مأواه الغربى . بعد ذلك استعاض القوم عن هذا الباب الوهمى هيكلا صغيرا فى المصطبة نفسها مرسوما على حائطه الغربى باب وهمى ومزين الجدر بمناظر بارزة تمثل الخدم والعبيد الذين كانوا يعملون فى خدمة صاحب القبر يحرثون ويبذرون ويحصدون ويرعون الأغنام ويذبحونها ليقدموها الى مائدة سيدهم . ويشاهد هؤلاء الأشخاص فى مناظر أخرى يصنعون الأوانى الحجرية تارة أو يبنون سفنا نيلية تارة أخرى . والقصد من هذه الرسوم اظهار خدم وأتباع صاحب القبر منهمكين فى الحقل والمصانع مؤدين ما هو ضرورى لراحة سيدهم فى الآخرة .
ويشاهد فى بعض الرسوم رسم كبير لصاحب القبر يمثله مشرفا على عماله متفقدا أشغالهم كما كان قبل « رحيله للغرب » من هذه النقوش جمعنا معلوماتنا عن عادات المصريين وكيفية معيشتهم فى تلك العصور .
أما اللحد فنرى فى أسفل المصطبة منحوتا فى الصخر وبينه وبين الخارج بئر تخترق بناء المصطبة . فى يوم الدفن تحضر مومياء المتوفى على حسب العادة لتقام لها شعائر الدين التى تمثل ما جرى للمعبود أزوريس بعد وفاته . وأهم هذه الشعائر تلاوة العزائم والدعوات لفتح فم وأذنى المتوفى كى يسترد كلامه وسمعه فى الآخرة . بعد ذلك تنزل الجثة فى بئر المصطبة الى اللحد وتوضع نائمة على جانبها الأيسر اتباعا للعادات القديمة فى تابوت جميل مستطيل مصنوع من خشب الأرز موضوع داخل تابوت آخر من الجرانيت أو الحجر الجيرى . وجرت العادة أن القوم كانوا يتركون بعض الغذاء والشراب بجوار الميت ، وكذلك بعض أدوات الزينة وعصا



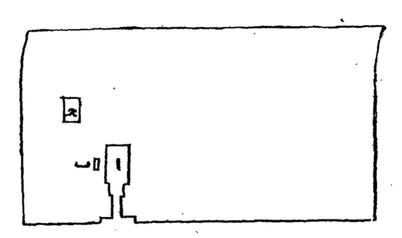
شكل (٨)

السفينة الفلكية للمعبود الشمسى · يشاهد فى هذا الرسم المعبود الشمسى ممثلا فى جسم ادمى وراس كبش حاملا فوق راسه قرص الشمس وجالسا فى إحد المعابد على العرش · وامامه وزيره المعبود تحوت (له رأس أبى منجل) واقفا يخاطبه كاله ارضى ·



شكل (٩)

صورة تمثل عدة مصاطب (مقابر) كاملة البناء يرجع تاريخها الى عهد الدولة القديمة (مأخوذة عن بروشبيبه) · يلاحظ امام كل مصطبة بابها وفوق كل منها فتحة البئر الواصلة الى حجرة المومياء اسفل البناء ·



شكل (١٠) رسم سطحي لاحدى المصاطب · يشاهد فيه معبد القبر مرموز له بحرف (ا) ثم السرداب المرموز له بحرف (ب) وهو عبارة عن غرفة سرية تحوى تمثال الميت · ثم موضع البئر وهو المرموز له بحرف (ج) · وتنتهى هذه البئر من أسفل بحجرة المومياء · ويمكن معرفة ارتفاع تلك المصاطب بمراجعة شكل رقم (٩) ·

السحر وعدة أحجبة لحماية الميت من أعدائه خصوصا الأفاعي · وقد وجد في نقوش الأهرام عدد كبير من العزائم الخاصة بوقاية المتوفين من أفاعي الدار الأخرة · بعد ذلك تملأ البئر حتى حافتها بالرمال والأحجار ثم يترك القوم فقيدهم في حياته الأخروية التي سبق الكلام عليها ·

ولم يقتصر واجب الأصدقاء نحو متوفيهم على ما ذكرنا سابقا بل كان يتحتم عليهم أيضا أن يجهزوا تمثالا للمتوفى يوضع في حجرة صغيرة منعزلة بقرب الهيكل المشيد داخل المصطبة ، وقد يوصلون أحيانا هذا الهيكل بحجرة التمثال المذكورة التي يلقبها الفلاحون « بالسرداب » · ولما كان هذا التمثال كثير الشبه بالمتوفى تصور القوم امكان دخول شبح المتوفى هذا التمثال كي يتمتع بقرابين الطعام والشراب التي تقدم في هيكل القبر · وليلاحظ القارىء أن قرابين الموتى كانت بسيطة جدا في بادىء الأمر اذ كان ابن المتوفى أو زوجه أو أخوه يقدم عادة رغيفا صغيرا في اناء على حصير من القش بجوار القبر ، لكن بتوالى الأيام ازداد عدد هذه القرابين وغلا ثمنها حتى شابهت ما كان يقدم للميت قبل وفاته في هذه الدنيا · ثم أصبحت لهذا العمل الذى كان أصدقاء المتوفى يقومون به سواء أكان ذلك رغبة أم رهبة أهمية كبيرة حتى استلزم وجود عدة خدم للعناية بالقبر غير عدد الكهنة اللازم لقراءة الدعوات والصلوات على الميت · وبلغت عناية القوم

بهذا الأمر أن عقدوا الاتفاقات قبل وفاتهم مع أشخاص ينتخبونهم للخدمة في قبورهم بعد الوفاة بمرتب ثابت يصرف لهم قانونا من الأوقاف المحبوسه على مقابرهم قبل وفاتهم · خذ مثلا ما ورد على الآثار من أن مقبرة الأمير نكورع بن الملك خفرع من الاسرة الرابعة حبس عليها ايراد اثنتى عشرة مدينة · وان صاحب قصر الملك أوسركاف عين قبل وفاته ثمانية كهنة لخدمة مقبرته · وأن أحد امراء الوجه القبلي وقف على مقبرته ايراد احدى عشرة قرية وعزبة · ومما جاء عن هؤلاء الكهنة أن مرتب أحدهم كان باحظا تمكن به أن يرتب لمقبرة ابنته ما يماثل المرتب للمقبرة الموظف هو بها (٨) · وكانت همة القوم منصرفة الى العناية بمقابرهم ، لكن بمرور الأجيال عظم العبء على الأحفاد فأهملت خدمة مقابر الأجداد ، رغبة فى تنفيذ مطلب الأحياء أو الموتى الحديثين · وكما أن القرابين التى كانت تقدم لآلهة المعابد كانت تعطى لموظفى ذلك المعبد ليقتاتوا منها كذلك رأى بعض الملوك ان يكافىء بعض أمرائه بأن يحول الى مقابرهم جزءا من القرابين التى تقدم لقبرة ملكية قديمة أو لمقبرة أحد أقاربه · ثم جرت العادة أن يساعد الملك أمرائه وأمراءه المقربين منه بهذه الكيفية واعتاد القوم أن يبدءوا دعوات مقابرهم بعبارة معناها « هبة ملكية الى فلان ···· » واستمرت الحال كذلك مدة من الزمن كانت الهبات الملكية قاصرة فى أثنائها على الأمراء والموظفين فى القصر الملكى · وبمرور الزمن اقتدى القوم بأمراء البلاد من حيث العناية بموتاهم فكرروا استعمال العبارة المذكورة بين دعواتهم رغما عن عدم حظوتهم بالهدايا الملكية · ومن ثم استعمل القوم الديباجة على جدر وشواهد قبورهم فى جميع العصور مع عدم وجود أية علاقة بينهم وبين ملوكهم من هذه الجهة · ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كثيرا ما يجد الشخص هذه الديباجه مكررة عدة دفعات فى المقبرة الواحدة · وقد يساعد الملك أحيانا بعض محظييه فى تشييد مقابرهم ، من ذلك ما ورد من عبارات الافتخار بين نقوش مقابر الأمراء أحيانا ومنها يستدل أن الملك أهدى أحدهم بابا وهميا لمقبرته او تعطف عليه بتابوت أو ببعض رجال فنيين يساعدونه على بناء قبره ·

ولما كان تقديم القرابين لروح الفقيد من أقدم المقاصد فى تشييد المقابر يجد الباحث فى مقابر ملوك الأسرة الأولى ما يشير الى شدة العناية بذلك · ولما كانت الأسرة الثالثة ، لم يقنع ملوكها بقبر واحد بل شيدوا

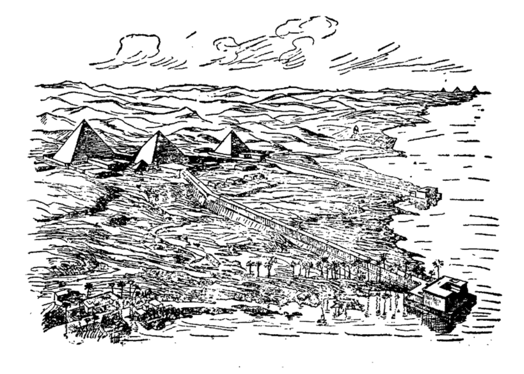
---

(٨) Erman, Handbuch, pfl 123.

لأنفسهم قبرين (٩)، تنسبه لحكمهم لقطرى مصر ، كما شيدوا قصرين . ثم صارت مقبرة الملك كبيرة الحجم كثيرة الحلية لا تقارن بمقابر الأمراء . فبينما كانت الدعوات والصلوات من أجل الأمراء تقام فى هياكل مشيدة بالجهة الشرقية للمصطبة ، كانت هذه الاجراءات الدينية نفسها الخاصة بالملوك تقام فى بناء شامخ بديع منفصل عن القبر . ولما استبدل القوم بمقابرهم اهراما شيدوا فى مقابلة جهتها الشرقية معابد مخصوصة للغرض نفسه وخصصوا لكل منها أموالا كثيرة تدفع منها مرتبات الكهنة وتبوا لها باستمرار القرابين والمآكل والمشرب والملبس . وبدهى أن كثرة موظفى هذه المقابر تطلبت الاكثار من المنازل الخاصة بهم حول كل هرم ، وجرت العادة أن كل هرم وما يتبعه من مساكن وهياكل وغير ذلك يحاط بسور خاص ، وكثيرا ما كانت تتكون فى وادى النيل فى البقعة التى يشرف عليها الهرم المشيد عادة على هضبة مرتفعة مدينة مسورة يصلها بمعبد الهرم جسر حجرى محكم البنيان ينتهى فى طرفه الأسفل ببناء عظيم ضخم من الجرانيت أو الحجر الجيرى ويكسو أرضه أحيانا بلاط من المرمر ويظهر عليه شكل مدخل رهيب لقبر عظيم (شكل ١١ ولوحة ٤٧) . أما الاحتفالات التى كانت تقام فى الاعياد فكانت تمتاز بمواكب الكهنة الذين يخرجون بثيابهم البيضاء للاحتفال بها ولتقديم القرابين الى الملك الراحل وتبدأ من من مدينة الهرم أسفل الجسر المذكور ثم تسير فوق هذا الجسر الطويل حتى تصل الى الهيكل الذى يشرف عليه الهرم العظيم الشامخ . ولا يستبعد أن القوم كانوا ممنوعين من اختراق حائط الهرم وعليه فكانوا يقنعون بمشاهدة هذا البناء الأبيض الناصع من أعلى سور مدينتهم بين اشجار النخيل المترنحة فيتذكرون جثة معبودهم الذى حكمهم مدة من الزمن . وبمرور السنين يرى القوم هرما آخر مماثلا له بالقرب من الهرم الأول معدا لجثة ابن ملكهم المقدس الذى يشاهدون عظمته بين حين وآخر أيام الأعياد . وليلاحظ أنه رغما عن التكاليف الباهظة التى كانت تنفق من مالية البلاد على ذمة الفراعنة وأمرائهم على حسب الأصول المتبعة ، فانها لم تكن ذات تأثير كبير لقلة عدد هذه الاحتفالات ؛ أما السواد الأعظم فاكتفوا بدفن موتاهم بدون تحنيط فى مقابر أجدادهم التى يرجع تاريخها الى ما قبل حكم الأسر والتى هى على حافة الصحراء الغربية .

---

(٩) بدأت هذه العادة من الأسرة الأولى على الأقل حيث اكتشفت مصاطب عظيمة فى شمال سقارة يبدو انها كانت المقابر الحقيقية لملوك الأسرتين الأولى والثانية ، كما اقيمت مقابر أخرى فى ابيدوس (العرابة المدفونة) ، ويبدو أنها كانت أضرحة رمزية — (المحقق) .



شكل (١١)

صورة تمثل اهرام ابو صير وما جاورها من الأبنية الأثرية كاملة الترميم (ماخوذة من بورخارت) • وفيها يلاحظ معبد خاص لكل هرم مجاور له وطريقـان مشيدان بالأحجار يبدان من اثنين من هذه المعابد بمدخل شـاهق واقع فى الحد الفاصل بين الصـحراء وأرض الوادى (راجع لوحة ٤٧) •

ويشاهد امام المدخل سلم حيث ترسو السفن زمن الفيضان •

الفصل الخامس

الدولة القديمة

الحكومة المجتمع ، الصناعة ، الفنون

يرجع مبدأ الحكم الملكي ومنشأ العادات اللذين تمتاز بهما مصر القديمة عن سواها من الأمم الى عهد بعيد يصعب تقديره الآن ازاء ما لدينا من الأخبار اليسيرة • لكن المعلوم أن حكومة الملك مينا كانت منظمة وعريقة فى الوجود وأن ادارة البلاد فى فجر الدولة القديمة الذى تقرب مدته من أربعة قرون كانت مصحوبة بهيبة كبيرة ومقام رفيع واحترام شديد نحو مليك البلاد من جميع أفراد الرعية على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم • فكان الملك وقتئذ معتبرا الها وملقبا « بالمعبود الطيب » ولذلك عظم مقامه بين رعيته حتى صاروا يجتنبون ذكر اسمه شخصيا اذا أرادوا الاشارة اليه • فكان الحاجب الملكى مثلا يستعمل فى كلامه الضمير الغائب كلما ذكر شيئا خاصا بجلالة سيده فيقول مثلا « هو » اذا أراد الملك ومثلا « لنبسط له الأمر » بمعنى لنخبر جلالة الملك بالأمر ، وهكذا وبمرور الزمن أخذ القوم يلقبون الحكومة أولا « بالبيت الكبير » ثم أطلقوا ذلك على الملك • وهذا اللقب يقال له بالهيروغليفية « برعو » وحرفه بعد ذلك الاسرائيليون الى « فرعون » وبقى مستعملا كذلك حتى عهدنا هذا • وما أكثر العبارات والمجازات التى كان يستعملها موظفو القصر الفرعونى فى الاشارة الى مليكهم المقدس • واعتقد القوم أيضا أن ملوكهم اذا ماتوا ينضمون الى طائفة المعبودات وعليه ، تجوز عبادتهم كآلهة فى الهياكل الكبيرة المشيدة أمام مقابرهم الهرمية الشامخة •

اما الحاشية الملكية فقد بلغت درجه عظيمه فى معاملاتها الرسميه التى كانت تراعيها بكل دقة وعناية فاعضاء الحاشيه كانوا من الوزراء العظام والضباط الكبار المتزيين بانفس الملابس علاوة على الأمناء الملكيين الذين كانوا يقومون بخدمة الملك فى القصر • من ذلك يتضح أن حياة القصر الملكى وقتئذ كانت كثيرة الشبه بما يماثلها فى الممالك الشرقيه وقد حفظ لنا التاريخ بعض الرتب وألقاب الشرف التى كان ينعم بها عى كبار موظفى القصر فى تلك العصور السحيقة • وليلاحظ أن رجال الحاشيه الملكية كانوا كثيرى الفخر برتبهم وألقابهم حتى نقشوها على جدر مقابرهم مثبتين درجاتهم ووظائفهم التى حازوها فى الحضرة الملكية فى أثناء معيشتهم الدنيوية • وهذه الرتب والوظائف تختلف بعضها عن بعض من حيث الأهمية والجدارة ولها نظام ثابت يشرف عليه قواد القصر الحربيون بدقة فى وقت الاحتفالات الرسمية والمثول بين يدى السدة الملكية • أما خدمة الملك الشخصية فكان يعهد بها الى كبار موظفى القصر كل على حسب وظيفته ولقبه فكان بينهم طبيب الملك الخاص ورئيس جوقة الموسـيقى الملكية وغير ذلك • أما شخص الملك فكان قليل الحلى ومع ذلك فكان فى القصر نفـر ليس باليسـير يضـع الشعور المستعارة والنعـال والروائح العطرية ويقوم بالغسل والتبييض وحراسة الأمتعة • وكل من هؤلاء كان يتحدث بألقابه مفتخرا بها ومؤيدا لها على صدر مقبرته ، فمن ذلك ما ورد على شاهد قبر موجود بدار التحف بالقاهرة مترجما : « أنا الرئيس المتعهد بصندوق دهانات الملك • كنت أقوم بمأموريتى فى دهان سيدى بغاية الرضا والقبول • أنا المتعهد بادارة زينة الملك الحامل لخلف جلالته الصانع لنعال جلالته بما حاز منه الرضا والقبول » (١) • وجرت العادة أن الملوك كانوا يقترنون بأكثر من واحدة ويختارون من بينهن أقربهن وأحبهن لقلوبهم فيلقبونها رسميا بجلالة الملكة ويعتبرون ابنها ولى عهد المملكة الذى يتسلم مقاليد الملك بعد وفاة أبيه • وليلاحظ أن تعدد الزوجات أمر مشاهد كثيرا فى البلدان الشرقية وأنه فى الوقت نفسه سبب لكثرة التناسل ، لذلك ترى المصريين يرسمون على الآثار أطفالا عديدين حول ملوكهم آخذين نصيبا كبيرا من دخل القصر • وجاء فى الآثار أن أحد أولاد الملك خفرع الذى يرجع تأريخه الى الأسرة الرابعة خلف تركة بعد وفاته تقدر بأربعة عشر قرية علاوة على منزل حضرى ومزرعتين بجوار القصر الملكى بالقرب من هرمه وعلاوة على ما وقفه على قبره من ايراد اثنتى عشرة قرية أخرى • ومما هو جدير بالذكر أن الملوك كانوا يعينون أولادهم فى ادارة البلاد ولذلك

---

(١) انظر : Cairo stela, 1787.

لم تكن معيشة هؤلاء الأمراء هنية ، خصوصا وأن بعضهم كان يشغل مراكز حكومية صعبه شاقة ٠

ورغما عن رفعة منزلة فرعون مصر واعتبار قومه له الها فقد كان متين الصلة بأمراء بلاده لأن فراعنة مصر كانوا يتلقون علومهم مع أولاد الأمراء ويتمرنون معا على الألعاب الرياضية كالعوم ٠ ولابد أن هذه الرابطة كانت شديدة التأثير فى نفوس الفراعنة لأن أحدهم سمح بزواج ابنته لرفيق له فى الدراسة فتمكن هذا الأخير بذلك من تقبيل القدم الملكية وحيازة الشرف الكبير بعد ما كان يتعذر عليه تقبيل الأرض بين قدمى مليكه ٠ وليلاحظ أن علاقات الملك الرسمية كانت مخالفة لعلاقاته الشخصية مع الرعية ٠ فالأولى كانت تحتم على كل شخص أن يظهر احترامه وولاءه للشخص الملكى ، أما الثانية فكانت عارية عن الكلفة ٠ لذلك كان الملك مع جلاله يتحادث بغاية الحرية مع أصحابه مدة من الزمن ويسمح لعبيده أن يدهنوا جسمه وأجسام أصحابه بالروائح العطرية الطيبة الزكية ٠ وقد تتوطد العلاقة أكثر من ذلك فيتزوج فرعون مصر بابنة أحد رعاياه ولا يبعد أن يساعدها الحظ فتصبح ملكة البلاد الرسمية ويتولى ابنها الملك بعد أبيه ٠ ومما يظهر لنا شدة تعلق ملوك تلك العصور بوزرائهم وحاشيتهم ما ورد فى الآثار عن حادثة حصلت وقتما كان أحد الفراعنة يتفقد بنـاء شامخا مصحوبا بوزير العمارة ، فبينما كان جلالة الملك يمتدح البناء ويشكر وزيره المخلص على حسن صنيعه لاحظ أن وزيره لا يعى ما يلقى اليه فصاح الملك متألما بين حاشيته فنهضت لوقتها وحملت الوزير الى القصر الملكى حيث استدعى الملك رؤساء الكهنة والأطباء واستحضرت اللفائف الطبية اللازمة فلما حضر الأطباء قرروا أن حالة المريض لا يرجى منها فتكدر الملك لذلك كثيرا واختلى فى حجرته متضرعا للمعبود رع راجيا شفاء وزيره ٠ وبعد أن فارق الوزير الحياة أمر الملك بعمل الاحتفال اللائق لدفن هذا الأمير ووضع جثته فى تابوت من خشب الآبنوس وأظهر رغبته فى الحضور شخصيا وقت دهان الجثة ٠ ثم عهد لابن المتوفى فى بناء مقبرة كبيرة لوالده ووعده بالمساعدة الملكية ٠ هذا كله يكفى أن يظهر لنا متين الاخاء والصحبة التى كانت بين الفراعنه ورعيتهم ٠ واجتهد ملوك الأسرة الرابعة وأوائل الأسرة الخامسة فى توطيد العلائق بينهم وبين حاشيتهم حتى صاروا كأسرة واحدة مرتبطين ارتباطا كبيرا فكان الملوك يساعدون رجال حاشيتهم فى بناء مقابرهم وتجهيزها باللازم ويهتمون براحتهم ونعيمهم فى الدنيـــا والآخرة ٠ وليلاحظ أن سلطة فرعون كانت مطلقة نظريا فيما يتعلق بادارة القطر ، وفى الحقيقة كانت مقيدة بعدة عوامل مختلفة كالقرابة والحزبية والشخصية والنسوية وهو أمر كثير الحصول فى البلاد الشرقية ٠ ومن

الصعب علينا أن نتتبع هذه العوامل الى أبعد من هذا العصر الذى تتجلى فيه بوضوح إحوالها السياسية الداخلية على مرور الأجيال • ورغما من وسائل الراحة والترف التى كانت موفورة وقتئذ فان الفراعنة لم تعش معيشة الكسل والاستبداد كما فعل المماليك ، بل عينت ملوك الأسرة الرابعة أبناءها روساء لبعثات الحفائر الحجريه أو المعدنية أو وزراء أو رؤساء وزارات قبل استلامهم مقاليد الحكم ، ولذا كان ملوك ذلك العصر متعلمين مستنيرين عارفين للقراءة والكتابة ولأصول المجاملة والتحية • خذ مثلا ما ورد عن أحدهم آنه خط بيده خطابا شكر فيه أحد موظفى حكومته على جدارته وكفايته • وكثيرا ما كان الملوك يدعون وزراءهم ومهندسيهم للتداول معهم فيما يلزم البلاد وعلى الأخص ما يتعلق بتوزيع المياه وأمور الرى • ثم ان رئيس المهندسين كان كثيرا ما يعرض مشروعاته الزراعية المختلفة الخاصة بالضياع الملكية على مليكه ، فقد ورد أن أحد هؤلاء الرؤساء تناقش مرة مع الملك بشأن حفر بحيرة كبيرة طولها ألفا قدم تقريبا فى احدى المزارع • وجرت العادة أن الفراعنة كانوا يطلعون على أوراق حكومتهم الرسمية ثم يملون على كتابهم الأوامر لارسالها الى القواد المصريين بطور سيناء وبلاد النوبة وبونت التى هى جنوبى البحر الأحمر • أما ملخص دعاوى الوراثة المرفوعة من الرعية فكانت تعرض أحيانا على الملك ، لكن العادة أن الوكلاء الملكيين هم الذين يتصرفون فى مثل هذه الأمور • وبعد الفراغ من الأشغال اليومية كان الملك فى جلاله يركب هودجه الملكى مصحوبا بوزيره وحاشيته ليتفقد المبانى والأشغال العمومية • لذلك كانت سلطة جلالته ممتدة الى كل مشروعات القطر الهامة •

وجرت العادة أن تشيد الفراعنة أهرامهم بالقرب من قصورهم على حافة وادى النيل الغربية بجوار الصحراء وأن تحاط هذه القصور بمنازل أفراد الحاشية والخدم الملكى • ولما كان فن البناء فى عهد الأسر الأولى بسيطا تيسر للملوك اختيار أية بقعة من الوادى مقرا لهم بجوار أهرامهم • وفى مدة الأسرة الثالثة اتخذ الفراعنة مدينة منف عاصمة لهم واستمروا فى تشييد قصورهم بها مزدوجة البناء أو مزدوجة المدخل — على الأقل — مشيرين بذلك الى ضم الوجهين القبلى والبحرى تحت حكم واحد ، ومطلقين على كلا المدخلين اسما خاصا ، فأحد مدخلى قصر سنفرو مثلا كان يدعى « تاج سنفرو الأبيض المحترم على الباب الجنوبى » أما المدخل الآخر للقصر نفسه فكان يدعى « تاج سنفرو الأحمر المحترم على الباب الشمالى » • وليلاحظ أن وجه القصر الملكى عرف وقتئذ « بالوجه المزدوج » ورسم هذا القصر على شكل منزلين متلاصقين • أما ديوان الحكومة داخل القصر الملكى

فكان يعرف « بالادارة المزدوجة » على رغم عدم احتمال وجود ادارتين كما يشير اليه هذا الاسم • ويرجع أن تجزئة ادارة القطر المصرى بين وجهيه لم تذهب الى أبعد من التجزئة الاسمية وان كثرت الاصطلاحات الادارية « كالشونة المزدوجة » اشارة الى الشونة الملكية و « البيت الأبيض المزدوج » اشارة الى ديوان المالية وكأنهم حافظوا على هذا الازدواج الاسمى فى مصالح الحكومة مع أن وجهى مصر منضمان معا تحت ادارة واحدة احتراما للقديم الراسخ فى الأذهان • أما القصر الملكى ودواوين الحكومة المحيطة به والتى تتفرع منه ادارة أقاليم المملكة فكانت تعرف « بالبيت الكبير » •



شكل (١٢)

جمع الضرائب بواسطة موظفى المالية : يشاهد فى القسم الأيمن كاتب وضباط ماليون يقيدون الايراد • ويرى بالقسم الأيسر عمال المالية (الصيارفة) مزودين بالعصى يحضرون الأهالى لدفع الضرائب •

وفوق هذه الرسوم نقوش هذا شرحها « القبض على حكام الأقاليم للحساب » •

وتسهيلا لبسط نفوذ الحكومة على جهات القطر قسمت مصر الى أقسام صغيرة بلغ عددها فى الوجه القبلى حوالى عشرين قسما تقريبا وفى الوجه البحرى فى العصور الأخيرة ما يماثل ذلك • والمظنون أن هذه الأقسام بقايا الامارات التى كانت موجودة قبل حكم الأسر والتى تكونت منها المملكة المصرية فيما بعد • أما حكام هذه الأقسام فكانوا يعينون فى عهد الأسرتين الأولى والثانية بأمر ملكى ويلقبون نواب الملك ويعهد اليهم بالادارة والقضاء فى أقسامهم ولقبوا أحيانا « بالقضاة » • ودلتنا الآثار على وجود مجلس مؤلف من عشرة « حكام من الوجه القبلى » يلقب « بالرؤساء العشرة العظام الجنوبيين » امتاز أعضاؤه على سواهم من حكام الأقسام الجنوبية بعلو المنزلة ، ويظن أن هذا المجلس كان أشبه بلجنة ادارية مخصوصة • ومع ضآلة معرفتنا بأنظمة الوجه البحرى فاننا نرجح أنه كان منظما اداريا

كالوجه القبلي تماما الا أنه كان أقل أقساما . والمعروف أنه كان لكل حاكم قسم ادارة صغيرة يرأسها تقوم باختصاصات الحكومة في قسمها كالمالية والقضاء والادارة ومساحة الأراضي واقامة الجسور وحفر الترع والشرط ومخازن التموين ، ولذلك تطلبت ادارة كل قسم عددا كبيرا من الكتبه والمسجلين ومقدارا عظيما من السجلات والقوائم . ولا يخفى أن أهم عامل في تنظيم وتوحيد ادارة الأقسام هو ادارة الأموال الواردة الى ادارة الحكومه المركزية كالضرائب السنوية من حبوب وغنم وطيور ومصنوعات وغير ذلك مما يجمعه حكام الأقسام من سكان البلاد . والسبب في توريد هذه المواد الى الحكومة هو عدم استعمال العملة وقتئذ . ثم ان محصولات القطر كانت تضبط وترسل بها كشوف لتقيد بعاصمة الملك كما كانت ترسل أيضا الى المالية للمراجعة ، وأما المعاملات كتسجيل الأراضي ومسائل الرى والأحكام القضائية والادارية فكانت ترسل كلها الى مركز الحكومة العام لمراجعتها . ولما كانت الادارة المالية أمتن الروابط بين القصر الملكي وأقسام القصر الملكي فقد عهد في ادارتها الى موظف لقب « برئيس أمناء المالية » يقطن القصر الملكي ويساعده اثنان للاشراف على أفرع المالية المتعددة وعلى الأخص التعدين والعمارة اللذين كانا مرموقين بعين الاهتمام في القطر . وقد عرف هؤلاء المساعدون باسم « صرافي المعبود » ـ أي الملك ـ وكان يعهد اليهم في الاشراف على قطع الأحجار من المحاجر وتشـييد المعابد والأهرام وغيرها وقيادة بعثات التعدين الى شبه جزيرة طور سيناء .

ولا يخفى على القارىء أن أهم واجبات حكام الأقسام كانت الادارة . أما القضاء فكان عملا اضافيا . ولم يوجد بين القوم وقتئذ من اختص بالقانون ، لذلك كان يشترط في حكام الأقسام الالمام بالقانون والقيام بأعمال القضاء في دائرة اختصاصهم . أما تنفيذ القانون فكان تحت اشراف ست دوائر قضائية في القطر المصرى مكونة من أعضاء متضلعين في المهنة تحت ادارة رئيس الحقانية الأكبر . وكان كثيرا ما ينعت القضاة أنفسهم بالمنتمين الى بلدة نخن » ـ المعروفة عنـد اليونان بهيراكونبوليس ـ وهو لقب يرجع تاريخه الى العهد الذى كانت فيه هذه المدينة عاصمة الوجه القبلي . أما القانون فكان غاية في الاتقان والحكمة ، ومما يؤسف عليه أنه ضاع من الوجود . والمعروف أن حكام الأقسام كانوا كثيرا ما يفتخرون بعدلهم في القضايا المعروضة أمامهم ، وقد دونوا ذلك على جدر مقابرهم فقد جاء في احدى هذه المقابر ما ترجمته : « لم أحكم بين أخوين حكما يمنع أحدهما من تسلم ما يخصه من ميراث والده » . ويظهر أن المتبع في محاكم تلك العصور أن تقدم اليها الدعاوى مكتوبة باختصار ، وقد امتدح ديودور هذا النظام كثيرا . ويوجد بدار التحف ببرلين درج بردى قديم يحوى

حكما صادرا من قاض لمدع كان يطالب بحقه فى ميراث (٢) ٠ ويعتبر هذا أقدم درج أثرى من نوعه معروف للآن ٠ ودلتنا الآثار على قضايا خصوصية كان الحكم فيها رئيس الحقانية وأحد القضاة المنتمين الى مدينة نخن ٠ وجاء أيضا فى بيان قضية اتهمت فيها ملكة بالخيانة أن الحكم فيها صدر من قاضيين منتميين الى مدينة نخن عينا بأمر ملكى خصيصا لهذا الغرض ولم يكن رئيس الحقانية منهما ٠ ولا شك فى أن هذه الحوادث تثبت شدة حرص الفراعنة على العدالة والانصاف ولولا ذلك لأعدمت الملكات الخائنات فورا بلا تحقيق بدلا من محاكمتهن قانونا أمام العدالة ليلقين جزاءهن ٠ والغريب أن حرص الملوك المصريين على العدل اضمحل الى نحو مائة سنة تقريبا ٠ والمعروف أيضا أنه فى أحوال خاصة سمح للمتظلم أن يقدم شكواه باختصار الى الملك رأسا ليحكم فيها كما يستدل من الحكم القانونى المدون بدرج برلين البردى المذكور سابقا (شكل ٢١) ٠

والوزير فى تلك العصور رئيس الحكومة والحقانية معا فكان لذلك يلى مرتبة الملك فى سياسة الدولة ٠ ونظرا لخطورة ذلك المركز كان ملوك الأسرة الرابعة يسندونه الى أولياء العهد ٠ والى هذا الوزير كانت تحول كل المخاطبات الرسمية والمكاتبات الملكيـــة الخاصـــة بتسجيل الأراضى والوصايا فمكتب الوزير كان أشبه « بقلم السجلات » (الأرشيف) فى حكومتنا الحالية ٠ وقد عثرنا على وصية كاملة تقريبا لأحد أبناء ملوك الأسرة الرابعة وأخرى يرجع تاريخها الى مبدأ الأسرة الخامسة منقوشتين على جدر المقابر مضى عليهما ما ينيف على خمسة آلاف سنة ٠ أما النص الأصلى المسجل فى « قلم سجلات » الوزير فقد ضاع ٠ وهناك وصايا أخرى أقل أهمية منها حفظتها لنا الآثار وجرت العادة اذا وهب ملك فردا من رعيته قطعة أرض أعلنت هذه الهبة بمرسوم ملكى مسجل فى « المكاتبات الملكية » بديوان الوزير ٠

وكانت ادارة القصر الملكى مقسمة نظريا على الأقل الى قسمين نسبة الى الوجهين القبلى والبحرى ، ولذلك نجد بين أخبـــار الادارة المالية اصطلاحات « كالشـــونة المزدوجة » وبين أخبار القصر الملكى ما يعنى « الادارة الملكية المزدوجة » ٠ والمرجح أن تقسيما كهذا كان موجودا فى ادارة القطر الداخلية أولا ثم انعدم على توالى الأيام فلم يبق منه الا الذكرى ٠ ومعلوم أن الوزير كان أكثر رجال المملكة المصرية تبعة لأنه كان الرئيس المباشر لأعمال موظفى الحكومة الفرعونية كافة من اداريين وكتبة من أكبر كبير الى أصغر صغير ٠ زد على ذلك أنه كان يتولى الاشراف على عدة أمور

(٢) انظر : Pap. des Kgl. Mus. 82-3.

ثانوية خاصة بالدولة . وكان يشترط فيه فوق ذلك أن يكون بارعا فى فن العمارة حتى كان كثيرا ما يلقب « برئيس أشغال الملك » . ولما كان هـذا النفوذ الحـكومى العظيم منحصرا فى هـذا الوزير كان القوم كثيرا ما يعمدون اليه ليفصل فى دعاويهم وهو الشخص الوحيد الذى يقيم الحق ويمحق الباطل . ولا غرابة أن نجد هذا الوزير أكثر موظفى الملك محبة فى نفوس الرعية . ويرجع أن الرجل العاقل العظيم المدعو امحتب كان شاغلا لهذا المركز أيام الملك زوسر ، وكذا الفيلسوفين العظيمين قاقمنه وبتاح حوتب اللذين يرجع تاريخهما الى الأسرة الثالثة واللذين تداول القـوم حكمهما عدة قرون بعد عهد المملكة القديمة . ولشدة احترام هذا المركز فى نظر الرعية كان القوم يذكرون أحيانا بعد اسم صاحبه دعاء « بالصحة والسـلامة والعافيـة » كمـا يذكر عادة بعد أسماء الملوك وأعضاء الأسرة المالـكة .

هذا هو النظام الداخلى الذى جرت عليه الدولة القديمة فى القرنين الأول والثانى من عهدها كما يستدل من الآثار والحق يقال ان هذا النظام بلغ درجة وطيدة فى القرن الثلاثين قبل الميلاد بفضل مهارة موظفى الحكومة وان هذه الدرجة لم تبلغها أوربا الا فى أواخر الحكم الرومانى . ويتلخص هذا النظام فى تقسيم البلاد وتعيين موظفين لكل قسم للاشراف على ادارة شؤونه تحت سلطة الحاكم الذى يتلقى أوامره من مركز الحكومة العام بالقصر الملكى . وبديهى أن قوة الحكومة وهيبتها ترتبتا على كفاية فرعون الادارية ومهارة حكام أقاليمه . فاذا ضعفت مراقبة فرعون للأمور الادارية والسياسية ولو قليلا شعر حكام الأقسام بشىء من الاستقلال فلا ينصاعون كثيرا لأوامر الملك وينتج عن ذلك تفكك عرى المملكة . ولما كان هذا النظام يقضى بأن يكون حكام الأقسام كل منهم هو الوسيط الوحيد بين فرعون ورعيته نجم عنه أحيانا مخاطر يؤبه لها ، كأن يعلن قسم أو أكثر استقلاله عن الحكومة المركزية وينفرد حاكمه بالسلطة المطلقة . وقد حصل هذا فعلا فى عهد المملكة القديمة كما سيتضح فى الفصل التالى . ولا يبعد أن يكون هذا التفكك فى عرى المملكة راجعا الى عدم وجود قوة عسكرية ثابتة تحت اشراف الحكومة المركزية مباشرة . نعم ان كل قسم من أقسام مصر كان له رديف معلوم تحت ادارة موظفين ملكيين غير محنكين حربيا ، لكن هذه القوة لم تكن ثابتة ولا تابعة مباشرة لادارة القصر الملكى . ولعدم مهارة قواد هذه القوى فى الفنون الحربية كانت ميزتها العسكرية معدومة تقريبا . ومعـلوم أنه كان لكل معبـد رديف تابع له يستعمل فى قطع الأحجار والتعدين ونقل الأحجار ولوازم العمـارة الخاصـة بالمعابد تحت اشراف « صراف المعبود » .

وفى حاله الحرب يجند رديف الاقسام والمعابد والنوبة ويضم بعضها الى بعض تحت قيادة ضابط كبير يعينه مليك البلاد • ولما كان حاكم كل قسم مسئولا عن حركات رديفه كانت قوة فرعون مشتتة بين هؤلاء الحكام •

واعتبر القوم فرعونهم صاحب الحق المطلق على معظم أراضى القطر • أما خدام الأراضى من حراثين وحصادين وغيرهم فكانوا من طائفة الخدم أو العبيد التى شملت الجزء الأكبر من الرعية وكانوا يشتغلون تحت مباشرة موظفى حكام الأقسام • ويستدل من الآثار أن هؤلاء الخدام أو العبيد اعتبروا تابعين للأرض التى يخدمونها ولذلك جزئت عليهم الأراضى • ولم نعرف بالضبط احصاء بعدد السكان وقتئذ وليست لدينا وسيلة تمكننا من ذلك وكل ما اهتدينا اليه أن هذا الاحصاء بلغ فى العهد الرومانى سبعة ملايين نسمة • والمعروف أن جزءا كبيرا من أراضى القطر كان ملكا لأفراد الأسرة المالكة ونسل الملوك قبل عهد الأسرة ، وهؤلاء الملاك من الأمراء لم يشترط أن يكونوا موظفين حكوميين أو حكام أقسام ، فقد كان بعضهم عديم الصلة بالادارة • واعلم أن سكان القطر لم ينقسموا الى سادة ومسودين فقط بل كانت هناك طبقة متوسطة احتكرت الصنائع والفنون الجميلة وبرعت فيها كثيرا ولانزال نجهل الشىء الكثير عنها ، وسبب جهلنا هذا يرجع الى عدم متانة مقابر هؤلاء القوم والى استعمالهم ورق البردى فى معاملاتهم بكثرة ، وقد فقد هذا الورق كله تقريبا • وتدلنا أخبار العصور التالية أن المملكة القديمة كانت تحوى صناعا وتجارا يتداولون بضائعهم • ويرجح كثيرا وجود ملاك أحرار لبعض الأراضى من غير الأمراء •

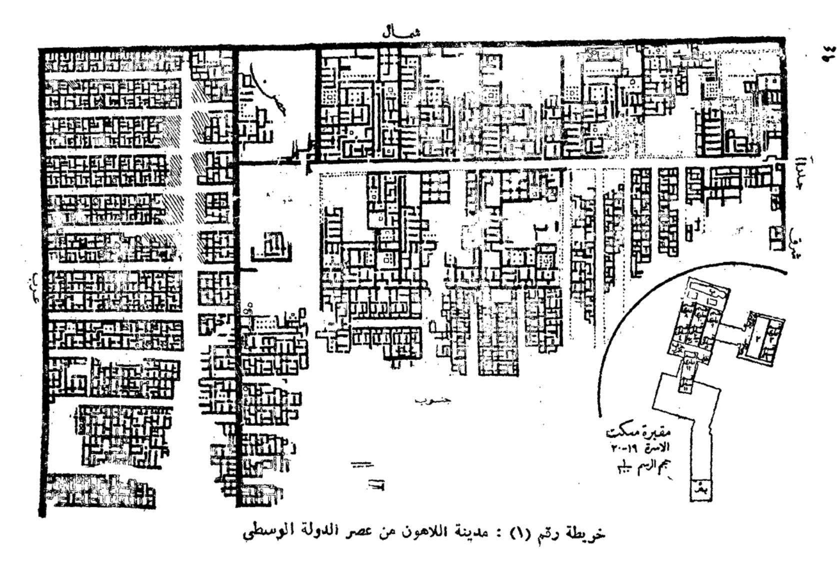
ورابطة الأسرة كانت أهم روابط الاجتماع وقتئذ كما هى الحال فى التواريخ الحديثة • واقتضى قانون تلك العصور العتيقة ألا يتزوج الرجل بأكثر من واحدة وأن أطفال هذه الزوجة هم ورثته الشرعيون • وساوت الزوجة الرجل فى كل أمر وكانت تعامل بكل احترام دائما كما انها كانت تشاطر بعلها وأولادها فى أفراحهم • وكثيرا ما تشاهد علاقات الود والمجاملة بين الأمراء وزوجاتهم منقوشة على آثارهم • والغالب أن هذه العلاقات نشأت بين الطرفين منذ نعومة أظفارهما ، لأن القوم على اختلاف طبقاتهم اعتادوا أن يزوجوا الأخ لأخته وأن يعتبروا أخته زوجته الشرعية ورئيسة منزله • لكن هذا لم يمنع الرجل من الاقتران بأكثر من واحدة غير شرعية • ولم يعتبر تعدد الزوجات شائنا وقتئذ بل كان عاديا كما هى الحال الآن فى البلاد الشرقية • وما أكثر احترام الأطفال فى تلك العصور لآبائهم

فقد لازم الابن خدمه قبر والده بعد وفاته ! · زد على ذلك أن القوم كانوا كثيري الافتخار بفرط حب أفراد أسرهم لهم ، واليك ما ورد في هذا الصدد في مقبرة أحدهم : «كنت محبوبا لدى والدى ووالدتي واخوتي وأخواتي» · اما الوراثة فكانت تنتقل عادة عن طريق أكبر البنات سنا كما هي العادة في كثير من الأقوام ما لم ينص على غير ذلك في وصية سابقة · وأمتن روابط الأسرة هي الخاصة بالأم فكان الشخص يفضل في وقت ضيقه حماية جده من أمه عن حماية والده · وما أكثر تكرار التذكير بمحبة الابن أمه التى حملته وأرضعته وأراحته وخدمته واعتنت به وقت دراسته ! · وقد بغض القوم الزنا ومقتوه · ولما كانت رابطة الزواج بين العبيد والفقراء ضعيفة في بعض الأحيان لضيق اليد كان الطلاق بينهم كثيرا وسهلا بنسبة ما كان حاصلا بين الأغنياء · قال أب لابنه ما ترجمته : « احترس يابنى من المرأة الأجنبية المجهولة في بلدها فهي كالبحار العميقة التى لا يعرف لها قرار · واعلم أن المرأة البعيدة عن زوجها تكتب لك كل يوم وترمى لك شركها في غيبة الرقيب ، فاحترس من الوقوع فيه لأن ذلك جناية فظيعة لمن يتعظ » (٣) · ولذلك اعتبر القوم الزواج أصون شيء للشباب · لكن هذا الوصف لا ينفى وجود الجرائم والموبقات بين القوم وقتئذ رغم هذه النصائح الأدبية الشريفة ·

ومظاهر الحياة بين طبقة الفقراء لم تكن شريفة سامية ، فمنازلهم كانت مشيدة باللبن ذات عرش بسيطة ومتلاصقة ولا يتجاوز أثاثها عادة مقعدا بسيطا وصندوقا أو صندوقين رديئى الصنع وبعض الخزف · أما بيوت العمال فكانت كبيرة مشيدة باللبن مقسمة الى حجرات متصلة بممر طويل · وهذه البيوت كانت تشيد في مدن الأهرام وبالقرب منها · والظاهر أن معيشة الزراع كانت أكثر حرية وصحة ونعيما من معيشة عمال الأهرام ومدنها (خريطة رقم ١) ·

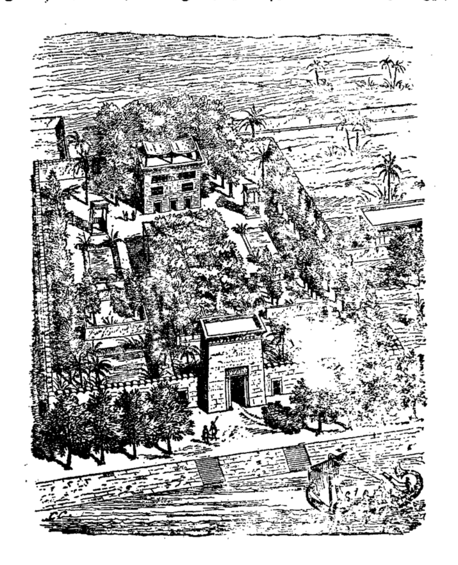
أما منازل الأغنياء والموظفين فكانت كبيرة حاوية وسائل النعيم فقد جاء أن أحد أمراء الأسرة الثالثة المدعو متن كان يقطن منزلا تربو مساحته على ثلمائة وثلاثين قدما مربعا مشيدا بالأخشاب واللبن المجفف في الشمس فكان بذلك بناء خفيفا طلق الهواء مناسبا لطقس القطر ولكثرة منافذ الجدر ذات الثقوب العديدة في حجرات المسكن أصبحت المنازل كالأبنية اليابانية ، فاذا هبت الزوابع سدل القوم ستائر مزخرفة على منافذ بيوتهم · وليلاحظ أن بناء قصر الملك لا يختلف كثيرا عن هذا

(٣) انظر Pap. de Boulaq I, 16, 13 ff ; Erman, Aegypten, 223.



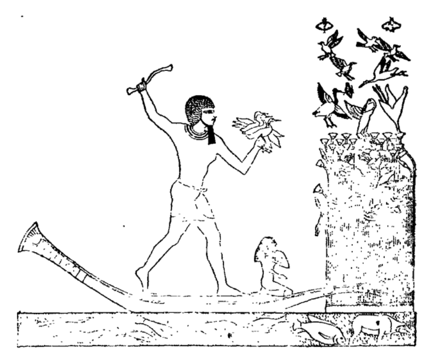
خريطة رقم (١) : مدينة اللاهون من عصر الدولة الوسطى

التركيب الخفيف لكنه كان محصنا من الخارج ٠ لهذا السبب امحت آثار مدن مصر القديمة فلم يبق منها الا أسفل جدرها المهدمة ٠ وأهم أثاث هذه المنازل السرر والمضاجع والمقاعد والصناديق الآبنوسية المطعمة بالعاج بأحسن ما جادت به أيدى العمال المهرة ٠ ولم تكن الموائد كثيرة الاستعمال الا أن الأوانى المرمرية الثمينة أو المصنوعة من الأحجار الأخرى الغالية أو النحاسية أو الذهبية أو الفضية كانت مرفوعة على حوامل عالية عن الأرض ٠ وغطى القوم أرضهم بالحصر السميكة واعتاد النسوة على الأخص تفضيلهن الجلوس عليها بدلا من المضاجع والمقاعد ٠ أما الغذاء فكان متقنا متباين الألوان ٠ واعتاد القوم أن يقفوا على أرواحهم بعد وفاتهم أنواع



شكل (١٣) قصر وحديقة لنبيل مصرى من عهد الدولة القديمة ٠

الأغـذيه الكثيرة ، واليك بيـان ما جاء بوصية أحدهم لتوزيعه بقبره .
« عشرة انواع من اللحم وخمسة أشكال من الطيور وستة عشر صنفاً من الخبز والكعك وستة أنواع من النبيذ وأربعة أشكال من الجعة وأحد عشر صنفاً من الفواكه • علاوة على أنواع الحلوى العديدة وغير ذلك » (٤) •
ولم يرتد الوجهاء الا ملابس بسيطة للغاية عبارة عن معطف مثبت حول الوسط وواصل الى الركبتين أو الساقين • واعتاد القوم أن يحلقوا رءوسهم بالموسى وأن يضع سراتهم على رءوسهم في الحفلات الرسمية قلانس شعرية • ولهذه القلانس نوعان أحدهما قصير الشعر أجعده وآخر طويله وناعمه مفروقا في وسطه • وكانوا ينحلون بقلائد ذهبية مرصعة بالجواهر الكريمة • أما باقي الجسم من الوسط فما فوق فكان عاريا • وبهذه الهيئة اعتاد سراة القوم مقابلة زائريهم وتفقد أعمال مزارعهم قابضين على عصا طويلة في أيديهم • أما ملابس نسوة السراة وأولادهم فكانت أبسط من ملابس الرجال وهي عبارة عن ثوب ضيق غير مكمم مصنوع من الكتان الأبيض كاس للجسـم من الثديين الى القدمين ومثبت فـوق الكتفين « بشريطين » • والجزء الأسفل من ملابس السيدات ضيق بالنسـبة



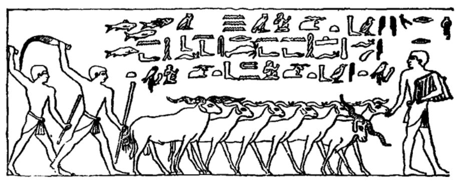
شكل (١٤) نبيل من عهد الدولة القديمة يصطاد وحش الطير بعصى صغيرة وهو واقف في سفينة من البوص تمخر في مستنقعات البردى •

(٤) انظر : Erman, Aegypten. 265 : Dümrchen Giabpalast, 18-26

للمستعمل في عهدنا هذا بحال عاقت سهولة المشى · أما حلى النسوة فعبارة عن قلنسوة طويلة الشعر وطوق وقلادة وأساور · ولبس القوم الخف أحيانا لكنهم لم يتعودوه · ونظرا لحرارة الجو كان الأطفال كثيرا ما يعيشون بلا ملابس · واكتفى الفلاحون برداء بسيط ساتر للعورة مثبت بالوسط لكنهم كانوا كثيرا ما يخلعونه وقت القيام بأشـــغالهم فى الحقول · أما نسوتهم فكن يرتدين قميصا طويلا ضيقا شبيها بلباس نسوة السراة وكن يساعدن أزواجهن كثيرا عاريات فى أعمالهم الشاقة كالحصيد وذر الحبـــوب ·

وكان المصرى قديما ولوعا بالطبيعة والمعيشة الخلوية فكانت منازل السراة تحيط بها الحدائق الحاوية لأشجار التين والنخيل والجميز والعنب وغير ذلك (شكل ١٣) · وتوجد أمام هذه المنازل غدران صناعية مبنية الحافات مملوءة بالأسماك · أما خدم هذه القصور فكانوا عديدين ، اختص بعضهم بخدمة القصر واقتصر الباقى على الحديقة ، وكان الكل يشتغلون تحت مراقبة « رئيس الخدم » المسئول عن نظام القصر والحديقة معا · ولخدم الحديقة رئيس ثان مهمته العناية التامة بالأشجار · هكذا كان الأمراء يتنعمون فى منازلهم صارفين أوقات فراغهم بين نسوتهم وأولادهم لاعبين « الداما » أو مستمعين لأشجان الآلات الموسيقة كالقيثارة والمزمار والطنبور أو متفرجين على رقص نسائهم الرشيقات ولعب أولادهم بين الأشجار أو خوضهم الميـــاه · وكانت الأطفال كثيرا ما تلعب الكرة ويتسلق بعضهم ظهور البعض ولوحظ أن الأمراء كانوا ولوعين بالرياضة مع زوجاتهم وأولادهم فى قوارب صغيرة من سيقان البردى فى المستنقعات والبرك النيلية تحت ظلال الأعشاب الطويلة · وما أشد ولوع القوم بالمعيشة بين ملايين الحيوانات الصغيرة بتلك المستنقعات حيث كانت الزوجة تقطف أزهار السوسن واللوتس والابن يجتهد فى صيد الهدهد · أما الأب فكان يبذل جهده فى صيد الطيور الوحشية بقضبان خشبية ملتوية (شكل ١٤) · وقد تكثر الطيور حتى تحجب السماء ورغما من صعوبة القنص وقتئذ وما يحتاج اليه من نشاط وحركة كان الأمراء يفضون استعمال القضبان الخشبية المذكورة على الأقواس والرماح · وهوى الأمراء أحيانا صيد البحر فاستعملوا لذلك قضبانا طوية تنتهى بسلاح ذى حدين واجتهدوا فى صيد سمكتين بالحدين دفعـة واحدة · وقد يعترض النزهـة أحيـــانا جاموس البحر الشديد أو تمساح عنيد فيتغلب عليه الأمير بحربة طويلة تنتهى بحبل ثم يستعين بصيادى الجهة فيطردون هذا الوحش الضارى من ذلك المكان · ولم يقتصر ولوع السراة على هذه الرياضة بل كثيرا ما قاموا برحلات





شكل (١٥) الزراعة فى عهد الدولة القديمة : يشاهد فى القسم العلوى من الرسم طريقة الحرث وبذر الحبوب · اما القسم السفلى فيشاهد فيه اغنام ورعاتها سائرة على الاراضى المبذورة بقصد غرس الحبوب فى الارض · وينشد الراعى الأول وقت اختراقه المستنقعات الأنشودة الآتية المدونة هنا : « الراعى يخوض الماء وسط الأسماك محادثا سمك النهر ويمضى النهار محادثا سمك الغرب ··· » ·

خطيرة فى الصحراء لقتل الثيران البرية بالحراب أو لاقتناص الوعل والغزال والأيل والتيتل والثيران البرية والحمير والنعـام والأرانب ، أو الرؤية الحيوانات الوحشية الأخرى الغريبة التى تخيلها القوم وقتئذ كالعنقاء ذات أربعة الأرجل والرأس الواحد والجناحين وكالطيور التى لها رءوس النمور وتنتهى أذنابها بزهر اللوتس ! هذه الأفكار المسلية التى جالت بأذهان المصريين وتعلقهم بالطبيعة ونظرهم الى الحياة من وجهة الفرح والسرور رغم مجودهم العظيم الذى ضحوا به لراحة موتاهم فى الآخرة أثرت بوضوح فى نفسية المصرى فظهر ذلك فى فنونه ومصنوعاته التى فاقت فى الرقى والجمال مصنوعات ومبتكرات ممالك آسيا المعاصرة ·

ولنبحث الآن عن خيرات البلاد وحاصـــلاتها وتقدمها فى عهد الدولة القديمة التى تقرب مدتها من خمسة قرون والتى كانت حـكومتها ثابتـة النظام قابضة على زمام الرى معتنية بالجسور والترع فنقول :

ان حاصلات القطر ونتاجه بلغت وقتئذ أقصى درجاتها · وبديهى أن الزراعة كانت وما تزال أهم موارد الثروة فى مصر · ويرجح أن الحضارة

الاجتماعية والسياسية التى تكلمنا عليها سابقا ترجع الى كثرة الحاصلات الزراعية من القمح والشعير التى جناها الفلاح من أراضى واديه الفتية ، ولم تقتصر خيرات هذا الوادى على الحبوب بل شملت أيضا الكروم الكثيرة والخضراوات وقطعــان الأغنام والبهائم والمعيز والحمير والطيور والدجاج البرى وحيوان الصحراء والسمك مما لا تحصى · أما الخيــل فــلم تكن موجودة · كل هذا زاد كثيرا فى ثروة البلاد ، ولذلك كانت فلاحة الأراضى التى قام بها ملايين الســكان أهــم أسباب زيادة ثروة البــلاد ورفاهيتها



شكل (١٦) قطيع من البهائم يخوض غديرا · من عهد الدولة القديمة ·

سنويا · يلى ذلك فى الأهمية محاجر الجرانيت بالشلال الأول والأحجار الرملية جهة السلسلة والأحجار الصلبة الملسة جهة وادى الحمامات (بين قفط والبحر الأحمر) ومحاجر المرمر جهة حاتنوب (خلف تل العمارنة) وغير ذلك من محاجر الأحجار الجيرية الكثيرة كالموجودة جهتى عيان وترويا (طرة) تجاه منف · وقطع القوم الجرانيت من محاجر الشلال الأول كتلا كبيرة يتراوح طول منها بين عشرين وثلاثين قدما وتتراوح زنتها بين خمسين وستين طنــا · وقد أظهــر المصريون مهــارة مدهشـــة فى نحت ونقش الأحجــار الصلبة كالديوريت بمعــاول نحاسية وفى قطع كتل الجرانيت المستعملة لأغطية التوابيت بالمناشير والمثاقب والمعاول وغيرها · أما التعدين فبلغ شوطا بعيدا اذ بلغ عدد الفعلة القائمين بهذا الأمر بطور سيناء قدرا كبيرا · واســتخرجوا النحاس والملاخيت الأخضر والازرق (المســتعمل للتطعيم الدقيق) والفيروز واللازورد · ولم نهتد للآن الى منــاجم الحديد لكننــا نعرف أنهم صنعوا منه آلات (٥) · أما البرونز فلم يكن مســتعملا وقتئذ · وتقدمت صناعة المعادن فصنع القوم الآلات النحاسية والأقفال والمسامير والرزز وأدوات الزينة على اختلاف أنواعها ، علاوة على الأوانى

(٥) المقصود بهذا الآلات المصـــنوعة من حديد النيازك ، أما فى صـــناعة الآلات الحديدية فلم يعرف الا فى عصر متأخر ، ويبدو انه نشأ فى آسيا الصغرى فى أواخر الألف الثانية ق·م· – (المحرر) ·

النحاسية المطـرقة التى استعملها الأغنيـاء على موائدهم وكذا الأسلحة النحاسية • أما الصياغة فكانت دقيقة متقنة • ولما كانت الفضة تجلب بكميـات قليلة من اقليم قيليقيـا (Cilicia) بآسيا الصغرى أصـبحت بطبيعة الحال أغلى قيمة من الذهب الذى كان كثيرا بين صخور الجرانيت على سـاحل البحر الأحمر وفى وادى الفواخير على طريق قفط عـلاوة على ما كان يستخرجه الأجانب ويأتون به من صحارى النوبة الشرقية الغنية • ولم نهتد للآن تقريبا الى مصوغات فرعون أو أمير من عهد المملكة القديمة لكننا نسـتدل من النقوش البـارزة الموجودة على جدر محاريب المقابر أن صياغ ذلك العهد وخلفاءهم فى عهد المملكة المتوسطة تقدموا كثيرا فى الدقة والاتقان وسلامة الذوق بمرور الزمن منذ الأسرة الأولى (شكل ١٧) •

وخيرات وادى النيل كثيرة متنوعة تسد لوازم مصنوعاته المهمة ومع سهولة احضار أحجار البناء الجيدة شيد القوم عماراتهم فى معظم الأحيان باللبن المجفف فى الشمس كما يعمل الآن فلاحو عصرنا ، فشيدوا به منازل العمال وقصور الأغنياء والمستودعات والمخازن والقلاع وأسوار المدن وذلك لرخص المادة وسهولة استعمالها ، وكانت للبن مصانع مخصوصة • ولخلو وادى النيل من الغابات استعمل أهله أخشاب النخيل والجميز والأثل والسنط لكثرة وجودها بالوادى رغم رداءة مادتها • ولندرة الخشب الجيد



شكل (١٧) حوانيت السباكين فى عهد الدولة القديمة : يشاهد فى الجزء الأيسر من القسم العلوى طريقة وزن المعادن النفيسة والحجر الملكى • وفى الجزء الأوسط رجال يوقدون على الحلى مستعينين على ذلك بانابيب طويلة • وفى الجزء الأيمن صب تلك الحلى وطرقها • أما القسم السفلى فيظهر طريقة تركيب القلائد وادوات الزينة • ويلاحظ وجود الأقزام فى هذه المصانع •

أصبح غالى الثمن ، ومع غلائه تقدمت النجارة كثيرا فأخذ أغنياء القطر يجلبون من سورية مايلزمهم من خشب الأرز الذى صنع منه نجاروهم ما يدهش الناظر ويأخذ بلبه • وبرع صناع ذلك العصر فى صناعة خشب الآبنوس والعاج المستحضرين من الأقاليم الجنوبية • وانتشرت صناعة السفن فى كل مدينة ومزرعة كبيرة • ثم تعددت أنواعها فأصبح منها الضخم الكبير المستعمل لشحن البضائع والغلال والبهائم ، كما صار منها القوارب البحرية البديعة ذات القلاع العظيمة والمجاديف العديدة التى استعملها الأمراء للتنعم والرفاهية • وسفن ذلك العصر أقدم سفن معروفة للآن طافت شواطىء البحر الأحمر •

وفى الوقت الذى كان الفخارون يصنعون فيه جميع الأوانى والأوعية والجرار والأظرف والصحاف الكبيرة ، كان الخزاف يخرج بديع الأوانى اللامعة ذات اللون الأزرق أو الأخضر الناصع فأخذت بمجامع قلوب أهالى تلك الأزمنة حتى فضلوها تدريجا على الأوانى والأوعية الحجرية • وصنع الخزاف الزلع الكبيرة لتخزين الزيوت واللحوم وغيرها من أنواع الغذاء فى مخازن الأمراء والحكومة • وانتشرت الأوانى الخزفية بين ملايين الفقراء فأصبح لصناعتها مركز عظيم فى القطر • وأوانى هذا العصر ليست مزخرفة ولا متنوعة • واستعمل الزجاج فى طلاء الخزف ولكن لم تعمل منه أوان أو أدوات • ولما كانت أراضى القطر زراعية كثيرة المراعى كانت صناعة الجلود بطبيعة الحال معلومة ، فقد دبغ المصريون الجلود بمهارة فنعموها وصبغوها بكل الألوان واستعملوها لأغطية المقاعد والمضاجع والوسادات كما صنعوا منها المظلات والستائر • وارتقت صناعة الكتان لكثرته بالقطر فوضعت مزارع فرعون الكتانية تحت ادارة أمير نبيل • وغزل نساء الفلاحين الكتان ونسجنه ، وصنع القوم أنسجة كتانية خشنة

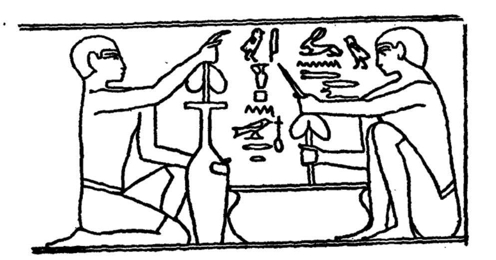


شكل (١٨) صناعة السفن فى عهد الدولة القديمة •

متينة جيدة المادة ووصلت الينا أنسجة ملكية من هذه المادة غاية فى الدقة والرقة يصعب على الرائى تمييزها من الانسجة الحريرية اذ تبدو تحتها أعضـاء لابسها • واستعمل القوم غير الكتان نبـاتات أخرى تنمو فى المستنقعات والأباطح فى صناعة منسوجاتهم الخشنة كالبردى • وصنعوا من البردى أيضا قوارب خفيفة عريضة وذلك بضم سيقان النبات بعضها لبعض ، وصنعوا منها أيضا الحبال بجدل تلك السيقان • واستعاضوا عن البردى أحيانا ليف النخيل فجدلوه وصنعوا منه الحبال ، ثم ضفروا سيقان البردى فصنعوا منها الأخفاف والحصر • وأهم من هذا وذاك أنهم شقوا أوراق البردى قطعا مسـتطيلة ثم لصـقوها فكونوا بذلك الأدراج المعروفة • واستعمال ورق البردى والمداد بسهولة فى المكاتبات وقتئذ كان من أعظم أسباب انتشار الخط الهيروغليفى وسريانه الى فينيقيا ثم الى سائر العالم المتمدين فاستعيرت منه حروف هجائية • وهكذا بعد ما كان القوم يكاتب بعضهم بعضا بالنقش على الألواح الطينية التى يتراوح وزن كل منها بين ثمانية وعشرة الأرطال ، ويستعملون لذلك الخط المسمارى أصبحوا يستعملون ورق البردى لخفته وسهولة حفظه بين طيات الملابس على الصدور ولكبر مساحته أيضا • كل هذه الميزات تظهر لنا السر فى كثرة توريد الأدراج البردية من مصر الى فينيقيا فى القرن الثـانى عشر قبل الميلاد ، وتبين أيضـا سبب أهمية صـناعة البردى فى عهـد المملكة القديمة (شكل ٢٠) •

وما أكثر المراكب والسفن التى مخرت فى مياه النيل وقتئذ مشحونة بخيرات البـلاد الزراعية والصـناعية قاصدة خزانة فرعون أو الأسواق التجارية ! • وتعامل القوم تجاريا بالمبادلة فاشتروا الأوانى الخزفية مثلا بالسمك والمراوح بالبصل والصناديق الخشبية بعلب العطر والدهان •

أما الأشياء الثمينة فكانت تشترى بحلقات ذهبية أو فضـية ذات ثقل معروف وتعتبر أقدم عملة معروفة فى التـاريخ • وتوزن البضائـع بمثـاقيل حجرية منقوش عليهـا وزنها وهى على شـكل حلقات أيضا • ولندرة الفضة كانت أغلى ثمنا من الذهب • وتقدمت البلاد فى التجارة والمالية فى عهد المملكة القديمة فدونت المعاملات الخاصة بهذه المسائل فى سجلات كما أن الطلبات والايصالات كانت لا تعتمد الا كتابة وكذا الوصايا والأعمال كانت تسجل للتأكد ومراعاة النظام • والعقود الطويلة المدة كانت تدون كاملة الشروط حتى لايبقى هناك مجال للشك والارتياب • ولكل أمير كتبة وأمناء يجردون أملاكه ويدونونها ويديرون حركة مخابراته الرسمية مع الأمراء وغيرهم • وقد عثر حديثا بجزيرة فيلة بمنزل قديم



شكل (١٩) نحت الأوانى الحجرية فى عهد الدولة القديمة : تلاحظ بين النحاتين نصوص هيروغليفية لمحادثات بينهما قال احدهما فيها للآخر : « هذا اناء بديع للغاية . فاجابه الآخر بقوله : هو كذلك حقيقة » .

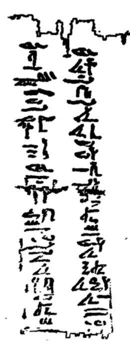
طينى مهدم على بقايا أوراق بردية لأمراء تلك الحدود يرجع تاريخها الى القرن السادس والعشرين قبل الميلاد تحوى معلومات منزلية وتجارية تخص صاحب ذلك المنزل . ولم يحتفظ الفلاحون الذين عثروا على هذه البقايا البردية بها لجهلهم قيمتها فلم يبق منها الا النزر اليسير ومنه عرف أن تلك الأدراج كانت صور أحكام قضائية ومذكرات . وقد اهتمت بها الحكومة الألمانية حديثا فطبعها أمناء متحف ببرلين حيث توجد محفوظة به للآن .

فى مثل هذه الظروف اشترط على كل موظف حكومى أن يكون متعلما راقيا . ولشدة حاجة الادارة المالية لكتبة الحساب أنشأت الحكومة مدارس خاصة لتخريج أشخاص لائقين لهذه الأعمال . ولما كان اهتمام المصرى بالعلم لفائدته فقط كان ولوعا بالبحث وراء الحقائق اقتفاء العلوم



شكل (٢٠) حصيد البردى فى عهد الدولة القديمة : يشاهد بالقسم الايسر فى الرسم رجلان يجمعان سيقان البردى ثم رجلان اخران يضمان تلك السيقان بهيئة حزم ثم اربعة رجال يحملون تلك الحزم .

من أجل ذاتها . وعلى كل حال فالتعليم وقتئذ كان مشرفا لصاحبه حتى بكر القوم في ارسال أطفالهم الى المدارس مع الدقة في مراقبتهم . وكثيرا ما كان الأساتذة يسدون النصائح والمواعظ الى الطلبة ، لكنهم استعانوا أحيانا بالقسوة ليتمكنوا بها من التأثير في أذهانهم . فمن أقوالهم المأثورة : «أذنا الطفل على ظهره فلا يسمع الا اذا ضرب عليهما» (٦) . واهتم



شكل (٢١) رسم لعمودين من النصوص المصرية القديمة ماخوذ من ميثاق رسمي يرجع الى عهد الدولة القديمة . وهذه النصوص مكتوبة بالخط الهيراطيقي على درج من البردي . والاصل محفوظ بمتحف برلين .

القوم بتلقين أطفالهم الحكم والآداب العالية واهتمامهم كان بليغا بحسن الخط . ولا يخفى أن الخط الهيروغليفي أصعب الخطوط مراسا لكثرة ما يحوى من صور الحيوانات والآدميين التى يشاهدها الزوار بدور التحف والآثار ، ولذلك صعب استعماله في الأعمال العادية اليومية . ولما أكثر القوم من استعمال الأدراج البردية والكتابة عليها اختزلوا الخط الهيروغليفي الى ما هو معروف الآن بالخط الهيراطيقي . ويرجع هذا الاختزال الى أقدم أسر الدولة القديمة . والفرق بين هذين الخطين كالفرق بين خطى المطابع والأيدى في اللغات الأوربية . وقد أثر انتشار هذا الخط المختزل في أعمال الحكومة والتجارة على نظام الادارة والمعيشة كثير فأصبح أداة للتمييز بين الأمي والمتعلم كما هي الحال في عهدنا هذا ، واشترط على كل من يرغب في التوظف في الحكومة كاتبا أو أمينا بالمخازن أو ناظر زراعة أن يكون ملما بالخط الهيروغليفي . وقد عثرنا على أدراج بردية

(٦) انظر : Pap. Anast 3.3 = Ibid. 5, 8.

استعملها صبية المدارس مدون بها حكم وجمل علمية ونماذج خطية القصد منها تمرين الطالب على كتابتها · وعثر حديثا على كمية كبيرة لمثل هذه الأدراج يرجع تاريخها الى عهد الامبراطورية أى بعد الدولة القديمة بألف وخمسمائة سنة تقريبا · وترجع معظم معارفنا عن تلك العصور الى ما خلفا لنا التاريخ من تمارين طلاب العلم وقتئذ ، ويجد القارىء في هذه التمارين اصلاحات المدرسين لها على الهامش · وعند تمام الدراسة المقررة يلحق الطالب بمكتب أحد الموظفين للتمرين على الأعمال الكتابية وتصريف الأمور حتى يصبح كفئا للالتحاق بوظيفه صغيرة تبتدىء بها حياته الكتابية ·

وان اهتمـام المصريين بالعلم كان لفائدته العملية فقط ، ولم تتق نفسهم الى دراسة أصول الطبيعة والكون الا اذا اضطرتهم الضرورة لذلك، وهذا أمر طبيعى فيمن لا يميل الى البحث فى الحقائق الغامضة ، ولذلك لم تتقدم معارفهم الا فيما يتعلق بمعيشتهم اليومية وأعمالهم الدائمية · وكانت معلوماتهم الفلكية كثيرة تمكن أجـدادهم بهـا من توقيت زمنهم بالسنين قبل عهد المملكة القديمة بألف وثلثمائة سنة تقريبا · ثم رسموا السماء وعرفوا أهم نجومها وابتكروا آلات مضبوطة تعرفهم مراكز النجوم ، لكنهم لم يهتموا بالتفكر فى أصل هذه النجوم لعدم فائدته فى نظرهم ، فلم يكلفوا أنفسهم مئونة التفكير والاجهاد · ولشـدة احتياج القوم الى الحساب فى معاملاتهم الحكومية والتجارية مهروا فيه · ووجد الكتبة بعض صعوبة فى حساب الكسور فحولوها الى أعداد صحيحة بالنسبة الى وحدة معينة الا كسر الثلثين الذى استعملوه بلا تعب أو عناء · وتوصل الكتبة الى حل بعض المعادلات الجبرية البسيطة والى معرفة مبادىء علم الهندسة فقدروا مساحة الدوائر بدقة غير أنهم صعب عليهم ايجـاد مساحة شبه المنحرف · وترجع معرفة المصريين لحجم نصف الكرة وسعة الأسطوانات الى احتياجهم الى معرفة حجوم كومات الحبوب وما تحويه الشون المستديرة الجدر من الغذاء · كل هذه العلوم استعملت فى الأعمال اليومية دون اهتمام للبحث عن أصلها · ولشد ما عجب المؤرخون من الضبط والاتقان اللذين توصل اليهما المصريون فى رسم قواعد الأهرام كهرم الجيزة الأكبر حيث تتجسم معالم الدقة والاتقان فى اتجاه الأضلاع نحو الجهات الأصلية الأربع مما يتمشى مع دقة الآلات الهندسية الحديثة · وقد عرف مهندسو العمارة والبناءون شيئا كثيرا من علم رفع الأثقال (الميكانيكا) كما يستدل من قبو مقبرة ببيت الخلاف (بتشديد وفتح اللام) يرجع تاريخها الى القرن الثلاثين قبل الميلاد · ولايزال هذا القبو أقدم بناء معروف من نوعه للآن (لوحة ٢٦) ·

ولم تكن معلومات القوم الهندسية فى نقل الآثار الضخمة الا بسيطة أولية لجهلهم بالبكرات والمحاول (Rollers) ٠ أما الطب فكان غزير المعلومات والنظريات الصادقة التى تشير الى دقة فى الملاحظات ٠ وللملك طبيب خاص رفيع المنزلة عظيم المكانة يشخص المرض ويصـف العلاج المفيد ٠ لكن يلاحظ أن أغلبه آت من طريق الوهم كاتخاذ مستحلب شعر العجل الأســود لمنع الشيب ، وجمع القوم علومهم الطبية فى أدراج بردية (٧) فاستعملها خلفهم من بعدهم فزادت شهرتها ، وانتقلت بعض الوصفات الطبية الى اليونان ثم الى أوربا حيث ما تزال معمولا بها بين المزارعين الى الآن ٠ وكانت العقبة الكأداء فى تقدم الطب وقتئذ اعتقاد القوم الراسخ بتأثير السحر حتى تساوت منزلة الطبيب بالساحر فأصبح المرضى يتعاطون معظم عقاقيرهم مصحوبة بتعاويذ سحرية ٠ ثم اعتقدوا أن التعاويذ أنجع فائدة من العقاقير لأنهم اعتبروا الأمراض نتيجة تلبس الأجســاد بالأرواح الخبيثة التى لا تتأثر الا بالسحر ٠

وبلغت الفنون الجميلة درجة قريبة من الطبيعة بعيدة عن الأوهام لم تبلغها أية بلدة أخرى فى تلك العصور القديمة ٠ ولم يكن المصرى بطبعه ميالا لتجسيم الجمال وتفضيله على غيره كاليونانيين بل كان مغرما بمظاهر الطبيعة الأصلية فقط كما يراها داخل منزله وخارجه ، ولذلك نقش زهر اللوتس على أيدى ملاعقه وشرب النبيذ فى أقداح زرقاوية اللون على شكل برعوم اللوتس وصنع أرجل سريره بهيئة أرجل الثيران القوية العضلات ولبسها بالعاج ورسم سقف منزله بهيئة سماء تبدو منها النجوم ورفعها على أعمدة شبيهة بالنخيل الباسقة الأغصان أو بسيقان اللوتس المنتهية أعاليها ببراعيم ذلك النبات ٠ وكثيرا ما زين المصرى أسـقف حجراته برسوم الحمام والفراش الطائرة بين الأشجار وكان يحلى أرض منزله باللون الأخضر على شكل مستنقعات يسبح بين أعشابها السمك وتشاهد فيهـا أحيانا ثيران وحشية طاردة للعصافير المحلقة فوق الأعشاب المائلة ٠ ويرى الناظر أن هذه الطيور تسعى فى الوقت نفسه لخلاص صغارها من ابن عرس الذى يريد افتراسها ٠ أما الأدوات المنزلية المستعملة يوميا فى منـازل الأغنياء فجميلة متناسبة الأجزاء تشاهد على أبسطها صنعا مناظر الطبيعة وجمالها المرئيـان فى خـلاء القطر وقتئذ ٠ ولما كان هـم المصرى تحسين وتنميق كل أداة مفيدة عمليا لم يعر الجمال أهميته النظرية فكانت الأشياء العملية أهـم ما أخرجته أيدى صـناع ذلك العصر ٠ فاذا نظرت مثـلا الى

---

(٧) ١ : ٢٤٦ ٠

تماثيل الدولة القديمة تجدها بلغت حدا مدهشا من حيث المطابقة للأصل، والسر فى ذلك أن القوم لم يصنعوا هذه التماثيل للفرجة والتجارة بل لفائدة المتوفى فى الآخرة كما المحنا الى ذلك (اللوحات ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ ٢٩و٣٠و٣١) ٠ والتماثيل نوعان: نوع يمثل الشخص بشكله المعتاد المعروف به بين أهله وقومه والآخر يظهره بشكل اصطلاحى ثابت على مر الدهور ٠ وقد بذل المثالون جهدهم فى جعل التماثيل مطابقة للأصل فلونوها بالألوان الطبيعية وصنعوا الأعين من الحجر البلورى فأصبحت ملامح الحياة البادية على تماثيل العهد المنفى لا مثيل لها فى تماثيل أى جيل بعد ذلك ٠ ويرجح أن أحسن ما عرف من التماثيل الجالسة للدولة القديمة هو تمثال الملك خفرع بانى هرم الجيزة الثانى (لوحة ٢٧) فقد صنع هذا التمثال من حجر الديوريت (Diorite) وروعيت فيه ملامح الجسم المهمة بوضوح واتقان على رغم صلابة مادته ٠ والحق يقال ان صانع هذا التمثال كان من أبرع رجال طائفته وقتئذ لأنه تغلب على صعوبات جمة لا يصادفها المثال العصرى ٠ زد على ذلك أنه أتم عمله بمهارة واتقان فأخرجه تمثالا حقيقيا لا يمحوه الدهر ويشهد فى الوقت نفسه لصانعه بالصبر والبراعة ٠ أظهر المثالون فى نحت الأحجار اللينة مقدرة تخلب الألباب كما يشاهد فى تمثال حمست الجالس المحفوظ بمتحف اللوفر (لوحة ٣١) حيث تشاهد على وجهه معالم الحياة كلها تقريبا ، أما الجسد فلا يبدو عليه ذلك المقدار من الدقة ، لأن المثال اعتبر الرأس أهم جزء فى التمثال فصرف كل جهده فى اتقانه ٠ وقد صنعت معظم تماثيل الملوك والأمراء على هذا الشكل ٠ أما النوع الثانى فكان قليل الصنع نسبيا واليه ينتمى تمثال الكاهن رع نوفر الذى تبدو عليه سيماء الأنفة والكبر الخاصة بأمراء تلك العصور (لوحة ٢٨) ٠ ويوجد بدار التحف بالقاهرة تمثال لشيخ البلد قصير القامة مملوء الجسم تبدو عليه علائم الامارة مصنوع من الخشب بمهارة واتقان جعلاه من أهم تماثيل الدولة القديمة المعروفة للآن (شكل ٢٧) ٠ اتفق أن ملامح هذا التمثال كانت مطابقة لملامح شيخ البلد الذى انتمى اليه العمال الذين عثروا عليه فلما وقع عليه نظرهم صاحوا صوتا واحدا « هذا شيخ بلدنا » فعرف التمثال منذ ذلك الوقت بهذا الاسم ولا نزال نجهل صاحبه الأصلى (٨) ٠ أما رسوم الخدم فلم تراع بها كلفة ولا أصول كما هى الحال فى رسوم الأمراء ، ولذلك ترى الخدم بهيئتهم الطبيعية يؤدون أعمالهم فى قبر سيدهم كما كانوا يتعلمون فى منزل دنياه ٠ ثم اعتقد القوم أن حاشية كل سيد تصحبه بعد وفاته فى الآخرة وتقوم بخدمته

---

(٨) اسمه « كاعبر » ـ (المحرر) ٠

هناك كما فعلت فى الدنيا فصنعوا تماثيل لأفراد الحاشية مطابقة لمهنتهم فى الدنيا ، مثال ذلك : تمثال الكاتب الشهير المحفوظ بدار التحف باللوفر (شكل ٣١) تبدو عليه النحافة والشخصية البارزة يتخيله الرائى انسانا حقيقيا جالسا مستعدا لتدوين ما يمليه عليه سيده من الأوامر مع أنه مر عليه خمسة آلاف سنة تقريبا ٠ ومن هذا النوع أيضا تمثال رأس الأسد (لوحة ٣٦) الذى وجد بمعبد الشمس ببلدة أبو صير والمصنوع من حجر صلب للغاية ٠

ولم يدر بخلد أحد أن تنجب الصناعة تماثيل معدنية بحجم الشخص الطبيعى بمثل ما فعله المثالون والنحاسون الذين تمكنوا وقتئذ من صنع تمثال للملك ببى الأول بحجمه الطبيعى فى أول عيد من أعياد جلوسه ٠ وقد جعل قوام هذا التمثال عمود خشبى ثم ألبس المعدن مجوفا مطرقـا وصنعوا عينيه من الزجاج الطبيعى والحجر الرملى الأبيض ٠ وهو الآن محفوظ بدار التحف بالقاهرة (لوحة ٣٢) ٠ ومع أن هذا التمثال قد أصابه العطب والكسر والصدأ فان رأسه ما تزال من أبدع ما وصل الينا من اثار ذلك العصر لقربها من الطبيعة ٠

وبلغت الصياغة شـأوا كبيرا ومارسها المثـالون فأخرجوا للمعابد المصرية تماثيل ذهبيـة بديعة كرأس تمثال الصقر المقـدس الذى وجده المستر كويبل بمعبد بمدينة الكاب (هيراكونبوليس) ـ (لوحة ٣٧) ٠ وبدن هذا الطائر مصنوع من النحاس المطروق وقد فقد ، وظاهر أن رأسه مطوق باطار تعلوه ريشـتنان سليمتان طويلتان مصنوعتان من الذهب المطروق وهو عبارة عن قطعة واحدة من الذهب الخالص داخلها قضيب من الزجاج الصخرى (Obsidian) ينتهى طرفاه بعينين لامعتين جميلتين ٠

وتمتاز رسوم المعابد ونقوش جدر محاريب المصاطب فى عهد المملكة القديمة ببروزها ، وهو أمر يتطلب براعة ومهارة فى تقدير البروز ، مع تناسب حجم الأشـكال السطحى خصوصا فى رسم الأشياء المستديرة والسميكة ٠ والغريب أن هذا النوع من الحفر كان معروفا قبل عهد الدولة القـديمة ، وأن القوم اصطلحوا قبل عهـد الأسرة الثالثة على طريقة لذلك قدسوهـا ولم يحيدوا عنها مع تقـدمهم فى الرسـم بعد ذلك ومعرفتهم أغلاطهم ٠ وتتلخص هذه الطريقة فى رسم أوجه وأكتاف الآدميين مشاهدة من الأمام ، أما الأجسام فترسم كما ترى من الجانب ، وعلى هذه الطريقة أستمر المصريون ينقشون رسومهم طول عهد المملكة القديمة لكنها كانت غاية فى الحسن والجمال (لوحة ٣٥) ٠ وقد اقتبسنا معظم معـارفنا عن

الحياة الاجتماعية فى عهد الدولة القديمة من رسوم جدر المصاطب المنفية ٠
ومن أعظم أمثلة هذه الرسوم لوح باب حسى رع الخشبى (لوحة ٣٨)
الموجود بدار التحف بالقاهرة ٠ ولون القوم جميع النقوش البارزة لكنهم
لم يجسموها تماما كما يشاهد فى الآثار اليونانية ٠ ولا مراء فى أن
المصريين أتقنوا النقش بالألوان واستعملوه كثيرا ، من ذلك رسم سرب
الأوز بمقبرة بميدوم (لوحه ٣٤) الذى تتجسم فيه براعة المصور المنفى
وطول باعه فقد أتقن انعطاف رأس هذا الطائر وبطء حركته وانثناء عنقه
وقت التقاطه دود الأرض بشكل يقرب جدا من الطبيعة ٠ ولا شك فى أن
مثل هذا الرسم يشهد لصانعه بالمقدرة وعظم الاعتماد على النفس وكثرة
التمرن فى هذا الفن الجميل ٠

ويمتاز الحفر فى الدولة القديمة بشدة مطابقته للطبيعة والحقيقة
مع عناية فائقة فى انجازه ، ولذلك أصبح أصحاب هذا الفن الأقدمون
يقارنون بزملائهم الحديثين ٠ والمعروف أن المثال المصرى كان الوحيد
وقتئذ فى الشرق الذى مثل جسم الانسان على الأحجار ٠ ولما كان أبناء ذلك
العصر قليلى الملابس برع كثيرا فى رسم العراة ٠ واليك ترجمة ما قاله
المسيو شارل بيرو (Charles Perrot) عميد علم الآثار بهذا الخصوص :
« يجب علينا أن نعترف بأن مثالى الدولة القديمة أخرجوا لنا نقوشا
لا تفوقها أحسن رسوم أوربا الحديثة » (٩) . واتقان تماثيل الدولة القديمة
مقصور على المظاهر فقط فيشاهد الانسان عليها ملامح الانفعالات النفسية
التى تعترى الشخص فى حياته ٠ ومن دواعى الأسف أننا لم نهتد للآن
الى ترجمة حياة أحد هؤلاء الأساتذة وكل ما عثرنا عليه هو اسم مثال
أو اثنين مع طول مدة ذلك العهد التاريخى ٠

وترجع معلوماتنا عن عمارة الدولة القديمة الى مباحثنا الحديثة فقط
لأننا لم نعثر للآن على آثار منازل أو قصور نتبين منها خفة مادة البناء وتعدد
منافذه ، وجل ما وصل الينا من هذا القبيل المصاطب الضخمة الحجرية ٠
والمعروف أن أهم عمارة ذلك العصر هى المصاطب والأهرام والمعابد ٠ وقد
ألمعنا الى هندسة المعابد فى الفصل السابق وهى عبارة عن خطوط رأسية
وأفقية بغاية البساطة ، ومع أن القبو كان معروفا فلا نجده مستعملا كثيرا
فى العمارة ٠ أما السقف فكانت تقام على عمد من حجر واحد جرانيتى
مضلع سواء أكان رباعيا أم أسطوانيا وهى أقدم ما عرف من نوعها حتى

---

(٩) Perrot and Chipiez, History of Art, II, p. 194.

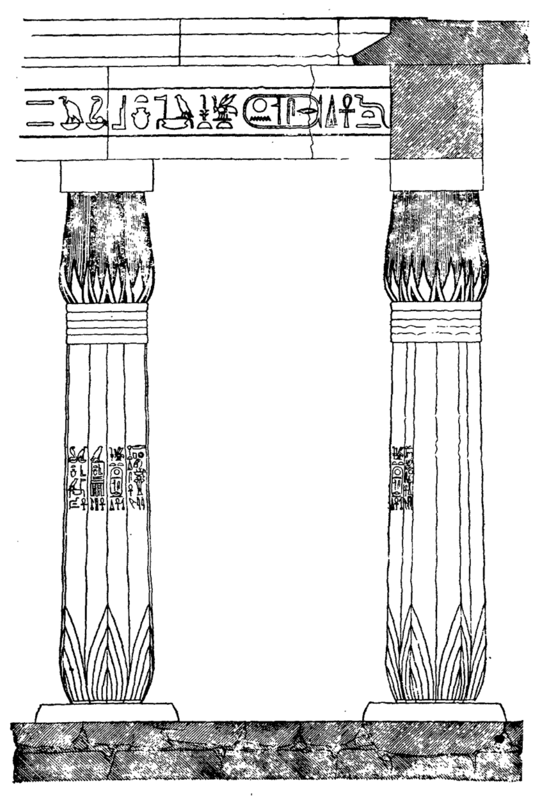
الآن · والمظنون أنها استعملت قبل عهد الدولة القديمة لأن عمد الأسرة الخامسة كانت متقدمة فى فن البناء ، فقد وجد بعضها على شكل النخيل الباسق القضبان بهيئة طاقة البردى تحمل السقف على براعيمها (شكلى ٢٢ ولوحة ٣٩) وهى علوم على العموم متناسبة الحجم · والمعروف أن ساحات معابد الدولة القديمة من أجمل ما نركه لنا فن البناء في ذلك العصر لأنها كانت محافظة بالعمد البديعة مزدانة الجدر بالرسوم الزاهية البراقة · ومنه يستنتج أن مصر كانت معهد صناعة العمد · ومع أن أهل بابل تقدموا فى تشييد المبانى الضخمة لم يبتكروا العمد التى صنعتها مصر بمهارة واتقان فى غضون الألف الرابعة قبل الميلاد ، لذلك يرجع الفضل فى حل لغز التشييد البنائى الى قدماء المصريين ·

ولما كان عهد الدولة القديمة ماديا من حيث المصنوعات والمجهودات لم يكن لترقية الآداب متسع كبير · لكن وجد بعض وزراء مثل كايجمنى وامحتب وبتاح حتب اشتهروا بذكائهم وحكمتهم فوضعوا فى خبرتهم الحيوية حكما وأمثالا راقية نسختها أقلام تلك العصور · وأقدم صورة وصلت الينا عن هذه الحكم يرجع تاريخها الى عهد الدولة المتوسطة · وقد وضع لنا الكهنة الكتاب فى عهد الأسرة الخامسة تاريخا لملوكهم القدماء مبتدئين بملوك ما قبل الأسرة الخامسة باختصار فلم يذكروا الا بعض حوادث تلك العصور وأهم أعمال الملوك وهباتهم للمعابد متجنبين التفاصيل التاريخية ، وتعتبر كتابتهم أقدم تاريخ ملكى من نوعه · ولما رغب الأمراء فى تخليد ذكراهم بعد الوفاة نقشوا تراجم حياتهم على جدر مقابرهم بأسلوب مختصر بسيط ، صلة حوادثه الجزئية بعضها ببعض ضعيفة وأهمها الحوادث والنعم الملكية التى أغدقت عليهم · ويلاحظ بين السطور أن المديح أخذ وقتئذ شكلا مخصوصا راقيا بلا تعرض للأمور الشخصية · ويرى القارىء لنصوص الأهرام ما يشير الى الاستبداد والبطش الوحشى وهذا فى الحقيقة بقايا عقائد دينية قديمة لم يبق منها الا اسمها · وتحوى هذه النصوص الدينية بعض الأساليب الشعرية لتشابه كثير من عباراتها · وتعتبر هذه النصوص أقدم أمثلة لآداب لغة تلك المدنية العتيقة · أما أغانى القوم فقد أثرت فى نفوسهم كثيرا وأفهمتهم فضل المتبوع على التابع لما يستدل من قصة الأخوين التى تداولتها الألسن بعد ذلك لاحتوائها على كثير من المحادثات بين راع وغنمه (١٠) وكما يستنتج أيضا من حكاية الخدم الذين خاطبوا سيدهم يوما وهم يحملونه فى الهودج قائلين ان ثقل الهودج يخف كلما تشرف بوجود سيدهم فيه (١١) ·

---

(١٠) راجع شرح شكل (١٥) ·

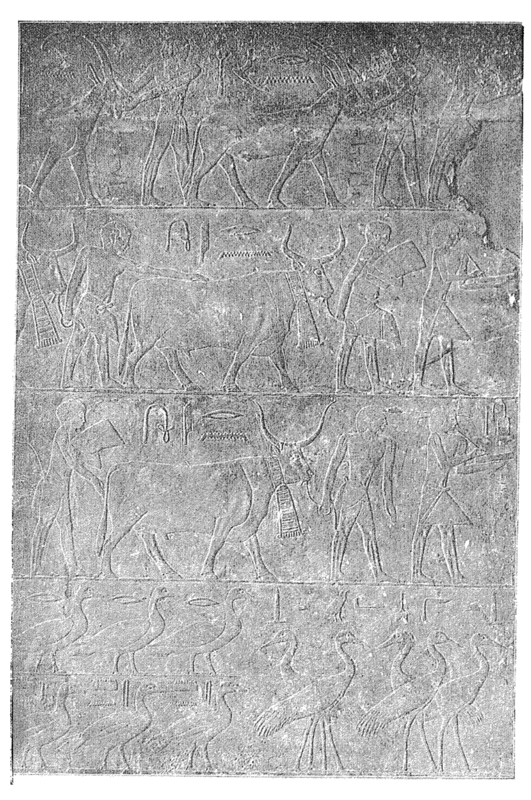
(١١) Zeitschrift 38, 65 ; Davies, Der El Gebrawi, II, p. VIII.



شكل (٢٢) صورة تمثل نصب العمد المحيطة بساحة معبد هرم أبى صير الذى يرجع تاريخه الى الأسرة الخامسة (ماخوذ عن بوخارت) ٠

وقد استعمل القوم آلات الطرب (الموسيقى) وكانوا منها جوقـا خاصـا للقصر الملكى تحت اشراف رئيس ، وتألف هذا الجوق من عازف بقيثارة يعزف وهو جالس وآخرين بمزمارين طويل وقصير • وكان القوم يغنون على صوت آلات الطرب خلافا لما هو جار الآن فى البلاد الأوربية • وتشتمل الموسيقى على قيثارتين ومزمارين طويل وقصير • ولم نهتد الى ألحان تلك العصور ولا منتهى معرفة القوم فى تقسيم هذه الألحان •

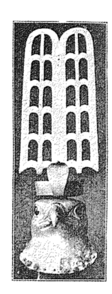
هذا وصف اجمالى لمعيشة الجد والمثابرة فى عهد المملكة المصرية مدة انتقال الحكم من ملوك طينة الى ملوك منف وبقى علينا أن نبحث فى تاريخ هذه المملكة المعتبرة الآن أقـدم ممالك الأرض والتى لا نعلم عن نظـامها الحكومى الا النزر اليسير •



لوحة ٣٥ - رسوم بارزة على جدر دير إحدى المصاطب من عهد المملكة القديمة يشاهد فيها قطعان البهائم وأسراب الطيور (دار تحف برلين).



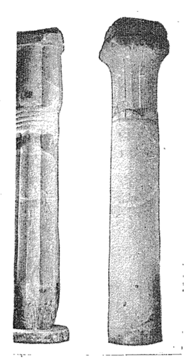
لوحة ٣٦ ـ راس مصنوع من الجرانيت (دار تحف القاهرة).



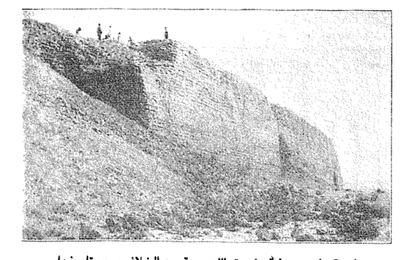
لوحة ٣٧ ـ راس نسر ذهبى وجد بمدينة هيراكونبوليس (دار تحف القاهرة).



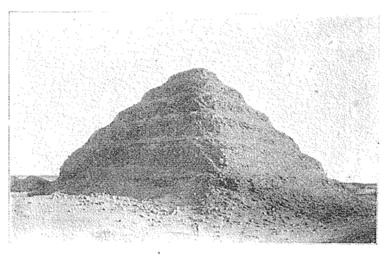
لوحة ٣٨ ـ صورة بارزة على لوح خشبى لشخص يقال له حسى رع (دار تحف القاهرة).



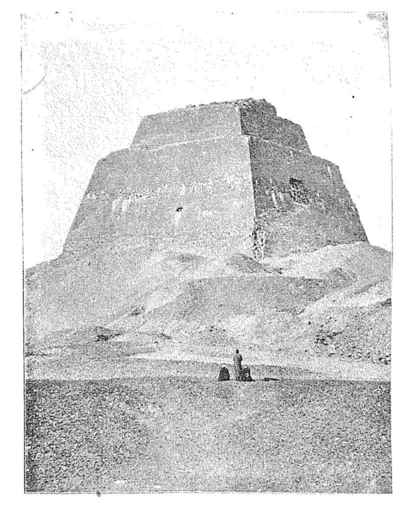
لوحة ٣٩ ـ صورة عمودين للأسرة الخامسة، العمود الأيمن مصنوع على شكل نخلة والأيسر على شكل طاقة من البردى (دار تحف برلين).



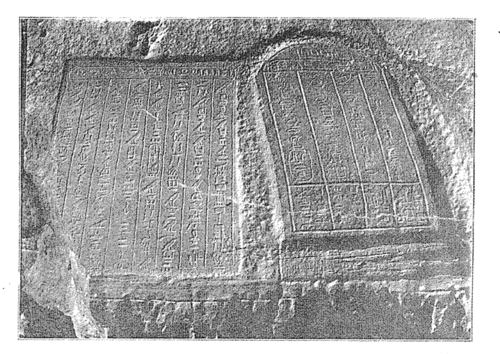
لوحة ٤٠ ـ مصطبة مشيدة باللبن جهة بيت الخلاف يرجع تاريخها إلى عهد الملك زوسر كشفها الأستاذ جارستانج.



لوحة ٤١ ـ الهرم المدرج للملك زوسر بسقارة.



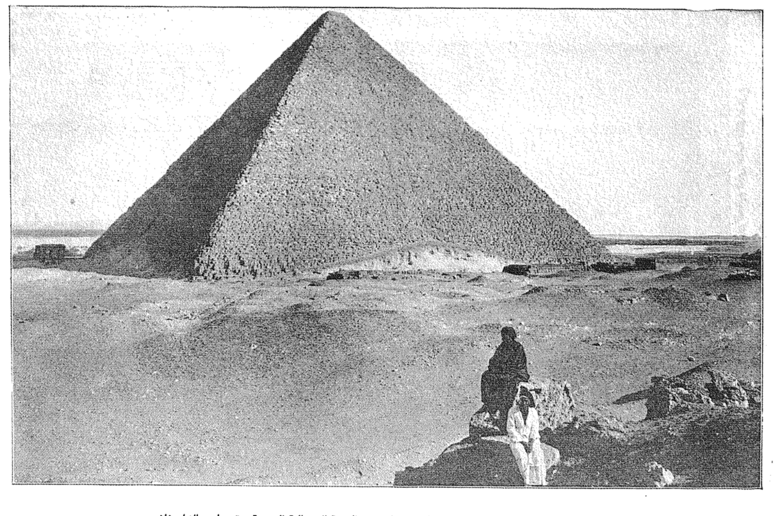
لوحة ٤٢ ـ هرم بميدوم إلي الملك حونى.



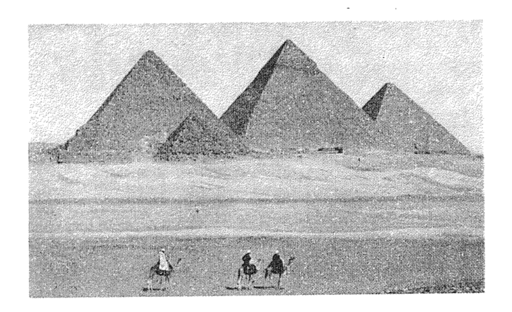
لوحة ٤٣ ـ نصوص صخرية بوادى مغارة بطور سيناء يرجع تاريخها إلى زمن الملك أمنمحات الثالث اعتبر فيها الملك سنفرو أحد معبودات تلك الجهة (مأخوذ عن مصلحة المساحة).



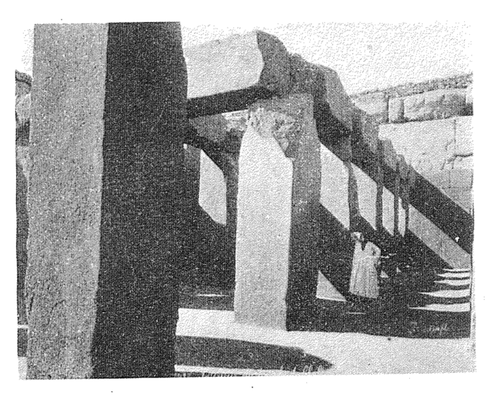
لوحة ٤٤ ـ صورة بقايا الصخور الكاسية لقاعدة الهرم الأكبر أوضح فيها بالخطوط السوداء مواقع اتصال تلك الصخور بعضها ببعض لصعوبة رؤيتها (مأخوذة عن كوفنجتون).



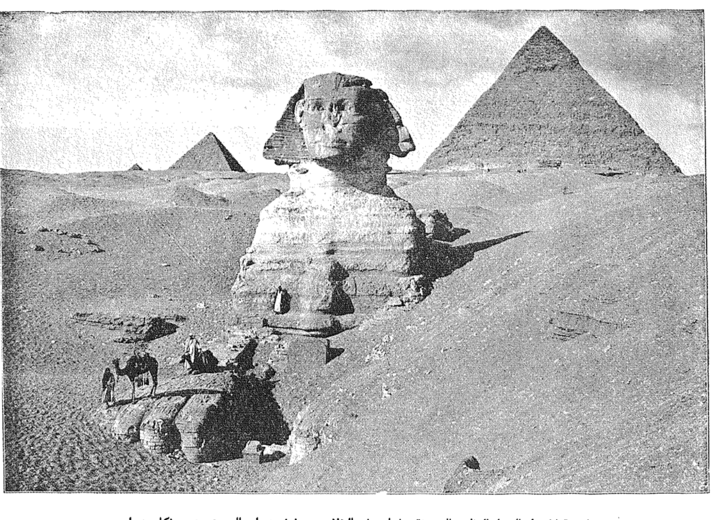
لوحة ٤٥ ـ هرم الجيزة الأكبر للملك خوفو كما يشاهد فى الجهة الشمالية الغربية ويقع وادى النيل خلف هذا الهرم.



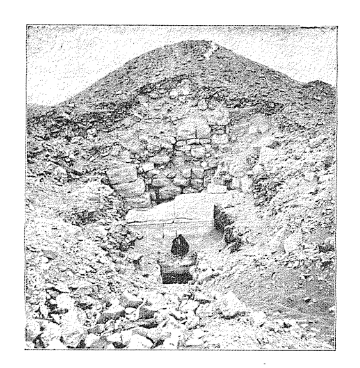
لوحة ٤٦ ـ أهرام الجيزة كما تشاهد من الجهة الجنوبية الغربية :
الهرم الأيمن لخوفو، والأوسط لخفرع، والأيسر لمنكاورع.



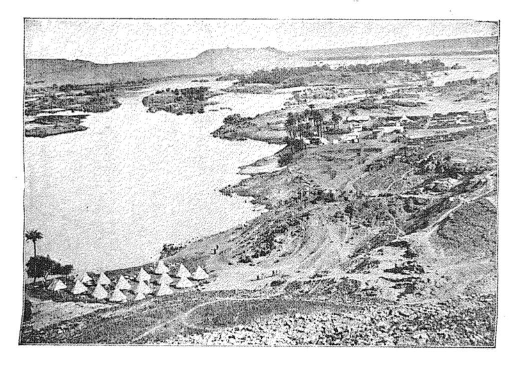
لوحة ٤٧ ـ ساحة مشيدة بالجرانيت عند المدخل الأثرى العظيم الذى أقامه الملك خفرع
على رأس الطريق الموصل إلى هرم الجيزة الثانى لخفرع.



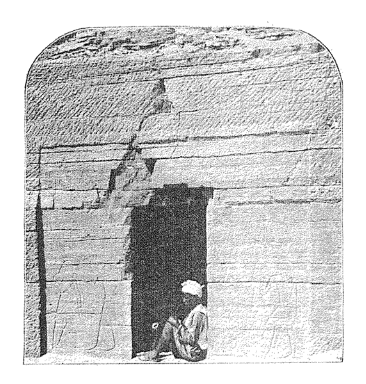
لوحة ٤٨ ـ أبوالهول العظيم بالجيزة ويشاهد فى الخلف هرم خفرع على اليمين، وهرم منكاورع على الشمال.



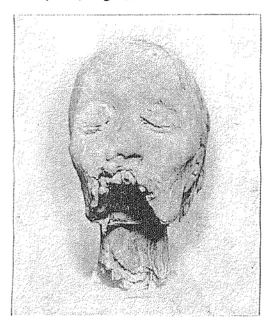
لوحة ٤٩ ـ بقايا هرم أوناس بسقارة من آثار الأسرة الخامسة وهذا أقدم هرم يحوى نصوصاً دينية.



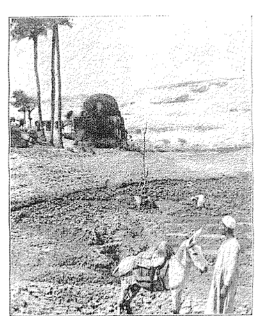
لوحة ٥٠ ـ صورة شمسية لجزيرة إلفانتين مسقط رأس أمراء حدود مصر الجنوبية وتقع مقابر هؤلاء الأمراء فى الصخور الغربية للنيل .



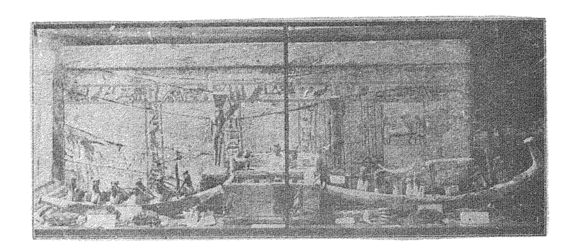
لوحة ٥١ ـ صورة مقبرة حرخوف بأسوان، يلاحظ في الحافة اليمنى نقوش هيروغليفية هى آخر ما ورد في خطاب هذه المقبرة المذكورة فى صلب الكتاب .



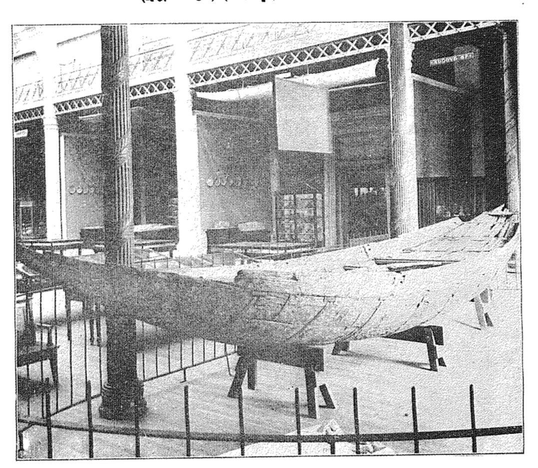
لوحة ٥٢ ـ رأس مومياء الملك مرنرع (دار تحف القاهرة).



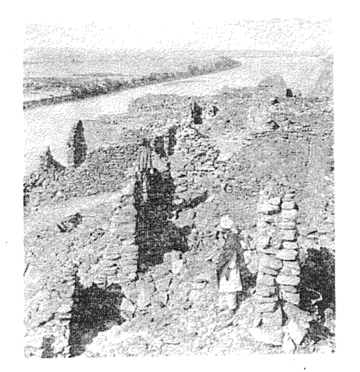
لوحة ٥٣ ـ صخور أسيوط الغربية الحاوية لمقابر أمراء العائلتين التاسعة والعاشرة (مأخوذة عن أندروود وأندروود بنيويورك).



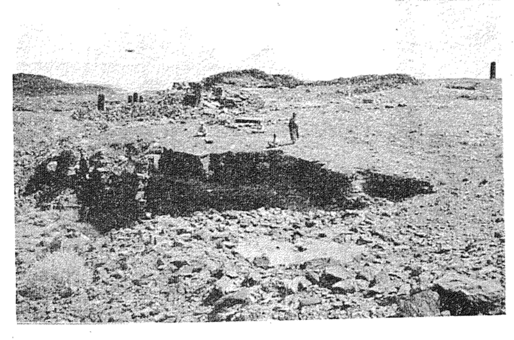
لوحة ٥٤ ـ صورة شمسية لتابوت ميت وأثاث مقبرته من عهد الدولة الوسطي ويري القارئ في الصورة سفنا وخدما تجهز الطعام والجعة ومنزلا (في الوسط). (دار تحف برلين).



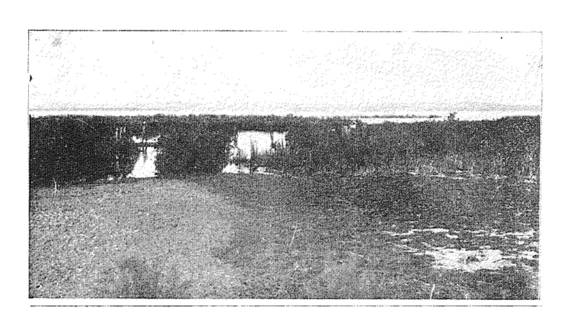
لوحة ٥٥ ـ سفينة للملك سنوسرت الثالث وجدت بهرمه جهة دهشور طولها ثلاثون قدماً وعرضها ثمانية أقدام وعمقها أربعة أقدام مصنوعة من خشب الأرز اللبناني (دار تحف شيكاجو).



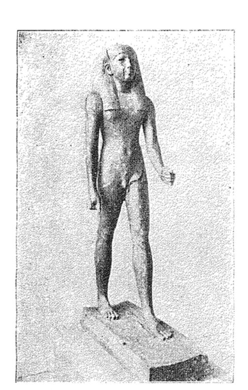
لوحة ٥٦ ـ صورة شمسية لنهر النيل بإقليم النوبة مأخوذة من أعالى الحصون الإسلامية المهدمة بجهة إبريم .



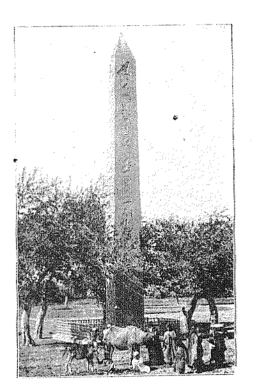
لوحة ٥٧ ـ بقايا مناجم الدولة الوسطى جهة سرابيط الخادم بطور سيناء (مأخوذة عن مصلحة المساحة).



لوحة ٥٨ ـ منظر بركة قارون بالجهة الشمالية الغربية بالفيوم.



لوحة ٦٠ ـ تمثال خشبي للأمير وپْ
رَعْ بدار تحف القاهرة.



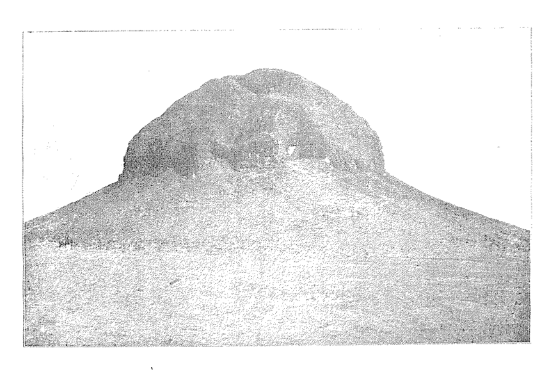
لوحة ٥٩ ـ مسلة سنوسرت الأول
بمدينة عين شمس (وأندروود).



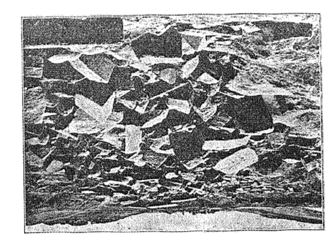
لوحة ٦١ ـ صورة امنمحات الثالث مأخوذة من تمثاله المصنوع بهيئة أبى الهول بجهة تنيس .



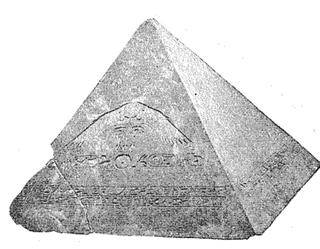
لوحة ٦٢ ـ النصف العلوى لتمثال امنمحات الثالث.



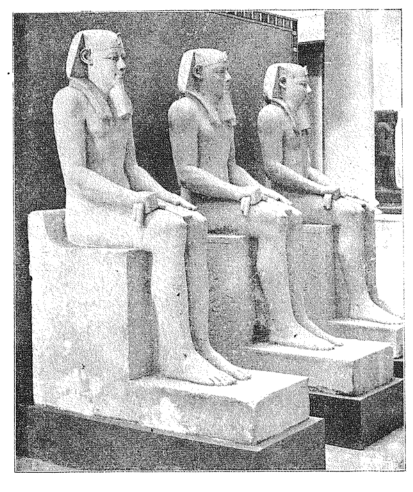
لوحة ٦٣ ـ هرم سنوسرت الثانى بجهة اللاهون مشيد باللبن.



لوحة ٦٤ ـ منظر مأخوذ لمعبد تنيس بالوجه البحرى فى اتجاه محوره (بترى).



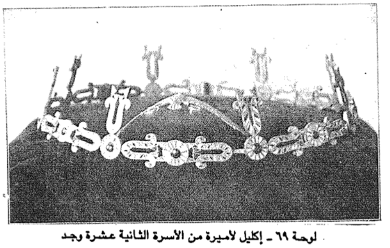
لوحة ٦٥ ـ حجر قمة هرم أمنمحات الثالث بدهشور.



لوحة ٦٦ ـ صورة شمسية لثلاثة تماثيل مصنوعة من الحجر الجيرى لأمنمحات الأول وجدت مع سبعة تماثيل أخرى من نوعها بأهرام هذا الملك بجهة اللشت (دار تحف القاهرة).

لوحة ٦٧ ـ قيثارى يعزف للمدعوين (دار تحف ليدن).

لوحة ٦٨ ـ إكليل الأميرة فى الأسرة الثانية عشرة وجد بقبرها بجهة دهشور (دار المتحف المصرى).



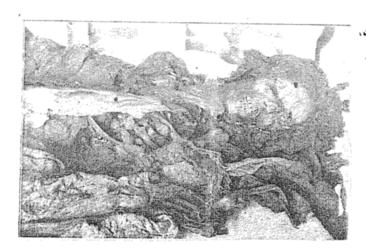
لوحة ٦٩ ـ إكليل لأميرة من الأسرة الثانية عشرة وجد بقبرها بجهة دهشور (دار تحف القاهرة).



لوحة ٧٠ ـ العثور على تمثال الملك نفرخارع سبكحوتب بجزيرة أركو أعلى الشلال بواسطة بعثة جامعة شيكاجو العلمية (سنة ١٩٠٧ ميلادية). ويشاهد التمثال فى الجزء الأيمن للرسم.



لوحة ٧١ ـ صورة شمسية لمومياء ملك يقال له سقننرع مصابة بكسر بالجمجمة (دار تحف القاهرة).



لوحة ٧٢ ـ الجزء الأسفل من تمثال مصنوع من الجرانيت، يمثل الملك خيان جالسا. وجد بجهة تل بسطة.

الفصل السادس

عصر الأهرام

في أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد انصرم حكم الأسرة الثانية الطينية بعد ما استمر حوالى أربعمائة سنة فتبعتها فى الملك أسرة منفية · وكانت منف معروفة وقتئذ بمدينة الحائط الأبيض كما جاء في رواية مانيتو · والمرجح أن انتقال الحكم من طينة (جوار العرابة المدفونة) الى منف كان نتيجة هجرة الأسرة المالكة وليس له علاقة بتغير الأسرة كما قال مانيتو · ويرجح أن الملكة نى ماعت حتب (Nemathap) زوج الملك خع سخموى (Khasekhemui) آخر ملوك الأسرة الثانية الطينية كانت والدة الملك زوسر أول ملوك الأسرة الثالثة المنفية · وقد صحب انتقال الحكم من طينة الى منف تقدم تدريجي في الحضارة وتحسين مطرد فى أحوال البلاد طوال حكم الأسرة المنفية الذى يقدر بنحو خمسمائة سنة · ومن دواعى الأسف أننا لم نعثر على معلومات كثيرة عن العهد المنفى الا ما له علاقة بالسنوات المائتين الأخيرة منه ، أما السنوات الثلاثمائة الأولى فلا نعلم عنها شيئا سوى ما حفظه لنا التاريخ من آثارها · لذلك كانت كتابة تاريخ مصر عن تلك العصور أشبه كثيرا بكتابة تاريخ أثينا في عهد بركليز (Pericles) لأن معلومات هذين العصرين جمعت من معابدهما وتماثيلهما وأوانيهما وغير ذلك ، وقد بلغت أثينا فى عهد بركليز درجة عظيمة فى الفكر والآداب والسياسة لم تشاهد فى أحسن عصور التاريخ المصرى · لكن مما لا مراء فيه أيضا أن آثار المملكة المصرية القديمة على قلتها توقع الدهشة الاستغراب في نفوس باحثيها من حيث التقدم والبراعة ، لذلك سنتخذ هذه الآثار هيكلا نشيد عليه تاريخ عصورها · وبديهي أن استنتاج المعلومات التجارية والصناعية والادارية والمعيشية وكذا الفنون والآداب الخاصة بذلك العصر من آثاره الضخمة الشامخة أمر أقل ما يوصف به أنه صعب المراس · زد على ذلك أننا ما نزال نجهل

كثيرا مما انتاب القطر المصرى مدة السنوات الخمسمائة التى نحن بصددها ، وكثيرا ما نلجأ الى التخمين والحدس خصوصا فيما يتعلق بتولية بعض الملوك وعزل الآخرين وبرقى القطر تارة وتأخره أخرى وبخضوع أمراء البلاد للفراعنة وانشقاقهم عليهم أو استقلالهم عنهم ، مما أدى فى أواخر الأمر الى انهيار صرح الحكومة المركزية ٠

وأول ملك عظيم حكم فى عهد الدولة القديمة هو زوسر مؤسس الأسرة الثالثة ومثبت أساس الحكم المنفى ٠ ومن أعمال هذا الملك مثابرته على استخراج النحاس من طور سيناء وابعاد حدود مملكته الجنوبية بضم جزء من النوبة اليها ٠ وجاء فى رواية أثرية لكهنة اقليم الشلال الأول أن الملك زوسر وضع يده على ذلك الاقليم ووقف لخنوم (Khnum) معبود تلك الجهة ايراد الأراضى التى على شاطىء النيل فيما بين جزيرة فيلة بالطرف الأسفل للشلال وتاكومبسو (Takompso) وهى مسافة يتراوح طولها بين خمسة وسبعين وثمانين ميلا ٠ وكثيرا ما أثار أهل ذلك الاقليم منازعات ومشاكسات على المصريين عدة قرون ٠ وليلاحظ أن هذه الرواية كتبها حديثا فى عهد البطالسة كهنة المعبودة ايزيس ، ويرجح أن بعض محتوياتها مطابق للحقيقة التاريخية (١) ٠

ويرجع الفضل فى نجاح سياسة زوسر الى حكمة ودهاء وزيره المدعو امحتب الذى برع فى الدين والسحر وفى ضرب الأمثال الصادقة وفى الطب والعمارة حتى ترك له اسما خالدا فى التاريخ المصرى على مدى الأزمنة ٠ ثم اتخذه الكتاب مثالا يحتذونه فى حياتهم العلمية فصبوا مداد محابرهم تيمنا بذكره قبل البدء بأعمالهم الكتابية (٢) وترنم الناس بأمثاله فى مدى قرون عدة وعلت منزلته وكبرت فاعتبر فى آخر التاريخ القديم اله الطب ، وكان معروفا عند اليونان بأموزيس ومشبها بمعبودهم الطبى أسكلبيوس (٣) ٠ وقد شيد لامحتب معبد جوار السيرابيوم بمنف وله فى كل من دور التحف فى العالم تمثال أو تمثالان من البرونز ٠ ولا غرابة ، فقد كان امحتب رجلا عاقلا ضاربا للأمثال بارعا فى الطب والعمارة حتى روى الكهنة الذين باشروا تشييد معبد ادفو فى عهد البطالسة انهم استرشدوا بتصميم معبد امحتب الأصلى ، ولذلك يظن أن زوسر شيد معبدا بتلك الجهة ٠ قال مانيتو ان زوسر ـ وهو المعروف أيضا باسم تسورثروس ـ أول من استعمل الحجر فى البناء ونحن ننقضه بأننا عثرنا

---

(١) Sethe, Untersuchungen, II, 22-26.

(٢) Schaefer, Zeitschrift, 1898, 147-8 ; Gardiner, ibid., 40, 146.

(٣) Sethe, Untersuchungen, II.

على أبنية حجرية يرجع تاريخها الى ما قبل زمن هذا الملك . والمعروف أن زوسر كان أول من شيد العمارات الحجرية الضخمة بمساعدة امحتب ، ولذا عد عصر هذا الملك عصر البناء الذى زاد على ما سواه . وشيد الملوك أسلاف زوسر مقابرهم باللبن ولأحدهم مقبرة كسيت أرضها بالجرانيت وأخرى شيدت فيهـا غرفة بالحجر الجيرى . فلما أتى زوسر حسن بنـــاء المقابر فشيد مصطبة عظيمة باللبن ببيت الخلاف جهة العرابة المدفونة جعل لها فتحة بأحد أطرافها تتصل بسرداب يمتد فى الأرض الرملية أسـفل بناء المصطبة المذكورة ، وينتهى هـذا السرداب بطريق منحدر يتصـل بعدة حجرات) (٤) (اللوحة ٤٠) .وسد هذا السرداب في خمسة مواضع بأبواب صخرية ضخمة . ويرجح أنه لم تدفن جثة زوسر فى هذه المصـطبة لأن ملوك تلك العصور اعتادوا أن يشيدوا لأنفسهم مقبرتين ، وعليه فالمظنون أن زوسر ترك الرمس المجاور لأجداده وكلف امحتب أن يشـيد له قبرا فخما بمنف يفوق فى الحجم مقابر أجداده (اللوحة ٤١) . فاختار امحتب لذلك مكانا فى الصحراء خلف منف وشيد به مصطبة حجرية على نسق مصطبة بيت الخلاف (بتشديد وفتح اللام) ارتفاعها خمس وثلاثون قدما وعرضها مائتان وعشرون وسبعة أقدام وطولها من الشمال الى الجنوب أكثر من ذلك . ثم ضخم حجم هذه المصطبة تدريجا بمرور الزمن فكبر القاعدة وزاد ارتفاعها وذلك ببناء خمس مصاطب بعضها فوق بعض كل واحدة أصغر حجما من التى تحتها فنجم عن ذلك بناء مدرج يقرب ارتفاعه من خمسة وتسعين ومائة قدم وفيه ست درجات أو مصاطب ويعرف الآن بالهرم المدرج ، وهو يمثل كيفية التدرج فى البناء من المصاطب المسطحة القمة كالموجودة ببيت الخلاف الى الهرم الأملس الجوانب المدبب القمـة الكثير الانتشار بين آثار خلفاء زوسر . وتعتبر مقبرة زوسر المنفية أقدم أثر حجرى كبير معروف للآن .

ومع جهلنا بتاريخ خلفاء زوسر ، فاننا نعلم أن قوة وثروة القطـر المصرى وقتئذ مكنتهم من تشييد أهرام حجرية كبيرة كهرمى دهشور . ويعتبر هذان الهرمان أقدم الأهرام المعروفة للآن وأعظم برهان على رقى وثروة المملكة المصرية أيام الأسرة الثالثة . ولا يتمالك الناظر لهذه الآثار ان يناجى نفسه عن سر تقدم البلاد الداخلى وقتئذ بل كثيرا ما يعجز المتأمل فى هذه العمارات عن اجابـة الأسئلة التى تدور فى مخيلته بصددهـا . والمعروف أن البلاد بلغت فى أواخر حكم الأسرة الثـالثة درجة رفيعة من الرقى والعز وعلى الأخص فى عهد الملك سنفرو الذى بنى سفنا كثيرة طول الواحدة مائة وسبعون قدما تقريبـا استعملت بمياه النيـل فى الأعمال

(٤) Garstang, Mahasna and Bet Khallâf, London, 1902

التجارية والادارية كما واصل أيضــا استخراج النحاس من طور ســيناء واخضع بدو تلك الجهات وسجل انتصاراته على صخورها • ثم وطد سيادة مصر على تلك الأقاليم حتى اعتبر في العصور التالية المؤسس الأكبر للنفوذ المصرى بسيناء وقد سمى باسمه أحد مناجم تلك الجهة • وبعد ما مضى على وفاته ما ينيف على ألف سنة افتخر الملوك بأن مشروعاتهم بسيناء فاقت كل مشروعات عملت هناك منذ زمن الملك سنفرو • واعتبر سنفرو فى ســيناء الها شريــكا للمعبودة حاتحور والمعبود سوبد فذكر فى الدعوات والتوسلات التى كان يتلوها هناك العمال الجسورون الذين ضحوا بحياتهم فى تنفيذ أوامر فراعنتهم (اللوحة ٤٣) • ونظم سنفرو وسائل الدفاع على حدود مصر الشرقية ويرجح كثيرا أنه شيد الحصون جهــة البحيرات المرة ببرزخ السويس التى بقيت الى أيام الأسرة الخامسة • وأقام الجســور والمحطات شرقى الدلتا التى خلدت اسمه مدة ألف وخمسمائة سنة تقريبا بعد وفاته • أما فى الغرب فقد بسط نفوذه على احدى الواحات الشمالية •

وأعظم من هذا وذاك أنه وطد التجارة مع الأقطار الشمالية فأرسل أسطولا بحريا مؤلفا من أربعين سفينة الى بلاد فينيقيا لجلب كتل الأرز الخشبية من منحدرات جبال لبنــان • واقتفى أثر زوسر فشن الغارة على النوبيين الشماليين فأسر منهم سبعة آلاف أســـير ومائة ألف من الأغنام والبهائم الصغيرة •

وقد شيد هذا الملك القوى العزيز « حاكم الأرضين » مقبرته لنفسه أقدمها بميدوم (٥) فيما بين منف والفيوم وهى على نمط مصطبة زوسر الحجرية تحتها لحد الجثة • ثم كبرت هــذه المقبرة تدريجا سبع دفعــات كما فعل زوسر بمقبرته فصارت فى آخر الأمر هرما مدرجا • بعد ذلك ملء الفراغ الذى بين درجات المصطبة وجعلت أضلع المصطبة الأربعة ملساء فصارت أقدم هرم معروف للآن (اللوحة ٤٢) • أما مقبرة سنفرو الثانية فاكبر من الأولى حجما وأبهة وهى على شــكل هرم دهشور ويعتبر أكبر أهرام تلك الجهة وأعظم آثار فراعنة تلك العصور • واستنتج من نقوش أثرية وجدت حديثا أن أوقاف هذا الهرم نفذت شروطها لمدة ثلثمائة سنة بعد وفاة سنفرو •

---

(٥) ثبت فيما بعد أن صاحب هرم ميدوم هو الملك حونى آخر ملوك الأسرة الثالثة وحمو سنفرو الذى يعتبر أول ملوك الأسرة الرابعة ، وقد بنى لنفسه هرمين عظيمين فى منطقة دهشور ـ (المحرر) •

ويعتبر حكم سنفرو مبدأ عهد الرقي والرخاء والقوة الذى بلغت فيه الدولة القديمة درجة رفيعة . وفى عهده ازدادت ثروة الأمراء والموظفين وقوى نفوذهم كما ألمعنا سابقا فامتنعوا عن تشييد مقابرهم باللبن جهة العرابة كما فعل أجدادهم وأخذوا يقيمون المصاطب الحجرية البديعة حول مقبرة مليكهم المفدى . وقد استنتجنا معلومات تاريخية قيمة فى عهد المملكة القديمة عن هذه المصاطب والأهرام الملكية الشامخة . أما تاريخ العصور التى أنجبت هذه المدنية ، فيبحث عنه فى المقابر الرملية التابعة لتلك الأزمنه السحيقة .

وبوفاة سنفرو أهم ملوك الأسرة انتقل الملك الى الأسرة الرابعة بلا اضطراب ولا انقلاب داخلى على ما يظهر . وأول ملك أتى بعده هو خوفو اول ملوك الأسرة الرابعة (٦) . ويظن أنه ينتمى الى الأسرة الثالثة لأنه آوى فى حريمه احدى محظيات سنفرو . لكن المعروف أن خوفو ليس منفى الأصل بل من جهة بنى حسن محل عبادة خنوم ذى الرأس الكبشى . وقد سمى المصريون تلك الجهة بعد ذلك « منات خوفو » ومعناها « مرضعة خوفو » نسبة الى مسقط رأسه . أما اسمه كاملا فهو « خنوم خوفو ومعناه « خنوم يحمينى » اشارة الى عبادة خنوم ذى الرأس الكبشى الذى كان يعبد فى منات خوفو . وجاء فى الآثار أيضا أن أحد كهنة خنوم بمدينة منات خوفو كان موظفا بمقبرة خوفو بعد وفاته (٧) . ولم نهتد للآن الى الطريقة التى توصل بها خوفو وقد كان أميرا بأحد الأقسام ، الى خلع سنفرو القوى والاستيلاء على عرش مصر وتأسيس الأسرة الرابعة . وجل ما أمكننا استنتاجه أن خوفو كان قويا جدا وذا نفوذ عظيم كما يشاهد ذلك فى هرمه الكبير بالجيزة المشرف على جميع ما حوله من الأهرام . ولا يسع كل مفكر فى أمر هذه الأهرام أن يستنتج أن الحكومة وقتئذ فكرت فى تشييد مقابر منيعة شامخة لتحفظ بها جثث ملوكها فاستخدمت لذلك معظم موارد البلاد ومهارة صناعها وأيدى عمالها . واذا أردت أن تتصور مقدار العظمة والسلطة فى حكومة خوفو ومقدار الدقه فى نظامها فاعلم أن هرم هذا الملك تطلب من الصخور ما يقرب من مليونين وثلثمائة ألف صخرة متوسط ثقل الواحدة منها طنان ونصف (٨) . وبدهى أن مثل هذا البناء كلف الحكومة كثيرا فى قطع الأحجار ونقلها وجمعها ، ولذلك لا يبعد أن الضرائب التى دفعها الأهالى للادارة كانت باهظة . وروى هيرودوت عن معاصريه أن بناء هرم خوفو تطلب مائة ألف عامل مدة عشرين سنة ، وقد أثبت الأستاذ

---

(٦) ثبت فيما بعد أن خوفو هو ابن سنفرو ووريثه الشرعى — (المحرر)

(٧) Petrie, Gizeh.

(٨) Mariette, Les Mastabas B. 1. Rougé, Inscription's Hiérogl.,

يترى أن هذا التقدير غير مبالغ فيه • ولا يخفى أن عددا عظيما كهذا يكفى تأسيس مدينة كبيرة بجوار الهرم ويستلزم أيضا عددا عظيما من العمال لقطع الصخور من المحاجر وهذا وحده يكفى أن تشرف عليه حكومة صغيرة خاصة به • أما الصـخور فكانت تقطع من محاجر المقطم جنوبى القاهرة وتحفظ هناك حتى زمن الفيضان النيلى فينقلها القوم بحرا الى سفح هضبة الهرم ثم يجرونها على جسر ضخم مقام لذلك الى سطح الهضبة (٩) • واعلم أن ضخامة هـرم خوفو وعظم نفقاته وكثرة ما تطلبه من الأشغال ليست فقط موضع الدهشة بل هناك أمور أخرى نستدعى النظر مثل اتقان البناء الضخم ومهارة استعمال الأحجار مع أنه لم يمض على هذا الاستعمال سوى خمسمائة سنة أى منذ عهد الملك دن • وقد ذكرنا فيما سبق أن البنـاء الحجرى فى عهد هذا الملك الأخير كان مقصورا على أرض القبر وعلى الحجر الجرانيتى وكان أيضا قليل الاتقان رديئه•أما الملك خع سخموى الذى أتى بعد دن بما يقرب من قرن فقد اقتصر فى قبره الملكى على بنـاء غرفة واحدة بالحجر • ومن ثم كان هذا التقدم العظيم فى المدة اليسيرة الأخيرة داعيا الى الدهشة والاستغراب • ويبلغ ارتفاع هرم خوفو أربعمائة وثمانين قدما أما القاعدة فمربعة يبلغ طول أحد أضلاعها سبعمائة وخمسين قدما • ولا تزيد نسبة الخطأ فى الطول والمسطح والفراغ عن $\frac{١}{١٠,٠٠٠}$ (١٠) ، رغم عدم انتظام مسطح القاعدة الأمر الذى عاق كثيرا من قياس الأركان وما بينها من مسافات • ويستدل على اتقان بنـاء هذا الهرم بأن مواضع تلاصـق صخوره الضخمة التى تقرب زنتها بضعة أطنان لاتزيد مساحتها عن $\frac{١}{١٠,٠٠٠}$ من البوصة وأن هذه الدقة فى السطوح والحافـات تشمل مساحات تقدر بالأفدنة مما لا يمكن مقـارنته بدقـة المهندسين العصريين الذين لا تتعدى دقتهم فى الصناعة بضع أقدام أو ياردات (١١) • والأحجار المستعملة لهذا البناء من النوع الجيرى عـدا حجرة التابوت وبعض حجرات أخرى فوقه حيث يختلف البناء كثيرا عن سائر الأجزاء • وبناء أسفل الهرم أتقن من أعلاه وربما كان ذلك نتيجة الاسراع فى انجازه • وقد سـدت الدهـاليز والممرات داخل الهرم باحكام فى عدة مواضع بصخور أو أبواب جرانيتية • أما الكسوة الخارجية فكانت مصنوعة من الحجر الجيرى باتقان (لوحة ٤٤)

---

(٩) المقصود بهذا صخور الكسوة الخارجية أما الصخور التى استخدمت فى بناء كتلة البناء الرئيسية فقد جلبت من الجيزة والسبب فى هذا هو أن صخور الجيزة من نوع خشن ردىء بينما أحجار الضفة الشرقية من منطقة طرة تمتاز بنعومتها ، فاذا صقلت ضارعت الرخام فى جمالها وأناقتها ـ (المحرر) •

(١٠) Petrie. History of Egypt, I. p. 40.

(١١) المرجع نفسه •

ويخترق وجهتها الشمالية مدخل الهرم وهو واقع فوق الدرجة الثامنة عشرة من القاعدة عند منتصفها . ولابد أن خوفو كان شهما مقداما لأنه بدأ بتشييد هرمه منذ توليه الملك ، زد على ذلك أنه غير على مرحلتين تصميم أساسه الأول فكبر القاعدة ليتسنى للمهندس أن يبنى داخل هذا البناء الضخم ممرات ودهاليز وما يلزم من الحجرات . وقد شاهدنا أن تكبير حجم الأهرام أمر حصل قبل عهد خوفو . وتبلغ مساحة قاعدة هرم هذا الملك ثلاثة عشر فدانا . وبالقرب منه وعلى شرقيه ثلاثة أهرام صغيرة على خط مستقيم استعملت مدافن لأعضاء أسرة خوفو (اللوحة ٤٥) . ويحيط بالهرم الكبير طريق عريض مكسو بالحجر الرملى البديع وشرقى هذا الهرم معبد تتلى فيه الأدعية لاستنزال الرحمة على روح خوفو ولم يبق منه إلا أرضه المكسوة بالرخام الأسود الجميل . أما الطريق القديم الموصل قاعدة الهرم بسفح الوادى فخرب وتلف وشيد على بقاياه الكفر (١٢) الموجود بتلك الجهة . ويوجد جنوبى ذلك المكان جزء من جدار قديم يظن أنه بقية سور المدينة التى شيدت بذلك الوادى والتى يحتمل أن كانت مقر خوفو وأفراد أسرته . ويجب علينا ألا ننظر الى الهرم من وجهة ضخامته وبنائه بل علينا أيضا أن نتخذه مثلا ظاهرا لانتقال القطر من الفوضى الى النظام والمدنية ولوجود حكومة مركزية قدية تسوس البلاد تحت ادارة شخص واحد .

وعثر على اسم خوفو على كثير من آثار عهده فى منطقة واسعة من دسوق الى تل بسطة فى الشمال الشرقى للقطر الى مدينة الكاب (هيراكونبوليس) فى جنوب الصعيد . أما أعمال هذا الملك فما تزال مجهولة اللهم الا ما ذكرنا عن هرمه . وقد روى عنه أنه واصل التعدين فى سيناء . وربما كان أول من قطع الأحجار من محاجر حاتنوب . وجاء فى رواية من عهد البطالسة أنه شيد معبدا لحاتحور بمدينة دندرة (١٣) . ومنه يتضح أنه قبض على موارد القطر جميعها . ولما أسن عين ابنه الأكبر وزيرا وعهد له بمهمة كبير القضاة كما كانت العادة وقتئذ . ثم عين خوفو ابنيه الآخرين فى المنصبين الكبيرين « بمالية المعبود » وعهد لها فى الاشراف على أعمال الحفائر .

وتوفى خوفو فتبعه فى الملك المدعو ددف رع أو رع ددف وما نزال نجهل تاريخه وعلاقته بأسرة خوفو . وقد عثرنا على هرمه جهة أبى رواش شمالى الجيزة وهو صغير الحجم . ولا علم لنا بشيء ما خلاف ذلك ولا يبعد أنه لم يرث خوفو فى الملك بل جاء فى آخر عهد الأسرة الرابعة .

---

(١٢) منطقة نزلة السمان وقد اكتشف بالقرب منها مؤخرا معبد الوادى الخاص بذلك الهرم — (المحرر) .

(١٣) Dümichen Dendera, p. 15.

ولم نتأكد للآن اذا كان خفرع ابن ددف رع أم لا (١٤) · لكنه استدل من وجود لفظ رع في كلا الاسمين أن كهنة رع قوى نفوذهم وقتئذ· ومعنى خفرع « ضوء الشمس » · وأما لفظ رع فيعنى المعبود الشمسى · وشيد خفرع لنفسه هرما بالقرب من هرم خوفو (اللوحتان ٤٦ و٤٧) لكنه أصغر حجما وأقل دقة ، وقد حلى جزأه الأسفل بكسوة من الجرانيت المستخرج من جهة الشلال الأول ، وما تزال بعض آثار معبده موجودة ازاء وجهته الشرقية · وهذا المعبد يبتدىء منه طريق يوصل الى وادى النيل وينتهى بمعبد بديع شيد من الجرانيت ، وقد شيدت جدر هذا المعبد من الداخل بالجرانيت الأحمر والمرمر القاتم ويوجد باحدى قاعاته بئر عثر فيها الأستاذ ماريت على سبعة تماثيل لخفرع أجملها التمثال السابق وصفه في الفصل السالف (اللوحة ٢٧)· وهذا المعبد قريب من أبى الهول لذلك أطلق عليه أحيانا اسم « معبد أبى الهول » (١٥) مع عدم وجود علاقة تاريخية بينهما · وللآن لم تثبت علاقة أبى الهول بخفرع · والمعروف أن تمثال أبى الهول يرمز به عادة لفرعون مصر لأنه يمثل رأس فرعون وقوة الأسد المفترس · وعثر بين رجلى أبى الهول الأماميتين على حجر تاريخى من عهد الملك تحوتمس الرابع الذى أتى بعد خفرع بألف وأربعمائة سنة تقريبا وعليه عبارة تشير الى خفرع ، فظن بعض الأثريين أن الرأى العام فى عهد تحوتمس الرابع كان يعتقد بوجود صلة بين خفرع وأبى الهول المذكور · ووراء ذلك لا ندرى شيئا عن أعمال خفرع ويظهر أن المملكة المصرية حافظت فى عهده على تقدمها وعزها كما كانت أيام خوفو ·

وتوفى خفرع فأعقبه فى الملك منكاورع الذى شيد الهرم الثالث الصغير · واذا اعتبرنا حجم الهرم متناسبا مع قوة صاحبه جاز لنا أن نستنتج أن قوة منكاورع ضعفت عن خفرع · ولا يبعد أن تكون مالية القطر انحطت كثيرا فى عهد هذا الملك عما كانت عليه أيام سلفيه لما استنزفه هرماهما من المصاريف الباهظة· وهرم منكاورع أقل ارتفاعا من منتصف هرمى خوفو وخفرع ، أما معبده فمشيد من الجرانيت · وقد أثبت الأستاذ ريزنر أن هذا المعبد لم يتم بناؤه فى حياة منكاورع وأن مقدم المعبد شيد باللبن بدلا من الجرانيت الغالى الثمن · ولا نعلم كثيرا عن تاريخ خلفاء منكاورع سوى ما ورد على آثار الملك شبسسكاف من أنه اختار فى السنة

---

(١٤) المرجح انه اخوه _ (المحرر) ·

(١٥) هو معبد الوادى الخاص بخفرع ، اما معبد أبى الهول الحقيقى فيقع فى طرفه الشمالى والمرجح الآن ان ابا الهول يعود الى عهد الفرعون خفرع _ (المحرر) ·

الأولى من حكمه مكانا ليشيد هرمه فيه (١٦) . والظاهر أن هذا الهرم لم يكن كبيرا ولا متين البناء ، لأننا ما نزال نجهل محله للآن لما اعتراه من التلف . ولا ندري شيئا عن تاريخ الملوك الذين أتوا بعـده حتى نهاية الأسرة الرابعة ، انما الثابت أن العرش الفرعوني انتقل لمدد قصـيرة الى حكام عديدين .

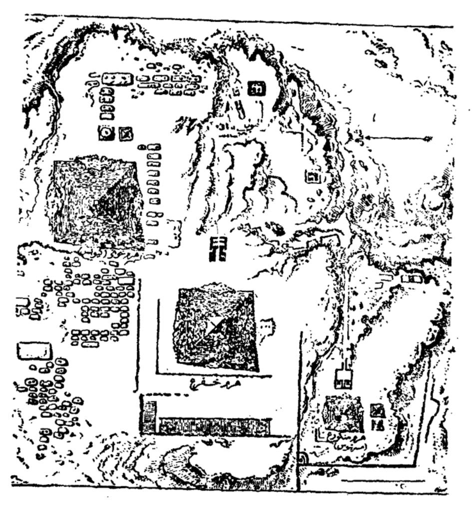
ومدة حكم الأسرة الرابعة المقدرة بمائة وخمسين سنة تمتاز بالنظام وتوطيد الحكم واطراد التقدم والرقي مما لم يسبق لأبناء وادى النيل أن يتمتعوا بمثله . وقد قاومت آثار ذلك العصر بمتانتها وعظمتها القرون العديدة حتى وقتنا هذا . ولا يبعد أن عهد خوفو كان أرقى عصر في عهد الأسرة الرابعة لأن القطر أخذ يضمحل تدريجا في عهد خفرع ثم في عهد منكاورع حتى عجز هذا الأخير عن القبض بقوة على ناصية الحال كما فعل سلفاه . ولم يحتفظ لنـــا الزمن من آثار هؤلاء الملوك الا تسعة الأهرام المشيدة بالجيزة وما تزال تحفظ ذكراهم الى الآن (خريطة ٢) . وقد اعتبرت هـذه الأهرام في العهـد اليوناني ضمن عجائب الدنيا السبع ، أما الآن فهي البقية الباقية من تلك العجائب (اللوحة ٤٨). ولدينا دلائل تاريخية قوية تشير الى سر انقراض حكم الأسرة الرابعة هي أن كهنة رع بعين شمس تدخلوا تدريجا في شؤون المملكة بعد وفاة خوفو حتى استولوا على السدة الملكية . وقد ألمعنا الى ذلك عند الـكلام على معنى اسمى خفرع ومنكاورع وغيرهما . ولما كان قدماء المصريين منذ بداية حكم الأسر يعتبرون ملوكهم خلفاء المعبود الشمسى في الأرض سموا ملوكهم باسم حورس أحد معبـودات العقيـدة الشمسية . وفي أثناء حكم الأسرة الرابعة قوى نفوذ كهنة رع فطلب هؤلاء اعتبار ملك مصر ابنـا لرع أى الشمس واعتبـار الشمس أبا لفرعون . ووصلت الينا (١٧) قصة خرافية يرجع تاريخها الى ما بعد سقوط الأسرة الرابعة بتسعمائة سنة تقريبا جاء فيها أن خوفو خاطب يوما أبنـاءه عن أعمال السـحرة الماهرين المسنين وطلب من نجله المدعو حورجدف أن يحضر له سـاحرا يعرفه . فلما حضر الساحر وقف بين يدى الملك وقام بأعمال سحرية أخذت بمجامع القلوب ، لكنه لما أوشك أن ينتهى ظهر لخوفو عدم رغبته في افشاء بعض معلوماته اليه ، الا أن الملك اضطره أن يبوح بها فقال له ان زوجة أحد كهنة رع ستلد ثلاثة أبناء تحمل بهم من المعبود رع نفسه وأن هؤلاء الأنجال سيحكمون مصر . فتكدر خوفو من ذلك الا أن الساحر بادره قائلا : « لا تتكدر أيها الملك العظيم فان الملك

---

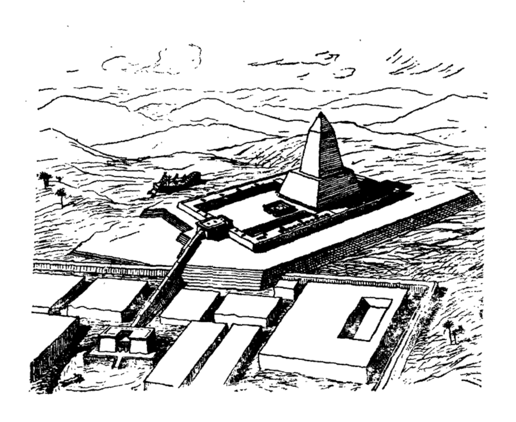
(١٦) لم يشيد هذا الفرعون هرما ، بل حاول احياء عادة بناء المصاطب القديمة ، فانشأ لنفسه مصطبة ضخمة في منطقة سقارة الجنوبية ، ويبدو انه خشى من تصاعد نفوذ كهنة رع اله الشمس الذى كان الشكل الهرمى من رموزه المقدسة ـ (المحرر) .

(١٧) Papyrus Westcar.

سينتقل بعدك الى ابنك ثم الى حفيدك · بعد ذلك ينتقل الى أحد أنجال زوجة كاهن رع »·الى هنا انتهى ما وصلنا عن هذه القصة الخرافية والمظنون أنها تنتهى بسرد كيفية استيلاء الأنجال الثلاثة على العرش المصرى · وقد جاء فى هذه القصة أن هؤلاء الأولاد لما ولدوا ظهرت عليهم أمارات الملك حتى دهش العالم وقتئذ وأن المعبودات سمتهم (أوسركاف) و (ساحو رع) و (كاكاى) وهم أول ملوك الأسرة الخامسة · والظاهر أن كاتب هذه الخرافة لم يكن ملما الا باسم ملكين من ملوك الأسرة الرابعة فلم يذكر شيئا عن (ددف رع) و (شبسسكاف) وغيرهما ممن أتوا بعد خوفو ولم يتركوا أهراما ضخمة مثله ، لكننا نستنتج من سياق الكلام أن نفوذ كهنة رع قوى وقتئذ وسبب انتقال الحكم الى الأسرة الخامسة ، ومنه نستدل على كيفية حصول ذلك وعن أصل هذه الأسرة · ونعتبر هذه الخرافة من أجمل الخرافات الحكومية لأنها تكشف لنا عن السر فى اعتبار فراعنة مصر أبناء رع منذ ذلك الحين الى نهاية التاريخ المصرى القديم ·



خريطة رقم ٢ : جبانة الأسرة الرابعة بالجيزة



شكل (٢٣) صورة لمعبد الشمس بالقرب من (أبو صير) بعد الترميم (ماخوذة عن بورخارت)

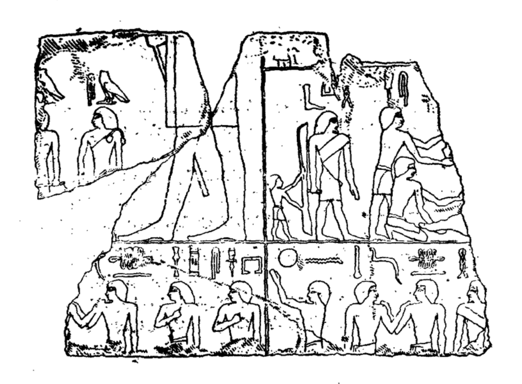
وحكمت الأسرة الخامسة القطر المصرى حوالى عام ٢٧٥٠ قبل الميلاد واتخذت منف قاعدة لحكمها . وقد لوحظ على ملوك هذه الأسرة صفات مشتركة مع ما جاء فى القصة السابقة ، منها أنهم لقبوا وقت تتويجهم بألقاب تحوى اسم رع بعد ما كان هذا الأمر صعب التنفيذ فى عهد الأسرة الرابعة ، كما أن اسم الملك كان مسبوقا دائما بعبارة ابن الشمس بعد ما كان ينسب قديما الى المعبود حورس ، ثم أضافوا لقبا آخر يشير الى انتصار حورس على ست ، فبلغت الألقاب الفرعونية بذلك خمسة بقيت مستعملة مدى

التاريخ المصرى · ولشدة تعلق الأسرة الخامسة بعبادة رع شيد ملوكها معابد للشمس بجوار منف وسموها بأسماء كثيرة مثل « مسكن رع الجميل» و « سرور رع » · واتبع فى تشييد هذه المعابد نظام واحد تقريبا يتلخص فى حوش عظيم تتفرع من جانبه حجرات عديدة ويحوى مذبحا كبيرا وينتهى فى آخر بمصطبة ضخمة منصوب عليها مسلة (شكل ٢٣) · وقد اعتبرت المسلة رمزا للمعبود رع · ومن هذا الوصف يتضح للقارئ أن معابد تلك العصور لم تحو القاعات المعروفة الآن « بقدس الأقداس » · واعتبر بعض الأثريين المسلة وما أحاط بها من البناء صورة مكبرة لقدس الأقداس بعين شمس · وزخرفت جدر المعابد بنقوش أثرية عديدة تظهر أحوال المعيشة ، ففيها المناظر الخاصة بالأنهار والمستنقعات والبرك والحقول والصحارى والاحتفالات الملكية (شكل ٢٤) · أما خارج المعبد فكان مزدانا بمناظر الانتصارات الفرعونية الحربية · وجرت العادة أن يضع القوم سفينتين خشبيتين على قاعدتين مشيدتين باللبن تمثلان سفينتى المعبود رع السماويتين اللتين يسبح عليهما فى الأفق صباحا ومساء · وحبست على هذه المعابد أوقاف كثيرة كما أكثر فيها من الكهنة والخدم ، وقسم هؤلاء الى خمس درجات تحت ادارة رئيس عام يشرف على أعمالهم جميعا وعلى أمتعة المعبد · وبتوالى الأيام كثرت المعابد فقامت كهنة المعابد القديمة بأعمال المعابد الحديثة · والمظنون أن كل ملك من الأسرة الخامسة شيد معبدا لرع حتى الملك ازيسى الثامن فى الأسرة (١٨) · بذلك كثرت أملاك رع وارتفعت منزلته فقوى نفوذه مدى التاريخ · ولما ازدادت عقيدة المصريين ثبوتا فى ألوهية الشمس أكثروا من الخرافات الخاصة بها ولونوا واخترعوا خرافات أخرى وصبغوها بصبغته حتى اعتبر القوم هذا الاله ملكا على الوجهين القبلى والبحرى وحاكما على القطر المصرى قبل زمن الفراعنة · ثم توهموا أن المعبود تحوت اشتغل فى خدمة رع فى العصور الأولية بهيئة وزير مساعد · واعلم أن تغير الأسرة المالكة لم يصحبه تغير فى الألقاب والديانة فقط ، بل شمل أيضا انقلابا فى نظام الحكومة ودولاب الأعمال · فبعد ما كان ولى العهد فى الأسرة الرابعة يتولى مركز الوزارة ورياسة القضاء بحكم العادة المتبعة ويحتفظ بذلك على أقوى النفوذ فى المملكة ، أصبحت هذه الوظيفة تعطى بالوراثة لأسرة أخرى تدين بمذهب بتاح المنفى · وجرت العادة أن تلقب أفراد هذه الأسرة باسم بتاح حوتب وقد عثرنا فى التاريخ على خمسة أفراد منهم · *والظاهر أن انتزاع الحكم من الأسرة الرابعة سبب اقتسامه*

---

(١٨) Borchardt, Festschr. f. Ebers, p. 13.

بين كهنة رع بمدينة عين شمس الذين احتفظوا بوراثة السدة الملكية ، وكهنة بتاح بمدينة منف الذين احتفظوا بوراثة مركز الوزارة ورياسة القضاء . لكن هذه الوراثة فى مناصب الحكومة أثرت تأثيرا سيئا فى الادارة كلها لأن حكام الأقسام أخذوا ينفصلون تدريجا من السلطة المالكة ويحتفظون بوراثة مراكزهم . وقد أظهر ملوك الأسرة الخامسة عناية واحتراما للسراة الذين ساعدوهم على انتزاع الملك فرقى الملك أوسركاف أول ملوك هذه الأسرة كبير أمنائه حاكما على « قسم المدن الجديدة » بمصر الوسطى ، وأضاف الى دخله مرتب كاهنين من أوقاف الملك منكاورع من الأسرة الرابعة، ولا يبعد أن كان هذا المرتب صرف سابقا لبعض محاسيب الأسرة الرابعة ، وعلى العموم فان أوقاف الأسرة الرابعة قد روعيت باحترام فى عهد الأسرة الخامســـة .



شكل (٢٤) نقوش بارزة بمعبد الشمس بالقرب من (ابو صير) . يشاهد فى الجهة اليمنى من القسم العلوى كيفية تطهير قدمى فرعون مصر

واعترضت أوسركاف مصاعب جمة وقت توليه الحكم ، لكنه وطد مركزه الملكي في البلاد وحصر وراثة العرش في أسرته وقام بالحفائر واستخرج الصخور من جهة أسوان (١٩) • وقد وجد اسم هذا الملك منقوشا بتلك الجهة ضمن أسماء ملوك آخرين مع بعض ملاحظات عن أحكامهم وحوادث أيامهم في الصعيد • وتوفي أوسركاف فتبعه ساحورع الذي شيد لمصر أسطولا بحريا جعلها أول دولة بحرية معروفة في التاريخ وقد عثر حديثا على لوح حجرى بهرم هذا الملك بأبى صير وجدت عليه رسوم لأربع سفن عظيمة مشحونة بالأسرى الفينيقيين حولهم بحارة مصريون • وتعتبر هذه أقدم رسوم بحرية وجدت للآن (حوالى سنة ٢٧٥٠ قبل الميلاد) وأقدم صور لسكان سوريا الساميين • وأوفد ساحو رع أسطولا آخر الى بلاد الصومال (بونت) وجنوبى خليج عدن لجلب البخور والروائح العطرية والأدهنة الجميلة الكثيرة الاستعمال عند الشرقيين • أما الصومال فكانت تعرف عند المصريين « بالأرض المقدسة » ونسب بعض الأثريين مبدأ تجارة مصر مع الصومال الى عهد الأسرة الأولى لكثرة استعمال ملوك هذه الأسرة لخشب المر • لكن يجوز أن هذه الأخشاب العطرية أتت عن طريق التجارة برا وتولاها سكان شاطىء النيل الأزرق وعطبرة وأعالى النيل • وجاء فى الآثار أن أحد أبناء خوفو اقتنى عنده عبدا صوماليا (٢٠) لكن المعروف أن ساجورع هو أول ملك أثبتت آثاره أنه مؤسس المواصلات البحرية مع الصومال رأسا • ومما ورد عنه أنه جلب من تلك الجهات ثمانين ألف مكيال من المر وستمائة مثقال من مخلوط الذهب والفضة والفين وستمائة ساق من نباتات ثمينة لا يبعد أنها الأبنوس • ودون موظف لهذا الملك جهة الشلال الأول (٢١) نقوشا كثيرة لى الأحجار أشار فيها الى حملة حربية قام بها مليكه بتلك الجهات • وتعتبر هذه النقوش أقدم ما وجد من نوعها جهة الشلال الأول •

ويستدل من آثار الملوك الأربعة الذين حكموا القطر بعد ساحورع أن القطر حافظ فى عهدهم على مركزه السياسى والمالى والعمرانى وأن المصريين أخذوا يتطلعون الى خيرات ومصنوعات البلاد الأجنبية غير الموجودة بمصر • ففى النصف الأخير من حكم الأسرة الخامسة (حوالى النصف الثانى للقرن السابع والعشرين قبل الميلاد) فتح الملك ازيسى محاجر وادى

---

(١٩) Mariette Mon., div., 54 e.

(٢٠) L.D, II, 23. Erman, Aegypten, 670.

(٢١) De Morgan, Catalogue de Monuments, I, 88.

الحمامات التى تبعد عن النيل بمسير ثلاثة أيام • وقد قطعت أحجار من تلك المحاجر قبل ذلك الوقت وعملت منها أوان حجرية ، ولكن الثابت أن ازيسى هو أول ملك نقش اسمه هنـــاك • ولما كان هذا المكان أقرب جهات البحر الأحمر للنل ، صارت القوافل تجتاز صحراءه مبتدئة من قفط مارة بوادى الحمامات حتى تصل الى البحر الأحمر ، وكان هذا السـفر يستغرق حوالى خمسة أيام ، وعليه فكان هذا الطريق أسهل المواصلات لأرض الصومال ، ولذلك أرسل ساحو رع بعثته الحربية الى تلك الجهات عن هذا الطريق ، كما أرسل أيضا ازيسى جيشه الى ذلك الاقليم عن هذا الممر تحت قيـــادة رئيس ماليته المدعـــو بردد (Burded) • ولما توفى ازيسى ورثه فى الملك أونيس(Unis) فشن الغارات على النوبة وقيد اسمه جهة الشلال الأول حيث لقب نفسه فيها « سيد القطرين » (٢٢) •

ولم تكن سلطة حكام الأقسام ورؤساء الأعمال الادارية أيام الأسرة الخامسة خاضعة تماما للسدة الملكية كسابق عهدها ، فأصبحنا نرى بين آثار الملوك بسيناء اسما لأحد الحكام أو رؤساء الأعمال خلافا للمتبع ، لأن الملك كان الشخص الوحيـد الذى يذكر اسمه هنـاك ويرسم كاله مشرف على الأعمال ظافر بأعدائه بشكل مهيب جليل • أما فى عهد ازيسى فقد شملت نقوشه سطرا واحدا فى ذيل بلاغ رسمى هناك جاء فيه أن احدى حملات تلك العصور كانت تحت قيادة ضابط من ضباط الجيش ، ويعتبر هذا أقدم مثل لاظهار الأثرة التى أخذت تدب باستمرار بين كبار الموظفين فى البلاغات الرسمية وكذا الصـــعوبات التى اعترضت فراعنة تلك العصـور من جراء هذه الصـفة الذميمة • ولا يبعد أن صغر حجم أهرام الأسرة الخامسة ورداءة بنائها على حافـة الصحراء جنوب الجيزة بجهة أبى صير وسقارة جاءت دليلا آخر على ضعف سـلطة هذه الأسرة وبرهانا واضحا على فقر الخزانة المصرية بالنسبة لحالتها فى حكم الأسرة الرابعة • وليس فى هذا الكلام ما يحتـاج الى كثير عنـاء لاثباته فأهرام الأسرة الخامسة لايزيد ارتفاعها على نصف ارتفاع هرم الجيزة الأكبر،كما أن بناءها الداخلى ردىء ومركب من صخور متراكمة بينها رمال كثيرة وهى الآن مهدمة لم يبق منها الا القليل من معالم الأهرام الحقيقية • أمام هذا كله لا يسعنا الا أن نستنتج أن الحكومة المركزية فى عهد الأسرة الخامسة أخذت تضعف تدريجا وأن الرأى العام أخذ يقاوم فكرة استعمال خيرات البلاد وثروتها لاقامة المقابر الملكية • واعلم أن حكم الملوك التسعة للأسرة

---

(٢٢) راجع : Petire, Season, XII, No. 312.

الخامسة مدة مائة وخمسين سنة كان مقرونا بتغير سياسي داخلي خطير مع تقدم عمراني هائل ، فالفنون الجميلة والصناعة بلغتا شأوا عظيما في التقدم وكذا الآداب ارتقت كما يشاهد ذلك في نصائح بتاح حوتب وزير الملك ازيسى ورئيس قضاته وقد ألمعنا اليها سابقا . ثم ان المعابد والديانة كانتا محترمتين بما يتناسب مع عز مصر وأبهتها التى امتازت بها على الأمم وقتئذ ، فأصبحت ترى المعابد موضع عناية القوم فى أنحاء القطر. كما أن الأوقاف والخيرات أخذت تحبس على الهياكل وصار الملك يقدم فيها القرابين كل يوم . والى هذا العصر تعزى معظم معارفنا عن أقدم ديانة للمصريين وأقدم نموذج واف للغة المصرية القديمة . وأهم نصوص دينية عثرنا عليها لذلك العهد هى الموجودة على جدر هرم أونيس آخر ملوك الأسرة الخامسة ، وتعرف هذه النصوص الدينية الآن « بنقوش الأهرام ». ولما كان معظم هذه النصوص والعقائد الدينية يرجع فى الأصل الى عهد ما قبل الفراعنة على الأرجح اعتبر الأثريون هذه النصوص أقدم مرجع يبحث فيه عن ديانة القطر المصرى ولغته قبل عهد هرم أونيس .

الفصل السابع

الأسرة السادسة : اضمحلال الدولة القديمة

لم يرد فى درج تورين البردى أو فى قائمة أثرية لفراعنة مصر اشارة الى انتزاع عرش مصر من نسل الملك مينا حتى آخر عهد الملك أونيس . والثابت أن الملك انتقل بعدئذ الى أسرة أخرى لأسباب أوضحناها للقارىء سابقا تتلخص فى محاولة حكام أقسام القطر الحصول على قسط أوفر من القوة والحرية . ولما حكمت الأسرة الخامسة تحت نفوذ كهنة عين شمس ، أخذ حكام الأقسام يحتكرون مناصبهم لأفراد أسرتهم بشكل وراثى فعجز الملوك عن كبح زمامهم كما فعل فراعنة الأسرة الرابعة ، فمهد بذلك الطريق لانفصال هؤلاء الحكام عن السلطة العليا المالكة وانتهى الأمر بقلب حكم الأسرة الخامسة على أيدى هؤلاء الحكام وذلك بعد حكم أونيس حـــوالى عام ٢٦٢٥ قبل الميلاد . على أثر ذلك أعلن كل حاكم استقلاله عن غيره واستعاض عن لقبـــه الأصلى « حاكم قسـم » بلقب « السـيد العظيـم » أو « السـيد الكبير » واستمر الحكام يديرون أعمالهم مستقلين استقلالا ذاتيا بلا تبعية للحكومة المركزية . ويعتبر هذا الانقلاب الداخلى أقدم مثل تاريخى معروف عن انحلال السلطة المركزية وتجزئتها الى سلطات صغيرة فرعية وعن كيفية تضخم الأخيرة على حساب الأولى . وقد حصل مثل هذا تماما فى امبراطورية شارل الأكبر التى تجزأت بعــده الى عدة دوقيات وامارات ومقاطعات مستقلة . ولم يكن هذا الانقلاب الداخلى فجائيا بل تدريجيا لأن حكام الأقسام استمروا مدة طويلة خاضعين بعض الخضــوع لملكهم منفذين ارادته وأوامره . ولما أصبحت وظائفهم وراثية محصورة فى أسرهم استمروا زمنا يعينــون فى تلك الوظائف بأمــر ملكى ويمنحون الاقطاع والألقاب بمرســوم ملكى أيضــا . وبالرغم من ذلك فقد أخذت علاقة هؤلاء الحكام بالقصر الملكى تضعف فامتنعوا عن دفن جثثهم حــول

قبور ملوكهم وأخذ كل منهم يختار لنفسه قبرا فى اقليمه ، مثبتا بذلك انعزاله عن السلطة الحاكمة . وقد عثر الأثريون حديثا على عدة مقابر لهؤلاء الحكام منحوتة فى صخور جهة جزيرة فيلة وقصر الصياد والشيخ سعيد وزاوية المتين ووجد غيرها مشيدة بالحجر جهة العرابة المدفونة . واجتهد هؤلاء الحكام فى تعمير أقاليمهم فورد عن أحدهم أنه جلب بعض أبناء الأقاليم المجاورة له وجعلهم يقيمون عنده لتعمير قسمه وزيادة عدد سكانه وتحسين قراه الصغيرة القليلة السكان .

وصارت المالية صلة الاتصال بين حكام الأقسام والبيت المالك فى تلك العصور . فاضطر الملك فى أواخر أيام الأسرة الخامسة أن يعين حاكما عاما على الوجه القبلى يستعين به على تنفيذ أوامره هناك . أما الوجه البحرى فكان أكثر خضوعا ولذا لم يعين عليه حاكم عام . والغريب أنه رغم كل هذا التغير ، كان فرعون مصر يفتخر ويعتقد بأنه صعيدى الأصل وأن صلته بالدلتا صلة الغازى الفاتح .

وبقيت منف مركز الحكومة طول هذه المدة وكانت تعـــرف وقتئذ بمدينة « الحائط الأبيض » حتى حكم الملك تتا مؤسس الأسرة السادسة المجهول التاريخ . وتوفى تتا فتبعه فى الملك ببى الأول فشيد لنفسه هرما ومدينة بجوار مدينة « الحائط الأبيض »وأطلق على هرمه اسم « من نوفر ». بعد ذلك أطلق اسم هذا الهرم على مدينة « الحائط الأبيض » ولما أتى اليونان حرفوا هذا الاسم الى منفيس ونطق به العرب منف وما يزال هذا الاســم مستعملا فى الكتب العربية للآن . أما اسم « الحائط الأبيض » فقد انعدم ولم يبق له ذكر الا فى عالم العاديات وبين أسطر الشعر . وصارت لمنف منزلة كبيرة فى القطر فكبر حجمها وزاد عدد سكانها واحتاجت الى اشراف الوزير عليها فلقب وقتئذ « بحاكم مدينة الهرم » أو « حاكم المدينة » . ثم اشتهرت منف بين الخاصة والعامة « بالمدينة » فقط . واستمر ملوك الأسرة السادسة محافظين على سلطانهم وهيبتهم كأسلافهم وعلى عبادتهم لرع واعتبــارهم اياه رئيس المعبــودات الأكبر واحترامهم لكل شيء خاص بأسلافهم وأجدادهم رغم ما ذكرناه من التطورات الداخلية الكثيرة بين حكام الأقسام العديدين .

واجتهد حــكام الأقسام فى عهــد ببى الأول أن ينفصلوا عن سلطته وادارته لكنه قبض عليهم بقوة ومهارة وحافظ على نفوذه فى جهات القطر كلها . وقد شهدت له بذلك آثاره الكبيرة والصغيرة . وقد لوحظ أن هؤلاء الحكام وقتئذ نقشوا على الأحجار فى أقسامهم ومحاجرهم اعمالهم وتاريخ حياتهم عدة دفعات . واظهارا لخضــوعهم للسدة الملكية تحتم عليهم أن

يرسموا فى الجزء العلوى لتلك النقوش ملكهم يعبد الها أو يصعق عدوا .
وتلى ذلك النقوش المظهرة لرفعة مقام القسم وأتباعه فى رحلاته ومشروعاته . وكانت هذه النقوش مختصرة فى بادىء الأمر لكنها طالت تدريجا بمرور الزمن ، مثال ذلك أن الملك ببى لما أرسل بعثة الى محاجر وادى الحمامات تحت ادارة مفتشين من المالية ورئيس مهندسى هرمه مصحوبين برجال فنيين لقطع الأحجار الجيدة لبناء الهرم حفر هؤلاء الأشخاص نقوشا لهم فى لوحين ملكيين بالمحاجر المذكورة كما حفروا أيضا ثلاثة نقوش أخرى هيروغليفية أثبتوا فيها أسماءهم وألقابهم وأعمالهم .
كذلك لما أرسل الملك ببى الأول الحاكم العام للوجه القبلى ورئيس قسم الأرنب فى الوقت نفسه الى محاجر حاتنوب لقطع الأحجار المرمرية ترك هذا الحاكم هناك نقوشا شرح فيها مهمته وأعماله التى أداها لمليكه . وهناك نقوش أثرية بوادى مغاره بطور سيناء نقشها قائد حربى أرسله ببى فى مأمورية كالسابقة ذكر فيها أعماله وألقابه وخدماته نحو مليكه . وبقى القوم يفتخرون بألقابهم ويتشرفون بها حتى كثرت لديهم ألقاب الشرف وتلاشى قيامهم بعبء ما يتطلبه لقب واحد منها ، واحتاج الأمر أخيرا أن يذكر بعد الألقاب لفظ « حقيقى » للتمييز بين الممنوح منها للجدارة والمعطى من قبيل الشرف لا غير . وذكر لنا موظف يدعى ونى ترجمة حياته وكانت صلته متينة بالبيت المالك استنتجنا منها معلومات كثيرة عن أعمال الأقسام وقتئذ . فقد ذكر لنا هذا الموظف أنه بدأ حياته عاملا حقيرا فى أملاك الملك تتا الثانى فلما تولى ببى الأول عينه قاضيا وألحقه بالقصر الملكى وأنعم عليه بمرتب كاهن من كهنة الهرم ثم عينه أمينا بالقصر فحاز رضاه بكفايته . واتضح بعد ذلك وجود مؤامرة نسوية فى القصر ضد الملك فكلف ونى مع زميل له تحقيق المؤامرة واصدار حكمهما فيها .
وهكذا قدر ببى كفايات مستخدميه واستفاد بهم فى ادارة شؤونه وجعل حكومته مطيعة له ولأفراد أسرته . أما فى الصعيد فعين ببى حاكم قسم الأرنب حاكما عاما على الوجه القبلى وطلب أختى حاكم طينه (Thinis) ليقترن بهما ويجعلهما ملكتين شرعيتين . وهاتان الأختان كانتا متماثلتين فى الاسم وتدعيان عنخس مريرع (Eneknes-Merire) وقد رزق منهما نجلين توليا الملك بعد وفاته بمدة .

وبلغت سياسة ببى الخارجية شأوا عظيما ودرجة كبيرة غير مسبوقة النظير فقد أخضع بلاد النوبة تماما وجند من أهلها فرقا للجيش المصرى استعملها فى غزواته الجنوبية والشمالية . واعتاد كلما أغار البدو على شرقى الدلتا أو مناجم سيناء أن يرسل الى ونى أمرا بحشد جنود نوبية مع جنود مصرية لكبح جماح هؤلاء العصاة . أصدر أمره فيما بعد بتعيين

ونى قائدا عاما للقوات المصرية فى أثناء الحرب مع البدو مرقيا اياه بذلك على زملائه من رؤســاء الجيش · والتحم ونى بالبدو وسحقهم وشتت شملهم ثم عاد الى وطنه وبعد ذلك عهد اليه مليكه بأربع غارات أخرى ضد البدو أيضا عقابا لهم ·ولما اغار البدو على اقليم الشام شرقى الدلتا أرســل ببى عمارة بحــرية تحت قيادة ونى المذكور الى فلسطين فسارت محاذية سواحل فلسطين الجنوبية وأنزلت جندها هناك وفتكت بالثائرين فتكا ذريعا ثم طردتهم الى جبال فلسطين الشمالية · ويعتبر هذا المكان أقصى ما وصل اليه النفوذ المصرى فى عهد الدولة القديمة · ومما يؤيد ذلك وجود جعران من الأسرة السادسة قرب جازر (Gezer) جنوبى بيت المقدس تحت طبقات الأرض مع آثار أخرى للمملكة المتوسطة · وتعتبر قصة ونى هذه برهانا ساطعا على شدة ميل المصريين وقتئذ الى الراحــة والسلام لا الى الكفاح والقتال ·

هكذا ثبت ببى مركز أسرته وقواه · وتوفى بعد ما حــكم حوالى عشرين سنة فأعقبه فى الحكم ابنه مرنرع (Mernere) وكان شابا شديد البطش قوى البأس ، فأصدر أمره حالا بترقية ونى حاكما عاما على الوجه القبلى فقام ونى بهذه المامورية خير قيام · وأخذ حكام حدود الوجه القبلى الجنوبيــة يتســابقون فى خدمة الملك الشــاب وكان هؤلاء يقطنون فى جزيرة فيلة جنوبى الشــلال وينتمون الى أسرة عريقة (لوحة ٥٠) · وجرت العادة أن سمى الجزء المجاور للشلال الأول « باب القطر الجنوبى » ولذلك لقب حاكم ذلك الجزء « بحارس البــاب الجنوبى » وكانت مهمته حماية القطر من متوحشى بدو النوبة · وقد كانت الأسرة المذكورة تحافظ على النظام بتلك الجهات بغاية الدقة حتى انه لما صدر الأمر الملكى الى ونى بالذهاب الى تلك الجهات لقطــع حجر الجرانيت اللازم لصنع التــابوت الملكى والأدوات الدقيقــة الخاصة بهرم الملك ، لم يحتج ونى الى أكثر من « سفينة حربية واحــدة » وهو أمر لم يسبق له مثيــل · بعد ذلك أمر الملك قائده ونى بفتح خمسة مسالك فى سدود الشلال الجرانيتية فأتم هــذا مأموريته بنجاح ، كما أنه شيد أيضــا سبع مراكب كبيرة شحنها صخورا جرانيتية ضخمة للهرم الملكى واستغرق ذلك كله سنة واحدة ·

ولا يخفى أن مصر منعزلة شمالا انعزالا طبيعيا عن البلاد المجاورة ولذلك لم يتطلع فراعنة مصر وقتئذ الى غزو الأقاليم الشمالية بل جعلوا همهم هنــاك الدفاع عن وطنهم ومنــاجم طور سيناء · أما النوبة فكانت قريبة للقطر لا يفصلها عنه الا الشلال الأول · فلما شق مرنرع طريقه للسفن بتلك المنطقة سهل عليه غزو النوبة وبسط نفوذه عليها · ولم يطمع المصريون فى النوبة من أجل زراعتها فهى قليلة الفلاحة أو فاقدتها

لكنهم طمعوا في الذهب والحديد الخام (١) الموجود بالصحراء شرقي النيل • ولم نعثر للآن على أدوات حديدية مصرية في تلك الأقاليم • ومما يزيد أهمية تلك الجهات عند المصريين كونها الطريق الوحيد لاقاليم السودان الجنوبية الغنية التى تصدر لمصر الذهب وريش النعام وخشب الأبنوس وجلود النمر وسن الفيل وعنها أيضا تأتى للبلاد صادرات الصومال والبلاد المجاورة كالمر والصموغ العطرية والراتنج والبخور • لهذه الأسباب كلها تحتم على الفراعنة أن يحافظوا على النوبة لأنها الطريق الوحيد الموصل الى تلك الأقاليم الجنوبية الغنية •

وما تزال معلوماتنا ضئيلة بشأن زنوج الشلال الأول ، لكننا نعرف أن القبائل التي قطنت الأراضى بين الشلالين الأول والثانى كان يقال لها الواوات وأن القبائل التى قطنت حول الشلالات النيلية الأخرى كانت تسمي كوش • ويلاحظ أن الاسم الأخير لم يرد ذكره في الآثار الا في عهد الدولة المتوسطة • أما الجزء الأعلى لتعريج النيل بين الشلال الثانى وملتقى النيل الأزرق بالأبيض فكان معمورا بقبائل مازوى التي كثيرا ما أمدت الجيش المصرى بالامدادات فى العصور التالية حتى أطلق المصريون اسم مازوى على الجندى ، وقد ورد هذا اللفظ فى القبطية «ماتوى» • وفوق ذلك كانت توجد قبائل يقال لها (يام) يظن أنها قطنت بالقرب من مازوى • أما قبائل الارتت والستحوت فكانت تقطن الجهة الغربية لوادى النيل بين مازوى ويام جنوبا والواوات شمالا • ولا يبعد أن كانت قبائل الواوات والإرتت والستحوت تحت رئيس واحد وقتئذ • والمعروف أن هذه القبائل كانت وحشية تسكن العشاش الطينية على شاطىء النيل أو حول الآبار المنعزلة وكانت تقتنى القطائع من الأغنام وتزرع القليل من الحبوب •

ولا جدال فى أن القناة التى شقها ونى فى صخور الشلال الأول سهلت الطريق للنفوذ المصرى الى السودان ولذلك أصبحت سلطة مرنرع مهيبة بين قبائل الواوات والارتت ومازوى ويام ، فكانوا يحضرون جميع الأخشاب التى طلبها ونى منهم لبناء السفن لشحن أحجار الجرانيت من اقليم الشلال الأول • ومرنرع أول فرعون ذهب الى منطقة الشلال الأول حيث استقبل رؤساء النوبة الذين أتوا مظهرين طاعتهم ومقدمين هداياهم اليه ، وترك نقوشا حجرية بتلك الجهات تمثله واقفا متكئا على عصا طويلة وأمامه رؤساء النوبة ساجدين • وتلى ذلك نقوش هيروغليفية تبدأ بالعبارة الآتية « وصول جلالة الملك الى الأراضى الواقعة بعد الاقليم الصخرى (أى

(١) Rössing, Geschichte der Metalle, pp. 81, 83 sq.

اقليم الشلال الأول) لمشاهدة هذا الاقليم ولقبول الخضوع والمديح من رؤساء قبائل المازوى والارتت والواوات » ٠

واستعان مرنرع بقبائل جزيرة فيلة فى بسط نفوذه على النوبة ، فرقى رئيسهم المدعو حرخوف حاكما عاما على الوجه القبلى (وهو لقب كان يعطى أحيانا بعض الأشخاص من قبيل الشرف فقط) لكنه أعطى ونى عن جدارة بعد اعتزاله الخدمة لكبر سنه أو وفاته على الأرجح ٠ وقد أظهر حرخوف وأسرته تفانيا عظيما فى خدمة مليكهم وطاعة أوامره فى بلاد النوبة ولذا كان اعتماد الملك عليهم عظيما ٠ فمن أعمال هذه الأسرة توطيد شرف جلالته وهيبته وحماية التجارة من عبث اللصوص والقبائل الهمج والتوغل فى داخلية أفريقية وجنوبى البحر الأحمر للكشف عن تلك الجهات وخيراتها ، ويعتبر أفراد هذه الأسرة أقدم الكاشفين المعروفين فى التاريخ ، وروى أن اثنين منهم توفيا من الصعوبات والأهوال التى لقياها فى رحلات الاستكشاف ٠

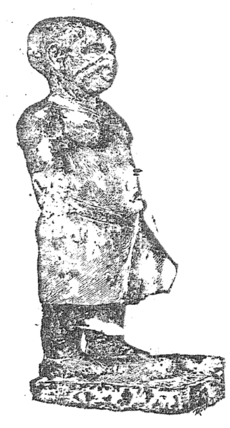
ولكثرة خدمات حكام جزيرة فيلة وعظم أهميتها أغدق الملك ألقاب الشرف الكثيرة ، علاوة على ما كان لديهم من الألقاب القديمة ، فأصبحوا يلقبون الآن « بمديرى القوافل الجالبين لسيدهم خيرات البلاد » وهو لقب افتخروا به كثيرا ونقشوه على جدر مقابرهم المحفورة بصخور تجاه أسوان مقابل جزيرة فيلة مسقط رأسهم الأصلى (٢) ٠ ودلتنا نقوش بتلك الجهة أن الملك مرنرع أمر حرخوف أحد حكام جزيرة فيلة بغزو أراضى يام ثلاث دفعات متواليات (٣)٠ففى الغزوة الأولى كان حرخوف شابا مساعدا لوالده المدعو ارى (Iri) الذى عهد اليه وقتئذ فى الاشراف على الأعمال وقد استغرقت هذه الغزوة سبعة أشهر ٠ أما الغارة الثانية فقد عهد الملك فى قيادتها الى حرخوف وحده فقام بها خير قيام وقد استغرقت ثمانية أشهر ٠ ثم كلفه الملك غزوة ثالثة أشد خطرا من السابقتين لكنه لم يكن أقل نجاحا فيها ، فلما وصل حرخوف أرض يام وجد رئيسها يحارب قبائل التمحو الليبيين غربى اقليمه ، فسار اليه حرخوف وأخذ منه جزية وغنيمة وحمل ذلك على ثلثمائة حمار أرسلها الى مصر تحت حراسة خفراء من قبائل يام ٠ ولم تجرؤ قبائل أرتت وستحوت وواوات على الاقتراب من تلك الغنائم فى سيرها شمالا نحو القطر المصرى خوفا من سلطة وبطش المصريين ومن حراس قبائل يام الذين كانوا معها ٠ ولم تكتف هذه القبائل بذلك بل قدمت لحرخوف الهدايا من الأغنام والبهائم وسهلت له الطريق وساعدته بمرشدين فى أثناء سفره ٠ ولما وصل

---

(٢) شكل ٢١ ٠ (٣) شكل ٢٣ ٠

حرخوف الى الشلال الأول وجد مندوبا من قبـل الملك فى انتظاره ومعه سفينة ملكية بالهدايا العظيمة تقديرا لخدماته نحو مليكه العظيم ٠

وأخذ مرنرع يواصل أعماله في النوبة وجنوبي السودان مدة من الزمن ، ثم وقفت أعماله فجأة وعلى غير انتظار بالنسبة لوفاته ، ودفن فى تابوت جرانيتى بهرمه الملكي جهة منف الذى شـيده ونى وباشر صـنع تابوته كما ألمعنا سابقا ٠ وبقيت جثة مرنرع محفوظة فى مقبرتهـا رغم عبث اللصوص ومر الأيام حتى عـام ١٨٨١ ميـلادية لما نقلت الى دار التحف بالقاهرة (لوحة ٥٢) ٠ والمعروف أن مرنرع لم يحكم الا أربع سنوات وأن وفاته كانت فى أول السنة الخامسة ، ولم يترك وريثا للملك فتبعه فى الملك أخوه من أبيه المدعو ببى الثانى وكان وقتئذ طفلا لم يدرك سن البلوغ ٠ ويرجع السبب في اعتلاء ببى الثانى على العرش ونجاح حكمه الى ثبات مركز الأسرة الحاكمة واخلاص حكام الأقسام لها ٠ وببى هذا هو ابن عنخس مريرع الأخت الثانية لحاكم طينه التى تزوجها مع أختها الملك ببى الأول٠ بعد ذلك عين حاكم طينه المدعو جاو شقيق عنخس مريرع وخال ببى الثـانى وزيرا ورئيسا للقضاة وحاكما عاما لعـاصمة الملك ٠ وقد أدار دولاب أعمال الدولة فى حداثة سن ببى الثانى دون تغيير مطلقا فى سياسة المملكة ٠



شكل (٢٥)
تمثـال قـزم من عهد الدولة القديمة (ماخوذ عن ماسبرو)

وفى السنة الثانية من حكم الملك ببى الثانى صدر أمر من كبار الدولة المصرية الى حرخوف بالقيام بغزوة رابعة بأرض يام فقام بها خير قيام وجلب معه غنائم كثيرة وقزما من أواسط أفريقية (شكلى ١٧ و٢٥) . وكان لسراة المصريين غرام كبير بالأقزام خصوصا وقت رقصهم لأنهم كانوا يشبهونهم بالمعبود بس الممثل ضاحكا دائما على الآثار . واعتقد المصريون قديما أن أرض الأقزام ذات صلة « بأرض الموتى الغربية » (المعروفة بأرض الأرواح) . ثم ان ملوكهم كانوا كثيرا ما يمضون فراغهم فى فرح من رقص الأقزام . لذلك لما علم ببى الثانى بخبر حضور قزم مع حرخوف كان سروره عظيما جدا على حداثة سنه فأرسل حرخوف كتابا خاصا رجاه فيه الاهتمام بعدم ايذاء ذلك القزم والاحتراس من غرقه فى النيل ووعده بمكافأة أكبر من التى أعطاها الملك ازيسى وزيره بردد لما جلب له قزما من بونت أى بلاد الصومال . وقد سر حرخوف بهذا الخطاب كثيرا فنقشه على واجهة قبره (لوحة ٥١) اثباتا لعلاقته المتينة مع البيت المالك .

ويرجح أن غزوات حكام الجنوب لبلاد النوبة فى القرن السادس والعشرين قبل الميلاد كانت أقل نجاحا من غارات حرخوف ، لأنه ورد على الآثار أن أحد حكام الأقاليم الجنوبية المدعو سنبنى (Sebni) كان له ابن رئيسا يدعى مخو أرسل بأمر ملكى لغزو السودان فبلغه ذات يوم فجأة خبر قتل والده بجهة الواوات ، فحشد جنودا بسرعة وزحف معهم جنوبا مع مائة حمار ليقتص من القبيلة التى قتلت والده ، وأرسل فى الوقت نفسه خبيرا بذلك الى الملك مع رسول يحمل هدية ناب من العاج يبلغ طوله خمسة أقدام ، واعتذر بأن أطول ناب عنده لا يزيد طوله على عشرة أقدام ! ووصل سبنى أرض الواوات فوجد جثة أبيه واقتص من قتلته ثم أحضر الجثة معه الى القطر المصرى محملة على حمار . ولما وصل الى وطنه وجد أن الملك أرسل له بعثة ملكية من المحنطين والنجارين ورجال المآتم وكهنة الأموات وما الى ذلك وكميات وافرة من الأقمشة والبخور والزيوت والروائح الزكية ، ليحنطوا الجثة بسرعة ويقدموا ما يليق بها من الحفاوة . بعد ذلك سافر سبنى الى الملك ليقدم له جزيل الشكر على حسن صنيعه وأحضر له أيضا الغنائم العظيمة التى جمعها له والده ، فنال من السدة الملكية أعظم عطف واحترام وبخاصة لما فعله فى تخليص جثة أبيه من هؤلاء القتلة ، ومثل هذا الأمر كان من أقدس الواجبات عند المصريين . ثم أهدى الملك سبنى اليه هدايا ثمينة وكمية كبيرة من الذهب لاخلاصه للعرش وختم نعمه باعطائه قطعة من الأرض بأمر ملكى .

هكذا امتدت سيطرة مصر على النوبة تدريجا . ثم خطر للمصريين أن يعينوا على تلك البلاد حاكما عاما من قبلهم فأصدر الملك أمره الرسمى بتعيين المدعو ببى نخت (Pepinakht) فى تلك الوظيفة وهذا الرجل هو أحد رؤساء جزيرة فيلة،ومن ثم أطلق على المركز «حاكم البلاد الأجنبية». وكلف الملك هذا الحاكم غزو أراضى الواوات والارتت فنفذ ذلك وأحضر معه غنائم كثيرة وعددا كبيرا من الأسرى والأطفال ورؤساء القبائل كرهائن لحماية البلاد من حصول اضطرابات فى المستقبل . وصدر أمر ملكى ثان الى ببى نخت بالقيام بغزوة ثانية فقام بالمأمورية خير قيام وأسر رئيسين من رؤساء قبائل السودان مع قائديهم وكثيرا من الغنائم وقطعان الأغنام . ويستدل من نقوش مقابر جزيرة فيلة أن غزوات المصريين بلغت وقتئذ أرض كوش . وبهذه الطريقة سهل على ملوك المملكة المتوسطة أن يخضعوا النوبة السفلية وقد كان هذا الأمر من أسهل المسائل على ملوك الأسرة السادسة لولا سقوطها وحصول اضطرابات داخلية .

والفضل فى ربط تجارة مصر بالصومال وجنوبى البحر الأحمر يرجع الى حكام جزيرة فيلة الذين كانوا مزودين على ما يظهر بالسلطة على البلاد الممتدة من النيل الى البحر الأحمر ; ولا يخفى أن غزوات هؤلاء القوم للصومال كانت خطيرة وصعبة كغزوات النوبة . ولعدم اتصال النيل بالبحر الأحمر اضطر حكام جزيرة فيلة وقت غزوتهم البلاد الصومال أن يبنوا سفنا بميناء على البحر الأحمر قريبة من النيل كالقصير أو لوكوس ليمين (Leucos Limèn) . ورقى المصريون الملاحة بتحسينات أدخلوها عليها كاستعمال أحد المجاديف سكانا (٤) بآخر المركب متصلا بيد تديره على حسب الارادة . ودلتنا الآثار أن القائد البحرى لببى الثانى المدعو اننخت (Enenkhet) افترسه البدو وفتكوا به وبرجال حملته فأصدر الملك أمره فى الحال الى ببى نخت بالذهاب توا لانقاذ جثة اننخت وعقاب البدو ، فنفذ ببى نخت مأموريته تماما ورجع سالما . ومع هذه الغزوات كانت العلاقات التجارية والمواصلات مع الصومال مستمرة سليمة كما أثبتته نقوش مقبرة لأحد مستخدمى رؤساء جزيرة فيلة ، فقد جاء فيها أن هذا الموظف سافر مع سيده الى الصومال أكثر من احدى عشرة مرة ورجع سالما . من ذلك يتضح أن مصر أخذت ترقى تجاريا وحربيا حتى اضطرت فى آخر الأمر الى أن تتدخل فى أمور البلاد المجاورة لها وأن تبسط نفوذها عليها ، فلم يعد الفراعنة قنوعين بخيرات قطرهم كما أن التجار طمعوا فى نعم الأقطار الأخرى ، فكثرت التجارة مع الجنوب وأخذت الأساطيل المصرية الملكية شمالا تنقل خيرات لبنان وأخصها خشب الأرز

---

(٤) السكان هو دفة المركب .

من غابات تلك الجهات الغنية • ودلتنا الأبحاث الحديثة على وجود صلة تجارية قديمة بين القطر المصرى وجزر البحر الأبيض المتوسط وهو أمر منتظر لا يحتاج الى دهشة أو استغراب •

ولمناسبة جلوس ببى الثانى على العرش فى طفولته كانت مدة حكمه طويلة فقد قال مانيتو ان هذا الملك تولى الحكم فى السنة السادسة وعاش مائة سنة • وأكد اراتوثتنيس (Eratosthenes) فى قائمته التاريخية أن ببى الثانى حكم البلاد مدة قرن • أما درج تورين البردى فيدل أن ببى هذا حكم حوالى تسعين سنة وهو محتمل جدا ، وعليه فحكم هذا الملك أطول الأحكام فى التاريخ • ولما توفى ببى الثانى تبعه عدة ملوك مددهم قصيرة ويظن بعض الأثريين أن من بين هؤلاء الملوك الملكة نيتوكريس التى نسب اليها كثير من الروايات الخرافية ، وكذلك الملكان اتى وامحتب ؟ اللذان أرسلا بعثات لوادى الحمامات لقطع الأحجار اللازمة لهرميهما ، وهنـاك أثريون آخرون يجيزون أن هذين الملـكين فى آخر عهد الأسرة الخامسة • والثابت أن الحوادث التى حصلت بعد وفاة ببى الثانى ما تزال غامضة تصعب علينا معرفتها ، فنحن ما نزال نجهل كيفية سقوط الأسرة السادسة وطريقة انتقال الملك منها الى الأسرة السـابعة ، والمظنون أن الاسرة السادسة حكمت حوالى مائة وخمسين سنة • وقد ألمعنا سابقا الى أن سلطة حكام الأقسام كبرت تدريجا فى أواخر أيام هذه الأسرة حتى انتهى الأمر باستقلال كل منهم وتفكك عرى الدولة فعادت الحال كما كانت عليه قبل حكم الملك مينـا • وهكذا بعد ما حكمت القطر حكومة نظامية لمدة تزيد على ألف سنة رجعت الحال الى أصلها من الفوضى وعدم النظام •

وقبل الفراغ من الكلام على تاريخ المملكة القديمة، يجدر بنا أن نفخر بأعمال ملوكها العظـام الذين حكموا القطر مدة ألف سنة تقريبا والذين يرجع اليهم فضـل توطيد المملكة وجمع قوتها وتوجيه مجهوداتها نحو النافع المثمر العائد بالخير والرفاهية • واذا لاحظنا كل هذا لانستغرب أن نرى الشعب المصرى عبـد هؤلاء الفراعنة تبجيلا لهم وتعظيما • وقد استـمر المصريون يقيمون الطقوس لأرواح هؤلاء الحـكام حتى الأسرة السـادسة والعشرين ، كما يتضح من مثـابرة القوم على تعيين كهنـة اخصائيين لهؤلاء الملوك فى تلك الأوقات التالية • وصار المصريون فى عهد الاصلاح بأواخر التاريخ المصرى يسترجعون ديانة ومعلومات ونظام حكومة المملكة القـديمة بعد ما مضى عليها نحو الفى سنة • وما تزال آثار هؤلاء الأقوام كالمعابد والمقابر والأهرام المنتشرة على طول القطر لعدة أميال تلقى فى نفس من يراها الاعجاب والدهشة ، وقد شيدت معظم هذه الآثار على سلسلة جبـال ليبيـا بحافة الصحراء الغربية ، وهـذه الى الآن تشهد

لأصحابها بتوقد الذهن وعظم المجهود والبراعة فى الأعمال الآلية (الميكانيكية) والأنظمة الداخلية وبناء السفن لعبور البحار وارتياد البلاد للكشف • والحق يقال ان هؤلاء القوم هم الذين ربطوا التجارة المصرية مع البلاد الأجنبية السحيقة حتى أواسط أفريقية وحسنوا فنى الحفر والنقش وقدموا فن العمارة فشيدوا العمد العظيمة الشيقة والمبانى الضخمة ذات العمد وبرعوا فى سياسة البلاد داخليا وخارجيا فسنوا قانونا متينا عادلا وأنجبوا رجالا متضلعين فى القضاء • وقد اعتنى أهالى الدولة القديمة بديانتهم كثيرا لشدة اعتقادهم أنهم فى الحياة الأخروية محاسبون على أعمالهم • وهم للآن أقدم أناس معروفين اعتقدوا بالبعث بعد الموت وأن الثواب فى الآخرة على قدر الحسنات فى الأولى • وجملة القول ان أعمال هؤلاء القوم ومدنيتهم انتشرت فى العالم فأعجب بها الخلق أكثر من أية مملكة أخرى •

بقى علينا الآن أن نتفقد الحوادث لنعرف اذا كان اضمحلال الدولة القديمة وفرط عقدها استمر حتى أفسد البقية الباقية من النخوة القومية او أن هذا الانقلاب كان حادثا عرضيا فقط عالجته أذهان وأيدى رجال مصر العاملين فأرجعوا المياه الى مجاريها وساعدوا بلدهم على التقدم والرقى حتى أدهشوا العالم •

الكتاب الثالث

الدولة الوسطى - عهد الإقطاع

الفصـــل الثـــامن

اضمحلال منف وبزوغ شمس طيبة

لمـــا سقطت الأسرة السادسة تفككت عرى الحكومة وعمت الفوضى البلاد وساد فيها التلف وكثر الخراب • أما الأشخاص المسئولون عن هذا الانقلاب العظيم فلم نهتد اليهم للآن ولكننا نظن أنهم كانوا معادين لملوك الدولة (١) القديمة ، لأنهم نهبوا المعابد وخربوا الهياكل والمقابر والنقوش والرسوم البديعة بنظام وتدبير • وحطموا التماثيل الجرانيتية الجميلة والصوانية وألقوا بعضها فى الآبار كما ثبت بما وجد ببئر المعبد المقام على الطريق الموصل لهرم الجيزة الثانى • ولذلك استدللنا أن أعداء الدولة القديمة صبوا نقمة غضبهم على كل من له علاقة بأعدائهم حتى حل بالأمة الدمار والخراب • قال مانيتو موجزا ان بعض الأمراء وقتئذ اجتهدوا فى ارجاع الأمور الى مجاريها فأسســوا حكومة مركزية منفيــة اعتبرها هذا المؤرخ الأسرة السابعة • وروى مانيتو أيضا أن هذه الأسرة سقطت ثم تبعتها الأسرة الثامنة أفرادها أذناب العائلات المنفية السابقة • ويستدل من قـائمة أسماء الملوك المحفوظـة بمعبد العرابـة أن ملوك هذا العصر المضطرب اعتبروا أنفسهم من نسل الأسرة السادسة ، ولكننا لم نعثر للآن المضطرب اعتبروا أنفسهم من نسل الأسرة السادسة ولكننا لم نعثر للآن على هرم أو قبر لهؤلاء الأقوام • وليس فى محـاجر طور سـيناء ووادى الحمامات ذكر مطلقا لملوك الأسرتين السابعة والثامنة مع أنها تحوى كثيرا من النقوش لفراعنة مصر العظام ، ولذلك لا يبعد أن كان ذلك العصر عهد فوضى وخراب عجز فيه ملوكه وأمراؤه عن تشـــييد مقابر أو آثار لهم

---

(١) من أهم الوثائق التى تلقى الضوء على ذلك العصر بردية تتحدث عن حكيم عاش فى عصر ملك عجوز (ربما كان ببى الثانى آخر ملوك الأسرة السادسة) أهمل شئون البلاد واعتزل فى قصره تاركا لرجال بلاطه وحكام المقاطعـات تسيير الأمور ، ولا يتردد هذا الحكيم واسمه ايبوور فى أن يتوجه الى الملك ويؤنبه على سياسته الخاطئة ويحدثه عن الاضطراب •

نستدل منها على حوادث زمنهم • وتفيد نقوش محاجر حاتنوب ان أمراء ذلك القسم المعروف قدما بقسم الأرنب جمعوا قوتهم وقتئذ وأعلنوا استقلالهم وأرخوا حوادثهم بسنى حكمهم بلا اعتبار للبيت المالك• وتمادى هؤلاء الحكام فى عصيانهم فكتب أحدهم نقوشا افتخر فيها بأنه نجى بلده من ظلم واضطهاد البيت المالك • وبعد ذلك بمدة وجيزة ظهرت بجهة اهناسيا أسرة قوية اغتصبت الملك من الأسرة الثامنة المنفية التى بقيت تدعى لنفسها حق الملك مدة قرن تقريبا •

والظاهر أن أمراء اهناسيا ردوا بعض النظام الى القطر وأرجعوا اليه السكينة والطمانينة • أما اهناسيا فبلدة واقعة جنوبى الفيوم وهى مركز عبادة حورس منذ مبدأ حكم الأسر • وأول من ارتقى عرش مصر من هؤلاء الاهناسيين هو أختوى (Akhthoes) كما روى مانيتو ، واليه ينسب حب الانتقام والجبروت والغلظة أكثر من سواه وقتئذ • قال مانيتو ان هذا الملك جن فى أواخر أيامه ثم افترسه أحد التماسيح • وحكم مصر فى اهناسيا ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة وكانوا ضعيفى السلطة لم يتركوا بعدهم آثارا عظيمة تثبت قدرتهم وكفايتهم • ولم نعثر على نقوش أثرية لهاتين الأسرتين الا ما له علاقة بثلاثة الأجيال الأخيرة من حكمهما ، لما أخذ حكام أسيوط يحفرون مقابرهم فى الصخور ويدونون أعمال أسرتهم العظيمة • وجاء فى هذه النقوش أن حالة القطر المصرى وقتئذ كانت سيئة وأن ملوك اهناسيا قاوموا ذلك السوء وحاولوا ازالته • واليك ترجمة ما جاء بقبر أحد أولئك الأمراء السيوطيين : « كان كل موظف يدير عمله كالمعتاد بلا مشاجرة ولا مطاحنة بالقوس والنشاب،وبطل قتل الطفل جوار أمه وسفك دم الرجل قرب زوجه ، ووقف فعل السوء •••• وضرر الرجل لبيته » • واليك ترجمة نقوش أخرى : « اذا جن الليل مدحنى كل من نام فى الطريق لأنه أصبح آمنا كالذى يقطن داره ، ذلك لأن فزع الأثمة من جنودى كان خير حام له فى وحدته » •

وعلاقة حكام أسيوط مع ملوك اهناسيا كانت متينة وحسنة للغاية ، فقد جاء أن أحد هؤلاء الملوك حضر مرة جنازة حاكم أسيوط وأن ابنة هذا الحاكم تولت ادارة شؤون قومها بعد وفاته وأرسلت ابنها الصغير المدعو ختى ليتعلم مع أولاد ملوك اهناسيا ، فلما كبر هذا الابن تسلم من أمه مقاليد الحكم وقد ترك لنا فى قبره نقوشا تشير الى كثرة رخاء وتقدم قسم أسيوط • ومما ورد عن هذا الحاكم أنه حفر الترع وقلل الرسوم وأكثر المزروعات وقطعان الغنم وجهز نفسه بجيش برى وأسطول بحرى لمكافحة

الطوارىء · من ذلك صار لحكام أسيوط عند ملوك اهناسيا مكانة عظيمة حتى صدر الحكم الملكى فى يوم من الأيـام بتعيين ختي المذكور « حاكما عاما على مصر الوسطى » ·

فى هذا الوقت ظهرت أسرة عظيمـة ذات نفوذ كبير بجنوبى القطر أخذت تنافس حكام أقسام مصر عزة ورقيا · أما مقر هذه الأسرة فيبعد عن منف جنوبا بنحو أربعمائة وأربعين ميلا وعن الشلال الأول شمالا بأقل من مائة وأربعين ميـلا ويقع جنوبى انحناء النيل القريب فى البحر الأحمر (جهة قفط) بحوالى أربعين ميلا · والباحث في هذا المكان من الوجهة الجغرافية يجد أن سلسلتى جبال وادى النيل تتسعان وتبعدان عن النهر وتحدثان سهلا شاسعا خصبا نشأت فى وسطه مدينة يقال لها طيبة ، وما يزال هـذا السهل يحوى للآن أعظـم آثار المدينة القـديمة الفذة فى المعمورة · وبدهى أن مدينة طيبة أقدم مدينة أثرية فى العالم وقد كانت فى العصر الذى نحن بصدده قرية صغيرة · أما عاصـمة اقليمها فكانت أرمنت مقر احدى أسر أمراء الصـعيد التى امتاز رؤساؤها باسمى انتف ومنتوحوتب · وفي آخر عهد ملوك اهناسيا قوى نفوذ هذه الأسرة الأخيرة فرقى أحـدهم المدعـو انتف بأمر ملكى الى رتبة « محافظ باب القطـر الجنوبى » · ولما كثرت المعاملات بين أقسام الوجه القبلى ومد كل منها يد المساعدة الى الآخر فى مبادلة الغلال والحبوب وغيرها جمع انتف أقاليم مصر الجنوبية من الشلال الأول الى طيبة تحت كلمته وشق عصا الطاعة على اهناسيا واغتصب الملك منهم وألف هو وخلفاؤه مملكة مستقلة مركزها طيبة · وقد اعتبر انتف هذا مؤسس ملوك طيبة فى العصور التالية فاقام أمراء المملكة الوسطى تمثالا له بمعبد طيبة لعبادته بين تماثيل أجدادهم السابقين ·

واخـذ حكام أسيوط ينتقمون من حكام طيبـة ليخضعوهم لسلطة اهناسيا فقام تفيبى (وهو ابن خيتى حاكم أسيوط على الأرجح) وحشد جيشا وأسطولا زحف بهما جنوبا على طيبة ، فالتحم بجيوش أعدائه على شاطىء النيـل الغربى وهزمهم واقتفى أثرهـم حتى « قلعة باب القطر الجنوبى » وهى العرابة المدفونة على الأرجـح · ثم التحم قسم آخر من جيش تفيبى مع بعض قوات طيبة على جهة النيل الشرقية فانهزم الطيبيون أيضـا · وبعد ذلك حصلت معركة بحريـة بين أسطولى الطرفين انتهت بأسر أسطول طيبة وغرق قائده فى النيل · على اثر ذلك رقى خيتى بن تفيبى « حاكما عسكريا للأراضى كافة » و « سيدا أكبر لمصر الوسطى » · ولما توفي تفيبى استمر خيتى مخلصا للملك مريكارع الاهناسى الآيل الى السقوط ، وأخضع خيتى ثورة ثانية بطيبة ، والظاهر أنه استصحب الملك

وقتئذ ليريه خضوع أهل طيبة له ثم عاد معه · وكان خيتي يفخر كثيرا
بأسطوله لما رأى وحداته منتشرة عدة أميال على مياه النيـل حتى مدينة
بأسطوله لما رأى وحداته منتشرة عدة أميال على مياه النيل حتى مدينة
بابتهـاج عظيـم وصفه خيتي بقوله : « لقـد أقبلت علينا المدينة مسرورة
بسيدها ··· نساء ورجالا وكهولا وأطفالا » · ومن ذلك يتضح أن نقوش
مقابر أسيوط كانت خير معين لنا على معرفة تاريخ أواخر العهد الاهناسى

وبالرغم من هذا كله فان خط طيبة أخذ يعلو ويتحسن ، لأنه لما توفى
انتف المذكور آنفـا تولى بعده حاكم آخر يقـال له انتف أيضا ، انتحل
لنفســه الألقاب والأوصـاف الفرعونية وكتب اســمه داخل خانة ملكية
أيضا ، وأصبح هذا الشخص بحكم التاريخ انتف الأول مؤسس الأسرة
الحادية عشرة · وقد استعمل هذا الملك العنف والشدة مع الاهناسيين
فاقتحم العرابة وقسم طيبة وأوصل حدود مملكته الى «باب القطر الشمالى»
ولعله المعروف أيضـــا « بحصن باب القطر الجنوبى » الوارد ذكره في
نصوص تفيبى · وحكم انتف هذا أربعين سنة ثم عقبه ابنه المدعو انتف
الثانى الذى ما نزال نجهل صلته وتاريخه للآن · ثم توفى هذا فتبعه فى
الملك المدعو منتوحوتب الأول ثم منتوحوتب الثانى · ويظن بعض الأثريين
أن الملوك المدعوين منتوحوتب كانوا فرعا من أسرة انتف المذكورة واليهم
يرجع الفضل فى بسط سيادة طيبة على القطر المصرى · فمما ورد عن
منتوحوتب الثانى أنه أخضع الوجه البحرى ودون انتصاره على جدر معبده
فى جبلين فصور نفسه ضاربا المصريين والأجانب معا وكتب فى الحاشية
ما ترجمته : « هذا ضم رؤساء وجهى مصر وغزا الوجه القبـلى والبحرى
والبلاد الأجنبية وقســمى مصر وتســع قبائل من البدو وأرضى مصر » ·
ويرجح أن سقوط اهناسيا حصل حوالى منتصف القرن الثانى والعشرين
قبل الميلاد ، وعلى أثره انتقل الملك من الشمال الى الجنوب · وتقدر المدة
من سقوط الأسرة السادسة (أواخر عهد الدولة القديمة) الى منشأ الأسرة
الحادية عشرة الطيبية بثلثمائة سنة تقريبا ، وفى أثنائها انضمت مصر
تحت ادارة أمراء أقوياء قادرين على كبح جماح الثائرين · ولكننا لا نعرف
بالضبط العلاقة التى كانت بين ملوك الأسرة الحادية عشرة ، انما المفروض
جدلا أن الملك انتقل وراثيا من الأب الى الابن · ومع ذلك فهناك شواهد
تشـير الى حصـول نزاع بـين أفراد تلك الأسرة على عرش مصر ولذلك
لايمكننا الجزم بترتيب حكم هؤلاء الأفراد بالضبط ·

فى عهد الأسرة الحادية عشرة أخذت مصر ترسل البعثات الملكية الى
البلاد النائية بعد ما مضت على توقفهـــا مدة طويلة ، فأرســـل الملك

منتوحوتب الثـالث الملقب بنبتـاورع وزيره المدعو أمنمحات الى وادى الحمامات لجلب الأحجار اللازمة للتابوت الملكى · وقد ترك الوزير بتلك الجهة نقوشا عظيمة تتلخص فى أنه مضى هناك خمسة وعشرين يوما مع عشرة آلاف عامل. · ويعتبر هـذا أكبر عدد للعمال ورد ذكره على الآثار المصرية حتى ذلك العهد · وروى هذا الوزير أيضا أن المعبود من اله تلك الجهة أظهر معجزات وكرامات استغرب لها الناس طرا ، من ذلك أنهم لما وصلوا الى تلك الجهة وجدوا غزالة وضعت صغارها على الصخرة التى استخرج منها العمـال الغطاء اللازم للتابوت الملكى ، وبعد ذلك هطلت الأمطـار بكثرة فملأت بئرا هنـاك لحافتها فأكمل العمال شغلهم بغاية السهولة والسرعة · واليك ترجمـــة ما قاله أمنمحات عن ذلك مفتخرا : « وعادت حملتى بلا خسارة فلم يتوف منها أحد ولم أفقد شخصا ، ولم يهلك حمار ولم يهن عامل » · والمعروف أن هؤلاء العمال جمعوا من جهات القطر جميعها ، لذلك كانت سـلطة الملوك الثـلاثة المدعوين منتوحوتب كبيرة · وستظهر لنا علاقة هؤلاء الملوك بحكام أقسام مصر عند الكلام على الأسرة الثانية عشرة الطيبية التى سنذكرها فى القريب العاجل ·

ولما توفى منتوحوتب الثـالث تولى بعده منتوحوتب الرابـع وهو المدعو سب حبت رع وغزا النوبة وأنجز مشروعات الأسرة السادسة هناك بعد توقفها · وتفصيل ذلك أنه أرسل فى السنة الحادية والأربعين مـن حكمه وزيره المالى ختتى فى أسطول نيـلى الى بلاد الواوات لاخضاعها · ومن مآثره أيضا أنه شجع العمارة فشيد معبدا جميلا على صخور طيبة الغربية حلاه بشرفات بديعة قلدتها الملكة حتشبسوت بعد ذلك لما شيدت معبدها بالدير البحرى ، ويعتبر معبد منتوحوتب الرابع هذا أقدم آثار طيبة المعروفة للآن وكان العثور على هذا المعبد حديثا ، وقد وجدت على جدره صور بارزة لأجانب يقدمون الجزية للملك · والظاهر أن طول مدة حكم هذا الملك (التى قربت من أربعين عاما) ساعدت كثيرا على توطيد سلطته حتى اعتبره القوم بعد وفاته بعدة قرون المؤسس الأكبر لسيادة طيبـة ·

وتولى الملك بعد ذلك منتوحوتب الخامس فثـابر على غزو النوبـة والسودان كما فعل قبله ملوك المملكة القديمة · ثم وضع شئون التجارة مع البلاد الأجنبية فى يد موظف ماهر يقال له هنو « محافظ باب القطر الجنوبى » ووزير المالية أيضـا · وأمر وزيره هنو هـذا بغزو ســواحل البحر الأحمر فسافر اليها عن طريق وادى الحمامات فى قوة تبلغ ثلاثة آلاف رجل مزودين بما يحتاجون اليه من مأكل ومشرب الخ مما يشير الى حسبان هذا الوزير ما عسى أن يحصل من المصاعب فى أثناء الطريق ·

وقد جاء فى أخبار هذه الرحلة أن كل فرد منها كان يعطى له اناءان من الماء وعشرون كعكة صغيرة كل يوم مدة اختراق الصحراء والمكوث بوادى الحمامات • وعليه فمجموع المصروف اليومى لرجال هذه الحملة بلغ ستة آلاف اناء من الماء وستين ألف كعكة • واتخذ هنو فى مسيره كل وسائل الأمن وسهولة الانتقال فحفر فى الطريق خمس عشرة بئرا ومستودعا للمياه وعين عليها الحاميات اللازمة • ولما بلغ البحر الأحمر بنى مركبا أرسلها الى الصومال ثم عاد الى وطنه عن طريق وادى الحمامات جالبا معه قطعا حجرية جميلة ليصنع منها تماثيل للمعابد الملكية • ويقدر حكم منتوحوتب الخامس بثمانى سنوات على الأقل •

ولما توفى منتوحوتب انقرضت الأسرة الحادية عشرة وابتدأ حكم الأسرة الثانية عشرة التى رأسها أمنمحات الأول • وقد ذكرنا سابقا أن شخصا بهذا الاسم كان معينا وزيرا لمنتوحوتب الثالث والآن نزيد أن هذا الرجل قوى نفوذه وعظمت سطوته فانتزع الملك من آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة • ويظن أن هناك بعض الصلة الدموية بينه وبين هذه الأسرة لأن أسرته اعتبرت انتف جدا لهم فقدسه أفرادها ونصبوا له تمثالا بالكرنك • وتقدر مدة حكم الأسرة الحادية عشرة بنحو مائة وستين سنة وكان سقوطها حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد • وهى قليلة الآثار وأهرامها صغيرة ومشيدة باللبن على سهول طيبة الغربية وقد بقيت مصونة مدة ألف سنة تقريبا ثم خربت وتلفت حتى كادت تعفو وقد كشفها مريت الفرنسى الأثرى حديثا • وتعتبر هذه الأسرة مؤسسة للحكم الطيبى العظيم •

وصادفت أمنمحات الأول صعوبات جمة ومشقات كبيرة فى اعلاء مجده ورفعة مقامه ، من ذلك أنه أرسل أسطولا مكونا من عشرين سفينة مصنوعة من خشب الأرز طرد بها الأعداء من القطر المصرى • ثم قامت فى وجهه مشاكل داخلية كبيرة سببها حكام الأقسام الذين ما فتئوا يجتهدون فى قطع صلتهم به واعلان استقلالهم عنه فمما ورد عنهم أنهم أصلحوا مقابر أجدادهم الذين أسقطوا المملكة القديمة حفظا لذكراهم ورغبة منهم فى الانفراد بالحكم وعدم اطاعة البيت المالك • وليلاحظ أن ملوك الأسرة الحادية عشرة قللوا كثيرا من نفوذ هؤلاء الحكام ، فلما أتى أمنمحات أخذ يطوف القطر ويخضع أقسامه العاصية ويبسط العدل ويمنع المشاغبات والمنازعات بين الحكام حتى قال عنه حاكم قسم الوعل (Oryx-name) ما ترجمته : « لما ذهب جلالته الى هذا القسم بين الحدود الجنوبية ووطد الحدود الشمالية كالسماء وقسم النهر فى النصف الى قسمين جعل النصف الشرقى « لأفق حوريس » واصلا للجبال الشرقية •

وكان مجيء جلالته ساطعا مثل أتوم (Atum) – أى الشمس – ومصلحا لكل تلف ومعيدا لكل بلد ما سلبه منه جاره ومبينا لكل مدينة حدودها بمعالم كالسماء ومقسما المياه كما هو مدون فى النصوص القديمة ٠ كل هذا فعله جلالته لشغفه بالعدل وشدة ولوعه به » ٠

- ولم يكن من السهل على أمنمحات الأول أن يرجع لمصر ما حازته من العز أيام المملكة القديمة لأن حالة البلاد الداخلية لم تعد تسمح بهذا النظام ٠ فحكام الأقســام عادوا أقوياء فلم تبق أمامه وسيلة لاخضاعهم الا استعملها وأخذهم بالحسنى والرفق والكرم ٠ ويســتدل من نقــوش مقبرة بجهة بنى حسن جاء فيها أن أمنمحات الأول منح أحد أتباعه المدعو خنوم حوتب قسم الوعل (سعح) (Oryx-nome) فى شرقى المنيا وقد سبق أن الملك أوضح بعض حدود هذا القسم ، والظاهر أن امنمحات أخذ يعين فى كل قسم الشخص الأكثر ولاء وطاعة لأوامره ، فتمكن بهذه السياسة الحكيمة الرشيدة من تنظيم المملكة وتأسيس عهد سعيد آخر لمصر يعرف عند المؤرخين بعصر المملكة الوسطى الذى يبتدىء حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميـــلاد ٠

الفصــــل التـــاسع

الدولة الوسطى أو عهد الإقطاع

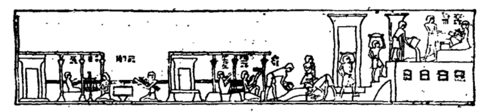
الحكومة ، المجتمع ، الديانة

أجبرت الظروف ملوك الأسرة الحادية عشرة أن يقيموا بطيبة مدة حربهم ونضالهم مع الوجه البحرى • ولما تولى أمنمحات الأول عرش مصر صادفته صعوبات جمة لما حكم القطر فى طيبة ، لأن معظم حكام الأقسام كانوا ميالين لملوك اهناسيا ولأن العادة اقتضت منذ سقوط ملوك طيبة ، أن يكون مركز الحكم فى الجهات الشمالية ، ولم يشذ عن القاعدة الأخيرة الا ملوك الأسرة الحادية عشرة • بنـــاء عليه اختار أمنمحات الأول مركز حكومته على شاطىء النيل الغربى جهة منف وعلى بعد بضعة أميال منها ولكننا ما نزال نجهـــل موقع هذا المركز بالضبط ، ونظن أنه قريب من لشت حيث كشف هرم أمنمحات المهدم • وأطلق أمنمحات اسم اثتوى أى « القابض على القطرين » على مركز اقامته هـــذا ونقش ذلك على الآثار وشيد حولها سورا مسلحا شبيها بالقلاع رمزا الى مناعة المركز الذى أدار فيه سياسة البلاد بحكمة ومهارة لا تعرف الملل ولا اليأس • وقد تبعته ذريته وسارت على منواله بحكمة وعقل فعظم مركز الأسرة وعلت منزلتها فى التاريخ القديم •

ومعلوم أن القطر المصرى كان مجزأ وقتئذ الى أقســـام صغيرة لكل منها حـــاكم تحت النفوذ الفرعونى • لكن هؤلاء الحـــكام لم يكونوا خدما أو موظفين ملكيين ، زد على ذلك أنهم كانوا متباينى المنزلة فمنهم الكبير ومنهم الوضيع كما هى الحال الآن بين الباشا والبك ولذلك شبهت حال القطر حينئذ بأوروبا فى الجزء الأخير من القرون الوسطى ، ومنه يتضح أن ضم هذه الأقسام تحت نفوذ حاكم واحد تطلب حاكما شديـــد الرأى قوى الارادة ، لأن أى وهن أو ضعف فى عزيمته يفكك عرى الدولة ويرجعها

الى زمن الفوضى والعصيان • وترجع معظم معارفنا عن هذه العصور الى ما ورد من الأخبار فى مقابر حكام الأقسام وآثارهم وعلى الأخص الموجود منها بمصر الوسطى • أما آثار ومقابر الوجه البحرى وباقى الوجه القبلى فقد لحقها التلف فأصبحت فى خبر كان •

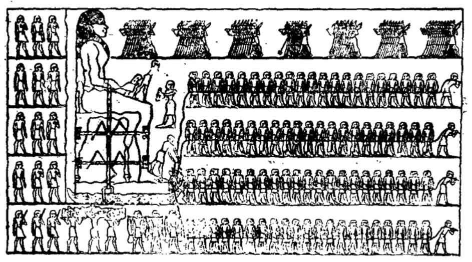
ولنبدأ بالكلام على حكام الأقسام فنقول انهم كانوا على يقين بأنهم سلالة قوم عريقين يرجع تاريخهم الى أربعة قرون أو خمسة تقريبا أى الى عهد الدولة القديمة وأن أجدادهم كانوا عظيمى المركز فى أقسامهم فأعلنوا استقلالهم فى سابق الزمن وأرخوا أعمالهم بعد حكمهم وحاربوا أحيانا البيت المالك وقاوموا نفوذه بالقوة • ومن ذلك يظهر أن هؤلاء الحكام كانوا فى عهد الأسرة الحادية عشرة أشبه بفراعنة صغار شيدوا قصورا شامخة أقل حجما من قصور الفراعنة لكنها حوت حاشية كبيرة ورئيسا للمالية وهيئة قضائية وعدة دواوين (شكل ٢٦) وكتبة ومستخدمين • وقصارى القول ان قصور هؤلاء الحكام حوت كل ما تحتاج اليه حكومة فى عاصمة ملكها (شكل ٢٧) • وبهذه الوسيلة تمكن كل حاكم من تحصيل عوائد أرض قسمه والاشراف على أمور أهله الدينية وقيادة جيشه الثابت النظام والتدريب ، وعليه فقد كانت قوة هؤلاء الحكام لايستهان بها • وجاء فى الآثار أن حاكم قسم سمح(الوعل) (Oryx-nome) غزا بلاد النوبة بأربعمائة عسكرى وقاد جملة مكونة من ستمائة عامل الى مناجم الذهب على طريق قفط • وورد أيضا أن حاكم قفط أرسل بعثة الى محاجر الحمامات أحضرت له قطعتين من الحجر طول كل منهما سبع عشرة قدما ثم أوفد بعثة أخرى جلبت صخرة طولها عشرون قدما وست بوصات جرها مائتا رجل فى طريق الصحراء الواصل الى النيل والبالغ طوله حوالى خمسين ميلا • وروى أيضا أن حاكم قسم الأرنب (Hare-nome) جلب رجاله قطعة من المرمر من محاجر حاتنوب ينيف وزنها على ستين طنا جرت على طريق طوله عشرة أميال حتى وصلت الى النيل ، وقد عمل



شكل (٢٦)

شكل (٢٦) ادارة الامير خنوم حوتب ببنى حسن • يلاحظ فى القسم الأيسر للرسم رئيس المالية يزن امامه الذهب والفضة وفى القسم الأوسط وكيل الرئيس يدون مقادير الحبوب الواردة الى الشونة (الكائنة فى القسم الأيمن للرسم) •

من هذه الصخرة تمثال لهذا الحاكم يقرب ارتفاعه من اثنتين وعشرين قدما • ولم يقتصر الحكام على ذلك بل شيدوا أيضا معابد ومبانى عمومية فى مدنهم الرئيسية كما أكثروا من تعليم الحرف والصنائع مدفوعين لذلك برغبتهم الشخصية ومراقبين ذلك بأنفسهم ، فصارت لهم بذلك اليد الطولى فى رقى داخلية البلاد وأنظمتها بدرجة غير مسبوقة النظير • وجاء عن حاكم قسم أسيوط المنتمى الى ملوك اهناسيا أنه قال : « كان عندى كثير من الحبوب • ولما حصلت المجاعة فى قسمى وزعت على القوم الحبوب بمكيالى (خا) و(حكت) ، وسمحت لكل فرد أن يجحب لنفسه الحبوب ، وكذا الزوجات والأرامل والأبناء ، وسددت كل نقص لم يكن مستوفيا منذ عهد آبائى ، وأكثرت من قطعان الغنم فى المراعى حتى أصبح لكل رجل أغنام عدة • وكان البقر يلد اثنين كل مرة فصار بين صعاره كثير من العجول » ومما جاء عن هذا الحاكم أيضا أنه حفر ترعة جديدة ضاعفت كثيرا من خيرات أرضه • وليلاحظ أن العدل والعطف على الرعية لم يكن مقصورا على الحكام ، بل شمل أيضا الموظفين التابعين لهؤلاء الحكام ، من ذلك ما ورد عن أحد مساعدى المالية لحاكم قسم طيبة أيام الأسرة الحادية عشرة هذا ترجمته : « كنت أجلب المأكولات والأغذية الى الجبلين (Gebelen) مدة سنى القحط لما بلغ عدد الجياع أربعمائة نسمة ، ولم أغتصب ابنة رجل ولاحقله ، وربيت عشرة قطعان من الغنم وجعلت كل قطيع تحت ادارة رجل خاص ، ربيت قطعتين من البهائم وقطيعا من الحمير ، وأكثرت من تربية الحيوانات الصغيرة على اختلاف أنواعها ، وبنيت ثلاثين سفينة أولا ثم أعقبتها بثلاثين أخرى • ولما حصل لجبلين الكفاية أرسلت الاعانة الى اسنا وتيفيوم (Tuphium) . وهكذا ساعد



شكل (٢٧) صورة تمثال كبير من المرمر ارتفاعه اثنتان وعشرون قدما منقول على زحافة يجرها بالحبال مائة وسبعون واثنان من الرجال اصطفين أربعة صفوف ماخوذة عن مقبرة جهة البرشة يرجع تاريخها الى عهد الدولة الوسطى •

قسم طيبة مدينة جبلين بالاعانات فلم تعد محتاجة الى مساعدة الأقسام الأخرى » . ومنه يستدل أن كل حاكم قسم كان يطمع أن يترك لنفسه أثرا جميلا فى نفوس قومه . والفضل فى معرفة هذه المعلومات كلها يرجع الى ما تركه لنا هؤلاء الحكام من النقوش على مقابرهم مما خلد ذكراهم للآن . ولعل نقوش أمينى حاكم قسم الوعل الواردة على قبره فى بنى حسن أقطع برهان على عناية هؤلاء الحكام بالرعية وهاك ترجمتها : « لم أسىء معاملة ابنة رجل من القوم ولم أظلم أرملة ولم أمتهن فلاحا . اننى لم أطرد راعيا ولم أسخر فى أشغالى عمالا بلا أجر . وبهذه الطريقة زالت الكآبة عن قسمى وانعدم الجوع وقت حياتى . ولما حصل فى زمنى القحط اجتهدت فى زرع أرض قسمى حتى آخر حدوده الجنوبية والشمالية وأطعمت سكانه فلم يجع منهم أحد . وكنت أسوى العطاء للأرملة والمتزوجة وللكبير والصغير . ولما وافت زيادة النيل أخذ كل واحد محصول أرضه ولم آخذ منه شيئا » . هكذا كانت رغبة حكام الأقسام فى تسجيل أعمالهم الحسنة المجيدة التى تتجسم فيها الرأفة الأبوية ، ولا شك فى أن مثل هذه الخصال والمعاملة الشخصية اليومية بين الحكام وسكان أقسامهم اعتبرت وقتئذ من نعم الاله وعطاياه الجزيلة .

وأملاك حكام الأقسام نوعان : نوع وصل الى ملكهم بالميراث من آبائهم ونوع ثان وهب لهم بأمر ملكى يتمتعون به مدة حياتهم بعد وفاة سلفهم فى المركز . وكان يتحتم على فرعون أن يتبع طريق الوراثة الشرعى وقتئذ والذى ينص على انتقال الوراثة الى أكبر البنات فقط ، وقد ألمعنا سابقا الى مثل هذا الأمر عند الكلام على وفاة حاكم أسيوط وتعيين ابنته بأمر ملكى حاكمة على قسم والدها حتى كبر ابنها وتسلم مقاليد الحكم . وقد أظهرت لنا نقوش مقابر بنى حسن كثيرا من هذه المسائل الوراثية ، من ذلك ما جاء بمقبرة خنوم حوتب عمدة مدينة منعات خوفو أهم مدن خط « أفق حورس » التابع لقسم الوعل وهذا ملخصه : ان امنمحات الأول لما تولى الملك عين هذا الرجل فى الوظيفة المذكورة ثم عينه بعد ذلك حاكما عاما على القسم جميعه ، ولما تولى سنوسرت الأول الملك عين ولدى خنوم حوتب المدعوين نخت وأمنى وريثين له بعد وفاته . وعهد جلالة الملك الى الابن نخت بأن يكون عمدة على مدينة منعات خوفو والى الابن الثانى أمنى الذى سبق ذكره عند الكلام على قسم الوعل برياسة هذا القسم نفسه . ثم ان ابنة خنوم حوتب تزوجت بموظف كبير بالقصر الملكى يدعى نهرى وزير الملك وحاكم عاصمته ، كان فيما سبق حاكم قسم الأرنب المجاور . واقتضت الادارة الملكية طبقا للقانون أن يعين سليل هذا القران المدعو خنوم حوتب أيضا عمدة لمدينة منعات خوفو بعد وفاة خاله نخت ،

ثم تزوج هذا الابن خنوم حوتب بالسيدة خيتي كبرى كريمات حاكم قسم ابن آوى المجاور له ، فأصبح لأكبر أنجال خنوم حوتب الثاني حق في حكم قسم ابن آوى عن طريق والدته ــ وقد تم ذلك فعلا بأمر ملكي . وخلف خنوم حوتب الثاني نجلا ثانيا أغدق عليه الملك شريف الألقاب في القصر الملكي ثم عينه بعد ذلك عمدة منعات خوفو بعد وفاة والده . من ذلك يتضح أن فرعون مصر كان مضطرا بحكم الظروف والقوانين الى أن يراعى أصول الوراثة وأن يظهر احترامه اللازم ومجاملته الواجبة لأفراد الأسر ولحكام الأقسام وقتئذ .

وللآن لم نتأكد مقدار نفوذ البيت المالك على حكام الأقسام ، وكل ما دلتنا عليه الآثار أنه كان للملك نواب في أقسام مصر لحراسة أملاك الحكومة ومفتشون على « أملاك التاج » للاشراف على قطعان الغنم التابعة للملك . والظاهر أن حكام الأقسام كانوا يجمعون الضرائب من الرعية لتوصيلها الى البيت المالك . قال أمني حاكم قسم الوعل المذكور آنفا : « كل دخل البيت المالك كان يمر تحت يدى » . ولابد أن الادارة المالية كانت هي القوة العاملة بين البيت المالك وحكام الأقسام لأن أملاك الحكومة انتشرت في أنحاء القطر ، وقد ذكرنا فيما سبق أن هذه الأملاك كان يشرف عليها موظفو الحكومة أو حكام الأقسام كأملاك موهوبة لهم من الملك . وقال أمني ان جلالة الملك أرسل له ثلاثة آلاف ثور لتربيتها ، وكان يرسل لجلالته تقريرا سنويا عنها ويبعث لجلالته بجميع الايراد دون أن يحجز منه شيئا لنفسه . وكتب تحوت حوتب حاكم قسم الأرنب على جدر قبره بالبرشه مفتخرا بهذا الخصوص : « لقد ربيت عددا عظيما من غنم الملك وعددا آخر (ورثته من والدى) في القسم الذى كنت أديره » . ولم نهتد الى الآن عن مقدار أملاك الحكومة في أقسام القطر ومزارع الأفراد ، ولكن يظهر أن حكام الأقسام كانوا وقتئذ أقوياء يعطلون أشغال الحكومة ويضعفون نفوذها فلم يعد للملك تلك السلطة التى كانت لفراعنة المملكة القديمة على جميع القطر . وليلاحظ أن البيت المالك كانت له موارد ثروة أخرى غير الضرائب والجزية التى تجبى من أقسام مصر وغير دخل القصر الملكي ذاته وهذه هي الذهب المستخرج من النوبة وطريق قفط وأموال التجارة مع الصومال وشواطىء البحر الأحمر مما عاد بالكسب الوافر لأن هذه المشروعات عملت على حساب الحكومة . زد على ذلك أن ايراد محاجر طور سيناء والحمامات عاد كثيرا على الحكومة بالفوائد المالية ، وبدهي أن غزو النوبة والغارات على سوريا وفلسطين ضخمت ميزانية الدولة المصرية .

وبقيت الادارة المالية تعرف « بالبيت الأبيض » الى الوقت الذى نحن بصدده ، ولهذه الادارة عدة فروع كمخازن الحبوب والمواشي ومخازن

الذهب والفضة وغير ذلك من واردات القطر السنوية التى تجبى لفرعون ٠ ولما زادت الايرادات نقنتها الحكومة فى أسطول ضخم (١) وصار « رئيس المالية » يعرف « برئيس البيت الأبيض » ثم عين له مساعد يقال له « صراف المعبود » (أى الملك) ٠ وتطلبت كثرة الأشغال عددا كبيرا من الضابط والأوراق والموظفين ٠ وعهد لبعض موظفى المالية فى ادارة مناجم سيناء والحمامات ونهاية طريق قفط ٠ ومن ذلك يتضح أن ادارة المالية فى عهد المملكة الوسطى كانت أكبر كثيرا مما كانت عليه فى عهد المملكة القديمة ، وأعظم دليل على ذلك كثرة المصالح وتعدد المديرين وزيادة رؤساء الأقلام ووكلائهم ٠ ولا يخفى أن زيادة الادارة تصحبها كثرة الألقاب وتباين الدرجات مما ليس له نظير فى الأزمنة السابقة ، ويشاهد ذلك على الأخص فى طائفة المهندسين والمثالين الذين كانوا يشرفون على أعمال طور سيناء ، وبدهى أن مثل هذا الاكثار فى الموظفين أوجد بين الرعية طائفة منهم متوسطة الحال ٠

أما القانون فى عهد المملكة الوسطى فكان يشرف على تطبيقه رجال الادارة ، ولذلك كتب أحد كبار موظفى المالية مفتخرا ما ترجمته : « كنت أعرف القانون جيدا وأطبقه بكل حزم واحتراس » ٠ وكانت هناك ست محاكم كبيرة تعرف « بالبيوت الكبيرة » تعقد تحت رياسة الوزير فى اثتوى (Ithtowe) (٢) ٠ وهناك أيضا محكمة مكونة من ثلاثين قاضيا تعرف « ببيت الثلاثين » تعقد برياسة الوزير أيضا ، لكننا لا نزال نجهل علاقتها « بالبيوت الكبيرة » المذكورة آنفا ٠ ودلتنا الآثار على وجود أكثر من محكمة بالوجه القبلى كل منها مكون من عشرة قضاة تعرف بعشرة القضاة الجنوبيين وعشرة يعينون بأمر ملكى للفصل فى القضايا وتنفيذ العقاب ٠ ومن اختصاص هذه المحاكم الفصل فى قضايا الاحصاء والضرائب ونحن لا نزال نجهل علاقتها بالقضاء الادارى بالضبط ٠ والثابت أن لقب « قاضى » لم يكن يعطى الا لمن ينتمى الى أسرة كبيرة عريقة بشرط أنه يعرف القانون معرفة دقيقة ٠ومن المؤكد أن قانون تلك العصور كان غاية فى الاحكام والوضوح لكننا لم نعثر عليه للآن ٠ ومما يثبت دعوانا هذا العقد الذى وافق عليه حاكم أسيوط بين ذاته باعتباره حاكما للقسم وذاته باعتبارها الرئيس الدينى الأكبر لمعبد بلده٠ولا شك فى أن مثل هذه الدقة تثبت منتهى الاحتراس والحرص على تنفيذ القانون وصيانة الحقوق المعهودة الى ذلك الشخص ٠

---

(١) شاهد قبر لأحد قواد هذه الأساطيل محفوظ بمتحف القاهرة رقم ١٤٣ و ٢٠ ٠

(٢) Sharpe, Eg. Inscr, I, 100.

ولم نهتد الى الآن على معلومات كافية عن ادارة البلاد الداخلية وطرق الزراعة وقتئذ لكن يستدل من الآثار أن المشروعات العمومية وجمع الضرائب والرسوم وعمل الاحصاء كانت تنفذ لكل من الوجه القبلي والبحرى على الانفراد · وكان « رؤساء القضاة العشرة الجنوبيين » ينفذون القانون فى الوجهين فلم يقتصر عملهم على الوجه القبلى · وقد ألغيت وظيفة « حاكم الجنوب العام » بعد انقراض حكم المملكة القديمة فلم يبق منها الا اللفظ الذى كان يمنح أحيانا من قبيل الشرف · والمعلوم أن احصاء السكان والأملاك فى القطر عمل بغاية النظام والاحكام ، فكان يتحتم على كل رب أسرة أن يسجل عدد أفراد أسرته وخدمه وعبيده فى أحد مكاتب الوزير أمام « رؤساء القضاة العشرة الجنوبيين » · ولا يبعد أن هذا الاحصاء كان يكرر كل خمس عشرة سنة (٣) وأن السجلات كانت تحفظ فى مكاتب معدة لذلك · والمعروف أن ديوان الوزير كانت تحفظ به سجلات الحكومة جميعها وبياناتها الخاصة بالأراضى والاحصاءات والضرائب الخ · قال أحد الوزراء عن نفسه انه كان يحقق سجلات الأراضى ويوضح حدود أرض كل مالك · واستمر النظام القديم نافذا فى عهد المملكة الوسطى من حيث ترؤس الوزير لاجتماعات محاكم « البيوت الكبيرة الست » ومحكمة « بيت الثلاثين » · واذا ساعد الوزير الحظ وأسندت اليه الادارة المالية كما حصل لمنتوحوتب أيام سنوسرت الأول فانه يصدر أوامر صارمة كالأوامر الملكية كما يستدل من نقوش قبر هذا الوزير · ولا يبعد أن يكون مركز الوزير خطيرا أحيانا على العرش الفرعونى كما فعل أمنمحات الأول الذى ظنه بعض الأثريين وزيرا اغتصب الملك · وكان الوزير يلقب أحيانا بالأمير أو العزيز أو حاكم القسم ·

وتطلبت الحال حصر أعمال الحكومة فى أيدى أشخاص مخلصين للسدة الملكية ناشئين فى البلاط الملكى عارفين واجبهم نحو سيد البلاد · واليك ترجمة ما جاء فى خطاب الملك سنوسرت الثالث لرئيس ماليته المدعو ايخرنوفرت (Ikhernofret) لما كلفه القيام باحدى البعثات : « لقد اقتضت ارادتى الملكية أن أكلفك الذهاب والقيام بهذه المأمورية لأننى على يقين بأنك ستنفذها كما أرغب ، فقد نشأت على مبدئى وتعلمت قوانينى وتلقنت علومك فى قصرى » · ومع ذلك كان الملك يحترس لنفسه كثيرا من كبار موظفيه وسنرى قريبا أن كبار موظفى امنمحات الأول عصوه وتآمروا على قتله · وحصل فى عهد سنوسرت الأول أن حاكم النوبة المدعو منتوحوتب الذى عين بأمر ملكى تعالى على مقام مليكه هناك

(٣) Kahun Papyri, pl. IX-X. pp. 19-29.

فأمر الملك بطمس جميع رسومه ويرجح أنه عزل وأهين أيضا · وفضل القوم السكوت والحذر في كل ما له علاقة بالملك حتى امتدح فلاسفة تلك العصور الصمت في خدمة الملوك · واليك ترجمة ما ورد على لوح حجرى بمقبرة سحتب أيب رع (Sehetepibre) أحد كبار حاشية أمنمحات الثالث ناصحا أولاده قائلا : « قاتلوا لاعلاء شأن الملك وتطهروا بقسم جلالته لأن ذلك يبعد السوء ، فالمحبوب عند الملك هو المسرور ، أما المناوىء لجلالته فلا قبر له ، واذا مات تلقى جثته في الماء » ·

في مثل هذه الظروف تحتم على فرعون مصر أن يحتفظ بالقوة اللازمة لتنفيذ أوامره وقتما تتطلب الحال ، ولذلك استخدم قوة مسلحة دائمة أطلق عليها اسم « أتباع الملك » أو « حجابه » ، وهذه القوة أقدم مثال لجيش نظامي ورد في التاريخ · وجرت العادة أن تجزأ هذه القوة الى فرق في القصر الملكي والقلاع من النوبة الى الحدود السورية ، ويبلغ عدد رجال كل فرقة مائة رجل· ولا نزال نجهل مجموع هذه القوة المسلحة بالضبط ، انما المؤكد أنها صارت نواة لما نسميه الآن بالجيش النظامي الثابت · وضباط هذه القوة كانوا رجالا عريقي النسب والأصل ولكننا لا نزال نجهل الجهات التي جمعت منها هذه القوات · والغرض الأصلي لهذا الجيش كان القيام بالأعمال الحربية بجهة النوبة على الأخص والمحافظة على بعثات المحاجر وميناءات البحر الأحمر · وفي وقت الحرب كان السواد الأعظم من الجيش المصرى يحشد من سكان الأقسام الأحرار المتوسطي الحال بأمر ملكي تحت قيادة الملك الشخصية · وجرت العادة أن كل قسم من أقسام مصر يجند فرقة في الجيش وأن رئيس هذه الفرقة يكون قائدها المباشر وقت الحرب · أما في وقت السلم فكثيرا ما كانت القوات تحشد لنقل الآثار أو القيام بالأعمال العمومية · وكان السكان الأحرار سواء أكانوا كهنة أم غير كهنة يصنفون الى عدة طبقات على حسب العمر قبل ارسالهم الى ساحة الحرب أو لأعمال عمومية · والمعروف أن حروب ذلك الوقت كانت عبارة عن غزوات قليلة النظام كما كانت الحال أيام الدولة القديمة ، فالروح العسكرية كانت لا تزال غير ناضجة في نفوس المصريين خلافا لما حصل بعد طرد الهكسوس ·

وانفصال الأمراء من البيت المالك بعد عهد الأسرة السادسة أثر كثيرا في الأحوال الاجتماعية في الريف كما ألمعنا اليه عند الكلام على حكام جزيرة أسوان والبرشة وبني حسن وأسيوط حيث وجدت الآن عدة مقابر لهم · وعثر أيضا بجهة العرابة المدفونة على عدة مقابر لحكام الأقسام وعدة شواهد حجرية نصبها هؤلاء القوم تخليدا لذكراهم · ومن هذه الآثار استدللنا على أن هؤلاء الحكام عاشوا معيشة الترف والنعيم في

قصورهم الريفية كما عاش ملوكهم في قصورهم الملكية . لذلك أصبحت ترى هؤلاء الحكام يصنعون في أقسامهم ما يلزمهم من الحاجات ويقومون بأنواع الرياضات كالصيد وغيره . ومن مميزات هذا العصر أيضـا ظهور « طبقة الأهالي المتوسطة » واقتداء أفرادها بالطبقة العليا ، فأصبحت ترى هؤلاء يشيدون المقابر ويقيمون الألواح الحجرية ويجهزون قبورهم بالأدوات الخصوصية ، مع أنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك في عهد الدولة القديمة . ويوجد جهة العرابة ثمانمائة قبر لهذه الطبقة يرجع تاريخها الى العصر الذي نحن بصـدده ، ربعها خاص بموظفي الحكومة وثلاثة الأرباع لغير الموظفين (٤) لقبوا أنفسهم « بأهل البلد » (٥) . ولوحظ على بعض هذه المقابر اسم صاحبها دون اشارة الى مسكنه ، واستنتج من بعضـها أن أصحابها كانوا من ذوي الأملاك أو العمال أو الصناع وكان بعضـهم ذا ثروة عظيمة . ويوجد بدار التحف للفنون الجميلة بمدينـة شيكاغو بالولايات المتحدة تابوت لشخص من غير موظفي الحكومة مصنوع من الأرز الثمين المستحضر من لبنان دلالة على عظم ثروة صاحبه . ولوحظ أيضا أن أفراد هذه الطبقة كانت تذكر مهنتها قبل أسمائها « كرئيس صانعي الأحـذية فلان » و « الصـانع فلان » و « النحاس فلان » ، دون اشارة الى محل الاقامة . والمعروف أن معظم أفراد موظفي الحكومة في عهد الدولة الوسطى كانوا متوسطي الحال شاغلين وظائف صغيرة حتى كانوا يجتنبون ذكر وظائفهم على الألواح بمقابرهم . وليلاحظ أن خدمة الحكومه فتحت للشبان طريقا جديدا لرفع مقامهم في الحياة وقد اهتم الموظفون بأشغالهم وزاولوها بعناية كما يستدل مما ذكرناه بشأن مساعد رئيس المالية الذي بذل جهده لدرء القحط عن قسم طيبة حتى وضـع نفسه في موضـع الشخص « الاعتيادي » بصراحة ووضوح . وأخذ القوم يتعلقون بخدمة الحكومة حتى كان الأبناء يتهافتون على القيام بأعمال آبائهم بعد اعتزالهم الخـدمة مما لم يكن مشهودا في عهـد الدولة القديمة . ونقش موظفو الحكومة على شواهد قبورهم ملتمسات رجوا فيها كل من يمر عليها أن يتلوها وقد جاء فيها وجوب السعي في تعيين أبنائهم في وظائفهم بعدهم وكي يدعوا لهم ويترحموا عليهم ، ولا مراء فان هذه الأحوال قد ساعدت كثيرا على ظهور طبقة موظفين متوسطي الحال . ومن مميزات القوم وقتئذ معرفتهم للقراءة والكتابة فكان مجرد معرفتهما كافيـا لرفـع مسـتوى صاحبها . وورد في الآثار أن أبا أرسـل ابنه ليتعلم في مدرسة القصر الملكي ليتخرج كاتبـا فزوده بنصائـح غالية معددا له مصاعب ومعايب

---

(٤) Catalogue Cairo, Nos. 20, 001-20,780.

(٥) Ibid. passim.

الصنائع اليدوية كل على انفرادها ومفضلا له فى آخر الكلام صناعة الكاتب مظهرا له مناقبها وما يعود على صاحبها من الشرف والراحة والثروة (٦) • ومع أن رجال الفنون الجميلة كانوا فى ذاك العهد ماهرين للغاية وذوى مراكز سامية بين القوم فان الكتبة وموظفى الحكومة المتوسطى الحال نظروا اليهم كأنهم أوضع منهم مركزا وشرفا ، وعليه فكثيرا ما نجد على الآثار أن الكاتب يفتخر بمركزه الدنيوى ويباهى بمعارفه • وهكذا تغيرت معالم الحياة عما كانت عليه فى عهد الدولة القديمة ، ففى الأخيرة كنا لا نعثر الا على آثار لها علاقة بمعيشة أو ألقاب أمراء القصر الملكى وأصحاب الأملاك العظيمة ، أما فى عهد الدولة الوسطى ، فاننا نجد كثيرا من الآثار تشير الى رقى طبقة الرعية المتوسطة فى الأرياف اقتنائهم للعبيد والأراضى وتقديمهم أول نتاج أرضهم قرابين فى معابد مدنهم كما فعل فراعنة مصر سابقا • واهتم حكام الأقسام اهتماما كبيرا بهذه الطبقة كما ظهر لنا من رواية القحط السابق الكلام عليها ، وكما جاء أيضا على شاهد قبر لأحد أفراد هذه الطبقة من أنه « كان يقتنى حدائق جميلة وأشجار جميز باسقة الأغصان وأنه شيد لنفسه منزلا كبيرا ببلده وبنى قبرا فى صخور الجبانة أنه حفر ترعة لبلده ونقل الناس فيها على سفينته • وكان مستعدا دائما للخدمة ويقود المزارعين حتى أزف ميعاد (موته) فسلم أموره لابنه بوصية خاصة بذلك » (٧) • وبعد الطبقة المتوسطة تأتى طبقة العمال الوارد ذكرها فى النقوش السابقة والتى كانت تحتقر أحيانا على أهميتها فى زيادة ثروة القطر وعزه • وجرت العادة أن يرسل هؤلاء العمال الى معاهد خاصة لتعلم الصنائع المتنوعة كما يستدل من نقوش بنى حسن وغيرها ، لكننا لا نزال نجهل اذا كان شغل هؤلاء العمال كان لأجل حكام قسمهم أو لأجل التجارة والمعاملة مع أفراد الطبقة المتوسطة •

وامتاز عصر الدولة الوسطى بتغير واضح فى عقيدة القوم الدينية ، ففى مبدأ الأسرة الخامسة أخذت عبادة الشمس شكلا رسميا فى القطر ثم سقطت الأسرة السادسة فتبعها الاضطراب والانقسام • ومع ذلك فقد انتشرت عبادة الشمس حتى اذا ما تولت الأسرة الثانية عشرة الحكم كانت هذه العقيدة بالغة أقصى درجاتها فتغلبت على سائر عقائد القطر واضطر كهنة المعبودات الأخرى أن يجاروا الظروف بقصد اجتذاب بعض شرف عبادة رع الى معبودات أقسامهم فقالوا ان هذه المعبودات صور متنوعة

---

(٦) قرطاس سالير البردى ٢ •

(٧) (صورتى التى اخذتها) لـ Florence3 Stela 1774.

للمعبـود رع (الشمس) ثم ذهبـوا الى أبعـد من ذلك فقالوا ان أسماء معبوداتهم مرادفات لاسم رع أيضـا ٠

مثال ذلك : ان كهنة المعبود سبك (أى التمساح) نسبوا معبودهم الى رع مع أنه ليست هناك علاقة قديمة بين الاثنين فلقبوا معبودهم سبك رع ٠ ثم ان كهنة آمون الذى كان يعبد فى بادىء الأمر فى طيبة فقط نسبوه الى رع فلقبوه آمون رع ٠ وبهذه الكيفية أخذت عبادة الشمس التوحيدية الأصل تنتشر بعدة أشكال بين سكان القطر ، وسيتضح لنا ذلك جليا عند الكلام على تدرج هذه الديانة المدهش فيما بعد ٠

وأخذت المعابد تكبر فى الحجم مع بقاء العادات الدينية على ما كانت عليه ، ولم يزدد تعدد الكهنة كثيرا عن العصور السابقة كما يستنتج من احصائية معبد أنوبيس بجهـة اللاهون بالفيوم الذى أسسه سنوسرت الثانى ، فقد جاء فيها أن موظفى المعبد كانوا عبارة عن « رئيس المعبد » و « خطيب كبير » (وهما ثابتا المركز والمرتب) وتسعة كهنة وستة بوابين وخادمين اثنين ٠ والعادة أن الكهنة كانوا يغيرون كل شهر بكهنة آخرين وهم أشخاص من طبقة العمال والصناع (٨) ٠

ولم تكن عبادة الشمس وحدها منتشرة بين المصريين بل حذت حذوها عبادة أخرى وهى عبادة أزوريس ٠ وبدهى أن انتشـار عبادة الشمس كان نتيجة مبـاشرة لفوز الحزب السياسى المنتمى اليها ولعلو مركزهـا بمصر ٠ أما عبادة أزوريس فيرجع الفضل فى انتشارها الى شدة توافقها مع النفسية المصرية والى المجهودات التى بذلها كهنة أزوريس كل سنة فى تمثيل حيـاة هذا المعبود ووفاته وانتصـاره الأخير ، وذلك أمام القوم بالعرابة ٠ وقد سـمح هؤلاء الكهنة لبعض الأهالى بالاشتراك فى تلك الاحتفـالات فأثر هذا كثيرا فى نفسـية المصريين كالمعجزات والبينـات النبوية ٠ ومما يثبت شدة اهتمام المصريين بهذه الاحتفالات ما ورد على شواهد قبورهم بالعرابة من الدعوات والتوسلات للخروج فى القبر بعد الوفاة لمشاهدة تلك الاحتفالات ٠ وأهم فصول هذه الاحتفالات هو الخاص بدفن جثة أزوريس فقد تخيل المصريون وجود قبر أزوريس غربى العرابة على حافة الصحراء ، فاعتقدوا خطأ أن قبر الملك جر أحد ملوك الأسرة الأولى الذى يرجع تاريخه الى أكثر من ألف سنة من ذلك الوقت هو قبر المعبود أزوريس لتشـابه الاسمين ، وازداد اهتمام القوم بهذا القبر فقدسـوه وأصبحت العرابة من أجله مركزا دينيا كبيرا فى القطر المصرى لا يضارعه

---

(٨) Borchardt, Zeitschrift für Aegyptische Sprache, 1900, 94.

مركز آخر . ومما يدل على ايمان المصريين بذلك تكرار حجهم الى تلك الجهة كلما سنحت لهم الفرص ، وأيضا كثرة الهدايا والقرابين التى قدموها فى الأوانى الخزفية حتى تكدست منها كومات فوق قبر الملك جر . واجتهد القوم فى دفن جثثهم بجوار معبد أزوريس أو داخله اذا لم يكن هناك مانع،حتى اضطر الكهنة فى آخر الأمر الى أن يقيموا سورا عظيما منعا لتكاثف القبور على ضريح المعبود . وقد أم المصريون هذا المكان المقدس على اختلاف مراكزهم من الوزير الى الاسكاف . وفى حالة تعذر دفن الميت فى العرابة (كما حصل مع حكام الأقسام) فانه بعد تحنيط الجثة تبعث الى العرابة لتحضر احتفالا دينيا ثم ترسل الى مقرها النهائى . واذا تعذر ذلك اكتفى باقامة شاهد بجبانة العرابة منقوش عليه دعوات لأزوريس بقصد مساعدة المتوفى وخلاصه من كل مكروب فى الحياة الأخروية . واذا استدعت مهنة الموظف أو مندوب الحكومة زيارة العرابة اغتنم هذا تلك الفرصة لزيارة معبد أزوريس حيث يترك أثرا نقش عليه اسمه وتاريخه وسبب زيارته الخ ، مما أظهر لنا كثيرا من غوامض تاريخ تلك العصور السالفة (٩) .

ولما تأكد القوم بمحاكمة أزوريس فى الآخرة اعتقدوا أن كل متوفى سيحاكم مثله فتعقد له جلسات يحاسب فيها على أعماله وينفذ عليه كل ما يحصل لغيره من الأموات . وكان أزوريس معتبرا فى عهد المملكة القديمة اله الموتى ولكن هذا الاعتبار لم يرسخ فى الأذهان الا فى عهد المملكة الوسطى . وتتكون محكمة أزوريس فى عقيدة القوم من اثنين وأربعين قاضيا يجلسون أمام المعبود كالزبانية يمثل كل منهم قسما من أقسام مصر ، فاذا دخل المتوفى أمام المحكمة وأنكر أمام كل قاض اثما من آثامه يوزن قلبه فى ميزان مقابل ريشة العدالة للتأكد من صدق قوله . أما الآثام التى يتبرأ منها الميت أمام محكمة أزوريس فهى بعينها الآثام المستهجنة فى عهدنا هذا ، وهاك بيانا موجزا لتلك الآثام : السرقة والقتل والاختلاس (وبالأخص السلب) والكذب والخداع وشهادة الزور والرباء والتنابذ بالألقاب والتجسس وعدم الاعتدال فى الأمور الجنسية وامتهان كرامة المعبودات أو الأموات كالكفر بهم وسرقة أمتعة الموتى . ومن هذه القائمة يستدل على عظم الرادع النفسى عند المصريين وقتئذ استنكارا للمنكرات ، وعليه فالمصريون هم أول قوم اعتقدوا بترتب الحياة الأخروية على الحياة الدنيوية ، ويرجع هذا الاعتقاد فى الحقيقة الى عهد المملكة القديمة . والغريب أن هذه العقيدة انحصرت فى المصريين أكثر من ألف

---

(٩) انظر : E. g. I, 671-2.

سنة فى حين أن البابليين والاسرائيليين اعتقدوا انتقال الموتى عموماً الى سقر المعروفة باسم شول (Sheol) • واعتقد المصريون أن الأموات الذين تحكم عليهم محكمة أزوريس بالاجرام يعرضون للجوع والعطش ويحجزون فى أماكن مظلمة لا يبصرون فيها ضوء الشمس • وفى المحكمة طرق أخرى للقصاص منها حيوان بشع له رأس تمساح ومقدم أسد ومؤخر فرس النهر يفترس المجرمين الآثمين • وأخذت آراء القوم فى عهد الدولة الوسطى تحوم حول تطهير النفس من المعاصى والرذائل التماساً للبراءة بعد الوفاة وتجنباً للعقاب الأليم ، فأصبحت ترى الكثير من نقوش شواهد القبور شديدة الشبه بما ألمعنا اليه فى عهد الدولة القديمة تتلخص فى أن الميت كان يطعم الجوعان ويروى الظمآن ويكسو العريان وينقل فى سفينته من ليس له سفينة ، وجاء على بعض الشواهد « أن المتوفى كان أبا اليتيم وزوج الأرملة وملجأ الذى لا ملجأ له » مما أشرنا اليه لما تكلمنا على كرم وسخاء حكام الأقسام •

والشخص الذى تبرئه محكمة أزوريس تلقبه بالرجل الطاهر العادل أو « صادق القول » أو « المنتصر » ولذلك كتب القوم هذا اللقب بعد اسم كل متوفى وبعد اسم كل حى ينتظر وفاته بقصد طلب الرحمة فى الآخرة • وانتشار عبادة أزوريس فى القطر لم يوحد الأديان بل سبب تفرقها شيعاً فنشأت بين القوم عقائد دينية صعبة الفهم ، اذ بعد ما كانت المعبودات مستقلة بعضها عن بعض وعن أزوريس أيضاً اندمجت الآن معه فاختفت بذلك معالم العقائد الأصلية • ومع هذا فقد استمر القوم متمسكين بأن الصالح هو الذى يتنعم فى الآخرة فى جزيرة يارو التى تنبت أرضها الغنية قمحاً يبلغ طوله اثنتى عشرة قدماً ، واعتقدوا أيضاً بأنه سيسمح لهم بعد الوفاة بالسكنى فى القبور والبقاع القريبة منها والصعود الى السماء لمرافقة المعبود رع فى رحلاته والهبوط الى مملكة أزوريس وبمداولة الرجال العظام الذين حكموا مصر فى الدنيا •

لكن هذه العقيدة لم تدم طويلا لأن القوم تصوروا أن الميت سيقابل فى أخراه مصاعب وأخطاراً جسيمة ، مثل ذلك ما ورد فى نصوص الأهرام من ذكر ثعابين كبيرة تفترس الأموات غير الحصينين وتماسيح تسلب الميت أحجبته وتعاويذه وأعداء هوائية تسلب المتوفى نفس الحياة من أنفه • وقد تندلع النيران من المياه التى يشربها الميت وقد تسلب منه القرابين التى يقدمها له ذووه وقد يجبر فى بعض الظروف أن تفترس جثته • وجاء فى بعض النصوص أن المتوفى قد يسرق منه تاجه ومكانه وتتلف جثته ويؤخذ منه فمه أو قلبه أو رأسه أو اسمه فيفقد بذلك أكبر منافع له • كل هذه العقائد ابتكرها القوم فى عهد الدولة الوسطى ولم

يرد ذكرها فى نصوص الأهرام التى أهمل استعمالها وقتئذ . وكان من نتـائج هـذه الخرافات أن كثر اسـتعمال الأحجبة والتعـاويذ والصلوات والدعوات الكثيرة التى توجد بين أمتعة الموتى فى عهد الدولة الوسطى بقصد الانتصار على الأعداء والمرور بالآخرة فى أمان وسلام واتخاذ الشكل الذى يرغب فيه الميت بعد وفاته والذهاب والاياب وقتما يريد ويشتهى ، ورسمت المحكمة الأخروية بالتفصيل مع ما يحتاج اليه الميت من التعاويذ على صفحات التابوت الداخلية . ومع قلة ما وصل الينا من هذه الدعوات والصلوات فان ما اهتدينـا اليه هو بلا مراء النواة الأصـلية لنصوص « كتاب الموتى » و « كتاب البعث نهاراً » ، ويبحث هذا الكتاب الأخير فى خروج الروح من القبر نهارا ثم رجوعها اليه ثانية وقتما تشاء . ثم صارت كتابة الأحجبة ونصوص كتاب الموتى مصدرا عظيما للرزق والثروة اغتنمه الكهنة فى العصور الأخيرة،فأخذوا من أهل الأموات الأجر الكبير على ذلك ، وبرع الكهنة فى التغرير بعقول العامة فوضعوا كتابا سموه « الدليل » ذكروا فيه كل المعلومات اللازمة عن الحياة الأخروية وطرق الوصول الى الآخرة ، وقد جاء فى الكتاب طريقـان للآخرة افتن الكهنة فى وصـفهما وأبدعوا ، ثم جمعوا ذلك فى كتاب سموه « دليل الطريقين » . ولا يبعد أن يكون السبب الأصلى لوضع هذا الكتاب ابتزاز الأموال ، وسيتضح لنا فى العصور التالية أن هذه الخرافات والخزعبلات عرقلت تقـدم المصريين الدينى والحيوى كثيرا .

وأخذ يقل بناء المصاطب والأهرام تدريجيا بين الأمراء لأنهم رأوا أن حفر المقابر داخل الصخور الجبلية أصون وآمن لأحوال معيشتهم . أما الملوك فاستمروا يشيدون الأهرام مقابر لهم . ومحتويات مقابر الدولة الوسطى عبارة عن جثه المتوفى وتابوته المنقوش الحاوى رسوم الأثاث اللازم استعماله فى الآخـرة ، وغير ذلك كان القبر يحوى نماذج صغيرة للسفن وبحارتها تنقل الميت الى الجنة فى الآخرة (لوحة ٥٤) . وقد عثر حول هرم سنوسرت الثالث تحت التراب على خمس سفن كبيرة كالمذكورة سابقا القصد منها حمل الملك وأفراد أسرته فوق المياه الى الجنان (لوحة ٥٥) . وجرت العادة وقتئذ أن الملك كان يكافىء أتباعه المخلصين بأكثر من تمثال يوضع فى القبر ويأمر أحيانا بوضع تمثال ثان للمتوفى فى المعابد الكثيرة ليتمكن صاحبه من التنعم بالقرابين التى توزع هناك ، والسر فى ذلك أن الكهنة كانت تقدم القرابين أولا للمعبودات ثم تفرقها على أصحاب تماثيل المعبد ، الفائدة الأخرى من وضع تمثال المتوفى فى المعابد الكبيرة هى اشتراك صاحبه فى الاحتفالات الدينية التى تقام بتلك المعابد كما كان يفعل فى دنياه .

الفصـــل العـــاشر

الأسرة الثانيـــة عشرة

علمنا أن امنمحات الأول تمكن بمهارته السياسية ودهائه الادارى من بسط نفوذه على حكام أقســام القطر ومن توحيد سلطته والاستئثار بالحكم دون سواه ٠ ومثل هذا العمل الذى استغرق مدة طويلة فى حكم امنمحات الأول سهل لأفراد أسرته استمرار الحكم فى أيديهم مائتى سنة تقريبا ٠ والغالب أن زمن هذا الملك كان أخصب وأرخى عصر فى تاريخ الأمة المصرية ، نستنبط ذلك من قوله :

أنا الذى زرعت الحبوب وأحببت (نبرا) اله الحصيد ،

النيل يحيينى فى كل واد ،

فلا جائع فى عهدى ، ولا ظمآن تحت سلطانى ٠

وما هذا الا لامتثال الرعيـــة أوامرى واستماعهم كلمتى وتمسكهم بأفكارى حتى صرت موضوع حديثهم ٠

ويدهشنا أنه فى الوقت الذى أيقنت فيه الأمة بأن السلام والرخاء قد خيما على مصر باسدال ستار السلام والرخاء ، دبرت فى الخفاء مؤامرة دنيئة لاغتيال حياته ٠ أما أفراد هذه المؤامرة فكانوا من رجال الحاشية ٠ والظـــاهر أن هذه المؤامرة بلغت حدا بعيدا فدخــل الجنـــاة حجرة نومه وهجموا على شخصه الملكى ، لكنه دافع عن نفسه فسمع صليل السيوف فى أنحاء القصر وتنبه الخدم من نومهم فأيقنوا بالخطر المحدق بمليكهم ونجاه الله ٠

وفى عام ١٩٨٠ قبل الميلاد (بعد حادثة المؤامرة على الأرجح) أشرك ابنه سنوسرت الأول معه فى الملك ، فأضاف بذلك الى حكمه قوة ونشاطا وسارت الأمور الداخلية فى مجاريها المنظمة ٠ وتمكن هذا الأمير من توجيه

مجهوداتــه نحو الجنوب وبسط نفوذه على النوبــة ، وهو مشروع وقف انجازه بعد سقوط الأسرة السادسة وحصول ثورة حكام الأقسام · ومع أن مجهودات الأسرة السادسة بشأنه ذهبت أدراج الرياح فقد أصبح فى عهد الأسرة الثانية عشرة هذا الاقليم الممتد من ادفو شمالا الى الشــلال الأول جنوبا معتبــرا من بلاد النــوبة ولذلك أطلق عليه اســــم تابدت (Tapedet) أى « أرض القوس » ، وهو اسم النوبة القديم · وفى السنة التاسعة والعشرين من حكم أمنمحات الأول توغلت الجنود المصرية بأرض الواوات حتى بلغت كوروســكو التى هى فى نهاية الطريق الصحراوى المخترق لمنحنى النيــل العظيم والواصل الى بلاد المازوى ، ويحتمل أن الأمير سنوسرت الشاب كان قائد تلك الحملة · والمعروف أن حفــــائر مجاجر وادى الحمامات كانت مستمرة وقتئذ كسابق عهدها · ولما شق الأقوام « الترجلوديت » وهم بدو أسيويون بشرقى الدلتا عصا الطاعة على فرعون مصر أخضعهم الملك وعاقبهم عقابا صارما · ثم قوى حصن المملكة القديمة الذى على الحدود الشرقية فى نهاية وادى طميلات الشرقية لحراسة القطر ومراقبة تلك الجهات ، فوضع خفراء اخصائيين فى أعالى شرفاته وبهذه الكيفية استتب الأمن فى حدود مصر الشمالية والجنوبية وصارت المواصلات بين القطر والبلاد الأجنبية سالمة آمنة ·

ولما أسن هذا الملك العظيم نادى ابنه وألقى عليه من اختبارات حياته الطويلة لآلىء الحكم وغوالى النصائح ما استحق الاعجاب ، ويتضح لنــا من أسلوب هذه النصائــح شدة تــأثير تلك المؤامرة فى نفسه واليــك ترجمتها :

« اســتمع لقولى يابنى ، واعلم أنه مهما علت منزلتك فصرت ملكا الأرض أو حاكما للبــلدان أو مكثرا للحســنات فان واجبك يحتم عليك استعمال الشدة مع مرءوسيك فالناس تحترم كل من يخيفهم ويفزعهم · انني أحــذرك ألا تقترب منهم بمفردك وألا تتخــذ منهم أخا ولا رفيقــا ولا صاحبا اذ لا فائدة فى ذلك · واذا غشيك النــوم فليكن قلبك رقيبا عليك لأن الأهل تترك الانسان وقت البــلاء · لقد أحسنت الى المسكين وأطعمت اليتيم وتحادثت مع الوضيع كمحادثتى مع الأمير ولكن كل من أكل خبزى قام ضدى ، وكل من أعطيته يدى مؤتمنا اياه خاننى ، فصرت أوجس منه شرا » · بعد ذلك جاء وصف حادثة الاغتيال ، والغرض من ذكر هذه المؤامرة تقوية قلب الابن واثبات دعوى الوالد · والظاهر أنه أرسل نجله هذا بعد ذلك على رأس جيش ليعاقب الليبيين على الحــدود الغربية فى عام ١٩٧٠ قبل الميلاد أو بعد ثلاثين سنة من حكم أمنمحات الأول · وبينما كان سنوسرت منهمكا فى قيادة هذه الحملة وصل اليــه

نجاب سريع يحمل نبأ نعي والده ، فلم يخبر الجيش بذلك وأسرع من فوره ليلا الى اثتوي مقر الحكم وتسلم مقاليده قبل أن يتمكن أحد من أنجال والده أن ينــازعه ، ولا يخفى أن النزاع على الملك بين الاخـوة أمر كثير الحصول فى البلاد الشرقية • واتفق أن نعي أمنمحات الأول بلغ مسامع من كانوا موجودين بخيمة سنوسرت فأفشوه وترتب على ذلك هرب أمير يدعى سنوهي مستخفيا خائفا يتحين الفرص حتى بلغ آســيا فمكث بها بضــع سنين ، ولا نزال نجهل للآن السبب الحقيقى لهربـه ولكن يظن البعض أنه أتى أمرا منكرا أغضب سنوسرت ، ويرى الآخرون أنه كان أحق بالملك من أخيه ، فهذه الحادثة تدل على وقوع اضطراب وارتباك عند انتقال الحكم من فرعون الى آخر •

وأعمال أسرة أمنمحات خارج القطر (بالنوبة وطور سيناء ووادى الحمامات) تثبت تقدم مصر ورفاهيتها أوضح مما تثبته آثارها داخله ، وهذا القول ينطبق أيضا على النقوش التاريخية الخاصة بالأسرة الحادية عشرة • ولا يخفى أن الســنوات العشر التى اشترك فيها سيزوستريس الأول وأبوه فى الملك رفعت شــأن هذه الأسرة المالكة بعد وفاة الملك • ومما لا مراء فيه أن سنوسرت أظهر كفاية عظيمــة فى ادارة المهام التى ألقيت على عاتقـه فقد ثابر على اخضاع النوبة وسخر حكام الأقسام فى مصلحته • ذكر أمني حاكم قسم الوعل على جدر قبره أن أمنمحات الأول ندب أباه سابقا لقتال النوبة فلما هرم وضعف وضع نفسه تحت تصرف سنوسرت الأول فقاد فيلق قسمه وغزا النوبة تحت قيادة مليكه العزيز وتوغل فيها حتى بلغ كوش • ومن هذه الرواية نعلم أن الجنود المصريين بلغوا وقتئذ اقليم الشــلال الثانى ودخلوا كوش التى تكرر اسمها على آثار ذلك الوقت ويلاحظ أن اسم كوش يظهر أنها كانت بسيطة لأن أمني قال انه رجع ولم يخسر رجلا • وقد أظهر حاكم جزيرة فيلة شهامة فى هذه الغزوة كما أظهر أسلافه فى عهد الأسرة السادسة فتمكن من اقتناص فيل أوجــده بين نقوش قبره بجهة أسوان وتعتبر هــذه الغزوة الأولى من نوعها لقيادة الملك لها شخصيا • وتاريخ هذه الحملة مجهول ويظن أنها حصلت قبــل غزوة السنة الثامنة بعد وفــاة أمنمحات الأول حيث ورد فى نصوص هذه الأخيرة ما يفيد بأن الملك لم ير من الضرورى مرافقة جيشه فى تلك البلاد الجنوبية • والمعروف أن هذه الغزوة الثانية وجهت ضد كوش وكانت تحت قيادة منتوحوتب الذى أقام لوحا حجريا كبيرا جهة حلفا حوى معلومات عن انتصاراته الباهرة وجدولا بأسماء البلاد والمدن التى أخضعها ويعتبر هذا أقدم جدول من نوعه حتى الآن • ومن دواعى الأسف أننا لا نزال نجهل كثيرا من جغرافية النوبة القديمة فلم نهتد الا الى مكان واحد من عشرة الأمكنة الواردة بهذا الجدول وهذا المكان

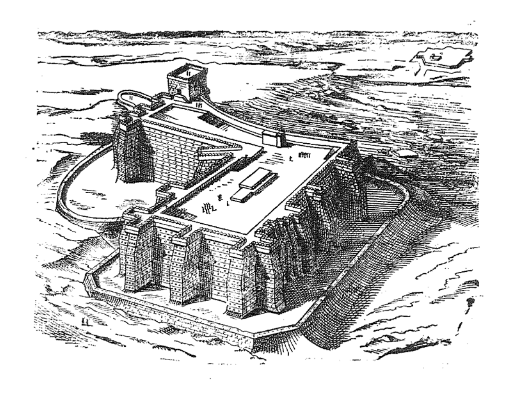
هو شت (Shet) القريب من قمة (بضم القاف مع تشديد وكسر الميم) على بعد ثلاثين أو أربعين ميلا جنوبى حلفا ، ويرجح أن منتوحوتب نصب أثره هذا فى الاقليم الذى أخضعه ، وقد ألمعنا سابقا الى هـذا الأثر لما ذكرنا أن أحد حكام الأقسـام المدعـو منتوحوتب رسم نفسه عظيما على أثر ، فاستاء الملك منه وأمر بمحو صورته ورسم معبود بدله • ويستدل من قرائن الأحـوال أن منتوحوتب هذا عزل وعوقب لاعتدائه على مقام السدة الملكية • ولابد أن السكينة والهدوء كانـا مخيمين على القطر لأن الملك أصـدر أوامره الى حكام الأقسـام بعمل الحفائر بوادى العلاقى وما جاوره من الجهـات الشرقية ، كمـا أنه كلف أمنى حاكم قسـم الوعل الذهاب الى النوبة مع أربعمائة جندى من جنود قسمه ليحضر الذهب من السودان • وقد تحين هذه الفرصة فأرسل ابنه الذى صـار فيما بعد أمنمحات الثـانى فى هذه الرحلة ليعرف البـلاد التى سـيدعى يومـا ما لاخضاعها وادماجها ضمن دائرة الدولة المصرية ، واستغل سنوسرت الأول مناجم الذهب شرقى قفط فأرسل أمنى المخلص مع ستمائة جندى من قسم الوعل الى تلك المناجـم مصحوبا بوزير الملك لحراسـة الذهب وتسليمه تاما الى القصر الملكى ، وبذلك جعل سنوسرت طريق المواصلات مع البلاد الأجنبية آمنة ممهدة • ويعزى الى هذا الملك أقدم الأخبار الخاصة بالمعاملات مع أهل الواحات ، مع أنه لم يكن مسيطرا عليها ، فمن هذه الأخبار أنه أرسل أحد أمنائه المدعـو اكوديدى (Ikudidi) الى الواحات الخارجة غربى العرابة فاغتنم اكوديدى هذه الفرصة وأقام لنفسه حجرا أثريا بمعبد أزوريس بالعرابة المقدسة طلب فيه ما تمناه من أزوريس أن يحققه ، ويعتبر هذا الأثر المرجع الوحيـد الذى يشـير الى حصول هذه الرحلة للواحات •

ولما رأى سنوسرت الأول ما عاد عليه من الميزات العظيمة والفوائد الجليلة من اشتراكه مع أبيه فى الحكم اشرك هو أيضا ابنه امنمحات الثانى معه فى الحكم لمدة ثلاث سنوات • وتوفى سنوسرت الأول سنة ١٩٣٥ قبل الميلاد بعد ما حكم خمسا وثلاثين سنة وأعقبه ابنه أمنمحات الثانى بسهولة • وقد جرى هذا الابن على سياسة والده تماما ثم أشرك معه فى آخر حكمه ابنه سنوسرت الثانى فى الملك لمدة ثلاث سنوات أيضا • وتقدر مدة حكم هذين الملكين بخمسين عاما كانت مصر فى أثنائها لابسة حلل الرخاء والسعادة والرفاهية ، ففى خلالها فتحت مناجم سيناء ثانية ووطدت العلائق التجارية مع بونت (الصومال) فرجعت الى ما كانت عليه فى الأزمنة الغابرة ، وأكثر من الآبار والمحطات على الطريق الموصل قفط بالبحر الأحمر ، فتمكن القوم بذلك من اجتيازه فى خمسة أيام ، وهذا الطريق

شمالى وادى الحمامات وينتهى بالقصير التى عرفت فى زمن البطالسة باسم لوكوس ليمين (Leucos Limén) وهى فى نهاية وادى غازوز · وقد ترك قائدان قديمان فى هذا الميناء نفوشا تذكارا برجوعهما سالمين من الصومال · ولكثرة سفر المصريين الى الصومال أصبحت هذه البلاد معروفة لدى كثير من المصريين حتى كثر ورودها فى حكايات القوم ، مثال ذلك ما روى أن بعض الملاحين المصريين تحطمت سفينتهم ولم ينج منها الا واحد لقى من الصعاب ما أدهش العقول · والمعروف أن مناجم النوبة الذهبية استمرت تصدر ذهبا الى مصر مدة طويلة وأن المصريين شيدوا فى بلاد الواوات قلاعا حصينة تحت اشراف مفتشين رسميين لحماية المصالح الرسمية بالنوبة ·

وتوفى سنوسرت الثانى عام ١٨٨٧ قبل الميلاد لما كانت جميع الاستعدادات مجهزة لاخضاع جزء النوبة البالغ طوله مائتى ميل والواقع بين الشلال الأول والشلال الثانى اخضاعا تاما · ولا يبعد أن يكون سنوسرت الثالث الملك الوحيد فى أسرته الذى لم يشارك والده فى الحكم قبل وفاته ، ومع ذلك فقد قام بأعباء الملك خير قيام فأثبت بذلك ليقانا لانتسابه لهذا البيت المجيد · والمعروف عن هذا الملك أنه اجتهد منذ توليه الملك لضم النوبة نهائيا الى مصر فشق لأسطوله طريقا بين صخور الشلال الأول واضعا بذلك الأساس الأول والأهم لضم تلك البلاد · وقد أنعنة سابقا أن أول من شق الطريق كان ونى ، أحد قواد الأسرة السادسة وذلك قبل زمن سنوسرت الثالث بستمائة سنة تقريبا ، ويرجح أن هذا الطريق سد بعد ذلك من جراء شدة التيار المائى · والثابت أنه لم يأت ذكر لهذا الطريق على الآثار منذ الأسرة السادسة حتى عهد سنوسرت الثالث · وقد شق مهندسو سنوسرت الثالث طريقهم هذا فى أصعب مناطق الشلال الجرانيتية لمسافة مائتين وستين قدما بعرض أربع وثلاثين قدما وعمق ست وعشرين قدما ، ثم سمى هذا الممر المائى « طريق سنوسرت الجميل » ، وقد عبر هذا الممر كثير من السفن وقت القيام بالاجراءات الحربية الأولى فى حكم هذا الملك، لكننا مع مزيد من الأسف لم نعثر على بيان لهذا · وفى السنة الثامنة لحكم هذا الملك أجريت اصلاحات وتوسيعات لهذا الطريق المائى قبل القيام بحملة أخرى فى النوبة · وصار النفوذ المصرى فى النوبة وقتئذ قويا جدا فشيد سنوسرت الثالث حصنين متقابلين فى آخر حدود مملكته الجنوبية على شاطىء النيل أحدهما فى سمنه والآخر فى قمه ، وأعلن رسميا أن تلك الجهة هى حدود مصر الجنوبية وأقام أثرين حجريين على شاطىء النيل هناك عثر على أحدهما فوجدت عليه نقوش هيروغليفية فرعونية هذا معناها :

« هذا هو الحد الجنوبى « للمملكة المصرية » فى السنة الثامنة من حكم ملك الوجه القبلى والوجه البحرى سنوسرت الثالث معطى الحياة الأزلية الى الأزل · ممنوع مرور كل زنجي بطريق الماء والأرض سواء أكان في سفينة أم في قافلة ، ويستثنى من ذلك الزنجى الذى يخترق الحدود من اجل التجارة ····· أو توصيل رسالة فهؤلاء يعاملون بكل اكرام · ولا يسمح بأية حال من الأحوال لسفينة من سفن الزنوج أن تمر ببلدة حح (أى سمنة) متجهة شمالا على مدى الأيام » ·



شكل (٢٨) صورة تمثل قلعتى سمنة وقمة بعد الترميم (مأخوذة عن بروشبيه) ·

ولما كانت هذه الأوامر محتاجة الى قوة لتنفيذها شيد الحصنين المذكورين بتلك الجهة وكان أشدهما مناعة وأضخمهما حجما الحصن الغربى المعروف باسم « خع كاورع القوى » (اسم سنوسرت الثالث الملكى) · وشيد داخل هذا الحصن محرابا للمعبود دد أون النوبى · وما تزال آثار

هذين الحصنين باقية للآن تشهد لمصريي تلك الأوقات بالبراعة الحربية والكفاءة في اختيار مواقع الدفاع الحصينة وبالمقدرة على تشييد الحصون المنيعة (شكل ٢٨) ٠

بعد ذلك بأربع سنين حصلت بالنوبة اضطرابات جنوبي الحدود المصرية فذهب الملك نفسه الى تلك الجهات ليخضع القبائل الثائرة ٠ ومع أن مصر لم تدع ملكية أرض كوش الواقعة أعلى الشلال الثاني ، فقد غزا سنوسرت الثالث تلك البلاد ليبسط السلام على مملكته الجنوبية وليوطد أركان التجارة والمعاملات كما كانت سابقـا ، لأنه لايخفى أن واردات السودان كانت ترد من هذا الطريق ٠ وهذا كان من الأسباب التى حملت فرعون مصر على غزو تلك البلاد التى هى جنوبى حدود مملكته ، أما الاقليم الواقع بين الشلالين الأول والثانى فكان سهل الانقياد ٠ والمعروف أن مراقبة المصريين للحدود الجنوبية عادت عليهم بالكسب العظيم فقد ورد على الآثار أن سنوسرت الثالث أرسل رئيس ماليته المدعو ايخرنوفرت (Ikhernofert) الى العرابة ليرمم تمثال أزوريس بالذهب الذى أخذ من بلاد كوش ٠ ولكثرة الذهب بمصر وقتئذ كان أرخص من الفضة ٠ وقد ذكرنا فيما سبق شيئا من خطاب الملك لرئيس ماليته المختص بهذه البقعة فى الفصل السابق ٠

وفى السنة السادسة عشرة من حكم الملك سنوسرت الثالث أغارت قبائل كوش وزنوج شرقى النيل على الحدود المصرية فزحف عليهم الملك بجيش جرار وفتك بهم فتكا ذريعا وعاقبهم عقابا شديدا وسلب أمتعتهم وحرق حصيدهم واستولى على أغنامهم وأقام فى محراب حصن سمنه تذكارا حجريا كالسابق ، بين فيه حدود مملكته وحض كل من يخلفه على أن يحافظ عليه ، وأقام هناك تمثالا عظيما لنفسه بقصد ارهابهم، كى لايتمردوا عليه ، وضاعف فى الوقت نفسه دفاعه فشيد حصنا ثالثا فى جزيرة أورونارتي جنوبى سمنه،وأقام فيه حجرا أثريا كالذى بحصن سمنه وأطلق على هذا الحصن الجديد اسم « صد الأعداء » ٠ وقرر الاحتفال بعيد سنوى فى حصن سمنه تقدم فيه القرابين والهدايا وقد بقى هذا العيد محتفلا به حتى عهد الامبراطورية ، وبعد ذلك بثلاث سنوات ذهب شخصيا الى كوش للنزهة (غالبا) والظـاهر أن هذه الزيارة كانت الأخيرة له (لوحة ٥٦ النوبة) ٠ وقد دلتنا هذه الآثار أن هـذا الملك قاد بنفسه جميع حملات جيوشه وأن أعماله الشديدة فى السودان وطدت دعائم نفوذه فيه فاعتبرته الأمة فى عهد الامبراطورية فاتح السودان ثم عبدوه فى عهد الأسرة الثامنة عشرة باعتباره اله النوبة ٠ ومن ذلك يتضح أن مطامع قدماء المصريين فى

السودان تقدمت باطراد فبعد ما كانت محصورة فى عهد ما قبل الأسر على اقليم الكاب نخن (Nekhen) وصلت الى الشلال الأول فى عهد الأسرة السادسة ثم الى الشلال الثانى فى عهد الأسرة الثانية عشرة ، وبذلك تمكن المصريون من اضافة اقليم الى وطنهم يبلغ طوله مائتى ميل • ومعروف أن هذا الفتح بدأ العمل فيه فى عهد الأسرة السادسة وانتهى فى عهد الأسرة الثانية عشرة •

ويرجع تاريخ أقدم رواية وصلت الينا عن غزو المصريين لبلاد الشام الى عهد الملك سنوسرت الثالث ، وتتلخص هذه فى نقوش وجدت بجهة العرابة على لوح حجرى أقامه أحد القواد المدعو سبك خو (Sebek Khu) المحافظ الحربى لعاصمة الملك والذى سبق له التوظف بالنوبة • ودلتنا هذه النقوش أن سنوسرت الثالث استصحب هذا القائد فى غزوة قام بها باقليم سكمم (Sekmem) بسوريا (رتنو) حيث هزم السوريين واستولى سبك خو منهم على أسرى عديدين • وقد افتخر هذا القائد بذلك قائلا ما ترجمته : « لقد أهدى الى جلالة الملك عصا ذهبية وفضية وقوسا ومدية من مخلوط الذهب والفضة (Electrum) وكذا أسلحة الأسير الذى استوليت عليه • كل هذه الهدايا قدمها لى جلالة مليكى بيده » — فجاء هذا مثلا لظهور الروح العسكرية فى نفوس المصريين ، تلك الروح التى بلغت أكبر شأوها فى عهد الامبراطورية • ولم نهتد الى الآن مع الأسف الى موقع بلد سكمم بسوريا ، ولكن الثابت أن ملوك الدولة الوسطى مهدوا فتح آسيا لملوك الامبراطورية كما مهد ملوك المملكة القديمة فتح النوبة لملوك الأسرة الثانية عشرة • والمعروف أن رسل سنوسرت الأول جابت سوريا وفلسطين بانتظام وانتشر المصريون فى تلك الأنحاء وانتشرت تبعا لذلك اللغة المصرية فصار اسم فرعون هناك مقرونا بالخوف والوجل • وعثر حديثا بسقح تل جازر على لوح حجرى لموظف مصرى فيما بين بيت المقدس والبحر المتوسط داخل حدود « المنطقة العالية » استدل منه أن النفوذ المصرى وصل الى تلك الجهات وقتئذ (١) • ووجدت صور على جدر مقبرة خنوم حوتب ببنى حسن لسبعة وثلاثين رجلا من الشام أتوا الى مصر للتجارة مع هذا الأمير فى الروائح والدهان العطرية الكثيرة الاستعمال عند المصريين يقودهم حاكم أرض أبشا (Absha) المعروفة عند العبرانيين بأبشاى (٢) • وقد ألمعنا سابقا أن سنوهى التعس توجه الى الشام وهناك وجد شيخا صديقا له قرب الحدود سبقت له زيارة مصر وعثر شمالى ذلك المكان على

---

(١) انظر : PEFOS 1903, 37, 125. •

(٢) II Sam 10. : 10 سفر صموبل الثانى الاصحاح العاشر السطر العاشر • •

بعض مصريين مستوطنين تلك الجهات ، ومنها استنتج أن المعاملات التجارية القانونية كانت مباحة على الحدود مع وجود الحصون المنيعة شرقى الدلتا كما كانت الحال على الحدود الجنوبية جهة الشلال الثانى • وكان اقليم السويس وخليج السويس متصلين بفرع النيل الشرقى بقناة هى فى الحقيقة أقدم اتصال مائى بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر فى التاريخ • ووجدت جهة تنيس (Tanis) ونبيشه (Nebesheh) شمالى وشرقى الدلتا آثار لمعابد شامخة لملوك الأسرة الثانية عشرة تشهد لهؤلاء القوم بالنشاط والكد فى ذلك الاقليم • ودلتنا المعاملات التجارية وقتئذ أن أهل الشام كانوا على جانب عظيم من المدنية والحضارة وتجارتهم كانت رائجة • ويستنتج من رسوم أهل الشام على جدر مقبرة بنى حسن أنهم كانوا يلبسون المنسوجات الصوفية المزخرفه المهلهلة ويلبســـون النعال ويتسلحون بالأسلحة المعدنية ويقبضون بأيديهم على عصي ثمينه • وبفحص الاوانى الخزفيه الحمراء التى تاجـــر بها الحيثيون الذين استوطنوا اقليم كابادوكيـــا (Cappadocia) بآسـيا الصـغرى وجـد أن هـذه الأوانى أخذت تتدفق على الأهالى الساميين بجنوبي فلسطين • وتجارتهم كانت تصل الى البلاد عن طريق فلسطين مخترفا جبال الكرمل (Carmel) وواصلا شمالا حتى نهر الفرات وبلاد بابل ولكنها كانت بطيئة الحركة • وعرف المصريون سكان جنوبى اوربا الذين ظهرت عليهم بوادر المدنية والحضارة والذين كانوا يعرفون عندهم باسم حاو نبو • وجاء بالآثار ان أحد موظفى الماليه عهد اليه فى حراسة الموانىء المصرية الشمالية فكتب مفتخرا بأنه انتصر على حاونبو ، ومنه استنتج أن العلاقات بين هؤلاء القوم والمصريين لم تكن فى صفاء على الدوام • ودلتنا نقوش تاريخية لأحد كتبة ذاك العصر جاء فيه أنه يفخر باستعمال قلمه فى تدوين أخبار حاو نبو • وعثر على أوان خزفية من صنع هؤلاء القوم بجهة اللاهون لوحظت عليها أشكال حلزونية مصبوغة بالصبغة المصرية ، مما يشير الى بزوغ شمس المدنية الأوربية بأفق وادى النيل فى عهد الدولة الوسطى •

والمعروف أن سنوسرت الثالث غزا سورية للكسب والغنم كما فعلت الأسرة السادسة مع النوبة ولكن الثابت أن هذه الغارات الأسيوية عظمت من شرف الأسرة الثانية عشرة ورفعت من منزلتها • ولما كان سنوسرت الثالث أول فرعون قاد هو نفسه حملات مصر الأجنبية وعلى الأخص فى السودان فقد اشتهر بين قومه بأنه أول الفراعنة الفاتحين ، وقد أكثر القوم بعد وفاته من سرد الحكايات والروايات الخاصة بحروبه وأعماله المجيدة مدة طويلة من الزمن • وزادت فى العهد اليونانى منزلة هذا الملك فنسبت اليه بعض أعمال رمسيس الثانى الكثيرة • وبالبحث عما اذا كان رمسيس

الثانى ينتمى الى الأسرة التاسعة عشرة وجدت هذه النسبة غير مطابقة لما ورد عن تاريخ وحياة سنوسرت الثالث المذكور ٠

واستمر سنوسرت الثالث يحكم الأمة المصرية مدة ثمان وثلاثين سنة ، واتسع نطاق مملكته حتى وصل الى ألف ميل من وادى النيل ، واليه يعزى الفصل فى اخضاع حكام الأقسام للسلطة المركزية ، ولذلك انعدم وجود مقابر لهؤلاء القوم فى الأرياف كبنى حسن والبرشة ٠ ولما تقدم فى السن أشرك معه ابنه أمنمحات الثالث ودون ذلك على جذر معبد مدينة ماضى بالفيوم ٠ وتوفى سنوسرت الثالث عام ١٨٤٩ قبل الميلاد فأعقبه فى الملك أمنمحات الثالث بلا منازعات ولا مشاحنات ٠

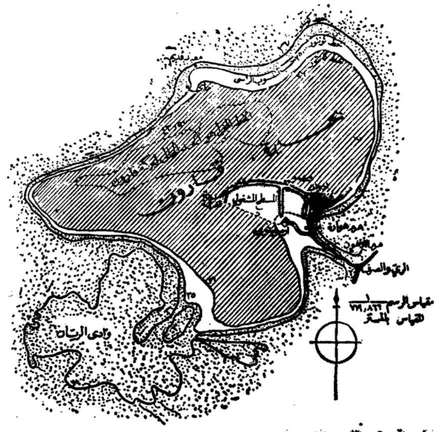
وامتاز حكم امنمحات الثالث بالمشروعات العظيمة التى قام بها والتى عادت على مصر بالرخاء والنعيم وضاعفت حاصلات البيت المالك وخيراته ٠ وتفصيل ذلك أنه لما ولى الملك وسع نطاق المناجم بطور سيناء ، وكان البادىء فى ذلك سنوسرت الأول ، فذلل العقبات الشديدة التى واجهت العمال هناك بأن أسس لهم منازل ثابتة بدل المساكن المؤقتة التى لم تستمر أكثر من بضعة أشهر ٠ ووصف أحد رؤساء العمال الذين كلفوا ملاحظة أشغال المناجم تلك الصعاب التى لقيها فى الصيف هناك فقال ما ترجمته : « ان الوقت لم يكن مناسبا للذهاب الى تلك الجهات ولكننى سافرت برغم ذلك ٠ ولا يخفى أن الصيف شديد القيظ فى الأقاليم المرتفعة فكانت الجبال تحرق الجلد ومع ذلك شجعت أنفارى على مثابرة العمل وعدم المبالاة بالقيظ ٠٠٠ وأحضرت معى كميات كبيرة من المعادن أكثر مما طلب منى ٠٠٠ » وترك هذا الشخص وراءه حجرا أثريا نقش عليه ما صادفه هناك وأورد به أيضا نصائح لتشجيع عمال تلك الجهة على لزوم الصبر واحتمال المشقات ٠ ولما عظمت الأعمال فى طور سيناء حفرت الآبار وشيدت خزانات للمياه وثكنات للعمال ومنازل للرؤساء وقلاع لصد هجمات البدو علاوة على ما كان فيها من قبل ، ولذلك أصبحت محطة سربيط الخادم بطور سيناء مركزا عظيما ومنجما غنيا ٠ ثم شيد الملك فيها صهريجا عظيما افتتحه فى السنة الرابعة والأربعين من حكمه باحتفال عظيم ومعبدا للمعبودة حاتحور ٠ وجاء أن أحد موظفى المالية ذهب بحرا الى تلك الجهات حاملا القرابين لهذا المعبد ، فاستنتج أن المصريين استعملوا وقتئذ خليج السويس طريقا للسفر الى تلك الجهات تجنبا لمشقة سفر الصحارى والقفار ، ووضع كل بئر من آبار المناجم تحت اشراف رئيس سمى باسمه وحتم على الرؤساء اخراج كمية محدودة من المعادن فى مدة معينة فى نهايتها يأتى المندوب المالى ليتسلم المعدن المستخرج كله ٠ ولا يخفى أن وجود حامية قوية بتلك الجهات تحت رئيس المالية حالت دون سطو البدو على المناجم ٠ وقد شيد هناك

العمال لأنفسهم جبانة منظمة ماتزال آثارها باقية دفنوا فيها موتاهم على حسب عاداتهم ، فثبت بذلك أن الأعمال انتظمت وصار لها دخل ثابت سنويا بعد ما كانت مختلة معتلة (لوحة ٥٧) • وبدهى أن فراعنة تلك العصور اضطرتهم ظروفهم للبحث عن الكسب والثروة خارج القطر ولكنهم صرفوا قصارى جهدهم لتحسين منافع القطر الداخلية • ومن دواعى الأسف أننا لم نهتد الى نصوص تاريخية على ما قام به هؤلاء الحكام من المشروعات وانما المعروف أن أمنمحات الثالث كان أعظم ملوك هذه الأسرة اهتماما بأمور الرى ، فقد أصدر أمرا لحامية قلعة سمنه بان تقيس فى جهتها أقصى ارتفاع لمياه النيل كل سنة فتأسس هناك مقياس للنيل • واستنتج من النقوش التى على أحجار هذا المقياس (٣) أن ارتفاعات مياه النيل كانت أعلى مما هى الآن بما ينيف على خمس وعشرين أو ثلاثين قدما • ولما كانت أخبار هذه المقاسات ترسل على عجل لموظفى مكتب الوزير بمصر السفلى ، فقد تمكن القوم وقتئذ من تقدير كمية الحبوب الممكن انتاجها من البلاد فى السنة التالية ، وبناء على ذلك قدروا نسبة الضرائب والرسوم التى تطلبها الادارة المالية من ذوى الأملاك •

وابتكرت لرى الوجه البحرى طريقة علمية ناجعة أطالت مدة ريه ، وتفصيل ذلك أنه توجد فتحة صغيرة فى سلسلة جبال ليبيا بجهة الفيوم (خريطة رقم ٣) تبعد خمسة وستين ميلا عن قمة الدلتا وتصل وادى النيل باقليم منخفض عظيم غربى جبال ليبيا يعرف بالفيوم ويشبه كثيرا الواحات الغربية ، وهو فى الحقيقة واحة قريبة من النيل أشبه بورقة النبات يتصل فرعها بالنيل ويبلغ طولها أربعين ميلا وعرضها مثل ذلك ، وما يزال الجزء الشمالى الغربى لهذا الاقليم خازنا للمياه ومعروفا ببركة قارون (لوحة ٥٨) وهو منخفض عن مسطح البحر بنحو مائة وأربعين قدما • وقبل حكم الأسر كان فيضان النيل يعم اقليم الفيوم محولا اياه الى بحيرة عظيمة ، فلما أتى ملوك الأسرة الثانية عشرة فطنوا الى خزن كمية مياه عظيمة فى تلك الجهات وتصريفها وقت التحاريق ، فشيدوا على الفتحة السابقة الذكر سدودا عظيمة لحجز المياه فى البحيرة الفسيحة ، تاركين فى الوقت نفسه قطعة كبيرة فى الأرض للزراعة • وقد بدأ هذا المشروع ملوك الأسرة الثانية عشرة الأول ، ولكن الفضل الأعظم فى انجازه يرجع الى امنمحات الثالث الذى أطال السد العظيم فأبلغه الى نحو سبعة وعشرين ميلا طولا فاكتسب بذلك أراضى زراعية تبلغ مساحتها سبعة

(٣) L. D. 139 ; Lepisius Sitzungsber. der Berliner Akad. 1844, 371 ff.

وعشرين ألفا من الأفدنة(٤)٠ويتخيل الزائر لمنطقة هذا الجسر العظيم جلال المجهود الانسانى الذى رفع شأن تلك الأراضى المنخفضة التى غمرتها المياه قديما ولذلك قال استرابون ان الملك لاماريس ـ وهو اسم أمنمحات الثالث الملكى ـ هو الذى حفر هذه البحيرة المعروفة عند مشـــاهير الجغرافيين والسائحين ببحيرة موريس (قارون) (لوحة ٥٨) وقد وافق استرابون (المعتبر أضبط البحاثين فى أمر هذه البحيرة) هيرودوت فى وصفه الغامض لها ، وهو أن فيضان النيل كان يغمر تلك البحيرة العظيمة عن طريق الثغرة الموجودة بجبال ليبيا ، وأن المصريين كانوا يروون أرضهم زمن التحاريق من مياه هذه البحيرة الواسعة ٠ وشاهد استرابون محال مراقبة المياه الداخلة والخارجة باقليم البحيرة المذكورة ٠ ولكثرة عناية أمنمحات الثالث باقليم الفيوم اعتقد القوم أن مشروع رى ذلك الاقليم يرجع تاريخه على الأقل الى مشروع الجسر العظيم الذى أقامه هذا الملك وأنه هو الذى



خريطة رقم (٣) : الفيوم (ماخوذة عن الميجور ر٠ ه٠ براون) ٠

(٤) Maj. R. H. Brown, R. E. The Fayum & Lake Moeris, London, 1802.

حفر بحيرة الفيوم • وقدر المهندسون حديثا كمية المياه التى كانت تحجز فى بحيرة الفيوم وقتئذ فوجدوها ضعف حجم مياه النيل أسفل اقليم الفيوم لمدة مائة يوم ابتداء من أول أبريل من كل سنة (٥) •

وغنى عن البيان أن الأراضى التى نتجت عن اقامة الجسور بالفيوم كانت ملكا لفرعون مصر • وهناك أدلة كثيرة تثبت أن ملوك الأسرة الثانية عشرة الأخيرين فضلوا سكنى تلك الأراضى فشيدوا بها بلدة عظيمة سماها اليونان كروكوديلوبوليس أو أرسينوى وأقاموا بها معبدا للمعبود سبك ـ أى التمساح ـ وماتزال هناك مسلة لسنوسرت الأول بجهة ابجيج(Ebgig) فى صميم الأرض الزراعية • وكان هناك تمثالان عظيمان لأمنمحات الثالث المعتبر فى عهد هيرودوت منشىء البحيرة ، نصبا بالقرب من الجسر الأعظم فى الاقليم الذى كان مغمورا بالمياه • وفى الجهـة البحرية للثغرة الموصلة لأرض الفيوم توجد آثار قصر ضخم يبلغ طوله حوالى ألف قدم وعرضه ثمانمائة قدم ، استعمل معهدا دينيا واداريا • وحوى مجموعات من الحجرات بقدر عدد أقسام مصر وفى كل مجموعة منها تماثيل آلهة القسم المنتسبة اليه • وفى هذا القصر كانت تجتمع هيئة الحكومة آنا فآنا • قال استرابون ان كل مجموعة من الحجر كانت عبارة عن مكتب عام لكل قسم من أقسام مصر • وقد بقيت آثار هـذا القصر واضحة حتى عهد استرابون الذى شاهدها • وأطلق على هذا القصر فى العهـد اليونانى والرومانى اسـم لابيرانتـا ، تشبيها بقصر لابيرانتـا الكريتى الوارد ذكره فى الروايات اليونانية لتشعب طرقه وحجراته(٦)•وهذا القصر عمر طويلا منذ عهد الأسرة الثانية عشرة • ووصف استرابون متانة بنائه وطول بقائه فقال ما ترجمته : « والغريب أن سقف كل حجرة من حجرات هذا القصر كان من حجر واحد وكذلك أرضها ، ولم يستعمل فى بناء هذا القصر خشب أو ما شاكله من مواد العمارة » • وقد شاهد استرابون البلدة التى أسست حول هذا القصر وقد عفت آثارهما وامحت معالمهما الآن • وجاء أن الملك سنوسرت الثانى أسس بلدة خارج الثغرة الجبلية لاقليم الفيوم سماها حوتب سنوسرت ـ أى سنوسرت راض ـ ثم شيد بالقرب منها هرما له • ومن أجل ذلك صار اقليم الفيوم أعظم الأقاليم عمرانيا وسياسيا وصار لمعبوده سبك ـ أى التمساح ـ شهرة عظيمة ضاهت منزلة آمون ، فسمى

---

(٥) المرجع السابق •

(٦) قصر تروى الأساطير أنه كان قائما فى جزيرة كريت ، وكان به وحش بصورة آدمى برأس ثور ، وكان عادة أهل الجزيرة أن يقدموا له ضحايا بشرية فى كل عام ، ولذا فقد كان يتألف من تيه من الممرات والدهاليز حتى اذا دخلت الضـحية ضلت طريقها ولم تستطع الخروج ومن ثم عرف بقصر التيه أو اللابيرانت ـ (المحرر) •

آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة سبك نفرو رع نسبة الى المعبود سبك ، وقد عرف جميع ملوك الأسرة الثالثة عشرة باسم سبك حوتب نسبة الى هذا المعبود أيضا .

وحكم أمنمحات الثالث مصر مدة خمسين سنة حل فيها النعيم والأمن والسكينة على البلاد حتى ترنم القوم بجلالته قائلين ما ترجمته :

هو (أى الملك) يكســـو القطرين حلة خضراء أكثر من النيل

لقد زاد القطرين قوة ..... (كيف لا) وهو نفس الحياة المرطب للأنوف .

. . . .

هو الذى يوزع الخيرات على تابعيه ، هو المغذى لخلفائه .

هو الغذاء وفى فمه الخير .

أما المعاملات التجارية فكانت منظمة جدا فاستعملت وتتئذ المثاقيل النحاسية وكانت وحدتها الدبن - الذى يعادل ١٤٠٤ قمحات . ويجد الباحث آثار أمنمحات الثالث وأسلافه منتشرة الآن فى جهات القطر ، رغما عما سلب من أحجارها فى أعمال العمارات والترميمات والاصلاحات أيام الامبراطورية ، ولذلك كان الباقى من آثار هذه الأسرة لا يستطاع تقديره ولقد ضيع كثيرا من معالم الدولة الوسطى ما اقترفه ملوك الأسرة التاسعة عشرة وبالأخص رمسيس الثانى من طمس الكثير من آثارها وتهديمها واستعمال أحجارها لتشييد آثارهم . ويظن أن كل مدينة مهمة فى عهد المملكة الوسطى حوت معبدا لفراعنة تلك العصور ولكن هذه المعابد زالت وانمحت آثارها ويشق علينا لذلك معرفة أعمال هؤلاء الملوك بالضبط . ففى طيبه مثلا - مسقط رأس ملوك هذه الأسرة - شيد أمنمحات الأول معبدا عظيما لآمون بدل المعبد الصغير الذى كان موجودا هناك . ولما أتى سنوسرت الأول كبر هذا المعبد وشيد مسكنا ومطعما للكهنة جوار البحيرة المقدسة وقد بقيا ثلثمائة سنة تقريبا . ومن آثار هذا الملك أيضا السور العظيم المشيد حول مدينة الكاب (نخن) وهو الوحيد من نوعه الذى مايزال سليما للآن (لوحة ٧٣) . وقد شمل أمنمحات الثالث معبد ادفو الفخم برعايته وشيد بالعرابة معبدا جديدا لأزوريس ملأ نفوس القوم احتراما وأحيط بسور منيع وسمح للأمراء بدفن جثثهم داخل ذلك السور . ووسع الملك أيضـــا معبد حرسافيس (Harsaphes) بجهـــة اهناســـيا Heracleopolis ببنى سويف وزاد أثاثه . أما آثار الفيوم نفسها فقد سبق الكلام عليها . وأما منف ومعبودها بتاح فقد أقام أمنمحات الثالث بها بعض عمارات جديدة لم يبق من آثارها الا النادر . والظاهر أن الملك

لم يعتن كثيرا بإقليم اثتوى وسائر القصور الملكية كما اعتنى بالجهات الأخرى . وأما رع أقدم المعبودات ووالد الفراعنة فقد أكرم كثيرا في عهد الدولة الوسطى ، وكان سنوسرت الأول أول من اهتم بأمره من ملوك هذه الأسرة فشكل مجلسا كبيرا من الكهنة والأعيان أبدى فيه رغبته بتشييد هيكل لرع ووضع التخطيط اللازم لذلك ، فلما جهزت المعدات ذهب الملك شخصيا كالعادة المتبعة وحضر حفلة وضع أساس المعبد ، وقد اهتدينا الى نسخة للنص الملكي الخاص باقامة هذا الهيكل بعد ما تلف وضاع بخط أحد الكتبة الذى أتى بعد عهد سنوسرت الأول بخمسمائة سنة ، وقد نقل الكاتب هذه النسخة من النص المنقوش على جدر ذلك الهيكل ، أما النسخة فمكتوبة على قرطاس بردى وجد محفوظا داخل كيس من الجلد يوجد الآن بدار التحف ببرلين . وقد افتخر سنوسرت الأول كثيرا باسمه على آثاره العظيمة فقد قال ما ترجمته :

« سيذكر القوم محاسنى فى معبد رع ،

وسيبقى ذكرى مجسما فى قمتى مسلتى وفى البحيرة المقدسة أيضا » .

أما معبد عين شمس وعين شمس نفسها وبحيرتها (التى ألمع اليها الملك فى وصفه السابق) فقد بليت ولم يبق منها الا قمة احدى مسلاته التى ما تزال باقية تمجد ذكرى ذلك العظيم (لوحة ٥٩) . والمعروف أن الوجه البحرى صار وقتئذ جنة يانعة كثيرة الخيرات والمدنية بفضل تحسين مشاريع الرى ، الأمر الذى هو نتيجة أعمال الفيوم الصيفية العظيمة . وبالرغم مما أصاب معظم آثار الوجه البحرى كما المعنا من التلف فما تزال توجد بجهة تنيس (Tanis) وتل بسطه آثار تثبت ما كانت عليه مدن ذلك القطر من العز والنعيم فى عهد الأسرة الثانية عشرة . وهناك بقايا لمعابد أقامها أمراؤها فى أنحاء القطر من الشلال الأول الى الشمال الغربى للدلتا ، ومنها استنتج أن بناء المعابد والقصور لم يكن مقصورا على ملوك ذلك الوقت بل شمل أيضا حكام الأقسام الأغنياء الأقوياء ، وقد أقام هؤلاء الحكام أيضا معابد صغيرة للترحم فيها على أرواحهم ، ولولا خرابها لعرفنا كثيرا من رفاهية البلاد وعزها وقتئذ .

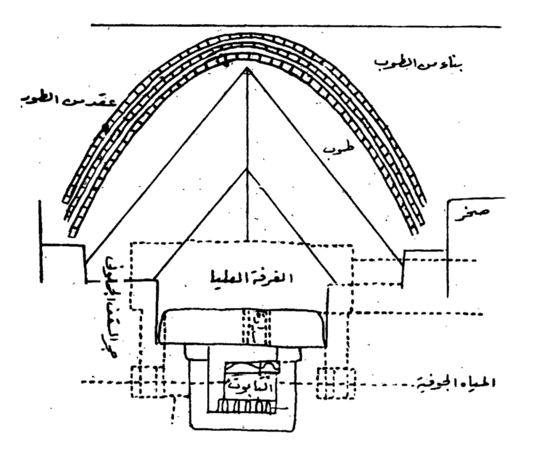
ويسوؤ رأينا هذا آثار المقابر الفخمة الباقية من عهد حكم الاقطاع والتى هى الآن فى حالة سيئة للغاية . وقد ذكرنا فيما سبق أن تشييد المقابر على شكل مصاطب أخذ يتقدم تدريجا ، ثم استبدلت بالمصاطب كهوف محفورة داخل صخور جبلية . وحفر القوم فى هذه الصخور دهاليز وآبارا وغير ذلك . أما المعابد التابعة لتلك المقابر فكانت مثالا لحضارة تلك العصور وعمرانها فقد حوت جدرها الكثير من المعلومات التاريخية الخاصة

بأصحابها ، وتعتبر هذه المقابر أهم مصادر معارفنا لتاريخ ذلك الوقت ·
وهكذا صار لتلك الساحات ذات العماد قيمة علمية عظيمة · وبفحص أهرام الأسرة الثانية عشرة اتضح لنا أن المقابر الملكية فقدت أهميتها التى كانت لها أيام المملكة القديمة ، فلم تعد الحكومة تصرف عليها الأموال الباهظة والأشغال الكثيرة ، والسبب فى ذلك أن ملوك ذلك العصر اعتبروا مقابرهم أقل أهمية من المشروعات الأخرى النافعة · وأول من بدأ بهذه الحركة الرجعية ملوك الأسرة الحادية عشرة الذين شيدوا أهرامهم باللبن ·
ولما أتى أمنمحات الأول شيد باللبن هرمه من الداخل وكساه من الخارج بالحجر الجيرى ، ويوجد هذا الهرم جهة اللشت جنوب دهشور (٧) · وقد حذوه سائر ملوك هذه الأسرة الا واحدا ، وتشاهد أهرامهم منتشرة من مدخل الفيوم حتى دهشور جنوبى منف ، فهرم سنوسرت الأول موجود فى لشت بجوار هرم والده · أما أمنمحات الثانى فقد اختار لبناء قبره جهة دهشور شمالى اللشت · ودفن سنوسرت الثانى عند مدخل الفيوم ببلدة الجديدة حوتب سنوسرت القريبة من اللاهون (لوحة ٦٣) ·
أما سنوسرت الثالث فاختار لهرمه جهة دهشور شمالى هرم أمنمحات الثانى · ثم أتى أمنمحات الثالث فاختار لهرمه مكانا جنوبى هرم أمنمحات الثانى · أما هرم هوارة التابعة للفيوم والقريب من قصر اللابيرانتا فنسبه القوم أولا الى أمنمحات الثالث ، لكن الرأى الغالب الآن يميل الى نسبته الى أمنمحات الرابع ، وهذا الأخير هو الوحيد فى هذه الأسرة الذى نجهل موضع هرمه بالضبط · وتمتاز أهرام هذه الأسرة بتركيبها وكثرة تعاريجها الداخلية وحجرها واخفاء معالم مدافنها لتضليل اللصوص ·
وأعظم هذه الأهرام تعقيدا هو هرم هوارة الذى يبلغ ارتفاعه نحو مائة وتسعين قدما ومساحة قاعدته المربعة حوالى ثلاثمائة وأربع وثلاثين قدما · ومدخل هذا الهرم فى منتصف النصف الغربى للوجهة القبلية ومنه تبتدىء طرقة فى طبقة صخرية أسفل الهرم تتعرج أربع مرات قبل أن تنتهى باللحد الذى يوصل اليه من الجهة الشمالية · وتشاهد فى تلك الطرقة ثلاثة سدود صخرية عظيمة الحجم والثقل لمنع اللصوص من الوصول الى الجثة كما تلاحظ أيضا عدة مسالك ومنافذ مضللة عملت خصيصا للغرض نفسه · ويبلغ طول حجرة التابوت اثنتين وعشرين قدما وعرضها ثمانى أقدام وارتفاعها ست أقدام وهى منحوتة فى صخرة واحدة من الحجر الصوان الشفاف (Quartzite) تقدر زنتها بمائة طن وعشرة · وليس لهذه

---

(٧) Mèm. sur les Fouilles de Licht, par J. E. Gantier et G. Jéquier. Cairo, 1902.

الغرفة باب ، بل يدخل اليها من فتحة بالسقف مسدودة بصخرة تزن خمسة وأربعين طنا (٨) (شكل ٢٩) · ومع هذه الاحتياطات نهب هذا الهرم بعد وفاة صاحبه ، ويؤكد الأثريون أن بعض الموظفين أو الملوك الذين أتوا بعد وفاة صاحب هذا الهرم اشتركوا فى تلك الجريمة · وبفحص السدود الثلاثة لوحظ أن الاثنين الداخليين منها لم يقفلا وأن السد الخارجي وحده هو الذى اقفل ومنه استدل أن موظفى تلك العصور كانوا سيئى الأخلاق أحيانا لأنهم اعتقدوا أن اغلاق السد الخارجى كاف لاقناع



شكل (٢٩) صورة قطع راسى لهرم هوارة تظهر علاقة حجرة المومياء بسائر اجزاء الهرم (ماخوذة عن بترى) :

(٨) انظر : Petrie, Kahun. Gurod. & Hawara, pp. 13-17.

أهل الملك بأن الاحتياطات الداخلية جميعها عملت . ولا يبعد أن تعدد سرقات الأهرام كان سببا من الأسباب التي جعلت الملوك يجتنبون دفن جثثهم في أهرام . لذلك أخذ الملوك ينحتون مقابرهم داخل الصخور الجبلية ، لكن بعضهم شيد لنفسه أهراما صغيرة بجهة طيبة . بهذه الكيفية انتهى تاريخ بناء الأهرام التي هي أفخم وأضخم أنواع الآثار المصرية والتي يرجع تاريخها الى ما قبل عهد الامبراطورية . وماتزال الأهرام باقية في مصر منذ تلك العصور السحيقة يراها السائح منتشرة في مصر من رأس الدلتا شمالا من الجهة الغربية لوادي النيل بحافة صحراء ليبيا على مسافة خمسة وستين ميلا تقريبا على خط مستقيم .

ولم يحفظ لنا التاريخ الا القليل من مباني الدولة الوسطى عرفنا منها عمارتهم . ويستدل من مقابر ذلك العصر أن فن البناء حذا حذو الدولة القديمة وأن المعبد ذا الشرفات الذي شيده أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة بالدير البحري بجهة الأقصر اتخذه كبـار مهندسي البنـاء في عهـد الامبراطورية أنموذجا لمبانيهم . ودلتنا الآثار الباقية التي عثر عليها بترى في محل قصر لابيرانتا ودلنا وصف استرابون لهذا القصر أنه كان غاية في العظم والأبهة بصرف النظر عن حجمه وضخامته . أما عمارة المنازل فقد انعدمت آثارها انعداما تاما . وقد عثر الأستاذ بترى على خريطة لمدينة اللاهون القديمة بالقرب من هرم سنوسرت الثاني تظهر رسم أحياء العمال وكيفية اتصال بعضها ببعض وتكديسها (خريطة رقم ١) . ولم نهتد الى الآن على آثار لقصور سراة القوم ، ولذلك ما تزال معلوماتنا عن بنائهم ضئيلة جدا .

أما الفنون الجميلة فتقدمت كثيرا عما كانت عليه في عهد الدولة القديمة . وبلغت في الحفر درجة رفيعة من حيث الاتقان وضخامة الحجم ، مثـال ذلك تمثـالا أمنمحات الثالث المنصـوبان أمام بحيرة موريس ، فان ارتفاعهما يتراوح بين أربعين وخمسين قدما ، وكذا تمثال حاكم قسم الوعل (سمح) المدعو تحوت حوتب فقد كان ارتفاعه اثنتين وعشرين قدما . وكثر عدد التماثيل وقتئذ فقد وجدنا في هرم أمنمحات الأول جهة اللشت عشرة تماثيل له (لوحة ٦٦) . وروى أحد مفتشي المالية المدعو سي حاتحور أنه أشرف على انجاز ستة عشر تمثالا لأمنمحات الثاني صنعت لهرمه بدهشور . وقد عثر على عدة بقايا لتماثيل ضخمة بجهة تنيس (Tanis) (لوحة ٦٤) وتل بسطه . وقد ألمعنا سابقا أن سنوسرت الثالث أقام لنفسه تمثالا على الجدر الجنوبية في النوبة . ويستدل من تماثيل هذا العصر على مهارة قدماء المصريين في فن الميكانيكا والتصوير . وبمقارنة تماثيل الأسرة الثانية

عشرة بتماثيل الدولة القديمة لوحظ أن الأولى أبعد من المظهر الطبيعي وأضعف تأثيرا في النفوس ، والسبب في ذلك أن المثال أصبح الآن مضطرا لأن يراعي في مهنته قواعد عتيقة لا يمكن الاقلاع عنها • وجاء في الآثار أن أحد الفراعنة بحث في الكتب القديمة عن شكل أحد المعبودات ليقيم له تمثالا مشابها لتمثاله القديم الذى عمل في حضرة المعبودات وقتما قرروا فيما بينهم اقامة تماثيل لهم على وجه الأرض • بهذه الكيفية صار القوم يقلدون القديم في صنع تماثيل الملوك والأمراء مفضلين أقدم الأشكال ، ولهذا السبب تأخر فن الحفر عما بلغه في عصر الدولة القديمة من الازدهار والمطابقة للطبيعة • ومع ذلك فقد وجدت تماثيل وبعض أجزاء لتماثيل غير متكلفة الصنع تتجسم فيها معالم الحيـاة وتتراءى فيها تجاعيد الوجـه والأعضاء كما يشاهد ذلك في تمثال أمنمحات الثالث البديع المحفوظ في متحف بطرسبرج (لوحة ٦٢) ، وفي رأس الملك المركبة على جسم أسد بشكل أبي الهول الذى عثر عليه بجهة تنيس (لوحة ٦١) ، وكذا رأس التمثال العظيم لسنوسرت الثالث الذى وجد حديثا جهة الكرنك • كل هذه التماثيل تشهد لصانعيها بالمهارة والدقة والكفاية والصبر في أعمالهم• والحق يقال ان هؤلاء الفنيين تمكنوا من اظهار معظم ملامح الوجه بوضوح على صلابة الأحجار • والمعلوم أنه كلما سهل نحت المادة ظهرت براعة الحفار ويشاهد ذلك في تمثال الأمير وب رع (لوحة ٦٠) الذى يتجسم فيه جمال المحيا ولطافة المعالم الجسمية • وكثيرا ما تشـاهد على جـدر المحاريب بمقابر حكام الأقسام صور ملونة تمثل هؤلاء السراة ومصنوعاتهم ، لكنها ليست جميلة كصور المملكة القديمة لأنها محفورة في حين أن نقوش المملكة القديمة بارزة واضحة فوق مسطح الأحجار •

ولما كان حكام الأقسام كثيري الشغف بالصناعات والحرف الجميلة تحسنت المصنوعات كثيرا وزاد عدد صناعها في أنحاء البلاد • وغني عن البيان أن صناع القصر الملكي كانوا أبرع أفراد طائفتهم لأنهم تعلموا هذه الصنائع بالوراثة منذ أقدم الأسر المصرية • فالحلي الذى عثر عليه بجهة دهشور الخاص بإحدى الأميرات (لوحتا ٦٨ و٦٩) أظهر بلا مراء مهارة صانعه المدهشة ، لأنه حوى من الدقة وحسن الذوق ما يصعب على أمهر صاغة أوربا الاتيان بأحسن منه ، وقد تزينت به أميرات بيت أمنمحات حوالى القرن العشرين قبل الميلاد •

واستنتجنا من أدبيات الأسرة الثانية عشرة معلومات كثيرة عن ثروة القطر وأحوال المعيشة فيه ، من ذلك ما ألمعنا اليه من تشجيع الحكومة انتشار القراءة والكتابة بين الأهالي • ولما احتاج القوم الى سرعة العمل وسهولة الكتابة اختزلوا خطهم،وابتكروا لذلك حروف هجاء بسيطة وضلت

الينا صورها بالكيفية التى كانت تلقن للطلبة وقتئذ (٩) ومنها استنتجنا شدة العناء الذى كابده هؤلاء القوم فى دراستهم · أما أسلوب الكتابة وآداب اللغة فى ذلك الوقت فقد اعتبره المصريون فى العصور التالية مثالا للبلاغة والفصاحة وقد وافقهم على ذلك جمهور الاثريين الحديثين مع ما صادفهم من المصاعب فى فهمها · وليلاحظ أن مصر هى البلد الوحيد الذى حافظ على أقدم أدبيات لغته العتيقة ، ومما يدلك على شدة عناية القوم بهذه الأدبيات اهتمامهم برواية سنوحى الذى فر الى سوريا بعد وفاة أمنمحات الأول ورجع كهلا الى مصر والذى حارب بآسيا وقضى بها مدة طويلة ، فقد تأثر القوم كثيرا بهذه القصة فتجاذبوها فى أحاديثهم وكتبوها على قطع الأحجار وعلى شواهد القبور الحجرية تسلية للميت فى الآخرة · ومن روايات تلك العصور قصة كقصة السندباد البحرى جاء فيها أن بعض ملاحين مصريين أبحروا مرة الى الصومال فهبت عليهم عاصفة حطمت السفينة ومن فيها الا واحدا منهم سبح على سطح الماء حتى بلغ جزيرة تحكمها أفعى ، وعاش هذا الشخص بالجزيرة مدة من الزمن فى هناء ونعيم ثم رجع ثانيا الى بلده مزودا بالهدايا والخيرات ، فأخذ يقص روايته لأهل بلده مظهرا لهم عجائب ما شاهده والتقى به (١٠) · ولم تسلم القصور الملكية ولا أسرها من أن تكون حوادثها مواضيع لروايات وخرافات يتسلى بها القوم كما ورد فى القصة الخاصة بتولية الأسرة الخامسة للملك (١١) التى انتشرت كثيرا بين الخلق والتى لم نعثر على نسخة منها الا بعد سقوط الأسرة الثانية عشرة بقرن أو قرنين تقريبا · واجتهد رجال الفضل والعلم فى اظهار فوائد أدب لغتهم ومعرفتها فألفوا الحكايات التى تبادلتها السنة العامة والتى أظهرت عظم تأثير الفصاحة والبيان فى بعض الأحوال ، من ذلك أن أحد الفلاحين برع فى المناقشة والمجادلة شكا الى الملك موظفا حكوميا اضر به ، وأظهر الفلاح فى سرد دعواه من فصيح اللسان وبديع العبارات عسف ذلك الموظف ، فأمر الملك باحضار الفلاح ليسمع بأذنيه فصاحة منطقه وعذب بيانه · ولم نفهم للآن الكثير من أساليب هذه القصة العويصة ولا معنى بعض النصوص الشعرية لصعوبة فهمها وسبب ذلك أننا لم نتوصل الى معرفة اللغة المصرية القديمة معرفة تامة للآن (١٢) ·

---

(٩) Kahun Papyri, pp. 60-70.

(١٠) Unpublished papyrus in St. Petersburg ; see Golénischeff, des Berliner Orientalistenkongresses.

(١١) Papyrus Westcar, Berlin, P. 3033.

(١٢) Berlin Papyrus 3023 and 3025.

وقد المعنا سابقا الى نصائح أمنمحات الأول لابنه وقد تداولت الألسن والكتاب هذه النصائح مدة طويلة فوصل الينا منها سبع نسخ · وأصبح حب الاطلاع وممارسة العلم شغل الكثير من الناس ، كما يستدل من نصيحه رجل في عهد الأسرة الثانية عشرة لابنه ، يبغضه في الصنائع ويحبب اليه العلوم (١٣) · ويستنتج اهتمام القوم وعتند بالعلوم من حكم الوزراء العقلاء الأقدمين مثل بتاح حوتب (١٤) وقاقمنه التى حفظها لنا كتاب المملكة الوسطى على قراطيس بردية · وورد عن أحد فلاسفة تلك العصور أنه سئم الحياة فناجى شبحه ورجاه أن ينهى حياته الدنيوية ليعيشا معا في الآخرة في هناء وصفاء (١٥) · ووصلت الينا رواية أخرى من تلك الأزمنة جاء فيها أن ساحرا يدعى ابوور (Ipuwer) انذر فرعون مصر بحصول اضطرابات وقحط في المملكة يصير فيها الغنى فقيرا والفقير غنيا ، ثم يغزو البلاد قوم أجانب فينقلب النظام رأسا على عقب · وبعد ما سرد الساحر كثيرا من هذه الأخبار المحزنة قال انه سيأتى بعد ذلك رسـول « يطفىء نار ذلك اللهب فيمتدحه الخلق ويعتبرونه راعيهم لسلامة قلبه · يبقى هذا الرسول يلم شعث الضال من قومه فيلتف الناس حوله ويعضدونه بكل قواهم لينجيهم من بلائهم ومصابهم ···· فيدفع الضرر بذراعيه بقوة ···· ثم تساءل الساحر : أين ذلك الرسول الآن ؟ هل هو ينام معنا الآن ؟ » (١٦) · وتعتبر هذه الرواية مثالا للنبوءة في تلك العصور توقع فيها قائلها مجيء رسول كسيدنا داود عليه السلام ينجى الخلق من الشر الملم · ولا يبعد أن يكون القصد من هذه الحكاية القيام بمناورة من جهة البيت المالك يراد بها مدح حكمهم على لسان هذا الساحر فيذكر للناس محاسنهم ويبيض صحائفهم وينحى باللوم على الظلم الذى حل بالقطر قبل حكمهم · وأخذت أمثال هذه التنبؤات تزداد تدريجا منذ ذلك العهد حتى العهدين اليهودى والمسيحى · وتعتبر هذه القصة أقدم نبوءة معروفة للآن ، ولا يبعد أنها التوراة الأصلية الجامعة لتنبؤات رسل العبرانيين المعروفة حسنوها وصاغوها بأسلوب أمتن ·

وتمتاز كتابة العصر بكثرة شبهها بالأساليب الشعرية حتى صعب علينا التمييز بين شعرها ونثرها ، فالحكايات المدونة سابقا أساليبها الى الشعر أقرب منها الى النثر ، وقد استنتج من نقوش عامية عديدة أنها

---

(١٣) Pap. Sallier II.

(١٤) Pap. Prisse.

(١٥) Berlin Papyrus 3024.

(١٦) Leyden Papyrus I, 344 : see Lange, Sitzungsberb. der Berliner Akad., XXVI, 601-610.

شعرية الأسلوب ، مثال ذلك الأنشودة التي ترنم بها القوم وقت حصد غلالهم وسوق البهائم ، وهناك أناشيد أخرى تشبهها كان الصناع مغرمين بتلاودتها . وقد وصلتنا أنشودة كان يترنم بها لاعب القيثارة في ولائم الوجهاء كلها تشجيع وتحميس للفرح والسرور قبل حلول اليوم السيىء الطالع الذى ينتهى فيه الأجل المحتوم والذى ينتقل بعده الانسان من هذا العـــالم الى العـــالم المظـلم الأخروى (لوحة ٦٧) واليك ترجمة هذه الأنشــودة :

« ما أسعدك أيها الأمير ! لعلك تعلم أن هذه الحياة محتم عليها الفناء ، فالأجساد تموت وتنعدم ثم يأتى بعدها آخرون يحلون محلها »

« انظر الى الآلهة (أى الفراعنة) الموجودة فى الأهرام من قديم الزمان، والى الأمراء والحكماء الذين دفنوا فيها ، تجدهم مطروحين فى الحادهم . (ولا غرابة) فكل من شيد منزلا (قبرا) زال أثره من الوجود »

« استمع لى فسأخبرك بما آل اليه أمر هؤلاء القوم . لقـد سمعت حكم امحتب حرددف الذائعة الصيت ، ولكن أين هما الآن ؟ لقد حطمت بيوتهم ، وانطمست آثارهم ، فلا خبر يأتينا من ناحيتهم ينبئنا عنهم ، ويطمئن قلوبنا قبل أن نرحل الى ذلك المكان .

« تناس تلك الأمور واصرف همك فيما ينفعك . اعمل كل ما تطلبه نفسك ، عطر راسك بالمر ، واكس نفسك بالكتان الجميل المعطر بالروائح الزكية المقدسة . وأكثر من الفرح والسرور حتى لا يحزن قلبك .

« اتبع شهواتك ومسراتك ، وسير الأمور كما تشتهيها ، حتى يأتيك يوم الحزن وهو اليوم الذى لا يسمع فيه قلبك الساكن ما يدور حوله من النحيب .

« البكاء لا يعيد للميت الحياة . فتنعم اذن فى هذا اليوم الجزل : ولا تهمله يذهب سدى ! فلا أحد يأخذ من الدنيا شيئا معه ، كما أنه لم يرجع الى هذه الدار من ذهب الى الدار الآخرة » .

واقدم قصيدة للمديح تتجسم فيها الأساليب الشعرية والأدبيات اللغوية هى التى قيلت فى سنوسرت الثالث وهى مقسمة الى ستة أقسام واليك ترجمة قسم منها :

« أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! لقد فقت سواك بملايين الأذرع . أنت بين حكامنا الآدميين كسيد بنى الرعية !

« أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت كالسد العظيم الحاجز لتيار الفيضان .

« أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت الملجأ الذى يستريح فيه الانسان حتى يسطع ضوء النهار !

« أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت كالحصن المشيد جدره من أحجار جادة من مدينة قسم !

« أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت مأوى اللاجئين اليك من عبث قطاع الطريق ! •

« أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت حامى الضعيف الخائف من عدوه القوى !

« أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت مظلة القيظ وخضرة النيل فى فصل الحصيد !

« أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت الركن الدافىء الجاف فى زمن الشتاء !

« أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت الصخر الحامى من ويلات العواصف !

« أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت فى الشدة كالمعبود سخمت ضد من وطأ أرضك ! » •

والمظنون أن قصة أزوريس وما حوته من الأخبار المؤثرة أثارت عواطف الأهالى واقلام الكتاب وألسنة القوم ، لكننا لم نهتد مع مزيد الأسف الى المعلومات الكافية عن هذه القصية المؤثرة المعتبرة أقدم قصة من نوعها معروفة فى التاريخ •

ومع كثرة ما وصل الينا من أعمال وكتابات الدولة الوسطى فلسنا نعرف الكثير من رجالاتها ، وجل ما وصل الينا بعض أخبار خاصة عن أفراد قلائل اشتهروا بين قومهم بالحكم والآداب • وتمتاز أدبيات هـذه العصور بكثرة تخيلاتها ورشاقة أساليبها ، فقد بلغت درجة فاقت فيها كثيرا ما بلغته اللغة فى أى عهد لمدة خمسمائة سنة أى منذ سقوط الدولة القديمة (حيث كانت الأدبيات وقتئذ فى بدايتها) ، ولكنها لم تكن مرتبطة المعانى والأساليب • ويظن أنه لو عاشت قصة أزوريس لغيرت كثيرا من استنتاجنا هذا •

لا شك فى أن القارىء عارف مما أوردناه سابقا أن الدولة المصرية بلغت درجة رفيعة من حيث القوة والثروة والانتاج أيام أمنمحات الثالث •

زد على ذلك أن عصر هذا الملك اعتبر أرقى عهد للآداب ، والمعروف أن شمس هذا العهد أخذت تبزغ على القطر منذ حكم أول ملوك الأسرة الثانية عشرة. واستمر أمنمحات الثالث فى كفاحه السياسى حتى آخر أيامه ، فأتم بناء خزان المياه جهة سربيط الخادم بطور سيناء وكذا بناء سور مدينة الكاب فى السنة الرابعة والاربعين من حكمه ، لكنه لما توفى عام ١٨٠١ قبل الميلاد أخذت قوة هذه الأسرة تضعف ، وقد أول بعض الأثريين هذا الضعف الادارى بتبكير وفاة ابنه الذى شاركه فى الحكم فى آخر أيامه ، وقد عثر على قبر بجوار هرم أمنمحات الثالث شيد لأمير شاب يدعى وب رع كتب اسمه داخل خانة ملكية (لوحة ٦٠) ، لكن يلاحظ أن هذا الاسم لا يشابه أسماء ملوك الأسرة الثانية عشرة ، وأن ملكا بهذا الاسم ورد ذكره ضمن درج تورين البردى يرجع تاريخه الى الأسرة الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ولذلك ما يزال مركز هذا الأمير التاريخى مجهولا .

وتوفى أمنمحات الثـــالث فتبعه فى الملك أمنمحات الرابع وكان شريكا له فى الحكم مدة قصيرة قبل الوفاة . لكن هذا الملك لم يدم طويلا فقد توفى بعد تسع سنوات لم يترك فيها سوى بعض آثار صغيرة استدل منها على اضمحلال وتقهقر المملكة وقتئذ بعد ما حافظت على رقيها وعزها مدة مائتى سنة تقريبا . ولم يترك أمنمحات الرابع وريثا لملكه ولذلك تبعته فى الملك أخته سبك نفرو رع التى سماها مانيتو سكميوفريس (Skemiophris) والتى توفيت بعدما حكمت أربع سنوات .

من هذا يتضح أن الأسرة الثانية عشرة حكمت القطر المصرى مدة مائتين وثلاث عشرة سنة وشهر واحد وبضعة أيام .

الكتاب الرابع

الهكسوس : بزوغ شمس الامبراطورية المصرية

الفصل الحادى عشر

انهيار صرح الدولة الوسطى ، الهكسوس

كان انتقال الحكم من الأسرة الثانية عشرة الى الأسرة الثالثة عشرة هادئا . وأول ملوك الأسرة الثالثة عشرة هو سخم رع خوتاوى ، وكانت مملكته ممتدة من الدلتا شمالا الى الشلال الثانى جنوبا . ووجدت باقليم الشلال الثانى نقوش لقاسات مياه النيل فى أربع السنين الأولى لحكم هذا الملك وعلمنا أيضا أن قلعة تلك الجهة قامت عليها حامية وأن رسوم وضرائب الأملاك جمعت من الوجه البحرى كالمعتاد (١) . لكن هذه الحال لم تدم طويلا لأن خلفاء هذا الملك كانوا أقل همة وكياسة من ملوك الأسرة الثانية عشرة ، لكنهم مع ذلك نسبوا أنفسهم اليهم وسموا بأسمائهم . والظاهر أن الملك انتقل وراثيا بين يدى الملوك الأربعة الأول لهذه الأسرة ، وبعد ذلك اغتصبه المدعو يوفنى (Yufni) كما ورد فى درج تورين البردى . وهذه الرواية كثيرة الاحتمال لأن هذا الاسم ضعيف الشبه بأسماء ملوك الأسرة الثالثة عشرة الأول وبالأسماء الملكية المعتادة ، فاتضح لنا أن هـذا الغاصب تغلب على صاحب الحق الملكى وقتئذ وهو أمر كثير الحصول فى الشرق على اختلاف العصور .

على اثر ذلك عمت الفوضى فى البلاد وقامت المنازعات الشخصية بين حكام الأقسام رغبة فى الملك والجاه ، فنجح بعضهم أحيانا ونحل لنفسه الألقاب الفرعونية ، لكنه لم يمكث طويلا فكان يتبعه شخص آخر . ومن هؤلاء الملوك اثنان يسميان سبكمساف شيدا لأنفسهما هرمين صغيرين بطيبة ، وقد ذكر أحد هذين الهرمين فى نصوص الرعامسة حيث ورد أنه فتش فوجد مسروقا وذلك بعد وفاة صاحبه بخمسمائة سنة

---

(١) Kahun Papyri pl. IX, I, I : p. 86.

تقريبا • وحقق أمر هذه السرقة وقتئذ والقى القبض على اللصوص فأقر هؤلاء بجريمتهم ، وأوضحوا كيفيـــة سلبهم لحلى جثة الملك وجثة الملكة المدعوة نوب خاس وكيفية الاستيلاء على الأحجبة والأحجار الكريمة بهما •
واستدل من أوراق التحقيق أن بعض ملوك الأسرة الثـالثة عشرة اتخذ طيبة مقرا للحكم وأنهم كانوا طيبيين فى الأصل • وجاء أيضـــا أن أحد الغاصبين المدعو نفر حوتب عزل أحد الملوك الملقبين باسم سـبك حوتب وتبوأ الملك محله ، وأعلن هذا الأمر جهارا وسجله على الآثار ذاكرا اسم والديه غير المنتميين للبيت المالك ، وترك أيضا نصوصا على أثر بالعرابة أشار فيها الى عنايته العظيمة بمعبد أزوريس وبالمدينة نفسها ، لكن هذا الملك لم يحكم سوى احدى عشرة سنة ثم توفى فتبعه فى الملك ابنه المدعو سى حاتحور (٢) وهذا لم يدم طويلا لأنه ترك عرشه لعمه المدعو نفر خارع سبك حوتب أكبر ملوك هذه الأسرة • ومما جـاء عن هذا الملك أنه مد حدود مملكته الجنوبية الى جزيرة أرجو جهة الشلال الثالث،وقد ظهر لنا الآن أن هذا خطأ لأن تمثال هذا الملك الذى وجد بجهة أرجو والذى يمثله بحجمه الطبيعي نقله الى تلك الجهة ملك نوبى أتى بعده • وعلى كل ، فحكم هذا الملك كان مقرونا بالرخاء والرقى بالنسبة لعهود سائر ملوك الأسرة الثالثة عشرة الآخرين •

بعد ذلك أتى عهد امتـاز بقلة أخباره ومعلوماته يظهر أن أحوال البـلاد الداخليـــة كانت فى أثنائه سيئة للغاية ، ويظن أن أحد النوبيين استولى وقتئذ على عرش المملكة المصرية • وبصرف النظر عن قيمة هذا القول من الصواب فقد كتب هذا النوبى كلمة نحسى التى تعنى « الزنجى » داخل خانة ملكية اشارة الى نفسه • وورد أيضا اسم ملك آخر من تلك العصور لقبه مرمشع(Mermesho) أى أمير الجيش ، اعتلى العرش وكان على ما يظهر قائدا للجيش ثم اغتصب الملك بقوته ومركزه الحربى • وفى ذلك الوقت عمت الفوضى فى البلاد وساد سوء النظام فيها فانقسم القطر الى عدة أقسام صغيرة مستقلة أكبرها جنوبا قسم طيبة • وقد اهتدينا الى أمر ملكى لأحد ملوك ثلاثة مدعوين باسم انتف ولقبه نوب خبرو رع انتف ، جاء فيه أنه عزل حاكم مدينة قفط لثبوت خيانته للمملكة • ويعتبر هذا دليلا ساطعا على سوء أحوال البلاد الداخلية وقتئذ • ومما قاله الملك فى أمر هذا العزل « ان كل ملك أو حاكم يتولى ادارة القطر المصرى يستحق اللعنـــة اذا أظهر شفقة أو عطفا نحو أى خائن لبـلاده » • ووجد فى طيبة هرمان لاثنين من الملوك ملقبين انتف بقيا الى عهد الأسرة العشرين ، وورد

---

(٢) Turin Paps. Frag. No. 0 ; Petrie, Scarabs, No. 309.

عنهما فى الآثار الرعمسسية أن أحد الهرمين سرقته اللصوص وتوصلوا الى دخوله بحفر نفق أرضى • ولا تحوى الآثار المصرية الا النادر من الأسماء الملكية الكثيرة التابعة للأسرة الثالثة عشرة الوارد ذكرها ضمن قرطاس تورين البردى • وأغلب آثار هؤلاء الملوك عمارات صغيرة أو تماثيل أو جعل حقيرة ، ويرجع ذلك الى عدم وفرة القوة والمال والوقت الكافى للقيام بالآثار الخالدة • ولا غرابة فى ذلك فقد كان الملوك يتبدلون بسرعة حتى استحال على أحدهم اقامة آثار كبيرة أو كثيرة تستنتج منها بعض المعلومات عن سلطان البلاد وقوتها وادارتها وقتئذ • والدليل الوحيد لتاريخ هؤلاء الملوك هو درج تورين البردى المذكور وهو عبارة عن قرطاس ممزق لا نستطيع أن نحكم بصحة ترتيب أجزائه ولا بعلاقة تلك الأجزاء بعضها ببعض اللهم الا فيما يتعلق بأسماء ملوك واردة على قطعة سليمة منه • وتتراوح مدة حكم كل ملك من ملوك هذه الأسرة بين سنة وثلاث سنوات وقد قصرت أحيانا فبلغت يومين أو ثلاثة • أما مجموع هؤلاء الملوك فمائة وثمانية عشر ملكا ومجموع عدد مدد حكمهم نحو مائة وخمسين سنة • وربما شبهنا هذه الحال تماما بحال مصر فى عهد الخلفاء العباسيين لما بلغ عددهم سبعة وسبعين خليفة فى مدة مائة وثمانى عشرة سنة (من عام ٧٥٠ الى عام ٨٦٨ ميلادية) • وقد انتابت أوربا مثل هذه العصور بعد وفاة الامبراطور كومودس (Commodus) حيث ولى الحكم رجال محاربون بلغ عددهم ثمانية فى مدى تسعين سنة تقريبا (٣) • أما مانيتو فلم يعلم شيئا عن ذلك العصر بالمرة ولذلك لم يذكر لنا الا جدولا بأسماء ملوكه مقسما قسمين ، قسم يشمل ملوك الأسرة الثالثة عشرة وعاصمة ملكهم طيبة ، وقسم يشمل ملوك الأسرة الرابعة عشرة وعاصمة ملكهم سخا Xois • وبدهى أن حال القطر الاقتصادية تدهورت كثيرا فى تلك العصور ، فبعد ما كان نظام الرى ينفذ فى أنحاء البلاد تحت اشراف ديوان الملك انعدم نظامه واضطربت أموره فقلت الحاصلات والمصنوعات • ثم عمد حكام الأقسام الى استعمال الشدة والظلم مع قومهم ففرضوا عليهم الضرائب والرسوم الباهظة وجمعوها بقسوة وأثقلوا كاهلهم بها ، فجاءت هذه الاجراءات هادمة لنهضة البلاد ورخائها اللذين كانا مبعث عناية بيت أمنمحات فى مدى مائتى سنة تقريبا • ومن أعظم الأدلة على شدة الفوضى وقتئذ عدم عثورنا على آثار تشير الى أحوال ذلك الزمان كما حصل تماما لمصر وقت حكم المماليك المصحوب بالبؤس والشقاء •

---

(٣) Meyer, Aeg. Chron, p. 62.

ولما تضعضعت القوة الحاكمة أخذت تتضاءل تدريجا وصار القطر في حال فظيعة من اليأس والضعف سهل على الأجنبي الاستيلاء عليه واغتصابه . وقد حصل هذا فعلا عام ١٦٧٥ قبل الميلاد في أواخر أيام الأسرة الثالثة عشرة ، فقد غزا مصر قوم ساميون من آسيا دخلوا الوجه البحرى واستوطنوه ووطدوا فيه نفوذهم ، وهذا الغزو كثير الشبه بما حصل للبلاد سابقا قبل حكم الأسر (٤) . ونشر الغزاة لغتهم الخاصة بين المصريين ، وتكرر هذا الغزو أيام العرب لما دخلوا القطر المصرى في بداية الاسلام . أما الغزاة الذين نحن الآن بصددهم فهم قوم عرفوا بالهكسوس (كما ذكر جوسفس نقلا عن مانيتو) ولم يترك هؤلاء القوم بعدهم في مصر الا آثارا يسيرة صعب على الأثريين الاستدلال منها على شيء حتى على الوطن الأصلى لهؤلاء الغزاة ومدة حكمهم وكيفية سيادتهم . والسبب في جهلنا هذا هو قلة مراجعنا الأثرية كما يتضح للقارىء من هذا الفصل الذى لا يكاد يكون سوى مجموعة ملاحظات فقط . أما رواية مانيتو عن هؤلاء القوم (التي حفظها لنا جوسفس) فتعتبر الآن من الحكايات المسلية التي لاكتها الألسن وليست من حقائق التاريخ في شيء ، ولذلك لا تصلح أن تعتبر مرجعا علميا تبنى عليه معارفنا التاريخية ، وهي مع ذلك تحوى الكثير من الخرافات والغلو كما يشاهد في الرواية الواردة عن كيفية تبؤو الأسرة الخامسة لعرش مصر وسقوط الأسرة الرابعة السابقة الذكر (٥) . لذلك تحتم علينا أن نبدأ أولا بالبحث في الآثار اليسيرة التي يرجع تاريخها الى ما قبل عهد مانيتو والى الآثار المعاصرة للهكسوس ، فمن هذه ما ورد على الآثار بعد خروج الهكسوس بجيلين أن الملكة حتشبسوت أصلحت ما أتلفه هؤلاء الغاصبون واليك ترجمة ذلك : « لقد أصلحت التلف وأكملت الناقص بعد ما كانت البلاد تئن تحت حكم الأسيويين لأهالى البلاد الشمالية في عاصمتهم أواريس بالدلتا ، فقد أتلف هؤلاء القوم الآثار الجيدة عن جهل منهم بمعرفة سلطة المعبود رع » .

وهناك رواية أقدم من هذه قصها أحد القواد المصريين الذين طردوا الهكسوس استدل منها على أن المصريين اضطروا الى أن يحاصروا عدوهم في

---

(٤) يرجح العلماء الآن أن هؤلاء الأقوام جاءوا الى مصر في صورة هجرات لا غزو عسكرى ، وأنهم تشجعوا بسبب ضعف قوة المملكة المصرية وكثرة عددهم على الاستيلاء على السلطة في الشمال ، ولا تشير كلمة هكسوس في واقع الأمر الى جنس بعينه ، بل هي تحريف لكلمة « حقاوخاسوت » المصريين التي تشير بوجه عام الى حكام الأقاليم الأجنبية ـ (المحرر) .

(٥) Infra, pp. 122-3.

مدينــة أواريس وأن يقتفـوا أثره جنـــوبى فلسطين حتى بلاد فينيقيـا أو سيلسريا (Coelesyria) . وبعد أربعمائة ســنة من هذا التــاريخ انتشرت رولية الهكسوس بين القوم فجاء فيها السبب الذى أدى فى آخر الأمر الى طرد الهكسوس (٦) واليك ترجمتها :

« وأصبح المصرى فى أيدى قوم قذرين غاصبين ، وتعذر على المصريين ان يملكوا على أنفسهم أحدا منهم . وكان فى ذاك الوقت الملك سقننرع يحكم قسم طيبة الجنوبى .... والملك أبوفيس الهكسوسى يحكم جميع القطر من أواريس ويجمع الجزية من سائر الأقسام ومن الحاصلات والخيرات التى أنتجتها أراضى الوجهين القبلى والبحرى ، واتخذ الملك أبوفيس المعبود سوتخ الها دون معبودات القطر كلها وشيد له معبدا جميلا ثابتا .... الـخ » (٧) .

يتضح لنا من هذه الرواية القـديمة أن الهكسوس قوم آسيويون حكموا مصر واتخذوا أواريس (هوارة) (٨) عاصمة لهم . واليك ترجمة رواية مانيتو التى أوردها جوسفس عن هؤلاء الهكسوس وهى تطـابق بوجه عام المعلومات الأثرية الثابتة السابقة الذكر :

« كان القطر المصرى محكوما فى وقت من الأوقات بملك يدعى تيمايوس (Timaios) فى عهده غضب الاله على مصر لسبب أجهله فلم يمنحه رضاه. فأتى الى القطر على غير انتظار قوم شرقيون وضيعون فاجأوا أهله بالاغارة عليهم واستولوا على الوجه البحرى بلا معارضة كبيرة لأن أهل مصر كانوا وقتئذ فى ثورة وهيجان . ولما أخضع هؤلاء الغزاة حكامنا العظام وعبثوا بالبلاد وبغوا وطغوا فأحرقوا المدن وهدموا المعابد واستعملوا أفظع طرق الشدة مع الوطنيين فقتلوا منهم البعض وأسروا الأطفال والنساء . وبعد انقضاء الحرب ملكوا عليهم رئيسا منهم يدعى سلاطيس اتخذ مدينة منف مقرا له ونظم الحكومة وحسن الادارة ومهد الأحكام وضرب الجزية على من بقى من المصريين تحت حكمه فى الوجه القبلى والبحرى ووزع القوات الحربية على البلاد حتى لا تثور عليه . وكان هذا الملك يخشى على حكمه من الأشوريين الذين كانوا أقوى الأمم وقتئـذ ، فخاف أن يتطلع هؤلاء القوم الى مصر ويضموها الى أملاكهم ، ولذلك شيد القلاع وأقام الحصون فى الجهات المنتظر الاغارة منها . ثم فكر فى أمره فوجد مدينة فى شرقى

---

(٦) ورقة سالير (١) .
(٧) Pap. Sallier I. I. II. 7-9.
(٨) يرجح ان تكون فى منطقة تل الضبعة — (المحرر) .

النيـل بجـوار تل بسطة سماها (أواريس) (٩) لأسباب دينيـة فجدد بناءها وحصنها بأسوار قوية منيعة من جهاتها وجعل فيها حامية مؤلفة من مائتين وأربعين أله جندى . وكان سلاطيس هذا يذهب الى المدينة المذكورة فى صيف كل سنة ليجمع الحبوب ويدفع مرتبات جنده ويمون قواته على الحركات الحربية حتى يرهب الأجانب » (١٠) .

ولا يخفى أن هذه الرواية تحوى كثيرا من المبالغات كالاشارة الى أهل العراق وكبر حامية أواريس ، لكنها على العموم تشمل بعض الحقائق. ويستنتج منها أن الأهالى وقت تلاوتها كانوا يجهلون الهكسوس فقد أورد جوسفس عن مانيتو ما ترجمته :

« وكان يقال لهؤلاء الغاصبين هكسوس — ومعناها ملوك الرعاة — لأن الجزء الأول من هذه الكلمـة هو « هك » معناه بالقلم المصرى ملك ، أما « سوس » فلفظ فى اللغة الدارجة معنـاه الراعى » . وروى البعض أنهم عرب .

ويتضح أن مانيتو قصد بالهكسوس الفينيقيين ، لكننا اذا رجعنا الى اسم الهكسوس أيام المملكة الوسطى وفى عهد الهكسوس لا نجد ما يشير الى معنى ملوك الرعاة . زد على ذلك أن مانيتو قال ان كلمة « سوس » معناها بالعامية فى زمنه رعاة ، والحقيقة أنه لا يوجد فى اللغة المصرية القديمة كلها كلمة كهذه بالمعنى المذكور . أما لفظ حق فمعناها باللغـة المصرية الحاكم أو الملك وقد ذكرهـا الفراعنـة بهذا المعنى كثيرا كما قال مانيتو . والمعروف أن خيـان أحد ملوك الهكسوس لقب نفسـه « بحاكم البلاد » . وبناء عليه لا يبعد أن تكون كلمة « سوس » محرفة عن الكلمة المصرية التى معنـاها « الأراضى » ، وحينئذ يكون « هكسوس » تعبيرا مصريا قديما حرفه اليونانيون ومعناه الأصلى « حاكم الأراضى » .

ودلتنا الآثار التى يرجع تاريخها الى عهد الهكسوس على بعض من أخلاق وخصال هؤلاء الأجانب سواء أكانوا عربا أم فينيقيين ، وقد وصفتهم الآثار بأنهم « آسيويون » و « برابرة » و « حكام الأراضى » . ويوجد بدار التحف بالقاهرة مذبح صغير للملك أبوفيس الهكسوسى عليه نقوش معناها « لقد صنع (أى أبوفيس) هذا الأثر لأبيه سوتخ سيد أواريس لما جعل سوتخ البلاد كلها (خاضعة) تحت قدميه (أى قدمى أبوفيس) » (١١) .

---

(٩) حوت وعرت بالمصرية القديمة ، وربما تعنى قصر الساق ؟ (المحرر) .

(١٠) Contra Apion I, 14.

(١١) Mar. mon. div., 38.

ويظهر من عموم هذا التعبير أن أبوفيس المذكور حكم عدة بلاد علاوة على القطر المصرى · وأغرب من هذا آثار أكبر ملوك الهكسوس المدعو خيان التى وجدت فى أنحاء القطر كلها من جبلين جنوبا الى أقاصى الدلتا شمالا وفى جزيرة كريت أيضا حيث وجد المستر ايفانس (١٢) تحت جدار يونانى فى قصر كنوسوس غطاء لانه من المرمر منقوش عليه اسمه · وعثر أيضا منذ عدة سنوات على تمثال لأسد جرانيتى بجهة بغداد منقوش على صدره اسم خيان محفوظ الآن بدار التحف بلندن · ومن ألقاب هذا الملك « محتضن الأرض » « وحاكم الأقطار » وقد وجد هذا اللقب الأخير على الآثار والجعل وغيرها · وعثر أيضا فى أثناء الحفر بجنوبى فلسطين على جعل لملوك الهكسوس · ومن هذا استنتج أن امبراطورية الهكسوس كانت ضخمة مترامية الأطراف ممتدة الجوانب من الفرات الى الشلال الأول ، ومع هذا فان آثار هذه المملكة تكاد تكون معدومة فى الوقت الحاضر · على أن آثار أواريس التى كانت عاصمة هذه المملكة بالوجه البحرى عفت وبليت كما بليت معظم آثار الدلتا وللآن لم نعرف مكان هذه العاصمة بالضبط · ولا غرابة فى ذلك فقد كان لدى المصريين من الأسباب ما يسوغ محق آثار الهكسوس المبغضين بالاجماع · واذا راعينا كل هذه الأحوال ، أمكننا معرفة السر فى اختيار ملوك الرعاة العاصمة أواريس قاعدة لحكمهم بشرقى الدلتا بدلا من اختيارهم مدينة وسط القطر المصرى · والسبب فى اختيار أواريس عاصمة لهم هو قربها من آسيا التى كانت تحت حكم الهكسوس أيضا · ومما يعلل استنتاجنا هذا أن الهكسوس لما طردهم المصريون من القطر ذهبوا الى آسيا ومكثوا بفلسطين مدة ست سنوات قاوموا فى أثنائها هجوم المصريين كما روته الآثار ، ولما هزم هؤلاء الرعاة فى جنوبى فلسطين تقهقروا شمالا الى سوريا ، ولا يخفى أن نظام هذا التقهقر التدريجى يشير تماما الى امتداد حكم الهكسوس الى فلسطين وسوريا ·

من ذلك يتضح أن معرفة وطن امبراطورية الهكسوس وأصلهم وأخلاقهم ليست صعبة اذ الغالب أن رواية مانيتو أن هؤلاء القوم فينيقيون صحيحة (١٣) · والثابت أن أهالى بلاد العرب كثيرا ما هاجروا الى سوريا ، ولذلك لا يبعد أن هذين القطرين اتحدا بعد مجهودات حربية تحت ادارة حاكم قوى وكونا مملكة واحدة · وقد ألمنا سابقا الى أن السوريين الذين أتوا الى القطر المصرى أيام الأسرة الثانية عشرة كانوا متمدينين راقين كما أن حروب الفراعنة فى سوريا بعد طرد الهكسوس من مصر أثبتت وجود حضارة عظيمة هناك ، والظاهر أن انهيار صرح امبراطورية

(١٢) Annual of British School at Athens, VII. 65, Fig 21.

(١٣) لكن راجع : Meyer, Aeg. Chron., pp. 95 ff.

الهكسوس العظيمة ترك بعض تأثيراته فى أهالى فلسطين وسوريا استمرت عدة أجيال بعد بسط النفوذ المصرى عليها ولذلك نجد بين أخبار حروب مصر بتلك الجهـــات بعض معـــلومات عن امبراطورية الهكسوس التى تضعضعت ·

ومعلوماتنا عن سوريا فى خلال جيلين بعد طرد الهكسوس من مصر يسيرة للغـاية ، لكنه يستدل من أخبـار حروب تحوتمس الثـالث التى استمرت مدة فى سوريا أن ملك قادش على نهر الأورونط (العاصى) كان الملك السورى الوحيد المسيطر على امارات سوريا وفلسطين وقتئذ ، وأن اخضاع قادش كان من أصعب الأمور على تحوتمس الثالث فقد تطلب منه عشر سنوات تقريبا أمضاها فى الكفاح المستمر حتى تمكن من كسر شوكة تلك المملكة الأسيوية · ومما جاء عن قادش أنها شقت عصا الطاعة مرة ثانية على تحوتمس الثالث واضطر الى أن يخضعها ثانية،وأخيرا أجبرته فى السنة العشرين من حـكمه أن يذهب شخصيا الى سوريا ليقضى على قوة قادش القضاء المبرم فلا تقوم لها قائمة بعده · واستدل من أخبار تحوتمس الثـالث الأسيوية أن قادش كانت صاحبة السلطة والنفوذ على كثير من امارات سوريا وفلسطين · وفى رأيى أن هذه المدينة (قادش) كانت فى الحقيقة نواة امبراطورية الهكسوس التى أبادها تحوتمس الثالث بذكائه وقدرته الحربيـــة الفائقة ، ولذلك اعتبر القوم تحوتمس الثالث ساحق الهكسوس وطاردهم من مصر ، وقد نعتة مانيتو بمخلص وطنـه وشبهه فى ذلك ب (Misphragmouthosis) · ويســتنتج من رواية مانيتـــو ومن أخبـــار سوريا وفلسطين بعدئذ أن امبراطورية الهكسوس ســامية الأصل ، وقد عثر على جعل لفرعون من عهد الهكسوس منقوش عليه اسم يعقوب حر (يعقوب آل) اشارة الى احتمال تبوؤ أحد رؤساء بنى اسرائيل الملك فى تلك العصور الغامضة ، وهذا الأمر يتناسب مع احتمال دخول بنى اسرائيل مصر وقتئذ · واذا صح هذا الاستنتاج كان عبرانيو مصر عربا تابعين لسلطة قادش أو امبراطورية الهكسوس · ولا يبعد أن يكون وجـــود هؤلاء العرب بمصر سـببا فى تلقيب تلك الامبراطورية « دولة الرعاة » مما جعل مانيتو يخطىء فى تفسـير معنى الجزء الأخير من كلمة « هكسوس » · ولا يبعد أيضا أن تكون نظرية جوسفس القائلة بأن بنى اسرائيل قوم من الهكسوس فيها شىء من الحقيقة وان لم تكن هناك أدلة على صحة ذلك·وعلى أية حال ، فالحكم فى هذا سابق لأوانه لضعف البراهين الموجودة وقلة المعلومات التى لدينا الآن ·

وتنحصر معلوماتنـا عن أخبار الهكسوس فى أثنـاء مكثهم بالقطر المصرى فيما ورد ضمن آثار حكام أقسام مصر وقتئذ ممن استوطنوا جهة

طيبة والوجه البحرى عموما ، لكنه يستدل من رواية مانيتو ومن الحكاية العامية القديمة التى سبق الكلام عليها أن الهكسوس فرضوا الجزية على أنحاء القطر المصرى كله ، وقد عثرنا على بعض آثار للهكسوس جهة جبلين باقليم الشلال الأول ، ولذلك لا يبعد أن دخول الهكسوس الى مصر كان تدريجا أشبه شىء بهجرة غير مصحوبة بحروب أو منازعات • وكان ملك الهكسوس وقتئذ يدعى خنزر وقد ولى وزيره المدعو انخو حاكما على مصر يدير امورها وينظم معابدها ، ولما كان هذا الوزير معـاصرا لنفر حوتب وللملوك المصريين الملقبين سبك حوتب، يرجح أن سلطة الهكسوس لم تزدد على مصر الا بعد حكم هؤلاء الفراعنة بقليل •

وقد وردت على الآثار المعـاصرة للهكسوس أسماء ثلاثة ملوك منهم يقال لهم أبوفيس وملك رابـع يقال له خيان (لوحة ٧٢) وآخر يدعى خنزر وغيره يعقوب حر لكننا لم نهتد فى الآثار الا على اسم خيان ــ ويقال له أحيـانا ايان ــ وكذا اسـم أبوفيس • والأسماء الستة المذكورة لستة الملوك هى التى نقلها جوسفس عن مانيتو • وجاء فى الورقة الحسابيـة بدار التحف الانجليزية تاريخ وحيد لتلك العصور يشير الى السنة الثالثة والثلاثين من حكم ملك يقال له أبوفيس • أما رواية مانيتو التى قسمت حكم ذلك العصر الى ثلاث أسر (الأسرة الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة) فلم نجد على الآثـار ما يثبت صحتها ولا طول مدتها • والغالب أن حكم الهكسوس لم تزد مدته على مائة سنة فى مصر • والقول بأن مدة هذا الحكم أطول من ذلك لايطيل المدة بين سقوط الأسرة الثانية عشرة ونهاية حكم الهكسوس • وبدهى أن معظم الملوك العديدين المذكورين فى ورقة تورين كانوا بمثابة ولاة تحت حكم الهكسوس ، ومن هؤلاء الملوك سقننرع الوارد ذكره فى الرواية العـامية السـابقة كان واليـا تابعا للهكسوس فى طيبـة • والى الآن لم نهتد الى سبب خراب المعابد والأبنية العمومية بالقطر وقت حكم الهكسوس ، لكن المعروف أن هذا حصل اثر دخول هؤلاء القوم مصر • وقد اهتمت الملكة حتشبسوت كثيرا بترمـيم التالف وارجاعه الى أصله • وقد عبد الهكسوس سوتخ أحد أشكال المعبود ست القديم الشبيه فى نظرهم ببعل السورى • والظاهر أن الهكسوس تطبعوا بسرعة بطباع المصريين فنحل ملوكهم لأنفسهم الألقاب الفرعونية ونسـبوا لهم تماثيل حـكام الوجه البحرى السـابقين على النمط المصرى الفرعونى المعهود من قبل • والمعروف أن المدنية لم تتأخر كثيرا فى عهد الهكسوس كما يستدل من الورقة الحسابية المدونة فى عهد أحد الملوك المدعوين أبوفيس والموجودة الآن بدار التحف بلندن • وقد ألمعنا سابقا الى أن أحـد الملوك المدعوين أبوفيس شيد معبدا فى أواريس ، وعثر على

نقوش فوق قطعة من الحجر مما يفيد أن الملك أبوفيس صنع أعلاما ذات رءوس نحاسية تعلوها (شراريب) زاهية الألوان لنصبها على وجهة أحد المعابد (١٤) . وقد أثر حكم الهكسوس كثيرا فى أهالى مصر وفلسطين وسوريا . فأثار من المصريين شعور البغض لهم حتى طردوهم وتخلصوا منهم . والمعروف عن هؤلاء القوم أنهم أدخلوا الخيل بالقطر المصرى لأول مرة ودربوا المصريين على فنون القتال العظيمة . وعليه فالمصريون مدينون لهم بكثير من ارشاداتهم النفيسة وتعاليمهم القيمة مهما عظم مقدار الخسارة والتلف والضيق الذى حل بالبلاد فى عصرهم .

---

(١٤) Nav, Bubastis, I, pl. 35 e.

الفصل الثاني عشر

طرد الهكسوس وانتصار طيبة

ورد ضمن احدى القصص العامية أن الملك سقننرع كان حاكما على قسم طيبة تحت سلطة ملك من الهكسوس يدعى أبوفيس اتخذ أواريس قاعدة لملكه ، ويرجح أن ذلك كان حوالى سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد أى بعد سقوط الأسرة الثانية عشرة بمائتى سنة تقريبا · وهذه القصة الدارجة التى لاكتها الألسن فى زمن الرعامسة هى مرجعنا العلمى الوحيد عن تاريخ خروج الهكسوس وعما حدث فى القطر بعد ذلك · وقد استنتج ضمنا أن هذه القصة دونت بعد خروج الهكسوس بنحو أربعمائة سنة وقد ألمعنا سابقا اليها لما تكلمنا عن وصف الهكسوس ، لكننا الآن نزيد على ما سبق أن هذه القصة روت حلول عيد من أعياد المصريين القدماء جمع فيه أبوفيس المذكور رجال دولته وتداول معهم أشياء نجهلها · ويستدل من مضمون الرواية أن تلك المداولة كانت لتدبير مؤامرة لاغتيال الملك سقننرع الجالس بطيبة وقتئذ،واليك ترجمة ما جاء بهذا الخصوص :

« ومضى زمن طويل بعد ذلك فارسل الملك أبوفيس الى الأمير (الملك) سقننرع بالمدينة الجنوبية (طيبة) رسالة دون بها رجال دولته العقلاء · فلما وصل رسل الملك أبوفيس بهذه الرسالة الى المدينة الجنوبية (طيبة) أحضروا الى أمير (ملك) تلك المدينة فوجه سؤال الى أحد رسل أبوفيس هذا نصه : « لماذا حضرت الى المدينة الجنوبية ولأى سبب سافرت مع زملائك طوال هذه المدة ؟ فأجاب الرسول : ان الملك أبوفيس أرسلنا اليكم لنخبركم أن فرس النهر القاطن ببحيرة طيبة يمنع جلالته النوم نهارا وليلا · فصياحه يرن فى أذن جلالته باستمرار » فتكدر أمير المدينة الجنوبية (الملك سقننرع) فى نفسه وكظم غيظه ولم يرد الجواب · واستدل من سياق الكلام أن سقننرع هذا أرسل هدايا جزيلة الى أبوفيس ووعده بعمل ما يرضيه نحو تلك الحيوانات · ثم عاد رسول أبوفيس الى

سيده · وعلى اثر ذلك استدعى سقننرع قواده ورؤساء مملكته ····· وأخبرهم برسالة الملك أبوفيس ، فخيم السكوت عليهم جميعا ولم يلفظوا بكلمة ثم أرسل الملك أبوفيس الى ···· » (١) وهنا سقط الأصل فانقطع أملنا في معرفة بقية هذه القصة الشيقة ·

من ذلك يتضح أن لهذه القصة علاقة متينة بخروج الهكسوس والمنازعات السياسية التى حصلت بينهم وبين المصريين · أما العذر الوارد في القصة بأن أبوفيس لم يتمكن من النوم لصياح فرس النهر فى طيبة فسبب وهمى لا يعتمد عليه ويغلب أنه احدى مبالغات أهالى تلك العصور الذين كانوا شديدى التأثر بحروب الهكسوس · وتعزز رواية مانيتو هذه القصة في كثير من الحوادث فقد أخبرنا هذا المؤرخ المصرى أن ملوك طيبة وبعض حكام أقسام مصر اتحدوا وشنوا حربا على الهكسوس فى أواريس· ويستدل من ذكر مانيتو « ملوك مصر » أنه كان هناك انقسام بين أقسام مصر وقت حكم الهكسوس فاستقل كل قسم عن غيره وانفرد حاكمه بادارته · ولا يخفى أن مثل هذه الحالة أضعفت نفوذ المصريين كثيرا أمام عدوهم الأجنبى الشمالى · وجاء فى تاريخ تلك العصور ذكر لثلاثة ملوك مصريين يدعون باسم سقننرع وقد عثر على مومياء الأخير منهم ضمن كنوز الدير البحرى الكبرى وهى الآن محفوظة بدار التحف بالقاهرة (لوحة ٧١) ، ووجدت على هذه المومياء آثار جرح مع اصابات شنيعة مميتة بالرأس اثر نضال ونزاع قبل الوفاة يرجح أنه حصل وقت الحرب بين المصريين والهكسوس · ولما توفى هؤلاء الملوك الثلاثة تولى بعدهم الملك كاموس (Kemose) فاستمر على كفاح الهكسوس · وشيد هؤلاء الملوك المصريون لأنفسهم أهراما حقيرة من اللبن بجهة طيبة ورد عنها فى الآثار أنها كانت سليمة بعد وفاة أصحابها بنحو أربعمائة وخمسين سنة أى فى عهد الرعامسة ، لأنها فتشت وقتئذ للتأكد من عبث اللصوص بها كما ألمعنا الى ذلك · من ذلك يتضح أن ثلاثة الملوك المدعوين سقننرع والملك الرابع المدعو كاموس ثابروا بشدة على شن الغارة على الهكسوس ، وقد أوردهم مانيتو فى آخر قائمة أسماء ملوك الأسرة السابعة عشرة · وليلاحظ أن منازعات المصريين لم تكن مقصورة على ما كان دائرا بين ملوك طيبة والهكسوس ، بل كانت هناك مشاحنات أيضا بين ملوك طيبة وحكام الوجه القبلى وعلى الأخص اقليم الكاب الذى كان بعيدا عن نفوذ الهكسوس ومتقدما فى التجارة والحضارة والرفاهية عن أقسام الوجه القبلى ، ولذلك كانت المصاعب التى واجهت آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة عظيمة ،

---

(١) Pap. Sallier I. II. 1. 1-111, 1, 3.

وسنرى فيما بعد أن حكام قسم الكاب قاوموا كثيرا ملوك طيبة الذين ساروا تدريجيا نحو طرد الهكسوس من القطر ٠

وتوفى كاموس بعد حكم قصير فتولى بعده أحمس الأول (٢) وهو فى الغالب ابنه وقد اعتبره مانيتو أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة٠أما تبوؤ أحمس للملك فكان حوالى عام ١٥٨٠ قبل الميلاد وكان حكمه فى مبدأ الأمر مقصورا على الوجه القبلى بقسم طيبة ، وهو الذى أنقذ وطنه من عدوه اللعين الأجنبى ٠ ومعلوم أن الملك سقننرع الثالث تبادل الهدايا والعلاقات الودية مع حكام قسم الأقسام الجنوبية حتى صار قسم الكاب عقبة كئودا أمام كل من يتعدى على حدود طيبة الجنوبية ٠ ولم يحفظ لنا التاريخ معلومات رسمية عن الطور الأول من طرد الهكسوس ولا وصلت الينا نصوص الملك أحمس الأول عن ذلك الكفاح ، وكل ما اهتدينا اليه فى هذا الصدد تلك النقوش التى على صدر قبر ضابط مصرى من جهة الكاب كان مواليا لملوك طيبة واشترك هو وهم فى مهاجمة الهكسوس ، وهذا الضابط يقال له أحمس ٠ أما والدته فكانت تدعى ابانا ووالده بابا ٠ وبابا هذا كان موظفا فى عهد سقننرع الثالث ، واليك ترجمة ما قاله أحمس بن ابانا عن سيرته أيام الملك أحمس الأول :

« مضيت أيام شبابى فى مدينة الكاب وكان أبى ضابطا فى جيش جلالة ملك القطرين البحرى والقبلى سقننرع المرحوم ، وكان يسمى بابا وهو ابن روينيت ، ولما توفى وظفت مكانه فى سفينة تسمى « القربان » وذلك أيام المرحوم الملك أحمس الأول ٠ وكنت اذ ذاك شابا لم أتزوج ٠٠٠ فلما تزوجت وصارت لى أسرة نقلت الى الأسطول الشمالى لما شوهد فى من الشجاعة والاقدام » ومن هذا يتضح أنه نقل من أسطول الكاب وأرسل شمالا لمحاربة الهكسوس ٠ وبعد أن صار ضابطا بحريا التحق ضابطا بريا بحرس الملك الخاص وقد أشار الى ذلك بقوله : « وكنت أتبع الملك فى سيره حيثما أقلته عجلته ٠ ولما حاصر الملك مدينة أواريس أظهرت له بسالة وعظيمة وأنا أحارب على قدمى ٠ فعيننى جلالته بالسفينة المسماة « ضوء منف » ٠ ثم حارب جلالة الملك فى مياه ترعة بزدكو (Pazedku) جهة أواريس وقد حاربت وقتئذ بيدى فأحضرت يدا مقطوعة من رجال العدو برهانا على شجاعتى واقدامى ٠ فبلغ ذلك الخبر رسول الملك فأنعم على جلالة الملك بعد ذلك بوسام الشجاعة الذهبى ٠ ولما قامت الحرب مرة ثانية فى هذا المكان دخلت النزاع وحاربت بيدى وأحضرت يدا أخرى

(٢) او اعحمس حسب نطقه الصحيح اى وليد القمر ــ (المحرر) ٠

(من أسير) ، فأنعم على جلالة الملك مرة ثانية بالوسام الذهبى لشجاعتى. فى ذلك الوقت العصيب قامت ثورة عظيمة فى أقسام مصر جنوبى الكاب تطلبت ذهاب الملك أحمس الأول شخصيا مع أحمس بن ابانا لاقماعها ، وقد خبرنا عن ذلك أحمس بن ابانا بقوله : « فحضر الملك وحارب قسم مصر جنوبى هذه المدينة (الكاب) وأسرت حينئذ رجلا حيا نزلت به الى البحر قابضا عليه كأننى سائر فى طريق المدينة وعبرت به النيل فعلم بذلك رسول الملك فأنعم على جلالته بمكافأة ذهبية مضاعفة » . ولما خمدت الثورة ، رجع الملك مصحوبا بأحمس بن ابانا الى أواريس . قال أحمس المذكور ما ترجمته : « فسقطت أواريس فى قبضة جلالة الملك . وهناك أسرت رجلا وثلاث نسوة فكان المجموع أربعة وهبهم لى جلالته عبيدا » .

ويستنتج من ذلك أن أواريس سقطت فى الهجوم الرابع لأحمس بن ابانا ، وللآن لم نعرف بالضبط عدد مرات الهجوم على هذه المدينة ، لكن المعروف أن حصار أواريس دام عدة سنوات وأن مدته طالت بسبب شبوب ثورة جنوبى الكاب . ولم يخبرنا هذا الضابط البحرى من هم المدافعون عن أواريس ، لكن هذا واضح من رواية مانيتو ومن القصة الدارجة المذكورة آنفا . ولم يذكر هذا الضابط أيضا اسم أعدائه الذين حاربهم مرة ثانية ، لكن المفهوم ضمنا أنهم الهكسوس لأنهم تقهقروا الى آسيا بعد طردهم . قال أحمس بن ابانا بعد ما ذكر سقوط أواريس ما ترجمته: « ثم حاصر جلالة ملك مصر شاروهن ــ شرحان ــ لمدة ثلاث سنوات واستولى عليها . وقد أسرت وقتئذ امرأتين ويد أسير فكافأنى جلالته بالذهب على شجاعتى وملكنى رقاب الأسيرتين » . ويعتبر هذا أول حصار طويل معروف من نوعه فى التاريخ وبرهانا قويا على شدة مقاومة الهكسوس وطول صبر أحمس الأول فى ذلك الحصار الخطير على حدود القطر المصرى . وشاروهن ــ شرحان ــ موقعها جنوبى يهوذا (٢) وهو المكان الذى سهل على الهكسوس اعادة الكرة ثانية على مصر منه . ولم يكتف أحمس الأول بطرد الهكسوس من شاروهن بل واصل طردهم وتتبعهم الى فينيقيا المعروفة وقتئذ باسم زاهى وسوريا ، وكان الملك مستصحبا معه اذ ذاك قائدا من مدينة الكاب أيضا يقال له أحمس بن نخبت ، ومن ثم يظهر لنا أن الملك طرد الهكسوس الى مكان بعيد وطهر منهم القطر المصرى . وورد عن الملك أحمس أنه استعمل ثيران الهكسوس فى أعمال عماراته فى السنة الثانية والعشرين من حكمه وأنه حارب الهكسوس مرة أخرى على الأقل فى ذلك الوقت ، ولما طرد

---

(٢) سفر يشوع ، اصحاح ١٩ ، سطر ٦ .

أحمس الأول الهكسوس من مصر وجه همه ثانية الى النوبة بقصد استرجاع ما فقدته مصر فى ذلك القطر الجنوبى •

ولا يخفى أن الاضطرابات التى حدثت فى القطر المصرى بعد سقوط الدولة الوسطى أحدثت تأثيرا سيئا فى السودان نحو مصر ، فشق أهالى ذلك الاقليم عصا الطاعة على فرعون وامتنعوا من دفع الجزية وسببوا له متاعب ومصاعب • ولكنه لما طرد أحمس الأول الهكسوس ووجه همه نحو ذلك الاقليم أخضعه بسهولة وعلى الأخص ما كان منه بين الشلال الأول والشلال الثانى • أما مركز الملك حينئذ فى القطر المصرى فكان محفوفا بالخطر لأنه بمجرد وصوله الى السودان قامت أهالى قسم جنوبى الكاب عليه فغلبهم وشتت شملهم وكان مصحوبا اذ ذاك بأحمس بن ابانا الذى كافأه هناك بخمسة عبيد وثلاثة أفدنة ونصف من أرض اقليم الكاب وأغدق الملك نعمه على جميع الضباط الذين حاربوا معه فى تلك المعركة • وروى أحمس بن ابانا خبر حدوث فتنة أخرى فقال : « جمع الخائن المغلوب على أمره المدعو تتى ان (Teti-en) رجاله ليحارب جلالة الملك فقتله جلالته هو وخدمه وأعطانى ثلاثة عبيد وثلاثة أفدنة ونصفا بجهة بلدى الكاب » • من ذلك يتضح أن أحمس الأول نجح فى سياسة التآلف مع حكام أقسام مصر حتى جعلهم تحت نفوذه وكان تارة يوزع عليهم الذهب وطورا يهب لهم العبيد والأراضى وأحيانا يجود عليهم بألقاب الشرف « كابن الملك الأول » ، مما يتوافق مع عقلية الحكام المغرمين بالوجاهة والبذخ • ولا شك فى أن حكام قسم الكاب استحقوا كل ثناء على شجاعتهم واخلاصهم ، ومع السماح لهم بالمحافظة على ألقابهم وشريف نسبهم قل نفوذهم تدريجا ، فصار الحل والعقد بيد الملك وحده بطيبة ، ولذلك كان هؤلاء الحكام يقيمون فى طيبة ، ويدفنون جثثهم بجوار مقابر ملوكهم • وهناك قبر لحاكم مدينة طينه (Thinis) وآخر لحاكم مدينة القوصية (أفروديتوبوليس) ، وورد عن الأول منهما أنه ساعد الملكة حتشبسوت فى نقل مسلاتها •

ولابد أن يكون القارىء قد لاحظ أن أحمس الأول لم يلتف حوله الا القليل من حكام أقسام مصر ، أما الباقون فقاوموا الهكسوس حتى صرعوهم ومحوا أثرهم • والذين انضموا الى أحمس انخرطوا بعدئذ فى خدمة الحكومة الملكية واحتفظوا بالوظائف الكبيرة بعد ما تجردوا من غطرستهم ، واستقلالهم السابقين • وهكذا صارت الكلمة العليا للملك الذى وضع يده على أملاكهم جميعا الا ما يخص قسم الكاب فانه تنازل عنه لهم اعترافا منه بالمساعدة التى قدمها له حكام هذا القسم وقت حربه مع الهكسوس • وقد سمح لحكام الكاب بالاحتفاظ بأراضيهم وأملاكهم مدة

جيلين تقريبا كما تشير اليه الآثار • والمعروف أن نفوذهم امتد بعد ذلك فشمل مدينة اسنا وما جاورها فصاروا يديرون الأقاليم بين طيبه ومدينة الكلب • ولا يخفى أن هذه الرعاية كانت استثناء للقاعدة القاضية بامتلاك فرعون لأراضي مصر كلها ، ومثل هذه الحال حصلت في مصر حديثا أيام المرحوم محمد على باشا الكبير لما قتل المماليك في القرن التاسع عشر بعد الميلاد ، وورد في الكتاب المقدس أن هذا النظام جاء نتيجة مباشرة لحنكة ومهارة سيدنا يوسف عليه السلام (٤) •

(٤) سفر التكوين ، الاصحاح ٤٧ ، سطر ١٩ ــ ٢٠ •

الكتاب الخامس

الإمبراطورية في دورها الأول

الفصل الثالث عشر

الحكومة الجديدة : الاجتماع ، الديانة

كانت مهمة أحمس الأول فى تنظيم الحكومة المصرية وادارة البلاد الداخليــة مختلفة تمــاما عن مهمة أمنمحات الأول ، أول ملوك الأسرة الثــانية عشرة ، ناهيك بالعقبــات التى واجهت الأخــير فقد كانت نتيجة تنازعات سياسية واجتماعية بين حكام الأقسام فاجتهد أمنمحات الأول فى ازالتها دون أن يلحق بهم أذى أو ضرر • أما أحمس الأول فمهمته تطلبت تاليف حكومة من حكام ضعاف يختلفون تماما عن حكام أمنمحات الأول،لأنهم عاشوا تحت النير الأجنبى حتى فقدوا منزلتهم السامية بين أهالى القطر • وكان اختيار أحمس الأول لنوع الحكومة المناسبة لعصره نتيجة مباشرة لخبرته الحربية والسياسية مع الهكسوس مدة طويلة ، تلك الخبرة التى جعلته قائدا عاما لجيش مصرى محنك، مدرب على الكفاح ورئيسا للحكومة فى آن واحد • وعليه فالحكومة التى ألفت اثر هذه الحوادث تحتم عليها أن تكون عسكرية ، وأن تبقى كذلك دون نظر الى ميول المصرى نحو السلام والسكينة ، لأن النضال الطويل مع الهكسوس علم المصريين طرق الكفاح المختلفة ، كما أن الغزوات التى قام بها أحمس عدة سنوات بآسيا أطلعت المصريين على ثروة الأقطار السورية ، وهكذا صار المصرى مدربا مجربا لفنون الحرب وعالما بأن الحروب الآسيوية تعود على مصر بالغنم الكثير • فهبت على اثر ذلك فى القطر المصرى عاصفة فكرية دفعته الى الاستعمار والفتوحات عدة قرون حتى صارت ثروة الخدمة العسكرية ومكانتها وترقياتها مطمح نفوس الطبقة الوسطى التى كانت سابقا مخلدة الى الراحة ، وهكذا اندفع القطر المصرى فى التيار العسكرى وتسلطت على ألباب أهله عوامل الحرب حتى صعب موقفها • وأصبح سراة القوم الذين عاشوا بعد طرد الهكسوس وأمراء الامبراطورية المصرية يطمعون فى الخــدمة العسكرية والانخراط فى الحروب تحت لواء الملك بغية الحصول على الأنعام والألقاب التى تشرفهم

وتعلى مراكزهم بين قومهم كما أشارت اليه نقوش قبورهم فى طيبة . وقد أورد لنا كبار موظفى الحكومة المصرية سيرهم وتراجم حياتهم على مقابرهم كالتى خلفها أحمس بن ابانا عن حياته والبلاء الحسن الذى رفع صيته فى حـرب الهكسوس . وخيمت الروح العسـكرية على القطـر المصرى مدة قـرن ونصف بعـد طرد الهكسوس فصار أبنـاء الفراعنة يعينون قوادا للجيوش ثم زيد عدد الجيش كثيرا وأمد بالعدد وقسم الى قسمين قسـم خاص بالوجه البحرى والآخر بالوجه القبلى . واعلم أن الحروب السورية دربت المصريين على الخدع العسكرية والأساليب الحربية الراقية ، كمـا سيتضح فيما بعد ، ويعتبر هذا التقدم الحربى أقدم ما عرف من نوعه فى التاريخ . وقد قسم الجيش المصرى الى فرق وفيالق وقسمت قواته الى قلب وجناحين فانتظم بذلك نظام المعارك الحربية وتمكن المصريون من القيام بحركات الالتفاف حول أعدائهم بعد ما كانت حروبهم القديمة أشبه بالنهب والغزو والقتل والتحطيم (لوحة ٧٥) . وشملت معدات الحرب القوس والنشاب والبلط ، وتمرن أفراده على اطلاق النبـال وتسديدها دفعة واحدة، فعظمت منزلة فرقة النبال المصرية بين جيوش العالم حتى العهدين اليونانى والرومانى . وأهم من هذا وذاك أن الهكسوس جلبوا الخيل الى مصر فأصبح الجيش المصرى شاملا لعجـلات حربية كثيرة . أما فرقة الفرسان فلم يكن لها وجـود وقتئذ ، ولكنه لوحظ أن صناعة العجلات كانت غاية الاتقان (لوحة ٧٦) ، صـار لفرعون مصر اصطبلات تحوى الآلاف من أجود الخيل الأسيوية . واقتضت الروح العسكرية وقتئذ أن يكون للملك حرس كامل العدد له شعار خاص ويتبع جلالته فى غدواته وروحاته ، كما أصبح له أيضا ضباط حربيون خاصون يرافقونه فى حله وترحاله . وبهذه الكيفية ساس الفراعنة القطر المصرى بلا معارضة، وصارت لهم فيه الكلمـة العليـا ، فلم يبـق للروح الديمقراطية بين ملوك تلك الأوقات من أثر ولم يعد يتجاسر أحد من رعيتهم أن يحاسبهم على أعمالهم . ولا غرابة فى ذلك فمثل هذه الروح لم توجد فى الشرق الا نادرا حتى عهدنا هذا ، والعادة فى الممالك الشرقية أن الملك القوى يهيمن على كل أمـور دولته وأن تكون رعيته رهن اشارته فى كل وقت ، فاذا ظهرت عليه بوادر الضعف أصبح ألعوبة فى أيدى حاشيته وفريسة لدسائس حريمه . ويحوى التاريخ المصرى القديم كثيرا من الأمثلة الخاصة بعزل الأسر المالكة واسناد شؤون المملكة الى رؤسـاء ماهرين حاذقين . أما أحمس الأول الذى طرد الهكسوس فكان مثال الجد والشجاعة والعقل والدهاء فلم يكن لين العريكة أو ضعيف الارادة ولذلك كان الجميع يهابونه ويحترمونه ، والى هذا الملك يرجع الفضل فى انقاذ مصر من ظلم الهكسوس وما تقلبت فيه البلاد من الاضطراب والفتن فى غضون مائتى سنة .

وتمتاز الحكومة المصرية الجديدة بوضوحها للمؤرخين أكثر من حكومات العصور الأخرى ، ففيها يتبين للباحث كثير من الأنظمة الجديدة الادارية التى أدخلتها أسرة أحمس الأول على المملكة . فمركز فرعون أصبح الآن مركزا عمليا يطلع على أخبار مملكته وحكومتـه السياسية ويقابل لذلك وزيره كل صباح . واعلم أن الوزير كان القابض على زمام الأمور فكان يعرض على جلالة مليكه كل المسائل الحكومية والأشغال السائرة ليبدى رأيه فيها ، وبعد ذلك يتشرف رئيس مالية الدولة بمقابلة الملك فيعرض عليه أخبار الخزانة الملكية وما اعتراها من زيادة أو نقص . من ذلك يتضح أن الادارة المالية والحقانية كانتا أهم المسائل الحكومية فكان يتحتم أن تعرض أخبارهما على فرعون كل يوم فى قصره الذى اعتبر المرجع الأسمى للحكومة . أما المسائل الأخرى فكانت تعرض على الأشخاص المنوطين بها فى ديوان الحكومة فكانوا يتصرفون فيها بما يعتبر نظريا مرسوما ملكيا . وقد وصلت الينا بعض مخاطبات رسمية تظهر لنا كيفية سير الأمور والأساليب السياسية وقتئذ لكنها قليلة ، ومنها اتضحت لنا كثرة أعمال الملك وكيفية تصريفه لأشغاله مما يعود عليه بجزيل الثناء لما كان يبديه عادة من المهارة والحكمة . وكان يعرض على الملك حكم القضايا الجنائية فى آخر الأمر ليبدى رأيه فيه ، ثم ان المجرمين كانوا يحجزون فى السجن انتظارا لتصديق الملك على عقابهم . وكثيرا ما كان فرعون يرافق جيوشه ببلاد النوبة وآسيا والمحاجر والمناجم ووقت تفقد الطرق فى الصحارى للبحث عن أمكنة لحفر الآبار أو خزن المياه . أما الادارة الداخلية والعمارات العمومية الكبيرة فكان يتفقدها الملك ويراقب ادارتها شخصيا . وورد أن الملك كثيرا ما قام بتحقيق دقيق فى قضايا الظلم والحيف بين الموظفين . ويلاحظ أن الشعائر والاحتفالات الدينية كانت تتطلب كثيرا من أوقاته أيضا ، وأن هذه أخذت تكبر وتزداد تبعا لكبر ادارة الحكومة فزاد بذلك العمل على عاتق الملك حتى عجز فى آخر الأمر عن تحمله وحده فاستعان بوزيره . ولما تضاعف العمل عجز الاثنـان عن القيام به فعين الملك وزيرا ثانيا . والمعروف أن فرعون مصر كان محتفظا بوزير واحد من أقدم عصور المملكة ، أما الآن فنجـد عن فراعنة الأسرة الثامنة عشرة وزيرين لمراقبة الادارة والشؤون الداخلية ، أحدهما للوجه القبلى وتمتد منطقة نفوذه من طيبة الى قسم أسيوط ومقره طيبة ، أما الثانى فكان يعهد اليه فى ادارة جـزء القطـر شمالى أسيوط الى البحـر الأبيض المتوسـط ومقـر حكمه عين شمس (١) ، ولا يبعـد أن يكون هذا التقسيم

(١) نصوص مس (Mes) .

نتيجة اضافة قسم النوبة بين الشلال الأول والكاب الى أعمال وزير الجنوب ٠

ثم قسمت المملكة المصرية الى عدة أقسام بعضها يحوى المدن الكبيرة القديمة وما جاورها من القرى فكان يحكمها حكام الأقسام الأقدمون ، والبعض الآخر لايحوى مدنا رئيسية كالسابقة بل كان عبارة عن أقسام أنشأتها الحكومة لتسهيل الأعمال الادارية ٠ وعدد هذه الأقسام فى المنطقة بين أسيوط والشلال الأول سبعة وعشرون ويغلب أن يكون عدد الأقسام شمالى أسيوط معادلا لذلك على الأقل ٠ ومع أن رئيس الادارة فى المدن الكبيرة كان يلقب بأمير أو حاكم فقد أصبح الآن تابعا اداريا للفراعنة فلم يعد يتصرف فى أمر حتى يعرضه على السدة الملكية فهو كالعمدة فى وقتنا هذا ، أما المدن الصغيرة فكان يعين عليها مشايخ كما هو جار الآن ، وأما القرى الصغيرة فكان يعين عليها بعض الكتبة تحت اشراف كاتب منهم ، وسنرى أن هؤلاء الحكام قاموا بالأعمال الادارية والقضائية معا فى أقسامهم الخاصة بهم ٠

وكان هم الحكومة فى تلك العصور مزجها الى زيادة الانتاج الذى يتبعه ازدياد فى ثروة البلاد ، ولذلك كانت معظم الأراضى تابعة للملك فكان يقسمها على أتباعه تحت اشراف موظفى حكومته أو يهبها لأمرائه المقربين أو لرجال جزبه أو أقاربه أو يؤجر بعضها الى الأهالى الاعتياديين ، وتمكن كل واحد من هؤلاء أن يستبدل بقطعة أرضه أخرى على أن يدفع فرق البدل ثم يتصرف فيما كما يشاء (٢) ٠ أما أملاك الملك من غنائم وبهائم وجمير فكانت توضع تحت اشراف أناس من الطبقتين المذكورتين وتفرض عليها ضريبة سنوية كالأراضى ٠ واقتضى القانون المالى وقتئذ أن تفرض الضرائب على الأراضى والحيوانات والأملاك جميعها كل سنة ويبين ذلك فى سجل خاص ، وهذه الضرائب كانت تورد الى الخزانة المصرية التى لم تزل تعرف « بالبيت الأبيض » لكن استثنى من هذا الأمر أوقاف المعابد ، فقد أعفيت من الضريبة ٠ أما سجلات الضرائب فكانت تحوى كشفا مضبوطا عن الأملاك وما يتعلق بها وبمقتضى ذلك الكشف كانت تفرض الضرائب التى استمرت تدفع للحكومة بشكل مواد أولية كحبوب ونبيذ وزيت وعسل ومنسوجات أو بهائم ٠ وليلاحظ أن أهم قسم بالادارة المالية كان خاصا بالمواشى والحيوانات ويلى ذلك أهمية القسم الخاص بالمواد الأخرى ٠ أما لفظا « ضرائب » أو « عوائد » فقد استعيضا عند قدماء المصريين بلفظ « الشغل » ٠ وأخبرنا الكتاب المقدس أن الأهالى كانوا يدفعون خمس

---

(٢) نصوص مس (Mes) ،

نتــاج الأرض والحيوان ضريبــة للماليـة فى زمن ســيدنا يوسف عليه السلام (٣) · وتجنى الضرائب ثم تورد الى ادارات الحكومة الأخرى ويؤدى كل عمل موظفون خاصون · ومن ذلك يتضح أن عدد الموظفين والخدم وقتئذ بلغ حدا لم يبلغه فى عصر سابق ، وهؤلاء الكتبة والمراقبون كانوا تحت اشراف رئيس المالية وهذا يعرض الأمور على الوزير كل يوم بعد ذلك ويستأذن لفتح الدواوين والمخازن كالمعتاد · وهنـاك نوع من الضرائب كان يدفعه للوزير موظفو الحكومة على حسب وظائفهم · وكان وزير قسم مصر الجنوبى يشرف على موظفى قسمه جميعا حتى أسـيوط شمالا ، ولا يبعد أن كان لوزير القسم الشمالى أيضا مثل هذا الاشراف على موظفى دائرة أعماله ، وتدفع ضرائب الموظفين ذهبـا وفضـة وقمحا وعنما وكتانا · ودلتنـا الآثار أن حاكم مدينة الكاب كان يدفع للخزانة المصرية ضريبة سنوية تقدر بخمسة آلاف وستمائة قمحة ذهبا وأربعة آلاف ومائتى قمحة فضة وقلادة ذهبية وثورين وصندوقين من الكتان·ووجدت قائمة للضرائب التى كانت مفروضة على موظفى جنوبى مصر تحت ادارة الوزير رخميرع منقوشـة على جـدر قبره لكنها لسوء الحظ تالفة لدرجة يصعب جمعها ومعرفة مقدار تلك الضرائب أيام ذلك الوزير بالضبط · والثابت أن أقل قيمة لضرائب موظفى هذا الوزير تقدر بمائتين وعشرين ألف قمحة ذهبا وتسع قلائد ذهبية وستة عشر ألف قمحة فضة وأربعين صندوقا ومقاسات أخرى كتانا ومائة رأس وست من البهائم المختلفى الأعمار وكمية من الحبوب · ولا يبعد أن يكون هذا التقدير أقل من الحقيقى بنحو ٢٠٪ ، ولما كان من المحتمل أن الملك يحصل من وزيره الشمالى ما يعادل هذا المقدار أيضـا ، كانت الضرائب التى تجمع من موظفى الحـكومة وقتئذ شيئا لا يستهان به · ومن دواعى الأسف أننا لم نتمكن من تقدير مجموع هذه الضرائب بالضبط ، لكن المعلوم أنها كانت ترسل الى ادارة وزير الجنوب رأسا أيام الأسرة الثانية عشرة ، حيث تقيد وتوزع بالدقة وتقيد بها بيانات وافية يرجع اليها وقت الحاجة · ولضبط أعمال ميزانية الضرائب كان الوزير الجنوبى يقدم للملك تقريرا كل شهر عن المصروفات والايرادات يعاونه فى ذلك رؤساء الاقلام وكبار الموظفين · ولما كانت الضرائب مترتبة على نتاج الأرض وهذا أيضا مرتبط بدرجة فيضان النيل كحالنا الآن كانت ترسل الى وزير الجنوب بلاغات رسمية عن حال فيضان النيل · وتدخل تحت اشراف هذا الوزير أيضا الأوقاف الدينية ، وبالأخص ما حبس منها على المعبود آمون بمدينة طيبة فهذه كان يديرها وزير الجنوب كما كان

---

(٣) سفر التكوين ، الاصحاح ٤٧ ، سطر ٢٣ ــ ٢٧ ·

أيضا يدير دخل معبد هذا المعبود الغنى بما فى ذلك من مرتب ومصروف رئيس كهنة آمون · وأخذت الخزينة المصرية على توالى الأيام تضخم بورود الجزية من البلاد الأجنبية بمقاديرها الكبيرة وهذه الجزية ترد على وزير الجنوب وهو يعرضها على الملك · ووجدت رسوم شيقة على صدر قبر وزير الجنوب المعظم المدعو رخميرع بطيبة تمثله متسلما ضرائب موظفيه السنوية وكذا ضرائب ولاة المستعمرات الأسيوية والنوبية ·

ولم تقتصر سلطة وزير الجنوب على المالية بل شملت أيضا القضاء فكانت سلطته أوسع نطاقا من سلطته المالية، فصارت له الكلمة العليا على جميع قضاة قسمه وعلى محكمة العشرة السابقة الذكر والتى أصبح رأيها الآن أقل من الاستشارى بعد ما كانت ذات الكلمة النافذة فى البلاد · ومع أن بلاغات القصر الملكى وقتئذ لم تشر مرة واحدة الى هذه المحكمة فقد بقى ذكرها ومجدها القديم موضع الاعجاب والمديح فى الشعر حتى العهد اليونانى · وكان الوزير يلقب أحيانا برئيس المحاكم الست الكبرى كسابق العهد، لكن يلاحظ أن هذا اللقب أصبح الآن مخزيا فقط، لزوال هذه المحاكم من الوجود · ومع عدم وجود رجال أخصائيين فى القانون فكان يشترط فى الحكام أن يكونوا متضلعين فى القانون ليحكموا فى كل ما يعرض عليهم من القضايا · ولما كان الوزير معتبرا رئيس حكام الأقسام التابعة له كانت تعرض عليه كل أحكام القضاة الذين تحت اشرافه ، وجرت العادة فى كل حال أن يرفع كل مدع أو متظلم دعواه الى الوزير كتابة ويستحسن حضور صاحب الطلب شخصيا ، ولذلك كان قصر الوزير ملجأ يجىء اليه المدعون والمتظلمون كل يوم · زد على ذلك أنه كانت تعقد فى هذا القصر كل يوم جلسة لاصدار حكمها فى تلك الدعاوى · ودلتنا الآثار أن هذه الجلسات كان يؤدى نظامها حجـــاب وكتبة وكان الناس يدخلونهـــا بالترتيب بعد ما يصفون استعدادا لمثولهم بين يدى الوزير وحتم القانون على الوزير اصدار حكمه فى قضايا الأراضى المتعلقة بطيبة فى ثلاثة أيام من تاريخ رفع الدعوى ، أما قضايا الأراضى الخارجة عن طيبـــة شماليها وجنوبيها فالنطق فيها كان لا يتأخر عن شهرين · هكذا كان النظام القضائى لما كانت المملكة تحت اشراف وزير واحـــد ، لكن لما عين وزير ثان للشمال قسم النفوذ والسلطان بين هذين الوزيرين (٤) · وكل جرائم طيبة كان ينظرها وزير الجنوب شخصيا ، أما المجرمون فيحجزون فى سجون خاصة ما داموا وهن التحقيق فاذا صدر الحكم عليهم أرسلوا الى سجون أخرى ينفذ فيها العقاب · ولكل قضية أوراق تحفظ فى السجلات الرسمية كما هى الحال

---

(٤) نصوص مس (Mes) .

الآن • وتمتاز قضايا الأراضي والأملاك بوجوب اصدار الحكم فيها بسرعة • ويتحتم على كاتب الوصية أن يسجلها شخصيا في قصر الوزير • وتحفظ صور لجميع المستندات وحدود الأراضي والعقود في ادارتي وزيري الجنوب والشمال (٥) • وكل طلب مقدم الى الملك يتحتم تقديمه كتابة الى ادارة الوزير أولا •

وزيادة على قصري وزيري الشمال والجنوب اللذين كانان يعرفان « بالديوان » أو « المجلس الأعلى » أنشئت بالارياف محاكم فرعية مكونة من رجال الادارة المتمرنين على تطبيق القانون كما ذكرنا سابقا • وكان هؤلاء الرجال يعرفون بأعيان البلد أو « برجال المجلس المحلي » ويعتبرون ممثلين لمجلس القضـاء الأعلى • والقضايا الكبيرة كالخاصة بألقاب الأسر الرفيعة كان يتحتم فيها ارسال مندوب من « مجلس القضاء الأعلى » لينفذ قرار ذلك المجلس بمعاونة رجال أقرب « مجلس محلي » • وكانت القضايا تسمع أحيانا أولا أمام المحاكم الفرعية،ثم تحال بعد ذلك الى المحاكم العليا قبل الحكم فيها نهائيا (٦) • ولم نهتد للآن الى معرفة عدد المجالس الفرعية في تلك الأوقات بالضبط ، لكن المعروف أن أهم هذه المجالس هما الخاصان بمنف وطيبة • وكان أعضاء مجلس طيبة المحلي كثيري التغيير على حسب أهمية القضايا ، فالقضايا الخاصـــة بالبيت المالك كان ينظـــر فيهـا أعضاء معينون بأمر من الوزير الجنوبي أما قضايا المؤامرات على الحكام فكان الملك نفسه يعين القضاة للنظر فيها بلا محاباة ولا محسوبية وكذا الحـكم على المجرمين وكان يمنحهم الحق في تنفيذ هذا الحـكم أيضا • وليلاحظ أن الكهنة كانوا معظم أعضاء هذه المحاكم ، ولا نعلم للآن علاقة هذه المحاكم الفرعية بادارة الوزير بالضبط ، وقد ورد على الآثار مرة على الأقل أن أحـد المدعين حكم له « المجلس المحلي » بتسلم عبـد له معارضا ما حكم به « المجلس الأعلى » سابقا بادارة الوزير (٧) • ومع شدة حرص القوم على القانون كثيرا ما تشككوا في نزاهة الحكم وعدله ، فقد ورد أن الناس كانوا يندبون حالة الفقير الضعيف بين يدى القضاء أمام خصمه الغني اذا أصدرت المحكمة حكمها ضده ، فيصيح الناس بأصوات عالية قائلين : (هذا نتيجة اعطاء) الفضة والذهب للكتبة ! و (اعطاء) الملابس لخدم المحكمة ! (٨) ولا غرابة فرشوة الغني كانت وقتئذ أقوى مفعولا من حق الضعيف كما هو حاصل الآن كثيرا (في نظر المؤلف) • لكن

---

(٥) نصوص مس (Mes) .

(٦) جارىنر نصوص مس (Mes) .

(٧) Spiegelberg, Studien.

(٨) Pap. Anast. II, 8, 6.

يلاحظ أن القانون الذى لجأ اليه الفقير كان غاية فى العدالة ، وجرت العادة أن ينسخ فى أربعين درجا برديا ويوضع على منضدة القاضى وقت انعقاد المحكمة للمراجعة وزيادة الايضاح ، وكان يسمح لكل شخص أن يقرأ القانون ويستفسر الغامض • ومن دواعى الأسف أننا لم نعثر على نسخه من ذلك القانون الذى لا نشك لحظة فى عدالته فقد جاء فى الآثار أن الوزير كان يحكم بالعدل بدون محاباة حتى كان يخرج المتخاصمان من حجرته مجبورى الخاطر ، « وكان يعطى الفقير حقه كما يعطى القوى نصيبه تماما » • وجاء عنه أيضا « أنه لم يفضل الشخص العظيم على الحقير ، بل كافأ المظلوم وعاقب الظالم على ظلمه » • وبلغ من علو منزلة القانون ونزاهته عند المصريين أن افتخر الملوك بأنهم رجال القانون ، فقد لقب أمنحتب الثالث نفسه « بموطد القانون » • وجاء أيضا أن أحد الملوك فاه أمام احدى المحاكم : « بأن القانون ثابت لم أحدث فيه تغييرا ، ولذلك التزمت خطة السكوت خوفا من احداث الفرح والسرور » (٩) • وبلغت العدالة حدا لا يكاد يصدقه العقل ، من ذلك أنه لما ظهرت مؤامرة لاغتيال حياة ملك لم يكتف الملك بتحقيق مختصر واصدار حكم الاعدام على الجناة بل أصدر أمره بتشكيل محكمة للنظر فى القضية بشرط ألا تصدر حكمها بعقاب المتهمين الا بعد ثبوت اجرامهم • وجاء أيضا أن العقوبات التى فرضها حور محب على الموظفين المرتشين كانت على حسب القانون • ولا يخفى أن معظم مواد ذلك القانون عتيقة كنصوص كتاب الموتى ، ولذلك نسب قدماء المصريين قانونهم الى الآلهة • أما قانون حور محب فكان من مبتكراته • قال ديودور الصقلى ان هناك خمسة ملوك مصريين سنوا قوانين لبلادهم قبل الحكم الفارسى ، وجاء فى أخبار الدولة الوسطى أن أحد رجالها النبلاء قال انه سن القانون ، وذلك يعنى طبعا أنه عمل هذا بناء على أمر ملكى • لذلك كانت أمور التجارة والزراعة والصناعة فى وادى النيل فى عهد الامبراطورية سائرة بالعدل والقانون اللذين سهر على تنفيذهما رجال أصوليون عديدون لا يحيدون عن الحق قيد أنملة ، وهكذا امحى أثر الظلم والحيف من جهة الملك وحاشيته وعم العدل فى أنحاء البلاد •

وكان وزير الجنوب القوة المحركة لنظام الحكومة وقتئذ ، وقد ذكرنا فيما سبق أنه كان يقابل الملك صباح كل يوم ليتفاوض معه فى شؤون المملكة ، ولم يكن للوزير معارض فى السلطة الا رئيس المالية الذى خوله القانون حق الاطلاع على اجراءات وزير الجنوب • فاذا خرج الوزير من

---

(٩) Spiegelberg, Studien.

القصر الملكى يجد رئيس المالية واقفا بجوار أحد ساريات مدخل القصر ينتظره ليتداول معه أمور الدولة بعد ذلك يفتح الوزير أبواب مكتبه ويبدأ بأشغاله الاعتيادية فلا يترك صغيرة ولا كبيرة تخرج أو تدخل مكتبه الا ويطلع عليها سواء أكان ذلك خاصا بالأهالى أم بالأملاك · وقصر الوزير (أى ادارته) كان طريق التخابر بينه وبين حكام الأقسام الذين كانوا يرسلون له تقارير وافية عن حوادث أقسامهم أول كل فصل (أى ثلاث دفعات سنويا لأن السنة المصرية القديمة قسمت الى ثلاثة فصول) ، ومن ثم كانت ادارة هذا الوزير مثالا صادقا لادارات الأقسام · وكثيرا ما قام الوزير بسياحات فى جهات مصر لتفقد أحوال الادارة والنظام ولذلك كانت توجد تحت تصرفه الشخصى سفينة حكومية تنقله الى حيث شاء · ويدخل تحت اشراف الوزير أيضا حرس الملك الخاص وحامية العاصمة وادارة الجيش وقلاع الجنوب وأخبار موظفى الأسطول كما كان الوزير محتفظا أيضا بالأعمال الحربية والبحرية · ولما كان الملك فى الأسرة الثامنة عشرة يحارب مع جيشه خارج القطر كان وزير الجنوب يدير شؤون الدولة بالنيابة · ولم تقتصر سلطة الوزير على ما ذكر بل شملت أيضا ادارة المعابد فى أنحاء القطر ، لأنه ورد عنه مرة أنه « وطد القانون فى معابد الآلهة فى الجنوب والشمال » · ومن ثم كان هذا الشخص رئيسا للديانة أيضا وبعبارة أخرى كان أدرى الناس بأحوال البلاد الداخلية ، ومما ورد عنه أنه لم يسمح بقطع الأشجار ولا برى الأراضى أو تصريف المياه الا باذنه الخاص · واعتبر هذا الوزير ظهور نجم الشعرى اليمانية وسيلة للتوقيت الحكومى · وخلاصة القول ان ادارة القطر صارت فى قبضة هذا الوزير تقريبا ، زد على ذلك أنه كان يستفتى فى كل ادارات البلاد · وقبل أن تقسم ادارة القطر بين وزيرين كان نفوذ ذلك الوزير محسوسا فى جميع دوائر الحكومة المهمة التى كانت دائما على اتصال مباشر أو غير مباشر بادارته · أما بقية الدوائر الأخرى فكانت مضطرة لأن تتخابر وتنفذ أعمالها بناء على ارشادات ادارة الوزير · وخلاصة القول ان مركز هذا الوزير كان أشبه بمركز سيدنا يوسف عليه السلام لما تسلم من فرعون مقاليد الحكم · وبلغ من شدة عدل الوزير وانصافه أن ذكره القوم فى صلواتهم للمعبود آمون حيث قالوا أنت يا آمون وزير الفقير الذى يرفض رشوة المذنب (١٠) ولذلك تعين الاهتمام بأمر الوزير فكان لا يوضع فى ذلك المركز الا كل شخص يختاره الملك من ذوى القدرة والكفاية ويعلن ذلك بأمر ملكى · وجرت العادة أن الملك كان يلقى على وزيره وقت تعيينه

---

(١٠) انظر : Pap. Anast. II, 6, 5-6.

نصائح وحكما لا يتصور الانسان صدورها من بين شفتى فراعنة غزاة يرجع تاريخهم الى أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة لأنها تنم على رحمة ورأفة مع تقدير لمسئولية الحكم ، واليك ترجمة ما قاله أحد الفراعنة لوزيره فى مثل هذه الأحوال : « لا تجلس نفسك مواجها الأمراء والقضاة ولا تختلط كثيرا مع الأهالى ، فالآلهة تبغض المحسوبية ۰ هكذا تعلمنا فيجب عليك أن تتبع ذلك ۰ يجب عليك أن تهتم بطلب الشخص المجهول كالذى تعرفه وبأمور الإنسان البعيد كالقريب ، فذلك يعلى مركز الموظف ۰ ولا تحتد على شخص بدون حق وظهر أمام الناس بمظهر شريف وقور لتخشاك الخلق ، فالأمير هو الشخص الذى تهابه الناس ، واعلم أن أصدق واجبات الأمراء اتباع العدالة ۰ لا تكثر الاختلاط مع الأهالى لئلا يزوروك فيقولوا عنك ما هو الا انسان » ۰ وجرت العادة أن يكون مرءوسو الوزير قانونيين واليك ترجمة ما قاله أحد الفراعنة لوزيره وقت تعيينه : « ليكن جميع كتابك من رجال القضاء حتى يقول الناس عنهم انهم « كتاب عادلون » ۰ ويستنتج ضمنا من شدة حرص الحكام على العدالة وكثرة تكرارها على المقابر أن الرشوة كانت كثيرة الانتشار بين صغار الموظفين حتى تطلبت اتخاذ الوسائل الفعالة ۰ ويمتاز وزراء الأسرة الثانية عشرة بتهافتهم على العمل بالجد والأمانة مفتخرين بذلك حتى تركوا على جدر قبورهم قوائم من النقوش عديدة محفورة وملونة ذكروا فيها الرتب والوظائف التى قلدوها فى دنياهم ذاكرين بأنهم قاموا بواجبهم خير قيام ، وعلى جدر مقابر طيبة كثير من هذه النقوش الجميلة استنتجنا منهـا ما أوردناه من البينات الخاصة بمهام الوزير وعظم سلطته فى الدولة ۰

بهذه الطريقة كانت الأعمال تدار فى حكومة الامبراطورية المصرية ۰ أما المعيشة والأحوال الاجتماعية فقد تغيرتا كثيرا عما كانتا عليه سابقا ، لان حكام الأقسام الذين كانوا ينتخبون من الأعيان وأقارب الأعيان أصبحوا الآن يعينون من موظفى الحكومة بلا مراعاة لحسبهم ، وبذلك اتسع نطاق الترقى أمام طبقة الأهالى الوسطى وصار لهذا التغيير تأثير تدريجى فى نفوس القوم ، واليك ترجمة ما أورده أحد صغار الموظفين : « سيكون ارتقائى هذا فى أشغال الحكومة موضوع كلامكم ومحور محادثاتكم فيحكيها الهرم للصغير : لقد كنت فقيرا وضيعا ونشأت فى قرية حقيرة فشملتنى رعاية سيد القطرين (أى فرعون) فصرت محبوبا عنده ممدوحا لديه كلما تجلى للناس بأبهته وجماله كالمعبود الشمسى ۰ لقد رقانى جلالته على أصدقائه الملكيين وقدمنى بين أمراء القصر الملكى ۰۰۰۰ وندبنى للأشغال العمومية على حداثة سنى وكان معجبا بى وبأشغالى ثم عيننى فى مصنع

الذهب للاشراف على صناعة صور وتماثيل الآلهة الذهبية » (١١) وروى هذا الموظف أيضا أنه قام بوظيفته الحديثة خير قيام فنال استحسان الملك فكافأه جلالته بالذهب علنا وعينه عضوا في مجلس المالية · من ذلك يتضح لنا تسهيله سبيل الرقى للعمال والموظفين فقد دلتنا هذه القصة أن هذا الشخص بدأ بأعماله وهو موظف صغير مجهول · وطائفة الموظفين لابد أنها كانت مقسمة وقتئذ الى قسمين : صغار الموظفين المنتخبين عادة من الطبقة الوسطى وكبار الموظفين المنتخبين من الأسر العريقة · ثم التحمت طائفة الموظفين الكبار تدريجا مع حاشية الملك التى كان أفرادها يديرون مصالح الحكومة المركزية ويقودون قوات الفراعنة فى الحروب فأصبح أعيان البلاد كبار موظفى الحكومة · أما طائفة التجار والصناع والفنيين التى كانت موجودة منذ العصور القديمة فقد اعتبرت مكملة ومتممة لفريق صغار الموظفين الحكوميين · تلى ذلك طائفة المزارعين الذين يحرثون الأرض ويستخرجون خيراتها وهؤلاء كانوا عبيد الفراعنة · أما هؤلاء المزارعون فكانوا سواد الأمة الأعظم ، حتى ان الكاتب الاسرائيلى الذى تكلم عن القطر المصرى وقتئذ لم يذكر فى أهالى مصر سوى العمال والكهنة (١٢) · ولم تترك لنا طائفة العمال الا آثارا يسيرة ، أما طبقة الموظفين فكانت مثرية يانعة كثيرة الآثار ، وقد وصل الينا جزء كبير من آثارها ومنه استنتجنا معظم معلوماتنا عن تلك العصور : قال أحد الاحصائيين الذين عاشوا أيام الأسرة الثانية عشرة : « كان أهالى القطر المصرى وقتئذ مقسمين الى أربع طبقات الجنود والكهنة وعبيد الملك والصناع » وهو قول ينطبق تماما على ما جاء بالآثار للآن · وليعلم أن طائفة الجنود وان كانت تشمل أفراد الطبقة الوسطى الأحرار معتبرة من الطبقات الراقية · ومع أن لقب « أبناء الوطن الحربيين » كان كثيرا ما يطلق على الجنود المصرية فى عصر الدولة الوسطى فان استعماله أصبح الآن شائعا فى عهد الامبراطورية ومقرونا بشىء من الرفعة والشرف ، ثم أخذت منزلة الجندى تعظم تدريجا بتوالى الفراعنة حتى أصبح الجندى الشخص الوحيد الذى يتكل عليه فرعون مصر فى انجاز أوامره على عكس ما كان قديما بالمرة · وليلاحظ أن الرقى فى ذلك العهد لم يكن مقصورا على الجنود والصناع بل شمل أيضا طائفة الكهنة لأن زيادة ايرادات المعابد أيام الامبراطورية جعلت للوظائف الدينية متاما واعتبارا فأصبح لا يعين فيها الا الأكفاء بعد ما كانت هذه المراكز مقصورة على العمال والفعلة المؤقتين أيام الدولتين القديمة والوسطى ·

---

(١١) Unpublished stela in Leyden (V. I). by courtesy of the curater.

(١٢) سفر التكوين ، اصحاح ٤٧ ، سطر ٢١ ·

وبمرور الزمن ازداد عدد نفوذ الكهنة تدريجا فازداد نفوذهم في سياسة الدولة • ثم ان زيادة ثروة المعابد تطلبت جيشا جرارا من الموظفين للقيام بأعمالها من مختلف الحرف التي لم تكن معهودة في العصور السالفة • ولا يبعد أن يكون ربع الأشخاص المدفونين جهة العرابة من كهنة ذلك العصر وصارت طائفة الكهنة مشهورة عند الناس بعد ما كانت قليلة الاتصال والارتباط بالأهالي ، واعترفت الحكومة رسميا بأفراد هذه الطائفة التي شملت وقتئذ موظفي اللاهوت جميعهم في سائر جهات القطر كافة • بعد ذلك عين لرياسة هذه الطائفة « رئيس كهنة آمون » المعتبر رسميا رئيسا لمعبد طيبة الحكومي ، وبهذه الطريقة فاق كبير كهنة آمون رئيس كهنة عين شمس ومنف وتساوت منزلة طائفة الكهنة الاجتماعية بطائفة الجنود وموظفي الحكومة • ويلاحظ أن هذه الطوائف كانت تحت اشراف أمراء معينين من قبل الملك غير الحكام (الأرستقراطيين) السابقين • أما صغار موظفي هذه الطوائف فقد قلنا فيما سبق انهم تساووا مع طبقة التجار والصناع • أما الفلاح الذي يرجع اليه الفضل الأكبر في زيادة ثروة البلاد ووفرة خيراتها فكان أقل من هؤلاء الأقوام منزلة واعتبارا •

وقد اتسعت مالية المعابد فكثر عدد الكهنة الذين كونوا الآن طائفة راقية ممثلين لديانة القطر الرسمية ، والحق يقال ان المصريين لم يعهدوا من قبل مثل هذا التقدم الديني العظيم • والسبب في ذلك أن أيام البساطة القديمة زالت وحل محلها البذخ لأن الغنائم الكبيرة التي استولى عليها الفراعنة في البلاد الأجنبية وزعت على المعابد بكثرة غير مسبوقة ، فأخذت المعابد تكبر وتشمخ حتى شاكلت القصور وأخذ رئيسها يعلو ويعظم حتى شابه الأمراء الأقوياء ذوي النفوذ السياسي العظيم • وقد لقبت زوجة رئيس كهنة طيبة « بحظية المعبود الكبيرة » وبالزوجة المقدسة فتساوت بذلك مع الملكة في الرفعة والمقام ، وبقيت هذه الزوجة تقود النساء مدة طويلة في ترتيل الأناشيد وقت عبادتهن ، والعابدات وقتئذ كثر عددهن كما كان في الأزمنة السابقة • وجرت العادة أن الحكومة قررت لزوجة رئيس كهنة آمون مرتبا عظيما من ميزانية المعابد ، ولما عظم مركز هذه السيدة استصوب الفراعنة أن تعين زوجاتهم في هذا المنصب ليتمكنوا بذلك من الاستيلاء على هذا الايراد الوافر •

ولا يخفى أن نجاح الأسرة الطيبية في الاستيلاء على الملك رفع كثيرا من منزلة آمون اله طيبة في البلاد حتى أصبح آمون اله المملكة المصرية الرسمي ، وقد كان في عهد الدولة الوسطى في المرتبة الثانية لما شبه بالمعبود الشمسي ولقب آمون رع أي آمون الشمسي • أما الآن فقد فاق آمون سائر المعبودات مقاما ونسبت اليه بعض صفات من معبود قفط ،

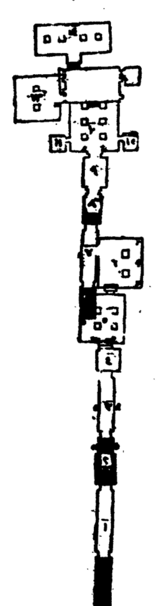
ثم علت منزلته رفعة وسموا بدرجة منقطعة النظير فاذا أراد العـــامة أن يفعلوا شيئا قالوا « اذا أطال أجلنا آمون » فجاء قولهم هذا مشابها لقول المسلم «ان شاء الله» • وقد لقب المصريون آمون «بوزير الفقراء» وتضرعوا الى تمثاله ليفرج عنهم همهم ويقضى حوائجهم ويحسن معيشتهم ويوسع رزقهم • ولم يكن اجتماع صفات المعبودات الأخرى فى آمون بالفريدة من نوعها فى الديانة المصرية ، لأن المصريين اعتقدوا أن كل اله يمكنه أن يتصف بصفات الآلهة الأخرى وأن يقوم بأعمالهم ، فقد كانت منزلة المعبود الشمسى عظيمة فى البلاد •

واعترى الديانة فى عهـــد الامبراطورية تغيير وتبديل خصوصـــا فيما يتعلق بأمور الموتى ، ويرجع تاريخ هذا التغيير فى الحقيقة الى زمن الدولة الوسطى • فمن هذا التبديل أن التعاويذ والدعوات التى استعملها الأموات لنجاحهم فى الآخرة زاد عددها وكتبت فى أدراج بردية بعد ما كانت تنقش داخل التوابيت • ومال القوم تدريجا الى بعض التعاويذ والتوسلات دون بعض فأكثروا من استعمالها وصارت هذه فيما بعد نواة «كتاب الموتى» • وساد الاعتقاد الأعمى فى شدة مفعول السحر وتوهم القوم وجود السحر فى التعاويذ السالفة حتى اعتقدوا أنها تكفى لأن تجلب للميت كل ما يحتاج اليه ويشتهيه • ولما ترهف القوم ولم يرق فى نظرهم ما تخيلوه من أعمال الموتى من حرث وضم وحصد حقول « يارو » الاخـــروية وضعوا تماثيل صغيرة حاملة أدوات الشغل اللازمة منقوشا عليها تعاويذ سحرية ، معتقدين أنها ستحيا فى الآخرة وتؤدى جميع أعمال الميت هناك كلما طلب منه ذلك• أما هذه التماثيل فكانت تعرف باسم « أوشبتى » وهى كلمة مشتقة من فعل « أوشب » ــ أى أجاب ــ فهى لذلك مجيبات عن الميت فى آخـــراه ، ووضـــع القوم العشرات والمئـــات من هذه التماثيل فى قبـــور موتاهم لهذا الغرض • بعد ذلك توهم القوم طرقا للنجاة من العقـــاب الأخروى لأجل آثامهم وذنوبهم الدنيوية فكتبوا احدى التعاويذ أسفل جعل حجرى وضعوه تحت لفائف الجثة المحنطة فوق الثدى ، ظانين أن هذا كاف لاسكات كل صوت مذنب خارج من القلب أمام أزوريس فلا يعرف هذا المعبود ذنوب المتوفى ، واليك ترجمة هذه التعويذة : « أى قلبى ! لاتكن شاهدا ضدى» • وأخذ الكهنة يبيعون للقوم أدراجا بردية مكتوبا عليها تعاويذ من كتاب الموتى وعدة مناظر أخروية وخصوصا المتعلق منها بالبراءة مخبرين العامة أن هذا الدرج يضمن لمن يحصل عليه حكم البراءة فى الآخـــرة • وكان الكتبة يتركون محلا خاليا وسط نصوص ذلك الدرج لكتابة اسم المشترى فيه ، ومنه يتضح أن هؤلاء الكتاب كانوا يكتبون تلك الأدراج قبل معرفة أصحابها •

وبدهي أن هذه العقائد سببت انحطاطا عظيما في الأخلاق الدينية ، لأن الآراء والتخيلات الشريفة التي أدمجت في الديانة المصرية تسممت وانحط قدرها • والسبب في ذلك أن الكهنة سهلوا لأي انسان مهما عظمت آثامه وكبرت جرائمه أن يحصل على حكم البراءة في الآخرة وذلك باقتناء الأدراج البردية المذكورة ، ولذلك انعدم الرادع النفساني وزاد الكسب الكهنوتي من هذه التجارة • ثم تفنن الكهنة في سلب ألباب العامة فوضعوا كتابا سموه « كتاب الدار السفلى » ذكروا فيه أوصاف الكهوف الاثنى عشر الخاصة بساعات الليل والتي تمر عليها الشمس في سياحتها الليلية • ثم وضعوا كتابا آخر لقبوه « بكتاب الأبواب » شرحوا فيه الأبواب والحصون الموصلة لتلك الكهوف بعضها ببعض • لكن هذين الكتابين لم يبلغا منزلة « كتاب الموتى » ومع ذلك فقد حاز الأول بعض الاحترام والتبجيل فنقشت نصوصه على مقابر ملوك الأسرة التاسعة عشرة والأسرة العشرين بطيبة ، ومنه استدل أن تخيلات الكهنة وخرافاتهم صادفت هوى في نفوس الفراعنة فنقشوها على جدر مقابرهم وفضلوها على سواها •

ونحت الأمراء مقابرهم في صخور الجبال وزانوا جدرها بالنقوش الجميلة الخاصة بالآخرة وبالنصوص الموتية ذات الصبغة السحرية ، وأضحت المقبرة أثرا خالدا لصاحبها نقشت فيها ترجمة حياته وخدماته الحكومية وأوضح بها الانعام الذي أسبغه عليه مليكه ، ولذلك كانت مقابر الأمراء بصخور طيبة مرجعا قيما لأخبار تلك العصور وأحوال معيشتها • وهناك واد جبلي خلف تلك المقابر (لوحة ٧٩) اتخذه الملوك جبانة لهم نحتوا في صخوره قبورهم مفضلين هذه الطريقة على الأهرام • وهذه المقابر الملكية تشتمل على عدة سراديب وقاعات واسعة منحوتة في الصخور متصل بعضها ببعض ومنتهية بحجرة كبيرة بها تابوت الملك العظيم • ويبلغ طول المقبرة أحيانا من أولها الى آخرها بضع مئات من الأقدام (شكل ٣٣٠ ولوحة ٨٠) • ويظن أن عمارة هذه المقابر تمثل عمارة الكهوف التي تخيلها قدماء المصريين تخترقها الشمس في رحلتها الليلية في العالم السفلي • وبالجهة الشرقية لهذه القبور غربي طيبة معابد شيدها هؤلاء الملوك العظام شبيهة بالمعابد التي شيدت شرقي الأهرام في الأزمنة السابقة ، وسيأتي الكلام على هذه المعابد فيما بعد • ولم تقتصر هذه الترتيبات على مقابر الملوك والأمراء بل شملت أيضا غيرها الطوائف الأخرى ، ولذلك أضحت المقابر موضع عناية القوم فكثر عمالها وعم شغلها وتخصصت لذلك طوائف عدة منها المحنطون وصانعو التوابيت وأثاث القبر ، واتخذ هؤلاء الصناع حيا خاصا لهم بطيبة كما حصل ذلك

في العهد اليوناني . ثم عملت أهالي الطبقة الوسطى مقابر لها كالمذكورة آنفا الا أنها أقل عناية وقيمة . أما الفقراء فكانوا يؤجرون لموتاهم محلات في مقابر عمومية يدفنونهم بها تحت اشراف كهنة عموميين معينين من قبل الحكومة لتلاوة الدعوات والصلوات عليهم ، وبهذه الطريقة تكدست الومياوات بتلك المقابر . ودفن الفقراء المعوزون موتاهم في الرمل على حافة وادى النيل كما فعل أجدادهم من قبل ، ودفنوا أحيانا تماثيل صغيرة وحقيرة منقوشا عليها أسماؤهم بجوار مقابر الوجهاء ، ظنا منهم بأن هذه التماثيل ربما يحسن عليها ببعض الهدايا والقربان التى تقدم للأمراء فتعيش جثثهم بذلك مستريحة منعمة .



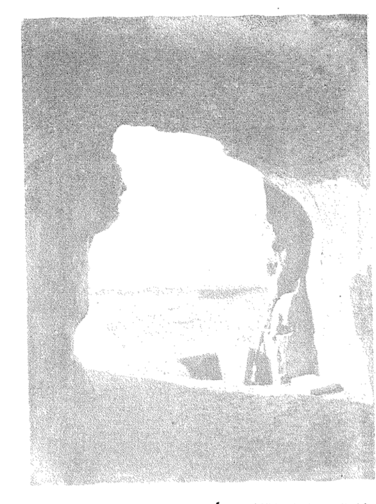
شكل (٣٠)

رسم تخطيطي لمقبرة سيتي الأول بوادى مقابر الملوك بطيبة . الأجزاء المظللة تشير الى درجات السلم والأجزاء المشار اليها بالأرقام من ١ الى ٤ ومن ٧ الى ٩ عبارة عن أروقة . اما الاماكن الاخرى فساحات ذات عمد . وقد عثر على تابوت عظيم لهذا الملك فى الساحة رقم ١٠ ثم نقل بعد ذلك الى بلاد الانجليز وهو بمتحف السير جون سون بلندن .

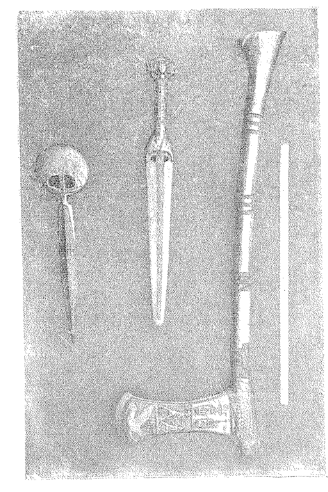
وهكذا تيقظت مصر من نومها تحت ادارة أحمس الأول بعد ما حكمها الهكسوس السنين الطوال واتبعوا معها سياسة الغصب والارهاب واحتقار الاديان والعادات . وقد بدأ أحمس بقطع الأحجار من محاجر طره ومن المحاجر التى قطعت منها أحجار أهرام الجيزة العظيمة ، واستعمل ذلك فى تشييد معابد طيبة ومنف وغيرهما ، وقد استخدم لذلك الثيران التى استولى عليها من السوريين فى آسيا ، لكن جميع أبنية هذا الملك تلفت وانعدمت . وقد أهدى هذا الملك معبد الكرنك عدة أدوات معدنية ثمينة وبديعة وبنى سفينة جديدة من خشب الأرز الذى استولى عليه من أمراء لبنان لتكون وسيلة لعبور النيل . وتلاحظ مآثر هذا الملك فى جميع أعمال ملوك الأسرة الثامنة عشرة فاليه يرجع الشرف فى تأسيس هذه الأسرة بطريقة متينة . ومع أنه حكم حوالى اثنتين وعشرين سنة فقد توفى غالبا شابا (حوالى سنة ١٥٥٧ قبل الميلاد) وبقيت أمه على قيد الحياة الى السنة العاشرة من حكم ابنه وولى عهده أمنحتب الأول ودفن فى قبر بجوار ابنه (١٣) بجبانة الأسرة الحادية عشرة الملكية بالجزء الشمالى لسهل طيبة وقد محيت آثار هذا القبر منذ مدة طويلة ، وعثر ماريت على حلى أم أحمس المذكور ويظهر أن اللصوص سرقوها فى العصور الغابرة فى طريق مقبرة قريبة . وتوجد الآن موميــاء أحمس الأول وحليه بمتحف بالقـــاهرة .

---

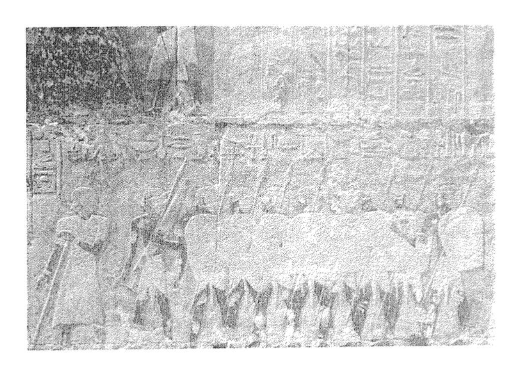
(١٣) Masp. Mom, roy., 534.



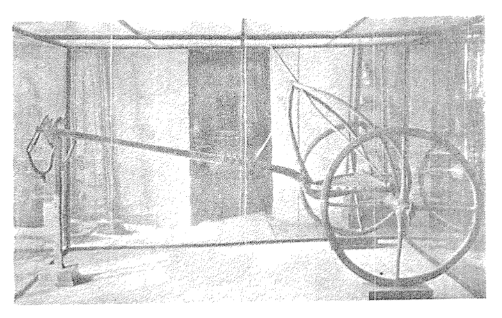
شكل ٧٣ ـ منظر لمدينة الكاب المسوّرة مأخوذ بآلة التصوير الشمسى لمدخل أحد المقابر الصخرية الشرقية المشرفة على المدينة



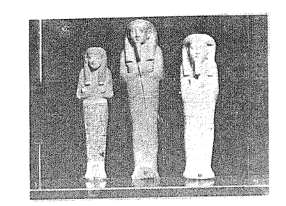
لوحة ٧٤ ـ أسلحة الملك أحمس الأول مصنوعة من البرونز مزخرفة برسوم ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة (دار تحف القاهرة).



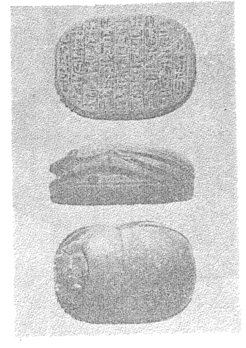
لوحة ٧٥ ـ إحدى وحدات الجيش المصرى مسلحة بالحراب من عهد الامبراطورية سافرت ضمن البعثة الحربية التى أوفدتها الملكة حتشبسوت إلى بلاد البونت (الصومال) (مأخوذة من نقوش بارزة على جدر معبد هذه الملكة بالدير البحرى بطيبة)



لوحة ٧٦ ـ صورة لعربة من عهد الامبراطورية تامة التركيب مصنوعة من الخشب والبرنز والجلد (دار متحف فلورانسا).



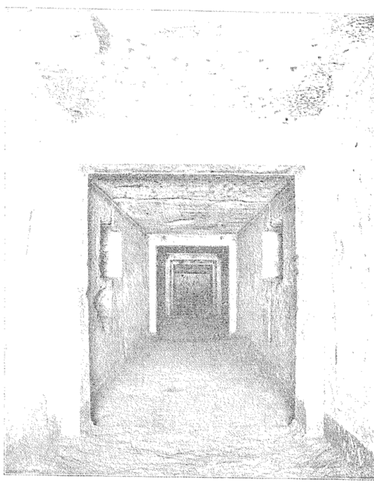
لوحة ٧٧ ـ تماثيل صغيرة للاجابة عن الميت فى الآخرة يقال لها باللسان القديم «أوشبتى» وهذه تقوم بالخدمة التى يطلب من صاحبها القيام بها وقتئذ (دار متحف الفنون الجميلة بشيكاجو).



لوحة ٧٨ ـ تمثال لجعران وجد فوق قلب اسمخب رئيسة سيدات أمون المقدسة (متحف شيكاجو).



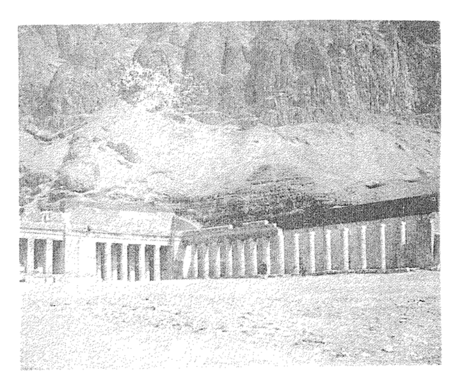
لوحة ٧٩ ـ منظر لجهة من وادى مقابر الملوك بطيبة يشاهد فى الجهة اليمنى من منتصف الصورة مدخلان لمقبرتين.



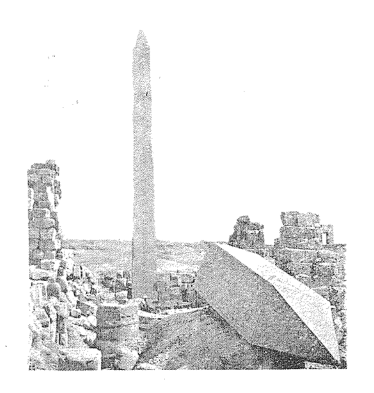
لوحة ٨٠ ـ دهليز مقبرة رمسيس الخامس بطيبة.



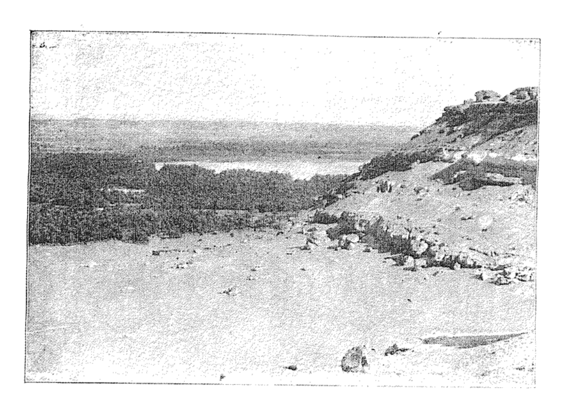
لوحة ٨١ ـ تمثال جالس يصور سنموت حظى الملكة حتشبسوت حاضناً كريمة الملكة المدعوة نفرورع بين ركبتيه يلاحظ كشط اسمه على القدم اليمنى.



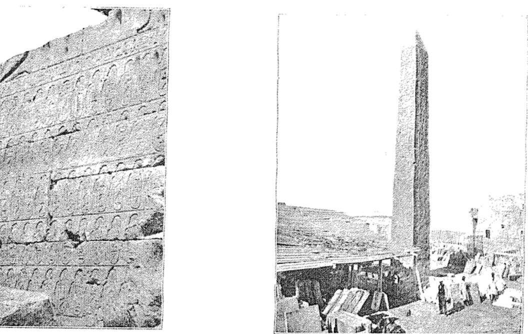
لوحة ٨٢ ـ سلسلة العمد الشمالية المتصلة بالدهليز الأوسط لمعبد الملكة حتشبسوت المسمى بالدير البحرى بطيبة.



لوحة ٨٣ ـ مسلات الملكة حتشبسوت بالكرنك ويبلغ ارتفاع المسلة القائمة سبعة وتسعين قدماً ونصف قدم.



لوحة ٨٤ - منظر لواحة أمون المعروفة الآن بسيوه (مأخوذة عن شتيندورف).



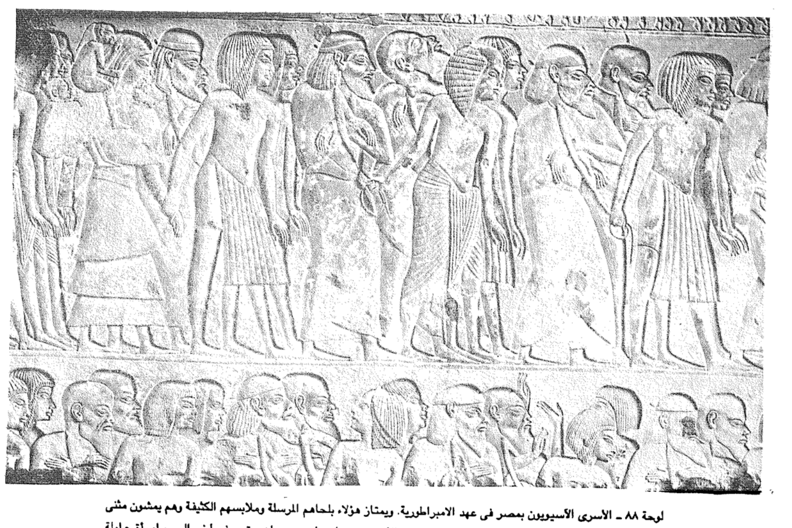
لوحة ٨٥ - مسلة تحوتمس الثالث كما كانت مقامة بالاسكندرية قبل نقلها إلى نيويورك.



لوحة ٨٦ - قائمة بأسماء المدن الآسيوية التى استولى عليها تحوتمس الثالث على جدار معبد الكرنك.



لوحة ٨٧ ـ أحد فراعنة الامبراطورية المصرية يقابل رسله الأسيويين الحاملين جزيتهم. ويتقدم الرسل موظفون مصريون مرتدون أزياء بيضاء، ويمتاز الأسيويون بملابسهم المزخرفة وبلحاهم المرسلة.



لوحة ٨٨ ـ الأسرى الأسيويون بمصر فى عهد الامبراطورية. ويمتاز هؤلاء بلحاهم المرسلة وملابسهم الكثيفة وهم يمشون مثنى مثنى موثوقى الأيادي فى وثائق خشبية، وبين كل اثنين من الأسيويين حارسان مصريان. وترى فى أخر الرسم امرأة حاملة لأطفالها. وتكملة هذا الرسم واردة فى شكل رقم ١١٣ من هذا الكتاب (متحف ليدن).



لوحة ٨٩ ـ صورة شمسية لمومياء تحوتمس الثالث (دار المتحف المصرى).



لوحة ٩٠ ـ صورة شمسية لمومياء امنحتب الثانى ابن تحوتمس الثالث. ولاتزال هذه المومياء موجودة بقبرها بطيبة.



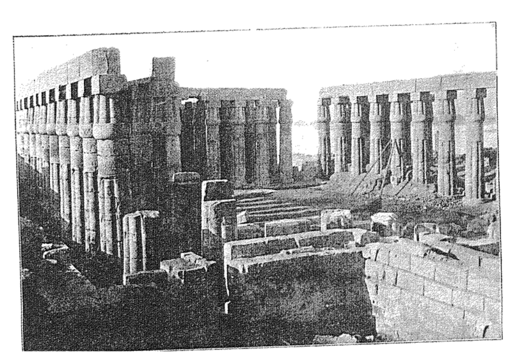
لوحة ٩١ ـ صورة شمسية لمومياء تحتمس الرابع بن امنحتب الثانى (دار تحف القاهرة).



لوحة ٩٢ ـ أحد خطابات تل العمارنة رقم ٢٩٦ مذكور فيه قائمة بهدايا تادوخيبا بنت ملك متاني المدعو دوشراتا (متحف برلين).



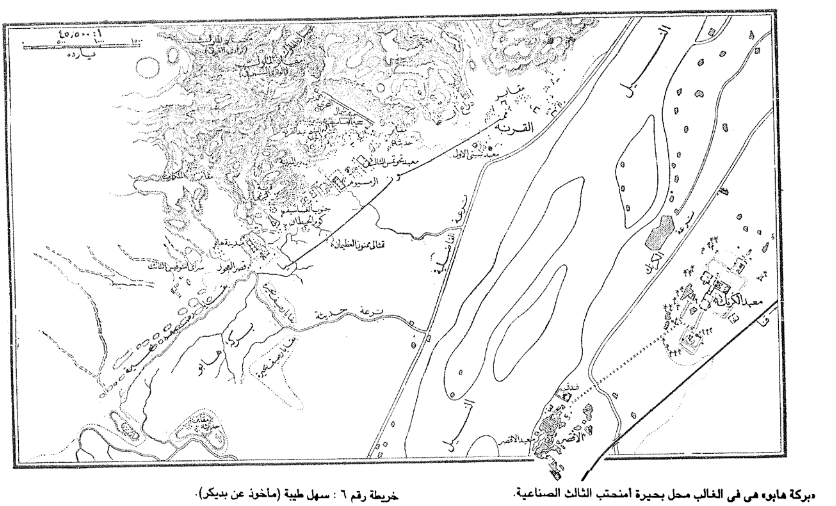
لوحة ٩٣ ـ جزء من إناء وجد بجزيرة كريت عليه نقوش محفورة. يشاهد عليه رسم لاحتفال وفى وسط الاحتفال كاهن مصرى يعزف بآلة موسيقية فى مقدمة فتيان كريت. ويرجع تاريخ هذا الإناء إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد.



لوحة ٩٤ ـ ساحة أمنحتب الثالث ذات العمد التى على شكل باقات براعم البردى (معبد الأقصر).



لوحة ٩٥ ـ ممر فسيح أمام معبد الكرنك العظيم مقام على جانبيه تماثيل كباش عديدة. ويمتد هذا الممر من مدخل المعبد (القريب من الناظر) إلى نهر النيل (البعيد من القارىء).



خريطة رقم ٦ : سهل طيبة (مأخوذ عن بديكر).

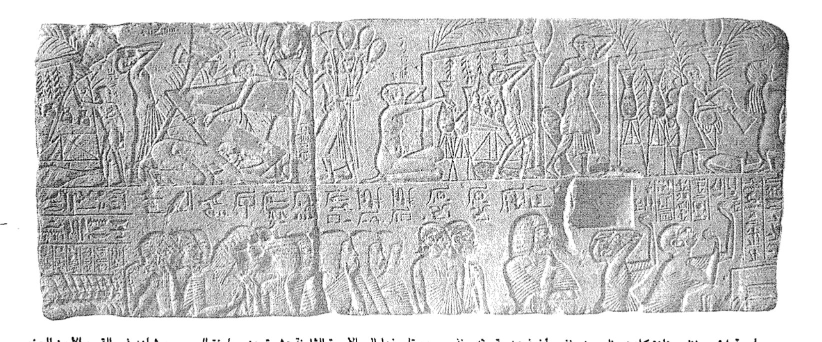
«بركة هابو» هى فى الغالب محل بحيرة أمنحتب الثالث الصناعية. أما سراى هذا الملك فتقع شمالها ويستدل على موقع المعبد الجنائزى لذلك الملك ايضاً بمحل «تمثالى ممنون العظيمين» وكان هذان التمثالان مقامين على مدخل المعبد المذكور. راجع ايضاً شكل رقم ٩٧.



لوحة ٩٦ ـ عمد بهو معبد امنحتب الثالث الذي لم يكمل بناؤه. وكان يجب ان يقام على جانبى هذا الصحن رواقان آخران ذوا أعمدة صغيرة. أما الحائط القصير المقام على جانبى هذا الصحن فقد شيده خلفاء إخناتون الذين عجزوا عن إتمام مشروعه العظيم.



لوحة ٩٧ ـ تمثالان ضخمان من الحجر الرملى يمثلان أمنحتب الثالث ويعرفان الآن بتمثالى ممنون. ويقع هذا التمثالان فى سهل طيبة الغربى وكانا محاطين قدما بمعبد كبير خاص لتقديم القرابين وإقامة الصلوات لأمنحتب الثالث. لكن لما حكم منتاح هدم المعبد. وتشاهد خلف التمثالين صخور طيبة الغربية حاوية كثيراً من المقابر القديمة.



لوحة ٩٨ ـ منظر جنازة كاهن عظيم من منف مأخوذ عن مقبرته بمنف، يرجع تاريخها إلى الأسرة الثامنة عشرة، وهى بارزة الرسوم، ويشاهد فى القسم الأيمن للجزء الاسفل رجال مشيعون للجنازة وهم خلف النعش، ويرى فى الجزء الأعلى الخدم يبنون أكواخ المأتم (متحف برلين).



لوحة ٩٩ ـ تمثال أسد وجد بمعبد أمنحتب الثالث بجهة صلب. نقله النوبيون بعد ذلك إلى نبته (لندن).

لوحة ١٠٠ ـ كرسي من عهد الامبراطورية مصنوع من الابنوس ومطعم بالعاج (لندن).



لوحة ١٠١ ـ مقدم عربة تحوتمس الرابع الرسمية عليها طبقة من الجص فوقها رسوم بارزة لمواقع حربية كشفها المستر تيودور ديفز بطيبة (القاهرة).

الفصل الرابع عشر

توطيد أركان المملكة
سطوع شمس الامبراطورية

لم يحن الوقت لملوك امبراطورية أن يقوموا بأعمالهم العظيمة الخارجية لأن وادى النيل من الشلال الثانى الى البحر الأبيض المتوسط لم يكن ثابت الادارة والنظام ، والصناعة ، فلم يتمكن ملوكه من التطلع الى ما وراء حدود مملكتهم • وليلاحظ أن انفصال النوبة عن مصر مضى عليه مدة طويلة ، وأن وجود الثوار جنوبى القطر جاء بمثابة عقبة كأداء أمام تقدم النفوذ المصرى فى السودان ، فقبائل الأعداء التى سكنت جنوبى القطر أصبحت الآن تحت رياسة ملك منها ، ولذلك وجد أحمس الأول نفسه أمام قوة معارضة منظمة لا يسهل اخضاعها بغزوة واحدة كما حصل فى عهد الرومان • وترجع صعوبة اخضاع الأعداء الى سهولة انسحابهم الى داخل الصحراء الشرقية كلما وجه نحوهم أحمس الأول قوة مصرية ثم الى رجوعهم ثانية لمناوأته ومشاكسته اذا آبت القوات المصرية الى وطنها • لذلك اضطر أمنحتب الأول بن أحمس الأول الى أن يغزو النوبة فوصل الى حد الدولة الوسطى بجهة الشلال الثانى حيث شيد الفراعنة المسمون باسمى أمنمحات وسنوسرت معابد وهياكل أتلفها الأعداء بعدهم وتركوها فى حالة خراب ودمار • وكان فى معية أمنحتب الأول وقتئذ قائدان عظيمان يعرفان باسم أحمس صحباه فى معظم أعماله وفتوحاته النوبية ، وقد قال أحدهما المدعو أحمس بن ابانا : « لقد أسر جلالة الملك رئيس الأعداء وسط جنده بالنوبة » ، فاستنتجنا من ذلك أن الملك سحق الأعداء وكسر شوكتهم وقتئذ • واشتهر هذان القائدان فى الحروب فأسروا عددا كبيرا وأظهروا شجاعة واقداما كافأهما الملك عليهما جزيلا • وصار قسم النوبة الشمالى من ذلك الوقت تحت اشراف حاكم مدينة الكاب التى أصبحت فى الوقت نفسه الحد الشمالى لذلك الاقليم الممتد من الكاب شمالا الى الواوات جنوبا ،

ومن ثم صار حاكم هذا الاقليم يسافر شمالا كل سنة حاملا جزية الجهات التى تتبعه ليقدمها لخزينة الملك بطيبة ٠

ولما بلغ أمنحتب الأول اقليم الشلال الثانى اعترى مملكته خطر عظيم فى جهتها الشمالية (غربى الدلتا) فاضطر الى الرجوع مسرعا ، وقد قال احمس بن ابانا مفتخرا انه تمكن بمهارته وذكائه من ترحيل جلالة الملك فى سفينة من الشلال الثانى الى القطر المصرى فى يومين (وهذه مسافة تبلغ مائتى ميل تقريبـا) ٠ والظـاهر أن الليبيين اغتنموا فرصة وجود الهكسوس بمصر فنظموا أنفسهم ودبروا شـؤونهم كعادتهم طمعا فى غزو الدلتا ، ولكن أحمس بن ابانا (عمدتنا الوحيد فى هذا التاريخ) لم يذكر لنا موضع الخطر ، ومع هذا فلا يمكن أن يكون الا من جهة ليبيا ٠ وبدهى أنه لمـــا قوى ساعد الليبيين لم يجد أمنحتب الأول وسيلة للخلاص منهم الا سحقهم وغزو بلادهم ، لكننا لم نعلم عن أمر المعارك التى حصلت وقتئذ سوى ما أخبرنا به أحمس بن نخبت من أنه قتل ثلاثة أعداء وقطع أيدى كثيرين من الأسرى وأن جلالة الملك كافأه طبعا على ذلك جزيلا ٠ ولما زال الخطر عن حدود مصر وانضمت النوبة اليها وجه أمنحتب الأول همه نحو غزو الشام ٠ ومن دواعى الأسف أنه لم تصل الينا أخبار عن تلك الغزوات الآسيوية ولكن يظهر أن الجيوش المصرية وصلت وقتئذ الى نهر الفرات ، لأن الملك الذى أعقب أمنحتب الأول فى الملك افتخر فى أوائل حكمه بان مملكته امتدت الى الفرات ، مع أنه لم يكن قد قام فيها بحركة حربية وقتئذ٠ وسواء أكانت الثروة العظيمة التى أصبحت فى أيدى هذا الملك نتيجة هذه الغزوة أم أتت اليه من جهة أخرى فقد شيد مبانى عظيمة بطيبة ، منها المعبد الخاص بقبره والمعبد الجميل الذى أقامه عند مدخل الكرنك والذى أتلفه تحوتمس الثالث بعد ذلك (١) ٠ وقد قال المهندس الذى شيد هذه المبانى (التى تلفت كلها الآن) ان الملك أمنحتب الأول توفى بطيبة بعد أن حكم عشر سنوات على الأقل ٠

ولم يثبت لنا الى الآن اذا كان أمنحتب الأول ترك ولدا وراثا ، انما الثابت أن الذى خلفه هو تحوتمس الأول ابن امرأة صلتها بالأسرة المالكة غير جلية ٠ وكان وصول تحوتمس الأول الى عرش مصر عن طريق اقترانه بأميرة مصرية تدعى أحموس ، وبهذه الوسيلة أعلن نفســـه ملكا على مصر بمجرد وفاة أمنحتب الأول وذلك فى شهر يناير سنة ١٥٤٠ قبل الميلاد أو سنة ١٥٣٥ قبل الميلاد ٠ وكان لاعلان توليته الحكم بالنوبة شان كبير

---

(١) مجلة المعهد العلمى المصرى ـ مجموعة السنة الرابعـة ـ العـدد الثـالث صحيفة ١٦٤ ـ ٥ ٠

فنقش موظفو الحكومة هذا الخبر على الأحجار جهة وادى حلفا وكوبان وغيرهما والموظف الذى قام بهذا العمل كان من أصحاب تحوتمس المذكور لأن الملك رقاه الى وظيفة جديدة مهمة بعد اعتلائه العرش ، ولما تعذر على حاكم الكاب حكم النوبة وجمع جزيتها لكثرة ما تطلبه ذلك الاقليم من العناية عين الملك حاكما عاما عليه أشبه بمندوب سام لقبه « حاكم البلاد الجنوبية وابن الملك المعين على كوش » مع أنه لم يكن دائما من أبناء الملك ولا منتميا الى الأسرة المالكة ، وجرت العادة أن يعمل احتفال بهذا التعيين يحضره الملك ويقدم فيه أحد موظفى المالية ختم الحكومة للمندوب السامى قائلا : هذا ختم فرعون الذى ولاك حاكما على القطر الذى بين مدينتى الكاب ونبتة » ومعنى ذلك أن سلطة حاكم النوبة بلغت الشلال الرابع ٠ ومعروف أن ما بين الشلالين الثانى والرابع هو المسمى على الآثار بلاد كوش ، وهذه البلاد لم تكن محكومة وقتئذ بحكومة أهلية أو ادارة ملكية منظمة ، لكنها كانت تحت سلطة رؤساء قبائلها كل رئيس يسيطر على قبيلته ٠ ولم يكن سهلا اخضاع هؤلاء الرؤساء سريعا اذ تطلب هذا الأمر من المصريين حوالى مائتى سنة ، ومع ذلك فقد ورد وقتئذ على الآثار ذكر لوجود رؤساء قبائل كوش ورئيس الواوات جهة ابريم وقد سمح المصريون لرؤساء تلك القبائل بالاحتفاظ الاسمى بمركزهم الادارى لكنهم لم يستمروا مدة طويلة بل استعيض عنهم ضباط اداريون مصريون بالتدريج ٠ ولم يكن النصف الجنوبى لاقليم السودان المصرى أيام تحوتمس الأول ساكنا هادئا ، بل كان مضطرب الأمن والسلام ، ولذلك كانت الصعوبات التى صادفها تحورع — وهو أول مندوب سام فيها — عظيمة وشاقة للغاية ٠ وكانت أيام تحورع كلها تعبا وعناء ، والسبب فى ذلك أن النوبة كانت وقتئذ عرضة لغارات قبائل البدو للجهات الجبلية المجاورة على مدن وادى النيل وهذه الغارات كانت عقبة كئودا فى طريق استتباب الأمن وبسط السلطة المصرية على تلك الجهات ٠ ولما رأى تحوتمس الأول أن تحورع عجز عن معالجة تلك الحالة المستعصية ذهب هو نفسه هناك فى أوائل السنة الثانية من حكمه ليضع حدا لتلك الاضطرابات فوصل الى الشلال الأول فى شهر فبراير أو مارس وهناك وجد الطريق المائى مسدودا بالصخور كما كان منذ حكم الهكسوس فلم يصرف وقتا طويلا فى فتحه بل صمم على السلوك من طريق آخر بمساعدة الأميرال أحمس بن ابانا الذى قاد سفينة جلالته بحكمة وروية وقت عبورها ذلك المضيق الخطير وقد كافأه الملك عن هذا العمل بسخاء ٠ ووصل الملك ناحية تانجور فى أوائل أبريل على بعد خمسة وسبعين ميلا من الشلال الثانى وقد وصف لنا أحمس بن ابانا المعركة التى دارت رحاها فيما بين الشلالين الثانى والثالث فقال : « ان فرعون مصر حارب هو نفسه

رئيس النوبيين فسدد أول سهامه نحو هذا الرئيس فأصابه وألقاه على الأرض سريعا ، بعد ذلك هزم الجيش النوبى تماما وأسر منه الكثير » • وروى القائد المصرى الآخـــر المدعو أحمس بن نخبت أنه أسر من الأعداء ما لا يقل عن خمسة ثم هبط منسوب النيل فاضطر الى الزحف فى معظم الحالات برا ومع ذلك فقد سار الملك حتى أدرك الشلال الثالث • وكان أول الفراعنة الذين دخلوا ذلك المكان المعتبر مدخل اقليم دنقلة الملقب بجنة أعالى النيل • ولا يخفى أن هذا الاقليم خصب للغاية وفيه يجرى النيل لمسافة مائتى ميل حتى الشلال الرابع بلا عائق فى سيره • ونصب الملك بتلك الجهات خمسة أحجار أثرية وصف عليها غزواته وانتصاراته، كما شيد على جزيرة تومبوس قلعة ماتزال آثارها باقية الى الآن، وعين فيها حامية من الجيوش الغازية • وفى شهر أغسطس من السنة نفسها (أى بعد مرور خمسة أشهر من وصول الملك الى تانجور) بلغ تحوتمس الأول تومبوس ونصب فيها لوحا حجريا افتخر فيه بأنه الملك المهيمن على الأقاليم الشاسعة المبتدئة من تومبوس جنوبا والمنتهية بوادى الفرات شمالا ، ولكن يلاحظ أن الملك لم يقم بغزوات آسيوية تؤيد هذا الادعاء • ووصل الى الشلال الأول بعد مضى سبعة أشهر وكان معلقا جثة الزعيم النوبى المقتول من رجليها بمقدم سفينته • ويرجح أن بطء الملك فى رجوعه الى مصر كان بمناسبة قيامه بمشروعات نافعة منظمة بتلك الجهات وقت مروره بها • ولهبوط منسوب مياه النيل فى شهر أبريل ، كان ذلك الوقت أوفق الفرص لفتح مجرى السفن القديم بين صخور الشلال الأول ، فعهد الملك الى والى النوبة تحورع بالقيام بهذه المأمورية • وقد نصب هذا الوالى هناك ثلاثة أحجار أثرية شرح فيها أعماله ومشروعاته الناجحة ، أقام حجرين منها فى جزيرة السهل وأقام الثالث على شـــاطىء النيل المقابل ، ثم اخترق الملك ذلك الطريق بسفينته فى وسط احتفالات النصر معلقا رئيس النوبة بالكيفية المذكورة حيث بقيت كذلك الى أن وصل الى مدينة طيبة •

وبعدما أخضع تحوتمس الأول بلاد النوبة تماما وجه همته نحو آسيا للغرض نفسه • وليلاحظ أن غزوات أمنحتب الأول الأسيوية هى التى جعلت تحوتمس الأول يفتخر ببسط ملكه على البلاد الأسيوية حتى نهر الفرات • والمعروف أن جزية تلك البلاد لم ترسل باستمرار كجزية النوبة، ومع ذلك فقد كان الســـلام والسكون والخضوع مخيما على تلك الأقاليم الأسيوية •

وليلاحظ أن جغرافية الأراضى شرقى البحر الأبيض المتوسط لا تسمح بجمع كلمة أهلها واتحادهم لتكوين وطن واحد منهم ، فالجبال هناك كثيرة وكذا التلال والوديان ، ولذلك تجد تلك الجهات مجزأة جغرافيا الى وحدات

عديدة • فعلى طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط يجد الناظر سلسلتين من الجبـال تخترقان تلك البـلاد وتعرفان بسلسلتى جبـال لبنان الغربية والشرقية • أما السلسلة الغربية فتتعرج بعض تعرجات ثم تنتهى جنوبا الى تلال مقـاطعة يهوذا التى تتـدرج الى صحراء سيناء جنوبى فلسطين ، وتبتدىء من هذه السلسلة جنوبى جهة جزرل (Jezreel) سلسلة جبال أخرى تعرف بجبال الكرمل (Carmel) تتجه الى البحر الأبيض المتوسط• أما سلسلة جبال لبنان الشرقية فتتجه جنوبا وشرقا مع بعض اعتراضات فى السير هنا وهناك مارة شرقى البحر الميت ومتصلة هناك بجبال موآب ثم تنتهى جنوبا الى هضبة صحراء شبه جزيرة العرب الرملى • وفى شمالى ما بين سلسلتى جبال لبنان واد خصب يخترقه نهر العاصى أو الأورونط، وهو السهل المتسع الوحيد فى سوريا وفلسطين لا تتخلله جبال ولا تلال ويمكن أن تنشأ فيه مملكة مستقلة قوية • أما شـــاطىء البحر الأبيض المتوسط فتعزله عن البلاد الداخلية سلسلة جبال لبنان الغربية وهو لذلك صالح لأن تسكنه أمه بحرية تجارية • أما فلسطين الواقعة جنوبيه فغير صالحة لأن تكون وطنا مستقلا منيعا لعدم وجود موانىء بحرية قوية على شاطئها ولكثرة أراضيها المجدبة ، زد على ذلك أنها معترضة بجبال الكرمل وبوادى نهر الأردن والبحر الميت • وبشرقى فلسطين سلسلة جبال تنتهى بالصحراء العربية الكبرى الا فى جهتها الشماليـة حيث تتصـل بوادى نهر الأورونط وذلك قرب اتصال هذا النهر بنهر الفرات • فى هذا المكان يجد القارىء أن النهرين يقتربان بعضهما من بعض ثم يبتعدان فيتجه نهر العاصى شمالا نحو البحر الأبيض المتوسط وينحدر الفرات جنوبا نحو بابل وخليج فارس (خريطة رقم ٧) •

وسكان هذه البلاد الأسيوية ساميون لا يبعد أن يكونوا من مهاجرى صحراء العرب ، والمعروف أن مثل هذه الهجرة تكررت كثيرا فى العصـــور التاريخيـــة ، ويقال لهؤلاء القوم الحالين بالجهات الشـــمالية الأراميون وبالجهات الجنوبية الكنعانيون • ولم يبد هؤلاء القوم اهتماما ولا كفاية للحكم كما أنه لم يكن لديهم أقل دافع نحو الاتحاد والتضامن • ويلاحظ أن انقسام تلك البلاد الى عدة أجزاء بالجبال والتلال صعب على الأهالى التعامل وجمع الكلمة فنشأ فى كل قســم امارة صغيرة مستقلة يحكمها أمير وهى تشمل مدينة كبيرة (مقر الحـكم) وما يحيط بها من الحقول والقرى الصغيرة • ولم تستقل الامارات بعضها عن بعض فى الحكم فقط بل فى الديانات أيضا ، فكان لكل امارة معبود خاص يقال له « بعل » ـ ومعناه السيد ـ نسب له فى أغلب الأحيان زوجة أو « بعلة » ويشاهد ذلك بوضوح فى جبيل (ببلوس) • واعتيد بين هذه الامارات الشقاق

والنزاع طمعا فى نهب الأمتعة وضم الأراضى اليها • وأهم هذه الامارات قادش نواة مملكة الهكسوس على نهر الأورونط ، ولهذا الموقع ميزة جغرافية عظيمة ساعدت قادش على بسط نفوذها بسهولة على البلاد المجاورة له ، والسبب فى ذلك اشرافها على الطريق الشمالى الموصل الى داخلية سوريا وعلى الطريق التجارى الموصل الى مصر والبلاد الجنوبية الذى يتفرع منه طريق آخر الى نهر الفرات ثم الى بابل • ولقرب قادش من النهاية الشمالية لسلسلتى جبال لبنان تمكنت هذه الامارة من الاشراف أيضا على الطريق الموصل داخلية سوريا بالبحر الأبيض المتوسط والمتبع سير النهر الكبير (Eleutheros) (راجع خريطة رقم ٧ وكتاب المؤلف عن معركة قادش) • كل هذه الميزات سهلت لقادش اخضاع الامارات الآسيوية وضمها تحت سلطتها ، وبهذه الطريقة نشأت مملكة الهكسوس التى ألمعنا اليها سابقا • وسنرى فيما بعد أن هذه الامارات ذادت عن حوضها مدة تقرب من الجيلين الى أن سحقها تحوتمس الثالث فى آخر الأمر بجيوشه الجرارة •

نعم ان هذه الامارات لم تكن ميالة بطبيعتها الى تحسين أنظمتها الادارية وتوحيد كلمتها ولكنها كانت على جانب عظيم من الحضارة والمدنية فى مسائل أخرى •ودليلنا على ذلك مملكة الهكسوس فقد علمت المصريين الفنون الحربية وصناعة المعادن والأسلحة الراقية والاكثار من العجلات وسائر أشكال الأوانى المعدنية • ولشدة البرد فى تلك الجهات برع أهلها فى نسج الملابس الصوفية وصنعها وعمل الملابس منها بشكل بديع وبأثمان باهظة • واشتهر هؤلاء الساميون بكثرة تجارتهم مع البلاد الأجنبية ، وكان لكل بلد من بلدانهم سوق كالموجودة الآن•وهاجر بعض الأهالى من داخلية البلاد الى شاطىء البحر الأبيض المتوسط وأسسوا هناك مملكة فينيقيا ، وابتدءوا صيادين بحريين ثم ارتقوا فصاروا تجارا بحريين مهرة ، وأخذت سفنهم تنقل مصنوعاتهم الى جزيرة قبرص حيث استخرج بعضهم معدن النحاس • ثم زحف الفينيقيون على شاطىء آسيا الصغرى فاستولوا على رودس وجزر الأرخبيل اليونانى ، ثم أسسوا محطات تجارية لهم فى كل ميناء تصلح لذلك على ساحل آسيا الصغرى الجنوبى وعلى جزر اليونان وأرض اليونان نفسها • وبهذه الطريقة وزع الفينيقيون مصنوعاتهم على سكان تلك الجهات حتى صارت لهذه المصنوعات قيمة تذكر فى الأسواق • وبدهى أنه كلما كثرت تجارتهم ازدادت ثروتهم فنشأت بالبلاد مدن غنية عظيمة مثل صور (Tyre) وصيدة (Sidon) وجبيل (Byblos) وأرواد (Arvad) وبطرون (Simyra) ، وكانت كل مدينة من تلك المدن تحت ادارة أسرة قوية • أما مركز فينيقيا التجارى فقد استمر منذ

ظهور الامبراطورية المصرية حتى عهد هومر الذى ذكرهم فى أشعاره الشيقة لأن هؤلاء القوم كانوا وقتئذ مضربا للأمثال · ولم نهتد للآن الى أقصى مكان وصلت اليه تجارة الفينيقيين ولكنه لا يبعد أنهم أسسوا مراكز تجارية جهة قرطاجنة والأندلس · والمعروف عنهم أنهم نشروا « الحضارة اليونانية » فى سمالى البحر الأبيض المتوسط وأنهم كانوا حلقة الاتصال بين الحضارتين المصرية واليونانية · وأطلق المصريون اسم « كفتيو » على اليونانيين الذين كانوا يحضرون الجزية والهدايا لفرعون مصر · ولكثرة التعامل التجارى بين هؤلاء القوم والمصريين بالسفن الفينيقية أطلق المصريون اسم « سفن كفتيو » على سفن فينيقيا · ولم نعرف للآن بالضبط وطن « الكفتيو » ولكن المعروف أنهم كانوا منتشرين فيما بين شاطىء آسيا الصغرى الجنوبى شرقا وجريرة كريت غربا · وقد أطلق المصريون على تلك الأقاليم الشمالية اسم « الجزر البحرية » ظنا منهم أن آسيا الصغرى عبارة عن جزر صغيرة مثل الجزر المجاورة وهذا طبعا نتيجة جهلهم بداخلية تلك الجهات · واعتقد المصريون أن نهر الفرات ينبع شمالى سوريا من مستنقعات محاطة « بدائرة المحيط الأعظم » الذى هو نهاية أراضى العالم ·

وقد استفادت مصر كثيرا من معارف علوم الاقليم المدعو « سوريا — فلسطين » ، مع أنه كان تحت سيطرتها الفنية والصناعية ، ولكون الحكومة المصرية أرقى نظاما من الامارات الآسيوية ، كانت لمملكة النيل هناك هيبة واحترام منذ أقدم الأزمنة · زد على ذلك أن وجود القوات المصرية على أبواب آسيا كان كافيا لاخضاع الضعيف من هذه الامارات الآسيوية · والمعروف أن أهالى هذه البلاد السامية الغربية لم ينفردوا بفن أو صناعة ، لكنهم برعوا مع ذلك فى تقليد مصنوعات غيرهم وعدلوها بشكل يلائمهم ، فوسعت بذلك مشروعاتهم الصناعية والتجارية كثيرا ، وأصبحت ترى صادرات الفينيقيين الواردة الى بلاد شرقى البحر الأبيض المتوسط مصبوغة دائما بالذوق المصرى · ومما ساعد على انتشار الفن المصرى وذوق أهالى النيل فى أوربا وبلاد اليونان تلك المصنوعات المصرية الحرة التى كان يتاجر بها هؤلاء الفينيقيون فى هذه الجهات · هذه هى الطريقة التى انتشرت بها حضارة الشرق الى جنوبى وغربى أوربا · واعلم أن المدنية البابلية لم تكن واضحة فى مصنوعات سوريا وفلسطين لكن وجودها كان غير مجحود · والمعروف أن تجارة بابل تدخلت كثيرا فى البلاد غربيها منذ امبراطورية سرجون ملك آكاد القصيرة العمر التى يرجع تاريخها الى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، ونجم عن ذلك ادخال الخط المسمارى البابلى فى سوريا وفلسطين ، وقد استمر استعمال هذا الخط فى تلك البلاد مدة طويلة · والسبب فى سرعة انتشار هذا الخط بتلك الجهات يرجع

الى أن أهلها قوم ساميون ذوو لغة متشابهة كثيرو المعاملة التجارية ، تلك المعاملة التي كان لها التأثير نفسه في نشر الخط الفينيقي ببلاد اليونان . وليلاحظ أن الخط المسماري لم ينتشر استعماله بين الأقوام السامية فقط بل ظهر بين الحيثيين أيضا وأهل مملكة متانى اللذين ليسا من أصل سامى ، ولذلك أصبح اقليم سوريا وفلسطين مجمع المدنية المصرية والآشورية بطريق ودى أولا ، لكنه لم يدم طويلا ، فنشأ عنه تشاحن كبير أدى الى الاحتكام الى حد الحسام . والى هذا السبب تعزى الحروب التى نشبت بين أهالى الدجلة والفرات من جهة،ومصر من جهة أخرى فكلا الطرفين كان يطمع فى تملك سوريا وفلسطين ، ونجم عن هذا التشاحن أيضا أن معظم المعارك الحربية حصلت فى الأقاليم اليهودية حتى انمحى الوطن اليهودى ولم يعد له أثر على مدى الدهر .

وحوالى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ظهرت لأول مرة فى التاريخ على حدود المملكة المصرية الشمالية قبائل حربية آرية زحفت واستوطنت أعالى الفرات . ودلتنا الآثار أنه فى غرة أيام الامبراطورية المصرية كانت تلك القبائل قاطنة فى منحنى نهر الفرات الكبير القريب من البحر الأبيض المتوسط حيث أسست مملكة تعرف باسم متانى . والمعروف أن هؤلاء الأقوام أول الآريين الذين وصلوا الى تلك الجهات فى التاريخ القديم . أما أصل هؤلاء القبائل فمن الأقاليم التى هى خلف الجبال الشمالية الشرقية حيث ينبع نهرا (سيحون وجيحون) . بعد ذلك امتد نفوذ متانى حتى بلغ تونب الواقعة على نهر العاصى غربا ومدينة نينوى شرقا.ولما عظم نفوذ هذه المملكة وكبر بأسها أصبحت عقبة فى سبيل سلطة بابل بآسيا الصغرى لأن مملكة متانى مرتكزة على ظهر الفرات ، أى على الطريق الموصل بابل بسوريا وفلسطين ، ولذلك كانت متانى من أسباب اضمحلال بابل . أما آشور فكانت مملكة صغيرة وقتئذ ، لا تشمل الا مدينة كبيرة حديثة ومع ذلك فقد أخذت تتهيأ تدريجا لقتال بابل . وهكذا تيسر لفراعنة مصر بذلك أن يوطدوا أقدامهم بآسيا ، لأن العقبات هناك ذللت وتم بذلك بسط النفوذ المصرى على تلك البلاد المترامية الأطراف .

وصمم تحوتمس الأول على أن يخمد ثورة سوريا وقد استمرت مدة طويلة ، وأن يخضعها كما أخضع بلاد النوبة . ومن دواعى الأسف أننا لم نعثر على الرواية الرسمية لتلك العمليات الحربية ولكن الضابطين النشيطين المعروفين باسم أحمس والمنتمين لمدينة الكاب تركا لنا أخبارا مختصرة عن هذه الغزوات لاشتراكهما فيها . ولابد أن تكون قادش سلمت المصريين خوفا وجزعا بعد ما رأت من نتائج غزوة أمنحتب الأول . وقد ذكر لنا الضابطان المصريان باهتمام أن الجيوش المصرية لم تعارض

ولم تقاوم مطلقا بجهة قادش ، ولذلك تمكنت القوات المصرية من الوصول الى « نهرينا » بلا نزاع ولا مقاومة تذكر وقد ورد اسم « نهرينا » على الآثار المصرية وأطلق هذا الاسم على البلاد الممتدة من نهر العاصى الى الفرات واسيا الصغرى · وقد شبت فى تلك الجهات ثورة شديدة لبعدها عن مصر وحصلت فيها موقعة حربية كبيرة انتهت بأسر عدد كبير من السوريين · قال أحمس بن ابانا عن هذه المعركة : « كنت قائدا لفيلقى وكان جلالة الملك يرقب أعمالى الجريئة لما أسرت عجلة حربية بخيلها وركبها وأحضرتهـــا لجــلالته فكافأنى على ذلك بالذهب دفعتــين » · وقد أظهــر أحمس ابن نخبت أيضا جرأة أكثر من ذلك مع حداثة سنه فأحضر لفرعون مصر احدى وعشرين يدا مبتورة من قتلى الآسيويين وعجلة حربية وفرســـا · ويعتبر هذان الضابطان مثال الشجاعة التى اتصف بها جيش فرعون مصر وقتئذ · والظاهر أن الملك عرف تماما كيف يؤثر فى نفوس ضباطه فكان يلاطفهم ويقدم لهم الهــدايا اثر كل عمل حربى ماهر يأتونه فى ســاحة القتال · هذا كل ما وصل الينا من أعمال تحوتمس الأول الحربية ولا يبعد ان يكون قد قام بأعمــال أخرى عظيمة لا نزال نجهلها · والمعروف أن خــدمة أحمس بن ابانا انتهت فى هــذه المعركة أما أحمس بن نخبت (الصغير) فقد عاش وحارب مع تحوتمس الثانى ونال الرضا والاحترام من تحوتمس الثالث وقت حكمه ·

وشيد تحوتمس الأول أثرا حجريا على منحنى الفرات الكبير بالقرب من البحر الأبيض المتوسط ذكر فيه أن ذلك المكان هو الحد الأقصى لممتلكات مصر الآسيوية · وهكذا حقق الملك ما افتخر به منذ سنة واحدة وهو ذلك الأثر الذى نصبه جهة الشلال الثالث على حدود مملكته الجنوبية · وقد غلا تحوتمس الأول فى فخره فقال لكهنة العرابة المدفونة ذات مرة : « لقد أوصلت حدود مصر الى دائرة الشمس » وهو قول فيــه بعض الحقيقة بالنسبة لتخيلات المصريين والشرقيين عامة بخصوص العالم وقتئذ ·

ومن ذلك يتضح أن فرعونين من فراعنة مصر تمكنا حتى ذلك الوقت من رؤية نهر الفرات ، وأن أمراء سوريا والعرب أخذوا يقدرون قدر مصر ويعجبون بقوتها ومكانتها ، فأرسلوا اليها مع البدو وسائر الفلسطينيين الجزية وهدايا ثمينة فتضخمت المالية المصرية عما كانت عليه سابقا ، وكان هذا أكبر مساعد لتحوتمس الأول على اصــلاح ما تلف من المعابد والهياكل المصرية التى أهملت منذ زمن الهكسوس · ثم استصغر فراعنة مصر هياكل الدولة الوسطى بطيبة لحقارتها ، ولأنها لا تليق برفعــة مصر المالية والاجتمــاعية ، فندب تحوتمس الأول مهندســه الماهر المدعو انينى (Ineni) وكلفه تشييد صرحين كبيرين عنــد مدخل معبــد آمون وبنـــاء

ساحة كبيرة مسقفة ذات عمد مصنوعة من خشب الأرز اللبنانى ، وأمره أيضا بنصب أعلام طويلة أمام مدخل المعبد رءوسها مصنوعة من الذهب والفضة وخشبها من أرز لبنان كذلك . أما باب المعبد فكان مصنوعا من البرونز الآسيوى البديع ونقش عليه المعبود مطعما بالذهب . وأصلح الملك أيضا معبد أزوريس بالعرابة المدفونة وزوده بالأثاث الجميل والأدوات الفضية والذهبية وتماثيل المعبودات البديعة كالتى فقدت أيام حكم الهكسوس . ورتب الملك أوقافا سنويا على ذلك المعبد وترك فى آخر عمره تعليمات للكهنة ليتبعوها وقد فعل كل هذا تخليدا لذكراه على مر الدهور .

الفصل الخامس عشر

شقاق التحوتموسيين وحكم الملكة حتشبسوت

لما قرب تحوتمس الأول من السنة الثلاثين من حكمه (ومن تسلمه مقاليد الملك من أبيه أيضا) أرسل مهندسه المخلص انيني الى محاجر الجرانيت بجهة الشلال الأول لعمل مسلتين كبيرتين تنصبان في احتفال عيد السد (Heb sed) الذى كان يعمل كل ثلاثين سنة ، فأحضر انيني هاتين المسلتين الى طيبة في سفينة طولها مائتا قدم وعرضها ثلث ذلك تقريبا ونصبهما أمام صرحى معبد الكرنك اللذين شيدهما سابقا للملك، ونقش على احداهما (وهى الباقية للآن أمام مدخل المعبد) اسم تحوتمس الأول وألقابه ، لكنه لما شرع ينقش المسلة الثانية حصلت في مصر حوادث منعت كتابة اسم تحوتمس المذكور عليها • ومعلوم أن تحوتمس الأول كان وقتئذ طاعنا في السن ثم ان زوجته المدعوة أحموس توفيت ، فضعف مركزه في البلاد ، لأنه كما ذكرنا آنفا توصل الى الملك بزوجته المنتمية الى الأسرة الطيبة الشهيرة التى طردت الهكسوس وحاربتهم بشدة وهمة لا تعرف الملل حتى أدهشت العالم • في هذا الوقت ظهر في القطر حزب قوى رأى أن وراثة الملك تنحصر في ذرية الملكة أحموس وهى تشمل ولدين و بنتين • ويلاحظ أنه قد توفى من هؤلاء الأطفال الأربعة ولدان وابنة في حداثة السن فلم يبق منهم الا ابنة يقال لها ماعت كارع ـ حتشبسوت • وأخذ نفوذ حزب الملكية يقوى جدا حتى اضطر تحوتمس الأول الى أن يعلن للملأ أن الأميرة حتشبسوت هى الوارثة الواحدة لملكه على كراهية المصريين لحكم الملكات •

ورزق تحوتمس الأول ابنا من زوجة غير شرعية تدعى الأميرة موت نفرت صار فيما بعد تحوتمس الثانى وابنا آخر من إحدى حظياته المدعوة ايزيس صار فيما بعد تحوتمس الثالث • وقد حصلت مشاحنات ومنازعات داخلية مجهولة في آخر عهد تحوتمس الأول صعب على الأثريين استجلاء

حقيقتهـا ، والسبب فى صعوبة معرفة أصـل ذلك النزاع قلة المعلومات الواردة على جدر المبانى والهياكل وطول المدة التى مضت على تلك الحوادث التى تقرب من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة · ولا يبعد أن يكون زمن هذه المنازعات فى مبدأ حكم تحوتمس الثالث وطوال حكم تحوتمس الثانى · والمستنتج من أخبار تلك العصور أن هذه المنازعات انتهت فى آخر الأمر باستمرار تحوتمس الثالث فى الحكم مدة طويلة وبقاء تحوتمس الثانى فى الحكم مدة قصيرة فى أوائل عهد تحوتمس الثالث ، وهذا معناه بعبارة أخرى أن تحوتمس الثالث ولى الحكم أولا مدة قصيرة ثم أعقبه تحوتمس الثانى ثم انتقل الملك بعد ذلك الى تحوتمس الثـالث ، وهذا هو أصوب حل للتوفيق بينه وبين ما جاء بالآثار · ودلتنا الأخبار أن عواطف الحب والشفقة والغيرة كانت تتجاوب للمهادنة وسط تلك المنازعات الفرعونية ، لان الملكة حتشبسوت الجميلة الزكية ابنة تحوتمس الأول طالبت بحقها فى الملك · والظاهر أنه لما توفى أخو هذه الأميرة تزوجت بأخيها من أبيها المدعو تحوتمس الثالث(١) ابن المحظية·وكان تحوتمس الثالث فاقد الأمل فى الملك،لأنه ليس من دم ملكى فوالده ووالدته خليان من هذه الصفة ، ولذلك عين تحوتمس الثالث فى مبدأ أمره كاهنا صغيرا بالكرنك وسرعان ما فطن لشـعور الكهنة وقتئذ نحوه · فلما توفيت الملكة أحمس طـالب تحوتمس الثالث بالملك كمـا فعـل أبـوه من قبل لأنه اقترن بالأمـيرة حتشبسوت التى من دم ملكى ، وساعده على ذلك كهنة آمون وقد أعلن هذا المعبود أيضـا رضـاه عن ذلك · ولم يثبت للآن اذا كان هناك اتفاق سلمى سابق مع تحوتمس الأول على هذا الموضوع أو أنه دبر طى الخفاء عن جهل منه ثم نفذ فجأة على غير انتظار بمعبد آمون · والثابت أنه حدث فى أحد الأعيـاد أن حمل تمثال آمون بالكرنك وسط هتـاف الجماهير كالعـادة من قدس الأقداس الى الساحة الكبرى ، وكان تحوتمس الثالث وقتئذ جالسا مع باقى الكهنة فى قاعة العمد الشمالية بساحة تحوتمس الأول ، فطـاف الكهنة بتمثـال المعبود حول العمد بكيفيـة يفهم منها أن المعبود يبحث عن واحد بينهم ، ثم وقف التمثال فجأة أمام الأمير الشاب تحوتمس الثالث فخر هذا ساجدا على الأرض ، اذ ذاك رفعه المعبود وعطف عليه ثم أعلن رغبته أن يجلسه على « المقعد الملكى » بالمعبد الخاص بالملوك، فنفذت ارادة المعبود فى الحال · والغريب أن تحوتمس الأول قاد الاحتفال

---

(١) مازال الغموض يكتنف هذه الفترة ، ولكن يرجح الآن أن يكون تحتمس الثالث هو ابنا لتحتمس الثانى من المحظية ايزيس وأنه قد اعتلى العرش عند وفاة أبيه وكان صبيا ، ولذا قد سـهل على زوجة أبيه حتشبسوت أن تقصيه عن الحكم وأن تعتلى العرش وبعد وفاتها عاد تحتمس من جديد الى الظهور ـ (المحرر) ·

وقدم عطر البخور لتمثال آمون قبل حصول هذه الحادثة بقليل وما لبث حتى ورد أمر المعبود بتعيين تحوتمس الثالث ملكا على مصر ، وأعلنت فى ذلك الوقت أسماء وألقاب تحوتمس الثالث للرعية وذلك فى شهر مايو سنة ١٥٠١ قبل الميلاد ٠ وهكذا تبوأ الكاهن فجأة عرش الفراعنة ، وقد سرد تحوتمس الثالث هذه الحادثة لرجال طائفته بعد ذلك بعدة سنين لما شيد بعض قاعات الكرنك فقال ما ترجمته : « إنه كان فى نيته زيارة عين شمس ليعينه المعبود الشمسى ملكا على مصر لكنه أخذ الى السماء فشاهد فيها ذلك المعبود بأبهته العظيمة فحياه الاله وأنعم عليه بعرش مصر وبالألقاب الملكية » ٠ ولكن هذه الحادثة العظيمة المشرفة أظهرت عطف المعبودات نحو تحوتمس الثالث أمر بنقشها على جدر الكرنك ليعلمها الخاص والعام ٠

ومع أن تحوتمس الأول اعتزل العرش فلم يعتبر هذا العزل خطرا على السدة الملكية ولم يتعرض له فى معيشته ٠ ولما ولى تحوتمس الثالث عرش مصر استقل بالملك المستحوز عليه من زوجته وأخته حتشبسوت وأهمل نفوذ حزب الوراثة ٠ وبعد ما مضى على استيلائه ثلاثة عشر شهرا أصلح معبد سلفه سنوسرت الثالث بجهة سمنه وكان مشيدا باللبن ، وأقام معبدا جميلا بالحجر الرملى الجيد ، وأقام كذلك الأثر القديم المثبت حدود مصر أيام سنوسرت الثالث فى عهد الدولة الوسطى ، كما أنه نفذ وصايا سنوسرت المذكور الخاصة بتقديم القرابين لروحه ٠ ولم يورد تحوتمس الثالث فى هذه الأعمال كلها اشارة واحدة الى اشراك حتشبسوت معه فى الملك بل اقتصر بتلقيبها منذ ذاك الوقت « بالزوجة الملكية العظيمة أو الكبيرة » ، ولكن يلاحظ أن الحزب المطالب بتطبيق قانون الوراثة الملكية كان قويا لا يستهان به ٠ زد على ذلك أن القوم ما زالوا ذاكرين ذلك الأحتفال الكبير الذى أقامه تحوتمس الأول لتعيين حتشبسوت وارثة له منذ خمس عشرة سنة ، وكانوا أيضا عالمين بالصلة الدموية المتينة بين هذه الأميرة والأسرة الطيبية الملكية المنتسب اليها الملوك ذوو اسم سقننرع والملك أحمس الأول نفسه ٠ أمام هذا الشعور العام اضطر تحوتمس الثالث الى أن يعترف رسميا بحق زوجته حتشبسوت فى الملك ، ومن ثم أخذت سلطته تضعف وتختفى فى حين أن نفوذ هذه الملكة أخذ يقوى ويشتد تدريجا حتى أضحت فرعونا جامعة كل الحقوق الفرعونية ولقبت بحورس المؤنث ، وأنث لأجلها لقب الجلالة ، ثم اصطبغ نظام القطر والأعمال الملكية بالذوق النسوى تمشيا مع ادارة حتشبسوت ٠

ولما تسلمت حتشبسوت الملك اهتمت بالأعمال واقامة الآثار فشيدت لنفسها محرابا عظيما بديعا فى فجوة بسلسلة جبال طيبة الغربية على جهة

النيل الغربية يقال له الدير البحرى سيأتى عليه الكلام فيما بعد · بعد ذلك حدث فى المملكة نزاع آخر أدى الى انتقال الملك من حتشبسوت الى تحوتمس الثانى ، ولم نعلم للآن السبب الحقيقى لذلك ولكنه ربما كان نتيجة ضعف حزب الكهنة المنتمى اليه تحوتمس الثالث أو حزب الوراثة المنتمية اليه حتشبسوت ، ولا يبعد أيضا أن يكون ذلك نتيجة زيادة نفوذ حزب تحوتمس الثانى نفسه · ومهما كان السبب فقد اتحد تحوتمس الثانى ووالده المعزول واستقلا بالملك بعد ما حكمت حتشبسوت القوية وتحوتمس الثالث معا خمس سنوات ، فشن تحوتمس الأول والثانى الغارة على أعمال حتشبسوت وأزالا اسمها من الآثار وأحلا اسميهما مكانه فى كل فرصة تسنح ·

فى ذلك الوقت بلغت النوبة أخبار نزاع أفراد الأسرة المالكة فشبت فيها ثورة لعصيان مصر وصل خبرها الى تحوتمس الثانى يوم توليه الملك، وتعذر عليه ترك القصر الملكى والعاصمة لأعدائه يكيدون له بعد ما صرف مجهوده حتى بلغ مراده ، فجند جيشا مصريا جرارا وأرسله اليها بقيادة ضابط مصرى ووصل هذا الجيش الى اقليم الشلال الثالث وأنقذ قطعان الماشية المصرية هناك بعد ما أوشكت أن تقع فى أيدى الأعـداء · ودلتنا الآثار أن القائد المصرى لم يكتف بهزيمة النوبيين بل قتل كل رجل وقع فى قبضته كما أنه أسر ابن رئيس النوبة وبعض أهاليها العصاة وأرسلهم الى طيبة كرهائن منعا لحصول اضطرابات فى المستقبل،وهناك استعرضهم فرعون مصر وهو جالس على عرشه · بعد ذلك هدأت الحال فى النوبة ثم حصلت اضطرابات بآسيا شمالا فاضطر تحوتمس الثانى الى أن يزحف اليها فوصل الى مدينة نى (Niy) ثم جنوبى فلسطين وعاقب بدوها الذين عبثوا بالأمن ، لكننا لم نتأكد الى الآن اذا كان هذا العقاب حصل فى أثناء عودة تحوتمس الثانى الى نى أو وقت ايابه منها · وكان مصاحبا له فى تلك الحملة أحمس بن نخبت أحد قائدى مدينة الكاب ، وقد روى هذا الضابط أنه استولى على أسرى عديدين هناك يتجاوزون الحصر·وهذه الغزوة آخر ما قام به هذا القائد الشهم الذى اعتزل الخدمة بعد ذلك كما فعل زميله أحمس بن ايانا ، فعكف فى بلده الكاب شريفا ماجدا حتى أتاه القدر المحتوم · ولما كان معبد حتشبسوت ترك ولم يكمل بناؤه ، رأى تحوتمس الثانى وقت عودته من آسيا أن ينقش على جدر ذلك المعبـد انتصـاراته الأسيوية ، فنقش على جدار أملس هنـاك أنه تسـلم الجزية من أعدائه المقهـورين وما يزال باقيـا من بيـان تلك الجزية كلمتـا « الخيل » و « الفيـلة » · فى هـذا الوقت توفى تحـوتمس الأول على الأرجح فضعف بذلك مركز تحوتمس الثانى الذى كان دائما ضعيف البنية واهن

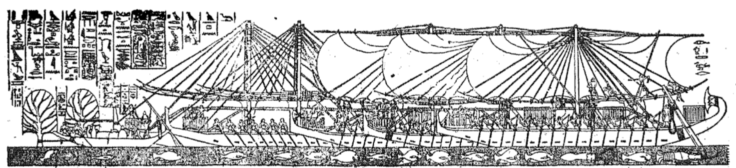
الصحة (٢) فاتحد هذا وتحوتمس الثالث معا فى ادارة المملكة • والمعروف أن تحوتمس الثالث كان قد اعتزل السياسة من مدة ، ولكنه كان يدبر طى الخفاء مشروعات بقصد عودته الى الملك ثانية • وعلى العموم ، فان حكم تحوتمس الثانى لم يدم طويلا ، لأنه توفى قبل أن تمضى على مشاركته لأخيه ثلاث سنين •

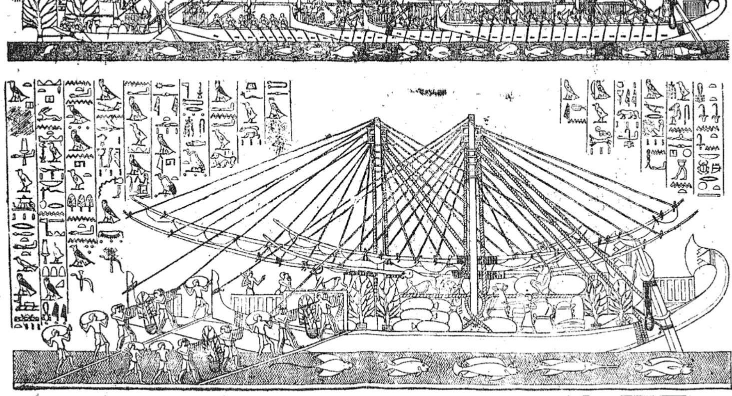
حينئذ تسلم تحوتمس الثالث الملك ثانية وقد اضطر مراعاة لمطالب حزب حتشبسوت الى أن يشركها معه فى الحكم • ثم سارت الأمور الى أبعد من ذلك فأخذ حزب الملكة يقوى ويستأثر بالسلطة حتى انزوى تحوتمس الثالث من الميدان السياسى تقريبا وصار لحتشبسوت وحدها مطلق الحل والعقد • والغريب أن كلا من حتشبسوت وتحوتمس الثالث كان يؤخر حكمه من عهد تولية الملك أولا متجاهلا مدة حكم تحوتمس الثانى • وقد اتبعت حتشبسوت سياسة الشدة والضغط وعدت أول امرأة عظيمة معروفة فى التاريخ • وقد أوضح لنا انينى مهندس والدها مركز الأخت والأخ بالعبارة الآتية : « كان تحوتمس الثالث حاكما جالسا على عرش أبيه الذى خلفه • أما أخته الزوجة المقدسة حتشبسوت فكانت تحكم البلاد بارادتها فطأطأت لها مصر رأسها مطيعة لأوامرها ، ولا غرابة فى ذلك فجلالتها من النسل المقدس العظيم الخارج من صلب الآلهة ، فكانت بمثابة حبل مقدم السفينة فى البلاد الجنوبية ووتد مرسى السفينة عند أهالى الجنوب ، وحبل مؤخر السفينة العظيم فى البلاد الشمالية • لقد كانت جلالتها صاحبة الأمر والنهى والمشروعات السديدة والقول المليح الذى ملأ أهالى القطر فرحا وسرورا » • ويعتبر هذا أقدم تشبيه معروف لتدبير سياسة الدولة بقيادة السفينة ، وفيه شبه انينى الملكة حتشبسوت بحبال سفينة النيل التى تجذبها وتأتى بها الى المرفأ المطلوب • والحق يقال ان هذا التشبيه ينطبق تماما على سياسة حتشبسوت لأن أعضاء حزبها عينوا أنفسهم فى أهم وظائف الدولة فكان سنموت (لوحة ٨١) أقرب الناس اتصالا بها وأشدهم تفانيا فى مصلحتها وقد كان فيما سبق أستاذا لتحوتمس الثالث فى الصغر (٣) ثم عهد اليه فى تربية الأميرة نفرو رع كريمة حتشبسوت (لوحة ٨١) التى قضت أوائل عمرها تحت اشراف القائد أحمس بن نخبت السابق الذكر والذى أصبح الآن هرما عاجزا عن القيام بالأعمال الشاقة • بعد ذلك عين سنموت حاجبا للأميرة نفرو رع وأمينا على أملاكها • وكان له أخ يدعى (سن من) من أشد أنصار حتشبسوت أيضا • وربما كان أعظم أنصار جلالتها المدعو حابوسنب ، الذى كان وزيرا ورئيس كهنة آمون وعميد طائفة كهنة القطر المصرى

(٢) انظر : Masp. Mom. roy. 517.

(٣)تمثال الكرنك •

التى أنشئت حديثا ، فكان هذا الوزير محتفظا بالسلطة التنفيذية والدينية اللتين استعملهما لمصلحة الملكة • وبهذه الكيفية أدار حزب حتشبسوت دولاب أمور الدولة • ولما أسن انينى وكان شاغلا وظيفة رئيس خزانة الذهب والفضة استبدل به الأمير تحوتى ، ثم أشرك أحد كبار المالية المدعو نحسى مع حابوسنب فى ادارة الأعمال • وبهذه الكيفية أدار حزب الملكة دولاب أعمال الحكومة • ولا يخفى ان مستقبل هؤلاء وظفين كان معلقا على نجاح وسيادة الملكة ولذلك حافظ هؤلاء بكل ما أوتوا من جهد وعناية على مركز جلالنها السامى . فكانوا يبدلون قوتهم فى اقناع الأهالى بأن حتشبسوت لم تعين ملكة الا بأمر الهى قديم ونقشوا ذلك على جدر معبدها بالدير البحرى حيث تشاهد الآن كثير من الرسوم البارزة موضحا بها طريقة ولادتها • زمن هذه الرسوم تتضح للقارىء عقيدة المصريين القديمة وهى أن الفراعنة أنجال حقيقيون للمعبود الشمسى ، فيرى فى الرسوم المعبود آمون (وارث المعبود الشمسى فى اعتقاد أهالى طيبة) يخاطب أحمس زوجة تحوتمس الأول قائلا: « ستحملين منى بابنة تدعى حتشبسوت ••• تعتلى عرش مصر وتحكم البلاد كلها بمهارة » فجاء هذا بمثابة اعلان مقدس للأهالى بتعيين حتشبسوت ملكة لعرش مصر • ومن ثم أخذ القوم يرسمون كيفية ولادتها مصحوبة بمعجزات عظيمة مما أثر كثيرا فى نفوس البلاط الملكى والرعية اذ اتضح لهم بذلك علاقة حكم هذه الملكة بوارث المعبود الشمسى • وقد راعى الرسام فى رسومه تلك العقيدة مراعاة دقيقة فرسم حتشبسوت مولودة « طفلا » فجاء هذا برهانا لنا على عظم الصعوبة التى عاناها أنصار حتشبسوت فى جعل مقاليد مملكتهم فى يد جلالتها • ثم ألحقوا هذه الرسوم بأخرى أظهروا فيها كيف يتوج المعبودات هذه الملكة ، ورسوم تمثل تحوتمس الأول مجتمعا مع ابنته حتشبسوت فى احتفال كبير مهيب بالقصر الملكى فى عيد رأس السنة مخاطبا اياها بأنه يعترف أنها وارثته فى المملكة المصرية • وليلاحظ أن هذه النقوش نقلت عن نقوش امنمحات الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة التى عنه بمقتضاها والده سنوسرت الثالث ملكا على مصر • ولابطال كل معارضة لحكومة حتشبسوت رأى رجال حزبها أن يرسموا على الدير البحرى تحوتمس الأول مخاطبا البلاط الملكى قائلا : « عليكم أن تطيعوا جلالتها (أى حتشبسوت) وأن تتحدوا طوعا لارادتها ، فالذى يخضع لها منكم يعيش أما الذى يغتاب جلالتها فلن يترك حيا » • ولم يكتف رجال حزب حتشبسوت بذلك بل رسموا تحوتمس الأول على جدر صرحه المشيد عند المدخل الجنوبى للكرنك داعيا معبودات طيبة لتمنح ابنته عهدا يانعا وحكما عادلا • بهذه الحيل اجتهد أفراد حزب الملكة فى اقناع الأهالى بحقها فى الملك ونزع أية عقيدة لا تتمشى مع حكم السيدات •





شكل (٣١) بعض المناظر العظيمة ببلاد الصومال (بونت) منقوشة على جدر الدير البحرى بطيبة • فى هذا المكان رسمت الملكة حتشبسوت مناظر بعثتها التى أوفدتها الى الصومال وتشاهد فى القسم الأعلى مغادرة الأسطول المصرى لميناء مصرى وترى السفن المصرية فى القسم الأسفل تشحن بخيرات الصومال كشجر المر الذى يشاهد داخل السفن •

ولما تبوأت حتشبسوت منصة الحكم بدأت بتشييد معبدها البديع بالدير البحرى فى سفح جبال طيبة الغربية الذى نقش عليه أبوها وأخوها اسميهما بدل اسمها . ويخالف بناء هذا المعبد ما اتبع فى بناء معابد ذلك العصر الكثيرة لكنه يشبه كثيرا معبد منتوحوتب الثانى الصغير المدرج المجاور له . ويشمل هذا المحراب ثلاث شرفات مدرجة تنتهى أعلاها بساحة عظيمة مرتفعة تحيط بها صخور شاهقة صفراء محفور فيها قدس الأقداس . وقد أقيمت أمام هذه الشرفات عمد بديعة يتضح لمن يراها عن بعد حسن ذوقها وتناسق حجمها فتتأكد بذلك النظرية القائلة بأن اليونانيين أول من أتقن استعمال العمد الخارجية وأن المصريين أقدم من أخذ استعمال العمد الداخلية فى البناء (لوحة ٨٢) . أما المهندس الذى شيد هذا المعبد فهو سنموت محظى الملكة . وقد كلف تحوتى الاشراف على صنع أبواب المعبد من البرونز المطعم بخليط الذهب والفضة وعلى مصنوعات معدنية أخرى . وكانت الملكة شديدة التعلق بهذا المعبد فكانت تشبهه بجنة آمون وتطلق على شرفاته اسم « شرفات شجر المر » المستحضر من الصومال موطن الآلهة الأصلى . وورد فى نقوش هذا المعبد أن المعبود آمون طلب من الملكة « أن تمثل له فى هذا المكان بلاد الصومال » فأطاعته واضطرت الى أن تغرس شجر المر المستحضر من الصومال فى تلك الشرفات . ومعلوم أن أسلاف حتشبسوت كثيرا ما أرسلوا البعثات الى تلك الجهات لكنه لم يفكر أحد منهم فى جلب أشجار المر منها فكانت هى أول من فعل ذلك . وجرت العادة قبل ذلك العصر أن صمغ المر كان تحضره الى مصر القوافل البرية الآتية من الصومال فلما جاء حكم الهكسوس تأخرت تلك التجارة الأجنبية كثيرا . ثم وليت حتشبسوت الملك وقد وقفت يوما أمام ناووس المعبود فسمعته يقول : « يجب اعادة فتح طريق الصومال ليتيسر الوصول من هذه الشرفات الى بلاد المر ، فهذه البلاد المقدسة جميلة ، وأنا أحبها فقد خلقت تلك البلاد لأسلى قلبى » . قالت الملكة : « وهكذا أنجزت كل ما رغب فيه المعبود على حسب أمره » .

وطبيعى أن تعهد الملكة لرئيس ماليتها المدعو نحسى فى قيادة حملة بلاد الصومال وزودته بالصناديق الكافية لشحن ما يجلب من حاصلات تلك البلاد . فلما كانت السنة التاسعة من حكم الملكة أقيمت الاحتفالات وقدمت القرابين الى معبودات الهواء ليتفضلوا على أسطول الملكة بالرياح الطيبة لتساعده على السفر . وأقلعت السفن وكان عددها خمسين سفينة فتركت المياه المصرية قاصدة الصومال ، متبعة نهر النيل حتى شرقى الدلتا

وهناك عبرت قناة وادى طميلات الى البحر الأحمر ، وقد ألمعنا سابقا الى استعمال هذه القنـــاة فى النقل البحـرى فى عهد الدولة الوسـطى ٠ أما السفن فكانت مشحونة ببضائع مصرية لتستبدل بها بضائع صومالية٠ وقد أخـذ الأسطول معه أيضـا تمثالا للملكة حتشبسوت لنصبه فى تلك البلاد السحيقة تذكارا لها ، واذا كان هذا التمثال باقيا للآن بتلك الجهات فيكون أبعد تمثال لملوك مصر معروف للآن ٠ ووصلت السفن المذكورة الى بلاد بونت (الصومال) بسلام فضرب قائدها خيامه على الشاطىء وهناك قابله ملك بونت المدعو برحو (Perehu) باحترام واكرام متبوعا بزوجته البدينة وأطفاله الثلاثة ٠ والظاهر أن المصريين وقتئذ كان قد مضى عليهم مدة طويلة لم يطئوا فى أثنائها أرض الصومال لأنهم رسموا الصوماليين على جدر الدير البحرى قـائلين لهم : « لماذا أتيتـم الى هذه الأرض التى جهلها من سبقكم من المصريين ؟ هل نزلتم من السماء أو ركبتم السفن فى البحر الموصل الى الأرض المقدسة (الصومال) ؟ » ٠ بعد ذلك قدم المصريون هديتهم الى حاكم الصومال فابتهج بها ومال الى المصريين كثيرا وأمر حالا بربط السفن المصرية قريبـا من الشاطىء ، ثم أنزلت الممرات الخشبية وأفرغت محتويات السفن ثم ملئت ثانية بخيرات بلاد الصومال المدهشة كالأخشاب العطرية الجميلة على اختلاف أنواعها وكومات المر وعدد كبير من أشجار المر اليانعة وكثير من الأبنوس والعاج النقى وذهب امو (Emu) الأخضر وخشـب الأنيسون والبخور والكحـل ، وهذا غير النسـانيس والقردة والكلاب وجلود الفهود الجنوبية وبعض أهالى الصومال وأولادهم٠ وتعتبر هذه الحملة الأولى من نوعها منذ بداية التاريخ المصرى ٠ ثم أقلع الأسطول المصرى عائدا الى مصر سالما ولم تعترضـه حوادث سـيئة ولم يضطر الى أن ينقل بضاعته من سفنه ، بل وصل سليما الى مرفأ طيبة كما تشير الآثار ٠ ولابد أن يكون دهش المصريين عظيما لما وقـع نظرهم على واردات الصومال السحيقة العجيبة وهى تمر بشوارع طيبة فى سيرها نحو القصر الملكى حيث قدمها القـائد المصرى الى الملكة ، فلما شـاهدت جلالتها هذه الخيرات تبرعت من فورها بجزء منها الى المعبود آمون مع جزء آخر من واردات النوبة ، لأن المصريين اعتبروا هذين القطرين اقليما واحدا٠ واليك بيان ما تبرعت به الملكة لآمون : « احدى وثلاثون من أشجار المر الخضراء وكمية من الذهب والفضة والمكاحل والرماح الصومالية والأبنوس والأدوات العاجية ونمر على قيد الحياة صيد خصيصا لجلالتها وكمية كبيرة من جلود النمر وثلاث آلاف وثلثمـائة رأس من الغنم » ٠ ويستدل من رسوم الآثار أن كميات المر التى أحضرت جزئت كومات يقرب ارتفـاع كل منها ضعف طول الرجـل وكانت تكال بحضور تحوتى أحد أتبـاع الملكة المقربين ٠ أما حلقـات الذهب التى أحضرت فكانت توزن بموازين

يبلغ ارتفاع الواحد منها عشر أقدام • وبعد ما أعلنت جلالة الملكة نجاح بعثة الصومال الى المعبود آمون على حسب رغبته أقامت احتفالا عظيما استدعت فيه تحوتي ونحسي رئيس الخزانة وقائد البعثة وأغدقت عليهما النعم ، وأخبرت أعضاء أسرتها المالكة بنتيجة مجازفتها العظيمة وذكرتهم برغبة آمون في فتح طريق الصومال وغرس أشجار المر من تلك البلاد المقدسة في حديقة معبده ، ثم قالت مباهية : « لقد أنجزت تلك الرغبة •• وجعلت حديقة معبده أشبه بالصومال كما أراد ، فصارت حديقة كبيرة كافية لنزهته فيها » • وهكذا صار هذا المعبد البديع دو الشرفات عبارة عن حدائق من شجر المر لأجل آمون،ولاشك فى أن الفضل فى ذلك يرجع الى همة ونشاط هذه الملكة التى اضطرت لأن تحضر تلك الأشجار من أقاصي البلاد • وقد نقشت جلالتها كل أخبار هذه الرحلة الغريبة بارزة على جدر معبد الدير البحرى الذى استولى عليه سابقا تحوتمس الثانى رغبة فى نقش حروبه وانتصاراته الآسيوية عليه ، وما تزال نقوش بعثة الصومال من أبدع مخلفات هذا المعبد العظيم ، وقد ذكرت الملكة كبراء حزبها جميعا فى تلك الرسوم • ويشاهد على احدى الجدر رسم سنموت مبتهلا الى المعبودة حاتحوز طالبا منها أن تمنح الملكة النعم الجزيلة وهو شرف عظيم قلما يتمتع به رجل من رجال الدولة •

ومعبد حتشبسوت هذا هو أقصى ما وصل اليه بناء تلك العصور من حيث ترتيب وتنسيق القبور الملكية وعلاقتها بمعابدها • ويظن ان اقلاع الملوك عن اتخاذ الأهرام مقابر لهم يرجع الى الحاجة للانفاق فى أبواب أخرى أو لأنهم لم يجدوا فائدة فى تكبير تلك القبور خصوصا وقد اتضح لهم أن هذه الاجراءات لم تحفظ جثث أصحابها • والغالب أن دفن الجثث الملكية فى أهرام وتشييد معابد لها شرقى الأهرام استمر متبعا حتى حكم أحمس الأول ، لكنه لوحظ أن هذه العادة أخذت تنعدم تدريجا فقل حجم الهرم بالتوالى وبقيت الغرف السفلى والمعابد المجاورة له على كبرها وضخامتها بالنسبة للأهرام • وآخر من اتبع بناء الأهرام هو أمنحتب الأول الذى دفن جثته الملكية فى حجرة يوصل اليها بدهليز طويل محترق لصخور طيبة الغربية يبلغ طوله نحو مائتى قدم ، ثم شيد أمام مدخل الدهليز معبدا صغيرا تعلوه قبوة هرمية الشكل سبق الكلام عليها• والظاهر أن تحوتمس الأول لم يرق فى عينه هذا الترتيب ولم يعتبره كافيا لحفظ الجثة فابتدأ بفصل المعبد من القبر ، فشيد المعبد فى سفح جبال طيبة الغربية ، أما قبره وسردابه فحفرهما فى الصخور بواد منعزل (وادى الملوك) (لوحة ٧٩) خلف جبال طيبة الغربية على بعد نحو ميلين من النيل ولا يصل اليه الانسان الا بطريق منحن يقرب طوله

من ضعف هذه المسافه · وبدهى أن غرض الملك من ذلك اخفاء معالم قبره ليكون فى مأمن من اللصوص ولذلك بقيت أخبار هذا القبر سرا مكتوما · قال المهندس انينى الذى باشر حفر مقبرة تحوتمس الأول انه قام بهـذا العمل وحده دون أن يراه أو يسمعه أحد وهذا الترتيب وان كان مناقضا للعادات السابقة يوافقها فى وضع القبر خلف المعبد وان كانت تفصلهما صخور شـاهقة · ويعرف هذا الوادى الآن باسم « وادى مقابر الملوك » وقد فضلته الملوك الذين حكموا بعد تحوتمس الأول على سواه من الأماكن لدفن جثثهم فيه ، واستمرت الحال على هذا المنوال مدة حكم الأسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين حتى امتلأ الوادى بجثث ملوكها · أما عدد المقابر المعروفة فيه فيربو على الأربعين ، منها احدى وأربعون مقبرة يمكن معاينتها من الداخـل وامتدت شهرتها فى العالم حتى اعتـاد السياح أن يؤموها سـنويا لمشـاهدتها والاطلاع على عجائبها · وذكر استرابون أنه ما كان معروفـا فى عهده من المقـابر بذلك الوادى كان أربعين مقبرة · أما معبد حتشبسوت ذو الشرفات فلم يكن سوى معبد أقيمت فيه الدعوات وقدمت القرابين بعد وفاة صاحبته ، وقد كتبت الملكة اسم والدها عليه أيضا ووهبت له أيضا بعضه · وبدهى أنه كلما زاد عدد المقـابر بذلك الوادى زاد عدد المعابد الخاصـة بها بسفح الجبل ، لأن هذه المعابد كانت الأمكنة التى تقدم فيها القرابين والهدايا لأرواح جبابرة مصر المقدسين · وجرت العادة أن هذه المعابد كانت توهب أيضا الى المعبود آمون وأن يطلق على كل منها اسم خاص ، مثال ذلك معبد مقبرة تحوتمس الثـالث سمى « هدية الحياة » ·

أما قبـر حتشبسـوت فقد قـام بحفره المهنـدس والوزير المدعو حابوسنب،وقد اختار لذلك مكانا بالوادى المنعزل المذكور بكيفية هندسية تجعل جدار القبر الشرقى خلف الدير البحرى تماما · وهنا يبتدىء دهليز طويل منحدر يبلغ طوله مئات من الأقدام ينتهى الى حجرات تحوى احداها تابوتين واحد لها والآخر لابنها تحوتمس الأول · والظاهر أن النزاع بين الاسر حال دون استعمال تحوتمس الأول لهـذه المقبرة ، اذ المعروف أنه فضل أن يدفن نفسه فى قبر صغير منفرد وألا توضع جثته فى التابوت الذى صنعته له ابنته · وقد عثر على هذين التابوتين فارغين حديثا ولابد أنهما سرقا فى العصور السالفة ·

وليلاحظ أن هذه الملكة حسنت بهمتها مصنوعات البلاد وأنمت من ثروتهـا كثـيرا فعادت بفوائد جزيلة على القطر المصرى ، وتضاعف ايراد الامبراطورية المصريـة حيث شمل ضرائب الأملاك وجزيـة المستعمرات الأجنبية الشاسعة الممتدة من الشلال الثالث جنوبا الى نهر الفرات شمالا·

واليك ترجمة ما قالته حتشبسوت ذات يوم : « لقد بلغت حدود مملكتى الجنوبية أرض الصومال (بونت) ... وحدودهـا الشرقية مستنقعات آسـيا ، فصار الآسيويون فى قبضتى ... أما حدودى الغربية فوصـلت الى جبال مانو (Manu) أى مغرب الشمس ... وذاع صيتى بين البدو . وقد أحضر الى مر بلاد الصومال ... وخيرات تلك البلاد العجيبة أحضرت الى قصرى كتلة واحدة ... حقيقة لقد أحضرت الى أجود الخيرات ... من أرز وعرعر وخشب « مرو » (Meru) ... وأخشاب الأرض المقدسة الجميلة جميعها . لقد أحضرت لى جزية تحنو (الليبيين) من عاج ، علاوة على سبعمائة ناب من أنياب الفيلة وعدد كبير من جلود الفهود البالغ طول كل منها خمسة أقدام وعرضه أربع أقدام (من الظهر) . والظاهر أن عهد هذه الملكة كان مصحوبا بالأمن والسكينة والسلم فى آسيا ولو انه لم يكن على الأريكة المصرية (عرش مصر) فرعون محارب،ولذلك استعملت هذه الملكة النشيطة ثروتها الجديدة فى بناء المعابد التى أتلفها الهكسوس بعد انقضاء جيلين على جلائهم من البلاد ، وقد سجلت ذلك على معبد بخت (Pakht) ببنى حسن فقالت : « انى أصلحت الخراب وأتممت ما كان ناقصا قبـل مجىء الآسيويين (الهكسوس) الى أواريس فى منطقة البلاد الشمالية . وكان بينهم وقتئذ من البرابرة من صرفوا همهم فى تخريب المبانى جهلا منهم بوجود المعبود رع » .

ومضى على هذه الحال سبع سنوات أو ثمان بعد استرداد حتشبسوت واخيها تحوتمس الثـالث عرش مصر ، أو خمس عشرة سنة منذ توليها الحكم مع تحوتمس الثالث فى المرة الأولى . وليلاحظ أن تحوتمس الثالث لم يكن طوال هذه المدة وارثا للملك لأن زوجته اسـتأثرت بهذا الشرف دونه ، ولما أوشكت أن تتم ثلاثين سنة منذ اعلان وراثتها على العرش أقامت لذلك احتفالا عظيما . ويظن أنها أمرت بنصب المسلات كالعادة فى مثل هذه الأفراح ، وقد قالت ما ترجمته : « أتذكر أننى جلست يوما بالقصر وفكرى يجيش بتأملات خالقى فأوحى الى قلبى أن أشيد لخالقى مسلتين من خليط الذهب والفضة يبلغان عنـان السماء » . وقد كلف المهندس المحبوب سنموت القيام بهذه المأمورية فتوجه الى محاجر الجرانيت بجهة الشلال الأول لقطع حجرين كبيرين تصـنع منهما المسلتان الكبيرتـان ، فجمع هذا المهندس من شاء من العمال وابتدأ بالعمل فى أوائل فبراير ، فى السنة الخامسة عشرة من حكم جلالة الملكة ، وبعد مضى سبعة أشهر تمكن سنموت من قطع الصخرتين المذكورتين وذلك فى أوائل شهر أغسطس وقد شحنهما فى سفن نيلية الى طيبة قبل أن يهبط منسوب فيضان النيل . ورأت الملكة أن تنصب هاتين المسلتين فى الساحة ذات العماد التى أسسها والدها بالكرنك والتى اختار فيها آمون تحوتمس الثالث ملكا على مصر .

وتطلب انجاز هذا العمل نقل عمد السقف المشيدة فى الجناح الجنوبى للساحة المذكورة علاوة على أربعة عمد من الجناح الشمالى ونزع جزء من السقف وهدم الحائط الجنوبى لادخال هاتين المسلتين وكانتا مكسوتين كثيرا بخليط الذهب والفضة وقام بهذا العمل تحوتى لأجل جلالة مليكته٠ ومما ورد عن ثروة هذه الملكة قولها انهـا كانت تكيل المعـادن النفيسة كالحبوب بالمكاييل الكبيرة وهو قول يعززه ما رواه تحوتى بأنه كان يكدس بأمر جلالتها فى ساحة قصرها ما يزيد على أربعمائة وثلاثة وعشرين مكيلا من خليط الذهب والفضة ٠ واليك ترجمة ما قالته جلالتها مفتخرة بهاتين المسلتين : « لقد صنعت قمتى هاتين المســلتين من أجود خليط للذهب والفضة وجد بالعالم ٠ وكان من الممكن مشاهدة القمتين من شاطىء النيل، وكانت الأشعة تنعكس منهما على القطرين وقت شروق الشمس على الأفق بشكل غايـة فى الجلال » ٠ أما ارتفـاع هاتين المسلتين فأعلى من سقف ساحة الكرنك التى شيدها تحوتمس الأول ٠ وقد أقسمت حتشبسوت بكافة المعبودات أن كلتا مسلتيها صنعت من حجر واحد منعا لدخول الشك فى أنفس القوم وقتئذ ٠ والحق يقال ان هاتين المسلتين أعلى الآثار المصرية التى يرجع تاريخها الى تلك العصور لأن ارتفاع كل منهما بلغ حوالى سبع وتسعين قدما ونصـف ، أما زنة كل منهما فتقرب من ثلاثمائة وخمسين طنا ، وما تزال احداهما شاخصة فى مكانها الأصلى تسترعى أنظار السياح كل ســنة (لوحـة ٨٣) ٠ ولم تكتف حتشبسوت بذلك بل شــيدت مسلتين أخريين بالكرنك لكنهما تلفتـا وانعـدم أثرهما ، والمظنون أنها شيدت مسلتين أخريين لمعبدها ذى الشرفـات بالدير البحرى أصـابهما التلف والعطب ، وهكذا يكون عدد المسلات التى شيدتها هذه الملكة ستا ٠ وتوجد على جدر معبد الدير البحرى رسوم بارزة تمثل مسلتين محمولتين فى سفينة نيلية عظيمة يجرها ما يقرب من ثلاثين سفينة شراعية وفيها نحو مائة وستين بحارا٠ وللآن لم يثبت اذا كانت هذه الرسوم عن مسلتى معبـد الدير البحرى أو مسلتى الكرنك اللتين نصبهما سنموت الســابق الذكر ٠

وزيادة على هذه المسلات الشامخة التى شيدتها هذه الملكة عثر على نقوش أثريـة بجهة وادى مغـارة بطور ســيناء تشير الى أن جلالة الملكة حتشبسوت أرسلت اليها بعثات للبحث عن معـادن تلك الجهة ،[٤] وهكذا أدارت شؤونهـا فى تلك الجهة بعد ما استراحت من غزوة الهكسوس ٠ وتاريخ هذه البعثـات يرجع الى السنة السادسة عشرة من حكمها وقد استمر حفر المناجم حتى السنة العشرين من حكمها ٠ والغالب أن الملكة

(٤) Petrie, Cat. of Egyptian Antiquities found in the Peninsula of Sinai, etc., p. 19.

توفيت وقتئذ لأن آثار تلك السنة أخبرتنا بأن الملك تحوتمس الثالث صار المسيطر الوحيد على المملكة المصرية ، كما أننا لم نجد اسم حتشبسوت على الآثار بعد هذا الحين • ويلاحظ القارىء أننا أسهبنا في وصف آثار وأعمال هذه الملكة والسبب في ذلك أن السيدات لسن من محبي الحروب والغزوات وعلى الأخص في تلك العصور العتيقة ، ولذا وجدناها وجهت همها نحو تقدم الفنون ونشر رايات السلم • ومع أنها كانت حاكمة سلمية قادرة ، فقد حكمت في زمن كانت مصر محتاجة فيه الى ملوك محاربين لكبح جماح الآسيويين واقناعهم بأن مصر حصينة منيعة ، كي لا يذكوا نار الفتنة وينفخوا روح الثورة •

ولما ولي تحوتمس الثالث عرش مصر بعد زوجته ، بدا منه ما كان خفيا لأنه كان بطبيعته ميالا للحروب مغرما بالنضال والكفاح • وقد كان مضطرا في حياة زوجته الى أن يراعي ظروفها فكان يقدم وقتئذ البخور لآمون وقت وصول بعثة الصومال ، كما أنه كان يصرف نشاطه في الاشراف على بناء معبد قبره في سهولة طيبة الغربية ، ولذلك وجد له بعض العذر اذ لم يقم بالواجب نحو زوجته ولم يراع كرامتها كاقامته حائطا أسفل مسلتي زوجته اللتين بساحة تحوتمس الأول بالكرنك ليخفي النصوص المنقوشة عليهما الدالة على تاريخ نصبهما • وقد محا أيضا اسمها ورسمها من الآثار جميعها حتى معبدها بالدير البحري مصدرا بذلك الأوامر • ولابد أن يكون حرب هذه المملكة انهار بعد وفاتها بهرب أعضائه أو لأنهم لقوا حتفهم كما يستدل من طمس رسوم سنموت وتحوتي ونحسي من جدر الدير البحري بعد ما كانوا يفتخرون بهذه الرسوم أيما افتخار • ثم ان الملكة كانت قد أهدت الى سنموت ثلاثة تماثيل وأمرت بوضعها بمعابد طيبة ، فلما ولي تحوتمس الثالث الملك محا اسم سنموت منها ، كما محا اسمه أيضا من جدر قبره وشاهده • وعمل تحوتمس الثالث مثل ذلك أيضا لتمثال حبوسنب • أما مقبرتا تحوتي وسن من أخي سنموت فقد نبشتا وطمست أسماء صاحبيهما • وأما مقبرة أحد أقران هؤلاء الرجال فقد محي اسم صاحبها وأزيل تماما فتعذر علينا معرفته • وحنق تحوتمس الثالث على اقليم السلسلة فأمر بارسال بعثة اليه لينتقم بازالة اسم كبير أمراء حتشبسوت الذي على جدر قبره • وهكذا تجد الآثار الى يومنا هذا ناطقة بما ارتكبه هذا الملك من القسوة والحنق • ومع ذلك فان الدير البحري ما يزال للآن حافظا ذكرى صاحبته ، كما أن الحائط المهدم الذي أقامه تحوتمس الثالث لاخفاء ما بأسفل مسلتي زوجته بالكرنك من النقوش ما يزال الى الآن شاهدا على أن لحتشبسوت مركزا ساميا وشرفا رفيعا •

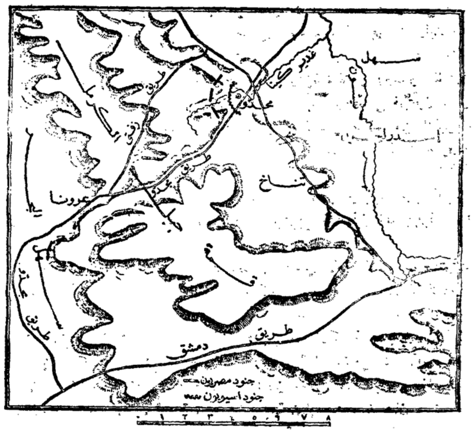
الفصل السادس عشر

توطيد أركان الامبراطورية : تحوتمس الثالث

كانت امبراطورية تحوتمس الثالث وحتشبسوت فى السنة الخامسة عشرة من حكمهما تمتد فى البلاد الأسيوية الى جبال لبنان شمالا · ولم ندر ماذا جرى لتلك الجهات حتى السنة الثانية والعشرين من حكم تحوتمس الثالث لما ذكر أنه زحف وقتئذ الى آسيا لاخضاع أهلها ، لكنه يستدل من أحوال تلك العصور وما تبعها من الحوادث أن سلطة مصر على تلك الجهات أخذت تضعف حتى تطلبت حضوره شخصيا لعلاجها · وليلاحظ أن البلاد الآسيوية مضى عليها الى ذلك الوقت مدة طويلة لم تر فيها جيشا مصريا ، فكاد أهلها ينسون ما لمصر من سلطة وعزة فاغتروا وجمعوا كلمتهم واتحدوا برياسة ملك قادش ، ثم أعلنوا عصـــيانهم على فرعون مصر وانفصالهم عن امبراطوريته · وأخذت أوداج قادش تنتفخ من الكبرياء والغطرسة اللذين كانا ظاهرين عليها فى عهدها الأول لما كانت معروفة بمملكة الهكسوس · ودلتنـــا الآثار أن البلاد الممتدة من يرازا (Yeraza) شمالى يوديا (Judea) الى اقليم المستنقعات جنوبا وقرب نهر الفرات شمالا شقت عصا الطاعة على مصر · أما جنوبى فلسطين فلم يجرؤ على ذلك لأن أهله اعتبروا واتعظوا بما حصل لمدينة شاروهن التى هى فى وسط ذلك الاقليم لما ذاقت الأمرين وقت حصار أحمس الأول لها ست سنوات فى حربه مع الهكسوس ، ولذلك جبن سكان جنوبى فلسطين الا قليلا منهم على مشاكسة المصريين · ثم استعمل الأهالى فى شمالى فلسطين وسوريا نفوذهم مؤثرين أهالى جنوبى فلسطين ليتحدوا معا لماكسة المصريين ، طالبين منهم أن يتركوا لهم بعض قوات وامدادات حربية فى مقابل اشتراكهم معهم فى ذلك الكفاح · فنجم عن ذلك أن انحاز بعض أهالى جنوبى فلسطين الى الثوار وقامت حرب أهلية مركزها مدينة شاروهن (شرهان) · بعد ذلك امتد العصيان الى غربى سوريا (المعروفة عند المصريين باسم جاهى) ثم الى مملكة متانى القوية وهى فى شرقى نهر الفرات ــ هؤلاء جميعا ساعدوا البلاد العاصية وشجعوها للتألب على فرعون مصر · والمعروف أن تحوتمس

الثالث لم يتمكن من اعادة بسط نفوذه على آسيا الا بعد أن عاقب ملك متانى عقابا صارما وأخضع بلاد النهرين للسدة المصرية • وليلاحظ أن مملكة متانى كثيرا ما كانت تتشاحن مع آشور الفتية التى كانت تنافسها فى التقدم والبطش ، فلما رأت متانى أن القوات المصرية أخذت تهدد كيانها أيضا زيادة على آشور صممت على بذل كل ما وسعها لدرء الخطر المصرى وتأسيس مملكة قوية كمملكة الهكسوس عاصمتها قادش تكون بمثابة فاصل وحاجز منيع بينه وبين مصر • ولا غرابة فى ذلك فقد بلغ البطش المصرى وأخبار امبراطورية النيل عنان السماء فى تلك الأزمنة • من ذلك تتضح لنا المخاطر التى واجهت تحوتمس الثالث وقتما استقل بالملك ، والحق يقال انه الفرعون الوحيد الذى صادفته مثل هذه الصـــعوبات والمخاطر مضاعفة •

ولم نهتد للآن الى ما وصل اليه الجيش المصرى من اهمال أيام الملكة حتشبسوت عندما وقف استخدامه فى الغزوات والفتوحات ، كما أننا



خريطة رقم ٤ : قمة جبل الكرمل وعلاقتها بمدينة مجدو

ويرى القارىء فيها مواقع مدينتى مجدو وتناخ والطرق الواصلة لمجدو مخترقة قمة جبل الكرمل ومراكز الجيشين فى بداية المعركة •

ما نزال نجهل المجهودات العظيمة التى بذلها تحوتمس الثالث فى تحسين جيشه وتدريبه وجعله قادرا على مكافحة تلك الاخطار المتجمعة ، لكن المعروف أن جيش مصر كسواه من جيوش البلاد الشرقية وقتئذ لم يكن كبير العدد • والمرجح أن فراعنة مصر لم تغز آسيا بأكثر من عشرين ألف جندى أو ثلاثين الفا ، وهذا فى الحقيقة أقرب تقدير للصواب (١) • وفى أواخر السنة الثانية والعشرين من حكم تحوتمس الثالث ظهر الملك على رأس جيشه مستعدا للنضال وفتح البلاد واخضاع الممالك فزحف بجيشه متجهــا نحو البلاد الآسيوية مبتدئا من مدينة ثارو (Tharu) ــ قرب مدينة القنطرة ــ وهى آخر مدينة مصرية على حدود مصر الشمالية الشرقية، وكان ذلك حوالى ١٩ أبريل سنة ١٤٧٩ قبل الميلاد • فوصل الى غزة فى ٢٨ أبريل ، وهى على بعد مائة وستين ميلا من مدينة ثارو أى بعد مسير تسعة أيام • وهذا التاريخ يوافق اليوم الرابع من شهر بشنس بعد مضى اثنتين وعشرين سنة كاملة على انتخاب آمون لتحوتمس الثالث ، على أن يكون ملكا على مصر بساحة الكرنك ذات العماد التى شيدها والده • والمعروف عن تحوتمس الثالث أنه كان لا يألو جهدا فى التآمر وبذل المساعى طويلا للجلوس على عرش مصر حتى بلغ غرضه • ولما كان هذا الملك نشيطا يقدر قيمة الزمن اختصر فى مظاهر الاحتفال بمرور اثنين وعشرين عاما على تتويجه وعول على الاستمرار فى الزحف شمالا فى صباح اليوم التــــالى للاحتفــــال فســـار محاذيا لشــبهلا (Shephelah) بالقرب من البحر مخترقا سهل شارون (Sharon) وميمما مدينة يوحم (Yehem) المجهــولة المركز فوصــل اليها فى اليـــوم العــاشر من شهر مايو ســنة ١٤٧٩ قبل الميلاد وضرب قبابه قربها ، وتبعد هذه المدينة عن غزة بنحو ثمانين ميلا أو تسعين وهى على المنحدرات الجنوبية لسلسلة جبال الكرمل• فى ذلك الوقت كانت القوات الأسيوية العاصية اجتمعت بقيادة ملك قادش وسارت جنوبا حتى آخر حدود حلفائها واحتلت حصن مجدو القوى الواقع فى جرزل (Jezreel) على المنحدر الشمالى لجبال الكرمل ، وجبل الكرمل هذا المستعرض الاتجاه يكون أول حاجز منيع ضد القوات المصرية الزاحفة على آسيا ، ولابد أن ملك قادش علم بذلك فاتخذه أول خط دفاع له ، ومنه علمنا أن هذا الملك كان ماهرا فى الفنون الحربية وأصول المعارك (مأخـــوذ عن برســـتد من دائرة معـــارف التـــاريخ القــديم لجامعة كمبردج سنة ١٩٢٥) ، وهذا البيان هو أقدم ما ورد لنا فى التاريخ عن هذه المدينة • والمعروف أن مجدو هذه كانت مركزا حربيا منيعا لوقوعها بين سلسلتى جبال لبنان واشرافها على الطريق الموصل مصر ببلاد العراق ،

---

(١) راجع كتاب معركة قادش للمؤلف صحيفة ٨ ــ ١١ •

ولذلك أصبحت لهذه المدينة أهمية فى تاريخ الشرق أخذت تزداد على مر الدهور . وقد اعتبر تحوتمس الثالث كل هذه البلاد من أملاكه ، ولذا تكلم عنهـا قائلا : « لقـد شرعت بـلاد الفنحـو الآسيوية تغزو بلادى ..... » ومنه يستنتج أن تحوتمس الثالث زحف بجيوشه فى بلاد موالية غير معارضة الى جبال الكرمل وبعد ذلك سار على حـذر . فلما بلغ مدينة يوحم (Yehem) علم باجتماع جيوش أعدائه بمدينة مجدو فعقد مجلسا عسكريا من كبار ضباطه وتداولوا الأمر فى أحسن الطرق الممكن اتباعها لعبول جبال الكرمل والوصول الى سهل ازدريلون (Esdraelon) (يزرل) ، وكان أمامهم ثلاثة طرق تمكن الجيوش من عبور تلك المنطقة الجبلية ، أولها يبتدىء من يوحم ويتجه الى مدينة عرونا مخترقا الجبل المذكور وواصلا الى أبواب مجدو (راجع خريطة رقم ٤) . وثانيها يتجه جنوبا مارا ببلدة طناخ (Taanech) على بعد خمسة أميال من الجنوبى الشرقى لمجدو ، وثالثها شمالى ذلك يمر مخترقا بلدة زفتى (Zefti) وينتهى بالشمالى الغربى لمجدو (٢) . فاختار تحوتمس الثالث الطريق الأول لقصره ، أما ضباطه فاشاروا عليه باتباع أحد الطريقين الآخرين لأنهما أوسع من الأول قائلين : « اذا اتبعنا الطريق الأول فى زحفنا افلا نضطر خيولنا أن تسير فرادى وكذا جنودنا فتكون مقدمتنا مشتبكة مع الأعداء ومؤخرتنا لاتزال فى عرونا ؟ » (٣) . من هذا استنتجنا أن المصريين كانوا على معرفة كبيرة بمصاعب ذلك الطريق القصير ، لكن تحوتمس الثالث لم يأبه لمشورتهم وأقسم أن يتبع هذا الطريق مخاطبا ضـباطه بأنه قد صـمم على تنفيـذ فكره وهـم أحرار فى أن يوافقوه أو يخالفوه . بعد ذلك استعد واحتاط وزحف على عرونا فى ١٣ مايو وخوفا من مفاجأة أعدائه له ورغبته فى تشجيع جنده قاد جيوشه قائلا : « سأسير أمامكم كى أظهر لكم الطريق فتقتفوا أثر قدمى » . وتقع أرونا على جبل الكرمل ويصل اليها الانسان من طريق ضيق وقد وصل اليها تحوتمس الثالث سالما وأمضى فيها الليلة الرابعة عشرة من شهر مايو ، ولابد أن جيوشه كانت منتشرة وتمتد على الطريق الممتد بين عرونا ويوحم . فلما كان صباح يوم ١٤ مايو واصل زحفه مسرعا لكنه سرعان ما التحم ببعض جنود أعدائه الذين كانوا لحسن الحظ قليلى العدد ، ولولا ذلك لفتكوا به لأنه كان منهوك القوى مبعثر الجنود على مدى الطريق الجبلى الضيق . فى ذلك المكان أخذ الطريق يتسع فأخذ تحوتمس الثالث يوسع

(٢) انظر خريطة رقم ٤ .

(٣) انظر خريطة رقم ٤ .

مقدمة جيشه أيضا وهناك شدد عليه ضباطه بان ينتظر حيث هو حتى تصل وحدات جيشه التى لاتزال فى عرونا فأصغى لذلك وانتظر مقاوما أعداءه · ولما كان عدد القوة المعادية قليلا لم يكتف المصريون بالمقاومة بل أخذ تحوتمس يزحف تدريجا حتى اذا ما حل وقت الزوال كانت مقدمة جيشه قد بلغت سهل يزرل (Esdraelon) · هذا هو أقدم جيش معروف للآن دخل ذلك السهل التاريخى الذى أصبح منذ ذلك الوقت معتركا حربيا حتى عهد اللورد اللنبى · وليلاحظ أن اللورد اللنبى اتخذ فى زحفه الطريق نفسه الذى سار فيه تحوتمس الثالث وذلك عام ١٩١٨ لما سار بخيالته خلف الجيش التركى الهارب (مأخوذ عن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبردج – القسم المصرى القديم – صحيفة ٧٠ طبع سنة ١٩٢٥) · وحوالى الساعة الواحدة مساء بلغت الجنود المصرية جنوبى مجدو بدون مقاومة عسكرية على شاطىء غدير كينا (Kina) وهكذا خسر الآسيويون فرصة لا تقدر بثمن لأنه كان فى امكانهم سحق المصريين تماما ، والظاهر أنهم كانوا على مسافة بعيدة فى الجنوبى الشرقى للمدينة وقتما كانت صفوف المصريين الرفيعة تتدفق من الجبل · ويستحيل علينا الآن أن نعرف موقع الأعداء بالضبط وقتئذ لكن المعروف أنه لما التحمت مقدمات الجيشين فى الجبال كان جناح الآسيويين الجنوبى فى مدينة طناخ (Taanach) ظنا منهم بأن تحوتمس الثالث اتبع فى سيره طريق هذه المدينة الى مجدو ، ولولا ذلك لاستحال على المصريين الانحدار من الجبال والوقوف جنوبى مجدو · بعد ذلك طاف تحوتمس الثالث حول معسكره فى سهل مجدو وأصدر أوامره الى جميع قواته أن تستعد بسرعة وبنظام تام ، أما الشعور المصرى وقتئذ فكان بالغا أحسنه وكانت روح الحرب متأججة فى الصدور · وفى عصر ذلك اليوم (١٤ مايو) أو فى مسائه اغتنم تحوتمس الثالث فرصة وجود الأعداء فى الجانب الشرقى أو الجنوبى الشرقى من جيشه وزحف بجناحه الأيسر على الشمالى الغربى لمجدو (٤) وهكذا حفظ لنفسه خط الرجعة مارا ببلدة زفتى فى حالة هزيمته · أما اذا انتصر فهذا الطريق يمكنه من قطع خط الرجعة على أعدائه اذا حاولوا الفرار شمالا ·

وفى فجر يوم ١٥ مايو أمر تحوتمس الثالث جيشه بالزحف والهجوم على العدو فاعتلى عجلته البراقة المصنوعة من خليط الذهب والفضة وسار فى قلب جيشه ، وكان جناحه الأيمن على تل جنوبى غدير كينا أما جناحه الأيسر فقد ذكرنا سابقا أنه كان فى الشمالى الغربى لمجدو · فأراد

---

(٤) ثبت ذلك بموضعه فى اليوم التالى ·

الاسيويون أن يحموا مدينتهم فألقوا قواتهم بين جيش تحوتمس الثالث ومجدو التى عززت طبعا تلك القوات بنجدات من عندها أيضا ، فانقض تحوتمس الثالث عليهم وهو في مقدمه جيشه بغيرة متلهبه شاهرا جسامة متحمسا للنزال وأخذ يفتك بالاعداء ويصعق سكان الرتنو ويأسر أمراءهم أحياء ويغنم عجلاتهم المذهبة ذات الخيل المطهمة ، وعلى أثر هذا الهجوم الأول تقهقر العدو وفر نحو مجدو مذعورا تاركا خيله وعجلاته المفضضة والمذهبة ، وصار سكان المدينة ينتشلون جنودهم من ملابسهم ، لأن أبواب المدينة أقفلت وقتئذ ، فكان الأهالى يدلون ملابسهم لربط الجنود الفارة اللائذة اليهم وشدهم داخل مجدو • ومن المؤكد أنه لو استمر تحوتمس الثالث وقتئذ فى الهجوم على أعدائه بسرعة لتمكن من الاستيلاء على مجدو لكن جيشه شغلته الأسلاب والغنائم فتمكن بذلك ملك قادش اللعين وملك مجدو التعس من الدخول والتحصن فى مجدو • وهكذا الجيوش الشرقية كلما حازت نصرا كانت وما تزال تمتنع عن القتال ومواصلة الكفاح مهتمة بالغنم ، واذا كانت هذه الحال فى عهدنا فلتحوتمس بعض العذر فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد اذا كانت حنوده منهمكة فى نهب غنيمة الأسيويين بدل مواصلة الكفاح • واليك بيان تلك الغنيمة العظيمة التى استولى عليها الجيش المصرى وقتئذ : « خيل وعجلات مذهبة ومفضضة ••• أما جثث الأعداء فكانت ملقاة على الأرض كالسمك • وقد لبث جيش جلالته الظافر يعد تلك الغنائم وأقسامها • وهناك اتضح أن خيمة ملك قادش اللعين التى كان فيها ابنه أسرت أيضا •••• فعم الفرح نفوس المصريين كلهم وانبروا لشكر آمون على النصر الذى منحه ابنه تحوتمس الثالث •••• ثم جمع الجنود الغنيمة التى استولوا عليها من أسرى أحياء وخيل وعجلات مذهبة ومفضضة » • ومنه يتضح أن هزيمة الآسيويين كانت تامة حتى وقعت خيمة ملك قادش فى أيدى المصريين فأحضروا أثاثها الثمين النفيس الى فرعون • أما تحوتمس الثالث فكان شديد الحذر والحرص لأنه اقتنع بما خسره من الصدف الثمينة فلم تسره علامات النصر والابتهاج التى قام بها جيشه ، ولذلك خاطب قواته قائلا ما ترجمته : « لو استمررتم فى الهجوم واستوليتم على هـذه المدينة لقدمت اليوم قربانا عظيمـا لأجل المعبود رع • فرؤساء البلاد العاصية جميعا موجودون الآن داخل هذه المدينة مجدو ، ولذا فاستيلاء عليها كان بمثابة الاستيلاء على ألف مدينة » • ثم أصدر جلالته أمره بحصار مجدو فى الحال فقاستها الجنود المصرية من الخارج وطوقتها بسور من الشجر الأخضر الجميـل ولبث الملك شرقى المدينة مشرفا على هذا العمل وقد سر من ذلك لأنه لما عاد الى مصر باهى به قائلا ان آمون أعطاه جميع أعدائه الآسيويين (من بلاد جاهى) محاصرين فى مدينة واحدة ، وان جلالته اصطادهم فى تلك المدينة وطوقهم بسور

منيع ولذلك لقبه المصريون « تحوتمس محاصر الآسيويين » لأن العادة اقتضت في عهد الامبراطورية أن كل بناء يشيده فرعون يطلق عليه اسم خاص • ثم أعطيت الأوامر الشديدة للجيوش المصرية المحاصرة بمراقبة المدينة مراقبة دقيقة وبعدم السماح لأحد من أهلها بالاقتراب من جيوش فرعون الا في حال تسليم نفسه أسيرا • وسنرى فيما بعد أنه قبل أن يتمكن تحوتمس الثالث من احكام حصاره تمكن ملك قادش من الهرب مع شدة رغبة تحوتمس في منع ذلك وعظم احتراسه بارسال جزء من جيشه في الشمال الغربي لمجدو قبل التحام الحبشين •
وباستمرار الحصار كان أمراء آسيا الذين أسعدهم الحظ فلم يحضروا داخل مجدو يسلمون أنفسهم لفرعون مصر المتأجج فرحا ونشاطا ، ودلتنا الآثار أن هؤلاء الأمراء أتوا ساجدين خاضعين مظهرين طاعتهم للملك الطائر الصيت • ولم تصل الينا معلومات عما جرى وقت الحصار ولا عما قام به المصريون من الهجوم سوى ما أورده الكاتب الكاهن الذي هو مرجعنا الوحيد في ذلك • ومن رواية هذا الكاتب « أن جلالة الملك تحوتمس الثالث كان يدون كل يوم حوادث تلك المدينة وما جرى لملكها اللعين وجيشها الخسيس في درج جلدي حفظ لمعبد آمون في ذاك الوقت » • أما هذا الدرج فقد فقد لسوء الحظ كما فقد أيضا سفر أيام ملوك يهوذا (٥) ، ولذلك كانت خسارتنا العلمية والتاريخية عظيمة لا تقدر بثمن • ومكث المصريون في وادي يزرل مدة طويلة عاشوا في أثنائها على حبوب ذلك الوادي ودسم أغنامه ، فكان هؤلاء القوم أقدم من عرف من غزاة ذلك الوادي الجميل الذي صار منذ ذلك الوقت ميدان الحروب والمشاحنات الى عهد نابوليون •
أما الحال داخل مجدو فكانت على نقيض خارجها لأن المدينة أخذت على غرة ولم تستعد للحصار فضرب الجوع أطنابه ولم يعد المحصورون قادرين على مقاومة الحصار أكثر من بضعة أسابيع ثم سلموا في آخرها وتبين أن ملك قادش ليس ضمن الأسرى • قال المؤرخ المصري : « ان الأسيويين الذين كانوا في مدينة مجدو التعسة •••• قدموا أنفسهم لعظمة تحوتمس الثالث معطي الحياة قائلين : اسمح لنا ياذا الجلالة أن نقدم لك الجزية اللازمة • ثم أحضروا لجلالته ما يملكونه مظهرين له الولاء راجين منه أن يسمح لهم بالبقاء أحياء لأن فضله عميم » • فرد عليهم جلالته : « لقد سمحت لكم عظمتي بأن تبقوا أحياء » ومنه يتضح أن معاملة الملك لهم كانت غاية في اللطف ••• ولم نهتد للآن بين نصوص فرعون مصر أنه كان يفاخر ويباهي بالاتلاف العظيم والتخريب العام كالذي أتاه ملوك آشور وباهوا به

---

(٥) سفر الملوك ، جزء أول ، اصحاح ١٥ ، سطر ٢٣ •

به وقت معاملتهم لعصاتهم · ووضع المصريون أسرة ملك قادش رهينة لاتقاء شره ، فقال تحوتمس الثالث : « لقد أخذت نساء وأطفال اللعين ملك قادش رهائن وكذا نساء الرؤساء وأطفالهم » ·

ومع أن الغنائم التى استولى عليها المصريون فى حومة الوغى كثيره فقد كانت صغيرة جدا بالنسبة لما وقع فى يد فرعون اثر سقوط مجدو وتسليمها لجيشه ، فقد استولى المصريون وقتئذ على تسعمائة وأربع وعشرين عجلة حربية وفى ضمنها عجلتا ملك قادش ومجدو ، وعلى ألفين ومائتين وثمانية وثلاثين حصانا وعلى مائتى زرد منها زرد الملكين المذكورين وقباب ملك قادش المزركش الغالى وعلى ألفين من البهائم الكبيرة واثنين وعشرين ألفـــا وخمســـمائة رأس من الغنم وأثاث ملـك قادش البديع وصولجانه الفضى ، وتمثال فضى يحتمل أنه تمثال معبوده وتمثال لشخصه مصنوع من الأبنوس الملبس بالذهب واللازورد وكميات كبيرة من الذهب والفضة لا يمكن تقديرها بالضبط لان الكاتب المصرى أضافها الى كميات الذهب والفضة التى استولى عليها المصريون فى المدن الأخرى الآسيوية · ولا يخفى أن الأغنام المذكورة سببت فى الأراضى حول مجدو ، لأننا ذكرنا أن المدينة سلمت لأن ضغط القحط كان عليها شديدا · وقبل أن يترك المصريون مجدو حصدوا زرع سهل يزرل المحيط بها فجمعوا منه ما يقرب من مائة وثلاثين ألفا من مكاييل الحبوب ، علاوة على ما استنفده الجيش المصرى فى أثناء حصاره لمجدو ·

ولم يترك تحوتمس فى خلال زحفه فرصة تمر الا استخدمها فى اخضاع البلاد المعادية شمالى مجدو ، فوصل الى منحدرات لبنان الجنوبية حيث توجـد الامارة ذات المـدن الثـلاث ينوعام (Yenoam) ونوج (Nuges) وحرنكرو (Herenkeru) وكانت تحـت حـكم ملك قادش فسلمت للمصريين بسرعة . ولا يبعد أن رئيسها كان بين السراة الذين أظهروا خضوعهم وطاعتهم لتحوتمس · ثم رأى الملك أن يشيد قلعة بتلك الجهة لصد أى تقدم جنوبى يحاوله ملك قادش الذى لم يقهر للآن ولتأمين الطريق الذى بين سلسلتى جبال لبنان من أعداء المصريين ، وقد سميت هذه القلعة « تحوتمس قامع البرابرة » ، وقد استعملت هنا كلمة « برابرة » النادرة التى أطلقتها حتشبسوت سابقا على الهكسوس · وأخذ تحوتمس ينظم ما أخضعه من البلاد ويوطد فيها السلم مستبدلا بحكامها المعادين آخرين موالين له وقد سمح للحكام الجدد أن يحكموا البلاد بحرية بشرط أن يدفعوا لمصر الجزية فى مواعيدها · ولكى يتحقق أنهم راعوا هذه الشروط أخذ الأنجال الكبار لهؤلاء الحكام الى مصر رهائن ووضعهم

في قصر خاص يدعى «حصن طيبة» وهناك تعلموا العلوم والمعارف وغرس في قلوبهم حب مصر والعطف عليها ، واذا توفى أحد حكام آسيا كان يسمح لنجله الكبير أن يعود الى بلده ويقوم مقامه ٠ وهكذا كانت سلطة تحوتمس الثالث واصلة إلى جبال لبنان شمالا ومتوغلة فى الداخل حتى مدينة دمشق ٠ والمعروف أن تحوتمس كان يفرض الجزية ويظهر من التشدد على الأهالى بقدر ما يظهرونه من العداوة والبغضاء نحو مصر ، ولذلك لما رجع جلالته الى مصر كان معه نحو أربعمائة وستة وعشرين رطلا ذهبا وفضة مصوغة بشكل حلقات أو أوان بديعة أو أثاث ثمين علاوة على ما استولى عليه من غنائم أخرى أقل قيمة منها فى أثناء سقوط مجدو ٠

ولا حاجة بنا أن نؤكد للقارىء أن وصول تحوتمس الثالث الى طيبة فى أوائل أكتوبر كان محفوفا بالتبجيل بشكل لم تر البلد أفخر ولا أحل منه فى أى عهد سابق ، ففى أقل من ستة أشهر (أى فى مدة فصل الجفاف) فى فلسطين زحف من ثارو (Tharu) على آسيا وانتصر انتصارا عظيما على مجدو بعد ما حاصرها وسلمت له ثم زحف شمالا وانتهى الى لبنان حيث استولى على ثلاث مدن وشيد قلعة عظيمة ووطد النظام الادارى فى شمالى فلسطين ثم عاد سالما ظافرا الى طيبة ٠ ولكى يتصور القارىء الصعوبات التى قاساها تحوتمس الثالث فى حروبه الآسيوية يجدر به أن يطلع على الأهوال التى قاستها جنود نابوليون فى تلك المنطقة فى أثناء زحفها من مصر الى مدينة عكا التى تبعد عن حدود القطر المصرى بقدر المسافة التى تبعد بها مجدو ، وعلى المصاعب التى لاقاها اللورد اللنبى أخيرا وقت زحفه على الترك فى الجهة نفسها (مأخوذة عن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبردج صحيفة ٧٢ طبعة ١٩٢٥ — القسم المصرى) ٠ ولا غرابة اذا علمنا أن تحوتمس الثالث لما عاد الى طيبة مقر حكمه سالما فانما أقام ثلاثة أنواع من « أفراح النصر » مدة كل منها خمسة أيام احتفالا بنصره الآسيوى ، ووافق وقت هذه الأعياد ميعاد الأعياد الأول والثانى والخامس لآمون على حسب التقويم السنوى ٠ وقد احتفل بآخر هذه الأعياد الثلاثة فى معبد تحوتمس الثالث الذى كان قد أنجز حديثا وقتئذ بسفح طيبة الغربى ، فكان هذا أول عيد أقيم بذلك البناء ٠ وصارت هذه الأعياد بعد ذلك ثابتة ووقفت لها الخيرات والنفقات للتمكن من احيائها كل سنة ٠ ولما حل ميعاد أكبر أعياد آمون وهو أوبت الذى تبلغ مدته أحد عشر يوما وقف تحوتمس الثالث على ذلك المعبود ايراد المدن الثلاث التى استولى عليها جنوبى لبنان زيادة على ما أهداه من الهدايا الثمينة والأوانى البديعة المصنوعة

من الذهب والفضة وغير ذلك من الأحجار الكريمة التي غنمها من أرض الرتنو · وأراد أن يضمن لمعبد آمون ايرادا كافيا ليكون على الدوام مزينا بأفخر الأثاث والأمتعة والأدوات فأضاف الى تبرعاته السالفة له أراضى واسعة بالوجه البحرى والوجه القبلى وقطعانا من الأغنام والخدم المزارعين الذين دخلوا فى حوزته بانتصاره على البلاد الآسيوية وهكذا وضع أكبر حجر أساسى فى زيادة ثروة معبد آمون حتى فاق هذا المعبد فى الثروة معابد القطر جميعا · ثم اتضح له أن المعبد القديم لا يتناسب مع ماليته العظيمة خصوصا وأنه أصبح الآن المعبد الرسمى لامبراطورية عظيمة زاهية ، زد على ذلك أن الساحة التى شيدها تحوتمس الأول بالكرنك هدم ثلث سقفها وبعض عمدها وقتما باشرت الملكة حتشبسوت نصب مسلتيها ، فصار الجناح الجنوبى لتلك الساحة بلا سقف ولا عمد ولم يبق فى جناحها الشمالى الا أربعة عمد من خشب الأرز وعموذان من الحجر الرملى ، ثم أن المبانى التى شيدها تحوتمس الثالث حول مسلتى حتشبسوت شوهت ذلك المعبد أيضا ، ومع هذا كانت هذه القاعة عزيزة فى نظر تحوتمس الثالث لأن آمون اختاره ملكا على مصر فيها · ولهذه الأسباب استبدل الملك بالمهندس تحوتى الذى كان مواليا لحتشبسوت مهندسا آخر يدعى (من خبر رع سنب) ومعناه تحوتمس الثالث المتمتع بالصحة لاخلاصه له ، وأمره بأن يصلح الجناح الشمالى للساحة المذكورة وأن يستبدل بعمدها الخشبية أخرى من الحجر الرملى ، أما الجناح الجنوبى فقد ترك وشأنه · وفى هذا الجناح المرمم كان تحوتمس الثالث يحتفل ببعض أعياد انتصاراته الأولى مخصصا الباقى منها لمعبده الذى وهبه لآمون وهو فى سهل طيبة الغربى · ونستدل من تشييد تحوتمس الثالث لمعبد بتاح الصغير القريب من معبد الكرنك العظيم بعد رجوعه منتصرا من غزواته الأولى،أنه أظهر سخاء لمعبودى عين شمس ومنف القديمين ، ولا يخفى أن معبد عين شمس كان معتبرا معبد الحكومة الرسمى لأن رع كان معتبرا شكلا آخر لآمون ·

وأخذ تحوتمس الثالث يوطد امبراطوريته على أساس مكين · لكنه يلاحظ أن الملكة حتشبسوت لم تقم بحروب فى أثناء حكمها بآسيا ، ولذا ضعف النفوذ المصرى هناك كثيرا ، وعليه فلم تكن حملة تحوتمس الثالث الأولى مع شدتها كافية للقضاء على قادش عدوه اللدود · لذلك فضل أن ينظم ويحمى ما أخضعه من بلاد آسيا أولا ثم يزحف ثانيا على أعدائه · وفى السنة الرابعة والعشرين من حكمه زحف بجيوشه الجرارة على آسيا سائرا فى الطريق المنحنى الطويل مخترقا شمالى فلسطين وجنوبى سوريا فتقاطر عليه حكام تلك الجهات مظهرين له ولاءهم وخضوعهم « حيثما طاف أو ضرب قبابه » · وكانت أخبار نصره الأولى بلغت آشور التى كانت

وقتئذ فى عنفوان شبابها فرأى ملكها أن الأصوب له معاملة الامبراطورية المصرية العظمى بالحسنى فارسل لتحوتمس الثالث حال وصوله الى سوريا هدايا عظيمة من الأحجار الكريمة والخيل المطهمة فاعتبرها المصريون وقتئذ جزية اشارة الى ولاء آشـــور لمصر والمرجح أن هذه الحملة لم تقع فيها مشاحنات ولا وقائع حربية ٠

وعاد تحوتمس الى طيبة فوصـــل اليها فى أكتوبر كسابق غزوته وحينئذ صمم على توسيع الكرنك لتكون فى نظامها مناسبة للامبراطورية الجديدة ٠ ولما كان رسوب غرين النيل فى قرار النهر رفع مستوى مائه حتى أوصله زمن الفيضان الى فناء المعبد ٠ اضطر تحوتمس الى أن يرفع مستوى أرض ذلك المعبد ، فهدم المدخل البديع الذى شيده أمنحتب الأول ٠ وفى أواخر فبراير فى عيد مبدأ الشهر القمرى الذى وافق وقتئذ عيد آمون العاشر رأس الملك احتفالا عظيما لوضع أساس البناء الجديد الذى صمم على تشييده بالكرنك ٠ وقد زاد هذا الاحتفال أهمية خروج تمثال آمون ليشهد الاحتفال واشتراك تحوتمس الثالث فى شد الحبل المستعمل لقياس أبعاد الأساس ٠ وليلاحظ أن وجهة المعبد الأصلية هى فى الجهة الغربية لكن مسلتى حتشبسوت المنصوبتين فى ساحة تحوتمس الأول المهدمة كانتا عقبتين فى سبيل توسيع البناء فى تلك الجهة ٠ زد على ذلك أن تحوتمس الثالث لم يتمكن ولم يرغب فى تشييد المبانى حول مسلات والده القائمة على مدخل المعبد الغربى ولذلك صمم على أن يشيد ساحاته الشامخة ذات العمد العظيمة فى طرف المعبد الشرقى حيث توجد الى الآن باقية ومعتبرة احدى أبنية طيبة الكبرى ٠ وأكبر هذه الساحات واحدة يبلغ طولها حوالى مائة وأربعين قدما وهى موازية لمحور المعبد الرأسى وعرفت باسم « تحوتمس الثالث عظيم الآثار » وحافظت على هذا الاسم مدة ستمائة وخمسين سنة بعد ذلك ٠ ويوجد خلف هذه الساحة قدس الأقداس تحيط به خمسون قاعة تقريبا ، وقد خصصت احداها وهى الجنوبية لقراءة الدعوات والصلوات لذكرى أجداد تحوتمس الثالث ٠ وتتصل بهذه القاعة أخرى أمر الملك بكتابة أسماء أجداده عليها وبالاكثار من القرابين لهم وبعمل تماثيل لأجسادهم ، وماتزال قائمة هذه الأسماء محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس ٠ وحديثا عثر على تماثيل عدة لأجداد تحوتمس الثالث فى الحوش الجنوبى للمعبد ، حيث خبئت وقت الحرب فبقيت سليمة الى أن كشف عنها ٠

وفى السنة التالية (أى السنة الخامسة والعشرين من حكم تحوتمس الثالث) ذهب الى بلاد آســـيا وجعل همه تنظيم أملاكه فيها واعتبرت

فيما بعد النصف الجنوبى لامبراطوريته المقبله ، اما الجزء الشمالى فكان لايزال عاصيا · ثم عاد الى طيبة فوجد مبانيه بالكرنك بلغت من الفخامة درجة كبيرة فأمر بنقش جدر احدى القاعات بنباتات وحيوانات آسيا التى سباها وجاء بها ليقدمها الى معبد آمون وبحيرته المقدسة التى شيد حولها افريزا جميلا ·

ولم تصل الينا أخبار عن رحلة تحوتمس الثالث الرابعة فى آسيا لكنه يستدل من قرائن الأحوال أنها وجهت للغرض نفسه الذى ذهب لأجله فى رحلاته الثلاث السابقة · واتضح لتحوتمس وقتئذ أن غزو قادش عن الطريق الواقع بين سلسلتى جبال لبنان يعرضه للخطر اذا لم يخضع أولا بلاد فينيقيا التى على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، كما أنه تأكد أنه يستحيل عليه غزو أرض النهرين قبل أن يخضع قادش المسيطرة على وادى نهر (العاصى) الأورونط ولذلك قام بعدة غزوات على شاطىء البحر الشمالى ليتخذه فى المستقبل قاعدة حربية فى حروبه مع قادش ، ومتى نجح فى ذلك سهل عليه الزحف شمالا من الشاطىء على بلاد متانى واقليم النهرين جميعه·ولا شك فى أن هذه الخطوات سديدة لدرجة يستحيل على أى ضابط حربى حديث أن يبتكر أحسن منها بحيث تناسب أحوال تلك العصور أو أن ينجزها بمثل ما أنجزها تحوتمس من الدقة والمثابرة · والحق يقال ان الحلفاء لو اتبعوا فى الحرب العظمى هـذه الخطة فى حرب الترك لفازوا بالنصر هناك فى أقل من سنة واحدة (مأخوذ عن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبردج صحيفة ٧٤ طبع ١٩٢٥) وقد جهز لذلك أسطولا تحت قيادة القائد الأمين نيبامون الذى خدم تحوتمس الأول سابقا · وفى السنة التاسعة والعشرين عزم على القيام بغزوته الخامسة فأبحر بأسطوله الضخم إلى المدن الشمالية على شاطىء فينيقيا الغنى لأول مرة فى حياته ، ولابد أنه قد نقل معداته الحربية وجنوده على أسطوله لأنه بدأ بأعماله الحربية فى فينيقيا قبل أن يخضع قادش وجنوبى تلك البلاد · ولا يبعد أنه توصل الى النزول على شاطىء فينيقيا الشمالى باتفاق ودى سابق مع مدينة صور (Tyre) لأنه ورد فى الآثار أن أحد الفراعنة عامل هذه المدينة معاملة خصوصية بأن اعتبرها مدينة حرة (٦) · وبدهى أن المدينة المذكورة لم تقدم على ابرام مثل هذا الاتفاق الا حفظا لتجارتها من الكساد وتخلصا من نير الجزية أو على الأقل من بعض شروط المستقبل · ولم نهتد للآن الى أول مدينة استولى عليها تحوتمس الثالث وقتئذ لكنه يغلب أنها على الشاطىء مقابل تونب والظاهر

---

(٦) خطابات العمارنة ، لونكلر ، لوح ٣٢ رقم ٢ ، ٧٠ ظهر ١٢ ملاحظة ·

أنها كانت مدينة غنية لان تحوتمس استولى فيها على غنائم كثيرة ، وورد ان هذه المدينة كانت تحوى معبدا لآمون شيده أحد أسلاف تحوتمس الثالث (ربما كان تحوتمس الأول أو امنمحات الأول) • فى ذلك الوقت أيقنت المدن الداخلية للبلاد ان نجاح هذه الضربة الموجهة اليهم معناه دمارهم وهلاكهم فبادر أهلها بارسال القوات والمدد لمحاربة المصريين وكانت مدينة تونب أول من قلم بذلك لأنها تأكدت أن سقوط المدينة المجهولة المذكورة سابقا يعقبه سقوط تونب أيضا • أما تحوتمس الثالث فاستولى أولا على أسطول المدينة المجهولة ثم زحف مسرعا بجيشه الى الجنوب نحو مدينة ارواد المنيعة فحاصرها مدة يسيرة اضطر فى أثنائها لان يجتث الاشجار المحيطة بها من أصولها كما فعل بمدينة مجدو فسلمت له بعد مدة يسيرة ثم استولى على خيراتها الفينيقية الجزيلة • وكان ذلك وقت الخريف والاشجار محملة بالفواكه اللذيذة فوجد المصريون هناك النبيذ يتدفق من معاصره كالميـــاه والحبوب مكدسة على تلال المدينة بكميات تفوق رمل الشاطىء فأخذ منها الجيش المصرى جزءا عظيما • واستحال على تحوتمس أن يقيد جيشه بالمحافظة على النظام فى الأيام الأولى لهذا النصر ، فقد جاء أن الجنود المصرية شربت الخمور وأكثرت من الاكل والشرب والتضميخ بالعطور كما كانت تفعل فى الأعياد بمصر • ثم تقدم حكام مدن شاطىء فينيقيا مظهرين الخضوع والولاء لتحوتمس وفى أيديهم الجزية • وهكذا استولى تحوتمس على جزء من شاطىء فينيقيا الشمالى اتخذه فيما بعد قاعدة حربية لغزو البلاد المجاورة ، ثم عاد الى مصر بحرا ويظن أن هذه العودة البحرية لم تكن الأولى من نوعها •

الى هنا مهدت السبل وأعدت الوسائل لغزو قادش لأن تحوتمس الثالث أخضع تماما البلاد الجنوبية وكذا الجزء الشمالى للشاطىء البحرى نتيجة غزواته الخمس ، وعليه صمم تحوتمس الثالث على القيام بغزوة سادسة يسحق فيها ملك قادش عدوه اللدود • ففى السنة الثلاثين من حكمه سافر تحوتمس الثالث بحرا الى فينيقيا فوصل اليها فى أواخر الربيع أى بعد موسم المطر وأنزل جنده فى صميرة (Simyra) على فم النهر الكبير (Eleutheros) ثم زحف فى هذا الوادى متجها رأسا نحو قادش لأن هذا الطريق أقصر وأسهل طرق قادش من ساحل فينيقيا الشمالى ، زد على ذلك أنه الطريق الوحيد الصالح للاجراءات الحربية واختراق المنطقة الجبلية الى قادش وهى غربى نهر العاصى فى الطـرف الشمالى للوادى الذى هو بين سلسلتى جبال لبنان • وفى ذلك المكان تنتهى سلسلة جبال لبنان الشرقية معرجة فى السهل الذى هو بالجنوب الشرقى للمدينة (راجع الخريطتين رقم ٥ و٧) • ويتفرع من نهر العاصى

غربا فرع صغير شمالى قادش وملاصق لها تماما ولذلك كانت هذه المدينة بين ملتقى هذين النهرين • وكانت هناك قناة أيام تحوتمس الثالث ما تزال آثارها باقية للآن تصل هذين النهرين بعضهما ببعض وتكمل الحلقة المائية حول قادش • زد على ذلك أنه كان هناك خندق داخل هذه الحلقة المائية يحيط بالمدينة أيضا ويجعلها حصناً منيعا لا نظير له فى سوريا رغم وقوعه فى سهل مسطح • وليلاحظ أن موقع قادش الجغرافى ذو أهمية جغرافية كبيرة ، لأنها مشرفة على وادى العاصى وعلى الطريق الموصل من الشاطئ الى داخلية البلاد مسافة طويلة شمالا وجنوبا محاذيا للنهر الكبير (٧) •



خريطة رقم ٥ : مدينة قادش القديمة المعروفة الآن بتل النبى مندوح تظهر التلال الأثرية الواقعة بين نهر العاصى على اليمين وفروعه على الشمال (مأخوذة عن كولدوى) •

---

(٧) راجع كتاب معركة قادش للمؤلف صحيفة ١٣ — ٢١ و ٤٩ وأيضا هذا الكتاب صحيفة ١٧١ •

وقد أيقن تحوتمس الثالث تماما وقتئذ أن التوغل فى داخلية البلاد مستحيل ما لم يكن هذا الطريق فى قبضته ، ومن ذلك يتضح أن الاستيلاء على قادش كان أمرا صعبا · ومن دواعى الأسف أن الكاتب الكاهن الذى سجل أخبار هذه الحرب أوجز كثيرا فى الكلام على سقوط قادش فقال : « ان جلالة الملك لما وصل الى قادش تغلب عليها ومنع عنها الغذاء ثم قطع أشجار غاباتها وحصد حاصلاتها » · ويظهر لنا من هذه الرواية المختصره أن تحوتمس اتبع مع قادش الطريقة نفسها التى استعملها مع مجدو وهى المذكورة سابقا وتتلخص فى قطع الأشجار من الغابات وتشييد سور محكم حول المدينة لحصارها ومراقبة جيشه لها من الخارج مستمدا غذاءه من خيرات حقولها المجاورة ، وهذا الحصار استغرق فصل الربيع حتى زمن الحصيد · والمعروف أن المصريين هاجموا المدينة أكثر من مرة لأن القائد المصرى أمنمحب روى ما قام به من الاعمال مع تحوتمس وقت حصاره لقادش فقال انه أسر أميرين من هذه المدينة فكافأه تحوتمس على ذلك أمام الجيش بمنحتين احداهما « سبع مصنوع من الذهب الخالص » وثانيتهما « ذبابتان » علاوة على أدوات ثمينة أخرى · ولما طالت مدة حصار قادش ظن أهالى شاطىء فينيقيا أن تحوتمس الثالث هزم فامتنعت أرواد عن دفع الجزية العظيمة لمصر مع ما عانته من الخسائر وقت هجوم المصريين عليها فى السنة السابقة ، فلما سقطت قادش أسرع تحوتمس بجيشه نحو صميرة وأسرع توا الى أرواد ليوقع عليها العقاب · ولما حل فصل المطر عاد تحوتمس الى طيبة مستصحبا بعض أبناء الملوك والحكام لشمالى سوريا ليعلمهم بطيبة كما فعل سابقا بأولاد الحكام لمستعمرات آسيا الجنوبية ·

وجاء عصيان أرواد وقت حصار قادش درسا مفيدا لتحوتمس بعدم التوغل بعيدا عن نهر العاصى نحو بلاد النهرين الا بعد اخضاع شاطىء فينيقيا تماما ، ولذا أمضى سنته التالية وهى الحادية والثلاثين من حكمه فى قمع كل حركة انفصالية تقوم بها بلاد فينيقيا · ورغما عن وجود الجيوش المصرية بمدينة صميرة فان ميناء أولازا (Ullaza) القريبة منها شقت عصا الطاعة على تحوتمس الثالث ، والسبب فى ذلك أن ملك تونب أرسل نجليه اليها ليحرضاها على مناوأة المصريين · ووصل تحوتمس الى ذلك الميناء فى ٢٧ أبريل وأخضعه بسرعة وأسر أحد أنجال ملك تونب فيها ثم أتى اليه حكام المدن المجاورة كالمعتاد مظهرين له ولاءهم وخضوعهم · وبلغ ما استولى عليه منهم ومن المدينة المقهورة ما يقرب من مائة وخمسة وثمانين رطلا من الفضة وكميات كبيرة من خيراتهم الطبيعية · وسافر الملك على مهل من ميناء الى أخرى منظما الادارة ومظهرا سلطته وقوته باذلا همته بأن تكون جميع المرافىء مزودة بالأغذية الكثيرة فى السنة المقبلة لأنه عزم

وقتئذ على غزو بلاد النهرين · ولما رجع الملك الى مصر وجد رسل الجنوب (وهى النوبة على الأرجح) وصلوا ليقدموا لجلالته جزيتهم فاستنتج من ذلك أنه اتبع سياســة الشــدة فى أقصى جنوبى مملكته كما اتبعها فى مستعمراته الشمالية ·

وتطلبت الاستعدادات الحربية التى اتخذها تحوتمس الثالث لغزو بلاد النهرين سنة كاملة بعد رجوعه الى مصر فتأخر لذلك الى ربيع السنة الثالثة والثلاثين من حكمه ، وحينئذ سافر بحرا مع جنده حتى وصل الى ميناء صميرة فأنزل بها قواته ، ولا يخفى أن هذه الغزوة كانت الثامنة للملك بتلك الجهات · بعد ذلك زحف فى داخلية البلاد للمرة الثانية متبعا طريق قادش ثم يمم شمالا واستولى على مدينة (حمص ؟) (Ketne) وسار متبعا نهر العاصى حتى وصل الى مدينة سنجار ، حيث حارب أهلها واستولى على المدينة · وقد أبدى قائده المدعو أمنمحب شجاعة عظيمة فى تلك المعركة نال لأجلهـا مكافأة الشرف للمرة الثـانية · والغالب أن تحوتمس غادر نهر العاصى ويمم مسرعا نحو بلاد النهرين ، لكنه اشتبك هناك مع قوة معارضة فى معركة بسيطة أسر فيها أمنمحب ثلاثة أسرى ثم سار الملك بدون معارضة تذكر حتى وصل الى تل وان (Wen) غربى حلب فاشتبك هناك فى معركة كبيرة أسر فيها أمنمحب ثلاثة عشر أسيرا لكل منهم رمح من البرونز المطعم بالذهب ، واستنتج من ذلك أن هذه الجنود المعادية هى حرس ملك حلب الخاص ، ولابد أن يكون تحوتمس الثالث استولى وقتئذ على حلب ولولاه لاستحال عليه السير بسرعة الى الأمام كما فعل · « ثم عرج شمالا حتى بلغ أرض النهرين فاستولى على مدنها وأتلف أمكنة تلك البلاد المعادية اللعينة » · ولا يخفى أن هذه البلاد كانت تحت سلطة ملك متانى وقد عبثت الجنود المصرية هناك بوادى الفرات كمـا فعلوا أيام ملكهم السـابق تحوتمس الأول منـذ خمسـين سـنة تقريبـــا ·

بعد ذلك عرج تحوتمس الثالث شـــمالا حتى وصـــل الى مدينة كارشميش فالتحمت جنوده هناك بجنود ملك متانى عدو تحوتمس اللدود فى معركة شديدة انتهت بهزيمة متانى هزيمة تامة ففر جنودها هاربين غير ناظرين وراءهم فكانوا وقتئذ كقطيع الأغنام · ولابد أن يكون أمنمحب تتبع العدو شرقى الفرات لأنه روى أنه عبر النهر عند رجوعه لما أحضر أسراه الى جلالة مليكه · عندئذ تحقق ما كانت تصبو اليه نفس تحوتمس الثالث بعد حرب دامت عشر سنين فقد وصل جلالته آخرها الى نهر الفرات ثم عبره ودخل بلاد متانى ، وقد نصب جلالته هناك أثرا حجريا أظهر فيه

حدود مملكته فأتى بذلك شيئا لم يتمكن أجداده من الافتخار به سابقا ·
ثم اتضح لتحوتمس أن كل توغل فى تلك الجهات يستلزم تمضية فصل الشتاء فيها ، لكنه كان فى الوقت نفسه شديد الحرص على جنده فلم يشأ أن يعرضهم لبرد تلك البلاد الشمالية فيخسرهم بعد ما أصبحوا مدربين على الحرب أولى عزم فيها ليس من السهل تجنيد مثلهم اذا توفوا ، لذلك رجع الملك الى شاطىء الفرات الغربى سالما ونصب هناك لوحا أثريا بجوار لوح والده تحوتمس الأولى · ولما آن الوقت وحصدت الجيوش المصرية زرع وادي الفرات اضطر تحوتمس الي أن يعود الى وطنه،لكنه قبل أن ينجز هذا قام بمأمورية شاقة بجهة مدينة نى (Niy) العاصية التى كانت تهدد أعماله فى الفرات فتقدم اليها متبعا مجرى النهر واستولى عليها بدون صعوبة على ما يظهر · ولما انتهى من حربه نظم جماعة لصيد الفيلة فى اقليم نى ــ وقد بادت الفيلة الآن فى هذا الاقليم ــ واصطدم هو ورجاله مع قطيع من هذه الحيوانات الوحشية التى آوت شمالى سوريا وكان عددها مائة وعشرين فيلا فهجم على جلالته فيل كبير كاد يفتك به لولا تدخل القائد أمنمحب فى الامر واسراعه فى بتر خرطوم الوحش الضارى ، وعند ذاك استشاط الحيوان غيظا من هذا القائد وهم بالفتك به لكنه لاذ الى ما بين صخرتين على حافة احدى البرك هناك فنجا بذلك وهكذا حول هذا القائد الى نفسه الخطر المحدق بمليكه من جراء هذا الوحش فكافأه تحوتمس على هذه الشجاعة بسخاء ·

فى ذلك الوقت أتى أمراء بلاد النهرين جميعا ليظهروا الولاء والخضوع لجلالة ملك مصر وأحضروا معهم الجزية اثباتا لذلك · ومما يدل على مبلغ صيت تحوتمس هناك وقتئذ أن بابل البعيدة استصوبت عدم مناوأة فرعون فأرسلت اليه هدايا ثمينة من اللازورد · والأدهى من هذا أن مملكة خيتا (الحيثيين) التى كانت مسيطرة على الأقاليم الأسيوية المجهولة للمصريين أرسلت الى تحوتمس الثالث أيضا هدايا ثمينة جدا يحملها رسل خصوصيون التقوا بتحوتمس فى طريقه عائدا من النهرين الى شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، وهذه الهدايا عبارة عن ثمانى حلقات فضية كبيرة زنتها ثمانية وتسعون رطلا مع مقدار كبير من الأحجار الكريمة (المجهولة لنا الآن) والأخشـــــاب الثمينة · وتعتبر هذه أقدم معاملة معروفة بين ملك خيتا (الحيثيين ؟ الواردة أسماؤهم فى التوراة) والمصريين · ولما وصل تحوتمس الثالث الى شاطىء البحر كلف حكام مرافئه تجهيز الأغذية والمعدات لجيشه فى السنة التالية · وبهذه الطريقة سهل عليه ارسال المدد لأى مرفأ فينيقى لاخضاع أية ثورة داخلية فى مدة لا تتجاوز بضعة أيام · وليلاحظ أن قوة مصر البحرية وقتئذ بلغت درجة كبيرة خضع لها ملك قبرص كما فعل

أيام العهد الصاوى ، وقد تمكن تحوتمس الثالث باسطوله من بسط بعض نفوذه على جزر البحر الأبيض الشمالية وعلى الاقليم الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وعلى كثير من البلاد اليونانية غربى ذلك • قال القائد البحرى تحوتى انه عين حاكما عاما على الأقطار الشمالية بما فيها من جزر البحر الأبيض المتوسط ، لكن يلاحظ أن هذه السلطة لم تعن وقتئذ الا لدفع الضرائب السنوية المفروضة على تلك الجزر لمصر •

وعاد تحوتمس الثالث الى طيبة فى شهر أكتوبر فوجد بعثته الحربية التى اوفدها الى بلاد الصومال منتظره اوبته ومعها اشياء كثيره ثمينه و ثمينة كثيره من العاج والابنوس وجلد النمر والذهب وما ينيف على مائتين وثلاثة وعشرين مكيالا من المر وعدد عظيم من العبيد ذكورا واناثا وقطعان الغنم • ودلتنا الاثار ان تحوتمس الثالث بسط نفوذه على الواحات غربى وادى النيل (لوحه ٨٤) فصارت هذه الاقاليم ملكا لجلالته وعهد بادارتها الى بشير جلالته المدعو انتف (Intef) • وهو رجل عريق الاصل من نسل امراء قسم العرابة القريب من الواحه الكبرى (خريطه رقم ١٣) وليلاحظ أن هذه الواحه الحقت بقسم العرابة واشتهرت قديما بنبيذها الجيد • وعليه فلابد أن تحوتمس الثالث نفذ مشروعاته بجهد عظيم متبعا فى ذلك طريقة أجداده حتى بلغ نهر الفرات • وبدهى ان جلالته اضطر الى أن يقاوم ملوك سوريا وشمالى فلسطين مجتمعين لا منفردين على عكس ما كان مع سلفه ، وبالرغم من اجتماعهم كسر شوكتهم التى كانت تحت قيادة ملك قادش (معقل الهكسوس القديم) وزحف بجيشه الى الأقاليم الشمالية • ويستنتج مما ذكرنا سابقا أن جلالته استمر يصوب الى أهالى تلك البلاد سهام الصدمة بعد الصدمة فى حرب بمناورات رجال حرب العصابات حتى ظفر بهم ، وقد أثبت انتصاره هذا بأن نصب حجرا أثريا بجوار أثر والده الذى أقامه هناك قبل ذلك بجيلين • وفى هذه الحروب فاق والده فانه عبر نهر الفرات وهو أمر لم يقم به فرعون مصرى سابقا مطلقا • فملك هذه أعماله يحق له أن يفتخر ويباهى بفتوحاته منذ انتخبه آمون ملكا على مصر أى فى مدى ثلاث وثلاثين سنة • وليلاحظ أن جلالته أمر مهندسه فى العمارة المدعو بوم رع أن ينصب مسلات له بطيبة فى السنة الثلاثين من حكمه • ولما عاد جلالته من انتصاراته الكبرى كان الاحتفال به قائما على قدم وساق وكان ضمن قائمة أعمال ذلك الاحتفال نصب مسلتين كبيرتين بمعبد الكرنك منقوش على احداهما نصوص ترجمتها : « تحوتمس عابر منحنى النهرين العظيم (أى نهر الفرات) مصحوبا بجيشه وكان النصر حليفه » وهذه المسلة منصوبة الآن باستنبول ، أما المسلة الثانية فقد بليت • والمعروف أن معظم مسلات هذا الملك العظيم تلفت أو نقلت الى

البلاد الأجنبية ولم يبق منها الا واحدة منصوبة في محلها الأصلي حيث كانت سلطة هذا الملك العظيم قوية مهيبة . أما مسلاته المنقولة الى البلاد الأجنبية فمنتشرة الآن في عواصم تلك البلاد من استنبول الى روما الى لندن الى نيويورك (لوحة ٨٥) وليلاحظ أن المسلتين الأخريين (المنصوبتين في لندن ونيويورك) على شاطئ الاطلنطي عملتا خصيصا لأجل الاحتفال بنصر الغزوة الرابعة وقد كانتا مقامتين سـابقا على جانبي مدخل معبد عين شمس .

ولما عظمت آثار تحوتمس الثالث في طيبه نسى أهلها أن جلالته كان فيما سبق شماسا بسيطا في معبد آمون حيث نصب آثارا كالمسـلات الشامخة ، ولا غرابة في ذلك فقد أصبح القوم يرون نقوشا هيروغليفية تاريخية على جدر ذلك المعبد تنبئهم بانتصارات الملك وعظيم أعماله بآسيا وتذكر لهم الغنائم الثمينة التي لا تحصى والتي استولى عليها الجيش المصرى وتبين لهم الهبات الملكية الجزيلة برسوم بارزة فيعرفون منها ما جاد به لمعبد آمون . وقد نقش جلالته على جدر صرح ذلك المعبد ثلاث مرات أسماء مئة وتسع عشرة مدينة استولى عليها في غزواته الأولى (لوحـة ٨٦) يلي ذلك ما يزيد على مائتين وثمانية وأربعين اسما لمدن آسيوية خضعت له في غزواته الحديثة . وبصرف النظر عن قيمة هذه السجلات في نفوس الطيبيين فهي ذات قيمة عظيمة لنا ، لكنه من الأسف أن هذه النقوش ملخص فقط لأعمال تحوتمس الثالث قام بنقشـها كاتب كاهن لاظهار الأصل في ثروة معبد الكرنك وشرح طريقة تحوتمس الثالث في سداد الدين الذى عليه لآمون وجزيل انعامه عليه بالانتصارات الباهرة . من ذلك يتضح للقارئ أن هذه النقوش ليست في الحقيقة الا قشورا تاريخية يبنى عليها تاريخ صاحبها الذى هو أول حاكم محنك معروف في التاريخ ، ولم يكن ضروريا لأهل طيبه أن يطلعوا على هذه النقوش ليتأكدوا من أعمال تحوتمس الثالث فمجرد رؤيتهم لحديقة الكرنك وما تحويه من الأشـجار تكفيهم للاقتناع بعظم أعمال مليكهم . زد على ذلك أن رسل مستعمرات مصر الأجنبية الكثيرة الواردة من سوريا وفلسطين والحيوانات الغريبة عن مصر الشمالية والجنوبية كانت ترد تباعا على القصر الملكى كما أن السـفن الفينيقية الضخمة التي لم يرها المصريون سابقا كانت ترسو على شاطئ طيبه مشحونة بما تشـتهيه الأنفس وتلذ الأعين من خيرات تلك البلاد السحيقة ، فكان القوم يرمقون بعين الاكبار محمول تلك السفن من أوان ذهبية وفضية ومصنوعات دقيقة باهرة واردة من صور وآسيا وقبرص وكريت وجزر الأرخبيل اليونانى والأثاث البديع المصـنوع من العاج والأبنوس والعجلات المرصعة والمموهة بالذهب وخليط الذهب مع الفضة

وأدوات الحرب المصنوعة من البرونز والخيل المسومة المجلوبة لفرعون والكميات التي لا تحصى من حاصلات الحقول والحدائق ومزارع الفواكه والنبيذ الى غير ذلك من خيرات الحقول . علاوة على هذا كانت تجيء على هذه السفن جزية تلك البلاد النائية كل سنة محروسة وهي على شكل حلقات تجارية كبيرة من الذهب والفضة يبلغ ثقل بعضها اثنى عشر رطلا تقريبا . أما الضرائب التي كانت تجبى من التجارة اليومية فكانت تدفع بشكل حلقات تجارية أيضا لا يتجاوز وزن كل منها بضع قمحات . واعتاد أهل طيبة أن يشخصوا في الشوارع لمراقبة أهل آسيا وهم يتكلمون بلغتهم الأجنبية سائرين زرافات ووحدانا حاملين جزيتهم الثمينة ليوردوها لخزانة فرعون حيث يقابلهم الوزير رخميرع في الأحوال الاعتيادية ، واذا كانت الجزية ثمينة جدا كان هذا الوزير يعرضها على جلالة فرعون وهذا يستقبلها استقبالا رسميا وهو جالس على عرشه الملكي تعلوه الأبهة والجلال ، بعد ذلك يمدح وزيره على ما بذله من همة وتعب ثم يورد الآسيويون جزيتهم فتسجل بدقة في السجلات الرسمية . وكان الوزراء وموظفو المالية كثيرى الولوع برسم تلك المعاملات على جدر مقابرهم حيث تشاهد الآن بطيبة (لوحة ٨٧) . ولابد أن تكون قيمة تلك الثروة عظيمة جدا في تلك الازمنة فقد ورد مرة أن الخزانة المصرية حوت ما ينيف على ثمانية آلاف وتسعمائة وثلاثة وأربعين رطلا من خليط الذهب والفضة . أما النوبة فكانت مثابرة على دفع جزيتها كل سنة للمندوب السامي الذي يوفده اليها ، وكانت هذه الجزيه من الذهب والعبيد السود والغنم والأبنوس والعاج والحبوب . وكان أهل طيبه ولوعين برؤية جزية السودان المتباينة الاشكال والألوان وهي تخرج من السفن الراسية على الشاطىء وتسير في شوارع مدينتهم الى الخزانة الملكية . واعتاد أهل طيبه أن يروا مليكهم تحوتمس الثالث عائدا كل سنة من أسفاره في أواخر شهر أكتوبر أو أوائل شهر سبتمبر مصحوبا بأسطوله الضخم الكبير فيرسو بمرفأ عاصمتهم ، حينئذ كان القوم يكبرونه عندما يشاهدون الكميات العظيمة من ثروة آسيا والعدد العظيم من الآسيويين موثوقين منقولين على الألواح الخشبية الى الشاطىء ثم متقدمين زرافات الى طيبة، حيث يمضون حياتهم عبيدا لفرعون (لوحة ٨٨) . ويمتاز الآسيويون على الآثار بطول لحاهم ، وقد كان المصريون يبغضونها ، وشعورهم كثيفة مسدولة على أكتافهم وملابسهم متعددة الألوان ومنسوجة من الصوف خلافا للباس المصرى الأبيض الناصع ، وجميع هؤلاء الآسيويين موثوقون عند الكوعين من الخلف أو فوق الرءوس ، وتشاهد أيديهم أحيانا موثوقة في أغلال خشبية بيضية الشكل ، واعتاد نساء أهل القوم حمل أطفالهن

على أكتافهن في كيش من الحصير ، وكانت رطانتهم وأزياؤهم موجبة لسخرية المصريين حتى أكثر الهواة وقتئذ رسم تلك المناظر في أعمالهم . وكثيرا ما كان هؤلاء الأسرى يخدمون أتباع الملك أو يوزعون على قواده ، لكن السواد الأعظم منهم كان يرسل حالا لخدمة أراضى المعبد وأملاك فرعون أو بناء آثار جلالته أو عماراته وأخصها تلك العمارة الأخيرة ، وقد استمرت هذه العادة متبعة الى أيام صلاح الدين الأيوبى الذى استخدم أسرى الحروب الصليبية لبناء قلعة القاهرة ، وسنرى كيف غير هؤلاء الأسرى كثيرا من شكل طيبة ونظامها .

وكلما عاد الملك الى طيبة فى الريف لقضاء فصل الشتاء اعتاد أن يصرف وقته فى تجهيز معدات حملته المقبلة التى كان يبدأ بها عادة بعد ستة أشهر ، ولذلك كان تعب الملك فى ذلك لا يقل عن تعبه وقت الغزوات الآسيوية . زد على ذلك أنه كان يطوف فى جهات القطر ليتفقد أعمال حكام المقاطعات كى يمنع الرشوة وكل ما من شأنه ابتزاز أموال الأهالى وقت جمع الضرائب . كل هذا كان يقوم به تحوتمس الثالث بعد فراغه من الاحتفال بعيد أوبت . واعتاد كذلك أن يتفقد فى سفره أيضا المعابد البديعة التى كان يشيدها أو يرمها ، وقد دلتنا الآثار أن جلالته تفقد ما ينيف على ثلاثين معبدا غير التالف منها الذى نجهل تاريخه . وقد أحيا جلالته اقليم الدلتا وأقام الآثار على امتداد نهر النيل من الوجه البحرى شمالا الى الشلال الثالث جنوبا فصارت آثارا كاللآلىء النيرة على البلاد ، وشيد عند مدخل الفيوم مدينة جديدة ومعبدا خاصا بها ، وصرف النفقات الباهظة عليهما ، وسخر أسرى حروبه فى تشييد المبانى الشامخة الملكية بجهة دندره وقفط والكاب وادفو وكوم امبو وأسوان وغيرها . واعتاد مدة اقامته فى طيبة أن يبحث فى أمور بلاده فكانت سلطته مباشرة فى كل فرع من أفرع الحكومة وهذا غير ما كانت تتطلبه بلاد النوبة من العناية الكبيرة الخاصة بمناجم الذهب التى سيأتى الكلام عليها. واهتم تحوتمس الثالث بتثمير مناجم الذهب على طريق قفط فعهد فى ادارتها الى موظف لقبه « بمدير الأراضى التابعة لقفط » . وهكذا لم يترك الملك موردا ينتفع منه الا استغله . وتطلبت زيادة ايراد معبد آمون تنظيم ادارة شؤونه فزود كهنة ذلك المعبد بالتعليمات والأوامر الشديدة لرفع شأن ذلك المعبد وزيادة ايراده . وفى أوقات فراغه كان يرشد رئيس صناعه بالمعبد أو بالمصانع الملكية برسم يده الملكية لأوان يفضل استعمالها وقت عبادة آمون ، واستنتج من نقوش جدر الكرنك وما حوته من رسوم الأوانى التى قدمها الملك الى صناعه ليصنعوا مثلها للمعبود على شدة اهتمامه ومزيد عنايته ، وكثيرا ما افتخر رئيس الصناع الذى أعطى هذه الرسوم

فنقش تلك الأوانى على جدر معبد قبره ، وما يزال هذان الأثران باقيين بين أطلال طيبة للآن • ولتحوتمس فوق هذه الأعمال مآثر أخرى فقد شيد جلالته صرحا عظيما جنوبى الكرنك وسورا شامخا حول هذا المعبد حول حديقته وغابته •

أما حملات تحوتمس الثالث الحربية فكانت مرتبة منظمة كأعماله الادارية بطيبة فبمجرد انتهاء فصل المطر فى فلسطين وسوريا كان يرافق جيشه فى أسطوله الضخم ويبحر الى الموانى السورية أو الفلسطينية حيث يقدم له الولاة ما يلزمه من الأغذية والمعدات الحربية يجلبونها من البلاد المجاورة • وجرت العادة أن يرافق الملك فى حركاته كلها رئيس حجابه المدعو انتف العريق الأصل والملقب « بحاكم طيبة وقسم الواحات »، وكلما زحف تحوتمس الثالث فى داخلية البلاد كان انتف هذا فى المقدمة يستطلع مقاومة الأعداء ، وكلما حل بمدينة وأراد المبيت يجهز انتف قصر حاكمها لمليكه وقد قال انتف : « اذا وصل سيدى مصحوبا بالسلامة الى المكان الذى أنا فيه كان يجدنى قد نظمته وجهزته بكل ما يحتاج اليه فى البلاد الأجنبية ، وربما فاقت وسائل راحته ونعيمه ما هو بالقطر المصرى• كيف لا وقد كنت أنظف الحجرات وأعطرها وأرتب أثاث كل حجرة على حسب ما يليق بها وكنت أرى السرور على وجهه » • هذه الكلمات تذكر القارى بخيام نابليون وقت حروبه فقد كانت تجهز له تماما حال وصوله ليلا بعد ما يتفقد جنده • وكان انتف هذا يشرف أيضا على ترتيب مقابلات الملك وادارة شؤونه وقت حروبه الكثيرة ، واذا ما حضر رؤساء سوريا ليقدموا له الجزية ويعلنوا له الولاء والخضوع ، كان انتف يقدمهم الى جلالته • وكان هذا الأمير يخبر الولاة بالمبالغ والأشياء التى يتحتم عليهم تقديمها للملك ، وهو الذى يتسلم الجزية وهدايا الذهب والفضة والخيرات الطبيعية • واذا أظهر بعض أفراد الجيش بسالة كان انتف يخبر الملك بأمرها ويقرر المكافأة التى يستحقها الجندى السعيد الحظ •

وليتنا عثرنا على تراجم حياة قواد تحوتمس الثالث لأن فصولها التاريخية مؤثرة فى النفوس ، وما حادثة القائد أمنمحب الذى نجى تحوتمس الثالث من غائلة الفيل بقطع خرطومه الا مثالا لما كان يحصل وقت استراحة الجنود فى العراء بلا خيام ووقت اشتباك القتال•ولا شك فى أن هذه الأعمال مثل أعلى للشجاعة فى أجلى مظاهرها ، وسنرى فيما يلى مثلا آخر لبسالة أمنمحب وهو القائد الوحيد الذى تعرف عنه معلومات حقيقية لا غلو فيها • وأعجب الأهالى بما رأوه من شجاعة جنود تحوتمس الثالث فكثرت أحاديثهم وحكاياتهم الخرافية بشأنهم حتى تداولها القوم

بشغف عظيم في أسواق وشوارع طيبة ، وقد عثرنا لحسن حظنا على احدى هذه الحكايات مدونة على صحيفة أو اثنتين من قرطاس بردى خطها أحد الكتبة تتلخص في أن أحد قواد تحوتمس الثالث المدعو تحوتي خدع حاكم مدينة يافا فأدخل جنده الى تلك البلدة مخبوئين في سلال محمولة على حمير ، وهذه الرواية أصل قصة علي بابا والأربعين لصا ، لكن رواية تحوتي هذه تمتاز عن قصة علي بابا باحتوائها على بعض الحقائق لأن تحوتي لم يكن شخصا وهميا بل كان حقيقة أحد قواد تحوتمس الثالث ، وما نزال نجهل قبره للآن ، وربما كان بطيبة وسرقه الأهالي وسلبوا منه الهدايا الثمينة التي أهداها تحوتمس الثالث اليه وهي اللائقة بذلك القائد الباسل ·
وعثر على صحن ذهبي بديع محفوظ بدار التحف باللوفر منقوش عليه نصوص هذه ترجمتها : « هدية شجاعة واقدام من تحوتمس الثالث الى الأمير الكاهن الذي كان لجلالته عاملا من عوامل السرور في كل بلد حل به وفي جزر البحر الأبيض المتوسط والذي ملأ الخزانة حجر اللازورد والذهب والفضة ألا وهو حاكم البلاد ورئيس الجيوش ومحبوب الملك وكاتب جلالته تحوتي » (٨) · وعثر أيضا على قطعة حلي لهذا القائد محفوظة الآن بمتحف ليدن وصف عليها صاحبها بأنه « حاكم البلاد الشمالية » ومنه استدل أن تحوتمس الثالث عين تحوتي هذا حاكما على مستعمرات مصر الشمالية ·

ولو أسعدنا الحظ وعثرنا على كتابة الكاتب ثانيني (Thaneni) بشأن أعمال تحوتمس الثالث واقدامه الشخصي وأعماله في المعارك الحربية لعلمنا كل شيء عن هذا الملك تقريبا ، لأن هذا الكاتب أخبرنا أنه رافق تحوتمس في جمع غزواته وسجل كل ما حصل بالإسهاب ، واليك ترجمة ما قاله هذا الكاتب مفتخرا : « لقد تتبعت الملك تحوتمس الثالث وشاهدت انتصاراته التي أحرزها في البلاد كلها · لقد أسر جلالته أمراء جاهي (سوريا) أحياء وأرسلهم الى مصر واستولى على بلادهم كافة وقطع أشجار غاباتهم جميعها ··· لقد سجلت على وجه الحقيقة جميع انتصارات جلالته في كل بلد » · وهذه الأخبار التي ذكرها ثانيني هي التي كتبت على درج جلدي أشرنا اليه عند الكلام علي الغزوة الأولى وحصار مجدو ، ومن دواعي الأسف أننا فقدنا هذا القرطاس التاريخي الثمين فلم يبق لدينا الا النقوش الموجودة على جدر الكرنك التي كتبها أحد الكتبة الكهنة الذي جعل همه الافتخار بالغنائم وما عاد على الكرنك من ايراد اثر تلك الحروب ، وهو لم يتعرض لذكر أعمال الملك بالدقة · واستنتج من ترجمة

(٨) From my own copy of the original ; see Birch. Mém. sur une patère Egyptienne du Musée du Louvre Paris. 1858 ; and Pierret. Salle hist. de la Cal. Egypt. Paris, 1889. No. 358, p. 87.

حيـاة أمنمحب أن ما جـاء فى نقوش الكرنك ليس الا قشورا للحقيقـة الأصلية ، وعليه فقد أضبحنا نرجع فى كل مباحثنا العلمية بشأن أخبار طيبة خاصا بتحوتمس الثالث أكبر قواد مصر الى نقوش الكرنك التى لم يدر بخلد كاتبها وقتئذ أن العالم أجمع سيتعطش يوما من الأيام اليها كما نتعطش نحن الآن ٠

ولا يخفى أن مجرد وصول الجيوش المصرية الى الفرات لم يكن كافيا لاخضـاعه على مدى الزمان ٠ وليس تحوتمس الثالث ذلك الرجل الذى يعتمد على غزوة يشنها على تلك البلاد فى السنة الثالثة والثلاثين من حكمه، لذلك صمم فى السنة الرابعة والثلاثين على أن يغزو تلك الجهات مرة ثانية فوصل الى سوريا فى ربيع تلك السنة للقيام بحملته التاسعة ٠ والظاهر أنه حصلت هناك بعض مشاكسات موضعية لأن جلالته استولى وقتئذ على ثلاث مدن فى قسم نوج (Nuges) وهو المكان الذى شيد فيه حصنا فى نهاية حملته الأولى ، واستولى كذلك على خيرات عظيمة ثم أسرع اليه حكام سوريا مظهرين ولاءهم وخضوعهم كالعـادة ومحضرين الجزية الثمينة ٠ وقد زودت الموانى البحرية الأسطول المصرى بسفن كثيرة وقـلاع وغير ذلك من الأدوات اللازمة لاصلاح ما يطرأ على السفن من العطب ٠ وامتازت جزية هذه السنة باشتمالها على مائة وثمانى سبائك من النحاس تقرب زنة كل منها من أربعة أرطال علاوة على كميات عظيمة أخرى من الرصاص والأحجار الكريمة أرسلها ملك قبرص الذى لم يسبق له أن اعترف بسلطة تحوتمس بهذه الكيفية ٠

وفى هذه السنة أيضا امتدت سلطة تحوتمس الثالث جنوبا فأسر *ابن حاكم قسـم ايرم* (Irem) *المتـاخم للصومال وحفظه بمصر رهينة* ، وقدرت جزية النوبة وقتئذ بما يقرب من مائة وأربعة وثلاثين رطلا ذهبا خالصا علاوة على الكميات المعتادة من الآبنوس والعاج والحبوب والأغنام والعبيد ، وهكذا امتدت سلطة تحوتمس الثالث من الشلال الثالث حتى نهر الفرات ٠ ثم بلغ جلالته خبر اشتعال فتنة ببلاد النهرين وكان قد امتنع عن الذهاب الى تلك البلاد سنتين فشق الأهالى عصا الطاعة وانضم اليهم حكام تلك الجهات برياسـة واحد منهم يظن أنه حاكم حلب الذى ورد ذكره فى نصوص تحوتمس الثالث « بأنه قائد النهرين الخسيس » وكبرت الفتنة فامتدت الى أقاصى البلاد الشمالية المعروفة « بآخر حـدود الأرض » وهو الحد الذى تنتهى اليه معرفـة المصريين للعـالم ٠ وكان تحوتمس يجدد دائما استعداداته الحربية ولذلك تمكن من الوصول الى بلاد النهرين فى ربيع السنة الخامسة والثلاثين من حكمه فاصطدم هناك مع جيوش أعدائه جهة أرينا (Araina) المجهولة لنا والتى هى غالبـا

أسفل وادى نهر العاصى . « حينئذ هجم الملك على هؤلاء الوحشيين ... ففروا مذعورين ثم سقط الواحد بعد الآخر أمام جلالته » . ولا يبعد أن تكون هذه المعركة هى التى ذكرها القائد أمنمحب بأنها حصلت بأرض تخسى (Tikhsi) حيث قال انه حارب أمام تحوتمس الثالث وقت التحام الجيــوش فأسر غنائم كبيرة واستولى الملك على عدة أسلحة . أما القائد أمنمحب فقد أسر ثلاثة أسرى كافأه عليهم تحوتمس مكافأة جزيلة . ولا شك فى أن الجنود المصريين استولوا وقتئذ على غنيمة حربية كثيرة من خيل وأدوات حربية ودروع من البرونز وعجلات مموهة بالذهب والفضة . بعد ذلك انكسرت شوكة بلاد النهرين واستسلمت لسلطة فرعون فلم تبد حراكا لمدة سبع سنوات لأنها أيقنت كما أيقن قبلها حكام سوريا أن شوكة مصر منيعة وقوتها الحربية لا يستهان بها ولا يمكن مقاومتها .

ولم نهتد للآن الى أخبــار السنتين التــاليتين لهذه السنة من حكم تحوتمس الثالث، ولذلك مانزال نجهل سبب حملتيه الحادية عشرة والثانية عشرة . لكنه لما كانت السنة الثانية والثلاثون من حكمه ظهر تحوتمس فى جنوبى لبنان معاقبا اقليم نوج (Nuges) الذى ذاق بطشه لأول مرة منذ خمس عشرة سنة . ووصلت الى الملك فى هذه الغزوة هدية من ملك قبرص وأخرى من اقليم سحيق يقال له ارابا خيتيس (Arrapekhitis) صار فيما بعد أحد أقاليم مملكة آشور . وفى السنة التالية اضطر الملك الى أن يذهب الى جنوبى فلسطين ثانيا ليعاقب البدو وهنــاك أسر أمنمحب ثلاثة أسرى فى معركة جهة النقب (Negeb) وأمضى الملك بقيــة حملته الرابعة عشرة بسوريا للمراقبة وأرسل أوامره فى هاتين السنتين أن تبقى الموانى مزودة بما يلزم جيشه وأسطوله من المعدات وقت حدوث اضطراب فجائى داخلى . والغالب أن هذه البلاد استمرت تدفع جزيتها بدون عناء فى السنتين الأربعين والحادية والأربعين من حكمه . وأرسل ملك خيتا الكبير هدايا الى الملك تحوتمس الثالث اعتبرها الاخير جزية .

وبالرغم عما قاساه أمراء سوريا وفلسطين وبلاد النهرين من شدة غزوات مصر فقد استمروا يشاكسون مملكة النيل ولا يعترفون لها عليهم بسلطة أبدية واتحدوا معا لاحداث ثورة عامة بتأثير ملك قادش ألد أعداء فرعون فانضم اليهم أهالى بلاد النهرين وأخصهم أمير تونب وكذا بلاد الشواطىء الشمــاليــة . وفى ذلك الوقت كان تحوتمس ينــاهز اثنتين وسبعين سنة من عمره ومع هذا سرعــان ما وصــل الى مرافىء سوريــا الشمالية كعادته وذلك فى ربيع الســنة الثــانية والأربعين من حكمه ، وكانت هذه الحملة السابعة عشرة والأخيرة لهذا الحاكم العظيم . وكان همه وقتئذ مواجهة قادش كما فعل فى حملته الأولى لكنه لم يزحف عليها

من الجانب الجنوبى كسابق عهده بل حاصرها شمالا قاطعا بذلك طريق مواصلاتها مع البلاد الشمالية جميعا وصمم على أن يستولى على تونب أولا . وتفصيل ذلك أن الملك أنزل جنوده على الشاطىء بين نهر العاصى والنهر الكبير ثم استولى على ميناء اركاتو (Erkatu) فى تلك الجهة والمجهولة لدينا للآن . والغالب أن هذا الميناء يقابل تونب التى كانت بيت القصيد . ثم استولى على تونب بعد مقاومة قصيرة ومكث هناك حتى زمن الحصيد . ثم زحف على قادش متبعا نهر العاصى بدون مقاومة مبيدا مدن ذلك الاقليم ، فلما علم بذلك ملك قادش أيقن أنه اذا لم يقاوم تحوتمس مقاومة اليائس المستبسل هلك هو وجيشه لا محالة ، فهجم على المصريين أمام قادش مستعملا سياسة الخدعة ، وتفصيل ذلك أنه أرسل فرسا أمام عجلات المصريين لتهييج خيلها فيضطرب بذلك نظام خطوط فرعون فيتمكن ملك قادش من اختراقها ، لكن أمنمحب فطن لتلك المكيدة فقفز من عجلته شاهرا سيفه بيده وهجم على الفرس راكضا على قدميه فقتلها وقطع ذيلها وأهداه الى فرعون . بعد ذلك اقتربت خطوط دفاع تحوتمس وضيقت الحصار على المدينة تدريجا ، ثم صدر اليها الأمر بالهجوم على قادش فعهد الملك الى صفوة رجاله فى هدم أجزاء من سور المدينة بقيادة أمنمحب،وقامت الجنود بهذه المهمة الخطيرة خير قيام وهدمت جزءا من السور تدفقت منه القوات المصرية وفى مقدمتهم أمنمحب . هكذا خضعت أقوى مدن سوريا لسلطة فرعون وسقطت تحت موطىء قدميه ، وحينئذ سلم لتحوتمس جنود النهرين الذين أتوا لمساعدة قادش ، وكان هذا الفوز كافيا لبسط نفوذ فرعون على الممالك الآسيوية ثانيا فلم يعد هناك لزوم للزحف شمالا لكنه لو فرض وكان هناك داع لذلك لعذرنا تحوتمس اذا لم يقم به لكبر سنه وقرب الشتاء وحلول ميعاد عودته الى مصر ، ويستنتج من قرائن الأمور أن الحالة السياسية وقتئذ لم تتطلب زحف جيشه الى الشمال . منذ ذلك الوقت لم يتجاسر حاكم أسيوى أن يشق عصا الطاعة على تحوتمس الثالث طوال حياته ، ولا غرابة فى ذلك فقد قام فى خلال تسع عشرة سنة بسبع عشرة حملة أعدمت البلاد الآسيوية مقاومتها وأخضعتها لمصر تماما . وبدهى أن سقوط قادش جاء بمثابة انهيار آخر لصرح مملكة الهكسوس التى حكمت مصر سابقا . وصار اسم تحوتمس الثالث بعد ذلك مضربا للأمثال مدة طويلة حتى انه لما هاجمت مملكة خيتا مستعمرات مصر الآسيوية جهة تونب بعد مرور أربعة أجيال على وفاة هذا الفرعون العظيم استنجد ولاة تلك الجهات بمصر بأسلوب يفتت الأكباد فقالوا : « ما من أحد اجترأ قديما على نهب تونب

الا نهبه تحوتمس الثـالث » (٩) ولا غرابة فى ذلك فقـد كان تحوتمس الثـالث ينـاهز السبعين أو أكثر من عمره ومع ذلك كان يصدر أوامره للمرافىء الآسيوية لتجهز ما يلزم جيشه وأسطوله من المعدات استعدادا لما عسى أن يحصل من الفتن والمشاغبات ، وليس ببعيد أنه كان مستعدا للقيام بغزوات فى آخر عمره كما فعل فى شبابه · ودلتنا الآثار أن الملك لما كان فى رحلته الأخيرة بسوريا أتى اليه أمراء تلك الجهات وقدموا له فى خيمته الملكية واجب الطاعة والجزية ولما عاد بعد ذلك الى مصر وجـد رسل النوبة فى الانتظار ومعهم ما ينيف على خمسمائة وثمانية وسبعين رطلا ذهبا من بلاد الواوات وحدها علاوة على ما أرسلته الأقاليم الأخرى ·

وكان منتظرا أن يمضى تحوتمس الثـالث بقية عمره مستريحا فى مصر لكنه بعد ما فرغ من فتوحاته الآسيوية وجه همته نحو النوبة · وقد ألمعنا سابقا أن رئيس خزانة الذهب والفضة المدعو (من خبر رع سنب) ـ ومعناه تحوتمس الثـالث السليم ـ كان يتسلم من النوبة كل سـنة ما يتراوح بين ستمائة وثمانمائة رطل ذهبا·وجاء فى أخبار السنة الحادية والأربعين من حكم تحوتمس الثـالث أن وارد الذهب بلـغ وقتئذ حوالى ثمانمائة رطل ذهبا· أما مندوبه السامى المدعو نحى (Nehi) فقد لبث حاكما لكوش حوالى عشرين سـنة وقد زادت فى أثنـائها واردات تلك الجهات كثيرا · ثم تراءى لتحوتمس أن يوسع حدود ممتلكاته الجنوبية الى أبعد مما هى عليه كما يستدل من الآثـار التى تشير الى شـدة اهتمامه بتلك الجهات · وقد وجدت لتحوتمس الثالث معابد بالغة اقليم الشلال الثالث وذلك بجهة كلبشه وعمدا ووادى حلفا وقمه وسمنه (وقد رمم فيها معبدا لسنوسرت الثالث) فى جهة حلب أيضـا · جاء فى أخبار السنة المتممة للخمسين لحكمه أن القناة البحرية المخترقة لاقليم الصخور جهـة الشلال الأول فتحت ثانيـا وأن جيوشه كانت وقتئذ مشغولة بمزاولـة الأعمال الحربية ببلاد النوبة · والمستبعد أن يكون تحوتمس الثالث هو الذى قاد هذه الحملة لكبر سنة وقتئذ · ويرجح أنه أرسل الى تلك الجهات حملات حربية عديدة سابقة بدليل ما وجد مرتين على جدر صروح الكرنك من أن جيوشه استولت على مائة وخمس عشرة موقعة بالنوبة مدونة الأسماء · وهناك قائمة أخرى تحوى نحو أربعمائة اسم لجهات نوبية أخرى أخضعها الجنود المصريون · ولشدة جهلنا بجغرافية بلاد النوبة لم نهتد بالضبط الى مواقع تلك الأماكن ولذلك لا يمكننا أن نعرف تماما حدود مملكة مصر الجنوبية وقتئذ والمؤكد أنهـا كانت واصلة الى الشلال الرابع على الأقل لأنه ورد ذكره ضمن أملاك المملكة المصرية فى عهد ابن تحوتمس الثالث ·

(٩) خطابات العمارنة لونكلر ٤١ و ٦ ـ ٨ ·

وعاش تحوتمس الثالث اثنتى عشرة سنة بعد آخر حملة آسيوية . ولما شعر بالضعف والشيخوخة أشرك معه فى الحكم ابنه أمنحتب الثانى الذى رزق به من الملكة حتشبسوت مرت رع المجهولة التاريخ . وفى السنة التالية لذلك اى فى ١٧ مارس سنة ١٤٤٧ قبل الميلاد (قبل أن يتم تحوتمس الثالث السنة الرابعة والخمسين جالساً على عرش مصر بخمسة أسابيع) توفى فأسدل الستار أمامه على هذه الدنيا التى قام فيها بأعمال باهرة اهتزت لها الأرض اهتزازا . وقد دفنه ابنه بوادى الملوك وما تزال مومياؤه باقية للآن (لوحة ٨٩) . ووضع كهنة آمون أنشودة نسبوها الى معبودهم كلها مديح فى تحوتمس الثالث غاية فى المتانة والبلاغة ، وهى تشمل عدة أبيات شعرية بديعة ، ويستدل منها أن منزلة الملك فى نفوس كهنته ومعاصريه كانت غاية فى الاحترام ، وهى تبتدىء بديباجة طويلة تشمل اطراء لتحوتمس المذكور ويلى ذلك وصف لأعماله وانتصاراته ، يقول على لسان آمون ما ترجمته :

هأنذا قد جئت وأبحث لك أن تضرب أمراء جاهى . لقد أوقعتهم تحت أقدامك ودفعتهم (أمامك) حتى اخترقت أقطارهم وأريتهم جمال حضرتك وأطلعتهم على جلالتك فصاروا ينظرون الى سعادتك كملك مصور من نور ، فاصبحت تشرق عليهم كصورتى البهية وتبدو عليهم كذاتى العلية .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تطعن بسيفك سكان بلاد آسيا وتقبض فى أسرك الرتنو (أى الآسيويين) . لقد أريتهم جلالتك متهيئة للحرب قابضة أسلحتها ومقاتلة على عجلاتها .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب بلاد الغرب فكلا بلاد الكفتيو وقبرص فى ربقة الفزع منك حيث أريتهم جلالتك كفحل قوى من الفتوة والجراءة بمكان ، يزينه قرنان ، فلا يقاومه معارض أيا كان .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب سكان كل أرض ، فبلاد متانى تنتفض فرقا من هيبتك حيث أريتهم جلالتك كالتمساح وهو الملك القهار فى مملكة البحار منيع الجوار لا ينجو منه ديار .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب سكان الجزر ، فكان أهل البحار فى فزع من صياح قومك بنداء الحرب حيث أريتهم جلالتك كمنتقم جبار يعلو ظهر فريسته .

هأنذا قد جئت وأبحث لك أن تضرب الليبيين ، ولتكن جزائر الأوتنتيو (Utentyew) فى قبضتك مأسورة حيث أريتهم جلالتك كأسد

يفزع كل من ينظر اليه ويرقد على رمم موتاهــم فى خلال أوديتهم بحيث لا يتسر لأحد أن يقدم عليه ·

هأنذا قد جئت وأبحث لك أن تضرب سكان أقاصى البلاد وأن تقبض على دائرة المياه (الأقيانوس) حيث أريتهم جلالتك كصقر يحوم فى الجو بطيره ويختطف كل ما أعجبه بمخلبه ·

هأنذا قد جئت وأبحث لك أن تضرب الأقوام القاطنين على حدودك وليكن القوم المسمون بسكان الأراضى الرملية فى أسرك أحياء حيث أريتهم جلالتك كثعلب بلاد الجنوب الذى يختفى فى سيره فيقطع البلاد ويخترق الأراضى البعيدة ·

من هذا الذى بسطناه من تاريخ تحوتمس الثالث يمكننا الجزم بأن محتويات تلك القصيدة ليست شعرية خيالية كلية ولا هى من مبتكرات الكهنة ، لأن صفات تحوتمس الثالث وشخصيته برزت فى التاريخ المصرى القديم بدرجة منقطعة النظير فى ملوك مصر قاطبة ما عدا اخناتون · والحق يقال ان نشاط تحوتمس الثالث فاق كل نشاط سواء أكان قبله أم بعده· رد على ذلك أنه كان هاويا مفتنا دقيقة يتلهى وقت فراغه بصياغة الأوانى وابداع أشكالها · وكان أيضا حسن التدريب فى السياسة حاد الذاكرة يقوم بالحروب الكبيرة بآسيا مستعملا فى الوقت نفسه شدته فى منــع انتشار الرشوة والحيف فى أثناء جمع الضرائب من الأهالى · وقد وصفه وزيره الجليل المدعو رخميرع بما ترجمته : « كان يعلم كل شىء ، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة الا أحــاط بها ، فكان فى ذلك كالاله تحوت (اله المعــارف عند المصريين) فى معرفته وما تنــاول أمرا الا أنهاه بنفسه » · ورغما من شدة افتخاره بأعماله ونقشه اياها كان كثير التعلق بالصدق فى كل أعماله ، ويروى عنه أنه قال : « أنا لا أبالغ فى ذكر أعمالى لأننى لا أدعى شيئا لم آته ··· ولذلك لا يمكن أحدا أن ينكر على فعــل شىء ادعيته لنفسى · لقد قمت بأعمالى كلها لأجل آمون فهو يعلم ما فى السماء وما فى الأرض وهو الرقيب على البلاد والعباد فى وقت واحد » · وكان مداحا للصدق شديد الاحترام لمعبود الصدق · لذلك اعتبر عهد تحوتمس الثــالث عهدا ممتازا فى القطر المصرى وبــلاد الشرق عامة ولم يظهر فى التاريخ الى ذلك العهد ملك جميع ايراد مملكته الشاسعة وأقام عليه ادارة حكومية مركزية ثابتة بتمرة دامت سنوات عدة كما فعل ، فهو فى هذه الحال أشبه بحداد اشتغل بمطرقة زنتها مائة طن ، بل هو أكثر من ذلك لأن الفضل يرجع اليه فى عمل هذه المطرقة · ولا يخفى أن هذا النشاط وهذا الذكاء الوقاد ظهرا للعيان بعد انفصاله من حياة المعابد وانتقاله الى معيشة الملوك ، وهذا يذكرنا كثيرا بتاريخ الاسكندر المقدونى ونابوليون

لتشابه تاريخهم جميعا • وخلاصة القول أن تحوتمس الثالث كان أول رجل في التاريخ أسس امبراطورية حقيقية فهو لذلك أقدم بطل معروف على الأرض ، ولا غـرابة فقد خضعت لقوته آسـيا الصغرى وأعالى الفرات وجزر البحر الأبيض المتوسط ومستنقعات بابل وشواطىء ليبيا السحيقة وواحات الصحراء وهضبات الصومال وشلالات النيل العليا • زد على ذلك أن أمراء تلك الجهات تسابقوا في تأدية جزيتهم وهداياهم اليه ، ويعتبر هذا برهانـا سـاطعا وتذكارا عظيما للعـالم على نجاح نظمه وترتيبـاته الحديثة • وقد تجلت شخصية هذا الملك العظيمة وشدة توقيعه للقصاص العادل في مشاحنات أمراء سوريا فطهرت جو الشرق السياسى من الأقذار وطردت المفاسد كما تطرد الريـح الشديدة ما يتراكم أمامها من الأبخرة العفنـة فلا يبقى لها أثر • وقد كانت سرعتـــه في ايقاع القصاص بيده الحديدية بمثابة عظة عظيمة لأهالى النهرين فلم يحركوا ساكنا بعد وفاته بثلاثة أجيال تقريبا • ومما يدل على شدة تأثير هذا الملك في نفوس رعيته أنهم اعتقـدوا بوجود صفات سـحرية في اسمه حتى نقشوه على الأحجبة بعد زوال امبراطوريته وتصدع أركانها بعدة قرون • ومن أجمل مآثر هـذا الملك مسلتاه الأثريتان العظيمتان المنصوبتان على شاطىء المحيط الأطلنطى وهما تشهدان له بالفخر والاعجاب (١٠) ، وقد اعتبرت هاتان المسلتان في تلك البلاد السحيقة تذكارا عظيما لأول امبراطور خلد اسمه في تاريخ العالم القديم •

---

(١٠) نصبت احدى هاتين المسلتين على شاطىء نهر التيمس بلندن ، ونصبت الاخرى في « الحديقة الوسطى » بمدينة نيويورك (راجع صحيفة ٢٠٢) •

الفصل السابع عشر

عهد الامبراطورية

يمتاز هذا العهد بكثرة رخائه وتقدم مدنيته ففيه زالت العوائق بين مصر وآسيا التى أوجدها الهكسوس ومحا تحوتمس الثالث أثرها من الوجود ، فتيسر التعامل بين أفريقية وآسيا وزالت الفوارق القديمة فلم تبق هناك ممالك صغيرة مستقلة، بل أضحت البلاد كلها الممتدة من بابل والفرات الى أعالى النيل متحدة على تباين عناصرها ولغاتها • وأخذت تجارة شرقى البحر الأبيض المتوسط تتحول تدريجا من اقليم الفرات وبابل الى مصر وبالأخص اقليم الدلتا الذى كثرت خيراته وتضاعفت روابطه التجارية ، وكان هذا الاقليم الأخير منذ عدة قرون على اتصال بالبلاد الآسيوية بالقناة التى توصل البحر الأحمر بالنيل فانحصرت تجارة العالم فى الدلتا وصارت أكبر أسواق العالم • وكانت آشور فى هذا الوقت فتية ، وانعدم من بابل نفوذها السياسى تماما فى البلاد الغربية فأصبحت سلطة فرعون على امبراطوريته الشاسعة عظيمة مهيبة •

ولم تصل الينا سوى معلومات قليلة عن الادارة المصرية بآسيا ، وقد ذكرنا فيما سبق أن تلك الممالك الآسيوية كانت تحت ادارة وال مصرى ملقب « بحاكم البلاد الشمالية » وأول من أسند اليه هذا المنصب هو تحوتى قائد جيوش تحوتمس الثالث • وقد اضطرت الظروف أن تحتفظ مصر فى سوريا وفلسطين بقوات حربية تكبح بها جماح أمراء تلك الجهات وتردهم الى حدود القانون • وترتب على هذا أن شيد المصريون هناك قلاعا سموها بأسماء ملوكهم وجعلوا فى كل منها حامية ملكية بقيادة ضباط مهرة خاضعين لأوامر فرعون مصر ومعتبرين نوابا له فيها (١) ، فمنها تلك القلاع التى شيدها تحوتمس الثالث جنوبى لبنان

(١) خطابات تل العمارنة ٢٢ •

وقد أصلح أيضا قلعة على شاطىء فينيقيا وأنشـأ جوارها معبدا لآمون معبود مصر الرسمى ، والغالب أنه كان لكل حصن معبد . ويؤكد البعض أن القلعة الموجودة جهة اكاثى (Ikathi) من تأسيس تحوتمس الثالث.
وعثر رينان على بقايا معبد لتحوتمس جهة ببلوس (جبيل) (٢) . ومن ذلك يتضح أن أمراء آسيا سمح لهم بادارة شؤون بلادهم بشرط اظهار ولائهم لمصر ودفـع جزيتهم لفرعونها كل سنة بانتظام ، حتى اذا توفى أحدهم يعين ابنه الذى تربى فى طيبة بدله للقيام بأعماله ، وهكذا صارت بلاد آسيا أشبه بممالك صغيرة تابعة لمصر ، ويعتبر هذا أول درجات الحكم الذاتى . وكان هذا النوع من الحكم فى النوبة بالغا درجة أعلى لأن تلك البلاد الجنوبية كانت تحت ادارة « والى كوش » . ولم نهتد للآن عن طرق المعاملة بين أمراء آسـيا و « حاكم البلاد الشمالية » ويظن أن مهام ذلك الحاكم كانت ماليـة . قال تحـوتى الذى عين فى ذلك المركز فى عهـد تحوتمس الثالث : « انه ملأ خزانة فرعون وقتئذ بأحجار اللازورد والذهب والفضة » . ويرجح أن أمراء تلك البلاد كانوا يجمعون الضرائب بأنفسهم ويبعثون ببعضها الى فرعون مصر ، ولا نزال نجهل المقدار المسموح لكل أمير أن يستبقيه لنفسه ، كما أننا لا نعرف بالضبط مقدار الجزية التى كان يأخذها فرعون من البلاد الآسيوية .

ولما بلغ بلاد اسيا خبر وفاة تحوتمس الثالث شقت عصا الطاعة على مصر رغبة منها فى التخلص من الجزية كما يحصل عادة فى كل امبراطورية قديمة اثر وفاة ملكها . والقارىء يتذكر أن أمنحتب الثانى لم يشترك هو وأبوه فى الملك الا سـنة واحـدة ، فلما توفى والده هبت فى وجهه تلك الثورة المتجمعة الشاملة لبـلاد النهرين ومتـانى وشمالى فينيقيا . لكن أمنحتب الثانى واجه ذلك الخطر ببسالة ونخوة ورثهما عن والده فاستقر رأيـه على الزحف على آسيا واخضـاع أعدائه متحدين وكسر جيوشـهم الجرارة . أما جنوبى فلسطين فلم يجرؤ على الثورة ، وخلاف ذلك وسواه التهمته نيران الاضطراب والعصيان . وقد بدأ أمنحتب الثانى بزحفه فى أبريل سنة ١٤٤٧ قبل الميلاد (فى السنة الثـانية لحكمه) فبلغ شمالى فلسطين فى أوائل مايو وهنـاك التحم بجيوش أعـدائه وحاربهم بجهة شمش ادوم (Shemesh-Edom) ، وكانوا وقتئذ بقيادة أمراء لبنان . واتبع الملك سنة والده فقاد جيوشه بنفسه فلما اشـتبك القتال اشترك فيه شخصيا فأسر ثمانية عشر أسيرا وستة عشر حصانا وانتهت المعركة بهزيمة أعـدائه هزيمة تامة . وفى اليوم الثانى عشر من شهر مايو عبر الملك (لآخر مرة فى حكمه) نهر العاصى متجها شمالا نحو زنزار ــ غالبا ــ

(٢) Rougé, Revue Arch. n s. VII, 1863, pp. 104 ff.

ميمما شرقا وشمالا نحو الفرات ، ثم عبره الى حيث اشتبك فى معركة صغيرة مع مقدمة قوات النهرين ، ثم توغل فى البلاد وأسر سبعة أمراء من أرض تخسى (Tikhsi) . وبلغ مدينة نى فى السادس والعشرين من شهر مايو — أى بعد عبور العاصى بأربعة عشر يوما — فوجد المدينة مفتحة الأبواب ووقف رجالها ونساؤها على جدرانها يحيونه بالظفر والنصر . وبعد ذلك بعشرة أيام (أى فى يوم ٥ يونيه) نجى قوة مصرية من الوقوع فى خديعة أمير بلدة اكاثى (Ikathi) العاصى وأوقع عليه وعلى أهل بلده عقابا صارما . وهنا نتساءل هل توجه الملك الى أعالى الفرات وعبر الفرات وتوغل بأرض متانى ، والغالب أنه فعل الأخير فقد جاء فى أخباره أن أمراء متانى أتوا اليه حاملين جزيتهم على ظهورهم باحثين عن جلالته ليسمح لهم بالبقاء أحياء واستنشاق نسيم الحياة اللذيذ ، وهذا أعظم شىء حصل منذ زمن المعبودات ، وهكذا عرفت هذه البلاد — متانى — المعبود الطيب « فرعون » بعد ما كانت تجهله وبلده . ولما بلغ أقصى تلك الجهات الشمالية — وهو غالبا ابعد مما وصله والده — نصب فيه حجزا أثريا كما فعل أبوه وجده من قبل . ثم عاد الى منف فقابله المصريون باحتفال بهيج وهناك شاهدوا الجيوش المصرية تتدفق كالسيل ومعهم ما يزيد على خمسمائة أمير سورى أسرى ومائتين وأربعين زوجات لهم ومائتين وعشرة من الخيل وثلثمائة عجلة من غنائم الحرب . وروى أن سكرتيره الخاص كان وقتئذ محتفظا باشياء كثيرة ليسلمها الى رئيس مالية جلالة الملك وهذه الأشياء تحوى ما ينيف على ألف وستمائة رطلا ذهبا (على شكل مواعين وأوان) وما يقرب من مائة ألف رطل من النحاس . ولما قرب الملك من طيبة علق فى مقدم سفينته أمراء تخسى السبعة الذين أسرهم موثوقى الأرجل ورءوسهم الى أسفل . ولما بلغ طيبة تولى ذبح ستة منهم قربانا لآمون وصلب أجسادهم على جدر طيبة ، أما سابعهم فأرسله الى النوبة ليعدم بالكيفية نفسها فيتعظ أهالى النوبة ويقدروا سطوة فرعون مصر ، وسيأتى الكلام على ذلك . والحق يقال ان نشاط الملك ويقظته أثرا كثيرا فى أعدائه فقد جاء فى الآثار أن جلالته لما أسرع الى اخضاع أعدائه الثائرين هابه سكان مستعمراته الأخرى فلم يتجاسر أحدهم على شق عصا الطاعة عليه .

بعد ذلك وجه الملك همته الى اظهار حدود مملكته وتوسيعها جنوبا ولذلك لما وصل الى طيبة أرسل الى النوبة على جناح السرعة بعثة عسكرية معها الأمير السورى السابع الذى أسره بجهة تخسى ، فصلب على جدر نبته عظة لمن يتجاسر من النوبيين على معارضة مصر . أما حدود مصر وقتئذ فبلغت الشلال الرابع ولذا كانت حروب أمنحتب الثانى موجهة الى جنوبى

ذلك الاقليم ، وقد انتهت هذه الحروب بضم الجزء المعروف باسم كاروى (Karoy) الى المملكة المصرية وهكذا أصبح ذلك الاقليم آخر مكان جنوبى تمتد اليه سلطة المندوب السامى بكوش وحاكم الممالك الجنوبية ، واقليم كاروى قريب من منحنى النيل العظيم بجهة أبى حمد حيث يتجه تيار ذلك النهر جنوبا . وقد أقام أمنحتب الثانى فى تلك الجهات آثارا حجرية أثبت فيها حدود مملكته أما فيما بعد ذلك الاقليم جنوبيا فكان النفوذ المصرى مبسوطا على الطرق التجارية فقط حفظا للنظام ومنعا لتمرد الأهالى وقيامهم بحركات عدائية . وبعد ما رجع أمنحتب الثانى من حربه الآسيوية بتسعة أشهر تقريبا نصبت بعثته الحربية السودانية أثرين حجريين احدهما جهة عمدا (Amâda) وثانيهما فى جزيرة الفيل ذكر فيهما أن جلالته أتم بناء المعابد التى بدأها والده تحوتمس الثالث فى تينك الجهتين، وأيضا ما حصل لأمراء تخسى المذكورين سابقا وروى بهما كذلك أعمال جلالته فى أثناء « حربه الأولى » ببلاد النهرين ومنه استنتج أنه كان مصمما على القيام فيها بعدة حروب . والمعروف أن مركز آمون أصبح وقتئذ أعظم مركز الهى عند فراعنة تلك العصور ، ولما اتخذه تحوتمس الثالث من الاحتياط لما عسى أن يطرأ على مستعمراته لم يحتج أمنحتب الثانى الى القيام بحروب فى آسيا ولا فى النوبة خلاف ما ذكرناه سابقا .

وشيد أمنحتب الثانى معبدا على شاطىء طيبة الغربى بجوار معبد والده لكنه تلف الآن . ورمم فى الكرنك تلك الساحة الكبرى التى نزع سقفها وقت نصب مسلتى حتشبسوت فأقام الأعمدة التى نزعتها تلك الملكة ورصعها بالمعادن الثمينة . وقد ذكر أمر هذه الترميمات على الجدر التى شيدها والده حول قاعدتى مسلتى حتشبسوت لاخفاء معالمهما . ثم شيد مكانا ذا عمد صغير الحجم بالكرنك . أما فى عين شمس ومنف فشيد عمارات وأصلح محاجر طرة الا أن تلك الأعمال لم يبق لها من أثر . والمعروف أن هذا الملك كان عظيما كوالده مع قلة آثاره وقد اشتهر بعظم السلطة وشدة البأس ، فقد ورد عنه أنه كان قوى الجسم كثير الافتخار بنفسه لا يضارعه انسان فى استعمال قوسه الحربى . وقد عثرنا على هذا القوس فى قبره فوجد منقوشا بالنصوص الآتى ترجمتها : « قاتل الأعداء قاهر كوش وناهب بلادهم...سور مصر العظيم الحامى جنوده ». ويعتبر هذا الوصف أصل الخرافة التى رواها هيرودوت عن عجز قمبيز العجمى عن استعمال قوس ملك النوبة ، ولا يخفى أن مثل هذا التحريف والتبديل فى الحقائق التاريخية جاء نتيجة تداول الألسن على مرور الزمن. وفى السنة الثالثة عشرة من حكم أمنحتب الثانى احتفل احتفالا عظيما بمسلة نصبها بجزيرة فيلة للذكرى . وتوفى هذا الملك عام ١٤٢٠ قبل الميلاد بعد ما حكم حوالى ست وعشرين سنة ودفن كأسلافه فى وادى

مقابر الملوك بطيبة وما تزال جثته محفوظة الى الآن (لوحة ٩٠) · وقد سطا اللصوص على هذه الجثة في نوفمبر عام ١٩٠١ وقطعوا لفائفها للاستيلاء على حليها الملكى ، على أن أسلاف هؤلاء اللصوص لم يتركوا ما يستحق السرقة الا سرقوه قبلهم ·

ولما توفى أمنحتب الثانى ولى بعده تحوتمس الرابع عرش مصر · وقد وردت بخصوص هذا الملك قصة تداولتها الألسن بعد وفاته بعدة قرون تتلخص في أنه لم يكن منتظرا أنه يرث الملك عن والده فخرج يوما ما قبل وفاة والده بمدة للصيد بجوار أهرام الجيزة حيث دفن ملوك الأسرة الرابعة التى يرجع تاريخها الى حوالى ألف وثلثمائة سنة اذ ذاك ، واستراح في ظل أبى الهول (أحد رموز الشمس) فرأى هذا المعبود فى المنام طالبا نقل الرمال المحيطة به والمنهالة عليه من قديم الزمن ، ووعده ان فعل ذلك أن يساعده على ولاية الملك فلما انتبه تحوتمس الرابع من نومه أقسم أنه سيفعل ما طلبه المعبود وقد نفذه فعلا بعد ما تولى · وذكر هذه القصة على حجر جرانيتى كبير مقام بين قدمى أبى الهول الأماميتين ويظهر أنه مأخوذ من معبد أزوريس المجاور بمساعدة الكهنة وقتئذ ، وما يزال هذا الحجر فى مكانه ·

وفى مبدأ حكم تحوتمس الرابع شبت فى آسيا ثورة استدعت ذهابه ولا نزال نجهل كثيرا من أخبار تلك الغزوة التى لقبها بالغزوة الأولى جريا على عادة والده · ودلتنا نقوش جدر معبد آمون بطيبة أنه اضطر الى أن يذهب شمالا الى بلاد النهرين ، وأنه أخذ جزية عظيمة من ملك تلك المستعمرات اللعين ، والظاهر أن مجرد شخوصه فيها كفى لاخضاع الأمراء الثائرين وقتئذ · ورجع عن طريق لبنان وأمر حكام تلك الجهات أن يجمعوا كمية كبيرة من خشب الأرز ثم شحنها الى طيبة ليبنى منها سفينة مقدسة للمعبود آمون · ولما وصل الى طيبة استخدم عددا من الأسرى الذين أتى بهم غالبا من جازر بفلسطين للعمل داخل معبده بطيبة الذى شيده بجوار معابد أسلافه ·

فى ذلك الوقت أخذ نفوذ خيتا يكبر تدريجا وصارت معادية لمصر وللملكة متانى ومن ثم اتحدت المملكتان الأخيرتان لمناوأة خيتا · ولا يخفى أن متانى كانت تشعر بسلطة خيتا أكثر من مصر لقربها منها ، زد على ذلك أن تحوتمس الرابع رأى من مصلحته أن يحالف صديقا له فى الجهات الشمالية فارسل الى ملك متانى ملتمسا منه ارسال كريمته ليقترن بها (٣) ، فتردد الأخير يسيرا كالمعتاد فى مثل هذه الأحوال ثم رضى فى

(٣) خطابات تل العمارنة ٢١ و ١٦ ــ ١٨ ·

آخر الأمر وأرسل كريمته الى مصر حيث لقبت موت أمويا (Mutemuya) وقد صارت فيما بعد أم أمنحتب الثالث الذى خلف تحوتمس الرابع فى الملك . بهذه الوسيلة تمكن تحوتمس الرابع من عقـد معاهدة ثابتة مع متانى ، لكنه يلاحظ أن هذه المعاهدة منعت مصر من غزو البلاد شرقى نهر الفرات (بالنسبة لموقع متانى الجغرافى) .

توجـد قائمة بأسماء بلاد أجنبية محلاة بها قواعد عمد معبد صلب شيده أمنحتب الثالث ذكرت هناك بمثابة مستعمرات مصرية فظن بعض الأثريين منها أن أمنحتب الثالث كان حاكما على بلاد العراق أيضا . لكن خطابات تل العمارنة واضحة بخصوص هذه المسألة وعليه فالامبراطورية المصرية لم تشمل بلاد العراق فى عصر من عصورها (مأخوذة عن الأستاذ برستد ، من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبردج صحيفة ٩٢ ، القسم المصرى) .

بعد ذلك عقـد تحوتمس الرابـع محالفة صـداقة كالسـابقة مع بابـل (٤) . والمعروف أن أحوال آسيا وقتئذ لم تتطلب القيـام بغزوات حربية ولكن تحوتمس الرابـع لقب نفسه مع ذلك « فاتح سوريـا » . أما جزية هذه البـلاد الأخيرة فكانت ترسل كل سهنة الى مصر وتسلم الى رئيس المالية بمكتبه . وفى ربيع السـنة الثامنة لحكمه وصلت الينـا أنباء بحدوث ثورة بالنوبة فسار اليها فى جيشه مارا بالمعابد العظيمة فى طريقه محييا آلهتها حتى بلغ الشلال الأول ، ثم زحف فى بلاد الواوات فدهش لما وجد جيوش العدو بجوار حدود النوبة الشمالية . ولما التحم بها هزمها شر هزيمة ثم استولى على كميات عظيمة من الغنائم الحربية ، وأرسـل الأسرى الذين ضرب عليهم العبوديـة الى معبده ليخدموا فيه . والغالب أنه لم يعش طويلا بعد ذلك ، لأنه لم يتمكن من تحسـين طيبة وتنسيقها كما فعل آباؤه . ولشدة حبه لجده تحوتمس الثالث أتم عمل جده فأقام المسلة التى تركها بمدخل الكرنك الجنوبى ونقشها بالدعوات والصلوات عليه ودون عليها أفعال جده الخيرية ، أما ارتفاع هذه المسلة فيبـلغ مائة وخمس أقـدام وهى أكبر مسلة باقيـة للآن وقد نقلت الى ايطاليا حيث ما تزال منصوبة أمام اللاتيران (Lateran) بروما . وقد توفى تحوتمس الرابع بعد ذلك بمدة يسيرة (حوالى عام ١٤١١ قبل الميلاد) وقت الاحتفال ببعض أعيـاده ودفن بوادى مقابر الملوك بطيبة مع أجداده السابقين

---

(٤) خطابات تل العمارنة ١ ، ١ ــ ٦٣ .

ولما توفى تحوتمس الرابع ولى بعده ابنه أمنحتب الثالث آخر كبار فراعنة الامبراطورية المصرية • وقد كانت المملكة فى وقته بالغة أعظم درجات الرقى والحضارة ثم أخذ يظهر عليها دبيب الضعف سيرا • والمعروف أن هذا الملك لم يكن كفئا لممارسة الأمور وقتئذ ، لأنه كان ولوعا بالنساء منذ أوائل أيامه ثم ازداد غراما بهن وتعلق بالنساء منذ كان ولى العهد أو حالما تسلم من والده مقاليد الحكم فتزوج وقتئذ بامرأة غريبة مجهولة الأصل تدعى تى (Tiy) والغالب أن هذه المرأة مصرية لا تظهر عليها مسحة أجنبية ، فلما كانت ليلة القران أمر بصنع جعل حجرية كبيرة منقوش عليها تاريخ ذلك القران ومذكور بها أيضا ضمن الديباجة الملكية أسماء والدى هذه الزوجة بوضوح وبساطة مما يثبت أنهما مجردان من كل صلة بالبيت المالك • وقد جاء فى نصوص هذه الجعل أن الزوجة تى صارت قرينة الملك ، واليك ترجمة ما جاء بآخر هذه النقوش : « لقد صارت هذه السيدة زوجة الملك العظيم الذى بلغت حدود مملكته الجنوبية اقليم كارو (Karoy) والشمالية بلاد النهرين » فكان هذا بمثابة تذكار لهذه الملكة السامية اذا ما خالجت أحدا فكرة ضعة أصلها • وتسلطت هذه الملكة كثيرا على نفس أمنحتب الثالث فسمح لها بكتابة اسمها داخل خانة ملكية بأول النصوص الملكية وقد استمرت سلطتها قويه طوال حكم أمنحتب الثالث ، ويعتبر عهد هذه الملكة فاتحة ازدياد نفوذ الملكات على العرش المصرى وادارة شؤون المملكة فى الحفلات العمومية ، وقد تجلى هذا النفوذ النسوى بوضوح فى عهد هذا الملك وعهد خلفه أمنحتب الرابع ، وسيأتى الكلام على أهمية ذلك •

وأظهر أمنحتب الثالث مقدرة عظيمة فى ادارة شؤون الامبراطورية عند توليه الحكم فلم يتجاسر سكان المستعمرات الامبراطورية فى عهده على القيام بثورة ما ولذلك كانت تلك الجهات هادئة مطمئنة وكانت الحضارة والرفاهية بالغتين بها الدرجة القصوى • وفى أواخر السنة الرابعة من حكمه حصلت مشاغبات بجنوبى النوبة فذهب اليها فى أوائل شهر أكتوبر ليتمكن بذلك من عبور الشلال بأسطوله وقت ارتفاع منسوب النيل ، وفى ذلك الوقت كان المندوب السامى هناك المدعو (مرى مس) حشد جيشا من السودانيين القاطنين الاقليم الذى هو بين كوبان وابريم البالغ طوله نحو خمسة وسبعين ميلا ، فانضمت هذه القوة الى الجيش المصرى ثم زحفت القوات المصرية جنوبا لاخضاع العصاة فاعتبر هذا دليلا قاطعا على عظم النفوذ المصرى فى السودان الشمالى وقتئذ • وحدثت المعركة الحربية بين جيشى أمنحتب الثالث والعصاة بجهة ابهت (Ibhet) قرب الشلال الثانى فى العيد الخامس لجلوس الملك على الأرجح ، وانتهت بهزيمة العصاة تاركين سبعمائة وأربعين أسيرا وثلثمائة واثنى عشر قتيلا كما ورد

على لوح النصر المنصوب بجهة الشلال الثانى • ثم طافت فصائل من الجيش المصرى على البلاد وقامت بالتفتيش على القرى والآبار لمعاقبة الأهالى حتى لا يقوموا بحركة ثورية على مصر • بعد ذلك زحف أمنحتب الثالث جنوبا مدة شهر تقريبا أسر فى أثنائه عددا عظيما من الأسرى وكمية كبيرة من الذخيرة • ولما وصل الى تل هوا (Hua) ضرب خيامه على جزيرة أنشك (Uneshek) جنوبى ذلك التل • أما موقع التل بالضبط فمجهول لنا على كثرة ذكره مع اسم الصومال (بونت) ويظن أنه على مسافة بعيدة عن منطقة الشلالات ، ويعتبر هذا المكان آخر ما وصل اليه أمنحتب الثالث • بعد ذلك جمع الملك كميات كبيرة من الذهب لعمارات طيبة من اقليم كاروى بجهة نبته ثم نصب حجرا أثريا على بحيرة حورس أثبتت فيه انتصاراته ، وللآن لم نهتد الى موضع هذا المكان بالضبط ولعله قريب من حدود مملكة والده • ويعتبر هذا العمل آخر غزو كبير قام به الفراعنة بالسودان ، بصرف النظر عن المشاغبات الصغيرة التى سببتها القبائل المجاورة • والسبب فى ذلك أن هذا القطر أخذ يصبغ تدريجا بالصبغة المصرية حتى أصبح الاقليم الذى بين الشلال الأول والشلال الرابع خاضعا خضوعا تاما للسلطة المصرية • وليلاحظ أن الأهالى القاطنين لقسم السودان الخاضع لمصر كانوا نوبيين ، أما الزنوج فكانت بلادهم وقتئذ جنوبى اقليم شلال النيل الرابع • وأقدم رسوم لزنوج أفريقية وجدت على آثار الامبراطورية المصرية فى عهد تحوتمس الأول كما أظهر يونكر (H. Junker) والمعروف أن الامبراطورية المصرية لم تشمل يوما ما أراضى زنجية (مأخوذة عن الدكتور برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبردج صحيفة ٩٤ ـ القسم المصرى) • أما الاقليم الذى بين الشلالين الأول والثانى فقد صار مصريا تماما فظهرت فى مدنه الكبيرة الهياكل المصرية وعبدت فيها المعبودات المصرية • ثم أدخلت فى تلك البلاد الصناعة والأشغال اليدوية المصرية فتجلت بذلك فى تلك الجهات المدنية والأخلاق والآداب المصرية بوضوح • لكنه بالرغم من هذا سمح لرؤساء القبائل السودانية بأن يحتفظوا بالقابهم ومراكزهم اسميا ـ على الأقل ـ وأن يشتركوا يسيرا هم والموظفون المصريون فى ادارة شؤون البلاد • أما القسم الذى هو بين الشلال الأول وابريم فكانت ادارته كلها بأيدى المصريين ولذلك يتضح لنا السبب فى أن هذا القسم حشد جيشا انضم الى قوة أمنحتب الثالث ليساعدها وقت زحفها على السودان • وجرت العادة وقتئذ أن يحضر المندوب السامى للسودان كل سنة الى طيبة مصحوبا بجزية النوبة العامة حتى أصبح ذلك أمرا مألوفا لدى العامة •

كانت سلطة أمنحتب الثالث فى آسيا لا تقاوم ففى قصر بابل كانت سلطته على سوريا وفلسطين (المعروفين قديما باسم كنعان) معترفا بها •

ولما أراد بعض أمراء آسيا القيام بحركة عدائية مشتركة على ملك مصر كتبوا الى ملك بابل المدعو كوريجالزو (Kurigalzu) ، طالبين انضمامه اليهم فرفض ذلك بتاتا قائلا انه انما يتحالف مع فرعون مصر ثم هددهم فعلا بالقوة اذا هم ثاروا على أمنحتب الثالث (٥) . وسواء أكانت هذه الرواية صحيحة أم لا فقد وردت مدونة ضمن رسائل بابل وهي على كل حال كافية لاثبات صداقة بابل المتينة نحو مصر . ووصلت الحال الى أن بابل وآشور ومتاني وقبرص تنافست لاكتساب محبة مصر ويعتبر هذا أول مظهر سياسي دولى عام فى تاريخ الممالك المعرفة للآن . وصار قصر فرعون مصر مركزا للتخاطب مع كبار حكام ذلك العصر جميعا . وترجع معظم معلوماتنا عن المداولات بين فرعون مصر وحكام آسيا الى الاكتشاف العظيم الذى وجد بتل العمارنة وهو عبارة عن الخطابات التى تبودلت بين حكام ذلك العصر وفرعون مصر ومنها عرفنا مقدار ما يبذله كل ملك من مجهود لاستمالة عطف مصر ومحبة عرشها العظيم . ويبلغ عدد هذه الخطابات ثلثمائة وهى عبارة عن قوالب طينية منقوشة بالخط المسمارى البابلى ، وكان اكتشافها عام ١٨٨٨ ميلادية بجهة تل العمارنة التى كانت عاصمة المملكة المصرية فى عهد اخناتون بن أمنحتب الثالث والتى كانت أيضا مركز التخاطب مع الملوك الأجانب (لوحة ٩٢) . واتضح لنا أن هذه الخطابات كانت متبادلة بين أمنحتب الثالث وابنه اخناتون من جهة ، وملوك بابل ونينوى ومتانى وقبرص وولاة سوريا وفلسطين من جهة أخرى . ويوجد بين هذه الرسائل خطاب من أمنحتب الثالث الى ملك بابل المدعو كاليما ــ سين (Kallimma-Sin) أو كادشمان ـ بل (Kadashman-Bel) وأربع رسائل من ملوك بابل هذا الى فرعون مصر (٦) . ويستنتج من هذه الرسائل أن ملك بابل كان كثير المطالبة بالذهب فقد رجا فى خطاب له فرعون مصر أن يرسل له كميات كبيرة من ذلك المعدن النفيس ، لأن ملوك بابل علم من رسله أن ذهب مصر كثير كالتراب ، وقد أرسل أمنحتب الثالث لملك بابل ما طلبه ، لكنه كان كثيرا ما أظهر عدم رضاه بالمقادير المرسلة . وجاء فى خطاب آخر أن والد ملك بابل أرسل كريمته الى أمنحتب الثالث ليقترن بها فاعتبر هذا سببا كافيا طالب بمقتضاه ملك بابل فرعون مصر بكمية كبيرة من الذهب . وفى رسالة أخرى أن ملك بابل طلب كريمة أمنحتب الثالث ليقترن بها لكننا لم نعرف بالضبط اذا كانت هذه الفتاة له أو لابنه .

---

(٥) خطابات تل العمارنة ٧ .

(٦) خطابات تل العمارنة ١ ــ ٥ .

ومثل هذه العلاقات الودية كانت متبادلة أيضا بين أمنحتب الثالث وملك متانى المدعو شوترنا (Shuttarna) بن أرتاتاما (Artetama) صديق تحوتمس الرابع الحميم ، ولا يبعد أن يكون أمنحتب الثالث ابن أخت ملك متانى. والمعروف أن هذا الأخير أرسل كريمته المدعوة جيلوخيبا (Gilukhipa) الى أمنحتب الثالث ليقترن بها ، فأقام هذا الأخير احتفالا عظيما وأمر بصنع عدد عظيم من الجعل نقش عليهــا أخبار ذلك القران ، منها أن الأمير المذكورة أحضرت معها من آسيا حاشية من السيدات يبلغ عددها ثلثمائة وسبع عشرة سيدة وخادمة وكان ذلك فى السنة العاشرة من حكم أمنحتب الثالث . وتوفى ملك متانى فعقبه فى الملك ابنه المدعو دشراتا (Dushratta) وقد أرسل هذا كريمته أيضا المدعوة تادوخيبا (Tadukhipa) الى أمنحتب الثالث ليقترن بها ابنه المدعو اخناتون ، . وقد اعتبرت هذه المراسلات الملكية برهانا صادقا للود المتين بين القطرين وقتئذ . واليك ترجمة نص خطاب أرسله دشراتا (٧) الى أمنحتب الثالث :

« الى أخى وصهرى الذى يحبنى وأحبه أمنحتب الثالث الملك العظيم وفرعون مصر .

« من دشراتا الملك العظيم أخيك وحميك الذى يحبك . أنا فى صحة جيدة ، علك أنت كذلك وكذا منزلك وأختى وســائر زوجاتك وبنــاتك وعجلاتك وخيلك وكبار رجالك وأرضك وكل ممتلكاتك . علكم جميعــا بخير . كان آباؤك قديما على أوفق وئام مع أبى ، لكنك قويت تلك الرابطة عما كانت عليه كثــيرا ، حقيقة كنت صــديقا حميما لوالدى ، وتجاذبنا أطراف الصداقة معا لكنها الآن اشد مما كانت عشر مرات . لعل المعبودات تزيد من ودنا هــذا على توالى الأيام ، ولعل المعبــود تشوب (Tishub) (إله مملكة متانى) السيد والمعبود آمون يحافظان على هذا الود كما هو الآن .

« لما حضر الى رسول أخى المدعو مانى (Mani) قائلا انك تخطب كــريمتى لتكون ملكة على مصر لم أتجــاسر على تكدير قلب أخى ، بل استمررت على أداء ما هو واجب نحو صداقتنا ، وتنفيذا لرغبتك يا أخى أرسلتها مع مانى الذى سر جدا برؤيتها ، فاذا وصلت الى أرضك يا أخى أتعشم أن الربة عشتار (Ishtar) والمعبود آمون يجعلانها محبوبة ومقبولة لديك » .

« لقد أحضر لى رسولى جيليا (Gilia) خطابك يا أخى . ولما قرأته فرحت فرحا جزيلا حتى اننى قلت وقتئذ اذا فرضنا أن صداقتنا ذهبت، فان

---

(٧) خطابات تل العمارنة ١٧ .

هذه الرسالة ستجعلنى أثابر على الود لك الآن . وكتبت لك يا أخى قائلا: « أما من جهتى فاننا سنكون أعز أصدقاء وأوفى أخلاء » . ثم سألتك يا أخى أن تقوى صداقتنا أكثر عشر مرات مما كانت عليه أيام آبائنا . ولقد طلبت يا أخى مقدارا كبيرا من الذهب قائلا : « أرسل لى يا أخى أكثر مما كان يرسل لوالدى من قبل ! لقد كنت ترسل لوالدى كميات كبيرة من الذهب بما يعادل مكيال نامخار (Namkhar) من الذهب النقى وميكيال كيرو (Kiru)من الذهب النقى (؟) أما الذى أرسلته فعبارة عن قرص من الذهب يظهر أنه مخلوط بنحاس ... لذلك أرسل لى يا أخى كميات كبيرة من الذهب بلا حساب وليكن مقداره أكثر من الذى كنت ترسله لوالدى ، لأن الذهب فى أرضك يا أخى كثير كالتراب » .

هكذا تخاطب ملوك بلاد آسيا الغربية مع مصر . ولنذكر هنا على سبيل الايضاح أن ملك آشور تسلم من أمنحتب الثالث مبلغ عشرين مثقالا ذهبا (٨) فسر بذلك وتوثقت روابط الصداقة بين المملكتين . أما ملك قبرص فكان مراعيا سيادة فرعون عليه جيدا فكان يرسل الى مصر كميات عظيمة من النحاس كل سنة الا سنة واحدة اعتذر فيها عن تقصيره بانتشار وباء فى جزيرته . وكان حسن التفاهم بين قبرص ومصر بالغا اقصى درجاته من الكمال ، من ذلك ما ورد على الآثار أن رجلا من أهالى قبرص توفى بمصر فدارت بين ملكى هذين القطرين مراسلات أرسل رسول بمقتضاها الى مصر لتسلم تركة المتوفى وارجاعها الى قبرص لترد الى زوجة الفقيد وابنه (٩) . وبلغت رغبة ملك قبرص فى صداقة مصر أنه حذر فرعون من الدخول فى أية معاهدة مع مملكة خيتا أو بابل ، وسنرى أن بابل اتبعت هذه السياسة نفسها مع مصر للغرض ذاته أيضا .

ازاء هذا الاحترام والتبجيل والرعاية من كل الدول العظمى لم يجد أمنحتب الثالث أمامه ما يشغل باله من جهة مستعمراته الآسيوية ، خصوصا اذا لاحظنا أن حكام سوريا فى عهده كانوا أحفاد أسرى تحوتمس الذى علمهم بمصر ورباهم على حبها مدة طويلة فأصبحوا لا يعرفون مركزا يطمحون اليه أسمى من أن يكونوا ولاة تحت حكم المصرى . وكان طبيعيا فى وقت كان فيه الحق للقوة أن يرى هؤلاء الأحفاد أن ذهابهم الى مصر ووراثة ملك آبائهم بعد وفاتهم كان الوسيلة لرضاهم فى أن يكونوا محميين بالسلطة المصرية العظيمة من كل اعتداء أجنبى . وقد ألمعنا سابقا الى المدرسة المصرية التى تعلم بها هؤلاء الأحفاد والتى أنبتت فى قلوبهم

(٨) خطابات تل العمارنة ٢٣ ـ ٣٠ ملاحظة .
(٩) خطابات تل العمارنة ٢٥ ـ ٣٠ ملاحظة .

بذور المودة نحو مصر بعد ما كان آباؤهم يبغضون مملكة النيل ويتنحون عنها . وما أكثر ما أظهره هؤلاء الحكام من الطاعة لمصر وقتئذ ؟ ، خذ مثلا ما جاء بخطاب أمير قطنا (حمص ؟ Katna) المدعو أكزى (Akizzi) الذى أرسله الى أمنحتب الثالث فقد جاء فيه ما ترجمته :

« سيدى أنا خادمك هنا ، أتبع سنة سيدى ولا أحيد عنه أبدا . لقد صارت هذه الأراضى ملكك منذ آبائى الذين خدموك . فمدينة قطنا مدينتك ، وأنا عبدك ، سيدى ، حالما تصل الى جنودك وعجلاتك الحربية سرعان ما يقدم لها الغذاء والشراب والبهائم والأغنام والعسل والزيت ، هكذا نقابل جنود جلالتك وعجلاتك أيها الملك » (١٠) .

واليك مثلا آخر لخطاب أمير سورى أرسله الى أمنحتب الثالث يثبت عبودية هؤلاء الأمراء . هذا ترجمته :

« سيدى ومليكى ومعبودى وشمسى . أنا خادمك أبيملكى (Abimilki) . (أتشرف بأن) أسجد بين قدمى سيدى سبع مرات وسبع مرات أخر ، فأنا الأديم تحت خفى سيدى الملك . سيدى ، أنت الشمس الساطعة على الأرض كلها كل يوم ... » (١١) .

وجاء فى خطاب آخر لأحد أمراء سوريا ما ترجمته :

« (أتشرف بأن) أسجد بين قدمى جلالة فرعون مصر على وجهى وظهرى الخ » .

وجاء فى خطاب آخر لأحد أمراء سوريا ما ترجمته :

« أنا الأرض التى تطؤها قدماك ، والمقعد الذى تجلس عليه . والمسند الذى تضع عليه قدميك » .

وغلا بعضهم فى العبودية فكتب الى جلالة فرعون مصر يقول : « أنا كلبك » . وكان بعضهم يتشرف بأن يلقب نفسه « سائس جلالة الملك » . وقد شمل فرعون مصر هؤلاء الأمراء برعايته فأرسل لهم الزيت المعطر ليتضمخوا به فى عيد اعتلائهم لعروش آبائهم . واعتاد هؤلاء الأمراء أن يخلصوا لفرعون فيخبروه فى أول فرصة بما يحدث فى أقسامهم من بوادر الثورة ، وكثيرا ما عهد اليهم جلالته فى اخضاع الأمراء العصاة . أما مدن آسيا الكبرى فكانت تحوى وقتئذ الجنود والعجلات الحربية المصرية ، ولم تكن هذه القوات مصرية على بكرة أبيها بل شملت أيضا قوات نوبية

---

(١٠) شرحه ١٣٨ و ٤ ـ ١٣

(١١) شرحه ١٤٩ و ١ ـ ٧ .

وبعض قرصان البحر الأبيض المتوسط المعروفين باسم شردن (Sherden) ـ الذين يظن أنهم من جزيرة سردينيا ـ وأخذ هذا العنصر الأجنبي يزداد تدريجيا فى الجيش على توالى الأيام · وقد اتضح لنا من خطاب أحد أمراء آسيا أنهم كانوا يقدمون الطعام والمسكن لقوات مصر هناك ، فظهرت فى سوريا بهذه الكيفية حكومة وطيدة الأركان لم تر البلاد مثلها سابقا فالطرق آمنة والقوافل تسير مطمئنة على أنفسها وأموالها ، كل ذلك لأن كلمة واحدة من فرعون كانت كافية لعزل أى أمير سورى من مركزه · أما الضريبة فكانت تجمع من الأهالى بسوريا بالنظام نفسه وفى الوقت عينه الذى تجمع فيه بمصر ، واذا تأخرت الجزية يسيرا كان ظهور نائب الملك فى المدن الكبيرة هناك كافيا لجعل الامارة المترددة تدفع جزيتها فورا · يتضح لنا من ذلك أن أمنحتب الثالث لم يجد له مسوغا لشن الحرب على آسيا · أما الرواية الواردة على الآثار من أن جلالته ذهب مرة الى صيدون (صيدة Sidon) وخاطبه هناك أحد موظفيه عن عدد الأسرى الذين استولى عليهم جلالته فالغالب أن ذلك يرجع الى الحملة النوبية السابق الكلام عليها · والمعروف أنه عند حصول أى قلق أو اضطراب بآسيا كان أمنحتب الثالث يرسل قوة حربية الى الجهات العاصية بقيادة ضابط ماهر يخمد الاضطراب كلمح البصر · وقد دامت هذه الحال عشرين سنة تقريبا بعد جلوس أمنحتب الثالث على عرش مصر ، ومما يعزز استنتاجنا هذا ما جاء بخطاب أمير آسيوى الى ابن أمنحتب الثالث هذا ترجمته : « حقيقة أن والدك لم يات الينا ولم يتعهد أراضى ولاته الأمراء » (١٢) ·

أمام هذه الظروف لم يجد أمنحتب الثالث بدا من صرف همته فى ترقية شؤون مملكته الداخلية وهو أمر متبع فى مثل هذه الأحوال بسائر الامبراطوريات ، لذلك بلغت التجارة فى عهد هذا الملك درجة رفيعة لم تصل اليها من قبل ، وصار نهر النيل من الدلتا الى الشلالات مملوءا بخيرات العالم الواردة بأسطول البحر الأحمر وقوافل برزخ السويس ، فكنت ترى البضائع السورية الثمينة والبخور والأخشاب العطرية الواردة من البلاد الشرقية والأسلحة والأوانى الفينيقية المزخرفة وعشرات الآلاف من الخيرات الكثيرة الاستعمال بين سكان وادى النيل حتى أدخلت أسماؤها السامية فى اللغة الهيروغليفية · أما تجارة البحر الأبيض المتوسط فبلغت درجة عالية فى الرقى والتقدم كالتجارة البرية،ولذا كانت مئات السفن الفينيقية الواردة الى مصر تأتى من الجهات كلها مشحونة بكل الخيرات كالأوانى المزخرفة والمصنوعات البرونزية المنقوشة الآتية من

---

(١٢) خطابات تل العمارنة ٨٧ و ٦٢ ـ ٦٤ ·

البلاد اليونانية القديمة • وانتشرت المصنوعات المصرية وعم استعمالها في قصور كنوسوس (Cnossos) (كريت ورودس وقبرص) حيث وجدت منها بقايا استمرت الى الآن • وعثر في بلاد اليونان نفسها على جعل وقطع أوان خزفية مطلية بالزجاج ومنقوش عليها اسم أمنحتب الثالث أو الملكة تي (Tiy) • في ذلك الوقت أيضا شعر سكان البحر الأبيض المتوسط بنفوذ مصر وحضارتها أكثر من أى عهد سابق • فظهرت في كريت الشعائر الدينية المصرية حتى ورد أنها أقيمت مرة تحت اشراف كاهن مصرى (لوحة ٩٣) • ثم صبغت الصناعة اليونانية بالصبغة المصرية بدرجة كبيرة فظهر على مصنوعات اليونان المعدنية ذوق مصرى خطته أقلام صناع طيبة • فكثيرا ما كنت ترى على المصنوعات اليونانية رسوم الحيوانات المصرية المختلفة ممثلة في حركاتها وسكناتها الطبيعية • ثم ظهرت في بلاد اليونان وفي أوركمنوس (Orchomenos) تلك السقف المزخرفة الجميلة التي أبدعتها أيدى أهالي طيبة • واتضح لنا أن الخط الذى استعمل في كريت قبل الخط اليونانى يحوى آثارا من الخط الهيروغليفي المصرى ، فثبت بذلك انتشار الخط المصرى الى تلك الجهات • والفضل في نشر المدنية المصرية في تلك الجهات يرجع الى أهالي الجزر اليونانية المعروفين عند المصريين باسم كفتيو (Keftyew) وقد أحضر هؤلاء القوم معهم مصنوعات يونانية كثيرة كان لها بعض التأثير في المصنوعات المصرية • وقد كثر وفود هؤلاء القوم الى طيبة وقتئذ حتى صارت رؤيتهم في الشوارع شيئا اعتياديا • ولما أخذت الفضة ترد بكثرة الى مصر مع الأجانب الشماليين رخصت قيمتها عن قيمة الذهب بعد ما كانت أثمن منه بمقدار الضعف أيام الهكسوس • بعد ذلك أخذت نسبة قيمة الذهب الى الفضة تزداد تدريجا من ١⅔ : ١ حتى بلغت ١٢ : ١ في عهد البطالسة (أى القرن الثالث قبل الميلاد) •

وبدهى أن مثل هذه الأعمال التجارية احتاجت الى حماية ونظام خصوصا وأن القرصنة وقتئذ كانت منتشرة وخطيرة • فالقرصان الليديون Lyciau عبثوا كثيرا بمرافيء شرقى البحر الأبيض المتوسط ونهبوا بجرأة موانى قبرص ، ثم غلوا في اجرامهم فانزلوا بعضا منهم على شاطيء الدلتا للنهب والسرقة (١٣) • لذلك عين أمنحتب الثالث خفرا حربيا للسواحل يطوف على شواطيء الدلتا ليمنع القرصان من الدنو من مصر ولا يسمح بالدخول في مصبات النيل الا للسفن التجارية القانونية •

---

(١٣) خطابات تل العمارنة ٢٨ •

وقد أشرف رجال الشرطة على جمـــع الضرائب المفروضـــة على البضائع الخارجية فى مواضع مخصوصة ما عدا الخاص منها بالملك فقد أعفى (١٤) ٠ والظاهر أن ايراد هذه الضرائب كان كبيرا جدا ولم نهتد للآن الى معرفة قيمته بالضبط ٠ أما الطرق البرية فقد حرمت بالنظام نفسه وكل أجنبى يرى داخل المملكة بسبب غير مصرح به كان جزاؤه الطرد الى حيث أتى ٠ أما التجارة القانونية فكانت مصونة وليست مثقلة بالضرائب ٠

واستمرت تجـارة الرقيق ـ وعلى الأخص السورى ـ منـذ أيام تحوتمس الثالث ٠ وكاتب الملك هو الشخص الذى كان يوزع الرقيق على أنحاء القطر ويثبتهم فى سـجل العبيد الذين يدفعون الضرائب للخزانة الملكية ٠ وبدهى أنه كلما كثر الأجانب بمصر امتزج دمهم بالدم المصرى وقد ثبت هذا من رسوم آثار تلك العصور ٠ ومما ساعد أيضا على تغيير أحوال البـلاد وقتئذ زيـادة ثروة خزانة فرعون لمدة قرن تقريبا ، تلك الزيادة التى كان لها تأثير سيىء فى التـاريخ التالى ، فأصبح الفراعنـة يغدقون فى أعيادهم (كعيد رأس السنة مثلا) الهدايا الثمينة التى كانت تبهر ملوك الأهرام اذا هم شاهدوها ٠ فقد ورد مثلا على الآثار أن وزير الماليـة أحضر مرة أمام جـلالة الملك « عجلات مموهة بالفضـة والذهب وتماثيل من العاج والأبنوس وقلائد من الأحجار الكريمة المختلفة وأسلحة حربية وأشغالا يدوية متباينة الأنواع » ٠ قد شملت هذه الأشغال اليدوية ثلاثة عشر تمثـالا للملك وسبعة تماثيل لأبى الهول بوجه الملك وثمانى قلائد بديعة وستمائة وثمانين درعا ثمينا ومائتين وثلاثين كنانة من الصنع نفسه وثلثمائة وستين سيفا من البرونز ومائة وأربعين خنجرا من البرونز المنقوش بالمعادن الثمينة وثلاثين عصا من الأبنوس مكسوة أطرافها بالفضة والذهب ومائتين وعشرين سوطا من العاج والأبنوس وسبعة صـناديق دقيقة الصنع ومظلات كثيرة ومقاعد وأوانى عديدة وما الى ذلك من الأشياء الصغيرة ٠ قارن هـذا بما كان متبعـا قديمـا لما كان الملك يهب أمراءه المخلصين قطع الأراضى ليزرعوها ويحسنوا ادارتها ، رغبة فى ترقية الزراعة وزيادة خيرات القطر ، أما الآن فقد تغيرت الحال اذ أصبح الملك ينعم على رعيته بالثروة التى لا تحتاج الى عنـاء أو تعب لتثميرهـا ٠ من ذلك ظهر الترف والنعيم فى طيبـة بعد ما كانت مثـال البسـاطة والجد والمعيشة الطبيعية ، وليلاحظ أن هذا التغير شمل أفراد المملكة كافة من الملك الى الفقير وأعظم دليل على ذلك ما يشاهد من التغير فى الملبس٠ فبعد ما كانت طبقـــات الأمة (حتى الملك) تكتفى برداء قصـــير يستر ما بين السرة

---

(١٤) خطابات تل العمارنة ٢٩ و ٣٢ و ٣٣ ٠

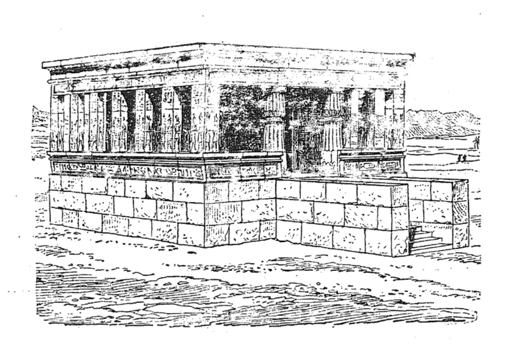
والركبتين أصبح القوم الآن يرتدون الملابس الطويلة الجيدة النسيج والثمينة والواسعة الاكمام • ثم استبدل بلباس الرأس البسيط القديم شعر صناعي يوضع على الرأس ويسدل على الكتفين • أما الأقدام فبعد ما كانت دائما عارية أصبحت الآن تلبس الخف البديع ذا الطرف المدبب أحيانا • ولو فرض أن شخصا من عهد أمنمحات أو سنوسرت مشى فى شوارع طيبة لابد أنه يدهش وتعتريه حيرة ويتساءل عن البلد الذى هو فيه فان لبسه كان غريبا جدا وتغير استعماله تماما فى عهد الامبراطورية الا فيما بين أفراد طائفة الكهنة (شكل ٣٢) • واذا أراد القارىء أن يتصور مبلغ هذه الدهشة فليتصور ظهور رجل من عهد الملكة اليزابث فى شوارع لندن الحالية•والحق يقال ان طيبة فى عهد أمنحتب الثالث امتازت بأبنيتها الشامخة وبيوتها الفاخرة ذات الحدائق اليانعة والمتنزهات النضرة حول المعابد الواسعة ، مما لم تشهده عين مصرى فى أى زمن سابق (شكل ١٢٤) •



شكل (٣٢) شكل يمثل ملابس عهد الامبراطورية •

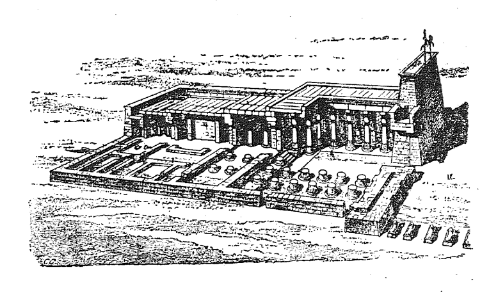
والمعروف أن استغلال ثروة بلاد النوبة وآسيا واستخدام أسراهما رقيا كثيرا من البناء المصرى بطيبة من حيث الاتقان والجودة • وقد شجع أمنحتب الثالث هذا الفن كثيرا فأعطى مهندسيه كل ما طلبوه ليرفعوا هذا الفن الى الدرجة القصوى ، ولذلك ظهر بين هذه الطائفة أفراد نوابغ نخص بالذكر منهم المهندس أمنحتب الذى ذاعت شهرته فى العالم حتى صار مضربا للأمثال بعد وفاته بألف ومائتى سنة لما أدمجت حكمه ضمن « أمثال سبعة الرجال العظام » فى العهد اليونانى • وفى عهد البطالسة اعتبر هذا المهندس الها وعرف وقتئذ باسم « أمنحتب بن حابو » •

والمعروف أن المهندسين المصريين في عهد أمنحتب الثالث ابتكروا طرازا جديدا في البناء وتفاصيل في العمارة تأخذ بالألباب ، ولا غرابة في ذلك فمهندس العمارة وقتئذ كان لديه كل ما يحتاج اليه من مواد البناء والمال والرجال ، وهكذا تمكن من اقامة العمارات الضخمة التي بهرت العقول بحجمها وهندستها • وتنقسم معابد ذلك الوقت من حيث عمارتها الى قسمين : الكبير والصغير ، وليس يعنى من هذا التقسيم أن المعابد الصغيرة أقل قيمة وجمالا ، لأن النوعين كانا غاية في الظروف والاتقان • أما المعابد الصغيرة فعبارة عن قاعة مستطيلة تشبه قدس الأقداس يتراوح طولها بين ثلاثين وأربعين قدما ويقرب ارتفاعها من أربعة عشرة قدما وتنتهى في طرفيها بباب يحيط به رواق•وأرض هذا المعبد مرتفعة عن سطح الأرض بما يقرب من نصف إرتفاع المعبد (شكل ٣٣) • ويشاهد على جانبى الباب عمودان رشيقان خلفهما القاعة المستطيلة تحيط بها من الخارج عمد



(شكل ٣٣) معبد صغير محاط بعمد شيده امنحتب الثالث على جزيرة أبو (الاله نتين)
وهدمه سنة ١٨٢٢ ميلادية مدير اسوان التركى وقتئذ ليستعمل احجاره للبناء •
(ماخوذ عن وصف بعثة نابوليون العلمية)

بديعة مفصولة عنها بممر فسيح ولذلك كان لمنظر هذا البناء تأثير عظيم في نفوس ناظريه . وهذا النوع في اعتبار رجال الفن برهان ساطع على تقدم فن البناء وقتئذ ، حتى ان بعثة نابليون الأثرية دهشت جدا لما وقع بصرها على هذا النوع من المعابد وأيقنت من فورها أنها أصل لعمارة المعابد اليونانية الذى تحيط به العمد من الخارج (Peripeteral) ولا غرابة في ذلك فكثير من البناء اليوناني يرجع في الأصل الى البناء المصري . أما نوع المعبد الآخر وهو المعروف بالكبير (شكل ٣٤) فقد



شكل (٣٤) رسم هندسي يمثل تفاصيل المعابد ذات الصروح في عهد الامبراطورية . وقد روعي رسم نصف المعبد ونصف الصرح المقابل للقارىء لاظهار محتويات المعبد (مأخوذ عن بروشبيه) .

بلغ أعظم درجاته وقتئذ وهو يختلف كثيرا عن النوع الصغير ، فعمده مقامة في الداخل لا من الخارج وقدس الأقداس محاط بعدة حجرات كسابق العهد ، الا أنها أكبر حجما لتناسب ثروة البلاد وكثرة ايراد المعابد وقتئذ . وتوجد أمام قدس الأقداس قاعة كبيرة سقفها قائم على عمد شامخة أمامها حوش كبير يحيط به رواق ذو عمد أيضا . وفي مقدمة هذا الحوش صرح كبير مزدوج جدره مائلة الى الداخل يعلوه افريز مجوف وبين جزءى الصرح باب المعبد الكبير . ولا يشيد هذا المعبد عادة من الأحجار الضخمة التي يتراوح طولها بين ثلاثين وأربعين قدما وزنتها بين مائة ومائتى طن ، بل تستعمل لذلك أحجار متوسطة الحجم من النوع الرملي أو الجيرى . وجرت

العادة أن تحلى جدر المعابد ـ عدا الأعمدة ـ بالرسوم البارزة فتشاهد على خارج المعبد مناظر تمثل الملك يحارب أعداءه وعلى داخله يشاهد الملك عابدا المعبودات ، ومعظم هذه الرسوم ملونة بالألوان الزاهية · ويتكون باب المعبد من مصراعين مصنوعين من خشب الأرز اللبناني ومطعمين بالبرونز ، وعلى جانبي الباب مسلتان كبيرتان تعلوان الصرح وهناك أيضا تمثالان كبيران للملك على جانبي الباب مصنوعان من حجر واحد ظهرهما ملاصق لجدار الصرح ووجههما مقابل لزائري المعبد · والمعروف أن هذا الترتيب والنظام كان متبعا قديما في المعابد فلما حكم أمنحتب الثالث افتن مهندسوه وأبدعوا حتى كونوا منها أنموذجا جديدا من أبدع ما عرف في فن العمار ما يزال مستعملا بكثرة الى عهدنا هذا ·

وكانت الأقصر وقتئذ معتبرة احدى ضواحي طيبة وفيها معبد صغير لآمون شيده ملوك الأسرة الثانية عشرة · فلما أتى أمنحتب الثالث هدمه وأقام محله معبدا جديدا تحيط به عدة حجرات أمامها قاعة كبيرة كالتي شيدها تحوتمس الأول في الكرنك · بعد ذلك شيد مهندسو أمنحتب الثالث أمام هذا البناء ايوانا بديعا يحوى اروقة ذات عمد يعتبر الآن أجمل ما خلفه لنا تاريخ مصر القديم من المعمائر (لوحة ٩٤) · ثم ازداد هؤلاء المهندسون ثقة بأنفسهم فشيدوا ايوانا آخر أمام الايوان السابق وأكبر منه ويظن أيضا أنهم صمموا وقتئذ على اقامة ايوان ثالث أمام هذا الأخير · وبدأ المهندسون بتشييد الايوان الثاني بأن نصبوا أولا صفا من العمد الشامخة على جانبي محور الايوان فكانت أعلى من أى بناء شيده المصريون سابقا (لوحة ٩٦) · وليلاحظ أن كبر حجم هذه العمد كان متمشيا مع حسن منظرها ودقة نسبها ، فرءوسها البديعة صنعت على مثال زهر البردى اليانع الجميل · بعد ذلك شيد المهندسون عمدا آخر أقصر طولا على جانبي عمد المحور ، فنجم عن ذلك ارتفاع سقف محور الايوان (وهو الصحن) على سقف جانبيه · ثم فتحت منافذ في الجدار القائم بين سقف الصحن العالى وسقف الجانبين المنخفض فنشأ عن ذلك أساس عمارة القاعات الرومانية (Basilica) والكنائس الكبيرة في عهدنا هذا · ومن دواعي الأسف أن أمنحتب الثالث توفي قبل أن يتم بناء هذا الايوان الكبير ، فلما تولى ابنه اخناتون الملك بعده لم يهتم بها لشدة بغضه لآمون · بعد ذلك أتى فراعنة آخرون شيدوا جدارا حول عمد الصحن من أحجار عمد الجانبين التي لم تكن نصبت وقتئذ ، وما يزال هذا البناء باقيا الى عهدنا هذا ويعتبر أقدم بناء من هذا النوع العالم كله مدين له ·

وأخذ أمنحتب الثالث يقيم بطيبة العمارة الضخمة العديمة المثال فشيد صرحا شامخا أمام معبد الكرنك حاويا أنواع التحف ونصب على

جانبيه شواهد حجرية مطعمة باللازورد وبكميات كبيرة من الذهب والفضة وما يقرب من ألف ومائتى رطل من الملاخيت (Malechiste) · وأنشـأ شارعا فسيحا يصل الى هذا البناء مبتدئا من النهر وعلى جانبيه مسلتان عظيمتان · وأقام المهندس أمنحتب أمام ذلك تمثالا للملك مصنوعا من صخرة واحدة من الحجر الرملى وارتفاعه سبع وستون قدما مقطوع من محاجر قرب القاهرة ، وقد أحضر هذا التمثال الى طيبة جيش من الأهالى بطريق النيل ويعتبر هذا أكبر تمثال عمل حتى ذلك العهد · وشيد أيضا معبدا لموت (Mut) معبودة طيبة فى مكان المعبد الذى أسسه أسلافه من قبل وذلك جنوبى الكرنك ، وحفر بجواره بحيرة مقدسة وزرع حديقة غناء فيما بين الكرنك ومعبد الاقصر فكان طولها حوالى ميل ونصف ، وأنشأ بين هذين المعبـدين طريقـا فسيحا أقام على جانبيه تمـاثيل حجرية لكباش (لوحة ٩٥) يحمـل كل منهـا بين رجليه الأماميتين تمثـال جلالته ، ولابد أن يكون منظر هذا الترتيب الهندسى بديعـا ومؤثرا للغاية ، لأن هذه العمارات كانت وقتئذ زاهية الألوان كثيرة العمد والأبواب الملبسـة بالذهب ، أما أراضيـها فكانت مكسوة بالفضـة ، وتشرف على الجميع مسـلات شامخة مكسوة بالمعـادن اللامعة بين أغصـان الأشجار والنخيل الكثيف ولذلك كان المنظر غاية فى الأبهة والجمال يعجز القلم عن وصفه · وما تزال آثار هذه العمارات باقية تشهد بعزها السابق ومجدها القديم ومنها يتضح أن مقام طيبة عظم وقتئذ فصارت جديرة بأن تكون عاصمة امبراطورية كبيرة وأول مدينة أثرية فى العهد القديم · أما شاطؤها الغربى الذى يحوى مقـابر الفراعنـة السـالفين فلم تعتره تغيرات كالتى حصلت للكرنك ولمعبد الأقصر · وفى ذلك الاقليم كانت تشاهد أيضا معابد الملوك السابقين منتشرة على خط متعرج يبدأ بمعبد أمنحتب الأول الوضـيع شمالا ويمتد الى مسافة طويلة جنوبا حيث ينتهى الى معبد أمنحتب الثالث الذى فاق المعابد كلها هناك · وشيد له الملك صرحـا عظيما نصب أمامه تمثالين حجريين ضخمين مصنوعين من صخرة واحدة ارتفـاع كل منهما سبعون قدما تقريبا · ونصب أيضا مسلتين أمام الصرح ثم أوصل هذه العمارة بالنيل بطريق متسع نصب على جانبيه تماثيل لابن آوى · وقد أكثر جلالته من تماثيله المقامة بين عمد الفناء ونصب أيضا لوحا حجريـا عظيما من الحجر الرملى يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدما مطعما بالذهب والأحجار الكريمة يشير الى « المكان الملكى » الذى كان جـلالته يقف فيه محفوفـا بالاحترام وقت الاحتفالات الدينية · وأقام جلالته أيضا حجرا أثريا آخر يبلغ ارتفاعه عشر أقدام أثبت عليه كل ما عمله المعبود آمون · ثم زخرف بسخاء جدر وأرض معبده بالذهب والفضة فزاد كثيرا من هيبته · يتضح

من ذلك أن حسن الذوق ومهارة الأشغال اليدوية بلغت وقتئذ درجة لم يفقها المصريون بعد ذلك • وضخامة تلك الأعمال والمصنوعات تدهش كل من يراها ، خذ مثلا أبواب الصروح المصنوعة من خشب الأرز فقد كانت أعقابها وزخرفها المصنوعة من البرونز تزن بضعة أطنان ، زد على ذلك أنها كانت تتطلب لصنعها قوالب تفوق الوصف من حيث الضخامة • وليلاحظ أن الحلية البرونزية لتلك الأبواب المزخرفة برسم المعبود الجميل والمطعمة بالمعادن الكريمة بمهارة كانت تتطلب وحدها كفاية عظيمة فى الفنون الجميلة والأشغال الآلية مما يندر استعماله فى عهدنا هذا •

وبلغ فن الحفر وقتئذ درجة عظيمة لم يبلغها سابقا ، فقد بذل عمال هذا الفن الجميل كل ما فى وسعهم من الجهد والاتقان مهتمين بصغيرات الأمور • ومع ما تطلبه هذا العمل من المجهود العظيم فان مثالى الأسرة الثامنة عشرة لم يألوا جهدا فى مراعاة عادة أجدادهم القديمة فى تلخيص معالم الشخص على تمثاله بقدر الامكان•ويمتاز فن الحفر فى هذا العصر كما تدل آثاره ببراعته ورقته وحسن تصرفه ، الشىء الذى كان ينقص أحسن تماثيل العصور السالفة ، ومع ذلك كانت تماثيل الأسرة الثامنة عشرة أبعد عن الحقيقة من تماثيل المملكة الوسطى مثلا ، ولم يكن الاتقان والابداع فى هذا الفن الجميل مقصورا على التماثيل الصغيرة بل شمل أيضا التماثيل الضخمة ، وقد لاحظنا أن هناك تماثيل ضخمة قليلة الاتقان بالنسبة لغيرها • وقد أظهر الحفارون مهارة فى عمل النقوش والرسوم البارزة فالناظر مثلا الى الصورة الفوتوغرافية للحجر الأثرى الموجود بمتحف برلين (لوحة ٩٨) يتبين له فيه رسم بارز لجنازة كاهن من منف ممثل فيه نجلا المتوفى سائرين وراء الجثة تبدو على محياهما علامات الحزن والأسى الشديدين ، ويلاحظ فى الجنازة أيضا رسم كبار كهنة الحكومة يبدو عليهم عظم التأثر مراعاة للظروف ثم منظر مخالف لذلك يمثل أحد الكبار المتأنقى الملبس ينظم شعره المعطر المستعار • وبدهى أن الحفار الذى لم يبق لنا من أعماله الا جزء من هذا اللوح كان ماهرا غزير المادة حاد الذهن والنظر الى معالم الحياة على اختلافها ، فقد تمكن من ايضاح وجدان الأسى والحزن لأقارب المتوفى وأداء الموظفين للواجب مراعيا فى الوقت نفسه اهتمام القوم وقتئذ بالتأنق فى الملبس وجمال الهندام • لذلك لا غرابة اذا لاحظنا أن هذه الوثيقة التى يرجع تاريخها الى ما قبل عهدنا بخمسة وثلاثين قرنا أصبحت الآن تأخذ بألباب ناظريها من حيث تخيلات صانعها وما أثبته من أحوال المعيشة فيها • ولا تنحصر قيمة هذا اللوح الحجرى فى أنه يحوى مجموعة من الرسوم من أجمل ما عرف فى البلاد الشرقية القديمة ، بل لأنه يمثل فنا جميلا كان

معدوما تماما فى بلاد العالم القديمة الا القطر المصرى ، ولذلك يعتبر هذا اللوح من أقدم نماذج فن النقش على الحجر التى تتمثل فيها مظاهر الحياة المتباينة وملامـح الوجود المتنوعـة بأجلى بيان وأرقى درجة ، وقد نسب البعض هذا الرقى فى الحفر الى اليونانيين لكننا بعد ما شاهدنا هذا اللوح لا يسعنا الا أن نجزم بعدم صحة هذا الرأى وأن نشهد للمصريين بأنهم أول من مارسوا هذا النوع من الفنون الجميلة ٠

ومن أعظم الوسائل لتشجيع أرباب الفنون الجميلة وقتئذ على ابتكار المجموعات البديعة التى غابت عن سلفهم فى العصور السابقة ما شاهدوا على فراعنتهم من الشجاعة والاقدام ، خذ مثلا المناظر الحربية المحلى بها مقـدم عجلة تحوتمس الرابع الملكية (لوحة ١٠١) فانه يحوى مجموعة رسوم شتى ليس لها نظير فيما سبق ، والمعروف أن هذا النوع من الفن استمر استعماله أيام الأسرة التاسعة عشرة أيضا ٠ وبالرغم من صعوبة تمثيل الحياة الوحشية فى مثل هذه الظروف ، فان الصانع تمكن من رسم الحيوانات بمهارة لم يصل اليها المصريون قبل ذلك الوقت أو بعده ٠ ويوجد بلندن تمثالان لأسدين يرجع تاريخهما الى عهد الملك أمنحتب الثالث (لوحة ٩٩) وصفهما الأستاذ رسكن (Ruskin) بأنهما أجمل ما صنع أهالى الزمن القديم من حيث اتقان الجسم واظهار الشمم بوضوح ٠ ومع استيفاء ما يستحقه هذان التمثالان من المديح فان القارىء ليدهش اذا علم أنهما ما صنعا الا لحلية محراب سحيق بجهة صلب (Soleb) شمالى النوبة٠ وطبعا اذا كانت هذه درجة اتقان التماثيل التى وضعت فى معبد نوبى سحيق فماذا عسى أن يكون اتقان التماثيل التى كان يحلى بها معبد فرعون بطيبة ! وللأسف أن هذه الآثار العظيمـة التى دلت على أقصى ما بلغته الصـناعة المصرية من الجودة والاتقـان انعدمت وأضحت فى خبر كان ، ولم يبق من هذه الآثار الضخمة الا تمثالان عظيمان أتلفهما الطقس بمرور الزمن كانا منصوبين سابقا على جانبى مدخل معبد أمنحتب الثالث،وما يزال هذان التمثالان يلقيان نظرهما على سهل طيبة الغربى كما فعلا من قديم الزمان (لوحة ٩٧) وتشاهد على أحدهما نقوش يونانية خطها الزوار اليونانيون الذين أتوا فى عهد الرومان لسماع صوت ذلك التمثال الذى ينبعث منه كل صباح ٠ وعلى بعد مائة خطوة خلف هذين التمثالين يوجد شاهد حجرى عظيم محطم نصفين كان مغطى بالذهب والأحجار الكريمة وموضوعا فى « محل الملك الخاص » ولا تزال عليـه نقوش هيروغليفية باقية للآن هذه ترجمتها : « لقد عمل جلالتى كل هذه الأعمـال لتعيش الملايين من السنين ، وأنا متأكد أنها ستمكث كذلك على وجه الأرض » ٠ وسيأتى الكلام فيما بعد على ما أصاب هذا المعبد الملكى العظيم من أعمـال

التدمير التى ارتكبها خلفاء أمنحتب الثالث عديمو الذمة الذين حكموا القطر بعده نحو مائتى سنة • وأجود رسوم تلك العصور كانت داخل القصور ولذلك تلفت كلها ، لأن معظمها كان مصنوعا على الخشب أو اللبن وانما يستدل من البقايا الموجودة من رسم الحيوانات والطيور بمناظرها الطبيعية على توقد ذهن الصانع ومهارته القصوى أيام اخناتون الذى جلس على العرش الفرعونى بعد أمنحتب الثالث • ورغبات ملوك عهد الامبراطورية لاجادة رسم الخطط الحربية أثرت فى نفوس الفنانين كثيرا فاجهدوا أنفسهم وقدحوا زناد قرائحهم حتى أظهروا الأشياء جلية ، ومع أنه قد فقدت تلك المناظر الحربية التى نقشت على جدر المعابد،فمن الممكن أن نتصور محاسنها وتأثيرها فى النفوس بالامعان فى الرسوم الحربية التى على مقدمة عجلة تحوتمس الرابع الحربية •

من ذلك يتضح أن شاطىء طيبة الغربى كان مزدانا بالآثار والأبنية البديعة وبالأخص الشارع المتسع الذى إنشأه أمنحتب الثالث مبتدئا من النيل وفيه تماثيل ابن آوى العديدة • وعلى الجهة الشمالية خلف معبد هذا الملك وبالقرب من الصخور الجبلية بنى قصر الملك الذى ضم كثيرا من الأخشاب ذات الرسوم والألوان الزاهية ، وكان طلق الهواء مزدان الوجهة بسوار عالية تنتهى بأعلام طويلة ملونة بعض اللون ، وفوق مدخل القصر شرفة عظيمة محملة على عمد رشيقة كان يظهر فيها الملك لمشاهدة رعيته فى المناسبات (لوحة ١١٣) • وتدل المصنوعات الجميلة التى حليت بها أمثال هذه القصور على ما وصلت اليه المهارة فى حسن الذوق لعمال تلك العصور ، وهذه الحقيقة مشاهدة على الآثار العديدة الموجودة بدور التحف فى أوربا ، تلك الآثار التى تثبت لنا عظم شأن محتويات القصور الفرعونية وقتئذ ونفائس رسومها وبديع أثاثها• فالأوانى الذهبية والفضية المبديعة المزخرفة بالرسوم الآدمية-والحيوانية والنباتية والمحلاة الحافات بالأزهار الساطعة الزاهية التى كانت تستعمل على مائدة الملك بين الأكواب البلورية والأوعية الزجاجية والخزفية السمراء اللون البديعة المطلية بالرسوم الزرقاء الجميلة ، كل هذه تشهد لمحتويات قصور الفراعنة بعظم القيمة ونفائس الأثاث • وجرت العادة وقتئذ أن تكسى جدر القصور بالبسط البديعة ذات الألوان الزاهية وقد وصفها بعض الاخصائيين بأنها تضارع أجود المنسوجات الحالية اتقانا • اما الأرض فكانت تحلى برسوم كثيرة تمثل حياة الحيوان المختلفة (لوحة ١٠٤) • وقد حليت الجدر أحيانا ببلاط أزرق جميل لامع ذى رسوم ذهبية بديعة • أما كسوة الأمكنة الفسيحة فلم يستعمل لها الا البلاط اللامع الملون الموافق للذوق • ولهذه الأسباب قارن الأثريون عصر هذه الفنون الجميلة بعصر

لويس الخامس عشر لما كان فيه القصر الملكى مثال الرقى والتقدم فى الفنون الجميلة ٠

وخصص أمنحتب الثالث جزءا كبيرا من قصره لزوجته تى (Tiy) حفر بجواره بحيرة كبيرة يقرب طولها من ميل وعرضها من ألف قدم ٠ وقد احتفل الملك فى عيد ميلاده السنوى الثانى عشر بفتح السدود لارسال المياه الى تلك البحيرة ، ثم طاف عليها بمركبه الملكى مصحوبا بملكته تى فى احتفال مهيب يشبه وصفه كثيرا ما ورد فى حكايات ألف ليلة وليلة الخاصة بهارون الرشيد ٠ والمعروف أن الموسيقى ارتقت كثيرا وقتئذ عما كانت عليه فى الأزمنة السالفة : فكبر كبر الناى حتى قارب طول الانسان واحتوى العود على عشرين وترا، ثم أدخل استعمال القيثارة من آسيا فأصبح جوق الموسيقى التام مكونا من ناى وقيثارة وعود ومزمارين ٠ وأراد الملك أن يقيم تذكارا لفتح بحيرة قصره المذكورة فأمر بصنع عدة أحجبة بشكل جعل تقش عليها باختصار أخبار هذا الاحتفال ٠ وقد كثرت الاحتفالات والأفراح فى طيبه وقتئذ حتى أصبحت مضرب الأمثال فى الفرح والسرور والرفاهية كما كانت روما وبابل فى عهدهما الامبراطورى ٠ ثم ان الأعياد الدينية التى كانت تقام فى الشهر السابع كل سنة من حكم أمنحتب الثالث عظمت من حيث الزينة والفرح ، فسمى هذا الشهر « بشهر أمنحتب » وبقى معروفا بهذا الاسم مدة طويلة بعد وفاة الملك ٠ وما يزال هذا الشهر معروفا بهذا الاسم المحرف بين أهالى مصر الحديثين الذين يجهلون نسبة ذلك الى هذا الامبراطور العظيم ٠ ولابد أن آداب اللغة المصرية بلغت وقتئذ درجة عظيمة من الرقى ومع البحث لم نهتد لنصوص كثيرة منها ٠ وقد ألمعنا سالفا الى مدحة آمون لتحوتمس الثالث وسيأتى الكلام عاجلا عى مدحة اخناتون للمعبود الشمسى ومنها يمكن القارىء أن يتصور شيئا من أدبيات تلك العصور ٠ ولم نعثر للآن على قصص أو روايات أو أغان لتلك الأزمنة ، وكل ما اهتدينا اليه من هذا القبيل يرجع تاريخه الى عهد الأسرة التاسعة عشرة وما بعدها٠

واعتاد الملوك أن يستريضوا بالسفر فى رحلات للصيد وقد مارس هذا النوع من الرياضة وأغرم به كثيرا أمنحتب الثالث ، فاذا أبلغه حراسه اقتراب قطيع من الغنم الوحشى من تلال غربى الدلتا، فانه يترك قصره فى منف ويركب ليلا سفينته حتى يبلغ محل ذاك القطيع فجرا فيجد فى انتظاره هناك جنودا عديدين مع أهل القرى المجاورة ، فيحيط هؤلاء القوم بالقطيع ويطاردونه حتى يدخلوه محلا فسيحا محاطا بسور كما هى العادة المتبعة فى العصور السابقة ٠ وقد أحصى عدد الغنم الذى حصر ضمن ذلك

السور مرة فبلغ مائةوسبعين حيوانا وحشيا . عنـد ذلك هاجم الملك في عجلته على القطيع فقتل منه في اليوم الأول ستة وخمسين وحشا . بعد ذلك بأربعة أيام هجم دفعة أخرى فجندل ما يقرب من عشرين وحشا . وقد اهتم أمنحتب الثالث برحلة الصيد فنقش أخبارها على عدة جعل . وبعد ما أمضى عشر سنوات في ممارسة صيد السباع وزع الهدايا على رجال قصره المنقوش عليها ما ترجمته « عدد الأسود المفترسة التى اصطادها جلالته برماحه من السنة الأولى الى السنة العاشرة من حكمه ١٠٢ » وقد جاء هذا الكلام بعد ديباجة ملكيـــة معتادة حاوية لاسمه واسم زوجتـه الملكيين ، وقد عثر حديثا على ثلاثين أو أربعين من هذه الهدايا على شكل جعل ما تزال موجودة للآن .

من ذلك يتضح أن فرعون مصر أخذ يظهر لرعيته على غير عادته ، فقد شغلته الملاهي الدنيوية حتى صار القصر الملكي ملكا للرعية وصار اسم الملكة يظهر بجانب اسم الملك على المستندات الرسمية جميعها ، رغما من انقطاع صلة الملكة بالبيت الفرعوني . ولما توثقت العلاقة بين مصر والبلاد الآسيوية اضطر فرعون مصر الى أن يعدل عن مركزه الالهى الدينى الذى لايتناسب الا مع الذهن المصرى القديم ، فظهر بمظهر آدمى اعتيادى فى مزاج ملوك بابل ومتانى فاعتبره هؤلاء الملوك «أخا» لهم ، ولذلك أصبح مركز فرعون مخالفـــا تماما لمركزه القديم السالف الممتاز بالعكوف عن الرعية . ولا غرابة فى ذلك فصيد الأسود والثيران وغيرها أبعد عنه كثيرا من الصفات الالهية التى توهمها قومه فيه ، وقد شبه هذا الانتقال المدهش فى صفات الفراعنة بتدوين امبراطور الصـــين أو حاكم التبت أعمالهما الشخصية على عدة « مداليات » تعطى للرعية . لكنه يلاحظ أن أمنحتب الثالث لم يتجرد تماما من العوائد القديمة المتبعة فقد شيد معبدا بمنف كان يعبد فيه وكبر معبد صلب (Soleb) حيث عبد فيه آمون ، وكانت زوجتـه تعبـد فى معبـد سدنجة بالنوبة . لذلك كان أمنحتب الثالث اله النوبة مع اقلاعه عن الأصول المتبعة القديمة فى القصر الملكى والديانة . ولم نتأكد للآن اذا كان هذا التغير الحـديث ، الذى لابـد أن يتعارض يوما ما مع حرص البـــلاد الشرقيـــة على أنظمتها القديمة ، أتى قصـدا أو عفوا .

والمعروف أن الأمور سارت فى مجـراها المريع لكن عوامـل النزاع أخذت تعمل فى الخفـاء ، كما أن الخطـر الخارجى الذى هدد كيان الملكة المصرية أخذ يتجسم على غير علم من فرعون،ولذلك كان مركب أمنحتب الثالث بطيبة وقتئذ أشبه شىء بمركز القياصرة . وفى السنة الثلاثين من حكمه احتفل بعيد تعيينه وليا لعهد المملكة المصرية وقد وافق هذا التاريخ ميعاد

جلوس جلالته على العرش أيضا ، ويظن أن المسلتين اللتين أقيمتا أمام معبده صنعتا خصيصا لذلك الاحتفال . ومما زاد الاحتفال عظمة وجلالا ما قدمه رئيس المالية للملك من المقـادير الجسـيمة لدخـل المستعمرات الممتدة من النوبة الى النهرين وقد نعته الرئيس المالى بقوله : « ان الدخل هذا العام أكثر من دخل كل سنة سابقة » وقد قابل الملك هذا الخبر بملء الارتياح . ثم أمر باستعراض موظفى ديوان المالية وأنعم عليهم بالهدايا الجزيلة . ومر احتفال السنة الرابعة والثلاثين بدون اضطراب . بعد ذلك احتفل بعيد السنة السادسة والثلاثين وكانت تتجلى فيه مظاهر الكمال ، ولم تمنعه شيخوخته من الاشتراك شخصيا فى الاحتفال ومقابلة مهنئيه وأعيان مملكته .

فى ذلك الوقت ظهرت اضطرابات فى جهـات المملكة الشمالية تتلخص فى أن ملك خيتا (الحيثيين ؟) غزا مملكة متانى ثم ان ملك الأخيرة المدعو دشراتا أرسـل قوة الى خيتـا حاربتهم وهزمتهم . بعد ذلك أهدى دشراتا جلالة أمنحتب الثالث عجلة وجوادين وأسيرين من الغنيمة التى استولى عليها من جيش خيتا (١٥) . والمعروف أن الاضطرابات لم تقتصر على ذلك بل شملت أيضا بعض المستعمرات المصرية ، فقد ورد أن آكزى (Akizzi) ملك قطنا (Katna) أى حمص ؟ الوالى المصرى أخبر أمنحتب الثالث أن جيوش خيتا توغلوا فى قسمه بوادى العاصى واستولوا على تمثال آمون رع المنقوش عليه اسم أمنحتب الثالث وأحرقوا المدينة عند رجوعهم . وجاء أيضا أن ملك مقاطعة نوخاشى الشماليـة (حلب ؟ (Nukhashshi) المدعـو حـداد نيرارى (Hadadnirari) أرسل الى أمنحتب الثالث خطابا يستشيره فيه لحماية مصر من هجمات الحيثيين الذين غزوا بلاده معلنا فى الوقت نفسه ولاءه وخضوعه لفرعون مصر . والمعروف أن هذه الاضطرابات كلها حصلت من عدم اخلاص الولاة لمصر ، لأنهم اتبعوا طرق الخيانة وطمعوا فى أرض المقاطعات المجاورة ليضموها الى مقاطعاتهم كما يستنتج ذلك من أعمال والى مصر المدعو عزيرو (Aziru) ووالده المدعـو عبدعشرتا (Abdashirta) فقـد كانا رئيسين لحركة ثورية كبيرة زحفت شمالا واستولت على قطنا ونوخاشى من الجنوب ودمرت البلاد التى مرت بها . وقد اشتركت معهما فى هذه الاجراءات المخلة بالنظـام مقاطعات أخرى عددت مقاطعة دمشق المعروفة وقتئذ باسم أوبى (Ubi) وسرعان ما أخطـر كل مـن آكزى (Akizzi) ملك قطنـا ورب عدى (Rib-Addi) ملك ببلوس (جبيل) فرعون مصر بتلك الخيانة . بعد

(١٥) خطابات تل العمارنة ١٦ و ٣٠ ـ ٣٧ .

ذلك أرسل آكزى (Akizzi) خطابا الى أمنحتب الثالث ملتمسا مساعدته هذه ترجمته :

« كما أن دمشق الواقعة فى مقاطعة أوبى تبتهل الى قدميك لتساعدها كذلك قطنا (حمص؟) تتضرع الى قدميك لتشملها بعنايتك وحمايتك » .

لكن الحالة كانت أخطر مما تصورها فرعون مصر ، فهو لم يتأكد من خبر زحف الحيثيين المذكور ، لأنه على أثر هذا النبأ أرسل آكزى خطابا الى أمنحتب الثالث هذه ترجمته :

« بقدر محبتى لك أيها الملك ... ان ملوك نوخاشى (حلب ؟) ونى (Niy) وسنزار (Senzar) وكينانات (Kinanat) تحبك أيضا ، كيف لا وهم كلهم خدم جلالتك » .

أمام هذه الأقوال لم يزحف أمنحتب الثالث بجنوده شخصيا الى تلك الجهات كما فعل تحوتمس الثالث بل اكتفى بارسال جنوده . وقد تمكنت هذه القوة أولا من اخضاع الثوار بسهولة بمساعدة أهالى البلاد التى كانت تحت الخطر الحيثى . لكن هذه القوات المصرية لم تتمكن من مكافحة الحيثيين بجهة بلاد النهرين جنوبا حيث استولوا على مركز حربى غاية فى الأهمية وقت هجومهم على سوريا . ولا يخفى أن طول غياب ملك مصر عن سوريا قلل كثيرا من هيبته هناك ، زد على ذلك أن الاضطرابات لم تسكن طويلا بل بدأت بالظهور فعلا جهة صيدون (صيدة) بعد ما تركها أمنحتب الثالث راجعا الى مصر . ومما زاد الطين بلة أن بدو الصحراء الآسيوية المدعوين بالخابيرى (Khabiri) اغاروا على سوريا وفلسطين كعادتهم القديمة لكن غارتهم هذه المرة كانت سلمية أشبه بهجرة . من ذلك يتضح لنا أن مستعمرات مصر الآسيوية أضحت فى خطر عظيم قبيل وفاة أمنحتب الثالث ، ونستدل على ذلك من خطاب رب عدى (Rib-Addi) والى جبيل (ببلوس) الذى أرسله الى ابن أمنحتب الثالث اخناتون هذه ترجمته :

« منذ رجوع والدك من صيدون (صيدة) ـ منذ ذلك الوقت ـ وقعت البلاد فى أيدى البدو الخابيرى (Khabiri) » .

فى مثل هذه الظروف العصيبة توفى أمنحتب الثالث الذى يحق لنا أن نلقبه « بالملك المجيد » . وقد أرسل ملك متانى الى خليله تمثال عشتار

(Ishtar) اله نينوى للمرة الثانية يأمل طرد الأرواح الخبيثة الحالة به واسترجاع قوته وصحته السابقتين · ومن دواعى الأسف أن هـذه الطريقة لم تقده فنفذ القضاء ارادته فى « الملك المجيد » حوالى عام ١٣٧٥ قبل الميلاد بعد ما حكم حوالى ست وثلاثين سنة على عرش مصر ودفن مع آبائه الفراعنة العظام بوادى مقابر الملوك بطيبة ·

الفصل الثامن عشر

ثورة اخناتون الدينية

قلما احتاجت أمة في محنتها الى حاكم قوى احتياج مصر اليه بعد موت أمنحتب الثالث • ومن دواعى الأسف أنها رزقت فى هذه المحنة بملك خيالى فيلسوف لا يليق لمكافحة الخطر الذى يتطلب رجلا ذا شكيمة قوية ومواهب حـربية كبيرة مثل تحوتمس الثالث • وليس بخاف أن أمنحتب الرابع بن أمنحتب الثالث والملكة تى كان قويا شجاعا فى بعض الأمور لكنه عجز عن فهم خطورة الحال فى أمور أخرى • وقد ألمعنا سابقا الى الخطر المحدق الذى اعترض هذا الملك عندما جلس على العرش المصرى ، ذلك الخطر المركب الذى تطلب خبرة ومهارة بالأمور الأسيوية وأخلاق أهلها وملوكها ، لكنه لم ينظر الى ذلك الخطر الا من الوجهة الفلسفية ، لأنه كان محاطا وقتئذ بأمه تى وزوجته نفرتتى (Nofretete) — التى يغلب أنها من أصل آسيوى — وكذا الكاهن المحبوب آى (Eye) زوج مرضعه • والمرجح أن الملكتين تى ونفرتتى استعملتا من النفوذ ما جعل لهما مركزا كبيرا فى سياسة الدولة ، فكان أمنحتب الرابع كثيرا ما يظهـر لرعيته مصحوبا بزوجته وأمه أكثر مما فعله والده قبله • والظاهر أن آراء هذا الملك الفلسفية وتخيلاته العالية العظيمة التى ميزته على سواه من الملوك قابلت صدرا رحبا من الملكتين تى ونفرتتى • ومن ذلك يتضح لنا أن المملكة المصرية التى كانت فى أشد الحاجة الى رجل سياسى محنك قادر على تسهيل مصاعبها رزئت بملك شاب كثير التعلق بكاهن وبملكتين عظيمتى المواهب الفكرية • ومن دواعى الأسف أن هؤلاء الأخلاء الثلاثة لم يفهموا مليكهم خطورة الحالة وما يقتضيها حلها من الاستعداد والاسراع ، فبدلا من أن يحشد الملك الجيوش ويرسلها الى بلاد النهرين التى كانت فى أشد الحاجة اليها انغمس فى الأمور الدينية والفلسفية قلبا وقالبا ظنا منه أن ذلك أهم بكثير من المحافظة على جميع المستعمرات الأسيوية ، ومن ثم أصبح لهذا

الملك مركز ظاهر وشخصية بارزة بين ملوك العالم على توالى الأجيال وصار أعظم الفراعنة فلسفة وأكبر الملوك شخصية على مدى التاريخ البشرى ٠

وبدهى أن علو شأن الامبراطورية المصرية وارتفـــاع منزلتها بين العالم لم يقتصر على مظاهر الحياة الخارجية كالعادات والأخلاق والثروة واتقان الحرف ووسائل الجمال ، بل شمل أيضا رقى الفكر وحدة الذهن ٠ ومعلوم أن هذا الرقى والتقدم الفكرى كان متجها غالبا منذ أقدم العصور الى الأمور الدينية لا الى الامور الدنيوية ٠ وقد شاهدنا أعراض هذا التقدم بين كهنة مصر قبل غزو مملكتهم للبــلاد الأسيوية فقد فسروا معبوداتهم وقتئذ بأساليب خرافية وفلسفية كما فعل اليونانيون فى أواخر تاريخهم وأوجدوا المعانى والمجازات الفلسفية لتلك الخرافات مما لم يكن معروفا فى العصور الغابرة ٠ فأصبحنا نرى مركز المعبود وصفاته مفهومة ضمنا من قرائن أخبــار الخرافة الدينية الخاصة به ، فالمعبود بتاح (Ptah) مثــلا كان معتبرا سابقا اله العمــارة والصناعة الذى يرجع اليه فى كل التصميمات البنائية والصناعية تصوره كهنته بعد ذلك رئيس مصنع معبده بمنف حيث كانت تصنع التماثيل الجميلة والأدوات البديعة وهدايا المعابد العظيمة ، بعد ذلك تخيلوه بمنزلة أكبر من ذلك ، فتصوروا المعبد مثالا للعالم فأصبح بتاح فى اعتبارهم رئيسا لصناع العالم أو بعبارة أخرى صاحب كل الترتيبات والتصميمات البنائية والصناعية ، ثم علا مركزه فى أعين الكهنة فاعتبروه القوة الفكرية المحركة لكل ما يجرى فى هذا الكون فنسبوا اليه فكرة خلق هذا الكون وقالوا انه اذا أراد شيئا قال له كن فيكون ٠ بعد ذلك اعتبروا المعبودات والأهالى فى هذا العالم وما يصنعونه نتيجة فى الأصــل لوحى هذا المعبود ، وقد أنشــأ أحد كهنة هذا المعبود قصيدة قصيرة أوضح بها كيفية رقى هذا الفكر الدينى اليك ترجمتها :

« بتاح العظيم فؤاد ولسان المعبودات ٠٠٠٠

بتاح هو المعبود الذى يبدأ منه الحجا والمنطق ،

فكل ما يصدر من ذهن أو فهــم المعبودات أو الأهالى أو الحيوانات أو الأفاعى أو جميع المخلوقات المفكرة والآمــــرة هو نتيجـــــة ارادة هذا المعبود (بتاح) ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

فالفؤاد هو الذى يخرج كل نتيجة ناجحة الى حيز الوجود ٠

أما اللسان فهو الذى يفسر ما يجول بالفؤاد ٠

وأما المعبودات فقد أوجدها الفؤاد فى زمان كانت كل مملكة مقدسة يصدرها الفؤاد عن طريق اللسان » (١) ٠

واستعمل المصريون كلمة « قلب » بمعنى « الفؤاد » كما استعمل ذلك أيضا العرب والعبرانيون وبعض الأوربيين . لكن هناك وجها للخلاف بسيطا يتلخص فى أن المصريين اعتبروا القلب والأمعاء مركز الفؤاد خلافا لسواهم من الأمم ٠ وبدهى أن هـذه الأفكار الدينية والفلسفية العقليـة لم تنحصر فى أفراد الكهنة بل ظهرت أيضا بين كبار القوم٠خذ مثلا ما أورد انتف أمين قصر تحوتمس الثالث على شاهد قبره الحجـرى من أن رقيه وعلو منزلته كما نتيجة اطاعته العمياء لما يوحيه اليه ضميره ٠ قال انتف ان الناس تحدثوا « بأن ما يجول بالصدر وحى من الاله » وقد استعمل فى هـذا التعبير كلمه « صدر » بمعنى اللب ، وقد يستعمل بدل « صدر » لفظ « البطن » أو « المعى » فى هذا المقام باعتبـار هذه الأعضاء مركزا للفؤاد ، وعليه فقد اعتقد المصرى بوجود قوة مدبرة مهيمنة على المخلوقات والمعبودات جميعهـا وان هذه القوة اذا أرادت تغيير الكون تقول له كن فيكون ٠ وبدهى أن هذه الآراء نواة الايمان المعروف عند الغربيين بعقيدة لوجـوس (Logos Doctrine) . ويرجح جدا أن فلاسـفة اليونان استمدوا كثـيرا من آرائهم الدينية من المصريين ٠ والمعروف أن هـذه التطورات الفكرية لم تقتصر على معبود واحد بل شـملت أيضـا سائر المعبـودات ٠ وأنها أيضـا قديمة يرجع تاريخها الى وقت اقتصار المملكة المصرية على وادى النيل لما كانت آراء القوم بمعبوداتهم خاصة بما هو موجود بالقطر المصرى دون سواه ٠ والرأى السائد أن المعبودات حكمت مصر قبل البشر ثم أتى الفراعنة فورثوا الملك عن المعبودات ، لذلك لم تتعد آراء المصريين الخاصة بمعبوداتهم حدود وادى النيـل من البحر الأبيض المتوسط حتى الشلال الأول ٠ فلما اتسعت حدود المملكة المصرية فى عهد الامبراطورية اتسعت أملاك المعبودات فى نظر القوم حتى وصلت الى حدود مستعمرات النوبة وسـوريا ٠ وبعبارة أخرى أن نفوذ المعبودات المصرية امتد جنبا الى جنب مع سيف فرعون الظافر ، ولذلك اعتبر الأهالى فرعونهم الشخص « الذى يرجع العالم للاله الذى أنعم عليه بالعرش الفرعونى » ٠ وساد الرأى بين الفراعنة والكهنة أن هذا العـالم كله ملك خاص للمعبود فكان هـذا سببا فى نقش جميع أخبـار حروب الفراعنة على جدر المعابد والهياكل بشكل هندسى وتحيط النقوش الحربية بباب المعبد ٠ وتتلخص العقيدة الدينية الرسمية فى أن « الملك هو الذى يتسلم المملكة من الاله

(١) راجع مقالة للمؤلف بخصوص هذا النص الهام بمجلة :
Zeitschrift für Aegyptische Sprache XXXIX, 39 ff.

ليسلمها اليه وهو أيضا الذى يطلب الاكثار من المستعمرات لتتسع بذلك أملاك الاله » • بهذه الطريقة امتزجت الآراء الدينية قلبا وقالبا بالتقلبات الدنيوية فاندفعت الحكومة تحت هذا العامل الشـــديد للتوســـع فى الاستعمار والاكثار من الجزية ، وبدهى أن هذه التغيرات هى التى أوجدت فى نفوس القوم وقتئذ فكرة وجود قوة مدبرة خالقة لهذا الكون تتسلم منه جزيته • ولا يخفى أن انتشار النفوذ الفرعونى على الأقطار الأجنبية ساعد كثير على ازهاف الديانة المصرية وتوسيع نطـاقها ، فبعـد ما كان القوم يعتقدون فى عهدهم الخرافى القديم أن معبوداتهم تهيمن على وادى النيل فقط أصبح كهنة عهد الامبراطورية يعتقدون تعميم ســـيطرة معبودهم على سائر بلاد العالم ، ومن ثم نشأت عقيدة التوحيد • ولا غرابة فى ذلك فقد شاهد هؤلاء الكهنة بلاد العالم خاضعة ومنظمة ومحكومة مائتى سنة تقريبا تحت النفوذ المصرى فنسوا عقيدتهم الدينيـــة القـــديمة الضيقة وأخـــذوا يفكرون فى اله عظيم تشمل قوته وسلطته هذا الكون جميعه •

لقـــد ذكرنا الكثير مما يتعلق باعتقاد الأهالى فى اله الكون لكننـــا لم نتعرض لذكر اسم ذلك الاله لأن كهنة مصر نحلت صفات هذا الاله لمعبوداتها الكثيرة ، فكهنة منف مثلا اعتقدوا أن بتاح خالق الكون الأعظم ، كمـــا أن كهنة طيبة نسبوا الى معبودهم آمون ألوهية هذا العالم وحجتهم فى ذلك أن آمون معبود الدولة الرسمى ، أما كهنة عين شمس فنسبوا خلق هذا الكون لمعبودهم قائلين ان فراعنة مصر أبناء الشمس (رع) وورثته على الأرض • ولما كانت معبودات أقسام مصر الأخرى معتبرة صورا أخرى لرع بسبب كهنة هذه المعبودات المتعددة تأليه هذا الكون لآلهتهم • لكن مركز رع كان أمتن من مركز المعبودات الأخـــرى خصوصـــا وأن آمون لم يستول مره حتى مركز رع السامى فى القطر • رد على ذلك أن المكاتبات الرسمية لاتزال تبدأ كما كانت من قديم الزمان بالدعاء للمعبود رع حر أختى (Re-Harekhte) • ويســـتدل من حـــكايات القـــوم وقتئذ أنهم اعتقدوا أن رع حر أختى هو حاكم هذا الكون • ومع هذا كله لم يميز معبود فى عهد الامبراطورية على سواه استثناء اللهم الا اذا اعتبرنا أن رع كان له بعض التمييز بالنسبة لشدة نفوذ كهنته ، لكنه لما أتى عهد أمنحتب الثالث ظهر على الآثار اسم قرص الشمس القـــديم وهو آتـــون مستعملا بدل رع بعد ما كان مهمل الاستعمال ، وقد شوهد هذا الاسم بكثرة فى نصوص ذلك العهد الدينية ، من ذلك أن أمنحتب الثالث سمى سفينته التى ساح بها على بحيرته الجميلة « أشعة آتون » ومعلوم أيضـــا أن بعض حرســـه الخاص كان ينتسب اسميا الى آتون • ويرجح أن هذا الملك شيد معبدا

لآتون بعين شمس وأن بعض معاصريه اعتبروا آتون (أى قرص الشمس) « المعبود الواحد » الذى لا شريك له ٠

ومن المؤكد ان فرعون مصر وقتئذ قاوم مصـــاعب كبيرة فى نشر مذهبه الدينى ، فقد تحتم عليه أن يخوض غمـار معارك دينيـة هائلة مع طائفة الكهنة القوية ذات التاريخ القديم ، كل هذا حصل فى عصر كانت فيه العقائد الدينية هم ما يحافظ عليه الانســان فى دنيـاه ٠ ولقد مضى أمنحتب الرابع فى طريقه بلا تردد ولا وجـل فنشر مذهبـــه تحت اسم آتون مدعيا جهرة أن هذا الاسم هو أحد أسماء المعبود رع واليك ترجمة ما قاله بخصوص هذا المذهب :

« هاهى ذى كلمات رع أمامك ٠٠٠ لقد علمني والدي العظيم معناها الحقيقى ففهمها قلبى وعرفها وجهى ففقهتها أنا ٠٠٠٠ » ٠

بهذه الكيفية أسند الملك مذهبه الدينى الى رع مدعيا أنه هو الذى أظهر سر هذه الديانة وجعل نفسه « كاهن آتون الأكبر » متبعا فى ذلك سنة وجود كاهن رع الأكبر « بعين شمس » لكن يلاحظ أنه على الرغم من وجود بعض العلاقة بين مذهب اخنـاتون وعبـــادة رع فان الأول تعدى اختصاص الثانى كثيرا بدليل ما جاء على الآثار من استعمال آتون بمعنى « الاله » أو « المعبود » الذى يقابله فى اللغة المصرية القديمة لفظ « نتر » (Nuter) ٠ وجاء أيضا أن الاله شىء والكوكب الشمسى شىء آخـر ، واليك ترجمة تفسير آتون الوارد على الآثار :

« ان المعبود هو حرارة الشمس (آتون) » ٠

وجاء فى عبارة أخرى « أن هذا المعبود ســـيد آتون أى الشمس » ومنه يتضح أن مذهب الملك كان يشير الى اله الحياة المرموز له بالأشــعة المنبعثة من الشموس التى تودع الحياة فى المخلوقات ، لذلك رمز لهذا الاله بقرص الشمس ذى الأشعة المنبعثة نحو الأرض ، تلك الأشعة التى تخيلها اخناتون منتهية بأيد قابضة على رمز الحياة ٠ وقد أنجبت أذهان فلاسفة اليونان مثل هذه الآراء المهمة فى مبدأ مدنيتهم لما اجتهدوا فى تفسير الكون وعلاقته بالخالق ٠ نعم ان اخناتون وفلاسفة اليونان الأقدمين جهلوا تماما التأثير الطبيعى والكيميائى الذى لأشعة الشمس على الكون والذى نعرفه نحن الآن ، لكن هذا لا ينفى أن مذهب اخناتون مؤسس على دعامات صادقة مثمرة ٠ والمعروف أن اله اخنـاتون كان مخالفا لما اعتقده الأهالى وقتئذ لكنهم لم يصعب عليهم اعتناق المذهب فى ســائر أنحاء الامبراطورية وفهم معانيه ٠ وهو فى الحقيقة أيسر فهما من معرفة معانى رموز المعبودات المصرية القديمة الصعبة الادراك للغاية ٠

ولم يرق في نظر اخناتون أن يشيد لالهه معبدا كالمعبودات المصرية الأخرى فصمم في أوائل حكمه أن يرسل بعثة الى محاجر السلسلة تحت اشراف عدة أمراء ، لاحضار الأحجار الرملية الجيدة اللازمة من تلك الجهات، واختار أن يقيم معبد آتون في حديقة آمون التي أنشأها والده بين معبدى الكرنك والأقصر ، فبنى هناك معبدا كبيرا شامخا وحلاه بالرسوم الزاهية البارزة . ثم أطلق على طيبة اسم « مدنية نور آتون » كما أطلق على المعبد المذكور اسم « نور آتون العظيم » . وسمى قدس الأقداس بذلك المعبد « جم آتون » وهو تعبير ما نزال نجهل معنـاه للآن . ومع اباحة عبادة المعبودات الأخرى وقتئذ أضمر كهنة آمون الحقد والطمع وتملكتهم الضغينة لما رأوا جزءا عظيما من أوقاف معبدهم حول الى معبد آتون الذى يجهلونه والذى أخرجه اخناتون الى الوجود . زد على ذلك أنهم منعوا من التدخل في شؤون الدولة السياسية بعد ما كان رؤساؤهم يعينون في عهـد أمنحتب الثالث رؤساء لمالية الدولة كرئيسهم المدعو بتاح موس (Ptahmose) الذى عين في منصب وزير الدولة الأكبر . وقد حصل مثـل هذا الرقى لكهنـة آمون في عهد الملكة حتشبسوت لما قام رئيس كهنـة آمون المدعو حابوسنب (Hapuseneb) بمركز وزير مع احتفاظه بمركزه الدينى ، ومعلوم أن رئيس كهنة آمون كان معتبرا رئيسا لطائفـة كهنة الدولة . ويرجح أن هـذا التدخل الكهنـوتى العظيـم في شؤون الامبراطوزية السياسية هو الذى شدد عزيمة اخناتون على انتزاعه من هذه الطائفه ، وعلى كل حال فان الملك لم يكن البادىء بذلك فقد سبقه والده أمنحتب الثالث اليه بأن عين وزيرا لم يكن رئيسا لكهنة آمون خلفا للوزير بتاح موس ، فلما أتى اخنـاتون كان هـذا الوزير الجديد المدعو رع موس (Ramose) في مركزه فأغدق اخناتون عليه الهدايا الجزيلة ، لذلك انضم هذا الوزير الى الملك وفؤاده مفعم بالاخلاص كما انضم اليه غيره من كبار الدولة فعهد اليهم الملك في الاشراف على بعثة الأحجار اللازمة لبناء معبد آتون . لكن طائفة كهنة آمون كانت قوية وغنية حتى انها مرة عينت تحوتمس الثالث ملكا على مصر بنفوذها ، فلا يستبعد حينئـذ أن يتحين أفرادها مثل هذه الفرصـة فيعزلون هذا الفيلسوف الشاب ويكيدون له بلا تردد . قد يكون هذا حقيقيا لكن المعروف أن أمنحتب الرابع لم يكن فردا عاديا بل كان سليل بيت المجد والشرف صعب المراس قوى الشكيمة عنيدا صلب الارادة . وقد وجد له معاضدين كثيرين مثل كهنة منف وعين شمس الذين شجعوه على القضاء على عبادة آمون التى لم تعرف في سمالى مصر الا منذ عهد الدولة الوسطى . على اثر ذلك تولد النزاع الذى أدى الى حرب انتهت بسحق آمون . واستحال على اخناتون بعد ذلك أن

يعيش فى طيبة فصمم بعد بناء معبده الجديد أن ينفصل تماما عن عبادة آمون وأن يجعل آتون اله الامبراطورية الوحيـــد الحقيقى · فأخذ ينفذ تصميمه بسرعة ظاهرا وباطنا ، فأمر الحكومة بوضع يدها على أملاك الكهنة جميعا بما فيها من أملاك كهنة آمون وبالامتناع عن التدخــل فى عبادة المعبودات على اختلافها ومحو جميع أسماء هذه المعبودات من جميع الآثار الموجودة وقتئذ · وقد نفذت هذه الاجراءات بحذافيرها وبالأخص ضــد آمون ، فمحا اسم هذا المعبود من كل شيء حتى المقابر الملكية القديمة بطيبة وجميع التماثيل التى نصبها ملوك الامبراطورية فى عزها ومجدها حول الكرنك وداخله · ثم محا من تماثيل أجداده ووالده كل ما له علاقة بآمون بدون مراعاة لكرامتهم ومنزلتهم السابقة · ثم محا اسم والده أمنحتب من معابد طيبة كلها ، لاشتماله على اسم آمون وذلك منعا لظهور اسم هذا المعبود فى الأمكنة الرفيعة بالمعابد · وما يزال اللوح الحجرى البديع الذى أقامه أمنحتب الثالث فى معبده بطيبه وعليه ذكر العمارات التى شــيدها لآمون شــاهدا على شــدة حنق أمنحتب الرابع على هذا المعبود فقد طمس نقوش الحجر بلا رأفة حتى تعسرت قراءتها · ثم أمر بمحو لفظ معبودات من الآثار المصرية كافة ومن جدر معابد طيبة ، وبذل مجهودا عظيما فى ذلك (٢) ولما لاحظ ان اسم « أمنحتب » يعنى « آمون الطيب » كره سماعه وكره نقشه على الآثار فاستبدل به « اخناتون » يعنى « روح آتون » ·

على اثر ذلك أصبحت المعيشة بطيبة غير متيسرة لكثرة أتباع مذهب آمون القديم، بالرغم من الاجراءات التى اتخذها أخناتون لابادة هذا المذهب فكان الملك اذا ألقى بنظره على شاطىء طيبه الغربى وجد مقابر ومحاريب آبائه وأجداده فى حالة دمار وخراب إثر حملته الشنيعة عليها · زد على ذلك أن صروح الكرنك ومسلاته الشامخة كانت تذكره دائمـــا بمذهب أجداده وما فعلوه لاعلاء شأن آمون · وأدهى من هذا وذاك ما كان يجول فى نفس اخناتون من الألم كلما رأى معبد والده العظيم الذى أقامه بالأقصر لاعلاء شأن آمون والذى لم يتم بناء صحنه قبل وفاته · كل هذه العوامل جعلت اخناتون يفكر فى الخروج من هذا المأزق فصمم على تشييد ثلاثة مراكز لعبادة آتون فى أجزاء الامبراطورية الثـلاثة وهى القطر المصرى والنوبة وآسيا ، وأن يكون مركز هذه العبادة بالقطر المصرى حيث يكون عرش فرعون · وقد أنجز الملك هذا المشروع بنجاح رغم ما تطلبه من طول الزمن فأسس معبدا لآتون بالنوبة سماه « جم آتون » بالقرب من الشلال الثالث مقابل بلدة دلجو (Dulgo) الحديثة أى فى وسط تلك المستعمرة

(٢) Zeitschrift für Aegyptische Sprache, 40, 109-110 and II. p. 386, note b.

الجنوبية (٣) وان اسم « جم آتون » يشير الى وجود بعض النسب لمعبد آتون بطيبة · ثم أنشأ بسوريا مركزا لعبادة آتون ما يزال مجهولا لنا ولا يمكن أن يكون أحط منزلة من معابد أجداده التى شيدوها لآمون هناك· وفى السنة السادسة من حكمه (أى بعد تغيير اسمه الملكى بمدة قصيرة) انتقل الى مركز عبادة آتون بمصر وعاصمة ملكه الجديدة الواقعة بسفح الجبل على بعد مائة وستين ميلا جنوبى الدلتا وثلثمائة ميل تقريبا شمالى طيبة · فى هذا المكان تبتعد سلسلة الجبـال الشرقية عن نهـر النيل بما يقرب من ثلاثة أميال ثم تقترب منه بعد ذلك شمالا وجنوبا بعد مسافة طولها خمسة أميال ، ومن هذا الوصف يتضح لنا أن هذه البقعة كانت محاطة بسلسلة جبال من ثلاث جهات أما الجهة الغربية فكان يحدها نهر النيل · وقد اختار اخناتون هذا المكان مركزا لعبـادة آتون وسـماه « آخت آتون » (Akhetaton) — أى سماء آتون — ويعرف الآن بتل العمارنة·وأصدر أمره بضم الأراضى القريبة من ذلك المكان شرقى النيل وغربيه الى أوقاف آتون وعين حدود تلك الأراضى بأربعة عشر حجرا لم نهتد الا على واحد منها (لوحة ١٠٥) وهذا الحجر لا يقل طوله عن ست وعشرين قدما وهو منحوت فى الصخور الجبلية ومنقوش بنصوص توضح حدود الأراضى المقدسـة حول هذه المدينة · يتضح من ذلك أن هذا المكان كان فسيحا يبلغ عرضه من الشمال الى الجنوب حوالى ثمانية أميال ويتراوح طوله بين جبال الشرق والغرب بين اثنى عشر وسبعة عشر ميلا ، وقد عثر على القسم (بفتح القاف والسين) الملكى الخاص بهذا المكان منقوشا على أحجاره الشمالية والجنوبية هذا ترجمته :

« رفع جلالته يده الى السماء نحو خالقه آتون قائلا : هذا قسمى الأزلى وهذا شاهدى الأبدى · هذا الحجر يعين حدود الأرض ·· لقـد شـيدت « آخت آتون » لتكون مسكنا لوالدى ··· وأظهـرت حـدود « آخت آتون » الجنوبية والشمالية والغربية والشرقية · ولن أتعدى حدود « آخت آتون » الجنوبية متجها نحو الجنوب كما أننى لن أتعدى حدود « آخت آتون » الشمالية سائرا نحو الشمال ··· لقد صنع الاله دائرته هذه لنفسه وجعل فى وسطها مذبحـه الذى أقدم عليه القرابين لأجله » ·

ولم نعرف للآن معنى عبارة « عدم تعدى الحدود الجنوبية والشمالية » ويظن البعض أن المقصود بها مجرد الايضاح لحدود المركز الأربعة وأن هذا

---

(٣) كتابى المسمى Monuments of Sudanese Nubia المطبوع بشيكاجو عام ١٩٠٨ ، صحيفة ٥١ — ٨٢ ·

تعبير يبينه المالك اعترافا بعــــدم تملكه للأراضي الخارجة عن جدوده ، وأجاز بعضهم كون ذلك قسما القصد منه عدم مغادرة ذلك المركز . وعليه فلا يبعد أن يكون اخناتون قد أمضى باقي حياته في « آخت آتون » وعلى كل حال فالمعنى لأصلي للعبارة ما يزال غامضا . وليلاحظ أننا لم نعثر للآن على شواهد حجرية مبينة لحدود الأراضي تحتوي على مثــــل هذه الصيغة القسمية . وقد وقف جلالة الملك ذلك المكان على آتون بأمر ملكي هذه ترجمته :

« هذا الاقليم المبين الحدود الممتد .... من سلسلة الجبال الشرقية الى سلسلة الجبال الغربية المقابلة « لآخت آتون » تابع لوالدى « آتون » معطى الحياة الى الأزل . وكل الجبال والصخور والمستنقعات .... والتلال والغيطان والمياه والمدن والشواطىء والأهالي والأغنام والأشـــجار وكل مخلوقات والدى « آتون » قد وقفتها على والدى آتون الى الأزل » . وعثر على نقوش في حجر آخر ذكر فيها أن هذه الأشياء وقفت لمعبد آتون بمدينة « آخت آتون » كقرابين الى أبد الآبدين . ولم تقتصر وقفية آتون على هذا بل شملت أيضا بعض الأقاليم السودانية وربما شملت سوريا أيضا وكان القصد من بناء « آخت آتون » انشاء عاصمة جديدة للامبراطورية المصرية لأن اخناتون قال ما ترجمته :

« سيأتي الى هذا المكان عامة الناس من سائر الجهات . وتكون « آخت آتون » الجميلة عاصمة ثانية أقابل فيهـــا كل الرسل والأقوام الوافدين من الشمال والجنوب والغرب والشرق » .

وقد عهد الملك الى المهندس بك (Bek) مأمورية احضار الأحجار من اقليم الشلال الأول لبنـــاء معابد آخت آتـــون التى لا يقل عددها عن الثلاثة واحد للوالدة الملكة تي وآخر للأميرة بكت آتون — أي خادمة آتون — وثالث للملك نفسه وهو معبد الحكومة الرسمى . أما قصر الملك وقصور الأمراء فقد شـــــيدت حول هذه المعابد . ووصف أحد الأمراء مدينـــــة « آخت آتون » بقوله :

« آخت آتون بلدة جميلة جدا فهي سيدة المدن في الاحتفالات وافرة الثروة . تقدم في وسطها الهدايا للمعبود رع . اذا رآها القلب سارع اليه الفرح ، كيف لا وهي مدينة بديعة جميلة حتى ليخيل الى ناظرها أنها الجنة كثيرة الأهالي . اذا أشرق عليها آتون أغدق عليها أشعته محتضنا (بأشعته) ابنه المحبوب الأزلي سليل آتون واقف الأقاليم على الذى أجلسه على العرش ومرجع الأراضي لخالقها » .

ولما وصل أول دخل من أوقاف معبد أتون الى مدينة « أخت أتون » احتفل لذلك اخناتون احتفالا عظيما وركب عجلته فى موكب فخم مصحوبا بكريماته الأربع وكبار دولته ، فقابلهم القوم عنـد معبد آتـون بهتاف عظيم وصياح « أهلا وسهلا » ثم امتلأ المذبح العالى بالقرابين الغالية وغصت حجر المخازن بالدخل العظيم • وقد اشترك جلالته فى الاحتفال شخصيا وأنشدت زوجته أنشودة السلام الى المعبود آتون بصـــوت رخيم وهى قابضة بيديها الجميلتين على الصلاصـــل (Sistrum) (٤) • وأراد اخناتون أن يعين رئيسا لكهنة آتون وأن يمتنع هو عن القيام بأعباء ذلك المركز فعمل احتفالا كبيرا وقف فى أثنائه على شرفة قصره مصحوبا بزوجته ثم استقبل الزوار وأعلن اختيار مرى رع (Merire) الضابط الكبير رئيسا لكهنة آتون واليك ترجمة خطابه الرسمى :

« استمع الى يا مرى رع ! لقد عينتك بدلا منى رئيسا لكهنة آتون بمعبد آتون بمدينة آخت آتون • لقـد أنعمت عليك بهذا المركز قائلا : انك ستعيش من خيرات فرعون سيدك فى معبد آتون » •

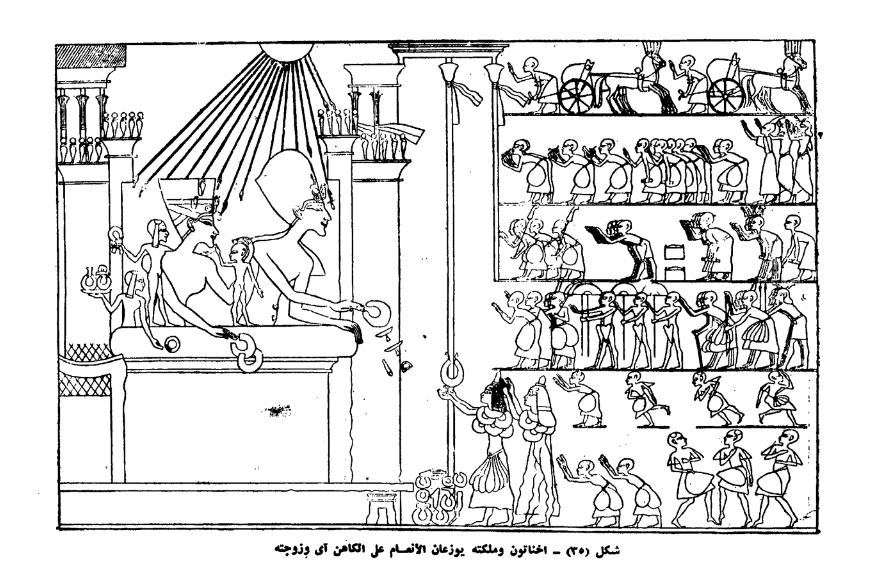
وقد قام مرى رع بهذه المهمة خير قيام وكافأه الملك على ذلك بالذهب مكافأة علنية جريا على عادة الفراعنة الأقدمين نحو خدمهم المخلصين • وقد عثر على نقوش ورسوم فوق أحد أبواب المعابد ، تشير الى أن الملك كان مصحوبا بزوجته وكريمته لما أعطى مرى رع مكافأة الأمانة والاخلاص وأن جلالته خاطب الحاضرين وقتئذ قائلا :

« أغدقوا عليه الذهب فوق الصدر والظهر والرجلين فقد أطاع كل أوامر فرعون فى الاحتفالات العظيمة التى عقدها جلالته فى هـذه الأمكنة الجميلة بمحراب معبد آتون الذى بناه بمدينة « آخت آتون » •

من ذلك يتضح لنا أن مرى رع أطاع أوامر الملك كلها وقت الصلوات الدينية فى « تلك الأمكنة الجميلة » بمعبد آتون • وقد أخذت البراهين الواحد تلو الآخر تدل على أن الترتيبات والمشروعات جميعها التى عملت بمدينة « آخت آمون » والمجهودات التى بذلت لاعلاء شأن آتون الدينى كانت من مبتكرات اخناتون نفسه • ولا غـــرابة فى ذلك فالملك الذى لا يتأخر لحظة عن محو اسم والده عن آثاره رغبة فى محو عبادة آمون

---

(٤) الصلاصل ، وهى آلة موسيقية (مثل شخشيخة الاطفال) تتألف من مقبض تتحرك عليه بعض الشرائح المعدنية التى تحدث صوتا عندما تهز بالأيدى وكان من المعتقد ان هذا الصوت يخيف الشياطين ، ومن ثم كانت تستخدم فى الاحتفالات والطقوس الدينية (المحرر) •



شكل (٣٥) ـ اخناتون وملكته يوزعان الأنعام على الكاهن آى وزوجته

(عدوه اللدود)لابد أن يكون قوى العزيمة شديد البأس لا يتردد أبدا في انجاز مشروعاته واجبار آكابر مملكته على الانقياد لأوامره · وقد عرف اخناتون جيدا من تاريخ أجداده أن أسداء العطايا والمكافآت لأمثال مرى رع أمر ضرورى للتفانى في خدمته كما يرغب ويشتهى (شكل ٣٥) (٥) ·
وجاء في رواية كاهن آتون المدعـــو آى الذى كان يعتنى بجياد اخناتون والذى أسعده الحظ بعد ذلك بالاقتران بمربية الملك أن جلالة الملك ضاعف له العطايا الفضية والذهبية · وقد خاطب هذا الكاهن جلالة الملك قائلا : « ما أكثر سرور الرجـل الذى يدين بدينك ، فهـو فرح كلمـا يحظى بمشاهدتك الى الأزل ! » · وأغدق جلالته الهدايا أيضا على قائد الجيش المدعو ماى (Mai) بمثل السخاء الذى جاد به على آى حتى افتخر هذا القائد قائلا : « لقد ضاعف (أى اخناتون) الى الهدايا بعدد الرمال ، فجعلنى رئيس الموظفين ورئيس الأهالى · لقد رقانى سيدى لاتباعى سنته واطاعنى كلامه بدون تردد · أى سيدى (ان عينى تنظر الى محاسنك كل يوم فبصرك عاقلا مثل آتون متنعما فى العـدالة ! ما أســـعد المرء المطيع لارشاداتك ! » ·

لا مشاحة فى أن بعض كبار القوم كانوا يجلون آراء اخناتون تماما ويدينون بها قلبيا · وهناك قوم آخرون تظاهروا بذلك فقط مدفوعين الى ذلك بعوامل « الخبز والسمك » على رأى قدماء المصريين ·

ولما كان أعظم ما يهبه فرعون لأفراد رعيته أن يحفر لهم مقابر فى صخور الجبال الشرقية ، أمر اخناتون عماله بحفر مقابر بديعة بالصخور الشرقية لكل فرد من أتباعه المخلصين · زد على ذلك أن اخناتون لم يبطل اجراءات الموتى المتبعة من قديم الزمان ، فكان يتحتم على كل فرد أن يدفن نفسه فى قبره أو « بيته الأزلى » كما هو معروف عندهم حيث تقدم اليه القرابين بعد وفاته ليعيش منها فى الآخرة·وتمتاز قبور هذا العهد بخلوها من الرسوم المفزعة الممثلة للزبانية والوحوش الضخمـــة ومن السـحر والتعازيم الخاصة بالانتصار على أعداء الاخرة وغير ذلك مما نشاهد كثيرا على جدر مقابر طيبة قبل عهد اخناتون · وبدهى ان هذا الاصلاح النفسانى الشريف كان نتيجة مجهودات اخناتون ، تلك المجهودات التى أخفت من الوجود خرافات الكهنة السخيفة من أذهان المصريين الذين انقادوا لهـــا أولا أيما انقياد · وبفحص مقابر عهد اخناتون يرى فيهـــا كثير من مناظر الحياة الدنيوية مرسومة على جدرها وهى عادة خاصة ببلدة آخت آتون · اما مقابر كبار موظفى الحكومة فمزدانة بالرسوم البديعة الخاصة بالمقابلات

(٥) راجع شرح لوحة ١١٣ ·

الملكية التى حظى بها أصــحابها فى دنياهم · وقد استنتجنا من هذه الرسوم معلوماتنا عن أحوال المعيشة بمدينة « آخت آتون » وعرفنا أيضا أن أمراء تلك العصور كانوا كثيرى الغرام برسم مليكهم وعلاقته الشديدة بمذهب آتون ، لذلك كثيرا ما عثرنا فى مقــابر هؤلاء القوم على رســم اخنــاتون وزوجته يعلوهما قرص الشمس آتون الذى تنبعث منه أشعة عديدة تنتهى بأيد حاضنة لجلالة الملك (٦) · ومما يجدر ملاحظتــه أن المعبودة موت (Müt) لم تعد ترســم على الآثار بشكل نسر مرفرف الأجنحة لدفع الأذى عن رأس فرعون كالعــادة المتبعة منذ عهــد الأسرة الطيبية · وكثيرا ما يشاهد الأمراء مرســومين على جدر هذه المقابــر متضرعين الى الهم ليشملهم الملك برضاه قائلين « ان اخناتون خلق من أشعة المعبود » ومخاطبين المعبود بهذه العبــارة « أنت الذى خلقته (أى اخناتون) من أشعتك » · وقد كثر استعمال هذه التعبيرات الخاصة بعبادة آتون على آثار تلك العصــور بالطريقة التى استعملت بهـــا التعبيرات والتوسلات الخاصة بالآلهة المصرية العتيقة ·

من ذلك يتضح أن هم الحاشية الملكية انحصر فى الاعتقاد بمذهب ملكهم والاجتهاد فى فهم معانيه · أما الحفلات الرسمية فأصبحت خلوا من العادات القديمة والتوسلات الخاصة بالمعبودات العتيقة ، وقد استعيضت عنها مدحة آتون واجلال مذهب اخناتون وغرام الملك بنشر ذلك المذهب · وقد عمت هذه التغيرات فبلغت رؤساء سوريا الذين أكثروا فى كتاباتهم من الالماع الى مذهب اخناتون متظاهرين باتباعه (٧) لما لهذا الملك من التأثير الكبير فيهم · وقد اهتدينا الى تعاليم مذهب اخناتون منقوشة على جدر مقابر تلك العصور · وعثرنا بمقابر سراة القوم على أنشودتين وضعهما اخناتون للمعبود آتون لتلاوتهما فى المعابد والتوسل بهما فى خلوته · وتعتبر هاتان الأنشودتان أهم ما خلفه لنا التاريخ من تلك العصور ، لأنهما توضحان لنا قيمة مذهب ذلك الملك الفيلسوف الذى ضحى بكثير لأجله · وقد لقب هاتان الأنشودتان « بدعاء اخناتون والملكة نفــر نفرو آتــون (Nefernefruaton) للمعبــود آتــون » وهمــا تختلفــان فى الأســلوب والمقدار · فالأنشودة الطويلة هى أجمل ذوقا وأعذب كلاما وأجدر أن تحفظ ضمن آداب عصرنا هذا · واليك ترجمة هذه الأنشودة بقدر ما يمكن من الدقة وقد جعلت لأجزائها المختلفة عنوانين يتمشيان مع معانيها وقارنتها فى الوقت نفسه بما جاء فى المزامير بالمزمور الرابع والمائة ومنه يتضــح للقارىء شدة الشبه بين الاثنين من حيث الآراء وتسلسل المعانى :

---

(٦) لوحة ١٠٦ · لا يعرف على وجه الدقة من هو الملك المصور على تلك اللوحة وربما كان سمنخ كارع - (المحرر) ·

(٧) خطابات تل العمارنة ١٤٩ و ٦ ملاحظة وغير ذلك ·

جـــلال آتون

بزوغك جليل فى أفق السماء يآتون يا حى يا مبدىء الحياة !
اذا ما صعدت فى أفق السماء الشرقى أفضت على الأراضى جمالك ٠
ما ذلك الا لأنك جميل عظيم ، نير فى السموات العليا تسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك بأشعتك ٠
أنت رع ٠ أنت الذى أسرتهم وقيدتهم بحبك ٠
أنت بعيد عن الأرض لكنك على اتصال معها بأشعتك ٠
أنت عال لكن آثارك واضحة فى ضوء النهار ٠

الليـــل

اذا ما غربت فى أفق السماء الغربى أظلمت الأرض فأصبحت كالميتة ٠
تجعل ظلمة فيصير ليلا فيه يدب كل حيوان الوعر ٠ الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها ٠

(مزمور ١٠٤ آية ٢٠ و ٢١)

فيقصد السكان النوم فى حجراتهم مغطى الرءوس هادئى الأنوف غير مبصرين فتسرق أمتعتهم من تحت رءوسهم دون أن يشعروا ٠
أما الأسود فتخرج من أجحارها وكذا الثعابين اللداغة ٠
ويسود الظلام (؟) الكون وتسكن الأرض ٠ وما ذلك الا لأن خالق هذه الأشياء كلها ذهب ليستريح فى أفقه ٠

النهار والانسان

اذا ما ظهرت فى الأفق وأشرقت فى النهار كآتون أضاءت الأرض ،
تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويها تربض ٠ الانسان يخرج الى عمله والى شغله حتى المساء ٠

(مزمور ١٠٤ آية ٢٢ ـ ٢٣)

اذا ما بزغت أشعتك خفى الظلام وشمل الفرح قطرى مصر ٠
كيف لا وقد أيقظتهم فيغتسلون ويكتسون ويبتهلون بأذرعهم اليك وقت شروقك يشرع سكان العالم يؤدون أعمالهم ٠

النهار والحيوان والنبات

البهائم كلها مستريحة فى مراعيها ٠ والأشجار والنبات جميعها يانعة ٠ والعصافير تخفق فوق المياه ناشرة أجنحتها ابتهالا اليك ٠ والأغنام

ترقص على أرجلها ٠٠ والطيور تحلق فى الجو تتنسم الحياة اذا ما أشرقت عليهـــا ٠

النهار والمياه

تسير السفن مع التيار وعلى عكسه ٠ وكل طريق عمومى يصبح مسلوكا لأنك ظهرت فى الأفق ٠ أما السمك فيقفز أمامك فى النهر ، هكذا تخترق أشعتك البحر الخضم ٠

هذا البحر الكبير الواسع الأطراف ٠ هناك دبابات بلا عدد ٠ صغار حيوان مع كبار ٠ هناك تجرى السفن ٠ لوياثان هذا خلقته ليلعب فيه ٠

(مزمور ١٠٤ آية ٢٥ ـ ٢٦)

خلق الانسان

أنت خالق الجنين فى أمه ٠ أنت خالق نطفة الانسان ٠ أنت واهب الحياة للجنين فى رحم أمه وملطفه حتى لا يتكدر فيبكى كيفلا وأنت المربى فى الرحم ٠ أنت معطى نفس الحيـــاة كل مخلوقاتك ٠٠٠٠ أنت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده أمه ٠

خلق الحيوان

أنت الذى تهب الحياة للفرخ فى البيضة فيصيح ، فاذا أتممت خلقه ثقب بيضته وخرج منها صائحا جهده واثبا بقدميه ٠

الخلق عموما

ما أكثر مخلوقاتك التى نجهلها ! ٠ أنت الاله الأحد ، لا شريك لك فى الملك (٨) ٠ خلقت الأرض بارادتك ٠ ولما كنت وحيدا فى هذا الكون خلقت الانسان والحيوان الكبير والصغير والمخلوقات التى تدب على الأرض أو تطير بأجنحتها ٠ أنت الذى أحللت كل انسان فى سوريا والنوبة ومصر فى موضعه وأنعمت عليه بحاجاته ، فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المعدودة ٠ لقد اختلفت ألسنتهم وأجسامهم وجلودهم فسبحانك من مميز لخلقك ! ٠

---

(٨) يغلب فى الأناشيد الأخرى أن تكون هذه الجملة « أنت الاله الأحد الذى لا اله غيره » ٠

ما أعظـــم أعمالك يا رب ! . كلها بحكمة صنعت • ملأنة الأرض من غناك •

(مزمور ١٠٤ آية ٢٤)

ري الأراضي

أنت خالق النيـــل في الدار الآخرة • أنت أوجدته برغبتك فيـه لتحافظ على حياة الأهالي • أنت سيد الجميع لأنهم ضعاف • أنت سيد كل أسرة لأنك تشرق لأجلها • أنت شـــمس النهار المهيب في الأراضي السحيقة كلها والواهب لها الحياة • خلقت لهم نيلا في السماء ليسقط عليهم ماؤه فيسيل على الجبال كالبحر الزاخر يروي غيطانهم بين مدنهم •

ما أبدع مشروعاتك أيها السيد الأزلي !
فنيل السماء (مخصص) للغرباء وللدواب من كل البلاد •
والنيل الذي يأتي مصر خاصة يأتيها من الدار الآخرة •
أشعتك تغذي الجنان • فاذا ما أشرقت أينعت وأنبتت بتأثيرك •

الفصـــول

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك ،
فالشتاء يعطيهم البرودة والصيف يهب لهم الحرارة •
أنت الذي رفعت السماء عاليا لتنظر ما خلقت في وحـدتك شارقة حيا كآتون ساطعا متلألئا ثم راجعا ثانية الى حيث ابتدأت •

جمـــال الضوء

أنت مبدع الجمال من نفسك •
فالمدن والبلاد والقرى والطرق والأنهر كلها عيون تبصرك أمامها
كيف لا وأنت آتون النهار فوق الأرض •

تضرعات الملك

أنت في قلبي ، لا يعرفك سوى ابنك اخناتون الذي جعلته عاقلا بآرائك وقوتك •
العالم كله في قبضتك كما خلقته •
اذا ما أشرقت (عليه) حي واذا أفلت مات •
أنت الوجود ومسبب الحياة للانسان •

أعين الخلق تبصر محاسنك كل يوم حتى تغرب • والعمل كله يبطل اذا ما أفلت فى الغرب • فاذا ما أشرقت جعلت كل ذلك ينمو •• للملك • لقد وهبت العالم منذ خلقته لابنك وسليلك الملك العائش فى الحق سيد الأرض نفـــر ــ خبـرو ــ رع ، وع ــ أن رع (Nefer-khepru-Re, Wan-Re) (ابن رع) العائش فى الحق سيد التيجان اخناتون طال أجله• (وأيضا) للزوجة الملكية العظيمة خليلته سيدة القطرين نفر ــ نفرو ــ آتون (نفرتتى) (Nefer nefru aton, Nofretete) العائشة واليانعة الى أبد الآبدين •

لا شك فى أن القارىء استنتج من هذا الدعاء أن واضعه كان واسع الاطلاع عالما بالأمور الاجتماعية العالمية من شلالات النوبة الى أقصى حدود سوريا ، معتبرا هذه الأقاليم وحدة لا تتجزأ ، الشىء الذى لم يعتد المؤرخون نسبته الى أهالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد • وبدهى أن مثل هذا التغير نتيجة ظهور روح جديدة فى مصر بدل الروح الرجعية العتيقة ، والفضل فى ذلك يرجع طبعا الى اخناتون بدليل ما أوردناه من السطور السالفة التى تشهد له بسمو الذاكرة فى ذلك العهد السحيق • وقد توصل هذا الملك العظيم بثاقب فكره الى معرفة اله العالم خالق الكون والى الايمان برحمته ورأفته بمخلوقاته حتى الحقير منها ، فقد أبصر فى رفرفة أجنحة الطيور بين سيقان اللعلع بالمستنقعات المصرية نوعا من التسبيح لخالقها ، كما تصور قفز السمك فى الغدير حمدا لبارئها • واعتقد هذا الملك أيضا أن الاله الأحد هو الذى يناجى النبات ويغذى الفرخ ويشرف على فيضان النيل الشديد وقد سماه « أب وأم جميع مخلوقاته » ومنه يتضح لنا أن الملك عرف لطف الاله العالى وحلمه • وأشار الينا اخناتون أن نعتبر بحياة اللعلع ففيها اثبات صدق مذهبه وأن سيادة الاله التامة على كل الشعوب كلهـــا مصحوبة بعطف وحنو أبوى بدون تمييز بين القوميـــة والعنصر • وأظهر جلالته للمصرى المتغطرس رأفة الخالق لشعوبه كلهـا فذكر سوريا وبلاد النوبة قبل مصر فى تعداد تلك الشعوب•ولا شك فى أن هذه العقلية الغريبة هى التى جعلت الأثريين يعتبرون اخناتون أقدم رسول معروف فى التاريخ الآدمى • كيف لا وقد كان الملوك السابقون يعتقدون أن الاله الأعظم هو الذى يهب النصر ويسحق الأهالى ويسوقهم حاملين الجزية أمام عجلة فرعون • أما اخناتون فقد رأى فى الاله رأفة ورحمـــة لخلقه جميعا على السواء ، ويعتبر هذا المذهب أقدم ما عرف من علم التوحيد فى التاريخ • ولا شك فى أن القارىء لتعاليم هذه العقيدة يتضح له أنها اعتراف صحيح بوحدانية الله وبرحمته ورأفته ووجود سره المكنون فى كل

مخلوقاته ، وهذا يتمشى تماما مع الروح الصوفيـــة الموجودة فى هذه العقيدة · واليك ترجمة بعض ما جاء بهذه العقيدة :

« ما أكثر مخلوقاتك المتنوعة ! انها سر مكنون ! أيها الاله الأحد الذى لاشريك له فى الملك ! » ·

ومع اعتراف اخناتون لحد بعيد بعطف الخالق على مخلوقاته لم ينعته بصفات روحانية وخلقية ســوى ما اتصف به آمون من قديم الزمن · رد على ذلك أنه بالرغم من معرفة اخناتون للطف الله بعباده لم يهتد تماما الى معرفة صفة الحق جل شأنه ولا الى رغبته تعالى فى وجود هذه الصفة فى نفوس بنى آدم · وكل ما ذكره اخناتون بهذا الخصوص فى تعاليمه التى وجدت مبعثرة بين الأناشيد ونقوش مقابر أمراء عصره هو الاصرار المستمر على اتباع « الحق » بما لم يكن معروفا سابقا ، فقد اعتاد جلالته أن يعقب اسمه بعبارة « العائش فى الحق » مما يشير الى شدة تعلقه بالحق وهو أمر ثابت من أخبار معيشته اليومية · وامتاز هذا الملك باعتقاده أن المعيشة العادية البسيطة البعيدة عن الكلفة هى أقرب الأمور للحق والصواب وأن كل ما أوجدته الطبيعة هو صواب لا خطأ فيه ، لذلك لم ير هو وأسرته فائدة من الاحتجاب عن رعيته · وكان شفيقا جدا بأطفاله ويظهر فى كل الاحتفالات مصحوبا بزوجته وأعضاء أسرته كأنه كاتب وضيع فى معبد آتون · وقد رسم نفسه وهو يعامل أعضاء أسرته ببساطة وبدون تكلف · وكان كلما اشترك فى حفلات دينية صاحب زوجته وأطفاله ليشتركوا فيها· كل ذلك لأنه اعتقد أن الطبيعة فطرت على الحق والصواب ، ومن ثم أجهد نفسه فى اعلان صدق هذا الرأى كلما اقتضت الظروف الاقلاع عن عادات أجداده السابقين ·

وبدهى أن مثل هذه التطورات الدينية صحبتها تطورات صـــناعية فنية · وقد كان اخناتون كثير الاهتمام بالأخيرة ، واليك ترجمة ما أورده مثال جلالته المدعو بك (Bek) ، واصفا نفسه « بأنه تلقى علومه من جلالة الملك نفسه » ومنه يتضح أن المثالين الملكيين تعلموا فنهم على الاسلوب الحديث فى القصر الملكى · وقد ذكروا هذا معلنين افتخارهم به ، ولذلك بلغت الفنون الجميلة شــأوا عظيما فى مشابهتها للطبيعة بمـا لم يكن معهودا سابقا (لوحات ١٠٧ و ١٠٨ و ١٠٩) ، فنرى الحيوانات مرسومة بحالتها الطبيعية الوقتية فالكلب عاد والطير محلق فى الجو والثور الوحشى عائم فى المستنقعات (لوحـــة ١٠٩) مما كان يتمشى مع عقيـدة اخناتون فى حقيقة الطبيعة وصوابها · ولم يستثن من ذلك التغير فى الرسم جلالة الملك نفسه ، فقد رسم جلالته على الآثار خاليا من الكلفة الفرعونية القديمة

محافظا على حالتـــه الطبيعية الحقيقية حتى يخيـــل الى الناظـر فى تلك الرســـوم لأول وهلة أنه أمام رســـوم من العصر اليونـانى (لوحة ١٠٧) • ولم تقتصر هذه الحرية على رسم شخص واحد بل تعدته الى عدة أشخاص فى مجموعة واحدة لأول مرة فى تاريخ الفنون الجميلة المصرية • وقد عثرنا على قطع حجرية بقصر اخناتون بتل العمارنة مرسوم عليها جلالته راكبا عجلته مطاردا أسدا جريحا وهى خطوة صادقة جديدة لم تعرف سابقا فى فن الرسم لكنها لم تدم طويلا فقد انعدمت من الوجود بسرعة بعد ذلك العهد • وهناك بعض نقط فى رسوم تلك العصور ما تزال غامضة لنا من بعض الوجوه فقد رسمت الأطراف السفلى مثلا متضخمة بهيئة مخصوصة غامضة المعنى ، وقد فسر ذلك بعض الأثريين بأن اخناتون كان مصـابا بعاهات جسمية كالمرسومة على الآثار ، لكن هـذا التفسير لا يوضح جميع أسرار النقط الغامضـــة • ولا يبعد أن يكون هذا التغير الجسمى المشاهد فى اخناتون نتيجة مرض ظهرت أعراضه عليه من جراء الانهماك فى أمور الدولة السياسية • وسنتكلم الآن على نتيجـة التطور الفكرى الذى أحدثه اخناتون فى دولته ، وعلى الرزايا والمصائب التى حلت بالقطـر من أجـل الاقلاع عن القوانين النـــافذة القديمة والتقـــاليد التاريخية العريقة •

الفصل التاسع عشر

سقوط اخناتون وتفكك عرى الامبراطورية

لشد ما شغل اخناتون بالأمور الدينية والفلسفية مقاوما نفوذ كهنة آمون القوى على توالى الزمن ، ثم أدركه العجز عن ممارسة شؤون دولته الخارجية وتقدير التبعة الملقاة على عاتقه ، والظاهر أنه لم يتحقق خطورة مركزه السياسى الا بعد فوات الفرصة ٠ وتفصيل ذلك أنه لما اعتلى عرش مصر اعترفت مملكة الحيثيين وممالك وادى الفرات بسلطة مصر على آسيا ، فارسل دشراتا ملك أرض متانى خطابا الى والدة اخناتون (تى) طلب فيه منها أن تؤثر فى اخناتون ليحافظ على العلاقات الودية مع متانى كما فعل والده أمنحتب الثالث من قبل (١) ٠ وأرسل دشراتا فى الوقت نفسه الى اخناتون خطابا عزاه فيه بمناسبة وفاة والده أمنحتب الثالث ، راجيا فيه أيضا أن يرسل له مقدارا عظيما من الذهب كالعادة المتبعة ٠ وقد أرسل ملك بابل المدعـو برابورياش (Burraburyash) خطاب تعزية أيضا الى اخناتون لكننا لم نعثر عليه ، وكل ما اهتدينا اليه هو الاذن بالمرور المعطى لرسول بابـل وفيـــه رجـــاء من بابل لملوك كنعان بالسماح لحامله بسرعة المرور ببلادهم فى سيره نحو مصر وكان لبرابورياش نجل مقيم بقصر اخناتون الملكى اقترن بابنة جلالته فأرسل حموها ملك بابل الى زوجة ابنه كريمة اخناتون هدية ملكية عبارة عن قلادة من الجواهـر الثمينة يزيد عدد جواهرها على الألف ، وسنرى فيما يلى أن هذا الزواج لم يدم طويلا ٠

فى تلك الأثناء كانت قوة الحيثيين تنمو وتشتد باطراد فى شمالى سوريا يؤيدها أهالى ذلك الاقليم تحت طى الخفاء ٠ وللآن لم نعرف أصل الحيثيين بالضبط ، ولذلك ما يزال أصلهم موضع بحث وتمحيص بين علماء الآثار الشرقية ٠ ويعتبر هذا العهد الذى نحن الآن بصدده أول عهد ظهرت فيه الأمة الحيثية فى تاريخ العالم المتمدين ، وقد عثر حديثا على آثار لهؤلاء

(١) خطابات تل العمارنة ، ٢٢ ٠

القوم فى البلاد الممتدة من شاطىء آسيا الصغرى غربا الى نهر الفرات وسهول سوريا شرقا وحماه (Hamath) جنوبا • والمعروف أن هؤلاء القوم غير ساميين مجهولو الراوبط العنصرية يرجع تاريخهم الى ما قبل الهجرة الهندية الجرمانية التى جلبت معها العنصر الفاريجى (Phrygians) حوالى سـنة ١٢٠٠ قبل الميلاد • ويستنتج العلماء من دراسـة الآثار المصرية أن الحيثيين قوم حلقوا لحاهم وضفروا شـعور رءوسهم فلكل ضفيرتان طويلتان مسبلتان أمام أذنيه ومرسلتان الى كتفيه • أما آثارهم فتمثلهم بلحى كثيفة (لوحة ١١٠) ، لابسـين على رءوسهم مغفرة طويلة قصيرة الحافة• أما لباسهم فملائم لبرد بلادهم ، مصنوع من الصوف الكثيف وهو طويل ضيق ساتر للجسـم من الكتفين حتى الركبتين وأحيـانا الى الكعبين • ولوحظ أن هؤلاء القوم لبسوا أحذية طويلة بأقدامهم مدببة المقدم • والمعروف عنهم أنهم لم يبرعوا فى حفر الأحجار لكننا عثرنا على كثير منها عظيم الفائدة مبعثرا على تلال آسيا الصغرى (لوحة ١١٠ و ١١١)• وأتقن الحيثيون بعض الصناعات المفيدة كصناعة الخزف وعلى الأخص النوع الأحمر المنقوش الذى انتشر استعماله فى اقليم كابادوكيا (Cappadocia) الى بلاد اليونان غربا وبلاد فلسطين وسوريا شرقا ولاكش (Lachish) وجازر جنوبا • وقد بلغت هذه المصنوعات جهة جازر حوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد • وامتاز الحيثيون بخطهم الكتابى واهتمامهم به فكان ملوكهم يأخذون معهم كتابهم الخصوصيين فى غدواتهم وروحاتهم ، وتوصل بعض الأثريين الى حل بعض رموز هذا الخط لكنه ما يزال مجهولا فى معظمه • وفى المخاطبات الرسمية كان هؤلاء القوم يستعملون لها الخط المسمارى البابلى ، ولذلك يرجح أنهم استخدموا عندهم كتبة ومترجمين ماهرين فى خط ولغة بابل • وقد عثر على كثير من آثار خيتا على شكل ألواح منقوشة بالخط المسمارى جهة بوغاز كوى (Boghaz-Koi) وسـيأتى الكلام عليها • واشتهر الحيثيون ببسالتهم وعنادهم فى الحرب ، وكانت مشاتهم تحوى الكثير من الأجانب المأجورين وكانوا مسلحين بالقوس والنشاب والسيف والرمح وفى أغلب الأحيان بالبلط أيضا • وقد أتقن هؤلاء القوم تنظيم وحدات جيوشهم،فتمكنوا من اجادة القتال وقت التحامهم بأعدائهم، لكن أهم فرقهم كانت فرقة العجلات والسبب فى ذلك أنهم أتقنوا صنع العجلات حتى فاقوا المصريين من حيث المتانة • زد على ذلك أن لكل عجلة ثلاثة رجال : سائق ومحارب بالقوس ومدافع بالدرع ، أما عجلة الحرب المصرية فكانت تحوى سائقا ومحاربا فقط • دلتنا آثار تحوتمس الثالث أن مملكة الحيثيين كانت مقسمة سابقا الى عدة امارات وأن احدى هذه الامارات قويت على سواها فلقبها تحوتمس « بالمملكة الحيثية الكبرى »

وكانت عاصمتها مدينة خاتى (Khatti) التى كشفت حوالى عام ١٩٠٧ تحت أبنية مدينة بوغاز كوى الحديثة الواقعة شرقى أنقره وشرقى نهـر هاليس المعروف باسم كسل ارماك بآسيا الصغرى الشرقية ٠ وقد عثر على آثار أثبتت وجود علاقات تجـارية بين الامبراطورية المصرية ومملكة الحيثيين حوالى ذلك الوقت أو بعده بقليل (٢) ولما عظمت هذه العلاقة بين المملكتين خاف ملك قبرص على مركزه التجارى أن يتضعضع ٠ والمعروف أنه لمـا جلس اخنـاتون على عـرش مصر أرسـل سبلل (Seplel) ملك الحيثيين تهنئة له على منصبه السامى ، واستدل من لغة هذا الخطاب وأسـلوبه أن العـلاقة بين مملكة الحيثيين والامبراطورية المصرية كانت حسنة ٠ لذلك يرجح أن الغارات الأولى التى صدها دشراتا ملك متانى لم تحصل بعلم ملك الحيثيين ، خصوصا وأن هذا الأخير أرسـل هدايا عظيمة الى اخناتون بعد انتقاله الى مدينة آخت آتون بجهة تل العمارنة ٠

والظاهر أن اخناتون لم يهتم كثيرا بعلاقاته الودية مع هؤلاء القوم ، بدليل ما جاء بخطاب ملك الحيثيين لاخناتون يسأله فيه عن سبب قطع المخاطبات والمراسلات الودية التى كان أمنحتب الثالث يهتم بها كثيرا (٣) ولا غرابة فى ذلك فان اخناتون كان على يقين من أن مملكة الحيثيين عدوه اللدود وأقوى ند للامبراطورية المصرية فى حدود سوريا الشمالية ٠ ولا يحتمل أن اخناتون كان قادرا على مقاومة التيار الحيثى الشديد المتدفق ببـلاد سوريا من آسيا الصغرى ، وعلى كل حال فانه لم يقم بأقل مجهود فى هذه السبيل ٠ ومما زاد الطين بلة أنه لما ولى اخناتون الملك أخذ أهالى آسيا يشقون عصا الطاعة على ولاة مصر هناك بعد ما كان أمنحتب الثالث كابحا جماحهم ٠ واليك ترجمة خطاب أرسله أحد الولاة المصريين بتلك الجهات الى اخناتون متأخرا يظهر حقيقة الحال وخطورة المركز :

« حقيقة أن والدك لم يطف ولم يتفقد أراضى هؤلاء الأمراء ٠٠٠ فلما اعتليت عرش والدك وضـع أبناء الملك أبداشيرتا (Abdashirta) أيديهم على أرض جلالتك منضمين الى ملوك متانى وبابل وخيتا » ٠

بعد ذلك انضـم ولاة مصر العصـاة الى أبداشيرتا وابنه عزيرو (Aziru) حـاكم الأموريين (Amorite) بأعالى نهـر العاصى ٠ وفى الوقت نفسـه قام وال سورى يدعى اتاكاما (Itakama) فاستولى على قادش وأعلن استقلاله عن مصر ٠ فتبع ذلك استيلاء الحيثيين على اقليم

---

(٢) خطابات تل العمارنة ٣٥ ٠

(٣) خطابات تل العمارنة ٢٥ و ١٤ ملاحظة ٠

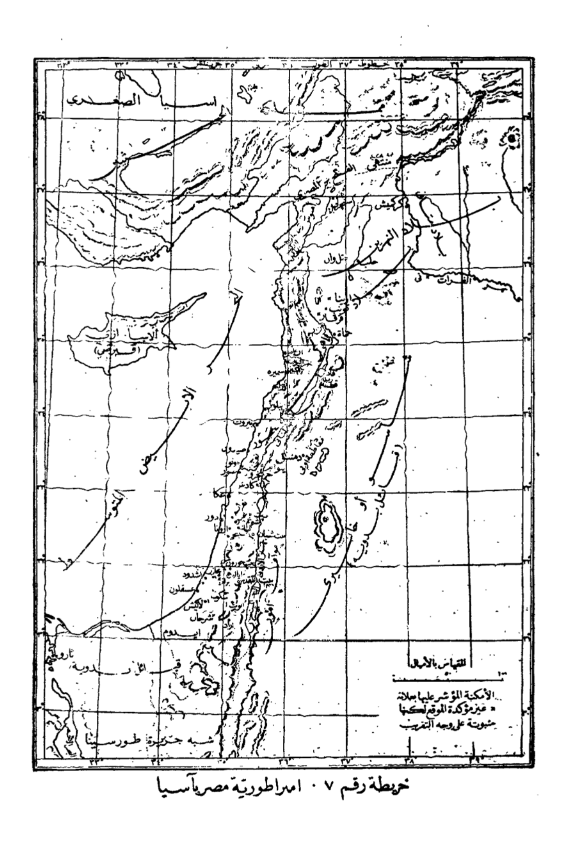
أمكى (Amki) القريب من شمالى أعالى نهر العاصى فيما بين أنطاكيا وبلاد الأمانوس (Amanos) . عند ذلك قام ثلاثة ولاة مخلصين لفرعون مصر وجمعوا قوة حربية ساروا بها نحو العصاة لاخضاعهم فقابلهم اتاكاما فى قوته الحيثية وهزمهم ، فأرسل هؤلاء الأمراء الثلاثة خبرا سريعا الى اخناتون شاكين له سوء تصرف اتاكاما . بعد ذلك قام والى آمور المدعو عزيرو فاستولى على بلاد فينيقيا وساحل س-ريا الشمالى حتى وصل الى مدينة أوجاريت (Ugarit) عند مصب نهر العاصى فقتل حكامها واستولى على خيراتها أما صميره (Simyra) ـ بطرون ؟ ـ وببلوس (جبيل) فقد قاوما عزيرو ولما استولى الحيثيون على ـ نوخاشى (حلب ؟) بأعالى نهر العاصى استولى عزيرو على مدينة نى على نهر الفرات وقتل حاكمها . عند ذلك أصبحت ثونب فى خطر الوقوع بأيدى الأعداء ولذلك أرسل سراتها خطابا مؤثرا الى اخناتون طلبوا فيه النجدة هذا ترجمته :

« الى ملك مصر سيدنا . من أهالى ثونب خدمك . علك تكون بصحة وعافية . نحن كلنا نسجد تحت قدميك . سيدى ! مدينة ثونب تتساءل الآن قائلة : لم يجرؤ أحد على سلب ثونب فى عهد تحوتمس الثالث دون أن يسلبه ذلك الملك . ألا فليعلم سيدنا ملك مصر أن معبودات مصر لاتزال بثونب ويمكن جلالتك أن تتأكد صدق ذلك من كبار قومك . لقد أوشكنا ننفصل من مملكة سيدنا ملك مصر ... اذا تأخر عنا وصـول الجنود والعجلات من مصر . ان عزيرو سيعاملنا كما عامل مدينة نى وحينئذ يعمنا الكدر كما يصيب جلالة ملك مصر الأسى لما يأتيه عزيرو . ان هذا الأخير سيرفع يده فى المستقبل ليقاتل قوات جلالة سيدنا . اذا دخل عزيرو بلدة صميرة (بطرون ؟) يفعل بنا ما يشاء ونحن فى بلاد جلالة الملك سيدنا . حينئذ يندم جلالة الملك على ذلك كثيرا . ان ثونب تبكى يا سيدى بكاء مرا ولا مغيث لها . لقد ثابرنا على ارسال المخاطبات لسيدنا ملك مصر مدة عشرين سنة فلم تصل الينا منه كلمة واحدة » . بعد ذلك حشد عزيرو جيوشه بسرعة واستولى على صميرة (بطرون ؟) فسلمت له ثونب على اثر ذلك نهائيا .

فى أثنـــاء هذه الثـــورة العظمى كتب رب أدى (Rib-Addi) والى ببلوس (جبيل) المخلص لفرعون مصر خطابا وصف فيه حالة البلاد الآسيوية المحزنة وما وصلت اليه من العصيان ، راجيا مساعدته السريعة ليتمكن من طرد عزيرو من صميرة لأنه كان متأكدا أن سقوط هذه المدينة يعنى حتما سقوط ببلوس . وقد ألمعنا سابقا الى وجود معبد مصرى بمدينة ببلوس . لكن اخناتون لم يرسل المساعدة فأخذت الحالة تسوء والولاة يتمادون فى عصيانهم على مصر ، فسلم زمريدا (Zimrida) والى صيدون

(صيدنة) بلده الى جنود عزيرو بعد ما تحالف معه على الاستيلاء على بلدة صور (Tyre) بشرط اقتســـام خيراتها • عند ذلك أرسل أبى ملكى (Abi-Milki) والى صور يسأل ملك مصر النجدة بسرعة • والغريب أن ولاة سوريا المصريين لم يسألوا من اخناتون الا قليلا من المدد ويظهر أن هذا كان كافيا لاخماد الثورة وقتئذ لولا وجود الحيثيين وتحريكهم للفتنة طى الخفاء ، لذلك عجزت الجنود اليسيرة التى ظن أنها كافية أولا عن مكافحة الخطر • بعد ذلك وردت الأخبار بأن عزيرو استولى على الحصون الخارجية لمدينة صميرة فأرسل رب أدى (Rib-Addi) خطــابا الى اخناتون ألح فيه بطلب ارسال المساعدة بسرعة وذكر أنه ذاق المر ، من غارات الآموريين خمس سنوات منذ عهد أمنحتب الثالث • فعهد اخناتون الى عدة رسل مصرية فى اجراء التحقيق فى حالة صميرة وكان ذلك بلا جدوى لأن المدينة سقطت فى آخر الأمر فى أيدى الأعداء ، وسرعان ما قتل عزيرو والى صميرة المصرى فى قصره وأتلف القصر أيضا ، ثم زحف بجنوده على ببلوس • فأرسل رب أدى الى اخناتون خطابا سرد فيه هذه الحوادث الفظيعــة معلنـــا اياه بأن مركز الوالى المصرى كوميـــدى (Kumidi) شمالى فلسطين أصبح فى خطر • أما عزيرو فكان رجلا ماكرا استعمل بعض رجال حاشية فرعون لأغراضه بآسيا كما يستنتج من خطابه الذى أرسله الى توتو (Tutu) أحد موظفى القصر الملكى ملتمسا فيه أن يستغفر له فرعون عن ذنبه ومتظاهرا فى الوقت نفسه بالطاعة للوالى المصرى المدعو خاى (Khei) المجاور له بآسيا • ولم يكتف عزيرو بذلك بل ذر الرماد فى عينى اخناتون اذ بعث اليه بخطـاب كله كذب ورياء ادعى فيه أنه لا يمكنه الحضور الى قصر فرعــون مصر لسرد الحقيقة عن نفســه على حسب الأمر الفرعونى لأن الحيثيين استولوا على مدينة نوخاشى (حلب) وأنه يخشى على ثونب أن تسقط فى يد الأعداء • وقد ألمعنا سابقا الى ما كانت تخشاه ثونب من حضور عزيرو الى حلب • ولما أرسل اخناتون الى عزيرو أمرا باصلاح كل ما حطمه بمدينة صميرة (بطرون ؟) رد هذا عليه قائلا انه أتلف هذه المدينة (صميرة) ليمنع وقوعها فى أيدى الحيثيين وأنه فى حالة ضيق شديد لحماية بلاد فرعون فى نوخاشى (حلب) ضد الحيثيين أيضا ومع ذلك فانه سيقوم بالترميمات المطلوبة فى خلال سنة •

بعد ذلك وردت على اخناتون رسائل مؤكدة بأن البلاد التى استولى عليها عزيرو ستدفع الجزية نفسها التى كانت تدفعها لمصر من قبل • مثل هذه المراسلات الرسمية التى تعترف بسيادة فرعون على سوريا وفلسطين طمأنت طبعا خاطر اخناتون قليلا على خطورة الحالة مع أن الحقيقة على نقيض هذا بالمرة ، وعليه أرسل اخناتون خطابا الى عزيرو سمح له بالانتظار سنة ليتم



خريطة رقم ٧ · امبراطورية مصر بآسيا

اصلاح صميرة على حسب طلبه ، لكن عزيرو تجنب مقابلة رسول اخناتون المدعو خانى (Khani) فاضطر الرسول الى أن يرجع خطاب فرعون ثانيا الى مصر دون تسليمه لعزيرو (٤)٠وهذه الحوادث تثبت لنا شدة تساهل اخناتون ومسالمته بعكس ما كان لأجداده من الصلابة والبطش ٠ بعد ذلك أرسل عزيرو الى اخناتون خطابا اعتذر فيه عن عدم امكانه مقابلة رسول قائلا انه كان مشغولا فى حملة ضد الحيثيين فى الشمال ، وأنه أسرع بكل قدرته لمقابلة الرسول حالما سمع بوصوله لكنه وجده يرجع ثانيا الى مصر ! وقد اعتذر كعادته أيضا عن عدم امكانه اصلاح صميرة فى المدة التى عينها الملك ٠

فى كل هذه المدة كان رب أدى والى ببلوس يعمل كل ما فى وسعه لمقاومة عزيرو ويرسل الى فرعون مصر الخطاب تلو الخطاب طالبا النجدة ضد عزيرو المذكور ٠ والحق يقال ان الرسائل التى كانت ترد على القصر الفرعونى من ولاة سوريا وفلسطين كانت غامضة المعنى كثيرا يتعسر على قارئها تمييز الولاة المخلصين لفرعون من العاصين عليه فى الخفـــاء ٠ خذ مثلا ما حصل من سوء التفاهم وقتئذ فقد أرسل بيخورو (Bikhuru) والى الجليل (Galilee) قوة بدوية قتلت كل رجال رب أدى ظنا منه أن هذا الأخير كان عاصيا على فرعون فى حين أنه فى الحقيقة كان من أصدق ولاته وآمنهم على أرض مصر ٠ لذلك أصبح رب أدى فى حالة يرثى لها يتهدده الضنك والذل ، فارسل الى اخناتون رسالتين وصف فيهما حالته المحزنة وطلب المساعدة قائلا ان أهالى ببلوس ثاروا عليه لأن مندوب الملك هناك تصرف تصرفا معيبا فى اخماد الثورة وأنه (رب أدى) قاوم حصار بلده ثلاث سنوات وقد أصبح الآن مسنا ومثقل الكاهل بالمرض ٠ وبعد ذلك فر رب أدى الى بيروت ليحضر من واليها النجدة فلما رجع الى ببلوس وجدها مغلقة ووجد أخاه اغتنم فرصة غيابه فاغتصب مركزه وسلم عياله الى عزيرو ٠ ثم سقطت بيروت فى يد الأعداء وتمكن رب أدى على اثر ذلك من الرجوع ثانياً الى ببلوس والاستيلاء على منصة الحكم فيها ٠ واتضح لنا بعد ذلك أن عزيرو ذهب الى مصر واضطر الى أن يذهب أمام اخناتون ، لكنه مع ذلك لم ترد على رب أدى أقل مساعدة من مصر٠فى ذلك الوقت كانت بلاد الساحل الاسيوى كلها فى أيدى الأعداء وكانت سفنهم مسيطرة على البحار مانعة عنه الغذاء والمدد الحربى الآتيين من مصر ٠ وقد ألح على رب

---

(٤) خطابات تل العمارنة ١٨١ ٠

ادى زوجته وأعضاء أسرته أن يفصم عرى اتصاله مع مصر وينضم الى عزيرو ولكنه استمر مواليا لفرعون وأرسل اليه خطابا طالبا ثلثمائة جندى ليسترد بيروت وليستدر بها الرزق يسيرا خصوصا وأن الحيثيين ينهبون اقليمه وبدو عزيرو يحشدون تحت أسوار مدينته (جبيل) • بعد ذلك لوحظ أن الرسائل التى كان يرسلها رب أدى الى اخناتون امتنع ورودها فاستنتج من ذلك طبعا أن ببلوس سقطت فى أيدى الأعداء وأن رب أدى قتل على الأرجح كما قتل غيره من ولاة مصر هناك ، وقد انتهى بموته آخر وال مصرى فى شمالى مستعمرات مصر الأسيوية •

واستقل كذلك جنوبى مستعمرات مصر الآسيوية بسبب اشتعال نيران الاضطراب والثورة كالتى التهمت سوريا • وتفصيل ذلك أن بدو الخابيرى (Khabiri) ـ وهم آراميون ساميون ـ قادوا الثورة كما فعل الحيثيون شمالا ، ولذلك لوحظ متطوعون منهم ضمن جنود ولاة فلسطين • وقد ألمعنا سابقا الى أن عزيرو أرسل بعض هؤلاء البدو ضـــد رب أدى ليقاتلوه بجهة ببلوس ، لكن ذلك لم يمكن الولاة الموالين لفرعون من أن يستخدموا البدو أنفسهم لأغراضهم أيضا • وجاء فى خطاب أرسله الوالى الخـــائن اتاكاما (Itakama) الى فرعون اتهـــام شـنيع لولاة فرعون بفلسطين بأنهم سلموا قادش ودمشق الى بدو الخـــابيرى وبهذه الطريقة بسط هؤلاء البدو نفوذهم على فلسطين ، وأرسلت مجدو وعسقلان وجازر رسائل الى فرعون مستنجدة ضد هؤلاء الثوار • ثم اتحدت جازر وعسقلان ضد عبدخيبا (Abékhiba) الوالى المصرى ببيت المقدس الحصن المنيع فأرسل هذا الوالى الرسائل الكثيرة السريعة الى اخناتون مبينـــا الخطر راجيا المساعدة على صد بدو الخابيرى ورؤسائهم • وبلغت الثورة وسوء النظـام وقتئذ درجـة سرقت فيها قوافل الملك علنـا تحت جـدر عجلون (Ajalon) واليك ترجمة خطاب والى بيت المقدس الى اخناتون :

« ستضيع جميع أرض جلالتك التى ثارت على • أما اقليم شـيرى (Seir) الواصـل الى جنتى ـ الكرمل • (Ginti-Kirmil) فقد شق عصا الطاعة على وكذلك أمراؤه • لقد كانت سفن جلالتك الساعد القوى فى بسط سلطتك على بلاد النهرين وقادش ، أما الآن فقد احتل بدو الخابيرى بلاد فرعون • ولم يبق لسيدى وال مطيع فالكل عصاة ••• ليحترس الملك على قطائعه وبلاده ••• وليرسـل المدد ••• لأنه اذا لم تصـل جنود هذه السنة ذهبت ممتلكات جلالة فرعون سدى ••• واذا تعسر ارسال جنود هذه السنة فليرسل جلالة فرعون ضابطا يلازمنى للحضور أنا واخوتى كى نموت مع سيدنا » (٥) •

(٥) خطابات تل العمارنة ٩٤ •

ويظهر أن عبدخيبا كان صـــديقا لكاتب اخناتون الخبير بالخط المسمارى لأنه ذكر فى آخر خطابه حاشية هذا ترجمتها :

« الى كاتب سيدى الملك . أنا عبدخيبا خادمك . أطلع جلالة سيدى فرعون على هذه الكلمات : ان جميع أراضى سـيدى فرعون سائرة نحـو الضياع » . وأخذ الفلسطينيون يهاجرون رعبا من فظائع بدو الخابيرى فتركوا بلادهم واعتصموا بالجبال . والتجأ بعضهم الى مصر حيث وصفهم الضابط المصرى المنوط بهم بقوله :

« لقد أتلفت أمتعتهم وحطمت مدنهم وأحرقت حاصلاتهم ... وضرب الجوع أطنابه فى بلادهم وهم فوق الجبال كالأغنام ....ها قد جاء بعض الآسيويين الذين لا يدرون كيف يعيشون . لقد أتوا طالبين مأوى عند فرعون ؟ كما حصل أيام آباء آبائك من قديم الزمان ... ها قد عهد اليك فرعون فى حمايتهم لتحمى حدود بلادهم » .

ولقـد كانت مشكلة هؤلاء الضباط الذين عهـد اليهم اخناتون فى حلها مستحيلة ، لأن الضابط بيخورو (Bikhuru) الذى أوفد لارجاع النظام واخضاع بدو الخابيرى عجز عن القيام بمهمته . وقد ألمعنا سابقا الى أنه أساء فهم حقائق الأمور هنا فأرسـل قوة لمحاربة رب عدى أخلص ولاة فرعون . وقد تقدم بيخورو أولا شمالا حتى وصل الى مدينة كوميدى (Kumidi) شمالى الجليل (Galilee) ثم اضطر الى أن يتقهقر ثانيا كما ظن (رب عدى) . ثم بلغ هذا الضابط بيت المقدس الا أنه اضطر بعد ذلك الى أن يتقهقر الى غزة والغالب أنه أعدم فى آخر الأمر . وبهذه الكيفية خرجت معظم سوريا وفلسطين من أيدى المصريين ، وقد يئس ولاة مصر فى جنوبى فلسطين من علاج الحالة والاحتفاظ بنفوذ فرعون فقتل بعضهم وانضم الباقون الى الأعداء . ثم زادت الاضطرابات فاعتـدى على قوافل ملك بابل المدعـو برابورياش (Burraburyash) نهبها ملك عكا (Akko) وأحـد جيرانه . فكتب برابورياش مسرعا الى اخنـاتون راجيا تعويض ما لحق قافلته من الخسارة ومعاقبة الجنـاة ليستتب الأمن ، والا تصبح تجارته مع مصر معرضة دائما لمثل هذه الأخطـار (٦) . وقد حصل ذلك بالفعل ، لأن المستعمرات المصرية بآسيا ضاعت عن آخرها فى تلك الأزمة .

لقد قام ولاة اخنـاتون المخلصون بســوريا وفلسطين بما يقتضيه واجبهم بانذاره بالخطر المحدق بمستعمراته الآسيوية ، فأرســلوا له

---

(٦) خطابات تل العمارنة ١١ .

الخطابات الكثيرة والرسل المخصوصة والأبناء والاخوة ، ليظهروا له حقيقة الخطر الداهم ، لكن اخناتون لم يظهر ما يجب من الاهتمام حتى انه كان يحجم عن الرد عليهم أو يرسل مددا ضعيفا بقيادة ضابط مصرى ، وأخيرا عجزوا عن مكافحة الخطر الحربى ذلك الخطر الذى كان يستدعى ذهاب اخناتون شخصيا مصحوبا بكل قوى الامبراطورية المصرية • والغريب أنه فى ذلك الوقت العصيب كانت معابد آخت آتون تدوى بالدعوات والصلوات لآتون اله الامبراطورية • وجاء أنه فى السنة الثانية عشرة من حكم اخناتون أقيم احتفال فخم كالمعتاد ، تسلم جلالة الملك فيه جزية مستعمراته فى آخت آتون وهو محمول فى هودجه فوق أكتاف ثمانية عشر جنديا • وليلاحظ أن أمراء آسيا كانوا دائما يفكرون ويذكرون الغزوات والحملات المصرية السابقة التى قام بها أجداد اخناتون حتى بعد انفصالهم عن مصر • لذلك كتب هؤلاء الأمراء الرسائل اليسيرة الى اخناتون مؤكدين له ولاءهم وخضوعهم اسميا فتخيل جلالته أن مستعمراته الآسيوية لم تزل كما كانت عليه ، والحقيقة أن ذلك كله لم يكن الا من طريق ذر الرماد فى العيون • بعد ذلك أخذ الخطر يهدد قصر اخناتون نفسه بدرجة لا تقل فى الشدة عن الزوبعة التى عصفت بمستعمراته الآسيوية ، لكنه ثبت لها وقاومها واستمر ينشر عقيدته الجديدة بكل جهده ، فأكثر من معابد آتون بسائر أنحاء البلاد فشيد علاوة على المعبد العظيم بطيبه ثلاثة معابد أخرى على الأقل فى مدينتى آخت آتون وجم آتون ببلاد النوبة ومعابد أخرى بمدينة عين شمس ومنف والأشمونين وأرمنت والفيوم(٧) • واهتم كثيرا بتحسين الصلوات بالمعابد وابداع التوسلات القديمة لأجل معبوده آتون ، فغير فى صفات معبوده الذى وصفه أولا « بحرارة الشمس » قائلا عنه انه « النار المنبعثة من آتون » فنجم عن ذلك أن قمين النار الذى أحدثته هذه التغيرات الدينية العظيمة استمر يتأجج خفية فى البلاد • وتفصيل ذلك أن عقيدة آتون غيرت كثيرا من عقائد القوم القديمة المحبوبة لديهم وعلى الأخص الجزء المختص منها بالحياة الأخروية،فبعد أن كان الناس يعتقدون بدفاع أزوريس رأفة بهم فى الآخرة ويستعملون لذلك الوسائل السحرية للوقاية من الأعداء العديدين وقتئذ أصبح اتباع هذا الاعتقاد محظورا • ثم اجتهد بعضهم فى وضع آتون فى مركز الآلهة المصرية القديمة لكنهم لم يفلحوا لأن عقيدة اخناتون فلسفية منطقية عارية عن الخرافات والخزعبلات التى اعتادها القوم ، مثال ذلك نسبتهم معبوداتهم الى بعض النبات أو عين ماء الخ • لهذا كله تعسر على القوم ادراك أسرار عقيدة اخناتون السامية ،

(٧) ملاحظاتى بمجلة Zeitschrift für Aegyptische Sprache, 40, 110-113.

وغاية ما وصلوا اليه أن هذا الملك أبطل عبادة معبوداتهم القديمة واستبدل بها معبودا جديدا صعب عليهم تصوره أو معرفته ، وبدهى أن مثل هذا التغير الدينى لايدوم طويلا فى بلاد كمصر • وقد حصل مثل ذلك أيام ثيودوسيس (Theodosius) لما حاول ابطال عبادة الأصنام بمصر واستبدل بها النصرانية بعد وفاة اخناتون بألف وثمانمائة سنة تقريبا ، ولما غاب ثيودوسيس عكف المصريون ثانيا على عبادة أصـــنامهم عدة قرون وعلى الأخص أهالى الوجه القبلى • ويتضح من ذلك أن حيـــاة شخص واحـد لا تكفى لمناواة عقيدة متأصلة فى النفوس واحلال غيرها مكانهـــا ، وعليه فقد كانت عقيـدة اخناتون قليلة الانتشـار بأنحاء الامبراطورية المصرية ومقصورة على اخناتون نفسه وحزبه ، فجاء هذا على نقيض ما صبت اليه نفس هذا الملك وطمع هو فيه •

ومما زاد فى خطورة الجفاء السرى فى نفوس الأهالى نحـو مذهب اخناتون بغض كهنة آمون الشديد له أيضا ، وهذا كما لا يخفى عامل قوى لايستهان به لا سيما أن هؤلاء الكهنة أصبحوا يرون معابدهم الثمانيـــة بطيبه مهجورة ومقفلة وأوقاف معبودهم بسوريا وفلسطين فى يد الحكومة ومسندة الى آتون غالبا • لذلك كانت مدة حكم اخناتون غاصة بمشاحنات ومؤامرات سرية وجهرية من مكايد الكهنة لخلع هذا الملك • ثم ان خسارة مستعمرات مصر الأسيوية قوت حزب الكهنة ضد الملك وسببت انفصال الرجال الأقوياء عن اخناتون والانضمام الى كهنة آمون • ثم زاد البغض فى نفوس الأهالى الذين خـدم أجـدادهم فى البلاد الآسيوية تحت لواء تحوتمس الثالث ، خصوصا وأن ذكرى انتصارات وغنائم تحوتمس المذكور كانت كافية لاثارة حزازات الحزب الحربى الامبراطورى ضد اخناتون وتحريضـهم على عزل هـذا الملك واسناد الملك الى كفء لممارسة الحالة واسترداد ما فقدته البلاد • نعم ان اخناتون عين قوادا حربيين لقيادة جيشه ومكافحة الحالة كما ألمعنا سابقا ، لكن عقيدة هذا الملك السلمية كانت عقبة كئودا أمام الأخصاء لصعوبة فهمها وأمام العامة لكراهيتهم لها • وقد وجـد بين ضـــباط اخناتون قائد يدعى حور محب (Harmhab) كان محبوبا لدى مليكه فاجتهد هذا القائد فى ضم الحزب الحربى اليـــه وكذا كهنة آمون الذين كانوا يتوقون الى وجود من ينقذهم من اخناتون • ومما ساعد على ذلك أيضا أن جميع الأهالى تألموا مما لحق عاداتهم وعقائدهم الدينية القديمة من الاهانة فى عهد هذا الملك ولذا اشترك الأهالى والكهنة والحزب الحربى فى عزل اخناتون الفيلسوف المكروه صاحب الآراء والعقيدة غير المفهومة لمعظم الناس • ومما زاد الطين بله أن اخناتون لم يرزق ولدا فعاضد صهره المدعو ســمنخ كارع زوج ابنته المدعـوة مريت آتـــون

(Meritaton) ومعناه محبوبة آتون ٠ والظاهر أن اخناتون لم يكن قوى البنية كما يستدل من نحافة وجهه وأعراض الاستسقاء البطنى – مرضان أصيب بهما لما قاساه من مسئوليات ومصاعب ٠ وانتهى الأمر بجلوس سمنخ كارع على عرش مصر واشتراكه هو وحموه في الملك لكن اخناتون لم يدم طويلا فى عام ١٣٥٨ قبل الميلاد أى بعد ما حكم البلاد سبع عشرة سنة تقريبا قام عليه الأهالى وعزلوه ٠ ودفن هذا الملك فى قبره الذى أعده لنفسه وأفراد أسرته في الوادى المنعزل الذى يبعد عن آخت آتون ببضعة أيام ٠ وقد دفنت فى هذا القبر أيضا كريمة اخناتون المدعوة مكت آتون (Meketaton) قبله بمدة (٨) ٠ ونقل أصدقاء هذا الملك تابوته الى طيبة بعد وفاته ، حيث عثر عليه حديثا بمقبرة الملكة تى والدته ٠ وقد فحص الأستاذ اليوت سميث هيكل اخناتون العظمى (لأن التابوت المذكور لم يحو الا عظاما فقط) وقرر أن صاحبه توفي وهو في سن ثلاثين سنة ٠ لكن المعروف أنه حكم ست عشرة سنة على الأقل ! أما الأستاذ سيته (زيته) فلا يوافق الأستاذ اليوت سميث فى هذا الرأى ٠ ويوجد تابوت هذا الملك العبقرى فى متحف القاهرة وعليه نقوش تصف اخناتون بأنه « الطفل الجميل لآتون الحى العائش الى الأزل والمتصف بالحق والعدالة فى السماء وفى الأرض » (مأخوذة عن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبردج صحيفة ١٢٧) ٠

وهكذا انتهى أمر شخص له فى تاريخ الشرق القديم استعداد غريب وقد لقبه بنو قومه بعد ذلك « بمجرم آخت آتون » ٠ أما نحن فمع لومنا له على تعصبه الدينى الشديد فى نشر عقيدته ومحو اسم والده من الآثار وما نجم عن ذلك من ضياع مستعمرات مملكته ، ما نزال نذكره بأنه كان فتى شجاعا قابل صعوبات العقائد القديمة بعزيمة صادقة فامتاز بذلك عن سائر الفراعنة الرجعيين ، كل ذلك رغبة منه فى نشر تعاليمه العالية التى نبت عن ادراكها عقول الأهالى ٠ ولم يظهر فى العالم من ماثله بعده الا لما انقضى على وفاته نحو ثمانمائة سنة وذلك بين بنى اسرائيل ٠ لكن هذا لا يمنع عصرنا هذا من تقدير قيمة اخناتون حق قدرها لعبقريته وجرأته فى نشر آرائه الفلسفية الباهرة فى عصر سحيق وفى أحوال سيئة لقى من أجلها الخسارتين خسارة جسمه وخسارة ملكه ٠

أما سقننرع فلم يكن كفئا لادارة شؤون الدولة ولذلك لم يدم على العرش طويلا ٠ وكل ما عرف عن حكمه أنه عاش مدة يسيرة غامضة فى مدينة آخت آتون ثم تبعه فى الحكم توت عنخ آتون – ومعناه الصورة الحية

---

(٨) نصوص Més

لآتون – وهو صهر ثان لاخناتون تزوج بكريمتـه الثانية المدعوة عنخس ان باآتون (Enkhosnepaaton) ومعناه العائشة بقوة آتون . وفى عهد هذا الملك قوى نفوذ كهنة آمون كثيرا حتى اضطر الى أن يهجر آخت آتون عاصمة حميه بعد مدة من الزمن وأن ينضم الى الكهنة وينتقل بحاشيته الى طيبة التى استمرت مهجورة من عطف الفراعنة عشرين سنة تقريبا. أما آخت آتون فاستمرت مدة يسيرة بعد ذلك ثم هجرت هى وقصرها الملكى حتى لم يبق فى شوارعها شخص واحد ، فتصدعت أسقف منازلها وتهدمت جدر عماراتها ، ثم أتى حزب طيبة فهدم هياكلها انتقاما وتشفيا كما سيتضح للقارىء فيما بعد . وهكذا أضحت مدينـــة آتون الجميلة قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، وهى تعرف الآن بتل العمارنة وما تزال باقية كما تركها عدواها الألدان ـ الزمن وكهنة آمون ، وأصبح الانسان الآن يجول فى شوارعها القديمة فيرى بعض جدرها بالغا بضع الأقدام فتدور فى مخيلته غدوات وروحات أتباع آتون الأقدمين الذين عمروها من قبل . وقد عثر عام ١٨٨٥ ميلادية فى هذه المدينة المهجورة على ثلثمائة خطاب ذكرنا بعضها عنـد الكلام على مراســلات ملوك وحكام آسيا وانهيـار مستعمرات مصر الأسيوية ، ويوجد بين هذه المراسلات نحو ستين خطابا مرسلة من الوالى التعس رب عدى حاكم بيلوس ، وتعرف هذه المراسلات الآن بخطابات تل العمارنة . والمعروف أن مدن آتون لم تدم طويلا بعد ذلك فقد لحقها التلف والدمار ما عدا مدينة جم آتون النوبيـــة فقد استعمل معبدها فيما بعد لعبادة آمون فصار معروفا بعد ذلك باسم « معبد آمون سيد جم آتون » وهكذا حافظ اقصى مدن النوبة على أقدم معبد أقيم للتوحيد معروف للآن .

ولما رجع توت عنخ آمون الى طيبة استمر يعبد آتون وقام ببعض الاصــلاح بمعبد آتون هناك ، لكنه اضطر فى آخر الأمر أن يسمح لكهنة آمون بإعادة عبادة آمون واستعمال المواقيت القديمة بالأقصر والكرنك ، فافتتح بنفسه أكبر أعياد آمون المعروف ، بعيد « أوبت » (Opet) ورمم معابده أيضا (٩) . وأجبرته الظروف بعـــد ذلك أن يصلح ما أتلفـــه اخناتون من محو اسم آمون من الآثار على طول البلاد حتى مدينة صلب (Soleb) النوبية . ولم تقف الأمور عند هـذا الحد بل اضطر الى أن يغير اسمه الى توت عنخ آمون (Tutenkhamon) أى الصـــورة الحيـة لآمون ـ تحت تأثير الكهنة طبعــا ـ فجاء هذا برهانا ساطعا على انقياده لحزب كهنة آمون .

---

(٩) راجع نقوش الاقصر البارزة وايضا شرحه ٣٤ و ١٣٥ .

والمعروف أن الامبراطورية التي حكمها توت عنخ آمون كانت لاتزال كبيرة تمتد من الدلتا شمالا الى الشلال الرابع جنوبا • وقد كانت مستعمرة النوبة مصرية الصبغة وقتئذ فصار رؤساؤها يتزيون بالزى المصرى الذى أدخلوه هناك تحوتمس الثالث • أما الثورة المصرية فلم تؤثر كثيرا فى النوبة لأنها استمرت تدفع الخراج سنويا لخزانة فرعون • وجاء ضمن نصوص مقبرة حوى (Huy) والى كوش وقتئذ ما يثبت ورود جزية الى مصر من بلاد سوريا وربما كان هذا مبالغا فيه بالنسبة لما ورد فى خطابات تل العمارنة • والمعروف أن أحد خلفاء اخناتون حارب فى معركة حربية بآسيا ويظن أن هذا الخليفة هو توت عنخ آمون وعليه فيكون هذا الملك قد تمكن من اخضاع بعض بلاد فلسطين أو غنم بعض الغنائم منها على الأقل، ولا يبعد أن تكون هذه البلاد التى استرجعت اعتبرت جزءا من سوريا من باب المبالغة كما أن الغنائم التى استولى عليها توت عنخ آمون احتسبت جزية •

ولم يعش توت عنخ آمون طويلا فتبعه فى ذلك الكاهن آى (Eye) القدير زوج مربية اخناتون المدعوة تى (Tiy) ويقدر حكم توت عنخ آمون بست سنوات على الأقل ولا يحتمل أنه حكم أكثر من ذلك • وفى أكتوبر عام ١٩٢٢ كشف قبر هذا الملك حاويا لأثاثه الكامل تقريبا وبذلك جاء الاكتشاف الأول من نوعه فى علم الآثار • وبفحص محتويات القبر اتضح أنها ذات قيمة عظيمة لا تقدر وأنها تمثل ذلك التقدم الاخناتونى العظيم فى أمور المعيشة والديانة والفنون الجميلة • أما من الوجهة التاريخية فلم نجد بين تلك المحتويات ما يشير بطريق مباشر الى أحوال البلاد السياسية فى تلك العصور المضطربة ، لكن لوحظ أن اللصوص دخلوا القبر بعد دفن صاحبه فيه بقليل وعليه فلابد أن الأحوال وقتئذ كانت قليلة النظام وأن سياسة القطر الداخلية كانت مضطربة على الأقل • والفضل فى كشف هـذا القبر يرجع الى المرحـوم الايرل كارنارفون والمستر هوارد كارتر • وتعتبر محتويات هذا القبر أهم ما كشف الى الآن فى عالم العاديات •

وعثر حديثا جهة برغاز كوى ــ عاصمة الحيثيين بآسيا الصغرى ــ على عدة خطابات طينية منقوشة بالخط المسمارى تشـــير الى الأحــوال السياسية المصرية بعد وفاة توت عنخ آمون وقد أخذ الأســـتاذ زايس (Prof. Sayce) فى ترجمتهـــا (Ancient Egypt, 1922, Part III, pp. 66-7) فوجد فى أحـــدها وصفا لأحـــد الرسل المصريين جاء ليبلغ أن مليكه قد توفى حديثا وأن هذا الملك كان يدعى بب خورو ياس ، وأن ملكة مصر المدعوة دخامون أرسلته الى القصر الحيثى طالبة الاقتران به •

ويرى الأستاذ زايس أن بب خوروياس هو توت عنخ آمون المدعو أيضا نب خبرو رع ، وأن دخامون هي زوجة هذا الملك المدعوة أيضا عنخس آمون، لكن لم تثبت للآن صحة هذه المقارنة نظرا لقلة معرفتنا للخط واللغــة الحيثية ، ولذلك يحسن بنا أن نأخذ هذه الاستنتاجات بتحفظ (مأخوذ من دائرة معارف التاريخ القــديم لجامعة كمبردج صحيفة ١٢٩ ــ ١٣٠ القسم المصرى للأستاذ برستد ، أوردتها هنا باذن خاص من المؤلف) ٠ وقد شيد هذا الكاهن لنفسه قبرا فى آخت آتون أخذنا منــه مذحــة آتون المذكورة سابقا ٠ وقد كان هذا الملك متشبعا كثيرا بآراء اخناتون فشيد بعض المبانى بمعبد آتون بطيبة وبقى حافظا مركزه ضد كهنة آمون مدة من الزمن ثم ترك قبره فى آخت آتون وحفر غيره بوادى مقابر الملوك بطيبة ، الا أنه لم يعش طويلا فتوفى ٠ والظاهر أنه اتبع فى الملك بملكين قصيرى العمر لم يتركا من الآثار ما يستحق الذكر ، ويقال انهما حكما قبله بزمن والحقيقة أننا ما نزال نجهل تاريخهما بالضبط ٠

بعد ذلك قامت فى البلاد حرب أهلية فوقعت طيبة فى أيدى اللصوص الذين نهبوا القبور الملكية ٠ وقد عرفنا الآن أن مقبرة تحوتمس الرابع وقعت فريســة لهؤلاء الأثمة وقتئذ ٠ وهكذا انهار صرح الأسرة الطيبية المالكة التى امتازت فى العالم بعظمتها ووقارها مدة مائتين وخمسين سنة تقريبا ، فاليها ينسب حسن السياسة وادارة الأمور وطرد الهكسوس منذ مائتين وثلاثين سنة ثم انشاء أكبر امبراطورية شرقية قديمة معروفة فى التاريخ ٠ وكان آخر تاريخ لحكم هــذه الأسرة الثامنة عشرة حوالى عام ١٣٥٠ قبل الميلاد ٠٠ والظاهر أن عظم صيت هذه الأسرة لم يساعد ملوكها الضعاف على الاستمرار فى الحكم ولذلك انتقل الحكم منها الى أسرة أخرى ٠ قال مانيتو ان حور محب هو الذى أصلح أحوال المملكة المصرية فى أواخــر عهد الأسرة الثامنة عشرة ٠ ويظهــر أن هذا الملك لم يكن ذا علاقة دموية بالأسرة الثامنة عشرة ، لذلك يحق لنا أن نعتبره مرجــع عبادة آمون ونظام الحكم القديم ومبدىء العهد الجديد الذى سنتكلم عليه فى الفصل التالى ٠

الكتاب السادس

الإمبراطورية في عهدها الثاني

الفصل العشرون

انتصار آمون وتنظيم الامبراطورية

ظهر بين أتباع اخناتون رجل كفء ماهر ادارى كثير الشبه بتحوتمس الثالث يدعى حورمحب (Harmhab) وينتمى الى أسرة عريقة من مدينة البسترونوبوليس (Alabastronopolis) الحيبا وقد ألمنا الى هذا فى آخر الفصل السابق · وقد عهد لهذا الشخص بكثير من المأموريات المهمة فأنجزها بمهارة فائقة وكوفىء عليها بالعطايا الذهبية لخدمه الممتازة (لوحة ١١٣) · فمن أعماله أنه ندب للعناية بمهاجرى آسيا الذين هربوا الى مصر من فظائع بدو الخابيرى فأرسل رسلا الى تلك الجهات لارجاع الأمن الى نصابه · ثم عهد اليه فى جمع الجزية من النوبة فى عهد اخناتون وخلفائه فأظهر كعادته فى كل مأمورياته همة ومقدرة عظيمتين · وقد أظهر حورمحب أيضا مهارة لما صحب أحد خلفاء اخناتون ويرجح أنه توت عنخ آمون وقت حملته الحربية بآسيا · وحافظ على مركزه وشرفه فى عهد خلفاء اخناتون الضعفاء وكان وقتئذ قائد الجيش العام ورئيس المستشارين الملكيين ، فلقب نفسه « كبير الكبراء ، وعظيم العظماء ، ورئيس الأهالى الأكبر ، ورسول الملك ، ورئيس جيشه فى الأقطار الجنوبية والشمالية ، ومصطفى الملك والمشرف على ادارة القطرين ليسيرها فى حدود النظام ، وقائد قواد سيد القطرين » · ولم يعهد أن انسانا نحل مثل هذه الألقاب فى أى عصر كان · ولم نتأكد بالضبط شخص الملك الذى خدمه حورمحب بهذه الألقاب السامية والثابت أن نفوذ حورمحب جعله مسيطرا على مليكه وقتئذ ، وكان فى الحقيقة حاكم البلاد ، لأنه « عين بأمر ملكى ليكون رئيس المملكة ووزير العدالة للقطرين كأنه ولى عهد مصر لذلك كان مركزه لاينازعه فيه أحد ··· اذا دخل القصر الملكى سجد له الحجاب عند المدخل الملكى ، كما كان يستقبله رؤساء المستعمرات الأجنبية (الأقواس التسعة) والبلاد الجنوبية والشـمالية · وكانوا يرفعون اليه أيديهم ويعظمونه ويبجلونه

كاله .... وأمور الامبراطورية تجرى بأمره .... اذا مر بقوم داخل الرعب نفوسهم فيدعون له بالصحة والعافية ويلقبونه بوالد القطرين » .
واستمرت الحال كذلك عدة سنوات حتى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد لما ولى هذا القائد العظيم الملك ، وبدهى أنه لم يكن ينقصه ساعتئذ لذلك سوى الألقاب والصفات الفرعونية ، وكان مركزه الادارى متينا فكان حائزا لثقة الجيش وكهنة آمون بطيبة . من أجل ذلك كان اعتلاؤه العرش بطيبة سهلا جدا واليك ترجمة ما ذكره حورمحب نفسه :

« وبعد مضى أيام عدة أى بعد ما عين ابن حورس الأكبر (أى حورمحب) رئيسا وولى عهد جميع الأراضى شاء حورس معبود الحيبه « البسترونوبوليس » العظيم أن يجعله على عرشه الأزلى ... فذهب حورس فرحا الى طيبة .... محتضنا ابنه الى الكرنك ... ليقدمه لآمون كى يسند اليه الملك » .

ووافق وصوله عندما احتفلت به كهنة طيبة عيد أوبت (Opet) الذى يحتفل فيه بنقل تمثال آمون من الكرنك الى الأقصر . حينئذ ظهر حورمحب فى الكرنك حيث أعاد له كهنة آمون حيلتهم التى دبروها لتحوتمس الثالث وقد كان كل شيء جائزا لتنفيذ هذا المشروع . لكنه لما كان واجبا على كل فرعون أن يكون ذا حق شرعى فى عرش مصر ذهب حورمحب إلى القصر الملكى وتزوج بالأميرة موتنزمت (Mutnezmet) أخت زوجة اخناتون نفرتتى وذلك بعد ما خرج من الكرنك وولى فرعونا وابنا لرع المعبود الشمسى . أما هذه الأميرة فكانت مسنة ورئيسة كاهنات آمون ومن أصل ملكى أيضا وكفى هذا كله لاثبات حق الملك لحورمحب وحصل هذا القران فكان فى القصر الملكى بالأقصر ولذلك نقل تمثال آمون الى القصر المذكور فاعتمد حورمحب ثانيا فرعونا لمصر . بعد ذلك أعلن للملأ لقب حورمحب الملكى وابتدأت حينئذ حياته الملكية .

ولا شك فى أن الهمة التى أوصلت حورمحب الى مركزه السامى كان لها أثر عظيم فى ادارة الامبراطورية، فقد بذل كل جهده لارجاع النظام الى نصابه وترتيب الادارة جيدا . وقد لبث بطيبة حوالى شهرين نظم فى أثنائها الادارة وطمأن نفوس الكهنة باشتراكه معهم فى احتفالاتهم الدينية . ثم أبحر فى سفينة نيلية شمالا ليقوم بالعمل نفسه .... منظما الأراضى ومحددا أياها كما كانت زمن رع (أى لما كان رع فرعونا على مصر) . واهتم كثيرا بالمعابد التى أقفلت فى عهد عبادة آتون فقد ورد عنه أنه طهر المعابد من مستنقعات الدلتا شمالا الى بلاد النوبة جنوبا وأصلح التماثيل وزاد فى عددها ومحاسنها .... وشيد معابدها وأقام مائة تمثال كاملة

ملبسة بالاحجار النفيسة · وحدد اراضى الآلهة المجاورة للمعابد ورتب لها المعابد كما فعل فى الأزمنة السابقة ونظم لها القرابين اليومية وعين لها كهنة ومساعدين وحامية من زهرة الجيش المصرى · ثم وهب لها الأراضى والأغنام وكل ما يلزم ، ونصب تمثالا لنفسه وزوجته بمعبد حورس بمدينه الحيبة نقش عليه وصف ارتقائه بوضوح من موظف صغير الى مرتبه الفراعنة · وهكذا أرجع لآمون كل أوقافه وايرادات معابده ، وقام أيضا باصلاح هده المعابد فعكف الناس على آلهتهم القديمة العديدة بعدما كانوا يعبدونها سرا وقت عبادة آتون · ثم أرسل حورمحب المعماريين والفنانين الى أنحاء البلاد ليتموا الاصلاحات التى بدأ بها توت عنخ آمون وليثبتوا على الآثار أسماء المعبودات التى أهانها ومحاها اخناتون ، وقد ورد ذكر هذه الاصلاحات كثيرا على جدر الكرنك ولابد أنها ساعدته كثيرا على نشر نفوذه فى أنحاء الأمبراطورية لأنها ضمت اليه طائفة الكهنة · أما عبادة آتون فلم تبطل لكنها وقفت أحيانا بسبب تلف معابده فى بعض الجهات ففى طيبة مثلا هدم حورمحب معبد آتون هدما تاما وشيد بأحجاره صرحين عظيمين موسعا بذلك معبد آمون نحو الجهة القبلية (لوحة ١١٤) · وقد استعمل خلفاؤه ما تبقى من أحجار معبد آتون فى اقامة أمثال هذه الأبنية ، وما يزال بين أحجار وصروح آمون المهدمة بالكرنك من النقوش ما يشير الى سبق استعماله فى بناء معبد آمون · ووردت على هذه الأحجار أسماء الملوك الذين عبدوا آتون والذين صاروا وقت حكم حورمحب محتقرين عند الرعية · ولم يكتف حورمحب بذلك بل أرسل بعثة الى اخت آتون لهدم معبد آتون هناك واحضار أحجاره لبناء عمارات أخرى · بعد ذلك عومل اسم اخناتون بالاضطهاد نفسه الذى عامل به أسماء المعبودات سابقا · فهدمت مقبرة هذا الملك بأخت آتون وخربت نقوش جدرها البارزة · وعوملت مقابر أتباعه العظام بالطريقة نفسها · وقصارى القول ان حورمحب صرف جهده فى محو آثار اخناتون · وبلغت كراهية هذا الملك حدا عظيما فاذا اقتضت المعاملات القضائية أحيانا مراجعة نصوص أو مواد من عهد اخناتون كان اخناتون ينعت بمجرم أخت آتون » (١) ·

ومع شدة حملة حورمحب على اسم وعقيدة اخناتون واصراره على اصلاح المعابد القديمة وارجاع النظام العتيق الى أصله لم يدخر جهدا فى ارضاء أعدائه بقدر الامكان · خذ مثلا أنه عين أحد أصحاب اخناتون الأقدمين المدعو باتون ام حب (Patonemhab) ــ على الأرجح ــ

---

(١) نقوش مس (Mès) .

رئيسة لكهنة عين شمس لكنه أشرك معه أحد أتباعه ليتمم اتلاف آثار اخناتون هناك ويعرقل مساعى باتون ام حب هناك . بهذه الطريقة كمل انتصار آمون على آتون ، فبعد ما كان اخناتون وأتباعه ينشدون الدعوات لآتون معددين محاسنه وأعماله أصبح حجاب حورمحب يتلون فضائل آمون بالكيفية نفسها . واليك ترجمة ما قاله الأخيرون فى آمون :

« ما أجمل عقيدة الشخص المؤمن بهبات آمون ملك المعبودات ، لا شك فى أن كل من يعرفه عاقل وأن كل من يخدمه سعيد الحظ لأن كل من يتبع هذا المعبود يحميه » .

هكذا فاه كاهن آمون المدعو نفرحوتب (Neferhotep) الذى غمره حورمحب بالعطايا الجزيلة لأجل ذلك . ولا يخفى أن أمثال هذا الكاهن هم الذين ساعدوا الملك على التنكيل باعداء آمون . واليك ترجمة انذار لهم :

« الويل لمن يعتدى عليك يا آمـــون . ان بلدك يحتمل كل شىء الا المعتدى عليك فانه يذله .... النقمة على كل من يسىء اليك فى أى مكان ... كل من يعرفك تبقى شمسه شارقة ، أما من يجهلك فشمسه آفلة . لقـد أصبحت معابد من اعتـدى عليك فى ظلام وعم النور أنحاء المعمـــورة » (٢) .

ولم تقتصر همة حورمحب على تنظيم طائفة الكهنة الذى كان نتيجة مباشرة لرد فعل ثورة اخناتون بل شمل أيضا أمورا أخرى مهمة صعبة المراس . وتفسير ذلك أن ادارة القطر أيام اخناتون وخلفائه كانت مهملة تحت اشراف حكام الأقســام ولذلك اعتراها الســوء وعظمت فيها عوامل الفساد التى تحصل فى مثل هذه الظروف . وقد كانت البلاد الشرقية أكثر الأقاليم وقوعا فى هذا الخلل الادارى . والسبب فى ذلك أن الموظفين أمنوا اشراف رؤسائهم الشديد عليهم باستعمال نفوذهم فى ابتزاز الأموال من الفقراء ظلما وعدوانا فانتشرت بذلك الرشوة وعمت الخيانة بأنواعها كل أنظمة الحكومة المتباينة . فلما تولى حورمحب الملك أراد علاج هذه العلل فدرسها أولا بدقة ثم دعا كاتبه الخاص بمكتبه وأملى عليه مواد قانونية للعمل بمقتضاها فى كل ما ظهر له من النقص . وقد وقعت هذه المواد فى تسعة أقسام تناولت منع اضطهاد الموظفين الماليين والاداريين للفقراء عقابا صارما للقسوة . من ذلك ما ورد أن صيرفا اضطهد فقيرا وجاوز بمعاملته حدود القانون فحكم عليه بجدع أنفه وبالنفى الى مدينة

---

(٢) Birch. Inscr. in the Hier.. XXVI. see Erman. Handbuch.

ثـــارو (Tharu) بجوار القنطرة وهي في بقعة منعزلة على حدود مصر الآسيوية . وليلاحظ أن هذا الاهمال في الواجب لم يكن قاصرا على ادارة القطر الداخلية بل شمل أيضا الجيش وضباطه وهو ما يحصل عادة فى الشرق حيث الاضطهاد والظلم ينزلان على الفقراء (٣) . خذ مثلا ما ورد من أن بعض رجال الشرط المعهود اليهم فى حفظ السلام والنظام فى جنوبى الامبراطورية المصرية وشماليها اغتصـــبوا جلود أغنام الملك من الرعاة الموكول اليهم أمر الاحتفاظ بها ، ولم يكتف هؤلاء اللصوص بذلك بل فتشوا بيوت الرعاة واحدا واحدا وأخذوا كل ما وجدوه من جلد دون أن يتركوا منها شيئا . لمثل هذه الأســـباب سن حورمحب قانونا سحب بمقتضاه مسئولية هذه الجلود من الرعاة وألقاها على الجنود ، واليك ترجمة هذا القانون :

« كل شرطى علم عنه أنه دخل المساكن لأجل سرقة الجلود يحكم عليه ابتـداء من هذا اليوم بمائة جلدة وبجرحه فى خمســة مواضع ثم تسترجع منه الجلود المسروقة » .

لكن الصعوبة لم تكن فى ذلك فقط بل فى ايجاد مفتشين صادقى الذمة طاهرى الأخلاق ليخطروا الرياسة بكل اثم أو جريمة يكشفونهما . وجاء عن هؤلاء المفتشين أنهم شاركوا فى السرقة رجال الشرط بدون مراعاة لسبب رحلتهم الطويلة التى قصد بها معرفة الجناة وأبطال الفساد . والمعروف أن هذا الفساد الاداري كان منهيا عنه تقريبا أيام تحوتمس الثالث الشديد الرقابة لكنه عاد ثانيا بعد وفاته . فلما أتى حورمحب اتبع طريقة تحوتمس الثالث فى ابطال ذلك الضرر ، فسن قانونا لمنع الاختلاس والتهريب وقت جمع الضرائب ، ثم طاف فى أنحـاء امبراطـوريته متفقدا كيفية تطبيق قانونه المذكور وباحثا عن الأشخاص الأكفاء الذين يمكن أن يأتمنهم على أمور الحكم والعدل والقضاء بين الرعية . ولا يخفى أن العدالة كادت تكون مفقودة فى البلاد منذ ثورة آتون . وقد وقع اختيار الملك على وزيرين أعجب بهما كثيرا وعهد اليهما فى مهمة القضاء ، فعين أحدهما بمدينة طيبة وأقام الثانى بعين شمس أو منف ، وقد وصفهما بقوله :

« ان هذين القاضيين صادقان كريما الأخلاق شريفا الذمة مطيعان لأوامر القصر الملكى وقانون المحكمة . لقد عينتهما قاضيين على وجهى مصر

---

(٣) ليس هذا الأمر قاصرا على الشرق لأنه شرق ، بل فى كل بقعـة لا تعـرف الديمقراطية ويتسلط الطغاة على حكمها ـ (المحرر) .

(القبلي والبحري) وجعلت مركزهما المدينتين العظيمتين بالوجه القبلي والبحري » وقد حذرهما جلالته من الرشوة قائلا :

« لا تأخذا الرشوة من احد ····· والا فكيف يمكنكما أن تحكما بالعدل اذا كنتما أنفسكما حناه على القانون » ·

وأراد جلالته أن يبطل الرشوة بين القضاة الفرعيين فاعفى كل موظفي الحقانية من دفع الضرائب ذهبا وفضة وسمح لهم بالاحتفاظ بكل دخلهم من وظيفتهم حتى لا يكون لهم عذر في اتباع الوسائل غير الشريفة ، وهذه خطوة جديدة لم يسبق لأحد قبل حورمحب إن يخطوها · ولم يقتصر جلالته على ذلك بل نظم المحاكم الفرعية في كل البلاد وسن عقابا صارما لكل عضو في هذه المحاكم يرتكب جريمة الرشوة · واليك ترجمة ما ورد في شأن هذا العقاب :

« كل موظف أو كاهن يقال عنه انه عين في القضاء ليحكم بين القضاة وهو يجني على القانون يحاكم بتهمة الخيانة العظمى · هكذا رأت ارادة جلالتي بقصد تحسين القانون المصري » ·

وأراد جلالته أن يوطد صلته بموظفيه الاداريين ويبعدهم عن الرشوة فزاد مرتباتهم كبيرا ، وصار هؤلاء يتفقدون الادارة في أنحاء البلاد عدة مرات كل شهر . واعتاد الملك أن يحتفل بهم في قصره قبل سياحتهم أو بعدها مطلا عليهم من شرفته الملكية ومغدقا عليهم هداياه والعطايا الجزيلة مناديهم كلا باسمه ، وقد أجزل جلالته العطايا لهم من القمح والشعير حتى لا يحتاج أحد منهم الى شيء ما ·

كل هذه المعلومات نقشها حورمحب على شاهد حجري عظيم يبلغ طوله ست عشرة قدما وعرضه عشر أقدام نصبه أمام الصرح الذي شيده بالكرنك من أحجار معبد آتون كما ألمعنا سابقا · وقد ذكر جلالته ملاحظة على الأثر هذه ترجمتها ·

« لقد سنت جلالتي هذا القانون لضمان رفاهية أهالي مصر » وختم نقوش الأثر مخاطبا قومه بهذه العبارة .

« استمعوا لأوامري التي سننتها لأول مرة في التاريخ لأحكم بها جميع الأراضي نظرا لما شاهدته من الظلم الصارخ بهذه البلاد » ·

وبدهي أن هذه الاصلاحات جعلت لحورمحب مركزا عظيما في تاريخ الحكومات العادلة · وقد رزئت هذه البلاد بالظلم والاستبداد بعد ذلك بدرجة صعب مراسها وعلاجها حتى آتى الاحتلال الانجليزي الحديث

فضرب عليه بيد قوية ، وما تزال ذكرى هذا الظلم باقية فى أذهان جميع القراء (٤) .

اذا لاحظنا عظم مجهودات حورمحب فى اصلاح داخليه البلاد وتنظيم ادارتها وابطال القحط الذى حل بمســـتعمراتها استبعدنا عليه القيام بفتوحات أجنبية لضيق الوقت . والحق يقال ان هذا الملك كان خبيرا بالأمور السياسية الآسيوية عالما بالمصاعب هناك ولذلك يظهر أنه فقد الرجاء فى اصلاح تلك المستعمرات الخارجية ما دامت داخلية مصر سيئة بالكيفية التى شرحناها للقارىء . وقد عثر على عدة أسماء لمدن وبلاد آسيويه منقوشه على الجدر قرب شاهد حورمحب الحجرى المذكور آنفا تشير الى انتصارات حربية حازها هناك ، لكن هذا بعيد الاحتمال وعليه فيستحسن أن تدون تلك الأخبار بتحفظ خصوصا وقد ورد ضمنها ذكر الحيثيين . والمعروف من أحوال وأخبار البلاد التى ورد ذكرها على تلك الجدر أن حورمحب عجز بعد ذلك الوقت عن تثبيت قدمه تماما والاحتفاظ بسلطته المطلقة على بلاد سوريا . ولا يبعد أيضا أن تكون الحقيقة على نقيض ذلك اذ من الجائز أن تكون المعاهدة التى ذكرها رمسيس الثانى (بعد حورمحب بخمسين سنة) كمعاهدة قديمة كانت من أعمال حورمحب . أما فى جنوبى المملكة فلم تحصل فى عهد حورمحب اضطرابات ذات بال وكل ما روى عن تلك الجهات أنه قامت بها ثورة اعتيادية تطلبت ذهاب حورمحب شخصيا اليها لقمعها . وقد أرسل جلالته بعثة الى بلاد الصومال أحضرت خيرات تلك الجهات المعهودة . والمعروف أن مشاكل الامبراطورية الداخلية كانت كثيرا ما تتعارض مع القيام بفتوحات أجنبية كالتى تاقت نفس حورمحب اليها ، ولا غرابة فى ذلك فقد تولى جلالته البلاد وهى فى أشد الحاجة لهمته ونشاطه ، لينتشلها من الادارة السيئة التى كانت فى عهد أسلافه . واذا لاحظنا ذلك علمنا السبب فى بذل جلالته للمجهودات التى صرفها حبا فى ترقية داخلية مملكته ، تلك المجهودات التى تعادل فى أهميتها وفوائدها أعظم أعمال الفاتحين . وقد أظهر جلالته رفقا وشفقة على رعيته لم يفقه فيها حاكم مصرى بعده حتى وقتنا هذا . ومع ذلك فقد تربى جلالته تربية حربية شرقية لكنه قال مرة لما تولى الملك « اسمعوا ان جلالتى تصرف كل وقتها لاعلاء مصلحة مصر » .

---

(٤) غنى عن الذكر أن الانجليز هم الذين قمعوا أول حركة دستورية نيابية فى مصر ، وهى الحركة التى تزعمها أحمد عرابى وصحبه وناصروا حكم الاستبداد ممثلا فى الخديو توفيق والسيادة العثمانية — (المحرر) .

ولم نتأكد للآن كم من السنين حكم حورمحب بالضبط لكنه فهم ضمنا من سجلات احدى القضايا التى حصلت فى عهد رمسيس الثانى ما يشير الى السنة التاسعة والخمسين من حكم حورمحب وهذا تاريخ مبالغ فيه غالبا ولا يبعد أن يكون قد أضيف اليه حكم اخناتون وخلفائه أيضا • فاذا كان الرأى الثانى هو الصواب كان حكم حورمحب أقل من التقدير الأول بنحو خمس وعشرين سنة أو بعبارة أخرى يكون قد حكم حوالى ثلاثين سنة (٥) • وقد شيد حورمحب لنفسه قبرا بديعا جدا بجهة منف لما كان موظفـــا فى الحكومة أى قبـــل توليــــه الملك (لوحــة ١١٢ ، ولوحة ١١٥) • ولم يهجر هذا الملك قبره المنفى فلم ينشيء له قبرا آخر بوادى الملوك بطيبة • ثم ان جلالته حافظ على القــابه الرســمية كقائد الجيوش وغيرها المنقوشة على صدر قبره المنفى كما المعنا سابقا فلما تولى الملك أضاف الى تلك الألقاب أسماءه والقابه الفرعونية • ثم وصل الصل فوق كل رسومه (لوحة ١١٥) مظهرا بذلك صفته الفرعونية وما تزال هذه الرسوم واضحة جلية الى وقتنا هذا •

وجنى خلفاء حورمحب ثمار أعماله العظيمة لما تملكوا زمام الملك فى البلاد ، ولكننا لم نتأكد للآن اذا كان حورمحب قد نجح فى تأسيس أسرة ملكية ، لأنه يستحيل علينا الآن كشف أية علاقة بينه وبين رمسيس الأول الذى عقبه فى الملك عام ١٣١٥ قبل الميلاد • ولما كان رمسيس الأول كهلا وقت توليه الملك فهم ضمنا أنه كان ذا حق فى ارث العرش الفرعونى لأنه ليس من السهل الاستيلاء على الملك فى سن الشيخوخة فى تلك الأوقات • والمعروف عن رمسيس الأول أنه لم يقم بأى عمل هام لمملكته ولم يجن ثمار ما غرسه حورمحب قبلة وذلك لتقدمه فى السن • وكل ما نعرف عنه أنه وضع رسم قاعة العمد العظيمة بالكرنك وبدأ بتشييدها لكنه توفى عاجلا فأتمها خلفاؤه بعده • وفى السنة الثانية من حكم هذا الملك أحس بالكهولة والعجز عن ادارة شؤون دولته فأشرك معه فى الملك ابنه سيتى الأول ، وكانت سنه ثلاثين سنة تقريبا • ويظن أن جلالته تمكن بمساعدة ابنه من شن غارة على النوبة لأن آثار هذه السنة تشير الى « العبيد الذين أسرهم » جلالته وأهداهم الى معبد وادى حلفا بالنوبة • وليلاحظ أن هذه النقوش الخاصة بالمعبد المذكور هى النقوش الوحيدة المؤرخة المعروفة عن هذا الملك للآن • لكن لوحظ ورود اسم سيتى بآخر هذه النقوش ولذلك يرجح أنه هو الذى قام بتلك الأعمال ونصب حجره الأثرى بالنوبة قبل ايابه منها وقتئذ • ودلتنا الآثار أن رمسيس الأول توفى قبل نصب الأثر المذكور

---

(٥) نقوش مس (Mes)

بأقل من ستة أشهر (فى سنة ١٣١٣ قبل الميلاد) وأن سيتى الأول استقل وقتئذ بالملك ·

ويظهر أن سيتى الأول وضع تصميماته وقام باستعداداته الحربية لاسترجاع المستعمرات الآسيوية وقت اشتراكه مع والده فى الحكم الذى يقرب من السنة · ودليلنا على ذلك أنه أصلح طريق فلسطين الممتد من حصن ثارو (على حدود مصر والذى استعمله حورمحب منفى لمجرميه المجدوعى الأنوف) ورمم وقوى القلاع المشيدة لحراسة اثار وصهاريج المياه على ذلك الطريق · والمعروف أن المسافة بين ثارو وغزه كانت تقطع وقتئذ فى عشرة أيام سيرا على الأقدام ومنه يتضح لنا شدة احتياج المسافرين الى الماء على طول ذلك الطريق · ولا يبعد أن كانت مصر وقتئذ محافظة على بعض نفوذها بفلسطين لكن المعروف أن الأحوال السيئة التى حلت بتلك البلاد أيام اخناتون لم تعد لها العدة المناسبة · نعم ان اخناتون أرسل الى تلك الجهات حملة بقيادة ضابط مصرى ولكن هذه القوة انهزمت وفشلت فى مهمتها تماما · والثابت أن المعلومات التى تلقاها سيتى الأول عن حالة مستعمرات مصر الآسيوية اتفقت تماما هى وما ورد فى خطاب عبدخيبا (Abdkhiba) والى بيت المقدس الذى أرسله الى اخناتون · ويذكر القارىء أن هذا الخطاب ذكر أن بدو الصحارى المجاورة لفلسطين زحفوا واستولوا على مدن فلسطين لكننا لم نتأكد بالضبط هل حصل ذلك بايعاز من حكام تلك الأقاليم أو من تلقاء أنفس البدو · ومما يعزز مضمون هذا الخطاب ما وجد من الرسوم على الآثار المصرية الممثلة هروب الفلسطينيين فى ذعر من أعدائهم الى مصر · واليك ترجمة ما وصل الى سيتى الأول من الأخبار الخاصة بهؤلاء البدو ومنها تتضح لك شدة موافقتها لما ذكرناه سابقا :

« لقد اتحد رؤساء البدو معا وأخذوا يضعون أيديهم على فلسطين ، وهم الآن يفتكون بالناس ويلعنونهم ويضربونهم ، فصار كل منهم يقتل جاره غير مكترثين لقوانين القصر الملكى » ·

فى أثناء هذه الغارات البدوية أخذ الاسرائيليون يستعمرون فلسطين وكانوا يدفعون الجزية لفرعون ويطيعون أوامره ولذلك لم يهتم بهم · أما الآن فتغيرت الأحوال وامتنع هؤلاء القوم عن ذلك ·

وفى السنة الأولى من حكم سيتى الأول قاد جلالته جيشه وزحف على آسيا مبتدئا من ثارو ومتبعا طريق سيناء الذى أصلحه مارا بقلاعه وحصونه التى رممها حتى بلغ جنوبى فلسطين المعروف باسم النقب فقابله

هناك بدو تلك الجهة المعروفون بالشاسو أو الشوس فشتت شملهم ثم بلغ حدود كنعان (وهو اسم أطلقه المصريون على غربى فلسطين وسوريا) فاستولى هناك على مدينة محصنة محاطة بسور فى آخر الاقليم الذى حصلت فيه مشاحنته مع البدو . وبعد ذلك زحف شمالا فاستولى على بلاد سهل مجدو المعروف بيزرل (Jezreel) وعبر وادي نهر الأردن ونصب هناك حجرا أثريا ذكر فيه انتصاراته التي حازها بجهة حوران (Hauran) ثم زحف سيتي الأول غربا حتي بلغ جنوبى بلاد لبنان فاستولى على مدينة ينوعام (Yenoam) المحاطة بالغابات الكثيرة والتى وقفها تحوتمس الثالث بعد غزوته لها على معبد آمون وذلك منذ مائة وخمسين سنة تقريبا . فى ذلك الوقت أقبل على جلالته وفد من حكام تلك البلاد أظهر له الخضوع والولاء لمصر وقدم له ما يطلب من الخدم . وليلاحظ أن هؤلاء الحكام مضى عليهم حوالى خمسين سنة بعد ترك أمنحتب الثالث لمدينة صيده لم يشاهدوا فى أثنائها فرعونا مصريا قائدا لجيشه كما اعتادوا سابقا ، ولذلك أراد سيتى الأول أن يختبر ولاءهم فكلفهم احضار كتل خشبية من الأرز ليتم بها بناء سفينة آمون المقدسة فى طيبة وليصنع منها أيضا سوارى طويلة لنصبها أمام صروح معبد ذلك المعبود ، عند ذلك أسرع هؤلاء الحكام فى حضرة سيتى بجمع تلك الكتل ، وقد راقب جلالته شخصيا شحنها من الموانى البحرية التى أخضعها كما فعل سلفه تحوتمس الثالث . ويظن أن سيتى الأول وصل فى حملته هذه الى شمالى صميره (أولازا) (Ullaza) . وقد قدم ملك قبرص الى جلالته وقتئذ هدايا جزيلة جريا على عادة حكام تلك الجزيرة نحو ملوك مصر . والثابت أن مدينتى صور (Tyre) وأثو (Othu) خضعتا لسيتى وقتئذ وأن ساحل فلسطين أصبح آمنا وأن الطريق البحرى بين مصر وفلسطين أعد للقيام بحملات حربية فى المستقبل .

بعد ذلك رجع سيتى الأول وكانت الاستعدادات والاحتفالات قائمة على قدم وساق انتظارا لوصول جلالته ظافرا من آسيا كما كان يفعل لفراعنة مصر الفاتحين منذ جيلين . وذاع انتصار سيتى هذا فى أنحاء البلاد فبلغ مصر قبل وصوله اليها ولذلك هب رجال الحكومة لمقابلة جلالته على حدود مصر ، فاجتمعوا هناك بجهة ثارو (Tharu) على رأس الجسر المشيد على القناة العذبة الموصلة نهر النيل بالبحيرات المرة والتى ذكرناها من قبل فأبصروا هناك الجيوش المصرية قادمة يعلوها الغبار وتبدو عليها علامات التعب يتقدمهم فرعونهم راكبا عجلته الحربية وسائقا أمامه أسراه من أمراء فلسطين وسوريا ، عند ذلك صاح موظفو الحكومة بصوت واحد شق عنان السماء هاتفين هتاف التحية والتبجيل . ولما وصل جلالته الى طيبة أقيمت له احتفالات عظيمة أخرى عرضت فيها الأسرى

والغنائم الحربية الجزيلة أمام آمون كما فعل أيام ملوك عهد الامبراطورية الأولى • وليلاحظ أن أهالى طيبه مضى عليهم نيف وخمسون سنة تقريبا لم يشاهدوا فى أثنائها مثل تلك الاحتفالات • وقد ضحى سيتى فى ذلك الاحتفال ببعض الأسرى أمام المعبودات قربانا لهم •

وظهر الآن أن هذه الحملة الأسيوية كانت كافية لاخضاع جنوبى فلسطين لمصر ، ويرجح أن معظم شمالى فلسطين ضم أيضا وقتئذ الى الامبراطورية المصرية • ثم أراد سيتى الأول أن يقوم بحملة ثانية بآسيا لكن حصل وقتئذ اضطراب كالذى حدث فى مبدأ الأسرة الثانية عشرة اضطر جلالته الى أن يخضعه أولا • وتفصيل ذلك أن الليبيين القاطنين غربى مصبات النيل تحينوا فرصة ضعف مصر فهاجروا الى الوجه البحرى وأخذوا يضعون أيديهم على كل ما يمكن تملكه فهددوا حدود الدلتا الغربية • ودلتنا قائمة ايرادات سيتى الأول أن جلالته أمضى سنته الثانية كلها فى الدلتا ويرجح جدا أنه قام وقتئذ بقمع الليبيين • وجاء أن جلالته التقى بهؤلاء الأعداء فى مكان غربى الدلتا ما يزال مجهولا لنا وانتهى الأمر بانتصار جلالته انتصارا باهرا فأقيم له احتفال كبير بطيبة أمام المعبود آمون،حيث قدم له الغنائم الجزيلة والأسرى العديدين • والظاهر أن جلالته لم يذهب الى طيبة بعد انتصاره على الليبيين مباشرة ، بل قصد آسيا بعدئذ لاكمال انتصاراته وتوطيد سلطته بسوريا • وعلى كل فالمعروف أنه بلغ أرض الجليل واستولى عنوة على مدينة قادش المحاطة بسور حصين • وهذه المدينة الأخيرة غير قادش التى على نهر العاصى • وليلاحظ أن هذه الأقاليم كانت تعرف وقتئذ بمملكة آمور وقد ألمعنا سابقا أن عبدعشرتا (Abdashirta) وعزيرو (Aziru) هما اللذان أسسا هذه المملكة كما جاء فى خطاب رب عدى (Rib-Addi) والآن نذكر القارىء أن هذه المملكة الصغيرة المحتوية على قادش وأرض الجليل كانت بمثابة حد فاصل منيع بين شمالى فلسطين جنوبا ووادى نهر العاصى المكون لحدود مملكة الحيثيين الجنوبية شمالا • من ذلك يتضح أنه اذا أراد سيتى الأول أن يهجم على الحيثيين وجب عليه أولا أن يخضع مملكة آمور وهذا هو ما قام به جلالته فقد استولى على تلك المملكة بما فيها قادش (على الأرجح) • بعد ذلك زحف جلالته شمالا على الحيثيين فاتضح لهم أن ملكها المدعو سبلل (Seplel) الذى تحالف مع مصر فى أواخر الأسرة الثامنة عشرة توفى منذ مدة طويلة وأن ابنه المدعو مراسار (Merasar) كان قائما بالملك بدله • فى ذلك الوقت التحمت جيوش مصر بجيوش خيتا لأول مرة فى التاريخ القديم وكان ذلك فى مكان مجهول وعلى نهر العاصى فدارت رحى القتال بين

الفريقين بشدة ركب في اثنائها سيتي الأول عجلته الحربية وحارب أعداءه مع جيوشه حتى انتصر عليهم تماما . ويستدل من قرائن الأحوال أن هذه المعركه لم يشترك فيها جيش الحيثيين الرئيسي لأن سيتي لم يزعزع مركز اعدائه بسوريا فقد بقيت قادش (التي على نهر العاصي) بأيديهم . وعليه فالغالب أن كل ما أحدثه سيتي حينئذ هو ارجاع حدود الحيثيين يسيرا الى الشمال ووقف زحفهم وتدخلهم في شؤون فلسطين جنوبا . بعد ذلك رجع جلالته الى طيبه فقابلته رعيته بالحفاوة والاكرام وهناك قدم جزيته وأسراه هدية لآمون معبود الامبراطورية الأعظم بالكرنك . ويتضح من ذلك أن حدود مستعمرات مصر الآسيوية وصلت وقتئذ بوجه التقريب الى حدود فلسطين الشمالية بما في ذلك من مدينة صور (Tyre) وساحل فينيقيا جنوبي نهر الليطاني . وليلاحظ أن هذه الفتوحات لم ترجع لمصر الا ما يقرب من ثلث مستعمراتها السابقة ولذلك كان طبيعيا أن يستمر سيتي في فتوحاته السورية . لكنه مع ذلك لم يظهر جلالته هناك بعد ذلك لسبب ما نزال نجهله ويظن أنه اقتنع وقتئذ بعدم فائدة نضال الحيثيين لشدة رسوخ قدمهم بسوريا . زد على ذلك أن مركز مصر بسوريا أضحى محالفا لمركز الحيثيين الذين احتلوا تلك البلاد احتلالا ملكيا وحربيا ، أما الفراعنة فلم يعبأوا كثيرا بالاستثمار في تلك الجهات بل كل ما عنوا به هو أخذ الجزية السنوية منها ، ولذلك كان منتظرا أن الاستعمار المصرى الضعيف لا يقوى على قلب استعمار الحيثيين القوى . ثم ان مملكة الحيثيين اصبحت مائجة بالسكان بأكثر مما تسع فكان هؤلاء يهجرون وطنهم نازحين الى سوريا ومنه يتضح أنه لو فرض ونجح المصريون في طرد الحيثيين من جنوبي سوريا فان شمالى سوريا يبقى دائما في حالة حرب مع المصريين . والظاهر أن سيتي اقتنع حينذاك بأن أحوال البلاد تغيرت كثيرا عما كانت عليه أيام تحوتمس الأول فصمم حوالى ذلك الوقت أن يبرم معاهدة ودية مع ملك الحيثيين المدعـــو متـــلا (Metalla) الذى تولى الملك بعد أبيه مراسار (Merasar) .

ولما آب سيتي الى وطنه جعل همه توطيد السلام في المملكة وتشييد المعابد . وقد ألمعنا سابقا الى أن حورمحب أصلح كثيرا مما أتلفه أتباع مذهب آتون . والآن نذكر القارىء أنه لما تولى والد سيتي الأول الملك لم يتمكن من عمل شيء يذكر بالنسبة لكبر سنه ، فلما تولى بعده ابنه سيتي وجد كثيرا من هذه الآثار في حاجة الى الاصلاح ، فقام بهذه المسألة بكل احترام وورع . وتوجد على كل معابد آمون المنتشرة على النيل من عمارة بالنـوبة جنوبا الى تل بسطه بالدلتـا شمالا نقوش أثرية تشير الى « الاصلاحات التى قام بها سيتي الأول لهذه الأماكن المقدسة » . وقد أرسل

جلالته البعثات لقطع الأحجار من محاجر مصر بجهة أسوان والسلسلة والجبلين (Gebelen) واستخدم فى ذلك أسرى حروبه كما فعل أسلافه . وفى حالة استخدام المصريين فى ذلك كان جلالته يفتخر بمعاملتهم بسخاء ورفق ، خذ مثلا ما ورد عن الألف من العمال الذين استخدموا فى قطع الأحجار الرملية من محاجر السلسلة ، فان كلا منهم كان يتقاضى أربعة أرطال خبزا وحزمتين من الخضراوات وقطعة من اللحم المشوى كل يوم وثوبا من الكتان النظيف مرتين كل شهر . وبلغت العمارات التى شيدها سيتى الأول فى جميع المعابد القديمة درجة فاقت أبنية أرض عصـــور الامبراطورية ، ومنه استدل أن دخل الخزانة المصرية وقتئذ كان عظيما وكافيا للقيام بهذه المصاريف الباهظة على صغر حجم الامبراطورية . ولا يخفى أن الامبراطورية المصرية وقتئذ كانت تلك الأقاليم التى بين الشلال الرابع جنوبا ونهر الأردن شمالا .

ومن عمارات سيتى الأول القاعة ذات العمد العظمى التى أسسها رمسيس الأول أمام صرح أمنحتب الثالث بمعبد الكرنك ، وقد فاقت هذه القاعة فى العظم قاعة أمنحتب الثالث ذات العمد التى لم يتم بناؤها فى معبد الأقصر . ثم كسا سيتى نقوش أمنحتب الثالث الحربية التى على صرحه بالأحجار من الخارج وأكمل بناء عمد صحن المعبد الشمالى وكذا حائطه الشمالى الذى نقش عليه حفاروه من الخارج نقوشا عظيمة تمثل انتصاراته (لوحـة ١١٧) وتبلغ مساحة الحائط المنقوشة من الجدار الى الافريز حوالى مائتى قدم وتجتمع هذه النقوش نحو باب الدخول فى الوسط والمرسوم حوله الملك سيتى راجعا الى مصر مقدما الهدايا والأسرى والغنائم لآمون ومضحيا فى نهاية الأمر بالأسرى الى المعبود المذكور . والمشاهد لهذه الرسوم يرى أن جلالة الملك يســتعد للدخول والاشــتراك فى الاحتفال الدينى . ومثل هذه الآثار والرسوم كانت تعمل لملوك الأسرة الثامنة عشرة لكنها بادت الآن فلم يبق منها الا ما ذكرناه خاصا بأمنحتب الثالث . من ذلك يتضح لنا ما فى رسوم سيتى الأول الحربية من الفوائد . وعاجلت سيتى الأول منيته قبل أن يتم القاعة العظمى ونقشها بالرسوم البديعة فأتمها خلفاؤه من بعده . وقد اتبع سنة آبائه ملوك الأسرة الثانية عشرة فشيد لنفسه معبدا بالسهل الغربى بطيبة فى الطرف الشمالى لسلسلة معابد الملوك الأقدمين . ولما كان والد سيتى قد توفى قبل أن يشيد له معبدا جعل سيتى معبده هذا مشتركا بينه وبين والده ، ويعرف هذا المعبد الآن بمعبـد القرنة (Kurna) والمعروف أن سيتى توفى قبـل اتمامه أيضـــا .

وشيد أيضا معبدا جميلا بالعرابة لمعبودات مصر العظمى (وهى معبودات تثليث أزوريس وسيتى أيضا) ومحرابا صغيرا أيضا مجاورا له لاقامة الدعوات لملوك مصر الأقدمين وبالأخص ملوك الأسرة الأولى والثانية الذين دفنوا خلف المحراب المذكور بالصحراء ونقش على جدر معبده هذا قائمة بأسماء ملوك مصر الأقدمين ابتداء من مينا الى عهده وما تزال هذه القائمة معتبرة من أهم المستندات التاريخية التى نستمد منها معلوماتنا عن تواريخ هؤلاء الملوك · وقد تلف صرحا هذا المعبد ومع ذلك فان البقية الباقية منه ما تزال تعتبر أنفس الآثار التى ابدعتها أيدى المصريين المهرة · وسنتناول الكلام عليها من وجهة الفنون الجميلة فيما بعد · وجاء عن سيتى الأول أنه شيد أيضا معبدا بمنف وآخر بعين شمس ومعابد أخرى بالدلتا لم نعرف عنها الا القليل · ويوجد بأبى سنبل معبد عظيم شيده سيتى لكنه توفى قبل اتمامه فأتى بعده رمسيس الثانى وأتمه ·

لا يخفى أن هذه المشروعات تطلبت أموالا عظيمة ، ثم انه أراد أن يحبس أوقافا ثابتة على معبد العرابة فاضطر الى البحث عن موارد مالية أخرى فاتجه ذهنه الى استخراج الذهب من مناجم جبل الزبارا على ساحل البحر الأحمر · والعقبة الكئود التى كانت دائما تحول دون تنمية تلك المناجم هى صعوبة الطريق الموصل اليها الذى يبتدىء من وادى النيل جنوبى ادفو بعدة أميال ، فأراد الملك أن يذلل تلك الصعوبة فذهب شخصيا الى ذلك الطريق ووضع الخطط لتمهيده · ولما بلغ تلك الجهة اضطر الى أن يتوغل فى الصحراء سبعة وثلاثين ميلا تقريبا حتى وصل الى محطة استعملت قديما أيام الأسرة الثامنة عشرة للاستراحة وهى تبعد عن النيل بمسيرة يومين تقريبا ، وهناك أمر بحفر بئر تحت اشرافه فنبعت منه المياه بغزارة وفى الحال أصدر أمره بتشييد معبد بجوار ذلك البئر وتأسيس قرية أيضا · والظاهر أن الملك أسس عدة محطات أخرى على طول الطريق الى مناجم الذهب المذكورة كما يستدل من أنشودة الرحالة الظماء التى كانوا يترنمون بها وقتئذ واليك ترجمتها :

« أيتها المعبودات الساكنات هذا البئر امنحن سيتى العمر الأزلى ، لأنه شق لنا الطريق لنسير فيها بعد ما كانت مهجورة فأصبحنا نسير فيها سالمين ونصل أحياء وأضحى الطريق الصعب سهلا جميلا » ·

ولما تم مشروع هذه المناجم وقف سيتى ايراد هذا المشروع على معبد العرابة وصب اللعنات الشديدة على كل من يعطل هذه الأوقاف وينقض ارادته · والغريب أن هذه الأوقاف عطل تنفيذها بعد وفاته بسنة فلما تولى ابنه رمسيس الثانى الحكم أرجعها الى أصلها · وأراد سيتى أن يستغل

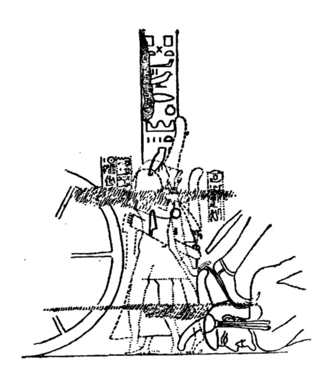
مناجم ذهب النوبة على الطريقة السالفة فامر بحفر بئر عمقها مائتا قدم تقريبا على الطريق المبتدىء من جنوبى شرقى كوبان بالنوبة الى وادى العلاقى ، لكنه لم يهتد فى آخره الى الماء فبطل المشروع وحرم الملك من استغلال ذهب ذلك الاقليم ·

لقد حافظت الفنون الجميلة فى عهد سيتى على درجتها التى حازتها أيام الأسرة الثامنة عشرة من حيث التأثير والدقة والجمال ، لأن العزيمة ورد الفعل اللذين ظهرا على الامبراطورية اثر انتعاشها من ضعفها السابق، لم يقللا كثيرا من درجتهما السابقة ، خذ مثلا قاعة الكرنك العظمى السابقة الذكر فانها لم تقم بالدقة المعهودة فى ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، ومع ذلك فهى معتبرة من أعظم آثار المملكة المصرية من حيث الفن وما تزال فى نظر الأثريين معتبرة من أعظم الآثار المصرية المدهشة بناء وضخامة رغم ما بها من الأغلاط الواضحة · وتعتبر مجموعة رسوم ونقوش عهد سيتى من أعظم أمثلة الاجتهاد والدقة اللذين اشتهرت بهما الأسرة الثامنة عشرة · وهذا الوصف ينطبق عليها اجمالا ، لكننا لو فحصنا كل جزء من هذه الرسوم على حدة لوجدنا فيه أغلاطا تخطيطية عديدة · وهناك بعض رسوم جاءت غاية فى الدقة والجمال كرسم سيتى الاول الرافع رمحه الطارد الأمير الليبيى أمامه الموجود على حائط الكرنك الشمالى (لوحة ١١٧) · أما أجمل الرسوم البارزة المصنوعة فى عهد سيتى فهى التى بمعبد العرابة (لوحة ١١٨) ففيها تجتمع الرقة والدقة مع معالم الحياة والشجاعة والمهارة · وتعادل هذه الرسوم فى الاتقان الرسوم التى على جدر قبر سيتى البديع بطيبة (لوحة ١١٩) · وما تزال الصـور الملونة تنم عن تقـدم واتقان عهد تل العمارنة ، فجدر مقابر طيبة حاوية كثيرا من أمثال هذه الصور البديعة ، مثال ذلك منظر سفقد قطعان الأغنـام (لوحـة ١٢٠) ومنظر القنص فى المستنقعات الذى تتجسد فيه وحشية الحيوان كما يشاهد ذلك فى المشهد ذلك الذى يمثل قطـا ثائرا قافزا بأرجله على طائرين وحشيين ومسلطـا أنيابه على جسد فريسة ثالثة فى الوقت نفسه ·

ولم ترد لنا معلومات عن تاريخ سيتى الأول بعد السنة التاسعة من حكمه ويرجح أنه قضى باقى حياته فى اقامة العمارات الضخمة وحفر مقبرته المعتبرة أكبر مقبرة عملت بوادى الملوك الى عهده ، وتشاهد فيها طرق وحجرات متشعبة آخذة فى الانحدار بما ينيف على أربعمائة وسبعين قدما (شكل ٣٠) · وبعد ثلاثين عاما من تعيينه وليـا لعهد المملكة أخذ يحضر المسلات لذلك،وأعلن فى الوقت نفسه ابنا له ما نزال نجهل اسمه وليا لعهد الامبراطورية ، ثم أراد هذا الأمير أن يشترك هو ووالده فرسم

نفسه وهو يحارب الليبيين على حائط الكرنك الشمالى لقاعة والده ٠ ولما لم يكن منتظرا رسم هذا الأمير فى هذا المحل من الحائط اضطر الحفارون الى أن يمحوا بعض النقوش الأصلية ليتمكنوا من رسم هذا الأمير٠ ولما بادت الألوان التى كانت تكسو هذه الرسوم اتضحت لنا اشارات لحوادث تاريخية كانت خافية للعيان ، وتتلخص هذه الحوادث فى أن رمسيس الثانى أحد أبناء سيتى الأول من زوجته المدعوة تويا (Tuye) تآمر فى الخفاء على اغتصاب مركز أخيه ولى العهد ، وقام آخر أيام والده بحركة حكومية فجائية استولى بها على العرش ٠ وسيتى الأول توفى قبل الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على توليه عهد المملكة المصرية (حوالى عام ١٢٩٢ قبل الميلاد) فلم يتمكن من نصب مسلتين عملهما لذكرى هذا الثعيين ٠ ومنه يتضح أن سيتى حكم أكثر من عشرين سنة مستقلا بالملك ، ودفن فى تابوت مرمرى بديع داخل قبره الفخم الذى حفره بالوادى الغربى بطيبة٠وقد أسعدنا الحظ فحفظ لنا جثة هذا الملك الى يومنا هذا وما تزال تبدو عليها ملامح العظمة والأبهة والجلال التى امتاز بها هذا الفرعون وقت اعتلائه العرش المصرى (لوحة ١٢٢) ٠

ونفذ رمسيس الثانى كل اجراءاته فى اغتصاب الملك من أخيه الوارد رسمه بالحائط المذكور ٠ وللآن لم نتأكد اذا كان رسم هذا الأمير نقش فى عهد سيتى الأول أو أنه تسلم الملك مدة قصيرة بعد والده قبل أن يغتصب منه رمسيس الملك ٠ والمعروف على كل حال أن رمسيس اغتصب الملك من أخيه بدون تردد واعتلى العرش فورا ثم محا اسم أخيه ولقبه ورسمه من على الحائط المذكور (لوحة ١١٧) ورسم نفسه مكانه واضعا اسمه بدله وملقبا نفسه بولى عهد المملكة كذبا وبهتانا (شكل ٣٦) ٠ كل هذه الأسرار تشاهد واضحة فى رسوم الحائط بعد ما بادت الألوان التى كانت تكسوها ، ومن هذه المستندات علمنا خبر المشاحنات التى حصلت بين الأخوين الأميرين المصحوبة غالبا بمنافسات نسوية ونزاع بين أفراد البلاط الملكى ٠ وما تزال هذه الرسوم باقية شاهدة على تلك الحوادث وموضحة لكيفية اعتلاء رمسيس الثانى عرش مصر ٠ ولما استولى هذا الأخير على العرش الملكى اتبع طرق التضليل المعتادة ليقنع الرعية بحقه فى العرش فخطب فى أمراء قصره،مشيرا الى يوم أجلسه والده أمام الأمراء وليا لعهد المملكة ٠ وبدهى أن الأمراء كانوا على علم تام بحقائق الأمور ، لكنهم تظاهروا ساعتئذ بجهلها وأخذوا يمدحون رمسيس كثيرا حتى فاقوا على المعقول ، واليك مثلا من مديحهم اياه : قالوا ان قوة جلالته وشهامته بلغتا الذروة وقتما قاد جيشه العظيم فى السنة العاشرة من عمره ! ٠ ولا شك



شكل (٣٦) بعض رسوم بارزة لسيتى الأول على جدار الكرنك ، يشاهد فى هذا الشكل الابن الأول لسيتى الأول مرسوما بخطوط متقطعة · وقد استنتج فى استمرار النصوص الهيروغليفية الراسية الى اعلى الرسم المذكور ان هذا الابن رسم نفسه هنا بعد الفراغ من الرسم الأصلى · اما الشخص المرسوم بخطوط نقطية فيمثل رمسيس الثانى وقد رسم نفسه كذلك فوق رسم اخيه الكبير الذى خلعه واغتصب الملك منه ·

فى أن هذا الاطراء صعب التصديق جدا لسخافته من جهة ولبعده عن الصواب من جهة أخرى ، لكن الحق يقال ان رمسيس الثانى أظهر شجاعة عظيمة فى شبابه محا بها كل أثر لمجهودات أخيه المعزول فى المطالبة بالعرش ·

ووطد رمسيس الثانى دعائم ملكه بسرعة فى طيبة عاصمة البلاد فأسرع حالا من بلاد الدلتا (على الأرجح) الى طيبة ليحتفل بعيد أوبت (Opet) السنوى العظيم بمعبد آمون الرسمى · وهناك حاز جلالته تعضيد الكهنة فبدأ باقامة الاحتفالات الدينية لوالده بهمة لا تعرف الملل · ثم أبحر فى النيل شمالا من طيبه الى العرابة ولا يبعد أن يكون نزل بها وقت رجوعه الى طيبة ، فوجد معبد والده فى حالة سيئة · وتفصيل ذلك

أن سيتي توفى قبل اتمامه ولذا كانت القاعات بلا سقوف وكانت أحجار العمد والجدر مبعثرة لم يشيد منها الا اليسير · وأدهى من هذا وأمر أنه وجد الأوقاف التي حبسها والده على هذا المعبد قد أساء التصرف فيها من وكلت اليه رعايتها،على الرغم من اللعنات التي أوردها سيتي في وقفيته على من يبددها · كل هذا حصل ولم يمض على وفاة سيتي أكثر من سنة واحدة · ومما لاحظه رمسيس الثاني أيضا وقتئذ أن مقابر الأسرة الأولى الذين حكموا مصر نحو ألفي سنة أصبحت في حالة تستدعي الالتفات والعناية · لذلك جمع جلالته رجال قصره وقص عليهم رغبته في اتمام هذه الأعمال وعلى الأخص اتمام بناء معبد والده · وقد أتم جلالته معبد والده على حسب رغبته وجدد أوقافه ونظم ادارته وزاد عليها باهدائه الأغنام العديدة وضرائب مربي الطيور والصيادين · واهدى للمعبد أيضا سفينة تجارية بالبحر الأحمر وعدة سفن نيلية أخرى وعبيدا وخدما وعين أيضا كهنة وموظفين لادارة أملاك المعبد المذكور · كل هذه اجراءات اعتبرها القوم نتيجة احترام رمسيس لوالده ، لكنها في الحقيقة عادت اليه بالفائدة والنفع بدليل ما نقشه جلالته من الرسوم الضخمة بمعبد والده من أن هذه الأفعـال جلبت له رضـا سيتي وجعلت سـيتي خليل المعبودات يرجوهم ليطيلوا عمر رمسيس ويقووا حكمه · ومناجاة الأموات لمصلحة الأحياء عقيدة قديمة وجدت على آثار الدولتين القديمة والوسطى ، غير ما ذكره رمسيس سابقا على معبد والده الذى أتمه رمسيس بعده ·

والظاهر أن الأوقاف التي حبسها سيتي الأول على الأموات كانت كثـيرة حتى أثقلت كاهل مالية رمسيس الثاني فاضطر جـلالته الى أن يبحث عن موارد أخرى للمال · ودلتنا آثار منف أن جلالته اجتمع في السنة الثالثة من حكمه مع وزرائه وشاورهم في تنمية مناجم وادى العلاقي الذهبية بالنوبة واصلاح الطريق الموصل لذلك الوادى وقد عجز والده عن انجازه · وكان المندوب السامي لكوش حاضرا ذلك الاجتماع فشرح لجلالته صعوبة المشروع وفشل والده في الوصول الى مياه بحفر الآبار في ذلك الطريق وزاد على ذلك قوله : « ان الحالة هناك أصبحت سيئة للغاية ، فالأشخاص الذين يعبرون ذلك الطريق يموت منهم ما يقرب من النصف ظمأ ، وكانت الحمير تموت أيضا للسبب نفسه ، لذلك وجب على كل مسافر الى تلك المناجم أن يأخذ كمية من المياه معه تكفيه لذهابه وايابه ، « ولهذا السبب وقف احضار الذهب من تلك الجهات » · بعد أن أشار والى كوش وأعضاء المجلس على جلالته بطريقة غير مباشرة يستحثونه على أن يقوم بتجربة أخرى للبحث عن مياه بذلك الطريق · وعهد الى والى كوش في ذلك ، فقام هذا بمأموريته خير قيام ثم بعث لرمسيس خطابا أنبأه فيه

بأنه عثر على كمية غزيرة من المياه على عمق عشرين قدما تقريبا • وأمر رمسيس والى كوش أن ينصب بجهة كوبان — مبدأ طريق وادى العلاقى — حجرا أثريا منقوشا عليه تاريخ هذا المشروع • ويلاحظ أن هذه الأعمال الداخلية كانت مقدمة لمشروعات عظيمة أخرى صمم عليها رمسيس للمستقبل لأنه كان طموحا نحو العلا مشرئبا نحو استرداد مستعمرات آسيا التى فتحها قبله فراعنة الأسرة الثامنة عشرة •

الفصل الحادى والعشرون

حروب رمسيس الثانى

ذكرنا سابقا أنه لما تولت الأسرة التاسعة عشرة الحكم كانت مستعمراتها الآسيوية محفوفة بالمخاطر ، وأن رمسيس الأول كان هرما قصير الحكم عاجزا عن القيام بحروب هناك · فلما تولى ابنه سيتى الأول عجز عن اختراق أقاليم الحيثيين وطردهم الى آسيا الصغرى واسترجاع ما فتحه ملوك الأسرة الثامنة عشرة · ثم أتى رمسيس الثانى فوجد الحيثيين واضعين أيديهم على تلك الأقاليم مدة عشرين سنة تقريبا منذ حربهم مع سيتى الأول · والظاهر أن المعاهدة التى أبرمت بين سيتى ومتلا (Metella) ملك الحيثيين ساعدت الأخيرين على بسط نفوذهم على مستعمراتهم وتحصينها جيدا ، ولذلك زحف متلا على وادى (العاصى) واستولى على قادش مركز نفوذ سوريا أيام تحوتمس الثالث ، وقد قاومت وقتئذ أكثر من أية جهة بسوريا فلم تخضع الا بعد كثير عناء · وقد أوردنا سابقا ميزات هذا الحصن الحربية والجغرافية ، ولا شك فى أن هذه الميزات استرعت أنظار ملك الحيثيين فجعلها عقبة كئودا فى وجه المصريين هناك ·

واتبع رمسيس الثانى طريقة تحوتمس الثالث فى غزو الحيثيين فبدأ أولا باخضاع الشاطىء البحرى ليتخذه قاعدة حربية لحركاته المقبلة ، لأن المواصلات البحرية كانت أسهل وأسرع من البرية · وللآن لم نعرف ما فعله رمسيس فى رحلته الحربية الأولى لما نفذ الشطر الأول من مشروعاته وكل ما نعلمه أنه نصب لوحا من الحجر الرملى على نهر الكلب قرب بيروت بليت نقوشه تقريبا ولكنه يمكننا أن نميز عليه بصعوبة اسم رمسيس الثانى ، « السنة الرابعة من حكم جلالته » (لوحة ١٢٣) · ومنه استدل أن تلك الحملة حصلت فى السنة الرابعة من حكمه وأن آخر مكان بلغه جيشه هو ذاك المكان على الساحل الفينيقى · ولكن هذه الحملة كانت لسوء الحظ انذارا كافيا لمتلا لحروب فى المستقبل ، فأخذ هذا

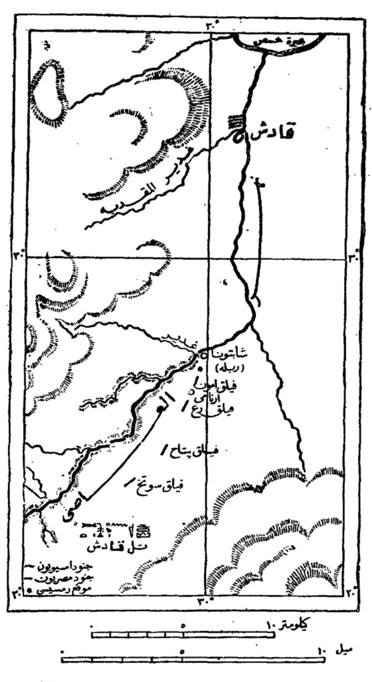
يجمع قواته ويستعد بذل جهده ويجبر جميع ولاته أن يشتركوا معا فى الدفاع عن كيانهم ضد مصر . وقد عثر على نقوش مسمارية ببوغازكوى (عاصمة الحيثيين القديمة) تشير الى أن متلا نفسه كان يحارب رمسيس الثانى شخصيا فى معركة قادش (مأخوذة عن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبردج صحيفة ١٤١) فانضم اليه ملوك النهرين وأرواد وكاركاميش (Carchemish) وكود (كنعان) وقادش ونوج وأوجاريت (Ugarit) وحلب وملوك آسيا الصغرى مثل ملك كزودن (Kezweden) وبدس (Pedes) . ولم يكتف متلا بذلك ، بل أنفق أموالا باهظة فى استئجار جنود كثيرة من جزر البحر الأبيض المتوسط وشواطئه كالليديين الذين أغاروا مرة على الدلتا وقبرص أيام الأسرة الثامنة عشرة وكذا الميسيين (Mycians) والسليسيين (Cilicians) والدردانيين (Dardanians) وبلاد اروانت (Erwenet) المجهولة . كل هؤلاء اندمجوا فى سلك جيش الحيثيين فكان أقوى من القوات المصرية فى أى وقت مضى ، والظاهر أن عدده بلغ وقتئذ عشرين ألف جندى وهو مقدار لا يستهان به فى تلك الأزمنة .

أما رمسيس الثانى فلم يكن أقل اجتهادا من ملك الحيثيين فى استئجار الجنود الأجانب بالجيش المصرى . وليلاحظ أن جنود النوبة كانوا معتبرين جزءا من الجيش المصرى منذ عهد الدولة المصرية القديمة فأهالى الماوزى مثلا قاموا بأعمال الشرط بعاصمة اخناتون . وهناك أمثلة عديدة مثل هذه قام بها النوبيون نحو الفراعنة . والمعروف من خطابات تل العمارنة أن جنود الشردينيين (Shereden) استعملوا للمحافظة على النظام بسوريا قبل زمن رمسيس الثانى بستين سنة . فلما أتى رمسيس أدخل منهم عددا عظيما فى جيشه وكون منهم وحدة حربية كبيرة ولذلك كان الجيش المصرى مقسما الى ثلاثة أقسام : قسم المشاة وقسم العجلات الحربية وقسم الشردينيين (شردن) وقال رمسيس انه أسر هؤلاء الشردينيين فى حروبه السابقة والغالب أنه حقيقة فعل هذا مع بعضهم لما سطوا على ساحل الدلتا الغربى للنهب والسرقة . ويرجح أن عدد جيش رمسيس كان حوالى العشرين ألفا مع جهلنا عدد الجنود المأجورين فيه . وقسم جلالته جيشه الى أربعة فيالق هى فيلق آمون وفيلق رع وفيلق بتاح وفيلق سوتخ واختار جلالته أن يقود فيلق آمون شخصيا (١) .

فى أواخر أبريل للسنة الخامسة من حكم جلالته (حوالى عام ١٢٨٨ قبل الميلاد) زحف جلالته بجيشه العرمرم من مدينة ثارو (Tharu)

---

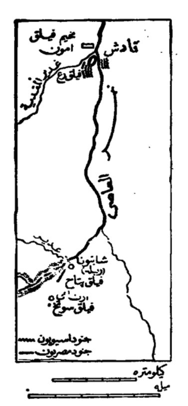
(١) لمراجعة أصول الكلام التالى لهذا راجع بخصوص معركة قادش وأيضا كتابى جامعة شيكاجو سنة ١٩٠٤ .



خريطة رقم ٨ : موقع مدينة قادش تبين مرقع تل قادش حيث امضى رمسيس الثانى ليلة قبل المعركة ومراكز جنوده فى صبيحة يوم القتال ·

على حدود مصر الشمالية الشرقية وكان متوليا قيادة فيلق آمون بمقدمة الجيش تتلوه فيالق رع وبتاح وسوتخ بهذا الترتيب . أما الطريق الذى سلكه رمسيس الثانى فى زحفه وقتئذ على فلسطين فما نزال نجهله ، انما المعروف أنه لما بلغ لبنان كان زاحفا على شاطىء فينيقيا الذى أخضعه فى السنة السابقة . وجاء عن جلالته أنه أسس هناك مدينة سميت باسمه لاستعمالها قاعدة لأعماله الحربية فى المستقبل على الأرجح ، وللآن لم نعرف موضع هذه المدينة بالضبط ، ويرجح أنها قريبة من مصب نهر الكلب بالقرب من الشاهد الحجرى السابق الذكر . فى تلك المدينة جمع جلالته قواده وجنوده البواسل ثم زحف (على الأرجح) فى طريق وادى نهر الكلب . ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أنه كان هناك طريق آخر أقل خطرا من هذا الى الجنوب على طريق نهر الليطانى ، لكن رمسيس لم يتبعه لسبب ما نزال نجهله . بعد ذلك يمم جلالته نحو نهر العاصى متبعا اياه وذلك فى أواخر شهر مايو أى بعد مرور تسعة وعشرين يوما على مغادرته حصن ثارو . وضرب جلالته خيامه فوق آخر قمة شمالى الوادى المرتفع بين سلسلتى جبال لبنان ، وهذا المكان يشرف على قادش ويبعد عنها بمسيرة يوم واحد ، ولذلك يجوز أن حصون هذه المدينة كانت ظاهرة لجنود رمسيس فى الأفق حيث يحول نهر العاصى مجراه مخترقا ذلك الوادى .

فلما طلع نهار اليوم التالى حل رمسيس خيامه وزحف فى مقدمة فيلق آمون تتبعه الفيالق الأخرى وانحدر بقواته على المنحدر الأخير نحو فرع نهر العاصى القريب من مدينة شابتونا (Shabtuna) المعروفة عند اليهود باسم ربله (Ribleh) . واذا أمعن القارىء فى جغرافية تلك الجهات يجد أن نهر العاصى يخترق منذ الآن أرضا سهلة ، بعد خروجه من الوادى العميق بين سلسلتى الجبال الشامخة . وسار رمسيس ثلاث ساعات ثم جهز عدته لأن يعبر نهر العاصى الى الغرب متجها نحو قادش وبهذه الطريقة تمكن جلالته من عبور هذا النهر الواسع قبل أن يهجم على قادش من الجنوب (خريطة رقم ٨) . واقتضى نظام الجيش أن يقدم ضباطه أخبارهم كل يوم لجلالة الملك فكانوا يخبرونه بعدم عثورهم على جيش العدو قائلين له انهم يرجحون وجوده شمالى الجهة التى احتشدوا فيها . عند ذلك ظهر بدويان ادعيا أنهما هربا من جيوش الحيثيين وقالا ان ملك الحيثيين انسحب بقواته شمالا الى اقليم حلب شمالى تونب فصدق رمسيس هذه القصة لانطباقها على عدم عثور طلائع المصريين عن موقع الحيثيين . حينئذ عبر جلالته النهر مسرعا مصحوبا بفيلق آمون وزحف شمالا متبوعا بفيالق رع وبتاح وسوتخ سائرة الهوينى على هذا الترتيب ورغب جلالته فى حصار قادش ذلك اليوم ، فأسرع مصحوبا بحرسه الخاص



خريطة رقم ٩ : معركة كدش
مراكز القوات المحاربة وقت هجوم
الاسيويين

فقط غير مسبوق بعجلة واحدة تاركا خلفه فيلق آمون يتبعه ، فبلغ جلالته قادش وقت الظهيرة وكان متلا حاشدا جيشه فى الشمال الغربى لقادش . وأصبح مركز رمسيس حرجا للغاية لأن الفيالق المصرية الأربعة كانت متفرقة على مسافة ثمانية أو عشرة أميال من الطريق وكان ضباط فيلقى رع وبتاح يستريحون فى ظـلال الغابات المجاورة اثر سيرهم الحثيث المتعب . ثم اتضح لمتلا أن رمسيس صدق كلام البدو وبين اللذين أرسلهما لخداعه فأعد عدته لاغتنام الفرصة فلم يهجم على رمسيس حالا بل سحب قواته الى شرقى العاصى ولكن رمسيس استمر سائرا شمالا غربى قادش وحينئذ أخذ متلا ينسحب جنوبا شرقى المدينة خلسة جاعلا المدينة فاصلا بينه وبين رمسيس كى لا يراه . بهذه الكيفية أحرز متلا موقعا حربيا يمكنه اذا أحسن استعماله أن يسحق به رمسيس وجميع قواته بغاية السهولة .

فى هــذا الوقت العصيب كانت القوات المصرية مجزأة تقريبــا الى جزءين : جزء قريب من قادش مؤلف من فيلقى آمون ورع ، وجزء آخر

مؤلف من بتاح وسوتخ جنوبى قادش لم يعبر فرع شابتونا (ربله) عند مصبه فى العاصى (خريطة رقم ٩) . ولبعد فيلق سوتخ كثيرا عن حومة الوغى لم يسمع عنه شىء ولم يشترك فى العراك ذلك اليوم . ثم أراد رمسيس أن يستريح فى الشمال الغربى لقادش وهو على الأرجح المكان الذى حشدت فيه قوات الحيثيين فى طليعة اليوم .

فى هذا الموضع ضرب رمسيس خيامه للاستراحة وقت القيلولة . بعد ذلك بزمن قصير وصل فيلق آمون وضرب خيامه حول السرادق الملكى وأقام الاستحكامات الخارجية حول المعسكر . ثم أخذت عجلات المؤونة ترد تباعا ففصلت منها الثيران وجمعت النقالات ذات العجلتين فى مكان منفرد ضمن الاستحكامات المذكورة . وكان الجنود المصريون المتعبون يتلكأون ويسقون خيلهم ويجهزون غذاءها ، فظهر وقتئذ جاسوسان آسيويان أحضرتهما الطلائع المصرية الى خيمة رمسيس الملكية فلما ضربا ضربا مؤلما أقرا بأن متلا خبأ جميع قواته خلف المدينة . فاستشاط رمسيس غيظا لذلك واستدعى حالا قواده وموظفيه ووبخهم كثيرا على اهمالهم فى عدم معرفتهم موقع العدو ودنوه منهم ثم أمر وزيره فى الحال باحضار فيلق بتاح بغاية السرعة ، ويرجح جدا أن الوزير نفسه هو الذى قام بهذه المأمورية شخصيا تخلصا من اهماله وصونا لشرفه . ويستدل من طلب رمسيس لفيلق بتاح فقط أن فيلق سوتخ كان بعيدا لا يمكنه الحضور والاشتراك فى القتال لأنه لم يعبر حتى ذلك الوقت غدير شابتونا (ربلة) . ويستنتج أيضا من رسالة الملك أنه كان عالما بقرب فيلق رع منه واستعداده للقيام بأوامره ، ولكنه لم يدر بخلد رمسيس وقتئذ مقدار خطورة مركزه ولا عظم النكبة الموشكة أن تسقط على فيلق رع التعس . « وبينما كان جلالته يوبخ أمراءه على اهمالهم اذا بملك الحيثيين عبر نهر العاصى جنوبى قادش قائدا جيشه العرمرم المستجمع من ممالك عديدة ، وكان ظهور هؤلاء الأعداء من جنوبى قادش فشطروا رع شطرين وهو سائر على غرة غير مستعد للدفاع » .

هكذا وصف المكاتب الحربى تلك الحادثة المؤلمة وهو غاية فى الايجاز والوضاحة مما يصعب على مكاتبى الحروب الحديثة أن يأتوا بأبلغ منه .

وكانت جميع قوات الحيثيين راكبة عجلاتها أما فيلق رع فكان مكونا من المشاة فقط ولذلك سهل شطره وتشتيته . والظاهر أن القسم الجنوبى لهذا الفيلق أبيد كله ، أما الباقى فهرب نحو خيام رمسيس مذعورا تاركا عدوه وأدواته مبعثرة فى الطريق ، فأسر الحيثيون منهم عددا عظيما .

وكان أول ما فعله ضباط فيلق رع أن أرسلوا رسولا الى رمسيس رأسا ليخبره بالكارثة ويظهر لنا أن أول نذير وصل الى جلالته كان دخول

وحدات فيلق رع عليه مذعورين هاربين بينهم نجلا جلالته ، فألقى هؤلاء أنفسهم داخل معسكر آمون لكنهم كانوا متبوعين بعجلات الحيثيين • عند ذلك أسرع حرس رمسيس المشاة فى تخليص وحدات رع من الأعداء ولكن الخطر كان شـــديدا فعجلات الحيثيين كانت تنيف على الألفين ولخمسمائة • ثم اقترب الحيثيون من المصريين واتسعت مقدمتهم ، حتى طوقت المعسكر المصرى تماما •

وبدهى أن فيلق آمون تلقى جنود رع المذعورين بصدمة كالصاعقة، لأنه لم يكن مستعدا للقتال ، بل كان يحاول الراحة من عناء السفر•وهكذا انتشر الذعر بين وحداته فهربت هذه شمالا نحو خيام رمسيس ودب الذعر أيضا فى معظم قوات الملك التى حوله • أما قواته الأخرى الجنوبية فكانت بعيدة تفصلها عنه قوات الحيثيين ولذلك لم يكن هناك أمل فى مساعدتها • من ذلك يتضح للقارىء أن هزيمة رمسيس أوشكت أن تكون تامة لا مناص منها (خريطة رقم ١٠) •

فى تلك البرهة الرهيبة لم يتردد رمسيس لحظة فيما يجب عليه أن يفعله على قصر الوقت الذى لديه ، فحاول جلالته أن يخترق صفوف أعـداثه المحيطة به ليلتحق بقواته الجنوبية فاعتلى عجلتـه التى كانت بانتظاره وقاد بنفسه حرسه الخاص وبعض الضباط والجنود القريبين منه وهجم بشجاعة نادرة على الحيثيين المتدفقين عليه غربا ، فاتضح له



خريطة رقم ١٠ : معركة قادش تبين كيفية فصل قوات رمسيس الثانى عن بعضها واحاطة العدو به ــ الدور الثـانى للمعركة •

أن قوات العدو فى الغرب والجنوب عظيمة جدا لا أمل فى اختراقها فعاد جلالته الى معسكره ، وتأكد أن عجلات الحيثيين فى الشرق أضعف قوة لعدم وجود الوقت الكافى لديها للاستعداد فيه · عند ذلك صوب جلالته قوته المستميتة وشدته الفرعونية نحو تلك القوات الشرقية فأوقع بينهم الرعب والذعر وألقاهم فى النهر تحت أعين متــلا الواقف على الشاطىء المقـابل مصحوبا بثمانية آلاف من المشاة · فى تلك اللحظة رأى ملك الحيثيين ضباطه العديدين وكاتبه الخصوصى وقائد عربته الشخصية وقائد حرسه الخاص وأخاه يلقون جميعا فى النهر تحت هجمات فرعون الشديدة· فأخذ جنود متلا على الشاطىء ينجون رجالهم الغرقى وكان بينهم ملك حلب الذى أسعف من الغرق بصعوبة · وقد ضاعف رمسيس مجهوده على تلك الجهة باستمرار حتى شتت شمل أعدائه هناك ·

فى تلك الساعة حصل أمر كثير الحصول بين جنود الشرق نجى رمسيس من الهلاك الكلى · وتفسير ذلك أن الحيثيين الذين اقتفوا أثر المصريين من الجنوب والغرب وجدوا أدوات وأمتعة المصريين مبعثرة أمامهم بكثرة فأخذوا يسلبونها بدلا من الاستمرار فى مطاردة المصريين والقضاء عليهم · والحقيقة أنهم لو فعلوا ذلك لكسروا المصريين شر كسرة ولتمكنوا من أسر رمسيس نفسه·واتفق فى الوقت الذى كان هؤلاء الأعداء يسلبون أمتعة المصريين أن وصلت امدادات حربية مصرية آتية من الشاطىء غير الفيالق الأربعة السابقة الذكر للالتحاق بجيش رمسيس ، فانقضت هذه القوة على الحيثيين على غرة وأبادتهم عن آخرهم ·

ولا شك فى أن هجوم رمسيس الشديد بجهة نهر العاصى والمذبحة العظمى غير المنتظرة التى قامت بها تلك « الامدادات » الآتية بين الشاطىء أضعفا كثيرا من عزيمة الحيثيين وقللا من همتهم وأعطيا رمسيس فى الوقت نفسه مدة كافية للم شعث جيشه · وأخذت بعد ذلك وحدات آمون الهاربة تعود الى معسكرها وتنضم الى « الامدادات » فقل بذلك خطر مركز رمسيس الحربى وبقى جلالته منتظرا فيلق بتاح ·

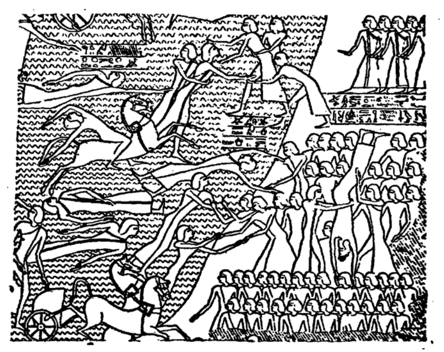
والمعروف أن المصريين دافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال حتى اضطر متلا الى أن يمد جنده بآخر رديف عنده وهو المكون من ألف عجلة حربية مسلحة · وبالرغم من هجوم رمسيس على أعدائه ست مرات فان متلا لم يرسل جنده المشاة الثمانية الآلاف الذين كانوا معه على شاطىء النهر الشرقى ، ولذلك لم يحارب من الحيثيين الا قسم العجلات الحربية أما المشاة فلم يشتركوا فى الكفاح · وليلاحظ أن مقـاومة رمسيس دامت حوالى ثلاث ساعات كان يراقب بشغف فى أثنائها وصول قواته الجنوبية القريبة من شابتونا (ربله) · ولما مالت الشمس للمغيب لاحت فى أفق السماء

رءوس حراب فيلق بتاح لامعة مبرعة مكفهرة فابتسم لها محيا رمسيس اذ علم بقرب نجاته ، فوقع الحيثيون بين قوتين مصريتين واضطروا بحكم مركزهم الى أن ينسحبوا الى قادش بعد ما تكبدوا خسائر جسيمة على الأرجح ٠ والحق يقال اننا ما نزال نجهل كثيرا عن هذه الحوادث انما الثابت أن الليل لم يجيء حتى نجا رمسيس من ورطته واحتمى عدوه داخل قادش٠ بعد ذلك أحضر الأسرى أمام جلالته فذكر تابعيه أن الفضل فى أسر هؤلاء يرجع اليه وحده دون سواه ٠

وقد طفحت الآثار المصرية بوصف رجوع جنود رمسيس الهاربين اليه ثانيا وما رأى هؤلاء من القتل والفتك الذريع الذى حل بالحيثيين وبالأخص حاشية متلا الخصوصية والحكومية ٠ ولا مراء فى صدق هذه الروايات لأنه من المؤكد أن الحيثيين خسروا كثيرا اثر هجوم رمسيس عليهم بجهة النهر شمالى قادش واثر وصول فيلق بتاح ٠ لكن خسارة رمسيس كانت جسيمة أيضا وعلى الأخص خسارة فيلق رع ولذا لا يبعد أن يكون المصريون خسروا أكثر من الحيثيين ٠ ومن هذا يتضح للقارىء أن فوز رمسيس فى هذه المعركة ينحصر فى نجاته من الهلاك المحدق به ، أما احتفاظ جلالته بمركز دفاعه مدة القتال وبعده فلا قيمة له بجانب النتيجة المذكورة ٠

وجاء فى احدى الروايات المصرية عن هذه المعركة أن رمسيس كرر هجومه على الحيثيين بشدة عظيمة فأرسل متلا خطابا الى جلالته رجا فيه الصلح فوافق رمسيس على هذا الطلب ثم رجع منتصرا الى مصر ٠ ولم تذكر باقى الروايات شيئا عن حوادث اليوم التالى ولكن يستدل منها أن هم رمسيس كان موجها للتخلص من ورطته وقيادة جنوده المشتتين ثانية الى مصر ٠ ولم يرد فى رواية واحدة خبر استيلاء جلالته على قادش ومع ذلك فقد ذكر كثير من الأثريين هذا الأمر بدون دليل تاريخى ٠

وبمجرد نجاة رمسيس من الخطر الذى جره اليه طيشه أخذ يباهى بفعله للتخلص من هذا المأزق ، فنقش على جميع عماراته الضخمة المهمة أخبار هذه الموقعة الحربية باسهاب ما اعتبره هو ورجال حاشيته جديرا بالذكر ٠ وتشاهد أخبار هذه المعركة منقوشة نقوشا بارزة زاهية على جدر معبد أبى سنبل والدر والرمسيوم ، معبد جلالته بطيبة ، ومعبد الأقصر والكرنك والعرابة وغير ذلك من العمارات التى بليت الآن ٠ ومن أهم الاستكشافات الحديثة التى عملت فى بوغاز كوى بآسيا الصغرى العثور على نص هذه المعاهدة مكتوبا بالخط المسمارى٠وعثر أيضا على نصوص مسمارية أخرى بتلك الجهة استدل منها أن النفوذ الحيثى كان مبسوطا على مملكة آمور وواصلا الى شمال فلسطين (مأخوذة عن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبردج صحيفة ١٥ طبعة سنة ١٩٢٥) ٠



شكل (٣٧) منظر من مناظر النقوش البارزة لمعركة قادش يشاهد فيهالأسيويون هاربين نحو العاصى وأخوانهم على الجهة الاخرى للنهر ينتشلونهم منه · ويرى ايضا ملك حلب مقلوبا وراسه الى اسفل بواسطة جنده لاخراج ما ابتلعه من المياه ·

واهتم حفار هذه النقوش برسم المعسكر المصرى ورجـوع أنجـال رمسيس بعد هربهم وهجوم رمسيس بشدة على الحيثيين جهة العاصى ووصول الامدادات المصرى التى أسعفت المعسكر فى آخر الأمر · وقد أكثر أمام رمسيس من رسم قتلى الحيثيين ونقش جوار عظمائهم اسم كل منهم ومنه استدل أن بعضهم كانوا أمراء ومن أسر ملكية · ويرى الشاهد على شاطىء العاصى الشرقى جنودا حيثيين رافعين شخصا مقلوبا رأسه الى أسفل محاولين اخراج ما تجرع من مياه النهر وبجوار هذا الشخص نقوش ترجمتها : « الحاكم اللعين والى حلب قلبه جنده جاعلين أعلاه أسفله بعد ما ألقاه جلالة الملك رمسيس الثانى فى الماء » (شـــكل ٣٧) · وهذه النقوش أكثر الآثار المصرية تعلقا بأذهان زوار مصر ·

وعثر على روايتين لهذه المعركة مستهلتين بديباجة ملكية ، يظهر منها أن الروايتين كانتا بمثابة بلاغين رسميين عن سير المعركة · وقد وضع أحد شعراء ذلك العصر قصيدة رنانة ضمنها أخبار تلك المعركة سيأتى الكلام عليها · ومما يستلفت النظر فى نصوص روايات هذه المعركة عبارة « انفراد رمسيس فى القتال ودفاعه وحيدا بلا جيش معه » فقد وردت مكررة كثيرا ·

ونحن مدينون الى النصوص القديمة في معارفنا عن معركة قادش المعتبرة أقدم المعارك الحربية المعروفة بالضبط ، وهذا هو السبب في اسهابنا في وصفها أكثر من سواها ، فاتضح للقارىء أن أهالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد كانوا ملمين بميزات المواقع الحربية وتقسيم القوات المحاربة قبل القتال ، وأن الحيثيين برعوا فى القيام بحركات خفية دون معرفة المصريين وأنهم قسموا جيشم الى قلب وجناحين ، ولذلك كانت معركة قادش أقدم معركة تاريخية استعمل فيها هذا التقسيم الحربى · وبناء عليه تكون سهول سوريا شاهدت أقدم أنواع هذه الحركات الحربية التى أتقنها نابليون وفاق فيها سواه والتى تعرف الآن « بفن الانتصار قبل العراك » ·

ولما وصل رمسيس الثانى الى طيبة أقيم له احتفال عظيم بمعبد الحكومة وكان معه أبناؤه الأربعة ، فقدم هناك جلالته للمعبودات « أسراه الشماليين الذين أردوا هزيمة جلالته ففتك بهم وأحضر أسراهم ليخدموا في مخازن أبيه آمون » ثم نحل رمسيس لنفسه الألقاب الآتية : « مثل الأراضي والبلدان وحيدا دون سواه » (٢) ·

وبالرغم من مباهاة رمسيس بهذا المديح واعجابه ببسالته فقد أيقن أن الحالة التى تركها بآسيا خطيرة بالنسبة للجيوش المصرية هناك ، لأن تأثير معركة قادش المعنوى فى حكام فلسطين وسوريا كان ضعيفا رغم ما أظهره رمسيس من الشجاعة والاقدام ثم ان رمسيس رجع الى مصر بسرعة دون أن يحاصر قادش · زد على ذلك أنه خسر هناك فيلقا من جيشه · كل هذه أسباب قللت كثيرا من هيبة المصريين بآسيا وعرضت جيوشهم فى المستقبل للمخاطر · ثم ان الحيثيين اتخذوا عدم الفصل فى معركة قادش مجالا للتحرش فوطدوا نفوذهم بآسيا وبثوا الفتن والقلاقل بالمستعمرات الآسيوية · وقد قلنا فيما سبق أن سيتى الأول استرجع شمالى فلسطين فتاخمت امبراطوريته مملكة الحيثيين فسهل على الأخيرين اشعال الفتنة والثورة فى مستعمرات مصر هناك · وقد حصل فعلا أن شبت نيران الثورة تدريجا حتى بلغت الشمال الشرقى للدلتا فاضطر رمسيس الى أن يبنى امبراطوريته من جديد وأن يسترجع ما فتحه والده · ومعلوماتنا عن تلك العصور يسيرة جدا ، زد على ذلك أن ما ورد الينا من أخبار تلك الحوادث مشكوك في صحته · وكل ما يمكننا ذكره هنا أن رمسيس جدد حملاته الحربية على آسيا مبتدئا بمدينة عسقلان التى استولى عليها عنوة واستمر كذلك الى السنة الثانية من حكمه حيث وردت الأنباء بأنه زحف على شمالى فلسطين جائلا فى مدن الجليل (Galilee)

---

(٢) معركة قادش صحيفة ٤٧ ·

الغربية ، وهناك التقى مع حراس الحدود الحيثيين الذين زحفوا جنوبا بعد معـركة قادش ، وكان هـذا الالتقـاء بالقرب من مدينر دبر (Deper) المعروفة عند العبرانيين باسم طابور (Tabor) فاستولى على هذه المدينة عنوة وساعده فى ذلك أنجاله وذلك بعد ما أقام بها الحيثيون مدة يسيرة · ويرجح أنه أغار أيضا على اقليم حوران (Hauran) واقليم الجليل شرقى البحر حيث ترك هناك حجرا أثريا أثبت عليه غزوته ·

ولم تمض ثلاث سـنوات على ذلك حتى بلغ رمسيس الثانى حدود مستعمراته الآسيوية التى تركها منذ أربع سنوات · والحق يقال ان نتائج أعمال هذا الملك بآسيا تشهد له بكبر الهمة وعظم الكفاية الحربية ، فقد جاء عنه انه كرر زحفه على وادى العاصى وطرد الحيثيين منه ، وأن قواته حاربت شمالى قادش فاستنتج ضمنا أنه استولى على هذه المدينة · بعد ذلك زحف على تونب فى بلاد النهرين فاستولى عليها ونصب فيها تمثالا لنفسه · والمعلوم أن هذه الجهات النائية لبثت مدة طويلة منشقة عن الحكم المصرى فلم يكن اخضاعها بعد ذلك أمرا هينا · ثم انها كانت آهلة بالحيثيين الذين رضوا أن يكونوا تحت حكم رمسيس على الأكثر · ولهذه الأسباب لم تستتب السكينة هناك طويلا بل شبت نار الفتنة بسرعة فاضطر رمسيس الثانى الى أن يذهب الى تونب ثانية ويطرد الحيثيين منها ، وقد تعرض وقتئذ لمخاطر جمة فقد اضطر الى أن يحارب بدون درع يقيه من السهام · ولما كانت أخبار هذه المعركة قليلة جدا نجد أنفسنا عاجزين عن الخوض فى تفاصيلها · ولكن يستدل من قائمة البلاد التى أخضعها اثرها أنه استولى على بلاد النهرين وشمالى سوريا (الرتنو السفلى) وأرواد وسكان أرخبيل اليونان (الكفتيو) وقطنه (حمص) التى بوادى العاصى· وقد أثبتت هذه النتيجة مهارة رمسيس الحربية والسياسية لأنه قوض مملكة الحيثيين فى سوريا تماما ، ومع ذلك ، فاننا ما نزال غير متأكدين من صحة اخضاع رمسيس لجميع هذه الجهات الآسيوية الشمالية ·

وثابر رمسيس الثانى على حروب آسيا خمس عشرة سنة تقريبـا ثم حصل حادث داخلى هام بمملكة الحيثيين وقف حروبه هناك فجأة الى الأبد· ويتلخص هذا الحادث فى أن متلا ملك الحيثيين توفى فى معركة حربية (أو قتل بيد عدو له ؟) فتبوأ أخوه خيتاسار (Khetasar) الملك بعده · ولشدة حاجة هذا الأخير الى حفظ مركزه واسكات معارضيه عرض على رمسيس الثانى مشروع معاهدة لابطال الحروب وتوطيد السلام بينهما بآسيا · وفى السنة الحادية والعشرين من حكم رمسيس الثانى (أى حوالى سنة ١٢٧٢ قبل الميلاد) وصلت رسل خيتاسار الى القصر الفرعونى وكان وقتئذ بالدلتا كما سيتضح فيما يلى · ولابد أن يكون الطرفان اتفقا سابقا

على صورة هذه المعاهدة بمساعي ممثليها ، لأن الآثار دلتنا أن الرسل لم يرسلوا وقتئذ الا للموافقة النهائية على المعاهدة • وقد نقشت هذه المعاهدة على لوح فضى وتشمل ثمانى عشرة مادة رسمت أعلاها المعبودة سوتخ محتضنة ملك الحيثيين وبجوارها المعبــودة عينها محتضنة ملكة الحيثيين المدعوة بوتوخيبا (Putukhipa) زوج خيتاسار •وبجوار هذه الرسوم وضعت اختــام ســوتخ معبودة الحيثيين ورع معبود ارنين (Ernen) ورمسيس وخيتاســار • ويرجع أن ملك الحيثيين احتفظ بنسخة أخرى من هذه المعاهدة ، وتعتبر هذه أقدم معاهدة دولية معروفة واليك ترجمة ديباجتها :

« معاهدة منقوشة على لوح فضى بين ملك الحيثيين خيتاسار الشجاع ابن ميراسار ملك الحيثيين الشجاع ابن ابن سبلل ملك الحيثيين الشجاع (طرف أول) ورمسيس الثــانى الملقب أوسر ماعت رع ـ ســتبن رع (Usermere-Setepnere) حاكم مصر الأعظــم الشجاع ابن سيتى الأول حاكم مصر الأعظم الشجاع ابن ابن رمسيس الأول حاكم مصر الأعظــم الشجاع (طرف ثان) •

هذه المعاهدة الطيبة عملت لحفظ السلام والاخاء واستتباب السكينة بين الطرفين الى الأزل •

يلى ذلك سرد الأحوال والعلاقات القديمة بين مصر ومملكة الحيثيين ثم وصف العلاقات والمعاملات الحديثة ثم الشروط الواجب مراعاتها فى المستقبل وأهمها وقوف غزوات كل فريق لأراضى الآخر وارجاع العلاقات الودية الى أصلها ومساعدة كل فريق للآخر فى حالة هجوم دولة ثالثة أجنبية عليه والتعاون فى عقاب أشقياء الطرفين فى سوريا (غالبا) وطرد الهاربين السياسيين والمهاجرين التابعين لكل فريق الى بلاده • يعقب ذلك ملحق يحض على استعمال الرأفة فى معاملة هؤلاء الأشخاص والاستشهاد بالف معبود ومعبودة من مملكة الحيثيين والف معبود ومعبودة من مملكة مصر لهذه المعاهدة ، وقد علمنا منها عدة معبودات حيثية ومحل عبادتها • وتنتهى المعاهدة بصب اللعنات على كل من يخالف شروطها وبطلب الرحمة والسلام لكل من يحترمهــا • والظاهر أن الملحوظة الأخيرة صيغت فى آخر الأمر •

وقد أمر رمسيس بنقش صورتين من هذه المعاهدة بسرعة على جدر معبدين له بطيبة دبجهما بوصف وصول رسل الحيثيين وأورد بعد ذلك رسم المعبودات والأشخاص الوارد ذكرهم فى اللوح الفضى المذكور • وقد عثر وينكلر (Winkler) على صــــور مبدئية لهذه المعــاهدة منقوشة بالخط المسمارى على قالب لبن فى بوغازكوى بآسيا الصغرى •

ولم يرد بهذه المعاهدة بيان حدود المملكتين الحيثية والمصرية بآسيا ولكن يرجع أنها عينت في معاهدة سابقا • ومن الصعب وصف هذه الحدود بالضبط • ولكنه يستدل من النقوش المسمارية التى عثر عليها وينكلر (Winkler) في عاصمة الحيثيين بوغار كوى منذ عام ١٩٠٦ وهي التى أشرنا اليها سابقا أن الحيثيين استمروا حاكمين أمورا بأعالى العاصى • لذلك لم يثبت تماما اذا كان رمسيس الثانى وسع حدود مستعمراته كثيرا عن حدود والده ولكن الظاهر أنه أبعدها جهة الشاطىء قرب بيروت ، لأنه أقام حجرين أثريين غير الحجر الذى ذكرناه فى السنة الرابعة من حكمه • ويفهم من نصوص المعاهدة أن رمسيس الثانى تواضع فساوى نفسه بملك الحيثيين ، وهذا لم يمنع رمسيس أن يدعى لنفسه الفوز والنصر وينحل لقب « قاهر الحيثيين » كما هى العادة بالبلاد الشرقية •

منذ ذلك الوقت انتهت الحرب وخيم السلام على المملكتين ، فوقف رمسيس الثانى بآسيا عند حده • والظاهر أن شروط المعاهدة جاءت فى مصلحة الطرفين كثيرا لأنه بعد ابرامها بثلاث عشرة سنة (حوالى سنة ١٢٥٩ قبل الميلاد) زار ملك الحيثيين مصر وحضر الاحتفال بزواج كريمته الكبرى برمسيس الثانى • ودلتنا الآثار أن مجىء ملك الحيثيين الى مصر استدعى اقامة احتفال عظيم بالقصر الملكى تقدمته كريمة جلالته متبوعة بالهدايا الجزيلة ثم جلالة خيتاسار نفسه ثم ملك كود (Kode) • واختلط وقتئذ حرس الحيثيين بالجنود المصرية بعد ما كانوا ألد الأعداء ثم سميت الأميرة الحيثية باسم مرى هو مآت نفرو رع (Matnefrure) أى الناظرة محاسن رع واحتلت مكانا مبجلا فى القصر الملكى •

وتشاهد رسوم هذه الزيارة على مدخل معبد رمسيس بأبى سنبل ، وقد أقيم للأميرة بعد ذلك تمثال بجوار تمثال زوجها فى مدينة تانيس (Tanis) • ووصف الشعراء الملكيون هذه الاحتفالات فى قصائد رنانة، أوضحوا بها طريقة ارسال ملك الحيثيين الى ملك كود ملتمسا مرافقته لمصر لتقديم واجبات الاحترام لفرعونها • ومما جاء فى هذه القصائد أن المعبود بتاح كان وسيلة هذا الفرح وقد وضعت الأشعار مقولة عن لسان هذا المعبود واليك ترجمة ما جاء فى هذا الصدد :

« لقد جعلت مملكة خيتا خاضعة لقصرك ، وألقيت الرعب فى قلوب أهلها فحضروا اليك وجلين حاملين هداياهم ، التى غنمها سراتهم ، وما يتملكونه جزية لصيتك الذائع • لقد أحضرت كريمة ملك خيتا الكبيرة فى مقدمتهم لأطيب بها قلب سيد القطرين » •

وكان لهذه الحادثة تأثير كبير في نفوس المصريين فبني عليها العوام قصة تداولها الأهالي مدة طويلة ولم تنقش على الآثار الا في عهد اليونان ٠ وتبدأ نقوش هذه القصة بوصف الزواج يلي ذلك طلب حمي رمسيس الثاني إرسال تمثال المعبود خونسو بطيبة الى مدينة بختن (Bekhten) ويظن انها باكتريا (Bactria) وذلك لطرد الأرواح الخبيثة الحالة بجسم أخت زوجة رمسيس ٠ ولا يبعد أن يكون حصول مثل هذه الأمور امرا حقيقيا ، إذ من الثابت أن العلاقات الحسنة بين الحيثيين ورمسيس استمرت بدون انقطاع ، ويحتمل أن رمسيس تزوج بكريمة أخرى من ملك الحيثيين ٠ وقد بقي السلام مخيما بين الطرفين ضاربا أطنابه ، والمعاهدة نافذة المفعول طوال حكم رمسيس الثاني وفي بعض حكم مرنبتاح (Merneptah) الذي أتى بعده ٠

ولا شك في أن استمرار رمسيس الثاني في حروبه مع الحيثيين خمس عشرة سنة أو ست عشرة سنة أعلى كثيرا من مكانته وأذاع من صيته الحربي ٠ والمعركة الواحدة التي نعلم تفاصيلها بالضبط تشهد له حقيقة بالبسالة والشجاعة دون المهارة في القيادة الحربية ٠ والمعروف أنه لما أعلن صلحه مع خيتاسار امتنع عن الحرب امتناعا كليا ٠ وقد حصلت في النوبة مشاغبات في السنة الثانية من حكمه لكنها أخضعت ثم تجددت هذه الى ما بعد صلح الحيثيين ولأنها لم تكن ذات بال لم يذهب اليها رمسيس شخصيا بل عهد في اقماعها الى غيره من الضباط ٠ ودلتنا الآثار أن رمسيس الثاني حارب الليبيين ويرجح أن هذا كان نتيجة اتحاد الشردينيين (Sherden) مع الليبيين لنهب غربي الدلتا ٠ وما تزال معلوماتنا عن هذه الحرب قليلة تكاد تكون معدومة ٠

وتعتبر حروب رمسيس الثاني بآسيا آخر مجهودات مصر الحربية التي بدأ بها أحمس الأول لما طرد الهكسوس ٠ بعد ذلك قام المصريون ببعض الحملات الحربية لاسترجاع المستعمرات الفلسطينية والسورية المفقودة ولكن ذلك كان بمساعدة جنود مأجورين غير مصريين أو نتيجة امتزاج الدم الفرعوني بدم أجنبي ٠ وأصبح الجيش المصري منذ ذلك الوقت آلة دفاع لصد هجوم الأجانب ، ثم عجز الفراعنة عن قيادته ، ولم يحصل ذلك الا بعد انتهاء حكم الفراعنة المنتسبين الى المعبود رع ٠

الفصل الثاني والعشرون

امبراطورية رمسيس الثانى

لما بسطت مصر سيادتها على آسيا اضطرت بحكم الظروف الى أن تنقل عاصمة ملكها من طيبة الى الوجه البحري • وأول من نقل العاصمة فى عهد الامبراطورية هو اخناتون الذى اختار مدينة آخت آتون لهذا الغرض • فلما جاء حور محب ـ وهو القول الأرجح ـ أرجع الحكم ثانيا الى طيبة • وقد ألمعنا سابقا الى أن الظروف الادارية اضطرت سيتى الأول الى أن يمضى بضعة أشهر بالدلتا • والآن نعلم القارىء أنه لما تولى رمسيس الثانى الملك وأخذ يشن غاراته على آسيا التزم أن ينقل مركز حكومته الى الدلتا ، ومن ثم أضحت طيبة مركزا دينيا فقط لا يؤمها فرعون الا وقت الاحتفالات الدينية الكبرى • وبدهى أن اقامة فرعون بالدلتا رقت كثيرا من حالة مدنها وعظمت من شأنها ، فمدينة تانيس (Tanis) مثلا صار لها مقام عظيم فكبر حجمها وأقيم بها معبد شامخ مصبوغ بالصبغة الرمسيسية ، نصب على صرحه تمثال عظيم لرمسيس مصنوع من صخرة جرانيتية واحدة • أما ارتفاع هذا التمثال فينيف على تسعين قدما وتقرب زنته من تسعمائة طن وكان يبدو للعيان على مسافة أميال عديدة (١) • وقد اعتنى رمسيس كثيرا بوادى طميلات وهو على الأرجح فى طريق القناة الموصلة وقتئذ النيل بالبحيرات المرة ، لأنه كان ممرا هاما بين القطر المصري وآسيا ، فشيد فى منتصفه مدينة بيتوم (أو فيثوم) (Pithum) ـ ومعناها معبد آتوم ـ وجعلها مخزنا للحبوب وشيد أيضا مع سيتى الأول مدينة أخرى غربى بيتوم وشمالى عين شمس تعرف الآن بتل اليهودية • وأنشأ رمسيس مدينة ثالثة أيضا شرقى الدلتا سماها برمسيس (Pre-Ramses) ـ أى بيت رمسيس ـ لم نهتد للآن الى موقعها بالضبط ولكن يظن البعض أنها تانيس (Tanis) ، والغالب أنها

---

(١) Petrie, Tanis, I, 22-4.

واقعة على حدود مصر الشرقية لأن بعض شـــعراء ذلك الوقت وصف محاسنها بأسلوب يفهم منه أنها بين مصر وسوريا · ومما جاء عن هذه المدينة الأخيرة أيضا أنها كانت على اتصال بالبحر الأحمر · وقد أصبحت بررمسيس مقر الحكومة وعاصمة البلاد فحفظت بها المكاتبات الرسمية وعبـد فيهـــا رمسيس كأحــد آلهتهـا · أما وزير الدولة فكان يقطن عين شمس (٢) ·

ولما ارتقت أقاليم وسط شرقي الدلتا وكثرت أعمال ومآثر رمسيس بها أطلق عليها اسم « اقليم رمسيس » · وقد ثبت الآن بصفة قطعية أن هذا الاقليم هو الوارد ذكره في رواية بني اسرائيل أيام سيدنا يوسف ، تلك الرواية التي يرجع تاريخ حوادثها الى ما قبل الرعامسة بمدة ·

وليعلم أن فتوحات رمسيس الآسيوية لم تكن وحدها سبب رخاء ورقي شرقي الدلتا ، بل الفضل في ذلك يرجع أيضا الى نشاطه وهمته والى أنه نشر لواء العز على البلاد وأفاض عليهـا السعادة والرفاهية · وقد بليت كل آثار رمسيس بعـين شـمس ولم يبق من آثاره بمنف الا النادر · وقد ألمحنا سابقا الى مآثره بالعرابة لما تكلمنا على معبد والده هناك · والآن نذكر القارىء أنه لم يكتف بأعماله هذه هناك بل شيد لنفسه معبدا قريبا من معبد سيتي · وقد أنفق كثيرا على معبد والده بطيبة وفي بنـــاء معبـد لنفسه هناك يعرف الآن بالرمسيوم (Ramesseum) وفي انشاء فناء عظيم وصرح شامخ بمعبد الأقصر · أما القاعدة الكبيرة ذات العمد العظمى بالكرنك التي بدأ بها سيتي الأول وأتمها رمسيس الثاني فتعد من أعظم عمارات العالم القديمة والحديثة ·

وقصارى القول أن اسم رمسيس الثاني ما يزال منقوشا على جميع معابد مصر العظيمة فوق الحجرات والأفنية والعمد والصروح الى يومنـا هذا · وقد استعمل في بنـاء عماراته أحجار مبـاني أسـلافه بلا رأفة ولا مبالاة ، فهدم مثلا معبد تتي (Teti) أحـد ملوك الأسرة السادسـة واستعمل أحجاره في تشييد معبده بمنف (٣) ، كما أتلف أيضا هرم سنوسرت الثاني باللاهون ونزع ما حوله من البلاط وهشم آثاره البديعة ليستعمل أنقاضه في بناء معبده في اهناسيا (هراكليوبوليس) (٤) · أما في الدلتا فلم يظهر أدنى عناية أو اهتمام بآثار الدولة الوسطى ،

---

(٢) نقوش مس. (Mes) .

(٣) Annales, III, 29.

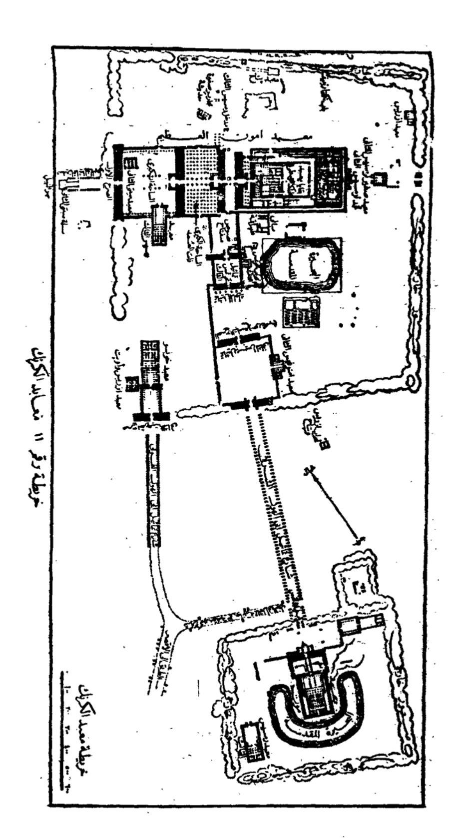
(٤) Petrie, Illahun, p. 4 ; Kahun, p. 22 ; Naville, Ahnas, pp. 2, 9-11, pl. I.

وورد عنه أيضا انه وسع معبد الأقصر بأحجار المعبد الجرانيتى البديع الذى شيده تحوتمس الثالث ، جاعلا وجه الأحجار المختومة بختم تحوتمس من الداخل حتى لا ترى من الخارج ٠

وكتب اسمه على كثير من آثار سلفه ونحلها لنفسه زورا وبهتانا ، ومع ذلك فقد شيد آثارا فاقت عمارات سلفه حجما وشكلا ، وملأ معابده بتماثيله وبالمسلات الشامخة المنقوشة وغير ذلك من الأحجار ٠ والرأى السائد الآن أن تماثيل هذا الملك هى أضخم التماثيل المصرية ، خذ مثلا التمثال الذى ألمعنا اليه قبلا عند الكلام على مدينة تانيس ، ونزيد فنذكر القارىء أن رمسيس صنع تمثالا آخر لنفسه وضعه على صرح الرمسيوم بطيبة أقل حجما وارتفاعا من تمثال تنيس لكنه يزن حوالى ألف طن (لوحة ١٢٤) ٠ والمعهود فيه كثرة نصبه للمسلات فى كل عيد طوال حياته ولذلك بلغت مسلاته عددا كبيرا ، فقد شيد بتانيس مثلا ما ينيف على أربع عشرة مسلة تهشمت كلها الآن ٠ ويوجد فى روما الآن ثلاث مسلات على الأقل لرمسيس وفى باريس احدى المسلتين اللتين نصبهما فى الأقصر ٠

وليلاحظ أن النفقات الباهظة التى أنفقها رمسيس لم تقتصر على نصب المسلات واقامة العمارات ، بل شملت أيضا الأوقاف الكثيرة التى حبسها على مستخدمى تلك العمارات ٠ قال جلالته عن معبد العرابة انه شيده من الحجر الجميل ، وجعل أفاريز أبوابه من الجرانيت ، وأبوابه من النحاس الملبس بخليط الذهب والفضة ، وحبس لمعبوده أوقافا يومية عديدة فى ابتداء كل فصل وفى كل عيد على توالى الأيام ٠ وملأ المعبد بكل ما يحتاج اليه من أدام وخبز ونبيذ وفاكهة ، كما وظف فيه أيضا كثيرا من العبيد المزارعين وضاعف مساحة أراضيه الموقوفة وزاد من قطعان غنمه وطفحت شونه بالحبوب فبلغت أهراؤها عنان السماء ٠٠٠ كل هذه القرابين قدمها لمعبوده المقدس بعد ما استولى عليها بسيفه الظافر ٠ ولم يكتف بذلك بل ملأ خزانة ذلك المعبد بالأحجار الكريمة وسبائك الذهب والفضة وكدس مخازنه بما دفعته المستعمرات من الجزية ثم زرع أيضا حدائقه الكثيرة بالأشجار المتنوعة الزكية الواردة من الصومال ٠

واذا تصورنا أن كل هذه الأوقاف حبست على معبد واحد فقط ولاحظنا أن معابد رمسيس الأخرى كانت عديدة وكبيرة ومماثلة لهذا المعبد ، علمنا أن نفقاتها كانت كثيرة جدا واستنزفت أموال الخزانة المصرية ٠



خريطة رقم ١١ معابد الكرنك

ورغم انتقال عاصمة الملك من الجنوب الى الشمال لم يهمل رمسيس اقليم الصعيد على الاطلاق بل وجه اليه عنايته واهتمام حكومته • فكان يعبد في النوبة كالهها ، وقد شيد هناك ستة معابد لمعبودات مصر العظمى وهي آمون ورع وبتاح وكان جلالته يعبد في كل منها كاله عظيم • وقد عبدت زوجته نفرتاري (Nefretiri) بأحد هذه المعابد • ويعتبر معبد أبي سنبل أهم وأجمل آثار رمسيس الثاني بالنوبة ويؤمه الكثير من الزوار في وقتنا هذا • والمعروف أن النوبة انصبغت في عهد رمسيس الثاني بالصبغة المصرية تماما ، وبالأخص اقليمها الذى هو بين الشلالين الأول ، والثاني فقد انتزع منه الحكام النوبيين واستبدل بهم مصريين ، كما شكلت هناك أيضا محكمة مصرية للنظر في الدعاوى والشكايات تحت اشراف المندوب السامي المصري بالنوبة (٥) •

وبديهي أن العمارات الشامخة التي شيدها رمسيس الثاني تطلبت مجهودات عظيمة وعمالا كثيرين • والمعروف أنه صعب عليه جلب الأسرى من آسيا (لوقوف الحرب هناك) كما فعل أسلافه من ملوك الأسرة الثامنة عشرة ليسخرهم في هذه العمارات ، ونؤكد أن هذه الأبنية شيدت بوسائل السخرة والعسف ، ولذلك لا ريب في صدق رواية العبرانيين من أن رمسيس الثاني استعمل الضغط والقسوة على أجدادهم حتى بنوا له مدينتي بيثوم (لوحة ١٢٥) وبرلمسيس • ولما زاد الضغط عليهم هربت احدى قبائلهم تخلصا من العذاب •

أما معاملات مصر مع فلسطين وسوريا فكانت متينة ثابتة أكثر من أي وقت سالف • وقد جاء في خطاب ضابط مصري كان مرابطا على حدود مصر أيام خلف رمسيس الثـــاني أن جمـــاعة من بدو ادوم (Edom) مروا بوادي طميلات ليرعوا أغنامهم في مراعي بيثوم كما فعل العبرانيون سابقا أيام يوسف عليه السلام • وعثر على مذكرة أخرى غير مرتبة لكاتب أحد القواد المصريين المرابطين على حدود مصر بقلعة ثارو ببرزخ السويس وجد بها قائمة بالأقوام الذين سمح لهم بالمرور هناك وهي تشمل الرسل الذين أرسلوا ببلاغات رسمية الى ضباط حصون فلسطين والى ملك صور (Tyre) والى الضباط الذين صحبوا مرنبتاح في غزوته السورية وكذا أسماء الضباط الذين حملوا المراسلات الرسمية أو المسرعين الى سوريا ليلتحقوا بخدمة فرعون (مرنبتاح) • ومع أن الطريق الموصـــل مصر بفلسطين لم يكن محكم التحصين فقد كان محروسا بعدة حصون مهمة على مسافات مختلفة ، مثال ذلك حصنا ثارو ورمسيس على طول الطريق في القسم الشمالي لبرزخ السويس فيما بين بحيرة التمساح والبحر الأبيض

---

(٥) Erman, Life in Ancienl Egypt, 505.

المتوسط ، ومن ثم ينحنى حط الدفاع حول بحيرة التمساح غربا الى وادى طميلات • وقد أخبرنا بنو اسرائيل أن خروجهم من مصر كان عن طريق الجزء الجنوبى لبرزخ السويس لخلوه من الحصون العائقة • أما التجارة عن طريق برزخ السويس فكانت عظيمة جدا فاقت ما كانت عليه أيام الأسرة الثامنة عشرة • زد على ذلك أن السفن المصرية التجارية بالبحر الأبيض المتوسط كانت تقوم بجزء كبير من التجارة •

ولنتكلم الآن على الحياة الشخصية فى تلك العصور وما حوته من الخيرات ليتصور القارىء عز الامبراطورية المصرية وقتئذ فنقول :

ان مائدة فرعون حوت أندر الزينات وأدوات الترف من قبرص وخيتا وآمور وبابل والنهرين • وكان فى حوزته كثير من العجلات الثمينة وعدد وافر من الأسلحة والسياط والسوارى ذات الرءوس الذهبية من صناعة فلسطين وسوريا • وقد حوت الاصطبلات الملكية جياد الخيل الواردة من بابل وأحسن الغنم الوارد من مملكة الحيثيين (٦) • وصارت لكل وجيه مصرى سفينة شراعية بالبحر الأبيض المتوســـط تحضر له حاجاته من آسيا (٧) كما أضحت لمعبد سيتى الأول بالعرابة سفن خاصة وهبها له رمسيس لجلب دخله من البلاد الشرقية • وما أكثر الأثاث الآسيوى الجميل الذى اشتملت عليه قصور أعيان المصريين ! • وليلاحظ أن هذه المصنوعات الآسيوية أثرت كثيرا فى الصناعة المصرية فأكسبتها رونقا آسيويا • وكثر بالقطر العبيد الآسيويون من شاميين وغيرهم ، ودوت البلاد بالتجار الفينيقيين والأجانب فصار لهم حى مخصوص بمنف تعبد فيه معبوداتهم نحو بعل (Baal) وعشتارته (Astarte) ومنذ ذلك الوقت أخذت تلك المعبودات تندمج تدريجيا ضـمن المعبودات المصرية ، وأخذ الدخيل من الكلمات والعبارات السامية (عبرية كانت أو غيرها) يندمج فى اللغة المصرية ، وصار كتاب تلك العصور يحلون كتاباتهم بها • وقد عثر على كثير من هذه الكلمات الدخيلة فى أوراق البردى التابعة للأسرة التاسعة عشرة ، وذلك قبل ظهور كتاب العهد القديم بنحو أربعمائة أو خمسمائة سنة تقريبا • وبلغ استعمال الكلمات الدخيلة القصر الملكى فسمى رمسيس الثانى كريمته التى كان شديد الولوع بها « بنت عنات » (Bint-Anath) — أى ابنـة وهى معبودة ســوريا — كما سميت الخيل الفرعونيـة « عنات حرت » (Anath-herte) — ومعناه أنات المتطيبة •

---

(٦) Pap. Anast. IV, 15, 2-17 = III. 8.

(٧) Ibid., IV., 3, 10-11.

وعظم الاختلاط الدموى بين المصريين والآسيويين فى هذه العصور وقد كان فى بدايته أيام الأسرة الثامنة عشرة ، فاقترن أهالى تلك البلاد بعضهم ببعض وأصبح للعنصر الآسيوى مقام عظيم بالقصر الملكى والحكومة المصرية • خــذ مثـــلا أن أحد السوريين المدعو ابن عوزن (Ben-Ozen) رقى فى عهد مرنبتاح الى رئيس شرط القصر الملكى (٨) لكنه لم يشترك قط فى ادارة البلاد كما ادعى بعض الأثريين • ثم ان علاقة مصر التجارية مع البلاد الأجنبية عادت بالغنى والجاه الجزيلين على الأجانب الموجودين بمصر فتمكن أحدهم وهو ضـــابط بحرى ســـورى يدعى ابن عنـــات (Ben-Anath) من تزويج كريمته بأحد أنجال رمسيس الثانى (٩) ، وفتحت سبل الرقى والتقدم أمام الأجانب الملتحقين بالجيش المصرى ما عدا



شكل (٣٨) اثنان من الحرس الملكى لرمسيس الثانى المكون من مرتزقة ماجورين

مراكز الضباط فانهـــا كانت مقصـــورة على الغربيين والجنوبيين دون الآســـيويين ، فالتجريدة التى أرسلهـــا رمسيس الثانى مثلا الى وادى

(٨) Mar. Ab. II. 50 ; Cat. gen. d'Ab., No. 1136, p. 422 ; BIH, 32 ; BT. VI. 437.

(٩) Ostracon, Louvre, Inv. 2262, Devér. Cat., p. 202 ; Rec. 16. 64.

الحامات لقطع الأحجار كانت مكونة من خمسة آلاف جندى منها ما ينيف على أربعة آلاف سردينيين وليبيين والباقون زنوج ، ولم تشتمل هذه البعثة على مصرى واحد .

ويرجع تاريخ خدمة الأجانب بالجيش المصرى الى الأسرة السادسة(١٠) لكن هذا الانخراط الأجنبى فى الجيش المصرى هدد كيان الامبراطورية المصرية حتى عجز فرعون ذاته عن ملافاة هذا الخطر . ثم ان الحماس الحربى الذى دب فى نفوس المصريين بعد طرد الهكسوس اضمحل تدريجا بعد مرور بضعة أجيال ، فعكف القوم على عاداتهم الفطرية السلمية وهبطت نخوتهم ، وفى هذا الوقت اظهر الليبيون وأهالى شرقى البحر الأبيض المتوسط استعدادهم للانخراط فى سلك الجيش المصرى والدفاع عن مصالح مصر نظير أجر معين . أمام هذه الحالة لم يتردد فرعون مصر فى الانتفاع بهذه الفرصة السانحة وهذا هو السر فى زيادة العنصر الأجنبى فى الجيش المصرى .

ولا يخفى أن خلفاء تحوتمس الثالث عجزوا عن استرجاع مستعمراته ، وأن نفوذ رمسيس الثانى كان مبسوطا على فلسطين وجزء من شمالى سوريا ، الذى كان يدفع له الجزية سنويا على الأرجح . أما حدود مصر الجنوبية فكانت واصلة الى مدينة نبته (Napata) أسفل الشلال الرابع . واعتاد رمسيس الثانى فى عنفوان شبابه أن يحتفل بوفود عظماء دولته العديدين من ولى العهد الى العمدة ، وهؤلاء كانوا يفدون عليه لابسين حللهم ومتخذين أجمل زيناتهم تتقدمهم جزياتهم من بلدانهم المتباينة الممتدة من جنوبى النوبة الى حدود مملكة الحيثيين بآسيا . وقد صرفت هذه الأموال فى المنافع العمومية كالصناعة التى بلغت أعظم درجاتها فى هذه العصور . وهناك تمثال رمسيس الثانى محفوظا بتورين ، يمثل جلالته فى عنفوان شبابه ما يزال ناطقا ببراعة الحفار المصرى فى تلك العصور . ويعتبر هذا التمثال أثمن قطعة محفوظة بدار التحف المذكورة (لوحة ١٣٠) ، ويكاد هذا التمثال يشبه التماثيل الموجودة بأبى سنبل فى المهارة والاتقان (لوحة ١٢٩) . وادعى البعض أن الفنون الجميلة فى عهد رمسيس الثانى أخذت تنحط ولكنه يستدل من تمثال بنت عنات كريمة رمسيس المحبوبة ما يشير الى وجود حفارين مهرة وقتئذ ، لأن معالم وجه ذلك التمثال الطبيعية واضحة بشكل جميل واتقان هائل ، وهناك نقادون لا يشاطروننا هذا الرأى .

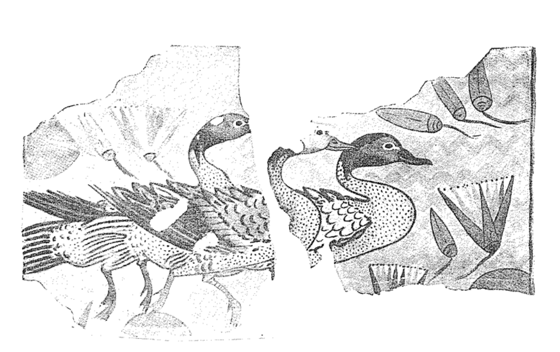
حقيقةً ان عمارات الأسرة الثامنة عشرة ناقصة شيئا من حيث الكمال والجمال كما يتضح من قاعة الكرنك العظمى (الوحتان ١٢٦ و ١٢٧) لكنه

(١٠) Battle of Kadesh. 9.



لوحة ١٠٣ ـ صورة لتمثال أمنحتب بن حابو (القاهرة).

لوحة ١٠٢ ـ تمثال يوضح الهيئة الملكية في عهد الامبراطورية (القاهرة).



لوحة ١٠٤ ـ صورة بط عائم بين زهر اللوتس وهى قطعة من ارض قصر أمنحتب الثالث بغرب طيبة (مأخوذة عن تيتوس).



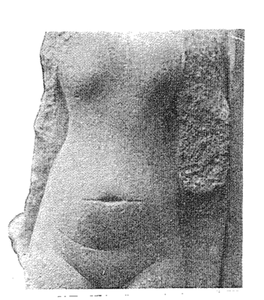
لوحة ١٠٥ ـ شاهد حجرى مبين لحدود مدينة تل العمارنة. ويشاهد فى أعلاه رسمان بارزان للملك أخناتون مصحوباً بزوجته وابنتيه الجميع (يعبدون قرص الشمس المنبعثة منه أشعة تنتهى بأن تحضن العائلة) الملكية وتقدم لها رمز الحياة.



لوحة ١٠٦ ـ نقش يصور ملكاً مصرياً مجهولاً من أواخر الأسرة الثامنة عشرة يتقبل الأزهار من زوجته. وأصل هذا الرسم بارز وملون بالألوان الزاهية. ويستنتج من الرسم أن هيئة رسم الأشخاص التى كانت متبعة فى الدولة القديمة غيرت الآن بالهيئة الطبيعية الصادقة حتى إنك لترى الملك متكئا متكاسلاً على عصاه (برلين).



لوحة ١٠٨ ـ صورة رأس تمثال أخناتون جميلة للغاية مصنوعة من الحجر الجيرى (متحف اللوفر بباريس).



لوحة ١٠٧ ـ جسم تمثال مصنوع من الحجر الجيرى لابنة أخناتون.



لوحة ١٠٩ ـ حياة المستنقعات، جزء من رسوم أرض قصر أخناتون بتل العمارنة (مأخوذة عن بترى).



لوحـة ١١١ ـ ملك حـيـثى قـابض على رمح وصـولجـان. رسم بارز وجد بجـهـة سنجـرلى شمالى سوريا (دار تحف برلين).



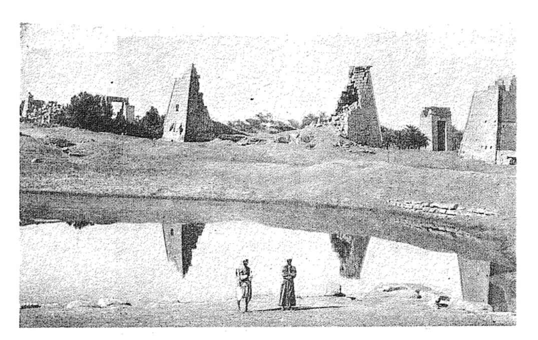
لوحة ١١٠ ـ جندى حيثى مسلح ببلطة. رسم بارز وجـد بجـهـة سنجـرلى بشمالى سوريا (دار تحف برلين).



لوحة ١١٢ ـ موظف مصرى يقابل مهاجرين ساميين. رسم بارز فى مقبرة حور محب .



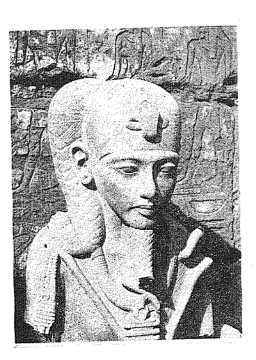
لوحة ١١٣ ـ صورة لحور محب تمثله موظفاً يكافئه الملك بالذهب. مأخوذة عن مقبرة حور محب ويقع الملك فى الرسم خارج الصورة إلى اليمين. ويشاهد فى الصورة خدم حور محب يضعو ن القلائد حول ع قه وخدم آخرون يحف ن قلائد أخرى إلى الشمال. ويرى بالجزء الأيسر للرسم سوريون يخفرهم حرس مصرى ليقدمهم حور محب لجلالة الملك، ولا بعد أن يكون الاحتفال من أجل ذلك ث . تكملة هذا الرسم فى الجهة اليسرى فى شكل ٨٨ بهذا الكتاب (ليدن).



لوحة ١١٤ ـ صرح حورمحب جنوبى الكرنك. وتشاهد بحيرة الكرنك المقدسة بجزء الصورة الأسفل.



لوحة ١١٥ ـ صورة تمثل حورمحب بالدار الآخرة يقوم بفلاحة الأرض. مأخوذة عن مقبرته وفيها يشاهد أن رسم الصل فوق الجبهة حصل بعد الفراغ من الرسم (دار تحف بولندا).



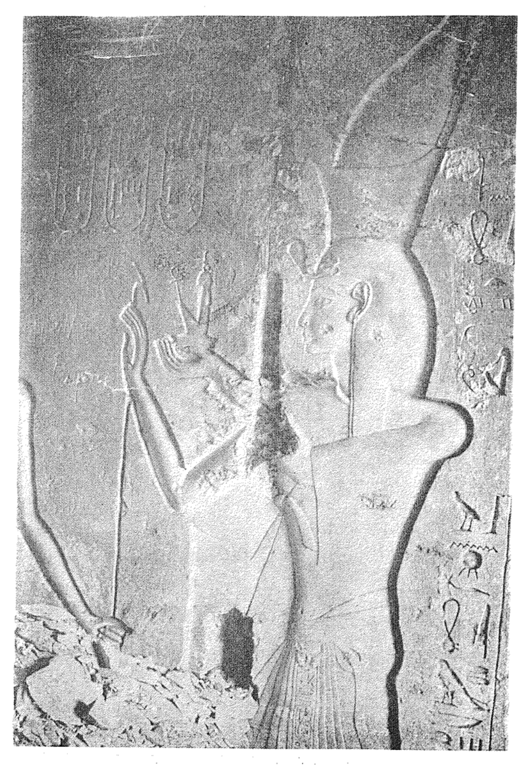
لوحة ١١٦ ـ الجزء الأعلى لتمثال خونسو. يرجع تاريخه إلى آخر الأسرة الثامنة عشرة أو أول الأسرة التاسعة عشرة (دار تحف القاهرة).



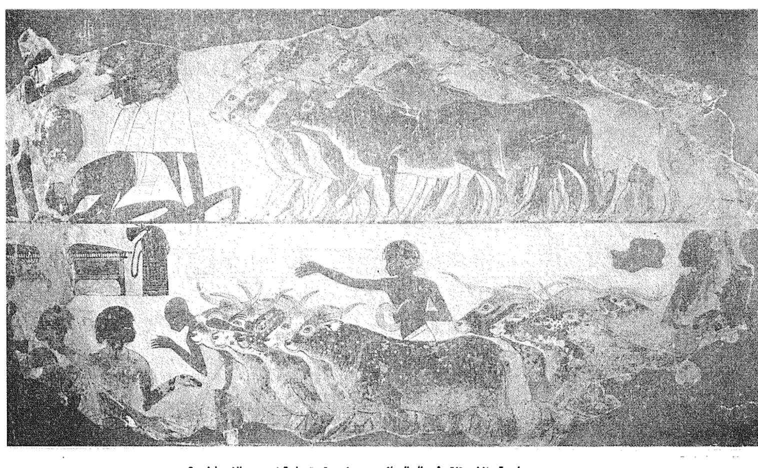
لوحة ١١٧ ـ نقوش بارزة على جدر الكرنك تمثل معركة سيتى الأول الحربية، ويرى فى القسم الأسفل من الشمال الملك سيتى يفتك برئيس لوبى وفى القسم الأيمن صورة معركة مع اللوبيين. والجزء الأعلى يمثل الاستيلاء على موقع فى الجليل Galilee ويشاهد خلف العربة السفلى رسم لولى العهد أضيف بعد الفراغ من الرسم الأصلى.



لوحة ١١٨ ـ سيتى الأول يهدى أزوريس تمثال الصدق. رسم بارز مأخوذ من معبده بالعرابة.



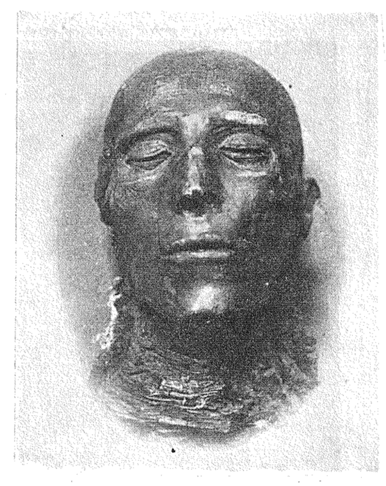
لوحة ١١٩ ـ رسم لسيتى الأول فى شبابه يمثله مهدياً تمثال الصدق. رسم بارز مأخوذ من مقبرته بطيبة.



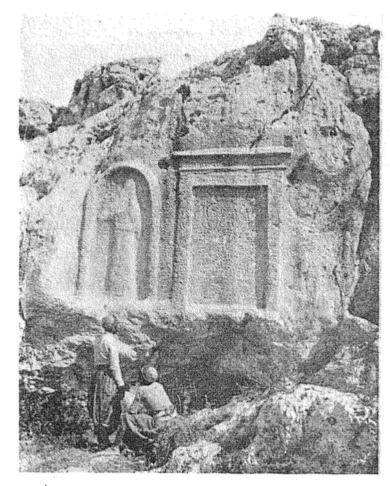
لوحة ١٢٠ ـ تفقد أعوال البهائم. رسم فى مقبرة بطيبة فى عهد الامبراطورية.



لوحة ١٢١ ـ الصيد فى قارب من الغاب فوق مياه البرك. رسم فى مقبرة بطيبة فى عهد الامبراطورية وترى أمام الصائد هرة ورد شرحها بصلب الكتاب.



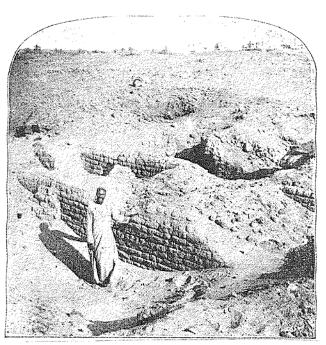
لوحة ١٢٢ ـ رأس مومياء سيتى الأول مأخوذ من مومياته بدار تحف بالقاهرة.



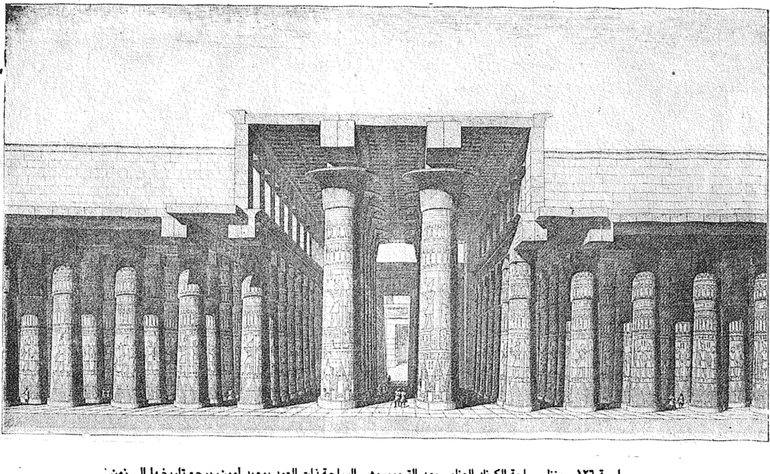
لوحة ١٢٣ ـ شاهد حجرى لرمسيس الثانى (أيمن) وآخر لآشور بنيبال (أيسر) بفينقيا منحوتان فى صخور من الحجر الرملى عند مصب نهر الكلب قرب بيروت.



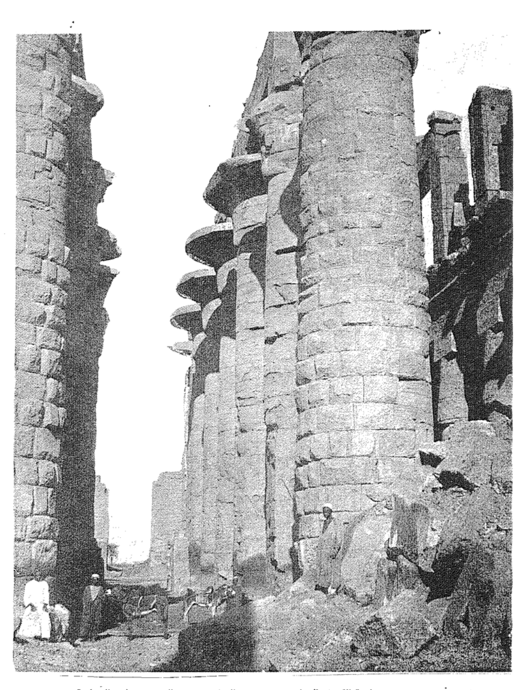
لوحة ١٢٤ ـ بعض أجزاء تمثال رمسيس الثانى العظيم البالغ وزنه الف طن تقريباً وهو مصنوع من الجرانيت من محاجر اسوان ويمثل الملك جالساً وكان منصوباً امام الصرح الثانى بالرمسيوم بطيبة.



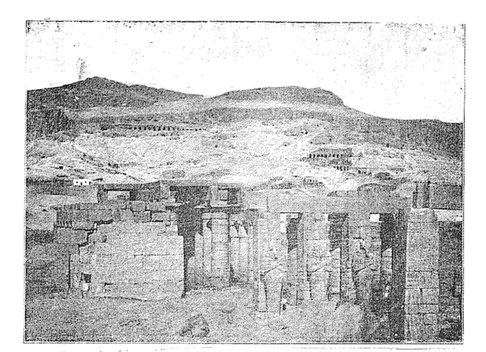
لوحة ١٢٥ ـ مخازن مدينة بيثوم وقد ورد ذكر هذه المدينة فى الأخبار العبرية بانها شيدت بواسطة العبرانيين.



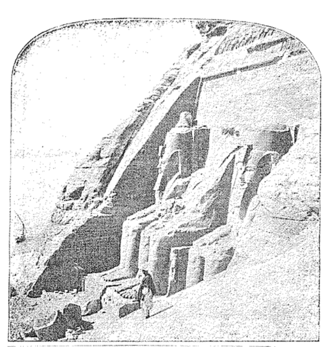
لوحة ١٢٦ ـ منظر ساحة الكرنك العظمى بعد الترميم، وهى الساحة ذات العمد بمعبد آمون، يرجع تاريخها إلى زمن الأسرة التاسعة عشرة (مأخوذ عن برّوشبييه).



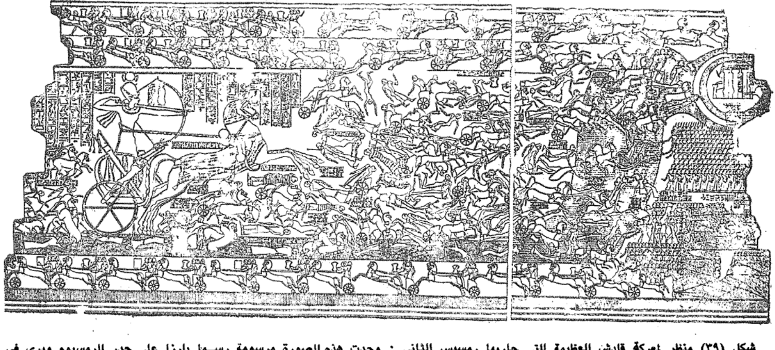
لوحة ١٢٧ ـ صحن ساحة الكرنك العظمي، ويقع نهر النيل في هذه الصورة خلف الساحة. وترى الصخور الغربية لوادي النيل من مدخل الكرنك (راجع خريطة رقم ١١).



لوحة ١٢٨ ـ الرمسيوم وهو معبد قبر رمسيس الثاني، وترى خلفه صخور وادي النيل الغربية مثقوبة في عدة مواضع، وهذه الثقوب هي مداخل مقابر الجبانة القديمة.



لوحة ١٢٩ ـ صورة لمعبد أبى سنبل الصخرى مأخوذة فى اتجاه مستو عرضى لمدخل المعبد.



شكل (٣٩) منظر لمعركة قادش العظيمة التى حاربها رمسيس الثانى · وجدت هذه الصورة مرسومة رسما بارزا على جدر الرمسيوم ويرى فى هذا المنظر رمسيس الثانى وحده (مع أنه كان مرافقا لحاشيته بالتاكيد) محاطا بعربات الحرب الأسيوية (أعلى وأسفل) وأمامه رؤساء جيش ملك الحيثيين ساقطين وبجوار كل منهم اسمه ولقبه منقوشين على الحجر · ويمثل المنظر هجوم رمسيس الثانى والقاءه جناح العدو الأيمن فى النهر (راجع خريطة رقم ١٠) · ويرى الهاربون سابحين فى النهر يلتقطهم أصحابهم من الشاطىء المقابل (انظر ملك حلب شكل رقم ٣٠ والى يمين ملك حلب حيث الحائط المهدم يشاهد ملك الحيثيين واقفا فى عربته بين ثمانية آلاف من المشاة الأسيويين · ويرى فى القسم الأعلى والأيمن للصورة رسم مدينة قادش محاطة بخندقين مائيين ·

لا مراء فيه أن هذه القاعة أعظم العمارات تأثيرا فى النفوس • وقد وافق على هذا الاستاذ رسكن (Ruskin) ، حيث قال : « ان أقل ما يقال عن هذه القاعة أنها ضخمة شاهقة لدرجة تؤثر كثيرا فى نفس ناظرها • فاذا وقفت بجوار عمدها وألقيت بنظرك على تلك العمد العديدة الشامخة المعتبرة أعظم أعمال البشر ، وأمعنت فى رءوسها الباسقة الحاملة لصحن المعبد ، تقول اذا لاحظت أن مسطح قمة كل عمود يسع ما يقرب من مائة رجل وأن جدر هذه القاعة تسع فيما بينها كنيسة نوتردام (Notre Deme) ويبقى منها مكان فسيح ، واذا نظرت الى باب ذلك المعبد العظيم البالغ طول عتبته أربعين قدما وزنتها مائة وخمسين طنا تقريبا ، لا يسعك الا الاعجاب والافتخار بأعمال ذلك العصر الذى شيد رجاله أعظم قاعة ذات عمد أقامها البشر على ظهر البسيطة الى الآن » •

واذا كان تأثر السائح من ضخامة هذه القاعة أكثر من تأثره بجمالها ورونقها فليذكر أن العمال الذين شيدوها قد شيدوا أيضا معبد رمسيس المعروف بالرمسيوم الذى لا يقل فى الجمال والكمال عن أحسن عمارات الأسرة الثامنة عشرة (لوحة ١٢٨) •

ورغم قصر مساحة أراضى النوبة بين النيل والجبال،فقد قطع رمسيس الثانى فى صخور تلك الجهات معابد تشهد من حيث الجمال بتقدم فن العمارة كثيرا فى عهده • وما علينا الا أن نذكر القارىء بمعبد رمسيس العظيم الذى شيده بأبى سنبل ولا تكاد تمحى ذكراه من ذهن كل من رآه ، ففيه تتجسم العظمة وهو مشرف على النهر بين صخور تلك الجهة الصامتة (لوحـــة ١٢٩) • نحن لا ننكر أن عمارات رمسيس الثانى لم تكن كلها غاية فى الاتقان وقد ألمعنا الى ذلك سابقا اذ يوجد بينها ما هو بسيط لا يسترعى النفوس وما هو ضخم اعتيادى قليل الاتقان كالمشيد بمعبد الأقصر • وقد زينت عمارات رمسيس الثانى كلها بالنقوش والألوان الزاهية المثبتة لأعماله وشجاعته الحربية وعلى الأخص دفاعه العظيم بجهة قادش (شكل ٣٩) ، ويتضح من هذا أن الفنـــان المصرى أجاد أكثر من سواه فى رسم معركة قادش ، وبالأخص لما رسم منحنى النهر وما حول قادش من الخندق وهرب العدو وما حول ملك الحيثيين من المشاة واجتنابه بمهارة الاشتراك فى حومة الوغى على عكس فرعون مصر الذى تبدو عليه ملامح القوة والشجاعة • كل هذه الرسوم جاءت ظاهرة واضحة مع عدم مراعاة حافرها بأصول الزمان والمكان ، وهذا النقص الأخير يقلل كثيرا من قيمة الرسوم المصرية خصوصا والشرقية عموما • وهذا لا يمنعنا أن نقول ان الرسوم البارزة التى من هذا النوع بلغت شأوا كبيرا فى عهد رمسيس الثانى ، الا أن الناظر الى هذه الرسوم اجمالا على العموم يجدها

تشهد بطول الباع لصانعها المصرى ، الذى بقى محتفظا بزعامة الحفر فى البلاد الشرقية نحو ستمائة سنة بعد عهد رمسيس الثانى ٠

ولم يقتصر تأثير معركة قادش على ترقية الفنون الجميلة من حيث الرسوم والحفر ، بل شمل أيضا شعراء القصر الملكى فنظموا القصائد الرنانة عن تلك المعركة وأجادوا فى وصفها ، ويعتبر هذا الوصف من أحسن أدبيات ذلك العصر ، ففيه شبهت جنود العدو الكثيرة المرابطة على التلال بالصراصير ، ثم ذكر باسهاب أسباب اندحار القوات المصرية أول المعركة ، ثم وصف انفراد فرعون مصر مقاتلا أعداءه وتضرعه الى آمون على بعده من طيبة طالبا مساعدته ، ثم اجابة هذا المعبود دعاءه بتقوية ذراع رمسيس وشد أعصابه وقوته مما جعله يقوم بما لا مثيل له من ضروب الشجاعة والاقدام ٠ من ذلك يتضح للقارىء أن تلك القصائد حوت وصفا لمواقف متباينة مؤثرة للغاية ، وقد نعت الشاعر قائد عجلة ملك الحيثيين بالجبن والفزع على عكس رمسيس الذى بدت عليه الشجاعة وكان يحمس رجاله على القتال غير مبالين ولا وجلين ويوبخهم على اهمالهم٠ومما يسترعى نظر القارىء لهذه القصائد ما ورد فيها من أنه لما انتهت المعركة وزال الخطر أقسم جلالته يمينا بأنه سيتولى بنفسه اطعام خيله التى حملته ظافرا على أعدائه ٠ وقد وصلت الينا صورة من قصيدة وضعت لهذه المعركة نسخها كاتب مصرى قديم يدعى بنتاءور (Pentewere "Pentaur") على قرطاس بردى ظنها الأثريون أولا من بنات أفكاره واتضح بعد ذلك أنه (على الأرجح) ناسخها فقط ٠ وما تزال هذه القصيدة تعرف باسم قصيدة بنتاءور خطأ بين الناس ٠

والقارىء لهذه القصيدة يتضح له أن واضعها أخذ يضرب على نغمة جديدة هى تشجيع القوم وتحميسهم ليقتدوا بأفعال ملكهم ، لكن هذا التشجيع أتى بعد أوانه فقد أخذت الروح الاستعمارية تتضاءل فى نفوس المصريين ، فلم تحدث تخيلات وأوصاف هذه القصيدة ما كان منتظرا منها اذا ما وضعت فى الزمن السابق ٠ والظاهر أن هذه القصيدة حوت حقائق الأمور بلا تغيير ولا تبديل ، فجاءت برهانا على صدق روايات الأسرة التاسعة عشرة ٠ قارن هذا بروايات الدولة الوسطى المحشوة خرافات وخزعبلات والمكتوبة باللغة الدارجة بدون ترتيب ولا سلامة ٠ وقد اهتدينا الى عدة روايات وقصص من الأسرة الثامنة عشرة تماثل قصص الأسرة التاسعة عشرة لكنها أقل عددا منها ٠ من ذلك القصة الخاصة بالنزاع بين ملك الهكسوس المدعو أبوفيس (Apophis) وفرعون مصر بطيبة المدعو سقننرع ، وقد استنتجنا من هذه القصة غرضها الأصلى رغم فقد بقيتها ألا وهو وصف طرد الهكسوس من القطر المصرى ٠ وقد ذكرنا هذه القصة سابقا عند الكلام عن الهكسوس ، وكثيرا ما تداول الأهالى فى عهد الأسرة

التاسعة عشرة حكايات عن أفعال ضباط تحوتمس الثالث مثـل تحوتى واستلائه على مدينة يافا (Joppa) وتخبئته لجنده داخـل زلع كبيرة محملة على حمير ، ويظن أن هذه القصة الأخيرة هى أصل حكاية على بابا واللصوص الأربعين المعروفة لدى عامتنا اليوم · وهناك قصص أخرى لذيذة لكنها لم تتناول حوادث تاريخية كالسابقة ·

وجاء فى احدى الروايات أن أمـيرا شـــابا قدرت له المعبـودات حاتحورات (Hathors) وقت ميلاده أن يموت بتمســاح أو بثعبان أو بكلب ، فسافر الى سوريا حيث وجد قصرا تسكنه ابنة ملك نهرينا وحوله الشبان يحاولون تسلقه ، وذلك لأن والدها وعد أن يؤهلها بمن يتسلق جدار القصر ، فحاول الأمير المصرى ذلك ونجح وبلغ الأميرة لكنه ادعى أولا أنه ابن ضابط مصرى مخفيا بذلك حقيقته فلما علم ملك نهرينا بخبره اغتاظ وامتنع من اعطائه ابنته حتى كاد يقتله ، حينئذ أقسمت الأميرة أنها ستنتحر اذا أعدم الأمير فتكدر والدها من هذا القسم وأخيرا سمح لها باقترانه · وجاء أن الأمير نجا من الموت من تمساح ثم من ثعبـان وفقدت بقية القصة بعد ذلك ، والمظنون أنها انتهت بموت الأمير من كلب تبعه من مصر طول رحلته الآسيوية · ويلاحظ أن هذه الرواية تحوى أقدم مثال للعقيدة العالمية بأن كل شاب يتحتم عليه قبل الاقتران بزوجته أن يظهر لها ضروب الشجاعة كى يستميل قلبها ، وكثيرا ما تشاهد مثل هـذه الأعمـال المحزنة فى القصص اليونانية المعينة مثل رواية أوديب (Oedipus) وأبى الهول (Sphinx) وسوفكليس (Sophocles) .

ومن قصص هذا العصر أيضا ما تناولت أمور الفلاحة وهى تعرف بقصة الأخوين تتلخص فى أن أخوين عاشا معا فى كوخ بأحد الحقول وكان أكبرهما متزوجا وقابضا على زمام البيت ، أما الأصغر فكان عائشا معه كابن له ، فصبت نفس زوجة الكبير الى الصغير فرفض طلبها · عندئذ أرادت ان تكيد له فوشت فى حقه عند أخيه الكبير فصمم على الاقتصاص من أخيه وأراد قتله خلسة فتحفز له وراء الباب · وفى مساء اليوم عاد الأخ الصغير بالبهائم ليدخلها اصطبلاتها فلحظت احدى هذه الحيوانات الأمر وأسرت الى راعيها بما يضمر له أخوه الكبير · فلما علم ذلك فر هاربا خوفا من القتل ثم حصلت بين الاثنين حوادث خرافية لا تتمشى مع ما جاء أولا من مطابقتها للواقع · وبالتأمل لهذه الحكاية يجد القارىء فى جزئها الأول شبها بقصة سيدنا يوسف مع امرأة العزيز التى رواها لنا بنو اسرائيل ·

وكثرت هذه القصص فى العهد اليونانى فتفرعت منها عدة حكايات يونانية اعتبرها المؤرخون اليونانيون ومانيتو أيضا مراجع تاريخية يعتمد عليها ·

أما شعر ذلك الوقت (الامبراطورى) فكان جيدا معنى وروحا ، لكنه كان ناقصا أسلوبا بدرجة أقل من قصائدنا الحديثة · وتوجد بعض قصائد عن تلك العصور جيدة الأسلوب لا بأس بها يمكننا مقارنتها ببعض القصائد العصرية أحيانا ·

وكثرت روايات الحب والغرام عند أهالى ذلك العصر ، وبالرغم من خلوها من التخيلات الفكرية،فقد أخذت بمجامع قلوب قرائها فى عصرنا هذا · وعثر على كثير من القصائد الدينية والأغانى والدعوات لوحظ على بعضها مسحة أدبية واضحة وسيأتى الكلام عليها عند البحث فى ديانة ذلك العصر·ووجدت عدة خطابات لكتاب وموظفين،وعدة تمرينات مدرسية قام بها تلاميذ المدارس ، وعدة صكوك ومستندات ومذكرات عن المعابد وحساباتها مما اهتم به الأثريون كثيرا وصرفوا فيه طويلا من وقتهم حتى فهموا مضمونها وعرفوا محتوياتها ·

وأغلب أدبيات تلك العصور دينية وحكومية ، وهى ليست من مبتكرات الأهالى ولذلك لا يجد القارىء فيها ما يفيده من عقائد العوام · وليلاحظ أن عزل اخناتون وعكوف الأهالى بعده على عقيدة آمون القديمة حالا دون تقدم ورقى الآراء الدينية · والسبب فى ذلك أن الكهنة أصبحوا شديدى المحافظة على كليات وجزئيات عقائدهم العتيقة ، ولكنه بالرغم من هذه الحركة الرجعية التى حالت دون تقدم الدين من الوجهة الفلسفية قد تقدمت الآراء الدينية بطريق آخر غير السابق · وتفصيل ذلك أن المصريين أخذوا يعتقدون أن مملكتهم عبارة عن معهد دينى عام تقدس فيه معبوداتهم فى شخص فرعون ، لأنهم اعتبروا الديانة والحكومة جزءين لا ينفصلان · وهكذا بعد ما كانت المعابد تعرف بأسماء « أحسن المحاسن » و « أحسن الآثار » و « هبة الحياة » الخ ، أصبحت الآن تسمى « مأوى سيتى فى معبد آمون » و « مأوى رمسيس بمعبد بتاح » · وأول ما ظهر هذا الاعتقاد الأخير كان أيام المملكة الوسطى ، لكنه أصبح الآن عاما فصار القوم يعتقدون بأن جميع معابدهم عبارة عن أمكنة شيدت لعبادة فرعون ، وهذا يعنى طبعا أنهم اعتبروا فرعون اله مصر الأعظم ، واعتبروا مصر مملكة المعبودات تحت رياسة فرعونها الذى هو رئيس كهنتها أيضا · ولما تضعضعت مالية الحكومة تدريجيا بزيادة أوقاف المعابد ــ لأن أملاك المعابد كانت معفاة من الضرائب ــ زاد الارتباك المالى كما ألمعنا الى ذلك فى عهد سيتى الأول ورمسيس الثانى ، ولم تقف الحال على ذلك بل استمرت هذه الأوقاف تكثر حتى شملت معظم موارد القطر فأصبح أكثر أملاك القطر معفى من الضرائب ، ثم أصبحت المصانع ذات أهمية ثانوية ·

ولما كثرت ايرادات المعابد (وبالأخص معبد آمون) عظمت منزلة رئيس الكهنة · وقد تقدم لنا أن رئيس كهنة آمون أصبح بحكم القانون

رئيسا على جميع كهنة المملكة ، فصار مركزه بذلك عظيما لا يستهان به ، وقد تمكن هذا الرئيس الكهنوتى بعظيم نفوذه فى عهد الملك مرنبتاح من تعيين ابنه خلفا له فى وظيفته ، وهكذا تمكن من وضع أعظم طائفة وأقوى حزب فى المملكة تحت نفوذ أسرته · ويقال ان هذا المشروع بدىء به فى عهد رمسيس الثانى لكن ذلك لم يتأكد للآن · ولا شك فى أن القارىء قد لاحظ أنه فى حالة اعتزال الأسرة الملكية الحكم يكون رئيس كهنة آمون أقوى رجل فى المملكة وأكفأ شخص للقيام بأمور الدولة · وهذا ما وقع تماما بعد مضى مائة وخمسين سنة من العهد الذى نحن بصدده ، وفى هذه المدة اجتهد رئيس الكهنة أن يؤثر فى فرعون ليزيد دخل وأوقاف آمون ، فلم ينته حكم الأسرة التاسعة عشرة حتى أصبح آمون يملك مناجم الذهب النوبية خاصة ، ولما وضعت هذه المناجم تحت اشراف والى كوش لقب هذا « بحاكم أرض آمون الذهبية » · وهذا بيان موجز لأصل حكم الكهنة الذى لقبه كهنة المصريين فى عهد ديودور الصقلى «بالحكم الذهبى» · ولا يخفى أنه كلما زاد دخـل الكهنة انتشر نفوذهم وعظمت مظاهرهم وعلا قدرهم ، ولذلك كانت منزلة فرعون بين رعيته وحبهم اياه مترتبين طبعا على مقدار ميله نحو الكهنة ودرجة استعداده لاجابة طلباتهم ·

وجرت العـادة أن يكون اظهار شعائر الدين فى المملكة اجباريا ، لكن الفراعنة اختلفوا كثيرا فى تقديرهم للدين ومظاهره كما اختلفوا أيضا فى تقديرهم للأخلاق · خذ مثلا الملك حور محب ، فقد وقف جهوده على تركيز الأمانة والصداقة بين موظفى حكومته ، كما اشتهر تحوتمس الثالث بحبه للعدالة ودفاعه عنها · ونقش رمسيس الثالث على معبده بطيبة ما يفيد أنه لم يهدم مقابر قديمة ليستعمل أحجارها فى تشييد عماراته ، كما أعلن للملأ أنه اعتلى العرش بحق وجدارة لا عن طمع واغتصاب · أما رمسيس الثانى فلم يظهر أقل احترام نحو آثار أجداده كما يتطلبه الواجب وتقتضيه العادات · ومن هذا يتضح للقارىء أن معظم فراعنة العهد الذى نحن بصدده لم يهتموا الا بتحقيق أغراضهم بصرف النظر عن مراعاة الأخلاق · واليك ترجمة ما ورد عن رمسيس الرابع فى دعواته لأزوريس :

« هب لى الصـحة والحيـاة والعمر الطويل والحكم المديد والأزلية لأعضائى والابصار لعينى والسـمع لأذنى والفرح لقلبى · هب لى هذه الأشياء جميعا كل يوم · أطعمنى حتى أشبع وأشربنى الخمر حتى أسكر واجعل ذريتى ملوكا الى أبد الآبدين · أجب رغبـاتى ولب طلباتى اذا ما طلبتها منك وليكن ذلك عن رغبة منك · هب لى نيلا كثير المياه والفيضان لأتمكن من تقديم القرابين لك ولكل معبود ومعبودة فى الجنوب والشمال

ولتعيش الثيران المقدسة وليعيش كل الناس على اختلاف أوطانهم وكذا بهائمهم وزرعهم الذى أنبتته أرضهم • أنت خالق كل هذه الأشيان فاذن ليس لك أن تتركها لتنفذ فيها قرارات أخرى مخالفة للعدل » •

ووجدت بين الأهالى وقتئذ طائفة نظـرت الى الديانة من وجهتهـا الفلسفية الظاهرة ، خلافا لما هو واضح فى الدعاء الملكى السابق ، فكانت هذه الطائفة تتوسل الى آمون بتوسلات تحوى كثيرا من الآراء الفلسفية العالية والنظريات الراقية كالتى حوتها عقيدة آتون • ومن ذلك علمنا أن أفراد هذه الطائفة كانوا أقرب اتصالا ومعرفة برأفة ورحمة معبودهم ودفاعه عنهم • واليك ترجمة ما ورد فى دعاء بعضهم :

« يا آمون أنا أحبك وحبك فى قلبى ••••• لقد ابتعدت عما تغرينى به نفسى ، لأن كل من يطيع أوامرك يفوز » (١١) •

وجاء أيضا فى عبارة أخرى ما ترجمته أن آمون يسمع كلام الشخص الذى لا ناصر له وقت المحاكمة (١٢) • ولما انتشرت الرشوة بالبلاد اعتقد الفقير أن آمون وزيره ينصره ويدافع عنه (١٣) • ودلتنا دعوات القوم أنهم أخذوا يقدرون خطاهم وما أتوه من ذنوب ، فقد قال أحدهم مناجيا معبوده آمون ما ترجمته : « لا تعاقبنى على ذنوبى » (١٤) وهذا أمر كثير الوجود بين توسلات أهالى تلك العصور •

وهكذا تغيرت الحال ، فبعد ما كانت الدعوات تتلى لاصلاح الأخلاق صارت الآن تتلى للاقلاع عن السوء واجتناب المعاصى ، وأضحت الصلوات تنحدر من القلوب ولا تكون مجرد ألفاظ • واليك ترجمة ما قاله بعض الأهالى مناجيا المعبود تحوت :

« أيها المعبود ! أنت البئر العذبة للظمآن فى الصحارى ، أنت البئر التى تقفل فى وجه المتكلم والتى تفتح لمن يلزم السكوت ، حقيقة أن كل صامت يأتى يجد البئر » (١٥) • لكن كهنة تلك العصور سمموا عقول الرعية بخرافاتهم السحرية ، ومن دواعى الأسف أن هذه الآراء الساذجة وجدت مكانا خصبا فى أذهان الطبقة الوسطى أنبتت فيها وأينعت وأودت بكثير من تعاليم الديانة الراقية وارشاداتها الشريفة • وبدهى أن هذه التعاليم وهذه الارشادات هى البقية الباقية من رقى الديانة المصرية ، ولذلك

(١١) Birch. Inscr. in the Hier. Char., pl. XXVI.

(١٢) Pap. Anast., II., 8, 6.

(١٣) Ibid., 6, 5-6

(١٤) Erman. Handbuch.

(١٥) Pap. Sallier, I, 8, 2 ff.

كان هذا العصر أحسن الأزمنة لدرس عقائد الأهالى الدينية · واليك بيان ذلك بالايجاز :

لما وضعت الحكومة يدها على المعابد لتولى شؤونها دون العامة أبعد هؤلاء بطبيعة الحال وصاروا غير لائقين للخدمة بالمعابد لفقرهم وعدم قدرتهم على تقديم القرابين المناسبة ، فامتنع الفقراء من التدخل فى شؤون المعابد الكبرى وأمور المعبودات الرسمية العظمى ، وعكفوا على معبوداتهم الصغرى كاله الفرح والطرب ومعبودات الأخطاط ، لأنهم اعتقدوهم سماعين لأقوالهم مساعدين لهم فى أعمالهم اليومية · لهذا السبب أيضا عبد الفقير كل شيء توهم فيه صفات الألوهية · خذ مثلا ما جاء بخطاب أحد أهالى طيبة أرسله الى صديق له أوصى به آمون وموت وخونسو آلهة قسم طيبه العظام وأيضا « باب بكى (Beki) الكبير وثمـــانية القردة التى فى الفنـــاء الأمامى » والشجرتين(١٦) ·وجاء أيضا أن أهالى طيبة عبدوا أمنحتب الأول وزوجته نفرتارى (Nefretiri) الهين لتلك المدينة · ووضــع أحــدهم يده فى حجر مختبيء به ثعبان عظيم ثم أخرجها منه فلما لم يلدغه الحيوان نصب حجرا تذكارا أثبت عليه هذه الحادثة شاكرا فيه أمنتحب الأول الذى كانت قوته سبب نجاته الوحيد (١٧) · وروى أحد الأهالى مرة أنه أساء الى احدى المعبودات التى كانت تقطن تلا بطيبة فأصابه مرض شديد ثم منت عليه المعبودة بالشفاء فاقام لذلك حجرا للذكرى أثبت لها فيه الشـــكر واعترافه بفضلها · وكتب ضابط خطابا الى روح زوجته المتوفاة أودعه يد شخص حديث الوفاة ليسلمه لها فى الآخرة رجاها فيه أن تمتنع عن تعذيبه وأن تصطلح معه ، ومن ذلك استنتجنا أن بعض أهالى ذلك العصر اعتقدوا بتعذيب الموتى للأحياء ·

ولم تقتصر عبادة الفقراء على الآلهة المحليين وما شاكلها بل شملت أيضـــا معبودات سوريا وغيرهـــا مما عبدها الأسرى الآسيويون · ودلتنا الألواح الحجرية لتلك العصـــور أن الدعوات وقتئذ اشتملت على الآلهة الآســـيوية الآتية وهى : بعل (Baal) وقادش (Kadesh) وعشتارته (Astarte) ورشب (Reshep) وعنات (Anath) وسوتخ (Sutekh) وليلاحظ أن سوتخ هو معبود مصرى قديم وهو فى الوقت نفسه صورة أخرى للمعبود ست (Set) أدخل فى سوريا ثم انتشرت عبادته هناك ، فلما غزا الهكسوس مصر أرجعوه معهم فصار محبوبا بين الأهالى واختصه أهالى مدينة رمسيس الثانى بمدينتهم · وأخذت تظهر فى هذا العصر أيضا عبادة الحيوانات بين الأهالى والموظفين الحكوميين ·

---

(١٦) Erman, Handbuch.

(١٧) Turin Stela.

سارت هذه التغيرات الدينية ببطء مطرد في عهد رمسيس الثاني ، ولقلة معلوماتنا عن أعماله في هذا الصدد استنتجنا أنه لم يقم غالبا بأعمال ذات بال لصد ذلك التيار الديني الجديد . زد على ذلك أن نصوص جلالته صبغت بالصبغة الدينية الواضحة،وكلها أساليب كهنوتية مصحوبة بالثناء والمديح الاعتياديين بدرجة ينبهم على قارئها فهم الغرض الأصلي لكتابة هذه النصوص . ومما يساعدنا على معرفة مقدار اخلاص هذا الملك الديني تمثاله الذي بدار التحف بتورين (لوحة ١٣٠) ومومياؤه المحفوظة بدار التحف بالقاهرة (لوحة ١٣١) فهما يدلان أنه كان طويل القامة مترهفا تبدو عليه ملامح نسوية جذابة مما لا يتناسب تماما مع شدته وبأسه المشهور بهما ، ومع ذلك فان معارك قادش تصفه بأنه شهم قادر على ملاقاة الكوارث الشديدة . واستنتج من زحفه الثاني على آسيا ومحاربته ثانيا مع الحيثيين وتوسيعه مستعمراته السورية ـ لمدة من الزمن على الأقل ـ أنه كان صلب الرأى ماضي العزيمة . زد على ذلك أنه حارب بآسيا خمسة عشر عاما قام في أثنائها بأعمال حربية عظيمة غطى بها ما لحقه من سوء الحظ في معركة قادش الأولى واستحق بعدها أن يمضي باقي حياته في راحة وسكينة . ومما لا جدال فيه أنه كان كثير الفخار شديد التظاهر بحروبه وانتصاراته على الآثار أكثر من تحوتمس الثالث بمراحل . وكان ميالا أيضا للفرح والسرور ولم يمنع نفسه من الانغماس فيهما فأكثر من زوجاته ورزق منهن ذرية كثيرة جدا بلغت ما ينيف على المائة من الذكور وما يقرب من الخمسين من الاناث ، وقد تزوج هو بكثير من بناته . ويتضح من ذلك أنه أعقب ذرية حافظت على اسمه بين أحفادها نحو أربعمائة سنة حتى صار اسم رمسيس مرادفا لألقاب الامارة وعلو الشأن . ولما عجز رمسيس عن العثور على زوجات يلقن للاقتران بأنجاله زوج أحدهم بكريمة ربان سفينة سورية كما ألمعنا الى ذلك سابقا . والمعروف أنه كان يفتخر كثيرا بأسرته فرسم أفرادها على جدر المعابد ذكورا واناثا صفوفا صفوفا ، ورافقه أولاده في حروبه كقواد لفرق الجيش كما رواه ديودور الصقلي(١٨)، وكان أحب أنجاله اليه المدعو خامويس (Khamwese) الذي عين رئيس كهنة بتاح بمنف ، لكن هذه المحبة شملت أيضا جميع أفراد الأسرة لأنه رسمهم جميعا حتى الزوجات والكريمات على آثاره .

ولما مضى على توليته ثلاثون عاما أقام لذلك احتفالا عظيما عهد ادارته الى نجله المحبوب خامويس الذي كان وقتئذ رئيس سحرة وكهنة بتاح . واستمر القوم يتحدثون برمسيس الثاني في حكاياتهم مدة ألف سنة تقريبا بعد وفاته . وقد عاش بعد الاحتفال السابق عشرين سنة أخرى

(١٨) Diod., I, 47 ; comp. Battle of Kadesh, p. 34.

أقام فى أثنائها ما لا يقل عن تسعة احتفالات بين كل واحد والآخر مدة تتراوح بين سنة وثلاث سنوات ، ولذلك كانت أعياد هذا الملك أكثر عددا من أعياد أى فرعون ســــابق · وقد أشرنا الى كثرة المســلات التى أقامهــا فى احتفــالاته ، وهذه أذاعت صيته كثيرا فى جهات القطــر من مستنقعات الدلتا شمالا الى الشلال الرابع جنوبا · وقد عظمت مكانته ففاقت مكانة أمنحتب الثالث ، والحق يقال ان جلالته كان آخر الفراعنة النشيطين العاملين الذين شرفوا تاريخ مصر القديم بمآثرهم العظيمة ·

وتوفى أنجال هذا الملك بمرور الزمن الواحد بعد الآخر ومن بينهم النجل العزيز خامويس الذى كان يشرف دائما على نظام احتفالات والده ، ولم يتمكن الا الثالث عشر من أنجاله من ارث أبيه · ولكهولة جلالته وقتئذ وقلة نشاطه اجترأ الليبيون واتحدوا مع أهالى البحر الأبيض المتوســط من ليسيين وشردينيين ويونانيين وتوغلوا غربى الدلتا حيث سحقهم جلالته سابقا وأجبرهم على الخدمة فى جيشه · والمعروف أن الليبيين بلغوا فى زحفهم أبواب منف وعبروا رأس الدلتا الجنوبى حتى بلغوا أسوار مدينة عين شمس حيث يقطن وزير الدولة · ولشيخوخة رمسيس واضمحلال سمعه عجز عن مقاومة أعدائه ولم يحرك ساكنا ضد الخطر الذى هدد كيان دولته من الغرب ، واستمر عائشا بعاصمة مملكته شرقى الدلتا قليل العناية بأمور دولته الحربية حتى توفى وقد بلغ من العمر نيفا وتسعين سنة (وذلك حوالى عام ١٢٢٥ قبل الميلاد) ، وكانت وفاته فى السنة السابعة والستين من حــكمه وقد ترك مملكته مهددة بأشــد المخاطر · أما مومياء هذا الملك فتظهر عليها علامات العز والبذخ وقرب الشبه بتمثال صباه المحفوظ بدار التحف بتورين

وقد استمر عشرة من الفراعنة يسمون أنفسهم باسمه بعد وفاته بربع قرن تقريبا وتمنى أحدهم أن يعمر فيحكم مصر سبعة وستين سنة مثل حكم سلفه العظيم ، وتمثلت فى كل أعمال ذريته الشجاعة والعزة بدرجات متباينة · والحق يقال ان ذريته جرت على أثره مدة مائة وخمسين سنة تحتم فى أثنائها على كل فرعون أن يسمى رمسيس · لكن الأمة المصرية أخذت تضمحل ولذلك كانت همة هؤلاء الرعامسة غير كافية لارجاع شأوها العظيم القديم وتوسع ممتلكاتها ، وهكذا اقتصر هؤلاء الملوك على احيـــاء الشعائر الدينيـــة التى أصبحت مطمح أنظــار القوم ، وأخــذت الامبراطورية المصرية فى آخر عهد الرعامسة تضمحل ، لأن معظم المالية أصبح وقفا على المعابد · ومما زاد الطين بلة أن معظم الجيش المصرى كان من الجنــود الأجانب المأجورين فى وقت كانت مصر أحوج ما تكون الى الاقتصاد فى المصروفات والانتفاع بمواردها جهد الاستطاعة ·

الفصـل الثالث والعشرون

اضمحلال الامبراطورية النهائي :
مرنبتاح ورمسيس الثاني

انقلبت الأمور فأضحت الامبراطورية المصرية مدافعة بعد أن كانت مهاجمة وقد حصل هذا تحت تأثير تغيرات داخلية وخارجية . وقد ألمعنا سابقا أن الامبراطورية المصرية نبذت فكرة الاستعمار جانبا وفقدت الدافع لذلك الذى اكتسبته منذ نحو ثلثمائة وخمسين سنة اثر طرد الهكسوس. وبقى الأهالى يترنمون بأعمال قواد تحوتمس الثالث ويمتدحونها رغبة فى الاحتفاظ بالروح الاستعمارية التى اكسبتهم المستعمرات الآسيوية لكن ذلك جاء على غير جدوى . هذا وصف مختصر لما أصاب داخلية القطر المصرى من التغيرات . أما ما انتابه خارجا فيتلخص فى انتشار الفوضى والمنازعات المستمرة على حدود المملكة المصرية ، فقد أخذ سكان البحر الأبيض المتوسط يزحفون على شواطىء مصر للنهب والاستيطان ، ثم اتحدوا مع الليبيين وأهالى آسيا فضغطوا باستمرار كأمواج البحر الزاخر على حدود الامبراطورية المصرية ، ولذلك لم يبق لمصر وسيلة الا الدفاع عن كيانها وهكذا انقضت أيام استعمارها . وقد مكثت كذلك حوالى ستمائة سنة لم تقم فى أثنائها بمحاولة جدية نحو توسيع حدودها . وسنرى فيما يلى أن الفراعنة الذين حكموا القطر مدة ستين سنة بعد وفاة رمسيس الثانى بذلوا جهدهم للمحافظة على كيان مملكتهم بدلا من توسيعها كما فعل أجدادهم العظام سابقا . ولابد أن القارىء يتذكر ما قلناه سابقا من أن هذه العوامل السيئة التى حلت بالقطر المصرى ، أخذت تسرى سمومها فيه أثناء السنوات العشرين الأخيرة من حكم رمسيس الثانى ، لما أخذ هذا الملك يتقدم فى السن ويفقد من قوته . ولما توفى كانت مملكته فى أشد الحاجة الى حاكم شاب قوى نشيط يأخذ بناصرها ويخرجها من الأخطار المحيطة بها ، لكنها رزئت فى تلك الآونة بابن رمسيس الثالث عشر المدعو مرنبتاح المسن الفاقد لجزء كبير من قوته ونشاطه ، وهكذا انتقل الملك من

هرم الى هرم ، ولا يخفى أن لهذه الحوادث نتيجة واحدة لا ثانى لها وهى الضعف والكسل والاهمال فى مقاومة المخاطر . لهذا نرى أن زحف اللبيين وأهالى البحر الأبيض المتوسط كان كالسيل الجارف يتغلب على مصر من الغرب بدون مقاومة تذكر. أما المستعمرات الآسيوية فلم تحصل فيها ثورات اثر وفاة رمسيس الثانى ، وكانت الحدود المصرية وقتئذ واصلة الى أعالى العاصى وشاملة جزءا من مملكة آمون على الأقل وهذا الجزء يحوى مدينة تعرف باسم مرنبتاح،ويظن أن هذه المدينة كانت مسماة باسم رمسيس الثانى ، فلما حكم مرنبتاح سماها باسمه . وبقيت علاقة مرنبتاح مع الحيثيين ودية والفضل فى ذلك يرجع الى المعاهدة التى عقدها والده مع هؤلاء القوم منذ نحو ست وأربعين سنة . ودلتنا الآثار أن جلالته أرسل الى الحيثيين سفنا مشحونة حبوبا لدرء المجاعة التى حلت بهم ، ويرجح أنه قبض ثمنها رغم ما يفهم من الاسلوب الذى دونت به تلك الأعمال من أن جلالته تبرع بها جودا وسخاء . وهذا الود وهذا السلام لم يدوما طويلا ففى نهاية السنة الثانية من حكمه نقض ما اعترف به والده فى معاهدة الحيثيين وندم على ما أظهره والده نحوهم من العطف والرأفة . والمرجح أن جلالته تحقق أن الحيثيين الذين حاربوا المصريين بقادش سابقا أخذوا الآن يساعدون أهالى البحر الأبيض المتوسط من ليديين ودردانيين ، وهم الذين اتحدوا مع الليبيين فى غاراتهم على غربى الدلتا . والظاهر أن الحيثيين حقيقة ساعدوا هؤلاء الأقوام أدبيا على الأقل ان لم يكن ماديا ، ثم زادوا على ذلك فأوقدوا نار الفتنة فى مدن مستعمراته الآسيوية رغبة منهم فى ضمها الى أملاكهم . وعلى أية حال ، ففى السنة الثالثة من حكم مرنبتاح (حوالى سنة ١٢٢٣ قبل الميلاد) هبت ثورة عارمة بمستعمرات مصر الأسيوية بلغت عسقلان على حدود مصر وجازر التى بنهاية وادى أيالونا (Ajalon) الموصل الى بيت المقدس ومدينة يانوعام (Yenoam) بطرابلس الشام ، والتى حبسها تحوتمس الثالث على المعبود آمون منذ مائتين وستين سنة ، واشترك فى هذه الثورة قبائل بنى اسرائيل وأهالى غربى سوريا وفلسطين التى كانت خاضعة لمصر . أما سير حوادث هذه الثورة وكيفية اقماعها فلا نعلم عنهما شيئا ، وكل ما وصل الينا خاصا بها أنشودة النصر التى وضعت لأجل فوز مرنبتاح على هؤلاء العصاة فى هذه الثورة . والظاهر أنه ذهب شخصيا هناك فى السنة الثالثة من حكمه وأقمع الاضطرابات على الرغم من كبر سنه ، ولا يبعد أن يكون قد اقتص تماما وقتئذ من الحيثيين ، وأن كل ما عمل لاخضاع الثورة لم يتعد نهب أو سلب مدينة أو مدينتين على الحدود . ولقد كانت الصدمة التى وجهها مرنبتاح للعصاة شديدة للغاية ، تمكن بها من اذلال فلسطين اذلالا تاما ، وكانت قبائل بنى اسرائيل ضمن المعاقبين الذين وقع

عليهم القصاص • والمعروف عن هذه القبائل أنها استوطنت فلسطين فى أواخر حكم الأسرة الثامنة عشرة وأوائل الأسرة التاسعة عشرة كما ألمعنا سابقا ، ولابد أن هذه القبائل اتحدت أيام مرنبتاح وكونت قوما عرفوا باسم « اسرائيل » وقد جاء ذكرهم فى التاريخ لأول مرة فى عهد هذا الملك • وقد دافعت مدينة جازر عن نفسها كثيرا فى هذه الثورة ضد مرنبتاح حتى اضطر الى أن يحاصرها فسلمت له أخيرا فنحل لنفسه بعدئذ لقب « محاصر جازر » وكان له فى اخضاعها الشرف • وقد شغله حصار جازر عن محاربة أعدائه غربى الدلتا مدة طويلة فلم يتمكن من قتال هؤلاء الا فى السنة الخامسة من حكمه • والثابت أن جلالته لم يرجع من آسيا الا بعد أن قمع ثورتها وأرجع الأمن الى نصابه ، ولا يحتمل أن يكون وسع حدوده هناك عما كانت عليه أيام والده •

فى تلك الأحيان أخذت الحال فى غربى الدلتا تتغير من سيىء الى أسوأ، لأن الليبيين التحنو (Tehenu-Libyans) استمروا يزحفون على مصر عن طريق مستعمراتهم على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، ويحتمل أن تكون طلائعهم وصلت وقتئذ الى قناة عين شمس • أما معلوماتنا عن الليبيين فى تلك العصور فقليلة جدا ، والمعروفة أن اقليم التحنو متاخم لحدود مصر الغربية ، ويلى ذلك غربا القسم المعمور بقبائل ليبو (Lebu) أو ريبو (Rebu) المعروفين عند اليونانيين بالليبيين•أما قدماء المصريين فكانوا يطلقون اسم ليبو على سكان البادية الغربية • وغربى بلاد الليبيين قوم يقال لهم المشواش (Meshwesh) قطنوا الصحراء المجهولة الحد وقتئذ ، وقد ذكر هيرودوت هؤلاء القوم تحت اسم ماكسيز (Maxyes) وهم بلا جدال أصل البربر الذين استعمروا فى شمال أفريقيا • والمشواش قوم متمدينون نوعا ماهرون فى الفنون الحربية مسلحون جيدا قادرون على القيام بحركات هجومية ضد فرعون مصر ، وقد أخذت قبائلهم فى هذا الوقت تتحد تحت سلطة أمير منهم فكونوا مملكة قوية طمحت نحو الاستعمار وتبعد عن مأوى فرعون شرقى الدلتا بمسيرة عشرة أيام • وليلاحظ أن جهات غربى الدلتا امتزجت بالدم الليبى وكثرت فيها الأسر الليبية • وتقدم الليبيون غربى مصر حتى بلغوا الشاطىء الغربى لفرع النيل الكانوبى (Canopic) المعروف وقتئذ بالنهر الكبير ، ثم استوطن ليبيون آخرون الواحتين اللتين هما جنوبى وغربى الفيوم • ووصف مرنبتاح هؤلاء القوم « بأنهم يمضون أوقاتهم محاربين ليملئوا بطونهم كل يوم ، وقد أتوا الى مصر ليحصلوا على ما تحتاج اليه أفمامهم » • ولما زاد عدد الليبيين بالدلتا تجاسروا وتطاولوا على فرعون مصر فجمعوا شملهم وكونوا قوة نظامية للاستيلاء على أرض مصر ، كانوا وقتئذ تحت قيادة ملكهم المدعو مريى (Meryey) وهذا أجبر بدو التحنو أن ينضموا اليه ، ثم استعان بقرصان البحر الأبيض المتوسط

وأحضر زوجته وأولاده كما فعل ذلك أيضا حلفاؤه وأخذوا يزحفون على مصر للاستيلاء عليها والاستيطان بها . أما حلفاؤه من قرصان البحر الأبيض المتوسط فكانوا مكونين من شردينيين (Sherden) وشكالاشيين (Sheklesh) من صقلية وآجنين أو الليديين المعروفين باســـم (Ekwesh) وهم الذين ســـطوا على مصر أيام امنحتب الثـــالث والاترسكيين (Etruscens) أو Tyrsenians) المعروفين على الآثار باســم ترش (Teresh) وهؤلاء الأقوام الأقوام هم أقدم من أتوا الى مصر من سكان أوربا وكانوا ينهبون البـلاد بالسطو وقد ورد ذكرهم في نصوص عهد المملكة الوســطى . لكن هؤلاء الأقوام ليسوا أول الأوروبيين الذين أتوا الى مصر ، لأن المعروف عنهم آنهم عبروا البحر الأبيض المتوسط كثيرا فيما مضى واليهم يعزى أصل الليبيين البيض البشرة . ويظهر من عدد الأسرى والقتلى الليبيين الذين أصيبوا في معركتهم مع مرنبتاح أن عدد جيشهم كان لا يقل عن عشرين ألف مقاتل .

وعلم مرنبتاح بالخطر المهدد لكيان مملكته فحصن قلاع عين شمس ومنف . وفي آخر مارس من الســنة الخامسة من حكمه بلغه خبر زحف الليبيين على مصر فاســتدعى موظفيــه بسرعــة وأمرهم بحشــد جيوشــه وتجهيزها للقتال في ظرف أربعة عشر يوما . ورأى في المنام المعبود بتاح في هيئة شيخ عظيم أهدى اليه سيفا وطلب منه أن يبطل الخوف والوجل . فلما حل منتصف أبريل كانت الجيوش المصرية معســكرة غربي الدلتــا وبالغة صفوف الأعداء وذلك وقت المغيب بالقرب من بريرع (Periire) وهي مدينة مجهولة الموقع بالضبط لكنها تبعد عن القلاع التي على رأس الطريق الموصل الدلتا بصحراء ليبيا بعدة أميال . وكان لمرنبتاح بالقرب من بريرع قصر عظيم وسط كروم كثيرة ، وشرقي ذلك تمتد حقول الدلتا الجميلة الجزيلة الخيرات والتي كان مزارعوها في ذاك الوقت يحصــدونها بهمة ونشاط . فلما وقع نظر الليبيين على هذه الخيرات العظيمة ازدادت همتهم واشرأبت أعناقهم اليها فاخترقوا صفوف القــلاع الغربية وهناك التحموا بجيش مرنبتــاح بالقرب من قصره في صــباح الخامس عشر من أبريل ، واستمرت المعــركة دائرة بشــدة مدة ست ساعات انتهت بطرد الليبيين بعد ما تكبدوا خسائر فادحة ، فتعقبهم مرنبتاح بخيله كما تفعل الجيوش الحديثة ومزقهم شر ممزق واستمر في اقتفائهم حتى بلغ « جبل قرون الأرض » وهو آخر حدود الدلتــا الغربية ومنه هرب الليبيون . أما مريي (Meryey) فقد فر الى بلده يائسا من النصر تاركا جميع أسرته وأثاث منزله في أيدي المصريين . وقد استولى المصريون في اقتفائهم أثر أعدائهم على أسرى عديدين، كما قتلوا منهم أيضا عددا يماثل ذلك، وتقدر خسارة الأعداء بتسعة آلاف قتيل ثلثهم تقريبا من سكان البحر الأبيض

المتوسط ، أما الأسرى فيقرب عددهم من هذا المقدار أيضا ، وقد وقع بين القتلى أنجال ملك الليبيين الستة • وغنم المصريون من هذه المعركة أشياء كثيرة منها تسعة آلاف سيف نحاس وعدد كبير من أدوات الحروب المختلفة البالغ عددها مائة وعشرين ألفا وأسلحة جميلة أخرى وأثاث بديع وجد فى خيام ملك الليبيين ورؤساء بلاده ينيف على ثلاثة آلاف قطعة • ولما نهب المصريون خيام الأعداء تماما أضرموا فيها النار فالتهمتها كلها •

ورجع الجيش المصرى الى قصر مرنبتــاح شرقى الدلتا فأتت اليه الحمير مثقلة بأيدى الأسرى وأمتعتهم ثم أحضرت الغنيمة وعلائم الانتصار تحت شرفة القصر الملكى فتفقدها الملك واستقبل جمهور رعيته الجذل ، وبعد ذلك جمع أمراء مملــكته فى القــاعة الكبرى من قصره وألقى عليهم خطابا عظيما • وبينما كان جلالته يوجه كلامه نحو أمرائه وصل اليه نبأ من قائد قلاع غربى الدلتا يفيده بأن ملك الليبيين هرب مخترقا خط الدفاع المصرى ليلا وأن قومه يئسوا منه فخلعوه وملكوا عليهم غيره من خصومه • وهكذا سقط الحزب الحربى فى ليبيا ووقف كل هجوم من تلك الجهة على مصر فى عهد مرنبتاح على الأقل •

ويستدل من شدة الفرح الذى عم أهالى القطر اثر هذا النصر الحربى أن هذا الجذل لم يكن لمجرد الفوز العسكرى بل كان أيضــا لخلاص مصر من الوقوع فى أيدى هؤلاء الأعداء ، فقد وقف بذلك سلب غربى الدلتا الذى استمر جيلا تقريبا من هؤلاء الليبيين • لذلك لم يكن هذا النصر درءا لخطر داهم هدد الامبراطورية المصرية فقط بل كان فرجا وخلاصــا من كابوس أثقل كاهل الأهالى وأذاقهم مرارة الحياة ، واذا لاحظنا هذا اتضح لنا سر شدة فرح المصريين وترنمهم بالأنشودة الآتية :

« شمل مصر فرح عظيم وصعدت من بلاد التميرة (مصر) أصوات السرور ، فأصبح الكل يتحدثون بنصر مرنبتاح على التحنو قائلين ما أحب هذا الملك المنتصر ! وما أعظمه بين المعبودات ! وما أسعد هذا القائد الحاكم ! اجلس مسرورا أو تكلم أو امش بعيدا حيثما أردت فلا خوف الآن فى قلوب الخلق • القلاع تركت وشأنها والآبار فتحت من جديد • وأصبحت الرسل تنتظــر حول القلاع مستريحين فى ظل جــدرها من حرارة الشمس حتى يتنبه الحراس من الداخل • أو الجنود فصاروا ينامون مستريحى البال ، وأضحى حــرس الحــدود يشتغلون فى حقولهم كالعادة ، وأصبحت قطعان الأغنام ترعى بدون راع وتعبر نهر النيل فى منتهى فيضانه وقتما تريد • لا أثر الآن لأصوات مثل « قف ! ها قد أتى أحد ! ها قد أتى شخص يتكلم بلهجة أجنبية ! » بل صار الانسان يروح ويغدو مغنيا وانعدم الترح بين

الاهالى وأخذت المدن تشييد العمارات من جديد وكل انسان جنى ثمار أتعابه • حقيقة ! لقد رجع رع الى مصر ! كيف لا فقد ولد ليدافع عنها ويحميها فى شخص الملك مرنبتاح ! » •

« لقد خضع الملوك صائحين سلام ! فلم يرفع رأسه فرد من القبائل التسع ذات الأقواس •

« لقد أتلفت أرض تحنو ، وأرض الحيثيين أسكتت كذلك ، أما أرض كنعان فسلبت بأشد قسوة ،

« وأما عسقلان فأخذت وكذا جازر استولى عليها جلالته • وقد انعدم أثر مدينة يانوعام •

« لقد أبيدت اسرائيل واستؤصلت وأصبحت فلسطين أرملة (ضعيفة) لمصر • واتحدت البلاد وخيم السلام على الجميع وأصبح الملك مرنبتاح يوثق حباله كل من يثور على النظام » •

لا شك فى أن القارىء لاحظ أن الجزء الأخير من هذه الأنشودة يلخص لنا كل انتصارات مرنبتاح بآسيا وهو للآن مرجعنا الوحيد فى حروبه الأسيوية وقد جاء موضعه فى الأنشودة خير ختام لها •

بهذه الطريقة تمكن مرنبتاح على كبر سنه من درء أول زوبعة من سلسلة الزوابع التى أخذت تهب على بناء الامبراطورية المصرية • والمعروف أنه عاش فى الدلتا بعد ذلك خمس سنوات خيم السلام فى أثنائها على مملكته • ومما ورد عنه أنه حصن حدوده الآسيوية بقلعة سميت باسمه(١) وأخضع ثورة نوبية فى الجنوب أيضا •

قال بعض الأثريين ان أحد السوريين المدعو ابن عوزن والذى كان موظفا فى القصر الملكى قبض فى آخر الأمر على مرنبتاح وأدار أمور المملكة لكننا لم نجد أساسا لذلك • والظاهر أن سبب سوء هذا الفهم يرجع الى عدم معرفة معنى الألقاب الكثيرة التى أغدقت على هذا السورى وقتئذ ، وقد ألمعنا الى ذلك فيما تقدم •

وليعلم أن طول حكم رمسيس الثانى واسرافه فى الأموال وحبه الشديد لتشييد العمارات الضخمة منع مرنبتاح من انجاز كل ما صبت اليه نفسه • زد على ذلك أن أيامه كانت على طولها غاصة بالحركات الحربية والفتوحات فلم يكن لديه وقت لقطع الأحجار وتشييد معبد له

(١) Pap. Anast. VI, pl. 4, 1. 13-pl. 5, 1. 5.

بطيبة تقدم اليه فيه القرابين بعد وفاته كما فعل أسلافه ، ولهذا السبب أخذ مرنبتاح يهدم آثار أجداده بقسوة عظيمة فهدم معبد أمنحتب الثالث في السهل الغربي لطيبة وحطم جدره وكسر تماثيله ليستعمل من أجزائها احجارا لبنائه الجديد • فمن هذه الأحجار التي احتكرها هذا الملك لنفسه شاهد جرانيتي ينيف طوله على عشر أقدام مكتوب عليه بيان العمارات التي شيدها أمنحتب الثالث (لوحة ١٣٢) وقد أمر مرنبتاح بوضع هذا الحجر في عمارته الجديدة مديرا نقوش أمنحتب الثالث الى الحائط ثم نقش على الوجه الآخر أنشودة انتصاره على الليبيين السابقة الذكر ، ولهذه الأنشودة قيمة أثرية عظيمة لاحتوائها على أقدم ذكر لاسرائيل • ولم يقتصر اتلاف مرنبتاح لآثار أجداده بل شمل أيضا آثار والده الذي سبق أن وضح له مثالا لمثل هذا الاعتداء قبل وفاته • والغريب أن رمسيس الثاني مع ما أتلفه من آثار أجداده نقش على جدر معبد العرابة رجاء لخلفائه أن يحترموا أعماله وأبنيته ويحفظوها من التبديد ، ولما أتى ابنه بعده لم يظهر أقل احترام لهذا الرجاء الأبوي بل استمر يضع اسمه على آثار والده طول حياته •

وتوفي مرنبتاح عام ١٢١٥ قبل الميلاد بعد ما حكم عشر سنوات ودفن بطيبة بالوادي الذي دفن فيه أجداده ، وقد عثر على جثته هناك حديثا فظهر بذلك خطأ الرأي القائل بغرقه بالبحر الأحمر لما ورد على الآثار من علاقته ببني اسرائيل •

والحق يقال ان هذا الملك وان عيب عليه اتلاف آثار أسلافه فانه يستحق الاعجاب والمديح لما أتاه من الشهامة والاقدام على ضعفه وتقدم سنه لصده الأجانب عن مصر وهم الذين أوشكو أن يستولوا عليها تماما •

ولا يخفى أن حكم رمسيس الثاني ومرنبتاح الطاعنين في السن صحبه ضعف وتهاون في ادارة القطر مع تدخل وتآمر على دوائر الحكومة، لذلك لما توفي مرنبتاح حصل نزاع داخلي على العرش الملكي دام عدة سنوات نجح فيه اثنان أولهما آمون مس (Amenmeses) ومرنبتاح سبتاح (Merneptah-Siptah) • أما الأول فكان ضعيف الحق في المطالبة لأنه ارتكن في دعواه على علاقة قرابة بعيدة تربطه بالبيت المالك ، وكان أيضا معاديا لمرنبتاح ولذلك لم يدم طويلا فحل محله مرنبتاح سبتاح الذي وضع يده بسرعة على آثاره وهشم قبره بوادي طيبة الغربي • وسنرى منذ الآن أن النوبة امتد اليها لهيب الثورة فكانت ميدانا للحركات الثورية ضد العرش الملكي ، وقد تكرر هذا الأمر أيضا في عهد الرومان وذلك لبعد النوبة عن العاصمة المصرية ولسهولة العمل هناك ضد العرش الفرعوني وسهولة تاسيس حزب كبير يعاضد الحركات الثورية • ولا يبعد

أن يكون سبتاح توصل الى الملك عن طريق النوبة حيث توج ملكا على مصر، وعلى كل حال فالمعروف أنه ذهب الى النوبة فى أول سنة من حكمه وعين مندوبه السامى هناك وأرسل رسله لتوزيع الهبات على الأهالى · بهذه الطريقة وباقترانه بالأميرة تاوسرت (Tewosert) التى يغلب أنها من أصل فرعونى عريق ، تمكن سبتاح من الاستقلال بالملك ست سنوات أرسلت فى أثنائها بلاد النوبة جزيتها السنوية بانتظام وسارت المعاملات الاعتيادية مع امارات آسيا أيضا فى مجراها الطبيعى · أما المندوب السامى الذى عينه سبتاح فى النوبة فكان يدعى سيتى وقد لقب كما ألمعنا سابقا « حاكم أرض آمون الذهبية » · وليلاحظ أن هذه الوظيفة الأخيرة وطدت العلاقة بين المندوب السامى وكهنة آمون بطيبة ولذلك لا يبعد أن المندوب السامى اتبع طريقة سبتاح للحصول على عرش مصر مستعينا على ذلك بنفوذه بالنوبة · وقد حصل فعلا أن الذى أعقب سبتاح فى الحكم هو ملك يقال له سيتى اعتبره القوم الشخص الوحيد ذا الحق الشرعى فى العرش الفرعونى من بين خلفاء مرنبتاح الثلاثة · والظاهر أن هذا الملك كان قويا ناجحا نوعا ما فقد شيد معبدا صغيرا بالكرنك وآخر بالأشمونين (هرموبوليس) ، ثم وضع يده على مقبرة سبتاح وتاوسرت ، ثم شيد لنفسه أخيرا قبرا خاصا له · وظهرت فى البلاد عوامل داخلية شديدة أسقطته من الحكم لأن البلاد كانت فى حاجة الى حاكم قوى شديد ماهر حاذق ، وهذه العوامل تتلخص فى ظهور أمراء البلاد بشىء من الغطرسة والكبرياء والاكثار من الأجانب فى الحاشية الملكية ، وشدة نفوذ الكهنة وتعدد المطالبين بالعرش · ولما كان سيتى الثانى ضعيف الشكيمة بالنسبة لهذه الاعتبارات وقع ضحيتها ، ولا غرابة فى ذلك فتيار العوامل المذكورة يكفى لأن يذهب بعدة رجال يفوقون سيتى هذا قوة وذكاء ·

ولما ترك سيتى الثانى الحكم عجز مسقطوه عن القيام بأعباء الحكم فنشبت فى البلاد حرب أهلية جزأت القطر وانقسم تحت تأثيرها الى عدة أجزاء مستقلة ، فعم البؤس وسوء النظام سائر أنحاء المملكة وهو ما يشاهد كثيرا فى مثل هذه الأحوال بالبلاد الشرقية · واليك ترجمة ما جاء بالآثار فى هذا الصدد :

« لقد فقد كل انسان متاعه فلم يبق هناك حاكم يرد الحق الى نصابه عدة سنوات · وسقطت مصر فى أيدى أمرائها وحكام مدنها ، فصار الجار يقتل جاره قويا كان أم ضعيفا » ·

ولم نهتد للآن الى مدة هذه الاضطرابات لكن الثابت أن الامبراطورية المصرية كانت سائرة بسرعة نحو التفكك والانحلال بالكيفية التى وصفها لنا كتاب العرب أيام المماليك · وما أقوى التشبه بين ما وصفه كتاب

العرب أيام القرن الرابع عشر بعد الميلاد وما ورد فى بردية هاريس (Harris) المدونة أيام رمسيس الثالث حيث سردت أخبار تلك المجاعة والثورة بالإيجاز ٠

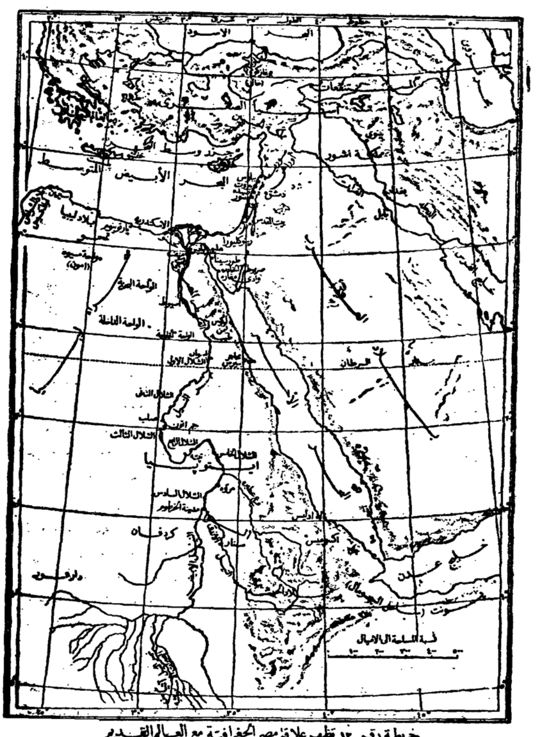
وصادف فى ذلك الوقت توطيف أحد السوريين فى القصر الملكى فرأى البلاد فى حالة قحط شديد واضطرابات كثيرة فاغتصب الملك وساس القطر بالقسوة والجبروت مستوليا على جميع ايراد البلاد ٠ ثم جمع رفقاءه وسلب أموالهم وعامل المعبودات كالآدميين فلم يقدم لها قرابين بالمعابد ، فضاع الحق وأبطلت أوقاف المعابد ٠

وبدهى أن الليبيين كانوا وقتئذ على علم تام بما حصل بالقطر المصرى من الدمار والجوع ، فأخذوا يهاجرون الى غربى الدلتا وصار جناتهم ولصوصهم يعيثون فى البلاد بين منف والبحر الأبيض المتوسط ثم استولوا على الحقوق واستوطنوا شاطىء فرع النيل الكانوبى ٠ عند ذلك ظهر بين المصريين رجل قوى الشكيمة مجهول الأصل يدعى ستنخت (Setnakht) حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد يرجح أنه من سلالة سيتى الأول ورمسيس الثانى نجح فى الاستيلاء على العرش الفرعونى واثبات حقه ضد كل مدع رغم كثرة أعداء مصر خارجا وداخلا ، واستعمل فى ذلك حنكة ومهارة سياسيتين استحق عليهما جزيل الثناء ٠ بعد ذلك بسط ستنخت النظام ووطد الأمن والسكينة فى البلاد وأرجع القوانين الفرعونية الى ما كانت عليه سابقا ٠ ومن دواعى الأسف أن الأخبار التى وردت الينا عن هذه الأزمة قليلة جدا تتلخص فيما أورده رمسيس الثالث بن ستنخت حيث قال ما ترجمته :

« ولما اتفقت كلمة المعبودات على السلم وأجمعت رأيها على العمل معا لما فيه مصلحة البلاد كالعادة ولت ابنها من سلالتها المدعو ستنخت حاكما على كل الأراضى ٠٠٠ فأرجع النظام فى جميع البلاد الثائرة وقتل العصاة الذين كانوا بمصر وطهر العرش المصرى العظيم ٠٠٠ فعرف كل انسان أخاه بعد ما كان مضطرا الى المعيشة بين جدر المنازل (للحماية من العبث)٠ ثم أعاد القربان الى المعابد كما كانت من قديم الزمن » ٠

يتضح من هذه العبارة أن الرجل السورى الذى اغتصب الملك أغضب الكهنة بابطال أوقافهم ، أما ستنخت فاتخذ ارجاع أوقاف الكهنة لأصلها وسيلة للوصول الى العرش لأن طائفة هؤلاء القوم كانت أغنى وأقوى حزب فى البلاد ٠

وسنرى أن المشاق التى صادفها ستنحت فى حكمه كانت صعبة منعته من تشييد المعابد والهياكل كسلفه ، بل حالت أيضا دون انشائه



خريطة رقم ١٢ تظهر علاقة مصر الجغرافية مع العالم القديم
مذكور بها بعض أسماء حديثة للمواقع وغيرها تسهيلا لفهم القارئ

قبرا له بطيبة . لذلك وضع يده على قبر سبتاح وتاوسرت الذى اغتصبه سيتى الثانى سابقا ولم يستعمله . والظاهر أن حكم ستنخت كان قصيرا لأن كل الآثار التى عثرنا عليهـــا لهذا الملك ترجع الى السنة الأولى من حكمه . وأقصى تاريخ اهتدينا اليه من حكم هذا الملك هو الوارد على ظهر درج بردى خطه كاتب مصرى كان يجرب قلمه وهو يشير الى السنة الأولى من حكم الملك ستنخت . وقبل أن يتوفى هذا الملك (عـام ١١٩٨ قبل الميلاد) عين ابنه رمسيس الثالث شريكا له فى الملك وولى عهد حكومته .

اعتبر مانيتو رمسيس الثالث مؤسس الأسرة العشرين رغم ما ذكرناه من انقطاع الصلة الدموية بين الحكام بعد وفاة مرنبتاح وفى عهد ستنخت . أما الظروف التى اعتلى فيها رمسيس الثالث الحكم فكانت كثيرة الشبه بظروف مرنبتاح وقت توليته الملك ، ونظرا لحداثة سن أولهما وشجاعته تمكن من علاج المصاعب التى اعترضته أحسن من مرنبتاح،فأخذ رمسيس الثالث يصلح قوته الحربية بسرعة ويقسمها الى طبقات على حسب لياقة الأفراد للخدمة ، وزيادة على ذلك فقد أدخل على جيشه فرقة الشردينيين المأجورين التى ما نزال نجهل عدد أشخاصها ــ وقد كانت وقت رمسيس الثانى ــ وفرقة الكهك (Kehek) وهى قبيلة ليبية . وبدهى أن هؤلاء الجنود المأجورين كانوا يخدمون ما داموا يتسلمون أجورهم . أما الجنود المصريون فكانوا كثيرى التغير والتبدل بدخول طبقة بعد أخرى ولذلك كان معظم اعتماد فرعون على جنوده الأجانب المأجورين . وقد شغل نظام القطر الداخلى وقت رمسيس الثـالث كله فلم يتمكن من عـلاج الخطر الليبى الا مكرها كما حصل لمرنبتـاح . ومما زاد الطين بلة أن سكان شواطىء البحر الأبيض المتوسط أخذوا يفدون بكثرة على مصر ، وأخصهم قومان فظيعان يعرفان بالثكاليين (Thekel) والبلست (Peleset) ــ المعروفين عند اليهود بالفلسطينيين (لوحـــة ١٣٣) ــ اشتهرا باحـداث القلق والاضطراب . أما أهـالى بلست وهم الفلسطينيون فأصـلهم من جزيرة كريت ، وأما الثكاليون فالغالب أنهم يونانيو الأصـل من جزيرة صقليه . وقد اتحد الثكاليون وأهالى بلست مع الدناويين (Denyen) والشردينيين والوشاشيين والشكالاشيين جمعوا كلمتهم على الهجوم على مصر ، وزحف القومان الأولان جنوبا وشرقا تحت ضغط الباقين من حزب هذا الاتحاد . ولقلة معرفتنا للغة هؤلاء القوم ومجتمعاتهم وما وصل الينا من رسومهم على الآثـار المصرية ، تلك الرسوم الخاصة بملابسهم وأسلحتهم وسفنهم وعددهم ، ما نزال نجهل أصلهم بالضبط . والظاهر أن هجرتهم الجنوبية هذه جاءت دليلا على سبق حصول مثل هذه الهجرات قديما . وقد اتخذ هؤلاء الأعداء طريقين فى هجرتهم أحدهما طريق سوريـا فأعـالى العاصى

ومملكة آمور ، والثانى طريق أساطيلهم التى سيرها رجال جسورون منهم عن طريق شاطىء الدلتا ، وقد اتبع هؤلاء الأخيرون أساليب النهب والقرصنة حيثما حلوا • ولما وصل الفريق الثانى الى شاطىء أفريقية وجد فيه الليبيين الذين أظهروا استعدادهم للاتحاد معهم على نهب الدلتا واحتلالها • وسبق القول ان الليبيين عزلوا ملكهم المدعو مريى (Meryey) بعد ما هزمه مرنبتاح ، والآن نذكر القارىء أنهم ملكوا عليهم ملكا يدعى ورمر (Wermer) ، ولما مات هذا تولى بعده الملك ثيمر (Themer) • وهذا الأخير هو الذى قاد الليبيين ضد مصر فى عهد رمسيس الثالث • وكان الهجوم على مصر من غربى الدلتا بطريق البر والبحر ، والتقت الأعداء بجنود رمسيس الثالث بجوار مدينة « رمسيس الثالث معاقب أهل التمحو (أى ليبيا) » ، وهناك هزمهم رمسيس وحطم جانبا من سفنهم وأسر الجانب الآخر ، فرجع الأعداء بعد ما خسروا كثيرا لأن قتلاهم بلغوا اثنى عشر ألفا وخمسمائة نسمة ، وأسراهم ألف نسمة على أقل تقدير ، وأغلب القتلى كانوا من القرصان •

واحتفل رمسيس الثالث بهذا النصر احتفالا كثيرا كالعادة فقابل فى شرفة قصره أعيان بلاده الفرحين ، واستعرض الغنيمة الحربية ووهب كثيرا من الأسرى لآمون كالعادة المتبعة ، وعم البلاد وقتئذ الأمن والسلام واليك ترجمة ما قاله الملك :

« لقد أمكن كل امرأة الآن تسير خارج منزلها كما تريد رافعة قناعها بلا خوف ولا وجل لأنه لم يعد أحد يتعرض لها » •

وحصن حدود مملكته الغربية ضد الليبيين فشيد قلعة ومدينة على رأس الطريق الممتد من غربى الدلتا الى الصحراء وذلك فى مكان مرتفع يعرف « بجبل قرون الأرض » الوارد ذكره ضمن أخبار مرنبتاح السابقة •

وأخذت سحب المخاطر تتجمع وتتلبد فى سماء الامبراطورية الشمالية وقد أشرنا الى بوادر هذه الزوبعة لما تكلمنا على الهجوم السابق على سواحل الدلتا • والظاهر أن السفن الوارد ذكرها قبلا والامدادات البرية التى أمد بها هؤلاء البحارة الأهالى الليبيين وقت هجومهم على مصر فى السنة الخامسة من حكم رمسيس الثالث ، لم تكن سوى تمهيدات أولية لهجوم شديد داهم آت عن طريق سوريا • وتفصيل ذلك أن هؤلاء الأجانب (أهالى البحر الأبيض المتوسط) أخذوا يفدون مع أسرهم على سوريا فى عجلات ضخمة، كل واحدة لها عجلتان تجرها ثيران ، وفى سفن عديدة تطوف الشاطىء السورى ، ولحسن تسلح هؤلاء الأقوام عجز أهالى مدن آسيا عن مقاومتهم ، ولذلك سهل عليهم الاستيلاء على جميع بلاد الحيثيين

شمالى سوريا حتى كاركاميش (Carchemish) على الفرات • بعد ذلك زحفوا مخترقين أرواد (Arvad) على ساحل فينيقيا ، ثم ساروا جنوبا حتى مملكة آمون متبعين طريق نهر العاصى ناهبين ومتلفين كل ما وقعت عليه أيديهم • والظاهر أن مستعمرة الحيثيين بسوريا انقطعت صلتها بهؤلاء منذ مدة فلم يعد لهم هناك سلطة مطلقا •

وزحف أسطول سكان البحر الأبيض المتوسط على جزيرة قبرص المعروفة قديما باسم ألاسا (Alasa) فلم يجد فيها مقاومة تذكر فاحتلها • بعد ذلك « أقبل هؤلاء الأقوام والنار تتأجج أمامهم مولين وجوههم نحو مصر • وكانوا وقتئذ مكونين من أهالى بلست (كريت) وثيكل (صقلية) وشكلش ودنان ووشواش • كل هؤلاء اتحدوا معا وأخذوا يستولون على الأراضى حتى بلغوا « أفق الأرض » • وقد دلتنا الآثار أن « هؤلاء الأقوام أتوا من جزرهم فى وسط البحر الأبيض المتوسط معتمدين على أسلحتهم ووجهتهم القطر المصرى » ، فلما بلغوا آمور ضربوا خيامهم ولبثوا بها مدة وجيزة •

أما رمسيس الثالث فقد أخذ يتجهز ويستعد بكل قوته لصد هجوم أعدائه فحصن حدوده السورية وجمع أسطولا ضخما بسرعة وزعه على الموانىء الشمالية وراقب من شرفة قصره تجهيزات مشاته • ولما كمل استعداده قاد بنفسه قواته الى سوريا ليصد زحف أعدائه • وللآن لم نهتد الى مكان المعركة التى نشبت بين الطرفين بالضبط • لكنه لما كان الأعداء وصلوا الى آمور فمن المحتمل جدا أن يكون العراك قد حصل بتلك الجهات • ولم يخبرنا رمسيس الثالث عن سير المعركة الا خبرا مجملا فقال انه انتصر على أعدائه وهزمهم ، ويستدل من صور تلك المعركة أن جنوده الشردينيين شقوا صفوف أعدائه واستولوا على عجلاتهم ، ولما كانت قوات الأعداء تشمل أيضا بعض الشردينيين ، اضطر هؤلاء الأخيرون أن يحاربوا أبناء وطنهم المنتمين الى الطرف الثانى • وقد تمكن رمسيس الثالث من الوصول الى ميناء على شاطىء فينيقيا راقب منها سير المعركة البحرية التى دارت رحاها بين أسطول أعدائه وأدار حركة الدفاع من الشاطىء • أما الأسطول المصرى فكان مزودا بخيرة البحارة المصريين المسلحين جيدا ولذلك ألحقوا الهزيمة والتلف بسفن الأعداء قبل أن تصل الى الشاطىء • ومما زاد الطين بلة أن رمسيس وضع على الشاطىء المقابل لمكان المعركة قوة برية مصرية مسلحة بالسهام صوبت أسلحتها الفتاكة نحو أسطول العدو فأصلتهم نارا حامية ، واشترك فى القتال فرمى أعداءه بسهامه • بعد ذلك تقدم الأسطول المصرى نحو الأسطول الأجنبى ليحتل وحداته ويفتك برجاله ، فانتشر الذعر بين الأعداء وانعدم النظام بينهم (لوحة ١٣٤)

فغرق من سفنهم ما غرق · ثم دب الرعب فى نفوسهم فوجموا لما أصابهم والقوا أسلحتهم فى البحر ، وكانت سهام جلالته تصيب جسم كل من يصوبها نحوه فترديه فى الماء قتيلا » ·

بعد ذلك سحبت السفن مقلوبة الى الشاطىء وكانت القتلى كومات مكدسة على ظهر السفن من مقدمها الى مؤخرها ، وألقيت جميع أمتعا الأعداء فى البحر تذكارا لمصر ، ومن حاول من الأعداء الهرب عائما نحو الشاطىء تأسره القوات المصرية هناك ·

والظاهر أن هاتين الضربتين اللتين صوبهما رمسيس الثالث نحو أعدائه كانتا كافيتين لبسط نفوذه على بلاد آسيا كلها حتى آمور ، وقد اعترف له أعداؤه بذلك ، وأخذ بعض هؤلاء الأعداء يهاجرون بعد ذلك الى سوريا لكنهم كانوا يطيعون الأوامر المصرية ويدفعون الجزية افرعون ·

بهذه الكيفية نجت الامبراطورية المصرية بآسيا للمرة الثانية من الخطر الأجنبى ، ثم رجع رمسيس الثالث الى مقره بالدلتا ليشترك فى احتفالات النصر العظيمة التى أقيمت له عن جدارة واستحقاق ·

ومضت على جلالته مدة قصيرة لم تحصل فيها مشاكل ولا اضطرابات، ومع ذلك فقد أمضاها فى الاستعداد للطوارىء · وقد حصل فعلا ما كان يحتاط له جلالته وخلاصة ذلك أن سكان الغرب الأقصى بدءوا بهجرة عظيمة ثانية الى غربى الدلتا ، ويرجع السبب فى هذه الهجرة الى قوم المشواشيين القاطنين غربى الليبيين · ولما كان الليبيون قد عوقبوا بقسوة فى السنة الخامسة لحكم رمسيس الثالث لم يعد لهم غرض فى غزو الدلتا ، ولكن المشواشيين غزوا بلادهم وأتلفوها ثم اضطروا الى أن يتحدوا ويحاربوا مصر · بعد ذلك انضم الى هؤلاء الأعداء قوم آخرون ، ثم تولى قيادة الحملة المدعو مششر (Meshesher) ابن ملك المشواشيين المدعو كبر (Keper) وكان غرض هؤلاء الأعداء الأول الهجرة والاستيطان بالدلتا ،· وقد « صمم هؤلاء الأقوام أن يعيشوا فى مصر ويستولوا على تلالها وسهولها » فصاحوا بصوت واحد « لنستوطن مصر ! ثم عبروا الحدود المصرية باستمرار » كل ذلك حصل فى الشهر الثانى عشر من السنة الحادية عشرة من حكم رمسيس الثالث ·

ثم أخذ القوم يغزون مصر من الطريق الغربى كما فعلوا أيام مرنبتاح فحاصروا قلعة هاتشو (Hatsho) التى تبعد عن حدود الدلتا بنحو أحد عشر ميلا وتقع بقرب فرع « ميـاه رع » · فى تلك الجهة وتحت أسوار قلعة هاتشو هجم رمسيس الثالث مع جيشه على أعدائه هجوما مرا وأخذت حامية القلعة المذكورة تمطر الأعداء فى الوقت نفسه نارا حامية حتى دخل

رعب فرعــون في قلوبهم وعجزوا عن المقــاومة ودب الذعر بينــهم ففروا هاربين ، لكن قلعــة ثانيــة أصلتهم نارا حامية وقت هربهم قضت عليهم بقسوة عظيمة · بعد ذلك تعقبهم رمسيس بجيوشه لمسافة أحد عشر ميلا الى حدود الدلتا حتى تأكد من خروجهم تماما من أرض مصر ، ثم استراح في حصن هناك يعرف بحصن « مدينة رمسيس الثالث » الذى سبق أن أشرنا اليه بأنه شيده على قمة « جبل قرون السماء » ·

وانتهت هذه المعركة بقتل مشيشر (Meshesher) قائد المشواشيين وأسر والده ملكهم المدعو كبر (Keper) ، وقتل ما يبلغ ألفين ومائة وخمسا وسبعين نسمة وأسر ما يبــلغ ألفين واثنتين وخمسين نسمة بينهم نساء يزيد عددهن على ربع هذا المقدار · واليك ما قاله رمسيس عن معاملتــه لهؤلاء الأسرى : « لقد اعتقلت رؤســاءهم في قــلاعى باسمى ، ووسمت قوادهم ورؤساءهم الذين وهبتهم لتلك القلاع كعبيد باسمى ، وعــاملت نساءهم وعيالهم المعاملة نفسها » ·

وبلغ عدد الأسرى المشواشيين الذين سخروا عبيدا لخدمة قطــيع المعبد المسمى « رمسيس الثالث المنتصر على المشواشيين بجوار مياه رع » ألف نسمة تقريبا · واعتبر جــلالته هــذا النصر العظيم عيدا احتفل به سنويا وسماه « عيد قتل المشواشيين » · ولقب جلالته نفسه بعد ذلك بالألقاب الآتية : « حامى مصر والمدافــع عن الأقطار وغــازى المشواشيين ومتلف أرض التمحو » ·

هذه هي المرة الثالثة التى صــدت فيها القبائل الغربية عن الدلتا ولم يعد عند رمسيس الثالث بعد ذلك مجال للخوف من تلك الجهة ، انما يلاحظ أن قوة الاســتعمار عند الليبيين لم تنعــدم بالمرة · والمعروف أن هؤلاء القوم لم تتحد لهم كلمة بعد ذلك ، لكنهم أخذوا يهاجرون مسالمين الى القطر المصرى كما فعلوا قبل حكم الأسر ، وقد فعلوا ذلك تدريجا وبنفر قليل لم يقاومهم فرعون مصر ولم يهتم بهم كثيرا لعلمه بضعفهم وعجزهم ·

ولقد أحدثت فتنة أهــالى شمالى البحر الأبيض المتوسط بالشــام تأثيرا سيئا في ولاة مصر رغــم انتصار رمسيس الثالث وصده للغزاة · وللآن لم يثبت ان كان ملك آمور اتحد مع الغزاة ضــد مصر وقتئذ كما فعل أيام الضغط الحيثى أم لا ، لكن المعروف أن رمسيس الثالث حالما انتهى من صده الليبيين سافر توا في جيشه الى آمور ، ولم يصل الينا من أخبار هذه الحملة الا اليسير ومنه استدل على أن جلالته استولى عنوة هناك على خمس مدن على الأقل : واحدة في آمور ، وثانية يظن أنها قادش لكونها محاطة بالماء ، وثالثة واقعة على تل ما نزال نجهلها · أما الاثنتان

الباقيتان فتسمى احداهما ارث (Ereth) والأخرى مجهولة الاسم ، وقد دافع الحيثيون عنهما • والظاهر أن رمسيس الثالث لم يتوغل كثيرا فى الأقطار الحيثية رغما من ضعف مملكة الحيثيين وما انتابها من غارة أهالى جزر البحر الأبيض المتوسط عليها ، وتعتبر هذه الغزوة الأخيرة من نوعها بين فرعون مصر والحيثيين ، اذ بعدها انحطت مملكتا مصر والحيثيين بسرعة فلم نسمع بعدئذ فى تاريخ مصر شيئا عن الحيثيين بسوريا •

وقد ورد ضمن جداول البلاد التى غزاها رمسيس الثالث ذكر لعدة مدن فى شمالى سوريـا وعلى نهر الفرات كانت فيما سـبق تحت حكم الامبراطورية المصرية أيام عزها ومجدها ، ولما كانت هذه الجداول منقولة عن جداول أسلافه لم يعلق عليها الأثريون أهمية كبيرة • والمعروف أن رمسيس الثالث أخذ ينظم مستعمراته الآسيوية بعد ذلك ويرجح أنه لم يبعد حدوده عما كانت عليه أيام مرنبتاح ، لذلك كانت مملكة آمور على أعالى العاصى وأقصى مستعمراته الآسيوية • وأراد أن يزيد اطمئنانه من عدم حصول اضطرابات فى المستقبل بسوريا وفلسطين فشيد حصونـا كثيرة بتلك الجهات فى المواقع الهامة • وشيد أيضا معبدا لآمون ببعض جهات سوريا ، نصب فيه تمثالا عظيما لهذا المعبود الحكومى ، وأجبر أمراء آسيا أن يعلنوا ولاءهم لجلالته بأن يقـدموا جزيتهم السنوية أمام ذلك التمثال • ثم مهد وسائل النقل بين مصر وسوريا فحفر بئرا عظيمة فى صحراء أيان (Ayan) شرقى الدلتا ، متمما بذلك موارد المياه التى أسسها سيتى الأول هناك من قبل •

بعد ذلك لم تحدث اضطرابات تذكر الا ثورة صغيرة قام بها بدو صير (Seir) ، وقد أخضعت بسهولة ثم عاد النظام والسلام الى نصابهما حتى توفى رمسيس الثالث •

وأثرت معاملات مصر التجـارية والادارية بآسيا كثيرا فى وسائل التخاطب والمراسلة ، فقبل تلك العصور كانت الخطابات عبارة عن ألواح طينية ينقش عليها مضمون الكلام • أما الآن فقد استبدلت بهذه الألواح الثقيلة أدراج بردية ، وأصبح حكام فينيقيا يقيدون حسـاباتهم فى هذه الادراج ، ولذلك كثرت كمية البردى الذى كان يصدر من مصانع الدلتا بمصر مقابل ومصنوعات فينيقية أخرى • ولما استحال على الفينيقيين كتابة حسابهم على الأدراج البردية بالخط المسمارى ، أخذوا يقيمون الخط المصرى مقامه تدريجا • وفى القرن الحادى عشر قبل الميلاد كانت فينيقيا تستعمل أحرف الهجاء المصريـة فى مخطوطاتها بشـكل أحرف سـاكنة ، ومن ثم انتشرت هذه الأحرف الى اليونان ومنها الى سائر ممالك أوروبا •

ولا يخفى أن أهـم ما يهتم به حكام الشرق هو جمع الجزية فوجـه رمسيس الثـالث لها فى أيامه مزيد اهتمامه ، وقد قال جلالتـه : « لقد فرضـت الخراج على وارداتهم كلها فأصـبحت كل مدينـة تجمع جزيتها وترسلها كتلة واحدة » • وقد حصلت فى عهده اضطرابات بسيطة بالنوبة لكنها لم تعكر صفو السلام فى الامبراطورية ، لأنه قال : « لقد جعلت المرأة المصرية تذهب كما تشاء مكشوفة الأذنين فلا يتعرض لها أجنبى أو غيره • لقد جعلت مشاتى ورجال عجلاتى الحربية يعيشون بمنازلهم مدة حكمى ، وصار جنودى الشردينيون والكهكيون يسكنون مدنهم نائمين على ظهورهم بلا وجل،ولم يعد يبدو عدو من بلاد كوش ومن سوريا،ولذلك كانت أقواس وأسلحة هذه القوات مكدسة فى مخازنهم، أما هم فكانوا مزودين بالمأكولات والمشروبات وقلوبهم عامرة بالسرور ، وكانت زوجاتهم وأولادهم عائشين معهم فلم ينظروا خلفهم لأن قلوبهم كانت مطمئنة ، ولأننى كنت أحميهم وأدافع عن أعضائهم • لقد أحببت سكان الأراضى كلها ، أجانب ووطنيين ، ذكورا واناثا • لقد فرجت هم البائس وأرجعت له الأمل والحياة ونحته من ظالمه القوى • لذلك صار كل انسان آمنا ببلده ، وكل شخص له دعوى فى المحاكم أنلته حقه كاملا • لقد أصلحت الأراضى التالفة وساد الأنس أثناء حكمى » •

وبلغت المعاملات والتجارة بين مصر والبـلاد الأجنبية منتهى كمالها كما كانت فى أزهى أيام الامبراطورية • وكانت لمعابد آمون ورع وبتاح أساطيل تجارية تمخر مياه البحر الأبيض المتوسط أو البحر الأحمر ، حاملة دخل تلك المعابد فى فينيقيا وسوريا والصومال (بونت) • واستخرج رمسيس الثالث النحاس من مناجمه فى شبه جزيرة سيناء ، فأرسل الى تلك الجهة أسطولا كبيرا أقلع من احدى موانىء البحر الأحمر وعاد بكميات عظيمة من النحاس عرضت تحت شرفة قصر رمسيس ليراها جميع رعيته• وأرسل بعثة أخرى لاستخراج معدن الملاخيت شبه الكريم من سيناء فأحضرت كميات عظيمة منه أهدى جزءا كبيرا منها للمعبودات • وأعظم من هذا وذاك الأسطول التجارى الضخم الذى أرسله الى بلاد الصومال • والظاهر أن القناة التجارية التى كانت مخترقة وادى طميلات وواصلة النيل بالبحر الأحمر طرتها وسدتها الرياح بالرمال فانعدمت التجارة ، ولذلك لما رجع الأسـطول المذكور من بونت رسـا بميناء بالبحر الأحمر تجـاه قفـط (Coptos) ، حيث أنزل بضاعته • وقد نقلت هذه البضـاعة على ظهور الحمير برا الى قفط ثم شحنت هنـاك فى سفن نيليـة الى مقر رمسيس الثالث بشرقى الدلتا • وكانت التجارة البحرية فى ذلك العصر أكثر مما كانت فى كل أزمنـة الأسرة الثـامنة عشرة ، خذ مثـلا ما رواه رمسيس

الثالث نفسه من أنه شيد لآمون بطيبة فى مصنعه سفينة مقدسة طولها مائتان وأربع وعشرون قدما من كتلة عظيمة من خشب الأرز الوارد من لبنـان ٠

وبدهى أن هذا الازدهار المالى الكبير أعان فرعون كثيرا على القيام بالأعمال النافعة العمومية ، فأكثر من غرس الأشجار فى أنحاء القطر كله وعلى الأخص بطيبة ومقر جلالته بالدلتا ، فارتاح لذلك الأهالى كثيرا ، لأن القطر المصرى كما لا يخفى عديم الغابات شديد القيظ فى زمن الصيف ٠ وجدد جلالته أيضا عهد العمارات التى كانت عطلت بعد وفاة رمسيس الثانى ، فشيد فى سهل طيبة الغربى معبدا كبيرا بديعا لآمون يعرف الآن بمدينة هابو بدأ بتشييده فى أوائل حكمه (اللوحتان ١٣٥ و ١٣٦) واستمر على توالى السنين يوسعه من الأمام والخلف ويسجل على جدره أعماله الحربية كل سنة حتى أصبحنا الآن نجد أخبار هذا الملك كلها مدونة على هذا المعبد ٠ وتبتدىء هذه النقوش التاريخية من أقدم قاعاته بالخلف وتستمر تدريجا حتى تنتهى بأحدث صرح وساحة من الأمام ٠ وتشاهد على جدر هذا المعبد رسوم أهالى البحر الأبيض المتوسط يحاربون جنود رمسيس الثالث الشردينيين الذين إخترقوا صفوفهم واستولوا على عجلاتهم ذات الثيران كما تقدم القول ٠ وتشاهد أيضا على جدر هذا المعبد رسوم أقدم معركة حربية حصلت فى المياه المالحة معروفة للآن ، ومنها يتضح للباحث كيفية تسليح البحارة الشماليين وقتئذ ، وكذا أنواع ألبستهم وسفنهم الحربية وأمتعتهم مما لا تخفى أهميته على أحد ٠ والمعروف أن هؤلاء القوم أقدم أوربيين اشتركوا هم والعالم القديم فى معترك الحياة ٠

وحفر رمسيس الثالث بحيرة مقدسة كبيرة أمام معبده بمدينة هابو وأنشأ له أيضا حديقة غناء وأكثر من العمارات المجاورة والمخازن ، وشيد لنفسه قصرا عظيما متصلا بالمعبد المذكور له أبراج هائلة مقامة بالأحجار الضخمة ٠ ثم أقام سورا عظيما حول ذلك البناء المركب المشرف على الجزء الجنوبى لسهل طيبة الغربى ، فأصبح الواقف فوق صرح ذلك المعبد يرى جميع المعابد المشيدة بالجهة البحرية بسهل طيبة الغربى التى أقامها فراعنة مصر العظام ٠ ويعتبر معبدا مدينة هابو آخر المبانى الشامخة التى شيدها فراعنة مصر الكبار من حيث الموقع والقيمة التاريخية ٠ والحق يقال ان رمسيس الثالث هو آخر امبراطور مصرى عظيم فى تاريخ مصر القديم ٠ وقد شيد عمارات أخرى غير هذا المعبد بليت كلها تقريبا ، منها المعبد الصغير الذى أقامه لآمون بالكرنك ، ومنه استدل أن رمسيس كان متيقنا بأنه لا يمكنه أن يشيد من المبانى ما يناظر ساحات الكرنك العظمى لضخامة الأخير وما تتطلبه من تعب وعناء ، ودليلنا على ذلك أنه جعل

معبده الصغير المذكور مستعرضا لمحور الكرنك الأصلى ، لكنه فى الوقت نفســـه جاء مثالا لحسن ذوق رمسيس الثـالث فى هـذا الموضـــوع وغير ذلك شيد هذا الفرعون أبنية صغيرة أخرى بالكرنك ، عدا ما أقامه بمعبد موت (Mut) جنوبى الكرنك · وبدأ جلالته أيضا ببناء معبد صغير لخونســو وكذا بعض هيـاكل صغيرة بمنف وعـين شمس لم يبق منها الا النزر اليسير · وهناك هيـاكل عديدة أخرى أقامها رمسيس الثـالث لمعبودات مصر فى جهات القطر كلها لم يبق منها الا القليل · ومن مآثره أيضا الحى الجميل الذى شيده لآمون بمقر اقامته بالدلتا ، وقد وصفه جلالته بأنه كان محلى بالحدائق العظيمة والمماشى الكثيرة وأنواع النخيل كافة ، غير الطريق المقدس الذى أنشـأه وحلاه بالأزهار من جهات القطر كلهـا · وقد خصص لخدمة هذا الحى ثمانية آلاف عبد وشيد فى المدينة نفسها معبدا لسوتخ فى الأراضى الموقوفة لمعبد رمسيس الثانى ·

ودلتنـا أبنيـة تلك العصور أن فن العمارة أخـذ فى الانحطـاط ، فالخطوط والساحات ذات العمد فقدت عظمتها وأبهتها اللتين امتازت بهما ساحات العهد القديم واللتين كانتا تسترعيان نظر كل متطلع · فالناظر مثلا الى الآثار القديمة يتجه نظره من دون شعور الى قممها ليرى الام ينتهى هذا البناء المدهش الآخذ بالألباب · أما بناء رمسيس الثالث فقليل الزهو والاتقان · وبمقارنة نقوش معبد مدينة هابو البارزة بنقوش معبد سيتى الأول بالكرنك يشاهد أن الأولى أقل اتقانا واعتناء من الثانية ، لكن هذا لا يمنعنا أن نعترف بوجود بعض نقوش بمعبد مدينة هابو لا تقل من حيث الاتقان والجمال عن رسوم معبد سيتى المذكور التى تمثل منتهى التقدم فى فن الحفر القديم · خذ مثلا ما جاء من رسم رمسيس الثالث وهو يصطاد ثورا وحشيا ، فمع تصور عدة غلطات فيه من حيث الدقة والاتقـان فانه يستحق المديح والاعجاب من حيث الجمع بين الشعور والمنـاظر المتعددة مما يسترعى النظر (لوحة ١٣٧) · وليلاحظ أن رسم المعركة الحربية التى حصلت بالقرب من شـاطىء سوريا فى عهد رمسيس الثالث والتى تقدم الكلام عليها جاء مثلا واضحا على الذكاء الفطرى والتصور القوى عند راسمها وبرهانا آخر على البراعة وتأثير الرسم فى النفوس ، ولذلك اعتبر هـذا الرسم أول خطوة جديدة فى الحفر أظهرت ابتكارا وشـــجاعة (لوحة ١٣٤) ·

وقد راعى رمسيس الثالث فى فنونه الجميلة قواعد العصور السالفة فسجل أخباره بما يشبه تسجيل أخبار العصور القديمة رسما وشكلا · ولمـا أراد كاتب نقوش جـدر معبـد مدينة هابو أن يسرد أعمال رمسيس الثـالث اتبـع الطريقـة والأسلوب القـديمين ، فأكثر من تكرار الجمل

والعبارات الدالة على الشجاعة والاقدام والمهارة الحربية والحنكة السياسية كما فعل كتاب الملوك الأقدمين • فاذا طالع الباحث مثلا نصوص بعض حروب هذا الملك على جدر مدينة هابو يجد كثيرا من الجمل والعبارات القديمة مكررة بدون مناسبة لمسافة بضعة آلاف من الأقدام المربعة ، بينها القليل من الأخبار التى هى للباحث لب الموضوع ، ولذا كانت نصوص هذا المعبد صعبة الوضوح عسرة الفهم معتلة التراكيب •

والظاهر أن رسوم رمسيس الثالث التىتمثله وهو يقود جيوشه بجرأة فى ساحة قتال ، أو هازما أعداءه باستمرار هجومهم الشديد على مصر ، لم تثر فى نفس الكاهن الذى نقش تلك الرسوم حماسة لأنه استرسل فى ذكر الأساليب القديمة بقصد نقشها فقط • والظاهر أن الكتاب كان متبحرا فى الدعوات والأغانى وأساليب الكلام القديمة فاستعملها هنا ليظهر مقدرة وشجاعة مليكه الحقيقتين • ولعل اللوم فى ذلك لا يقع على الكاتب لأن المعروف عن رمسيس الثالث أنه كان ميالا بطبعه الى عوائد وأعمال وأساليب رمسيس الثانى ، ودليلنا على ذلك أنه اختار لنفسه اسما مكونا من جزءين : الجزء الأول اسم رمسيس الثانى الملكى والجزء الثانى اسم رمسيس الثانى الشخصى ، ثم انه سمى أولاده وخيله بأسماء أولاد وخيل رمسيس الثانى ، واسترسل فى تقليده فاستصحب معهُ أسدا مستأنسا فى حروبه بجوار عجلته • والمعروف أن أعمال رمسيس الثالث كانت نتيجة اجبارية لظروف حكمه ، لأنه لما تولى الحكم وجد نفسه أمام عدة صعوبات ليس من الهين تذليلها ، وأهمها الخطر الأجنبى الذى هدد كيان المملكة من الخارج ، وأنه وان درأ هذا الخطر لم يستطع حماية الأمة من الهاوية التى أشرفت عليها • وقد كان رمسيس الثالث رجلا قويا وكفئا لمكافحة الخطر الخارجى ، لكنه كان ضعيفا فى معالجة مشاكله الداخلية التى امتاز بها بعض الحكام وأظهروا فيها كفاية عظيمة أحيانا • ودليلنا على ذلك موقفه تجاه المسائل الدينية الموروثة عن الأسرة التاسعة عشرة ، فقد ذكرنا سابقا أن ستنخت والده تولى الملك بمساعدة الكهنة كما فعل الفراعنة قبله ، ولما تولى رمسيس الثالث الملك لم يتخلص من نفوذ الكهنة على العرش المصرى بل ترك المعابد والكهنة تهدد كيان الحكومة سياسيا وماليا ، واتبع سياسة سلفه أيضا فأغدق على الكهنة الأموال الطائلة والخيرات الجزيلة ، واليك ترجمة ما قاله جلالته فى ذلك :

« لقد فعلت أفعالا كبيرة وقدمت من الاحسان كثيرا لآلهة والاهات الجنوب والشمال • لقد موهت تماثيلهم بالذهب فى المصانع ورممت معابدهم المهدمة وأقمت المنازل والمعابد فى أفنيتهم وغرست لهم حدائق

غنـاء وحفرت لهم البحيرات ورتبت لهم الخيرات المقدســة من شعير وقمح ونبيذ وبخور وفاكهة وغنم وطيور ٠ لقد شيدت الهياكل المعروفة باسم « ظلال رع » فى أقسامهم وملأتها بالقرابين المقدسة كل يوم » ٠

هذا وصف لما فعله جلالته للمعابد الصغيرة بالأرياف ٠ أما معابـد المعبودات العظيمة كآمون ورع وبتاح فقد عمل لها أكثر من هذا بمراحل ، واليك ترجمة ما قاله جلالته فى هذا الموضوع مخاطبا المعبود آمون :

« لقد صنعت لك مائدة للقرابين من الفضــة المطرقة المموهة بالذهب الجميل والمرسوم عليها مناظر ملبسة بذهب كيتم (Ketem) حاملة تماثيل الملك المصنوعة من الذهب المطرق٠كيف لا يكون ذلك وهى مائدة قرابينك المقدسة التى تقدم أمامك ! لقد عملت لك حمالة كبيرة لأوانى فناء معبدك مموهة بالذهب الجميل ومرصــعة بالأحجـار الكريمة ٠ أما أوعيتها فمن الذهب وهى تحوى النبيذ والجعة اللذين يقدمان لك كل صباح ٠٠٠٠٠ لقد صنعت لك موائـد كبيرة من الذهب المطرق منقوشة باسم جـلالتك الأعظم مع دعائى لك ٠ لقد صنعت لك موائد أخرى من الفضــة المطرقة محفور عليها اسم جلالتك الأعظم وكل أوقاف معبدك » ٠

بهــذا الاسراف العظيم كان رمسيس الثالث يقـدم لمعبوده الهدايا الثمينــة ٠ أما فيما يختص بالسفينة المقدسة التى بناها جلالته لمعبوده فقد وصفها قائلا :

« لقد شيدت لك سفينتك المسماة أسرحت (Userhet) طولها مائة وثلاثون ذراعـا مصريـا (حوالى ٢٢٤ قدما) على النهر ، من خشب الأرز المستحضر من الأملاك الملكيــة ، فكان حجمها (أى حجم السفينة) عظيما جدا ٠ وكانت مموهة بالذهب الى سطح الماء كسفينة الشمس وقت ظهورها من المشرق وقتما يحيى كل انسان برؤيتها ٠ وقد صنعت لك فى وسطها ناووسا عظيما من الذهب الجيد مرصعا بالأحجار النفيسة كالقصر الملكى، ونصبت على السفينة رءوس خرفان ذهبية من المقدمة الى المؤخرة تعلوها التيجان والأصلال » ٠

ولما أراد رمسيس الثالث أن يصنع ميزانا عظيما يزن به الهدايـا المقدمة للمعبود رع بعين شمس استعمل لذلك حوالى مائتين واثنى عشر رطلا ذهبا وحوالى أربعمائة وواحد وستين رطلا من الفضة ٠

ويجد القــارىء وصفا مسهبا لهذه الأعمال فى بردية هاريس التى ســيأتى الكلام عليها ٠ ولكننــا نســتدل من هذه الهدايــا والثروة أن الامبراطورية المصرية كانت وقتئذ غنية جدا ومواردها كثيرة من الأراضى

والعبيد والدخل ، ونستنتج منها أيضـا أن أوقاف المعابد الأخرى كانت جسيمة أيضـا مثال ذلك ما ورد عن المعبـود خنوم بجهة جزيرة فيلة بأسوان ، فان رمسيس الثـالث حبس لأجله أوقافا أرضية على شـاطىء النيل تبتدىء مساحتها من تلك الجزيرة الى مدينة تاكومبسو (Takompso) وهى مسافة يقرب طولها من سبعين ميلا وتعادل بالمقاسات اليونانية اثنى عشر شونيا لذلك سماها اليونان دوديكاشينوس (Dodekaschoinos)

وتمكنا بهذه الطريقة لأول مرة فى تاريخ مصر القديمة أن نقدر دخل المعابد بالضبط ، والفضل فى ذلك يرجع الى ما ورد ببردية هاريس ، فانها تحوى قائمة يستدل منها أن معابد الامبراطورية كانت تمتلك وقتئذ حوالى مائة ألف وسبعة آلاف عبد وهذا يعنى أن خدمة المعابد كانت تتطلب ما يتراوح بين $\frac{١}{٥٠}$ و $\frac{١}{٨٠}$ من أهالى القطر ، أو بعبارة أخرى أن نسبة العبيد المسخرين لخدمة المعابد وقتئذ كانت حوالى ٢٪ من سكان القطر . أما الأراضى الموقوفة على المعابد فكانت حوالى ثلاثة أرباع مليون من الأفدنة أو سبع أراضى القطر المزروعة وهى نسـبة تعـادل ١٤٫٥٪ من الأراضى المزروعة . ولما كانت أوقاف المعابد الصغيرة كمعبد خنوم مثـلا لم تدرج ضمن قائمة بردية هاريس ، فلا يبعد أن تكون نسبة الأراضى المحبوسة على جميع معابد القطر حوالى ١٥٪ . ولا يخفى أن هذه المعلومات تمكننا على صغرها من تقدير مالية الامبراطورية المصرية ودخلها وقتئذ ، ولا ريب أن هذا التقدير غير تام . والمعروف أن تعداد الأغنام والبهائم التى حبست على المعابد كان قريبا من نصف مليون ، وأن عدد السفن كان ثمانى وثمانين سفينة ما بين كبيرة وصغيرة ، وأن عدد المصانع كان حوالى ثلاثة وخمسين مصنعا تستهلك فيها المواد الخام الواردة الى المعابد لتعمل منها المصنوعات. أما المدن المحبوسة على معابد مصر فكانت تبلغ مائة وتسع وستين مدينة فى سوريا وكوش ومصر . واذا لاحظنا أن مساحة الأرض المزروعة بمصر وقتئذ كانت حوالى عشرة آلاف ميل مربع ، وأن تعداد سكان القطر كان حـوالى خمسة ملايين أو سـتة ملايين نسمة ، لا يسعنا الا أن نجزم بأن الأوقـاف المذكورة أثرت كثيرا فى ميزانية البـلاد لأنها كانت معفاة من الضرائب للخزانة المصرية .

ومما زاد الطين بلة أن الهبات والأوقاف لم توزع على معبودات مصر بنظام واحد أو نسبة مخصوصة . والمعروف أن معظم هذه الهبات كانت تعطى لآمون ، ولذلك أصبح لكهنـة هـذا المعبـود تأثير عظيم وكلمة كبيرة مسموعة وسلطة واسعة على الخزانة المصرية . وليلاحظ أن نفقات كهنة آمون لم تكن قاصرة على معابد هذا المعبود بطيبة بل شملت أيضا محاريبه وتماثيله بكل أنحـاء القطر ، مثال ذلك معبد آمون بسوريـا الذى تقدم

الكلام عليه ومعبــده بالنوبة الحديث ، وذلك غير المعـابد التى شـيدها رمسيس الثانى هناك ٠

ولما انتهى رمسيس الثالث من حروبه فى السنة الثانية عشرة من حكمه أتم بناء معبد آمون بمدينة هابو ونقش على أحد جدره أخبار الأعياد التى أقامها جلالته واحتفل بها ، ومما ورد فيها أن عيد آمون الكبير المدعو أوبت الذى احتفل به تحوتمس الثالث أحد عشر يوما بلغ فى عهد رمسيس الثالث أربعة وعشرين يوما ٠ ودلتنا هذه النقوش أيضا أن آمون كان يقام له كل ثلاثة أيام عيد غير الأعياد الشهرية ٠ وبالرغم من هذا كله فقد أطال رمسيس الثالث مدة عيد أوبت فجعلها سبعة وعشرين يوما ، كما جعل عيد تتويجه السنوى عشرين يوما بعد ما كان يوما واحدا ٠ واذا كان الأمر كذلك فلا غرابة اذا سمعنا أن احدى طوائف عمال طيبة أيام أحد خلفاء رمسيس الثالث تعطلت عن الشغل أياما بقدر أيام العمل لأجل الأعياد الطويلة (٢) ، وبديهى أنه كلما كثر عدد الأعياد وطالت مدتها ناءت الخزانة المصرية بالنفقات الباهظة ، ودليلنا على ذلك ضخامة خزائن معبد مدينة هابو وسمك جدرها وارتفاع سقفها مما تطلب ملؤها أموالا طائلة ٠ واليك ترجمة ما قاله رمسيس الثالث عن هذا المعبد :

« لقد ملأت خزائنه بخيرات مصر من ذهب وفضة وأحجار كريمـة بما يعــد بمئات الألوف ، أما الشون فكانت مكدســة بالشعير والقمح ، وأما أراضيه وأغنامه فكانت عديدة كرمال الشاطىء ٠ لقد فرضت الجزية لهذا المعبد على أراضى الجنوب والشمال وسوريا والنوبة بما يقدر بعشرات الألوف ٠٠٠٠ لقد ضاعفت القرابين أمامك يا آمون من خبز ونبيذ وجعة وشحم أوز وثيران كثيرة وعجول وأبقار ووعول بيض وغزلان ، مما يقدم لك منه ذبائح على مذبحك » ٠

وجريا على عادة ملوك الأسرة الثامنة عشرة وهب رمسيس الثالث غنائمه الحربية الى خزانة آمون ، فنجم عن ذلك أن آمون ملك ما ينيف على ٥٨٣ ألف فدان من بين ثلاثة أرباع المليون من الأفدنة الموقوفة على سائر معبودات مصر ، ولذلك أصبح آمون أغنى من رع معبود عين شمس بما يقرب من خمسة أضعاف ، لأن الأخير كان يتملك حوالى ١٠٨ آلاف فدان ٠ أما أملاك بتاح معبود منف فكانت تقرب من تسع أملاك آمون ٠ وهكذا كانت حصة آمون تنيف على الثلثين من حصص جميع المعبودات التى تقدر بحوالى ١٥٪ من أراضى مصر المزروعة ٠ وقد قلنا فيما سبق ان عدد معبودات مصر كان يقرب من ٢٪ من سكان القطر ، والآن نخبر

---

(٢) Erman, Life in Ancient Egypt.

القارىء أن ٥ر١ من هذه النسبة كان خاصا بآمون ، وعليه فكان عدد عبيد آمون ينيف على ستة وثمانين ألف وخمسمائة نسمة ، أى سبعة أضعاف عبيد رع . وليلاحظ أن هذه النسبة العظيمة وهذا الفرق الشاسع كانا مرعيين أيضا فيما يتعلق بالخيرات الأخرى مع سائر المعبودات ، خذ مثلا الماشية الصغيرة والكبيرة التى كانت مقسمة خمسة قطعان فقد كان نصيب آمون منها ينيف على أربعمائة وواحد وعشرين ألفا ، فى حين أن نصيب المعبودات الأخرى من هذه البهائم كان أقل من نصف مليون . وتملك آمون أربعمائة وثلاثين حديقة وغابة من بين حدائق وغابات جميع المعبودات البالغ مجموعها خمسمائة وثلاث عشرة حديقة وغابة . أما عدد السفن الخاصـــة بمعبودات مصر كلها فكان ثمانى وثمانين سفينة كانت كلهـــا موقوفة لآمون ما عدا خمس سفن كانت وقفا للمعابد الأخرى . أما المصانع التابعة لآمون فكانت ستة وأربعين مصنعا وذلك من ضمن ثلاثة وخمسين مصنعا خاصا بمعبودات القطر كلها . وكان آمون المعبود الوحيد المالك لمدن سوريا وقادش وعددها تسع . أما فى مصر فكان رع يملك مائة مدينة وثلاث مدن مقابل ست وخمسين مدينة لآمون فقط . ولجهلنا حجم وأهمية تلك المدن لا يبعد أن تكون مدن آمون الصفوة المختارة من ذلك المجموع ، أو على الأقل أحسنه وأكبره زماما ، اذا راعينا الأفضـــلية الظاهرة فى الاملاك السابقة . أما دخل آمون السنوى من الذهب الخالص فكان ستة وعشرين ألف قمحة وهو مقدار لم تستول عليه سائر معبودات القطر ، وبدهى أن هذا الذهب كان يستخرج من مناجم الذهب بالنوبة التابعة لآمون منذ أواخر الأسرة التاسعة عشرة والمعروفة وقتئذ « بأرض آمون الذهبية » كما سبق القول . واليك بيان ما خص هذا المعبود بالنسبة للمعبودات الأخرى فى مواد غير المذكورة هنا :

كان ايراد آمون من الفضة سبعة عشر ضعفا ومن النحاس واحدا وعشرين ضعفا ومن الغنم سبعة أضعاف ومن النبيذ تسعة أضعاف ومن السفن عشرة أضعاف ، ومن ذلك يتضح لك أيها القارىء أن أملاك آمون أصبحت تلى أملاك الملوك من حيث العظم ، وأن نفوذ كهنة آمون وسلطتهم أصبحا لا يستهان بهما حتى عند فرعون . لذلك كان كل ملك لا تتفق آراؤه وآراء كهنة آمون لا يستمر فى الحكم طويلا ، ولهذا السبب أيضا ظن بعض الأثريين أن كهنة آمون اغتصبوا العرش الفرعونى فيما بعد بثروتهم الطائلة لكن يلاحظ أن هذا الرأى الأخير لا يتفق تمـــاما هو وما استنتجناه سابقا ، لأن هذه النتيجة أتت من عدة أسباب فيها بسط نفوذ آمون على المعابد الأخرى وعلى دخلها ، وترأس كبير كهنة هذا المعبود على كهنة القطر منذ الأسرة الثامنة عشرة ، وجعل هذا المركز وراثيا تتوارثه الأبناء من الآباء منذ أيام الأسرة التاسعة عشرة ، وصيرورة معبد آمون

بطيبة مركزا عاما لحفظ سجلات المعابد الأخرى ، أو بعبارة أخرى جعله عاصمة الامبراطورية الدينية ، ثم اعطاء كهنته بعض الحق فى الاشراف على ادارة الأوقاف الدينية ، مما سبب امتداد سلطة آمون على جميع أوقاف المعابد بالقطر ٠

ومن الخطأ القول بأن رمسيس الثالث كان المبدع لهذه الأمور بالقطر كما يدعيه كثير من الأثريين ، اذ من المحال على جلالته أن يبدأ هباته للمعبودات بهذا المنوال بالتبذير العظيم ، سواء أكان ذلك خاصا بمعبد آمون أم بسواه من المعابد ، لأن الغالب أن مجرد ذكر هبة السبعين ميلا من شاطىء النيل النوبى المعروفة عن اليونان باسم دويكاشينوس (Dodekaschoinos) الى المعبود خنوم لم يقصد به الا تسجيل وتأكيد من ناحية رمسيس الثالث لحق كهنة خنوم فى تلك الأرض ، كما أن الهبات الجزيلة الواردة فى بردية هاريس بأنها من أعمال رمسيس الثالث لا يمكن اعتبارها الا مجرد سرد لما قدم الى تلك المعاهد الدينية قبل عهده وأن الغرض من ذلك اعتراف جلالته بمشروعية ما تم ٠ وقد استنتجنا من قائمة بردية هاريس أن الاحصائيات السالفة للهبات الدينية المذكورة كانت أمرا واقعيا ووراثيا منذ حكم الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ٠ وقد وهب تحوتمس الثالث الى آمون ثلاث مدن بسوريا ، ولما أتت الملوك بعد تحوتمس الثالث سارت على منواله فى ذلك كما أن الطمع الكهنوتى استمر يزداد بلا زاجر ولا رادع حتى أتى عهد رمسيس الثالث فوجد نفسه أمام أمر واقع لم يستطع التخلص منه ٠ ومما زاد الطين بلة أن جلالته كان مضطرا بحكم الظروف أن يستميل اليه الكهنة ليكتسب معاضدتهم ، فلم يجد بدا من اجزال العطاء اليهم جريا على عادة أسلافه ٠ وهكذا عظم عبء الخزانة المصرية فأخذت تضعف تدريجا نتيجة هذا التبذير وعدم الاقتصاد ، ولذلك أصبحنا نرى أن العمال الذين اشتغلوا بجبانة طيبه تحت حكم رمسيس الثالث استمروا مدة محرومين فى آخر كل شهر من أن يتناولوا رواتبهم الشهرية وهى خمسون كيسا قمحا ، وقد عزا بعضهم ذلك الى البطء فى دفع مرتبات الموظفين ، الأمر الذى كان حاصلا الى زمن قريب بالقطر ، الا أن هذا لا يمنعنا أن ننظر الى المسألة أيضا من وجهة الافلاس المالى الذى أصاب الخزانة المصرية ٠ وكيف يمكننا أن نغض النظر عن هذا الأمر وقد ورد عن هؤلاء العمال أنهم استمروا بهذه الحالة عدة أشهر اضطروا بعدها الى اتخاذ أقصى الوسائل فتسلقوا جدر الجبانة مدفوعين بعامل الجوع ومهددين فى الوقت نفسه سكان المعابد بنهب شونهم ان لم تصرف لهم استحقاقاتهم ٠ وقد أخبرهم الوزير أحيانا أن سبب تأخير دفع أجرهم هو افلاس الخزانة ، وأخبرهم أحد الكتبة مرة أخرى أن أجورهم

سيعطونها بعد مدة قصيرة وبذلك رجعوا في اليوم التالي الى اشغالهم ، لكنهم لم يلبثوا أن تيقنوا عدم صرف أجورهم فعمدوا الى مكتب رئيسهم صارخين طالبين أجورهم الشهرية (٣) وهكذا بينما كان الفقراء يموتون جوعا من افلاس الخزانة كانت شون ومخازن المعابد تملأ لآخرها بالخيرات ، لأن دخل آمون وحده وقتئذ كان لا يقل عن مائتين وخمسة آلاف مكيال قمحا في أعياده السنوية فقط .

لم تكن لدى رمسيس الثالث ومعاصريه حيلة يقاومون بها نفوذ الكهنة الا الأسرى الأجانب التابعين للملك رأسا والموسومين باسمه ، وقد ضم جلالته هؤلاء الى جنوده المأجورين فزادت بذلك قوته وعظم نفوذه . وقد ألمعنا سابقا الى أن معظم قوات رمسيس الثالث التي صد بها أعداءه كانت أجنبية ، والآن نذكر القارىء أن نسبة هؤلاء الأجانب بالجيش أخذت تكبر بمرور الزمن وبزيادة المصاعب والمشاكل الكهنوتية الداخلية ، وقد تحرج مركز جلالته لدرجة اضطر فيها الى أن يكون حرسه الخاص من الأجـــانب .

وجرت العادة منذ عهد المملكة الوسطى أن يكون لدى الملوك والأمراء طائفة « حجاب » يخدمون سادتهم وقت تناول الطعام ويحافظون على مخازن أغذيتهم ، فلما جاء عهد رمسيس الثالث كانت طائفته الملكية مكونة من سوريين وأناضوليين وليبيين ، وكان الأولون أكثر عددا من الآخرين . واتضح لجلالته وقتئذ فائدة هؤلاء الأقوام ونشاطهم في أداء أشغالهم فعينهم في الوظائف العـــالية بالحكومة والقصر الملكي على الرغم من أنهم عبيد وأسرى حروب ، وبهذه الكيفية أصبحت حاشية فرعون مماثلة تماما لحاشية سلاطين مصر في القرون الوسطى كما أشار اليه الأستاذ ارمن (Erman) . ودلتنا الآثار على وجود أحد عشر « حاجبا » في خدمة رمسيس الثالث منهم خمسة أجانب ارتقوا في الوظائف والرتب الحكومية حتى صار لهم شأن كبير ونفوذ قوي كما سيتضح ذلك في أخبار المؤامرة التي دبرت لاغتيال رمسيس الثالث . وهكذا ، بينما كانت البلاد مكسوة بحلة الفخار والسكون محتفلة بمليكها الذي أنقذها من مصائبها ، اذا عوامل الضعف والانحلال تنخر عظام الامبراطورية المصرية وتزج بها تدريجا الى مواطن الدمار ، وكيف لا يكون ذلك وشره الكهنة لا حد له ولا يعرف للقناعة معنى كما أن معظم ثروة البلاد أصبحت في أيدي رجال تلك الطائفة . زد على ذلك أن معظم وحدات الجيش المصري كانت أجنبية مستعدة لخدمة كل من يجزل لها العطاء ، وهذا علاوة على صيرورة حاشية الملك من العبيد الأجانب التي تترتب قيمة أماناتهم وصداقتهم على ما يتناولونه من أجر .

---

(٣) Erman, Life in Ancient Egypt, 124-126.

هذه هي عوامل السوء الخطيرة التي كان يكافحها رمسيس الثالث مستعملا بعضها ضد بعض كي يتمكن من بلوغ مآربه وتنفيذ أوامره . ومما زاد الحالة تعقدا واضـطرابا كثرة أفراد الأسرة المالكة كما سيتضـح لنا فيما بعد .

ولا شك في أن هذه العوامل السيئة كانت تحز في جسم الامبراطورية المصرية وقد أخذت نتائجها تظهر تدريجا فكانت أولى هذه النتائج عصيان وزير رمسيس الثالث وجمعه لقوة كبيرة وتحصنه ببنهـا (Athribis) لكن هذه القوة لم تكن كافية فسلمت بسرعة لقوات رمسيس الثالث الذى استولى على أتريب (بنها) وأرجع النظام الى أصله .

ولما قرب حلول السنة الثلاثين من حكم جلالته أخذت الامبراطورية تستعد لاقامة الاحتفالات ، فأرسل جلالته وزيره الجديد المدعو تـا (Ta) الى الجنوب في السنة التاسعة والعشرين من حكمه لجمع تماثيل المعبودات كي تشترك في الاحتفال العظيم المزمع اقامته بمنف . لكن بعد ما مر ماينيف على السنة حدثت في القطر فاجعة مؤلمة أشد خطرا من السابقة كان جـلالته وقتها شيخا هرما ، أما أصل هذه الحادثة فيرجع الى تدبير نسوى في القصر الملكى وهي عادة نثيرة الحصول في بلاد الشرق . وخلاصة ذلك أن احدى نساء الحريم الفرعونى المدعوة تى (Tiy) اعتقدت أن ابنها المدعو بنتاورع (Pentewere) أحق بالملك من ولى العهد الرسمى . فدبرت هذه السيدة مؤامرة لاغتيال رمسيس الثالث تحت رياستها أشركت فيها « الباش أغا » المدعو ببك كامن (Pebkkamen) و « حاجبا ملكيا » يدعى مسدسورع (Mesedsure) . وأخذ ببك كامن يستعمل السحر ليمنع حرس القصر من العلم بهذه المؤامرة ويسهل المخابرات بين أعضاء المؤامرة الثلاثة داخل القصر وزملائهم خارجه . وأحضر ببك كامن لذلك تماثيـل صـغيرة من الشمع تمثل معبودات وآدميين واجتهد الباش أغا والحاجب الملكى في حض غيرهم على الاشتراك فضموا اليهم عشرة موظفين من مختلف المراتب من الحرم الفرعونى وأربعـة حجاب ورئيس خزانة وقائدا يدعى بيس (Peyes) وثلاثة كتاب مختلفى الدرجات ومساعد ببك كامن وغيرهم من المرءوسين ، ولا يخفى على القارىء خطورة مثل هذه المؤامرة ولا سيما أن معظم أعضائها من رجال البلاط الملكى . ثم انضـم الى هذه المؤامرة ست زوجات لضباط حرس باب الحرم في القصر وهذا سهل كثيرا مبادلة المراسلات والمخاطبات بين الحرم وأصدقائه داخل القصر وأقاربهم ومعارفهم خارجه . كانت من ضمن أصدقاء الحرم الفرعونى أخت قائد فرقة الرماة بالنوبة فأرسلت هذه خطابا الى أخيها دعته فيه الى الى الانضمام الى مؤامرتهم ففعل ذلك .

ولما تم الاستعداد للقضاء على حياة رمسيس الثالث داخل القصر واحداث ثورة وضجة خارجه فى الوقت نفسه ليتمكن المتآمرون فى تلك الأثناء من تمليك الأمير بنتاورع على العرش وتنفيذ مشروعهم ، بلغت أخبار تلك المؤامرة حزب الملك ففشلت حركة الاغتيال ووقفت رسائل الثورة وقبض على أفراد المؤامرة وأرسلوا الى القضاء . وبالرغم مما اعترى هذا الملك المسن من الصدمة العصبية ، ولا يبعد أن يكون قد أصابه من الاعتداء الجسمانى من جراء ذلك ما أصابه ، فان جلالته أصدر أمرا بتشكيل لجنة خاصة لمحاكمة المتهمين . ويستدل من الأمر الملكى القاضى بذلك أن جلالته لم يكن آملا فى المعيشة طويلا بعد تلك الصدمة وان كان فى الوقت نفسه شدد على المحققين ليتبعوا العدل فلا يظلموا شخصا بل يوقعون العقاب على مستحقيه . ويعتبر هذا مثالا ساطعا لعدالة ذلك الملك الذى كانت بيده مقاليد الأمور يفعل بها كيف يشاء ، مع العلم أيضا ان شخص جلالته كان المقصود بالقتل . واليك ترجمة بعض ما جاء فى هذا الأمر الملكى :

« أنا آمر القضاة (وهنا ترد أسماء حضراتهم ووظائفهم) قائلا أما من خصـوص الكلام الذى يدور على ألسـنة النـاس فلا علم لى به ، فاذهبوا وافحصوا الأمر ، فاذا حققتم وتبينتم المتهمين فأمروهم أن ينتحروا بأيديهم بدون اخطارى . ووقعوا العقاب على كل من يستحقه بدون استشارتى أيضا ...... احترسوا من عقاب البرىء . هأنذا أكرر لكم أن كل شخص ارتكب أو اشترك فى هذه الجناية يجب أن ينال نصيبه من العقاب . أنا أمين ومحروس الى الأبد ، لأننى ضمن الملوك العادلين أمام آمون رع ملك المعبودات وأمام أزوريس حاكم الأزلية » . ولما كان أزوريس اله الأموات لا يبعد أن رمسيس الثالث اعتقد بجواز وفاته قبل انتهاء التحقيق فى هذه الجناية .

وكانت المحكمة مكونة من سبعة عشر عضوا بينهم سبعة « حجاب » . ومن هؤلاء السبعة كان أحدهم ليبيا وآخر ليديا وثالث سوريا يقال له مهر بعل (Maherbaal) — أى بعل السريع — ورابع أجنبيا يغلب أنه آسيوى . ويعتبر هذا الخلط فى الجنسية برهانا على شدة اعتماد فرعون على أمانة الأجانب حتى فى أحرج الظروف . وحصلت فى أثناء التحقيق حادثة شنيعة أظهرت اهمالا شديدا من القضاة وقت تأدية أعمالهم من شدة عناد المتهمين ، وخلاصة ذلك أن القائد المدعو بيس (Peves) اتحد هو وبعض النسوة المتهمات وأرضوا رجال الشرط المحافظين عليهن فتوجهن الى منزلى قاضيين من المحققين حيث قضيا فيهن المنكر رغبة فى اكتساب رأفة القضـــاء بهن ، ووجد مع هذين القاضيين قاض ثالث لا علاقة له بالفسق . فلما اتضح هذا الخبر أجرى تحقيق فى ذلك حـكم بمقتضاه

على القاضيين المجرمين وعلى شرطيين بجدع أنوفهم وآذانهم وببراءة القاضى الثالث ، وقد انتحر أحد هذين القاضيين بعد ذلك بقليل لما اعتراه من الخزى وضياع الشرف ٠ واستمر التحقيق فى المؤامرة الأصلية يسير بنظام ويستدل من سجلات ثلاثة تحقيقات أن اثنين وثلاثين موظفا مختلفى المراتب وجدوا مذنبين ومن ضمنهم الأمير بنتاورع الذى لم يكن فى الحقيقة سوى آلة فى أيدى المجرمين وكذلك القائد الجرىء بيس (Peyes) الذى أغرى القاضيين السابقين ٠ ولم نعثر للآن على أوراق قضية الملكة تى ولذلك لا نعلم ماذا تم فى أمرها ، لكن المعروف أنها لم تعامل بأقل مما عومل به سواها الذين أجبروا على الانتحار طوعا لأمر رمسيس الثالث ٠

فى ذلك الوقت حل ميعاد الاحتفال بعيد مرور اثنين وثلاثين عاما على جلوس رمسيس الثالث ، فأقيمت لذلك الزينات والأفراح عشرين يوما جريا على عادة جلالته الذى اتبعها منذ السنة الثانية والعشرين من حكمه ٠ بعد ذلك بعشرين يوما توفى رمسيس الثالث (حوالى عام ١١٦٧ قبل الميلاد) قبل أن يعدم المتهمون فى مؤامرة اغتياله ، وعليه فيكون جلالته حكم مدة احدى وثلاثين سنة وأربعين يوما ٠

الكتاب السابع

دَور الإضمحلال

الفصل الرابع والعشرون

سقوط الامبراطورية

تبع رمسيس الثالث فى الحكم تسعة ملوك ضعاف سموا كلهم باسم رمسيس الكبير لكنهم لم يستحقوا ذلك الاسم العظيم ، وقد أخذت سلطة هؤلاء الملوك تقل بسرعة فبلغت الحضيض فى مدة يسيرة . نعم أن نجل رمسيس الثالث وهو رمسيس الرابع اجتهد فى مكافحة الظروف السيئة التى أحاطت به بعد وفاة والده حوالى عام ١١٦٧ قبل الميلاد لكنه لم يفلح فى مسعاه . والمعروف عن هذا الملك أنه بمجرد جلوسه على العرش المصرى دون جميع أعمال والده فى الدنيا فى درج بردى مستعطفا بذلك الآلهة لأجل والده ظنا منه أن هذا العمل ينال رضا والده أيضا عن طريق المعبودات . ويعتبر هذا الدرج البردى الذى دون فيه جلالته أعمال والده من أهم السجلات التاريخية التى عثر عليها للآن وهو يحوى قائمة بالأعمال الخيرية الكبيرة التى فعلهـا رمسيس الثالث للمعبودات العظمى آمون (معبود طيبة) ورع (معبود عين شمس) وبتاح (معبود منف) وكذا المعبودات الأخرى والأعمال الحربية والعطـايا والهبات التى أغدقها على الرعية . ويبلغ طول هذا الدرج مائة وثلاثين قدما وهو يحوى مائة وسبعة عشر نهرا من الكتابة طول كل نهر إثنتا عشرة بوصة تقريبا . ويعرف هذا الدرج الآن ببردية هاريس (Harris) وهى أكبر بردية وصلت الينا من العهد الشرقى القديم . ولما كانت الأملاك والأوقاف المذكورة بهـذه البردية والمحبوسة على معبودات مصر عظيمة جـدا أيام تولى رمسيس الثالث على مصر استنتج أن جلالته لم يجد بدا من الاعتراف وقتئذ بها ، كما استنتج أيضا أن معابد مصر استنزفت جزءا عظيما من ثروة مصر كما ألمعنا الى ذلك سابقا . وقد وضعت هذه البردية العظيمة الحاوية لأعمال رمسيس الثالث الخيرية مع مومياته بمقبرة منفردة بوادى الملوك . ولا مراء فى أن الغـرض الأصلى من كتابة هـذه البردية استجداء الشفقة والرأفة من

المعبودات الى رمسيس الثالث ، فالدعوات الكثيرة الواردة بالدرج البردى المذكور مقولة على لسان رمسيس الرابع لأجل والده تكفى لاستدرار رحمة المعبودات للوالد واطالة مدة حكم الابن كثيرا فى مقابلة هذا العمل الخيرى ٠ ولا يبعد أبدا أن يكون السبب الأخير من أقوى العوامل لكتابة ذلك السجل العظيم ، خصوصا وأن فراعنة مصر وقتئذ كانت تتكل كثيرا على تأثير مثل هذه السجلات أكثر من اتكالهم على أنفسهم ٠ وعليه فالبردية المذكورة كانت هامة جدا وقتئذ ٠ ومما يثبت ما استنتجناه الدعوات التى نقشها رمسيس الرابع لأزوريس بالعرابة فى السنة الرابعة من حكمه واليك ترجمتها :

« اجعلنى (أيها المعبود) طويل الحكم بقدر ضعف حكم رمسيس الثانى المعبود العظيم ٠ كيف لا وقد فقته فى الأعمال والخيرات العظيمة لمعبدك حيث قدمت لك القرابين والهدايا المختلفة كل يوم ، فأصبحت الهدايا التى قدمتها لك فى السنوات الأربع من حكمى أكثر من التى قدمها رمسيس الثانى المعبود العظيم فى مدة حكمه البالغ سبعا وستين سنة » ٠

بهذه الطريقة تمكن الكهنة من ابتزاز ما رغبوه من الفراعنة مؤكدين لهم فى الوقت نفسه أن معبودهم سيهب لهم حكما طويلا وأن المعبودات ستشملهم برعايتها ٠

أما الحمية التى تولدت فى نفوس المصريين اثر غزو الهكسوس ، فقد انعدمت بل صارت فى خبر كان واستعيضت الآن بعقائد فاسدة دينية وسحرية ، وهكذا تغلب الجهل والضعف على الحكمة والروية ٠ ومن ذلك الوقت سارت سفينة السياسة المصرية فى طريق أعوج خطير يفضى الى الدمار ، لأن السلطة التنفيذية أخذت تخضع تدريجا للسلطة الدينية،فلم تعد هناك صعوبة على رئيس كهنة آمون أن يغتصب الملك وينفرد بالحكم اذا ما سنحت الفرص ٠

اذا كان الأمر كذلك فليس بالغريب أن يكون كل ما نعرفه عن أعمال رمسيس الرابع يتعلق بارضاء المعبودات فقط ٠ ففى السنة الثانية من حكمه توجه جلالته شخصيا الى محاجر وادى الحمامات مع بعثة للبحث عن أحجار جيدة لتشييد معبده ٠ وقد استغرقت هذه الرحلة مسير خمسة أيام تقريبا فى الصحراء من وادى النيل ٠ وبعد ذلك بسنين أرسل جلالته الى تلك الجهة أيضا تجريدة عظيمة مؤلفة من تسعة آلاف رجل للغرض نفسه ، ودلتنا الآثار أنه مع الاحتياطات العظيمة التى اتخذت لهذه البعثة من حملة للأمتعة واستعمال عشر عجلات يجر كل منها ستة ثيران فقد توفى منها ما ينيف على تسعمائة نسمة من شدة القيظ والتغيرات الجوية ،

وبذلك تكون الخسارة ١٠٪ تقريبا من عدد الأنفس • ولم نهتد للآن الى المحل الذى استعملت فيه الأحجار المقطوعة من وادى الحمامات والتى سببت هذه الخسارة الآدمية الجسيمة ، وكل ما بقى من آثار رمسيس الرابع هو امتداد الحجر الخلفية لمعبـد خونسو بطيبة ، وكذا القاعات الصغيرة ذات العمد التى بدأ والده ببنائها قبل ذلك بمدة يسيرة • ودام حكم هذا الملك ست سنوات تقريبا لم يقم فيها بأعمال تذكر ثم تولى بعده رمسيس الخامس (وهو ابنه على الأرجح) وذلك عام ١١٦١ قبل الميلاد • وفى عهد هذا الملك وقف العمل فى محاجر ومناجم طور سيناء ، لأن آخر اسم فرعونى وجد هناك هو اسم رمسيس الرابع • وتوفى هذا الملك بعد حكم قصير فتبعه فى الملك رمسيس السادس الذى يغلب أنه حفيد رمسيس الثالث من ابن آخر •

ويظن أن رمسيس السادس اغتصب الملك من نجل رمسيس الخامس لكن هذا الملك لم يعش طويلا فتبعه فى الملك رمسيس السابع ثم رمسيس الثامن وهذان أيضا لم يحكما طويلا • وقد حفر هؤلاء الفراعنة مقابرهم بوادى الملوك بطيبه وفوق ذلك لا نعلم شيئا عن أفعالهم . وكل ما وصلنا عن أخبار تلك العصور يشير الى اضمحلال عام بكيان الدولة ، لكن نقوش مقبرة بنو (Penno) مندوب رمسيس السادس بابريم ببلاد النوبة تشير الى أن الحكم المصرى هناك كان يانعا وطيدا بفضل مهارة الحكام المصريين الذين أقالوا السودانيين من الوظائف وانفردوا بالحكم من آخر عهد الأسرة الثامنة عشرة•وقد عين بنو أفراد أسرته فى الوظائف الكبيرة هناك والظاهر أن كثيرا من الأسر المصرية نزحت وقتئذ الى النوبة فمصرتها•وكان بنو رجلا ثريا فنصب تمثالا لرمسيس السادس بمعبد رمسيس الثانى بالدر وحبس عليه ايراد ست قطع أرض ، فكافأه الملك على ذلك بهدية ثمينة عبارة عن آنيتين فضيتين باهى بهما بنو ونقش خبرهما على قبره •

والمعروف أن العرش المصرى انتقل بين أيدى الرعامسة عدة مرات فى ظرف ٢٥ أو ٣٠ سنة بعد وفاة رمسيس الثالث وأن آخر ملك فى تلك المدة هو رمسيس التاسع • وحصلت كل هذه التغيرات فى العرش فى حياة رئيس كهنة مدينة الكاب الذى كان موظفا فى الأعياد التى أقامها رمسيس الثالث • أما رئيس كهنة آمون بطيبة أيام رمسيس التاسع،فكان يدعى أمنحتب وهو ابن رئيس كهنة آمون فى عهد رمسيس الثالث والرابع المدعو رمسيس نخت • ولا يخفى أنه فى عهد الرئيسين أمنحتب ورمسيس نخت تولى عرش مصر ستة رعامسة ضعاف لم يستمروا طويلا وكان همهم المحافظة على مركزهم • وزادت ثروة أمنحتب رئيس الكهنة فى تلك المدة كثيرا فأصلح مائدة الطعام والمطبخ بمعبد الكرنك الذى شيده سنوسرت

الأول منذ ثمانمائة سنة تقريبا ، وصرف امنحتب على هذا الاصلاح بسخاء وكرم أظهراه كبيرا فى أعين الناس · واستعمل أمنحتب فرعون مصر آلة لجمع الخيرات والهدايا ، ففى السنة التاسعة من حكم رمسيس التاسع دعا جلالته أمنحتب هذا الى الساحة الكبرى الأصلية بمعبد آمون بطيبة فحضر هذا الكاهن مصحوبا بأعوانه وأقرانه وتسلم من مليكه هدايا عظيمة من أوان ذهبية وفضية وحلى وأدهان ثمينة قدمها اليه صف طويل من الجنود الملكية · قارن ذلك بتلك الأيام التى كانت تقدم فيها أمثال هذه الهدايا مكافأة على الاقدام والشجاعة فى الحروب السورية ، وهكذا وانقلبت الحال فاصبحت هذه الهدايا تعطى للكهنة لضمان سلامة العرش المصرى واطالة الحكم الفرعونى · والأغرب من هذا ما قاله رمسيس التاسع الى أمنحتب وقت اغداقه بالهدايا فقد خاطبه بصيغة كلامية لا تقال الا من شخص وضيع الى سيد كبير · وأخبر الملك رئيس كهنته أن هناك أموالا كانت تجمعها الخزانة الملكية لتدفعها الى معبد آمون فيجب من الآن فصاعدا أن تورد مباشرة الى خزانة آمون بدلا من توريدها أولا الى خزانة الدولة · وهذه العبارة فى الحقيقة غامضة لكن يفهم من مضمونها أن جلالته سمح لكتبة معبد آمون أن يجبوا أموال المعبد بأنفسهم بدون تدخل الحكومة ، وبعبارة أخرى أن جلالته سمح لنفوذ كهنة آمون بأن يمتد الى بعض شؤون الدولة · وسجل أمنحتب المذكور هذه الانعامات الملكية السابقة مرتين على جدر الكرنك وزاد عليها ما شيده من العمارات وشمل هذه النقوش برسوم بارزة تمثله بحجم كبير كالملك الذى ينعم عليه بالهدايا والهبات · ويعتبر هذا أول رسم من نوعه فى التاريخ المصرى القديم اذ لم يسبق لأى موظف مصرى أن يمثل بهذه الكيفية ، لأن العادة المتبعة من قديم الزمان أن أفراد الرعية يرسمون دائما صغار الحجم بالنسبة لفراعنتهم ، أما الآن فقد ساوى نفوذ أمنحتب نفوذ الملك دينيا وسياسيا ولذلك رسم مساويا له حجما · ومعلوم أن رئيس كهنة آمون كان له جنود خاصة ، فلما تدخل تدريجا فى المالية المصرية وصار له نفوذ عليها تجاسر على مقارنة نفسه بالملك · وطبيعى أننا لا نعثر فى الآثار على ما يشير الى وجود حزازات ومشاحنات بين هذا الكاهن وفرعون مصر ، وكل ما بلغنا عن ذلك ما جاء فى رواية أفضت بها امرأة مصرية وقت التحقيق معها فى سرقة حصلت بمنزل والدها فى عهد رمسيس التاسع حيث قالت ان تلك السرقة حصلت وقت الثورة التى أشعلها رئيس كهنة آمون » ·

وتدلنا المكاتبات الرسمية الخاصة بجبانة طيبة التى وصلت الينا من عهد رمسيس التاسع على مقدار انحطاط نظام القطر الداخلى وقتئذ · وقد سبق أن قلنا ان الفراعنة هجروا طيبة واتخذوا الوجه البحرى مركزا لاقامتهم منذ مائتى سنة تقريبا ، لكنهم استمروا رغم ذلك على دفن موتاهم بطيبة ·

وجرت العادة أن القوم كانوا يدفنون مع مومياوات فراعنتهم الحلى التى كان يتزيا بها هؤلاء الحكام فى دنياهم . وقد ألمعنا سابقا الى أن كبار ملوك الامبراطورية اختاروا الوادى الغربى لطيبة وهو فى وسط الصخور الجبلية جبانة لجثثهم المحلاة بما عاد عليهم من الثروة من المستعمرات الآسيوية ، فلما ضعفت القوة الحاكمة وعجزت عن صيانة هذه القبور ومحتوياتها من أيدى اللصوص كثر نهبها وسلبها ، ففى السنة السادسة عشرة من حكم رمسيس التاسع سلب اللصوص أمتعة بعض المقابر الملكية المقابلة لصخور طيبه الغربية كمقبرة الملك سبك ام ساف (Sebekemsaf) أحد ملوك الأسرة الثالثة عشرة فاقتحمها هؤلاء الجناة وسرقوا أمتعتها وأثاثها وعبثوا بمومياء الملك وزوجته بحثا وراء حليهما الملكى . وقد ضبط اللصوص وقتئذ وعوقبوا على ذلك لكن يتضح لنا من مجرى التحقيق أن المحققين أنفسهم لم يكونوا عفاف النفس . بعد ذلك بثلاث سنوات (أى لما أشرك رمسيس التاسع ابنه رمسيس العاشر معه فى الملك قبض على ستة أشخاص بتهمة نبش قبرى سيتى الأول ورمسيس الثانى ، وهذا يدل على أن اللصوص ازدادوا جرأة فتركوا مقابر سهل طيبه الغربى وولوا وجههم نحو مقابر الوادى الغربى ، وهكذا وقع قبر رمسيس الثانى فريسة السلب والنهب كما فعل صاحبه بأهرام سنوسرت الثانى باللاهون . بعد ذلك نهبت مقبرة احدى ملكات سيتى الأول ثم مقبرة أمنحتب الثالث العظيم . وخلاصة القول أنه لم تمض عشرون سنة على هذه الحالة الا وأصبحت جميع المقابر الملكية بطيبة من ابتداء الأسرة الثامنة عشرة الى آخر الأسرة العشرين منهوبة تقريبا ، ولم نعثر للآن على مومياء واحدة نجت من تلك الجرائم بخلاف مومياء الملك توت عنخ آمون الا مومياء أمنحتب الثانى التى وجدت فى تابوتها الأصلى رغم نهب قبرها . وهكذا صارت مومياوات ومقابر ملوك مصر العظام تسلب وتنهب بلا شفقة ولا احترام ، فى الوقت الذى كانت تتصدع فيه أركان الامبراطورية المصرية التى شيدها هؤلاء الحكام .

ولم تصل الينا معلومات ما عن تاريخ رمسيس العاشر سوى ما تعلق بسرقة المقابر الملكية . أما رمسيس الحادى عشر فنجهل كلية جميع أخباره . ولما تولى رمسيس الثانى عشر الملك هوى العرش الفرعونى وحصل فى البلاد انقلاب حكومى عظيم ما يزال تحت البحث والاستيضاح . واليك بيان ما وصلنا الى معرفته منه :

قبل أن يتم رمسيس الثانى عشر خمس سنوات على عرش مصر استقل الوجه البحرى بأجمعه تقريبا تحت سلطة أحد أعيان تانيس المدعو نســوبانبدد (Nesubenebeded) المعروف عند اليونان بسمنديس (Smendes) . وقد كانت حركة انفصال الدلتا كبيرة وكثيرة الشبه

بما عمله وزير رمسيس الثالث المجهول التى شق عصا الطاعة على مليكه جهة بنها (Athribis) ، لكن رمسيس الثالث كان يقظا فأخضع الثائر بسرعة وأنزل به القصاص • أما رمسيس الثاني عشر فكان ضعيفا قليل النفوذ كما أن أحوال البلاد تغيرت كثيرا عما كانت عليه أيام رمسيس الثالث ، ولذلك لم يجد جلالته بدا من التقهقر الى طيبة والاحتفاظ بالوجه القبلى • ويرجح جدا أن انتقال جلالته الى طيبة حصل قبيل انفصال الدلتا عنه ، وعلى كل حال فاستقلال الوجه البحرى فصل طيبة عن البحر الأبيض المتوسط وحال بينها وبين آسيا وأوربا ، وبدهى أن الوجه البحرى أصبح معاديا للوجه القبلى وقتئذ • ثم اننا أشرنا الى أن رئيس كهنة آمون بطيبة كان ذا نفوذ عظيم وثروة طائلة جعلاه بمثابة حاكم قسم طيبة الأعظم دينيا وسياسيا ، ولذلك لما عاد رمسيس الثاني عشر الى طيبة اتحد هو ورئيس كهنة آمون وتعاونا معا فى بسط نفوذ جلالته على الوجه القبلى وبلاد النوبة •

وقد عرفت سورية بسرعة تغير أحوال البلاد الداخلية المصرية حتى قبل انفصال الوجه البحرى بمدة • لذلك أخذ الثكاليون وأهالى كريت يشنون الغارة ثانية على سوريا بعد ما وقفهم رمسيس الثالث بهجماته وقسوته مدة من الزمن ، فزحف هؤلاء القوم جنوبا طاردين أمامهم أهالى آمور وما بقى من أهالى الحيثيين حتى بلغوا فلسطين حيث التقى بهم بنو اسرائيل بعد ذلك بمدة • وهكذا تمكن الثكاليون من تشكيل مملكة مستقلة جهة دور (Dor) جنوبى الكرمل بعد ما هزمهم رمسيس الثالث بنحو خمس وسبعين سنة • ولما لم ترد عن هؤلاء القوم اشارة فى أخبار بنى اسرائيل لا يبعد أنهم تفرقوا واختلطوا مع أهالى فلسطين القاطنين بالأراضى الممتدة من بيت شين (Beth-Shean) بوادى الأردن الى الغرب والجنوب بما فى ذلك من سهل يزرل ومجدو حتى ساحل البحر الجنوبى ، فقطعوا بذلك حلقة الاتصال بين قبائل بنى اسرائيل الجنوبية والشمالية • واستدل من أوانى هؤلاء القوم الخزفية التى عثر عليها بجهة لاكش (Lachish) وجازر أنها من كريت ، فثبتت بذلك صحة رواية اليهود من أن الفلسطينيين قوم أتوا من جزيرة كريت • ثم ازدادت هجرة الفلسطينيين من كريت فأخذوا يتأهبون لسحق الاسرائيليين كما فعلوا بأهالى آمور وذلك قبل أن يتمكن رؤساء الاسرائيليين من جمع كلمة أهالى فلسطين وانشاء أمة سلفية منهم • ويرجح جدا أن هؤلاء الفلسطينيين الحربيين الذين أتوا من شمالى البحر الأبيض المتوسط امتنعوا عن دفع الجزية لمصر بعد وفاة رمسيس الثالث بقليل (حوالى سنة ١١٦٧ قبل الميلاد) لأنهم وصلوا وقتئذ الى حدود مصر تقريبا •

ومما يثبت لنا تغير الأحوال بآسيا أنه فى عهد رمسيس التاسع (سنة ١١٤٢ ـ ١١٢٣ قبل الميلاد) اعتقل حاكم ببلوس (جبيل) رسلا مصرية لمدة سبع عشرة سنة دون أن يسمح لهم بالرجوع الى مصر حتى ماتوا . ومن ذلك يتضح لنا أن أمراء سوريا لم يعودوا يظهرون أقل احترام لنفوذ فرعون مصر بعد وفاة رمسيس الثالث بعشرين أو خمس وعشرين سنة . وليلاحظ أن هؤلاء الحكام كانوا يقدمون الهدايا والضرائب لآمون فى المعبد الذى شيده هذا الفرعون العظيم بسوريا وقت حياته ، أما الآن فقد أصبح كل ذلك فى خبر كان .

وبلغنا وصف لأحوال سوريا أيام رمسيس الثانى عشر يقول عن لسان رسول مصرى يدعى ويناموين (Wenamon) أوفد باذن من المعبود الى ببلوس جنوبى لبنان لاحضار خشب الأرز اللازم لبناء سفينة آمون المقدسة . وكان هذا الرسول خاوى الوفاض لا يملك سوى دراهم ذهبية وفضية معدودة أعطاها اياه رئيس كهنة آمون المدعو حريحور ، ولقلة هذه النقود أرسل الكاهن مع الرسول تمثالا للمعبود آمون يدعى «آمون الطريق» ليؤثر به فى حاكم جبيل بأنه يطيل عمره ويهب له الصحة والعافية فيجمع بذلك الأموال اللازمة لاحضار الخشب المطلوب . وزود حريحور رسوله المذكور بخطاب الى ملك الوجه البحرى المدعو نسوبانبدد ليسهل له السفر ويجهز له سفينة ربانها سورى لتنقله الى سوريا . ولا يمكن أن يتصور القارىء مثلا أوضح من قصة هذا الرسول ويناموين التى تثبت بلا نزاع ما وصلت اليه مصر وقتئذ من الضعف والانحطاط . واليك بيان تلك القصة :

لما أوفد ويناموين للقيام بالمهمة المذكورة كان وحيدا لا يملك أوراقا رسمية أو سفنا مصرية رسمية ، كما أنه كان قليل المال لا يعتمد فى مهنته الا على مجد مصر التالد وعزها السابق . وظن ويناموين أن مجرد ذكر ذلك الى حاكم مدينة جبيل يكفى لاقناعه بوجوب مساعدته لتنفيذ مهمته ، لكنه لما وصل ويناموين الى مدينة دور سرقت نقوده فعمد الى حاكم المدينة الثكالى الأصل وقص عليه ما حصل له فرفض مساعدته واضطر ويناموين الى أن يمكث بدور مدة تسعة أيام بلا جدوى . بعد ذلك سافر الى جبيل بطريق صور وقد أخذ معه كيسا مملوءا بالنقود الفضية من الثكاليين نظير ما لحقه من الضرر بدور ، لكنه لم يكد يهبط جبيل حتى أمره حاكمها المدعو زكر بعل (Zakar Baal) بتركها دون أن يراه . اعتبر هذه المقابلة الجافة المزرية لرسول مصر فى بلاد فينيقيا ولم يمض على وفاة رمسيس الثالث خمسون أو ستون سنة . وقد هم ويناموين بالعودة الى مصر ثانيا لكن أحد أمناء زكر بعل دفعته النخوة الدينية فقام بين قومه

وحثهم على معاملة هذا الرسول بالشرف وباعطائه ما يطلبه وترحيله الى وطنه ويعتبر هذا أقدم مثل للمعاملات الدينية الواردة بسفر العهد القديم من الكتاب المقدس التى تمكن بها ويناموون من مقابلة زكر بعل ٠ واليك ترجمة ما قال ويناموون عن مقابلته لذلك الحاكم :

« لما حل الصباح أرسل الى يطلبنى للمثول بين يديه ، وكان ذلك وقت تقديم القربان بالقلعة الكائنة على شاطىء البحر ، فوجدته جالسا فى القاعة العليا ساندا ظهره الى نافذة الحجرة وأمواج البحر السورى العظيم تتلاطم خلفه على الشاطىء ٠ فسلمت عليه قائلا : «سلام من آمون!» فأجابنى : « كم يوما أمضيتها فى سفرك منذ تركت معبد آمون » فقلت له : « خمسة أشهر ويوما واحدا الى الآن » ٠

ثم سألنى : « اذا كنت صادقا فأين كتاب آمون ؟ هل هو فى يدك ؟ هل عندك كتاب من رئيس كهنة آمون ؟ » ٠

فأجبته : « اننى قد أعطيت ذلك نسوبانبدد ٠٠٠٠ » فاستشاط غيظا وقال بحنق : « ليس معك خطاب ولا مكاتبة ! أين هذه السفينة المصنوعة من خشب الأرز التى أعطاها اياك نسوبانبدد وأين رجالها السوريون ؟ ان نسوبانبدد لا يمكن أن يسمح لك بأن تؤدى هذه المهمة مع قبطان سورى يجوز جدا أن يقتلك أو يرميك فى البحر ! خبرنى من أين اذن يمكنهم احضار تمثال معبودك هذا ؟ ثم أين كانوا يعثرون عليك ؟ »٠

فأجبته : « ان لدى نسوبانبدد سفنا مصرية وبحارة مصريين لكن ليس لديه بحارة سوريون » ٠

فأجابنى : « عندى حقيقة بهذه الميناء عشرون سفينة تبع نسوبانبدد وأيضا بميناء صيدا حيث يحتمل أن تذهب اليها عشرة آلاف سفينة تبع بركت ال (Berket-El) (يغلب أنه تاجر من مدينة تانيس بالوجه البحرى) وهذه ستسافر الى منزله » ٠

فسكت فى تلك الساعة الرهيبة ولم أدر بماذا أجيب ٠ ثم سألنى : « لماذا أتيت الى هنا ؟ » ٠

فأجبته : « أتيت لآخذ خشبا لسفينة آمون رع العظيمة ملك المعبودات وقد عمل والدك ذلك من قبل ٠ وأنت أيضا ستقوم بالعمل نفسه » ٠

فاجابنى : « حقيقة لقد عمل مثل هذا العمل سابقا ٠ أما الآن فلا أعمل شيئا ما لم تأجرنى عليه ٠ ان عمالى هم الذين يديرون أشغالى ٠ لقد أرسل الى فرعون مصر ست سفن مشحونة بضائع مصرية أفرغت كلها بالمخازن ٠ فاذا أردت أنت شيئا منى فلتعطنى أجرة أيضا » ٠

بعد ذلك أمر باحضار سجل أعمال والده فقرىء أمامى فوجد أن والده أرسل ألف دبن (Deben) (أى ٢٤٤ رطلا) من كل نوع من الفضة الى مصر ثم قال لى : « اذا كان حاكم مصر هو مالك ثروتى وكنت أنا خادمه فلا يمكن أبدا أن يرسل لى الذهب والفضة ويقول لى أنجز مطالب آمون ! ان النقود التى أرسلها والدى الى مصر سابقا ليست جزية ! وأنا على يقين بأننى لست خادمك ولا خادم من أرسلك · اعلم أننى لو طلبت شيئا من لبنان تنفتح السماء فتجد الأخشاب التى ترجوها على الشاطىء ! أرنى القلاع التى أحضرتها معك لتسير السفن التى تحمل الأخشاب لمصر ! أرنى الحبال التى أحضرتها لتوثق بها كتل الأخشاب التى أسقطها لك حتى لا تتبعثر منك ! ماذا تعمل اذا رعد آمون فى السماء وقامت فى البحر عليك عاصفة تغرقك وخشبك ···· ! أنا أقر بأن آمون هو المنعم على الأراضى كلها ، وهو الذى أنعم على مصر قبل كل البلاد ، ومنها أتيت الى هنا ، فصناع مصر أتوا الى وكذا العلوم والمعارف أتت الى محل اقامتى من مصر · فما معنى هذا السفر السخيف الذى أمروك بالقيام به ! » ·

فأجبته : « يا آثم ! سفرى هذا ليس سخيفا · اعلم أنه لا توجد سفينة على نهر الا ويملكها آمون · واعلم أن هذا البحر ملكه أيضا · ولبنان كذلك رغما مما تدعيه بأنها ملكك ! فأشجارها تنبت لأجل سفن آمون المقدسة رب كل سفينة · لقد قال آمون رع الى سيدى حريحور رئيس الكهنة « أرسلنى » فأرسلنى سيدى حاملا هذا التمثال « آمون الطريق » · اسمع ! لقد جعلتنى أمكث بهذه المدينة تسعة وعشرين يوما مع علمك بوجود هذا المعبود هنا · ان هذا المعبود لا يزال كما كان رغم معارضتك لارادته وهو سيد لبنان · أما قولك ان ملوك مصر الأقدمين أرسلوا الذهب والفضة ثمنا لما طلبوه منك ، فاعلم أنهم فعلوا ذلك بدلا من الانعام عليك « بالحياة والصحة » ، اذ لو كانوا وهبوا لك « حياة وصحة » ما أرسلوا اليك ذهبا وفضة · أما آمون رع فهو اله الحياة والصحة وهو سيد أجدادك الذين أمضوا حياتهم يقدمون له القرابين والهدايا · وأنت أيضا خادم لآمون ، فاذا قلت لآمون سأنجز رغبتك ! سأنجز رغبتك ! ونفذت ذلك تماما فانك تنجح وتعيش طويلا وتنعم بصحة جيدة وتكون محبوبا فى بلدك وعند كل رعيتك · لا تحفظ لنفسك شيئا هو ملك آمون رع ملك المعبودات · حقيقة ! ان الأسد ليذود عن أملاكه ! أحضر لى كاتبى وأنا أرسله الى نسوبانبدد وزوجته تنت آمون (Tentamon) اللذين أعطاهما الوجه البحرى وهما يجيبان طلبى قائلين : « ليحضر له كل ما يطلبه » فاذا ما وصلت الى الوجه القبلى سددت لك كل ما على من الديون » هكذا أجبتـــه ·

لابد أن القارىء استنتج أشياء كثيرة من هذه القصة الغريبة · من ذلك اعتراف الحاكم الفينيقى بجلاء ووضوح ما تدين به بلده من العلوم والحضارة لمصر وما كان لمصر عليها من السلطة والنفوذ · لكن يلاحظ أن هذا الحاكم رفض في الوقت نفسه الاعتراف بسلطة مصر عليه وتنصل جهارا من كل سلطة لفرعون على بلده · ومما يجدر ملاحظته أيضا أن زكر بعل تكلم عن « حاكم مصر » ولم يستعمل لفظ « فرعون » اذا أراد الحاضر أما اذا عنى الماضى فانه يستعمل اللفظ الأخير · فما معنى هذا يا ترى ؟ لا شك فى أن القارىء أدرك السر فى هذا الأسلوب الكلامى لكن هذا لا يمنعنا أن نشرحه له حتى يكون على الما بجميع مباحثه ·

معلوم أن مصر ليست بلادا حربية بطبيعة حالها وقلما يوجد بين أهلها من يحب الكفاح والنضال · فلما حكم القطر فراعنة أقوياء مدفوعون بعامل الفتح والاستعمار اثر الضغط الأجنبى ، اضطرت الرعية أن تنفذ ارادة حكامها · لكنه لما انقضى جيل هؤلاء الفاتحين خمدت الروح العسكرية بالبلاد ورجعت المياه الى مجاريها وأصبح القوم يفتخرون بأعمال أجدادهم بشكل يبعث فى النفوس الشفقة والرأفة لما أصاب وطنهم من المحن · ومما يجدر ملاحظته أيضا أن وينامون لم يرتكن فى محادثته مع حاكم ببلوس الا على الأمور الدينية المحضة ، فلم يتعرض لأمر سياسى قط مما يتفق هو وعلاقة مصر بآسيا وقتئذ وما آلت اليه أحوال القطر المصرى · وبهذه الكيفية صار الرسول المصرى يطلب من الحاكم الفينيقى ما يلزمه من الخشب شفهيا قائلا له ان تمثال آمون الذى معه « يطيل العمر ويهب له الصحة » اذا هو أنجز مأموريته · قارن هذا بما كانت عليه الحال أيام تحوتمس الثالث وامنحتب الثانى لما كانت كلمة واحدة منهما كافية لاحضار ما يشاءان ، والسر فى ذلك يرجع الى وجود الجيوش الجرارة المستعدة لتنفيذ أوامر فرعونها بلا تردد ولا تذلل · وبدهى أن تمثال « آمون الطريق » كان أقل تأثيرا فى نفس زكر بعل من الجيوش الفرعونية فى نفوس أسلافه · وليلاحظ أيضا أن هذا الحاكم الفينيقى لم يعط وينامون خشبا الا بعد وصول رسل من مصر ، بناء على طلب وينامون حاملين بعض أوان فضية وذهبية وبعض أقمشة جميلة وأدراج بردية وجلود وحبال · والظاهر أن زكر بعل أراد أن يظهر حسن نيته لوينامون فوضع بعض الأخشاب الثقيلة فى قرار السفينة قبل مجىء رسل مصر ·

ولما هم وينامون بالرحيل الى طيبة وشحن الخشب فى سفينته ذكره زكر بعل بما حصل للرسل المصريين سابقا لما حجزوا حوالى سبع عشرة سنة فى ببلوس حتى توفوا · ولم يكتف الحاكم الفينيقى بذلك بل عرض

على وينامون أن يطلعه على قبورهم فرفض وينامون طبعا هذه الدعوة خوفا ووجلا ثم أجاب قائلا :

« اعلم أيها الحاكم أن تلك الرسل أتت من قبل آدميين • أما أنا فأتيت من قبل المعبود آمون الذى أصبح الآن راضيا عنك ومعظما اياك لكرمك » •

بعد ذلك وعد وينامون بدفع الباقى عليه وسار بالسفينة نحو مصر ، لكنه ما كاد يترك الشاطىء حتى اعترضته احدى عشرة سفينة ثكالية معها أوامر بالقبض عليه لا لسبب سوى استرداد الفضة التى أخذها من الثكاليين وقت مروره بمدينة صور على طريقه لبيلوس • عندئذ فقد وينامون كل رجاء وألقى بنفسه على الشاطىء باكيا فأشفق القوم عليه حتى زكر بعل نفسه الذى أخذ يطمئنه وأرسل اليه نبيذا وطعاما وغانية مصرية تفرج عنه الهموم • وفى اليوم الثانى حجز أمير ببلوس سفن الثكاليين حتى هرب وينامون فى سفينته ، لكن عاصفة هبت على البحر أضلت الرسول المصرى الطريق وقذفت بسفينته على شاطىء قبرص ، فاجتمع عليه أهالى الجزيرة وهموا بقتله بجوار قصر الملكة هاتيبا (Hatiba) حاكمة قبرص• ومن حسن حظ وينامون أن صـــادف انتقال هذه الملكة وقتئذ من قصرها القريب من الحادثة الى قصر آخر فاعترضها وينامون فى الطريق ووجد شخصا قريبا يجيد المصرية فرجاه وينامون أن يفهم الملكة حاله قائلا : « قل لسيدتى انه بلغنا حتى فى طيبة أن الظلم والحيف حاصل فى كل بلد ما عدا قبرص (Alasa) • لكننى تحققت الآن أن الظلم يحصل هنا أيضا كل يوم » فأجابته الملكة فى دهشة : « هل هذا صحيح ؟ ماذا تقول أيها الرجل ؟ » فأجابها وينامون قائلا : « كنت مسافرا بالبحر فهبت على عاصفة قذفت بى الى هذه الجزيرة فأراد أهلها قتلى وأنا رسول آمون ولن يدخر قومى جهدا للبحث عنى وتخليصى • أما بحارة حاكم ببلوس الذين معى فى السفينة فانى أؤكد أن ذلك الحاكم لا يعدم وسيلة فى ايجاد عشرة من بحارة قبرص يقتلهم تشفيا وانتقاما اذا ما تعرض سكان جزيرتك لهم » • بعد ذلك طلبت الملكة مقابلة بحارة سفينة وينامون وأمرته بالذهاب والنوم مستريحا •

الى هنا انتهت معلوماتنا عن هذه الرحلة ومنها يلاحظ أن الرسول المصرى عجز عن صيانة نفسه • وقد كان فراعنة مصر السابقون يحققون مع ملك قبرص (الذى كان تابعا لهم) عن كل تعد يحصل على أى مصرى بتلك الجزيرة • ويلاحظ أيضا أن وينامون لم يذكر لملكة قبرص شيئا عن فرعون مصر فى حين أنه هددها بانتقام أمير ببلوس ومصر معا •

ان الانسان لا يكاد يصـدق حصـول هذه التغيرات فى مدة يسيرة لا تتجاوز أربعين سنة بعد وفاة رمسيس الثالث ذلك الفرعون الذى هزم أساطيل سكان البحر الأبيض المتوسط مجتمعين فى معركة بحرية هائلة فى المكان نفسه الذى أهين فيه وينامون • وتعتبر رواية وينامون هذه أكبر برهان على اضمحلال النفوذ المصرى فى تلك الجهات الأجنبية وعلى سرعة انحطاط الدولة الداخلى فى المدة اليسيرة التى حكمها خلفاء رمسيس الثالث الضعاف • ويرجح بعض الأثريين أن ملك آشور المدعو تجلات بليسر (Tiglath pileser) اقترب من مصر وقتئذ (حوالى عام ١١٠٠ قبل الميلاد) فخاف منه نسوبانبدد ملك مصر وأرضاه بهدية وتمساح كى يبتعد عنه ولا يمسه بسوء • هكذا انعدم نفوذ مصر بسوريا تماما ، أما نفوذها على فلسطين فلم يكن الا اسميا تتناقله ألسنة رجال حاشية الملك فقط • وسنرى أن ملوك مصر حاولوا استرداد تلك البلاد عدة دفعات بعد ما تألفت بها المملكة اليهودية •

لا يخفى أن الانقلابات الداخليـة فى القطر ألقت بطيبة فى طريق لا مناص من ولوجه • أما هذه الانقلابات فعديدة ، منها ارسال رئيس كهنة آمون المدعو حريحور رسوله وينامون لاحضار خشب الأرز من فينيقيا للمعبود آمون بعد ما كانت الرسل ترسل باذن فرعون • ثم زاد نفوذ هذا الكاهن فى السنة التالية فأرسل بعض رجاله لاصلاح ما أفسدته أيدى النهابين لجثتى سيتى الأول ورمسيس الثانى فى السنة الأولى من حكم رمسيس العاشر ، وأكمل حريحور بناء معبد خونسو فى الكرنك الذى بنى فيه رمسيس الثـالث قدس الأقداس وبعض الحجرات الخلفية • أما عمارات حريحور التى شيدها بالمعبد المذكور فعبارة عن فناء وبهو أعمدة وصرح ، وما تزال جدر هذه العمارات تشهد بتغيير أحوال مصر الداخلية الادارية ، فالنقوش والدعوات المكتوبة على أعالى جدر ايوان هذا المعبد الكبير سـجلت على الطريقة القـديمة وعلى الأسـلوب المعهـود للمملكة القديمة • واليك ترجمة بعضها :

« ليحيا الملك رمسيس الثانى عشر ! لقد شيد لوالده خونسو المتطيب بطيبة هـذا الايوان لأول مرة المسمى حامل التيجـان واستعمل فى ذلك الأحجار الجيرية الجميلة فازدان بها المعبد الى أبد الآبدين • ولم لايكون ذلك وقد شيده رمسيس الثانى ابن الشمس لهذا المعبود » • أما أسفل جدر هذا الايوان فيحوى نقوشا لم يسبق وجود مثلها فى عهـد فرعونى واليك ترجمتها :

« رئيس كهنة آمور رع ملك المعبودات قائد قوات جيـوش الوجهين القبلى والبحرى الرئيس حريحور الظافر ، لقد شيد هذا الأثر لأجل

خونسو المتطيب بطيبة فعمل له بذلك أول معبد من نوعه فى أفق السماء ٠٠٠٠ » ٠

لا مراء اذن فى أن هذا القائد لجيوش الوجه القبلى والبحرى هو الذى شيد هذا الايوان ٠ ومن غرائب هذا البناء أيضا أن النقوش البارزة على حافتى الباب الموصل ذلك الايوان بفناء المعبد تمثل المعبود محتفلا به وأمامه رئيس الكهنة حريحور يقود الاحتفال ويحرق البخور للمعبود ، وهو مركز كان يقوم بأعبائه فرعون مصر دون سواه ، ولذلك جاء رسم حريحور بالصفة المذكورة مخالفا العادة المتبعة على الآثار المصرية منذ آلاف السنين ٠ والأدهى من هذا أن الدعوات والتوسلات الاعتيادية التى كان يقولها المعبود لفرعون مصر ذكرت على جدر معبد خونسو مقولة على لسان المعبود وموجهة الى الكاهن حريحور ٠ وهذه حادثة تذكرنا تماما بما حصل أيام ذهبت سلاطين مصر الى بغداد وأحضرت الخليفة الى القاهرة وأبقته بها مدة قصيرة ٠ وقد عثر على نص خطاب أرسله رمسيس الثانى عشر الى والى النوبة فى السنة السابعة عشرة من حكمه استدل منه على أنه كان محتفظا بنفوذه هناك ٠ لكن الرسمين الموجودين على باب معبد خونسو السالف الذكر يمثلان الكاهن حريحور فى مركز وال فى عهد رمسيس الثانى عشر فجاء هذا اثباتا لاحتكار هذا الكاهن لسلطة الملك على السودان أيضا ٠ وقد سبق أن ذكرنا عند الكلام على تاريخ أواخر أيام الأسرة التاسعة عشرة أن آمون وضع يده على مناجم الذهب بالنوبة والآن يتضح لنا أن حريحور رئيس كهنة هذا المعبود بسط نفوذه على أعالى النيل أيضا ٠ وعثرنا أيضا على نقوش بمعبد خونسو تشير الى أن حريحور شغل وظيفة « مدير مخازن غلال الوجهين القبلى والبحرى » وهو المركز الوحيد الذى يلى فى الأهمية مركز رئيس المالية ، لأن القمح كما لا يخفى أهم مصادر الثروة فى مصر ٠

يتضح من ذلك أن رئيس كهنة آمون وضع يده على كل الأمور الادارية والدينية تقريبا ولم يبق أمامه شىء يستحق الذكر لأنه أصبح الآن قائدا لقوات مصر وواليا على كوش ورئيسا للخزانة ومشرفا على عمارات المعبودات ٠ وبعد مضى سبع وعشرين سنة على حكم رمسيس الثانى عشر الاسمى كان كل شىء تقريبا ناضجا لتسلم حريحور رئيس كهنة آمون تاج العرش المصرى ، ففى احدى الحفلات الدينية اعترف المعبود خونسو بتولية حريحور ملكا على مصر ثم أيده فى ذلك آمون ، فأصبح ذلك القرار أمرا واقعيا ٠

هذه القصة منقوشة باختصار وغموض على باب معبد خونسو المذكور آنفا وتعتبر هذه النقوش الآن برهانا ساطعا على انتقال السلطة الحاكمة من

فرعون الى رئيس كهنته • والزائر الآن لمعبد خونسو يمر فى الايوان الداخلى فيجد اسمى حريحور ورمسيس الثانى عشر منقوشين على جدره ، ثم يمر بالفناء الأمامى فلا يجد فيه أثرا لفرعون مصر، بل يشاهد حريحور مرسوما بوضوح وجلاء مكتوبا اسمه فى خانة ملكية مسبوقة بالألقاب الفرعونية • ومنذ ذلك الوقت بقى اسم رمسيس مستعملا بين الرعية اثباتا لقرابة حامله بالرعامسة العظام ، دون اشارة الى سلطة أو نفوذ كما كانت الحال فى الزمن السابق •



الفصل الخامس والعشرين

الكهنة والجنود المأجورون : سيادة الليبيين

أثر استقلال طيبة الديني كثيرا في كيان الامبراطورية المصرية ، لأنه جاء بمثابة انهيار صرح مجدها وانفكاك عرى مملكتها ، وأصبح كهنة آمون يحكمون بأنفسهم لكن لم تتعد سلطتهم قسم طيبة وما حوله • وبالنسبة لبسط نفوذ الكهنة على جميع أنحاء القطر نشأت منازعات ومشاكسات داخلية نجم عنها انقسام القطر وانحلاله ، وقد بدأ التغير منذ عهد نسوبانبدد وحريحور في أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد واستمر نحو أربعمائة وخمسين سنة • وتمادى حريحور في ادعاءاته فقال انه أصبح ملكا ذا سيادة مطلقة ، لكن هذا القول بعيد عن الصواب كثيرا • ولم يكتف بذلك بل ازداد تبجحا وادعى أن نفوذه امتد الى سوريا حتى سجد أمراء تلك الجهات له كل يوم خوفا من سلطته وبأسه العظيمين • وقد أفادتنا الأخبار الواردة ضمن قصة وينامون الشجاع الخاصة بسياحته الى مدينتي دور وببلوس أشياء كثيرة عن أحوال تلك العصور • والمعروف أن حريحور لم يتبع سياسة الشدة والحزم ليخضع بها أمراء سوريا بل اكتفى بحكومة زمنية وروحية بسيطة جدا •

لقد تدخل آمون في شؤون الامبراطورية المصرية أيام حتشبسوت وتحوتمس الثالث فملك الأخير عرش مصر كما أنه كلف حتشبسوت اقامة المسلات وارسال البعثات الى الصومال لاحضار الخيرات له ، لكن هذا التدخل حصل بصفة استثنائية فلم يكن مطردا ولا كثيرا • فلما تولى حريحور الحكم تدخل هذا المعبود في أمور الدولة بشدة لدرجة تحتم أخذ رأيه في كل شؤون المملكة ، فالأمر الذي يوافق عليه آمون كان يحرك له رأس تمثاله الى الأمام بقوة ويشفع ذلك بالنطق الالهي • وزاد تدخل آمور فصارت وصايا ومواريث أفراد الأسرة لرؤساء كهنة آمون تسجل

بناء على طلب هذا المعبود ، وبهذه الكيفية اصطبغت الأمور الأهلية بالصبغة الدينيـة .

ثم اتسع الخرق فأصبح آمون يصدر أمره بارجاع المعتقلين السياسيين الى وطنهم ويفصل فى الجنايات ويحكم بالاعدام على المجرمين . من ذلك أن موظفا بأحد المعابد اتهم بتبديد أموال معبده فحوكم أمام آمون ودون الحكم فى سجلات ذكر بأحدها أن الموظف المذكور مذنب وكتب فى آخر أنه برىء وترك الأمر للمعبود،فأصدر هذا حكمه بتناول السجل الواردة فيه براءة المتهم وبذا برئت ساحة الموظف . والسبب فى ذلك أن رئيس الكهنة كانت له مصلحة فى الأمر فدبر هذا التدبير . من ذلك يتضح أن رئيس كهنة آمون حكم البلاد بالشعوذة بلا اعتبار للعدل والقانون مستندا فى تنفيذ أوامره الى مساعدة آمون .

ولما كان حريحور طاعنا فى السن وقت توليه عرش مصر (عام ١٠٩٠ قبل الميلاد) لم يعش طويلا بعد رمسيس الثانى عشر ، فتبعه فى الحكم ابنه باى عنخ (Payonekh) الذى كان أيضـا طاعنا فى السن فلم يجسر على الانفراد بالحكم ضد نسوبانبدد الذى أخذ يبسط نفوذه لمدة قصيرة على القطـر المصرى . قال مانيتو ان نسوبانبدد التانيسى هـو المؤسس للأسرة الحادية والعشرين ، لكن هذا خطأ تاريخى يرجع سببه الى جهل هذا المؤرخ باستقلال طيبة وقتئذ .

وتوفى باى عنخ فتبعه فى الملك باى نجم (Paynozem) الأول الذى حكم فى طيبة واستقل بها . فى ذلك الوقت توفى نسوبانبدد فتبعه فى حكم تنيس بسيب خنو (Pesibkhenno) (بسوسنس) الأول وهو على الأرجح ابنه . والمعروف أن باى نجم عجز عن استرجاع العرش المصرى الذى استولى عليه جده ، لكنه استعمل الشدة فى حكمه بطيبة فأكمل معبد خونسو وأصلح بعض المعابد القديمة وجمع جثث ملوك مصر المدفونة بجبانة طيبه الغربية بمقبرة سـيتى الأول حفظا لهـا من عبث اللصوص والسبب فى ذلك أنه عجز عن ابعاد اللصوص عن تلك المقابر فلجأ الى ما لجأ اليه أخيرا .

وركن باى نجم بعد ذلك الى طريقة سياسية ماهرة فاقترن بكريمة ملك تانيس المدعو بسيب خنو الأول فلما توفى هذا عام ١٠٦٧ قبل الميلاد اعتلى باى نجم عـرش مصر مستعملا فى ذلك حقـه المكتسب عن طريق زوجته ، فضم بذلك الوجهين القبلى والبحرى تحت سلطته . ثم عين ابنه رئيسا لكهنة آمون بطيبة ، لكن هذا النجل توفى فعين ابنا آخر مكانه . وكان لباى نجم ابن ثالث يدعى من خبر رع (Menkheperre) عينـه

فى السنة الخامسة والعشرين من حكمه رئيسا لكهنة آمون بعد نضال شديد مع خصومه · ودليلنا على وجود هذا النضال أنه لما عين من خبر رع رئيسا لكهنة آمون أصدر آمون أمره بالعفو عن بعض المعتقلين السياسيين باحدى الواحات · ولم نهتد للآن عن سر هؤلاء المعتقلين ويظهر أن العفو صدر ارضاء لأهالى طيبة الذين ظهروا وقتئذ بمظهر الثورة والعصيان كما حصل أيام البطالسة ·

وحكم باى نجم أربعين سنة تقريبا متخذا تانيس مركزا له · وكان ابنه من خبر رع رئيسا لكهنة آمون بطيبة طول هذه المدة · فلما توفى باى نجم نحل ابنه بعض الألقاب الفرعونية وذلك عام ١٠٢٦ قبل الميلاد لكن هذا الابن لم يعتل عرش مصر ، لأن شخصا آخر يدعى أمن ام أوبت (Amenemopet) اغتصب منه العرش · ويرجح كثيرا أن هذا الأخير لم يكن متصلا بعلاقة دموية مع باى نجم والحقيقة أننا لا نعلم شيئا من أعمال باى نجم الذى حكم حوالى نصف قرن · انما الثابت أن هؤلاء الملوك التانيسيين لم يكونوا عظماء ولا محبين للعمارات الضخمة ، مع استثناء ما شيده بسبب خنو من الجدار الشامخ القائم حول معبده بتانيس · ويرجح جدا أن القرن ونصف القرن الذى حكم فيه هؤلاء الملوك التانيسيون كان مقرونا باضمحلال الصناعة وتقهقر حالة البلاد الاقتصادية لأن هؤلاء الحكام لم يظهروا استعدادا الى الرقى والتقدم والنشاط(١)·ورغم جهلنا بأحوال البلاد الاقتصادية فى تلك العصور وقبلها لنتمكن من مقارنتها فاننا متيقنون أن ثمن الأراضى كان وقتئذ منخفضا جدا ، فقد بيعت قطعة أرض مساحتها ستة أفدنة ونصف تقريبا بجهة العرابة بمبلغ ألف وأربعمائة قمحة فضة·ومن مآثر نسوبانبدد أنه أرسل الى طيبة عددا عظيما من العمال لاصلاح التلف الذى لحق بمعبد آمون اثر فيضان النيل وقتئذ لكنه لم يعمل هو ولا أقرانه شيئا يذكر فى تانيس عاصمة المملكة المصرية التى كانت تنتقل باطراد من سيىء الى أسوأ · وكل ما فعله ملوك تانيس أنهم باهوا وافتخروا بأعمال أجدادهم العظام وتباروا مع رؤساء كهنة آمون فى حفظ جثث هؤلاء الأجداد ·

ثم توفى أمن ام أوبت وتولى بعده سيامون (Siamon) فنقلت فى مدته مومياوات رمسيس الأول وسيتى الأول ورمسيس الثانى من مقبرة سيتى الأول الى مقبرة الملكة انحابى (Inhapi) · أما اضطراب الأمن

---

(١) Petrie, Tanis I, 19.

وانعدام النظام فقد استمرا سائدين . ولما تولى بسبب خنو الثانى آخر الملوك التانيسيين على مصر أسرع فى نقل المومياوات الملكية الى مقبرة حفرها أمنحتب الأول لنفسه ولم يستعملها (على الأرجح) بالقرب من الدير البحرى لوحة ١٤٠ وبقيت هذه المومياوات مدفونة بتلك المقبرة حتى عثر عليها حديثا . وكتب الكتاب الذى تعهدوا نقل هذه المومياوات قديما ملاحظات على توابيتها ذكروا فيها تاريخ النقل ، كما فعل من سبقهم من الكتاب وقت نقل المومياوات السابقة الذى حصل قبل ذلك الوقت بمائة وخمسين سنة تقريبا شكل ١٧٨ . وما تزال هذه النقوش الباقية على المومياوات الملكية وتوابيتها التى كتبت على عدة دفعات وقت النقل من مقبرة لأخرى حفظا لها من عبث اللصوص برهانا ساطعا على انحطاط الأمن والنظام فى تلك العصور المتأخرة . وآخر مرة ختمت فيها هذه المقبرة يرجع تاريخها الى السنوات الأخيرة من حكم الأسرة الثانية والعشرين (أى حوالى سنة ٩٤٠ قبل الميلاد) . وبقيت مومياوات هؤلاء الملوك العظام بتلك المقبرة محفوظة مدة ثلاثة آلاف سنة تقريبا حتى عام ١٨٧١ أو ١٨٧٢ ميلادية لما توصل اليها بعض لصوص المقابر بالأقصر ، وهم سلالة أجدادهم الذين احترفوا باللصوصية قبلهم أيام رمسيس التاسع ، وقد ألمعنا الى ذلك سابقا لما تكلمنا على محاكمة هؤلاء الأئمة المجرمين . ومما هو جدير بالذكر أن الحكومة الحالية أجبرت الجناة على الاعتراف بجرمهم بالطريقة نفسها التى اتبعتها حكومة رمسيس التاسع سابقا . وهكذا ظهرت للعالم تلك المومياوات بعد ما خبئت لمدة تسعة وعشرين قرنا . وتقدر المدة التى مضت على أقدم هذه الجثث المحنطة بحوالى ثلاثة آلاف سنة . ويمكن القارىء الآن أن يرى هذه المومياوات الملكية (لأنها معروضة للزائرين بالمتحف المصرى بالقاهرة) وعند ذلك يتذكر ما قام به أصحابها من الأعمال الخالدة التى ذكرناها والتى يرجع تاريخها الى حوالى ثلاثة آلاف سنة تقريبا .

وكانت السياسة الخارجية أيام الأسرة الحادية والعشرين ضعيفة كسياسة الأسرة العشرين والظاهر أن مصر حافظت على نفوذها فى النوبة . أما فى سوريا فكانت علاقتها تماما على الوصف الوارد فى قصة وينامون التعس عند مقابلته لحاكم ببلوس . ولم يكن لمصر سيادة على فلسطين الا بالاسم تلوكها ألسن رجال القصر الفرعونى وقد استمرت كذلك مدة قرن تقريبا .

ويلاحظ أنه فى الوقت الذى انحط فيه نفوذ مصر بفلسطين أخذت قبائل بنى اسرائيل تجمع كلمتها وتبسط نفوذها على البلاد المجاورة فكونت لها وطنا بفلسطين تحت ادارة شاول (Saul) وداود (Devid) . وللآن

لم نتأكد اذا كان هذا الأمر تم بمساعدة المصريين بقصد اخضاع أعدائهم المستوطنين بشواطىء تلك الجهات ، والسبب فى هذا الجهل قلة ما لدينا من الأخبار التاريخية المنبئة بعلاقة مصر السياسية بآسيا وقتئذ . أما أخبار أهالى البحر الأبيض المتوسط فقد انعدم ذكرها على الآثار المصرية فلم نسمع عنهم شيئا . وأما الليبيون فقد بسطوا نفوذهم بسهولة على الوجه البحرى بطريق المهاجرة السلمية . ومما ساعد على ذلك زيادة الجنود الليبية المأجورة بالجيش المصرى باطراد . ولما كان جزء الجيش المعسكر بالدلتا لحفظ النظام هنـاك تحت ادارة رئيس كهنة آمون وتحت قيادة ضباط مشواشيين قابضين على قلاع تلك الجهة فقد قوى نفوذ المشواشيين هناك . وحصل فى عهد الأسرة الحادية والعشرين هناك أن أحد الليبيين (التحنـــو) المدعـو بيواوا (BuyuWaWa) استوطن مدينة اهناسيا (Heracelopolis) فرزق ولدا يدعى موسن (Musen) عـــين بعـد ذلك فى وظيفتى كاهن معبد اهناسيا وقائد حرس تلك المدينة. بعد ذلك صارت هاتان الوظيفتان وراثيتين مقصورتين على أفراد هذه الأسرة . ثم رزق موسن هـذا بنجل يدعى شيشنق (Sheshonk) لقب « رئيس المشواش العظيم » وكان قويا ثريا حتى انه لما توفى ابنه المدعو ناملوت (Namlot) دفنه فى العرابة باحتفال عظيم ووقف له خيرات كثيرة من أراض وحدائق وعبيد وخدم وقرابين يومية . بعد ذلك اتضح له حصول تلاعب من الرؤساء الموكول اليهم تنفيذ هذه الخيرات فتوسط لدى ملك (ما نزال نجهل اسمه) من ملوك الأسرة الحادية والعشرين ليعاقب المهملين وليصدر بذلك أمرا من آمون بطيبة. ويرجح كثيرا أن يكون القواد الليبيون بالدلتا جروا على هذا المثال حتى أصبح لهم نفوذ يجارى نفوذ شيشنق المذكور ، أو بعبارة أخرى حتى استأثروا بالسلطة فى أيديهم تدريجا . واستمرت الأسرة الحادية والعشرون فى الضعف المطرد مدة حكمها البالغة مائة وخمسين سنة تقريبا كانت فى أثنائها ذرية بيواوا بمدينة اهناسيا تظهر وتعظم ، فتمكن أحد أفرادها وهو شيشنق حفيد شيشنق السالف من قيادة أسرته الليبية ونشر نفوذها (على الأرجح) على الأراضى المجاورة الى قسم منف شمالا وقسم أسيوط جنوبا . وفى عام ٩٤٥ قبل الميلاد تمكن رئيس هذه الأسرة من الاستيلاء على عرش مصر والتربع فيه بمدينة تل بسطه شرقى الدلتا . ويعتبر هذا التغير الملكى اما نتيجة ضعف آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، واما نتيجة وفاته وانقراض ذريته .

واعتبر مانيتو شيشنق هذا مؤسس الأسرة الثانية والعشرين ، ومن ذلك يتضح أن الليبيين تمكنوا هذه المرة من التربع على العرش المصرى بلا تعب ولا حاجة الى امتشاق الحسام بعد مضى مائتى سنة تقريبا من وفاة

رمسيس الثالث الذى سحقهم سحقا لما علم بنواياهم الخبيثة نحوه ٠ وبدهى أن انتقال العرش تدريجا من أيدى الفراعنة الى أيدى ضباط أجانب صحبه أيضا انتقال تدريجى فى ادارة الحكومة الى أيدى الكهنة ٠ لكن حكم الأخيرين تقوض بسرعة أما حكم الضباط الأجانب فدام مدة أطول ، بالرغم من أن نفوذ هاتين الطائفتين كان موطدا فى البلاد بدرجة متعادلة تقريبا منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة ٠

وبمجرد جلوس شيشنق على عرش مصر حصر هذا الشرف الرفيع فى أفراد أسرته ، وتوصل الى ذلك بأن زوج نجله بكريمة بسيب خنو الثانى التانيسى آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، بذلك منح ابنه حقا شرعيـــا لتولى عرش مصر بعد وفاته عن طريق زوجته ٠ والمعروف عن شيشنق هذا أنه كان حاكما قويا شجاعا نهض بمصر وعزم على استرجاع عزها القديم وتاريخها المجيد ٠ ولما كانت البلاد فى حالة سيئة كان مجهود هذا الملك أشبه بمن يبنى عمارة عظيمة بأنقاض عتيقة ٠ زد على ذلك أن القطر كان تحت نفوذ حكام المشواش المثيرين للفتن والقلاقل ٠ ومما حسن الحالة نوعا أن هؤلاء كانوا يهابون شيشنق ويعرفون أصله وكيفية توصله للملك ، لكنهم كانوا أيضا على يقين من أنهم لو اتبعوا خطة شيشنق هذا ربما توصلوا الى العرش المصرى أيضا ٠ ولم نهتد للآن الى معرفة الأقاليم التى كانت تحت حكم قواد المشواش ، انما يظن أن معظمها كان بالوجه البحـرى وأن عـلاقتهم بفرعون مصر وقتئذ كانت أشبه بعـلاقة المماليك بسلاطين مصر المسلمين ٠ أما الوجه القبلى فكان منقسما الى امارتين : امارة اهناسيا الواصلة الى أسيوط جنوبا ، وامارة طيبة الممتدة من أسيوط شمالا حتى الشلال الأول جنوبا ويرجح أنها كانت تشمل النوبة أيضا ٠

من ذلك يتضح أن القطر المصرى انقسم وقتئذ الى ثلاث امارات أشبه بما حصل فى عهد البطالسة والرومان ٠ أما نفوذ شيشنق فكان مبسوطا على قسم اهناسيا لكنه كان على وفاق ووداد مع رؤساء كهنة بتاح بمنف ٠ وقبل انتهاء السنة الخامسة من حكمه انضمت طيبة تحت لوائه ٠ لكنها كانت أشبه بامارة مستقلة قادرة على مقاومة الأسرة الحاكمة بالوجه البحرى، وأراد شيشنق أن يستفيد بمساعدة هذه المدينة فعين ابنه رئيس كهنة آمون هناك والمعروف أن طيبة كانت معفاة من الضرائب ، كما أن موظفى مالية حكومة الدلتا الاداريين لم يزوروا تلك المدينة رسميا ٠ وعليه فقطر هذه حاله يسهل شبوب الفتن فى اماراته الثلاث فى أى وقت بمجرد زوال سلطة قائده الأعلى الشديد ألا وهو شيشنق الأول ٠

وأخذ شيشنق الأول يبسط نفوذ مصر على فلســـطين حتى جعل سيادته هناك فعلية بعد أن كانت اسمية · والظاهر أن سليمان كان واليا وقتئذ تحت النفوذ المصرى هناك ويرجح أنه تزوج بكريمة فرعون الذى أرسع له الأقاليم تحت اشرافه بضم مدينة جازر المهمة اليه ، وقد ألمعنا سابقا الى هذه المدينة لما تكلمنا عن الملك مرنبتاح قبل العصر الذى نحن بصدده بحوالى ثلثمائة سنة · فى ذلك الوقت عجز بنو اسرائيل عن اخضاع هذه المدينة ، لكن لما شق أميرها الكنعانى عصا الطاعة على شيشنق الأول استولى جلالته عليها عنوة وأحرقها ثم أهداها الى سليمان الذى شيدها من جديد · وبدهى أن مثل هذا العمل لا يمكن نسبته الى ملوك الأسرة الحادية والعشرين الضعفاء ، بل المرجح كثيرا أن الذى استولى على مدن عظيمة بفلسطين مثل جازر وأحرقها هو ملك قوى شجاع عظيم ، ولم يتصف بذلك فى تلك العصور سوى شيشنق الأول ·

ولما انقسمت مملكة اليهود فى عهد رحبعام (Rehoboam) الذى خلف سليمان رأى شيشنق أن الوقت حان لبسط نفوذه على فلسطين كلها · وفى ذلك الوقت التجأ يربعـــام (Jeroboam) العـــدو الشمالى لرحبعام الى شيشنق الأول طالبا حمايته ، فتوجه شيشنق الى فلسطين وغزاها وكان ذلك فى السنة الخامسة لحكم رحبعام (حوالى عام ٩٢٦ قبل الميـــلاد) · والمعروف أن جلالته لم يذهب الى أبعد من حد شاطىء بحر الجليل شـــمالا وماهنـــايم (Mahanaim) التى هى بوادى الأردن شرقا (على الأرجح) (٢) · وليلاحظ القارىء أن الجنود المصريين مضى عليهم الى ذلك الوقت مائتان وسبعون سنة لم تطأ أقدامهم الأرض الآسيوية ، فلما وصل شيشنق الى آســـيا أرسل قواته الليبية لتنهب مدن ســـهل يزرل (Jezreel) بادئة برحوب (Rehob) شمالا مخترقة حفرايم وتناخ وشونم (Shunem) حتى بيت شين (Beth-Shean) شرقى وادى الأردن · أما فى الجنوب فسلبت الجنود يرازا (Yeraza) وبيت حورن (Beth-Horon) وأيا لونا (Ajalon) وجيبون (Gibeon) وسكو (Socoh) وبيت أنوت (Beth-Anoth) وشرحان (Sharuhen) وأراد (Arad) والموقعان الأخيران يحددان منتهى ما بلغه الليبيون وقتئذ جنوبا ·

جـاء فى كتاب الملوك الأول بالاصحاح الرابع عشر بالآية الخامســـة والعشرين أن شيشنق ملك مصر صعد الى أورشليم وأخذ خزائن بيت

(٢) مقالتى فى : Amer. Jour. of Sem. Lang., XXI, 22-36.

الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان ٠ لكن يستدل من قرائن الأحوال أن حملة شيشنق كانت موجهـــة الى المملكتين الآسيويتين فلم يقصـــد بها مملكة يهوذا (Judah) وحــدها ٠ وادعى شيشنق (شيشق) أنه بلغ أرض متانى (Mittanni) لكن ذلك لابد أن يكون من قبيل الغلو والفخر فقط ، والسبب فى ذلك أن مملكة متانى انعدمت من الوجود فلم يعد لها أثر وقتئذ ٠ ومما ادعاه شيشنق أيضا أنه استولى على الجهة المعروفة « بحقل ابراهيم » وهذا الاسم هو أقدم عبارة ورد بها اسم ابراهيم علم بنى اسرائيل (شكل ١٨٠) ٠ وعاد شيشق (شيشنق) بعد غزوته بغنائم عظيمة فجدد بذلك عهد فراعنة مصر الأقدمين ، ونقش جلالته على جدر الكرنك بطيبه الجزية التى تقاضاها من فلسطين والنوبة (اللتين خضعتا له وقتئذ) بالقرب من نقوش ملوك مصر العظام ثم عين جلالته حاكما ليبيا على الواحة الكبرى وعهد الى أحد الرؤساء الليبيين فى الاشراف على غربى الوجه البحرى وطرق مواصلاته البرية مع الواحات ٠ وهكذا رجع لمصر لأمد قصير بعض مجدها القديم الذى شاهدته زمن الامبراطورية فى عهد الأسرة التاسعة عشر لما أخذت ترد على خزانتها جزية الأقاليم الواسعة الممتدة من شمالى فلسطين شمالا الى أعلى النيل جنوبا ، ومن الصحارى الغربية غربا الى البحر الأحمر شرقا ٠ ولما ضخمت المالية شيد شيشنق العمارات الشامخة كما فعل فراعنة مصر الأقدمون منذ مائتى سنة تقريبا ، فاختط تل بسطة مقره ووسع الكرنك بطيبة ٠ وكان لشيشنق نجل يدعى يوبت (Yewepet) عين رئيسا لكهنة آمون بطيبة،وقد أرسل هذا الابن بعثة الى جبال السلسلة لقطع الأحجار اللازمة ليشيد بها فناء عظيما وصرحا شامخا بالجهة الغربية للكرنك كى يتمم بناء هذا المعبد ويكسوه شكلا بديعا من جهة النيل ٠ وليلاحظ أن جدر جانبى الفناء وعمده أسست سابقا بعد انقراض الأسرة التاسعة عشرة بمدة ، أما الصرح فلم يبدأ ببنائه الا فى عهد شيشنق ٠ وما يزال هذا الفناء أكبر أفنية المعابد للآن ، يبلغ طوله ثلثمائة وأربع عشرة قدما وعرضه مائتين وتسعا وستين قدما ٠ أما الصرح فمشيد أمام وجهة هذا الفناء وهو أكبر صرح من نوعه فى القطر يبلغ سمكه ستا وثلاثين قدما وارتفاعه مائة وخمسين قدما ووجهته ثلثمائة وسبعا وخمسين قدما (خريطة رقم ١١) ٠ وقصد شيشنق أن يحتفل ببناء هذا الصرح فى عيد مرور ثلاثين عاما على حكمه ، لكننا لم نهتد للآن اذا كان أنجز ذلك أم لا ٠ والمعروف أنه لم يعش طويلا ليراه كاملا لأن الألواح الخشبية وأدوات البناء ما تزال مكدسة تحت كومات التراب والأحجار الساقطة بجوار الصرح ٠ ومن الثابت أيضا أن حلية هذا الصرح لم تتم فى عهد شيشق ٠ ووجدت نقوش بارزة على الباب الجنوبى للكرنك المعروف « بباب بسطة » للملك

شيشنق قلد فيها ملوك العهد القديم ، فرسم نفسه فاتكا بالآسيويين أمام آمون ، ورسم معبود طيبة هذا وزوجته معبودة طيبة يقدمان له عشرة صفوف من الأسرى يبلغ عدد أفرادها مائة وستة وخمسين فلسطينيا رمز بكل منهم لمدينة من المدن التي استولى عليها جلالته وكتب تحت كل رجل منهم اسم المدينة التي يمثلها ، ووردت بين هذه الأسماء بعض أعلام لمدن جاء ذكرها بالكتاب المقدس ألمعنا الى أهمها سابقا ٠

وفى سنة ٩٢٠ قبل الميلاد توفى شيشنق الأول وتولى بعده ابنه أوسركن الأول (Osorkon) زوج ابنـــة الملك بسيب خنو آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين ٠ وكان اعتلاء هذا الملك للعرش مطابقا للقوانين والعادات المتبعة ، وكانت المملكة التى ورثها هذا الملك عن والده غنية واسعة الثروة حتى تمكن جلالته أن يتبرع لمعابد مصر فى السنوات الثلاث الأولى من حكمه تقريبا بما ينيف على أربعمائة وسبعة وثمانين ألف رطل فضة ، ولما أضيف هذا المقدار الى ما تبرع به من الذهب بلغ المجموع خمسمائة وستين ألف رطل من المعدنين النفيسين ، وتعتبر هذه الهبات أعظم برهان على الغنى وبحبوحة الحياة بالقطر المصرى فى مبدأ الحكم الليبى ٠ وأراد أوسركن أن يدعم حكمه بامارة اهناسيا فشيد قلعة حصينة عند مدخل الفيوم واتبع سياسة والده فعين ابنه رئيسا لكهنة آمون بطيبة ٠ وقد توفى له نجلان عينا فى هذه الوظيفة وأخيرا عين نجله الثالث شيشنق أيضا فى هذه الوظيفة عينها ٠ وقد ظهر هذا النجل بمظهر الأبهة والجلال ونحل لنفسه الألقاب الفرعونية واحتفظ بمركز رئيس كهنة آمون لابنه ٠ وفى سنة ٨٩٥ قبل الميلاد توفى أوسركن بتل بسطه فورثه فى الملك ابنه تاكلوت الأول (Takelot) ٠ فلما اعتلى الأخير العرش وجد أخاه شيشنق بطيبة قويا شديد البأس معاديا له ، ثم توفى تاكلوت الأول بعد مدة يسيرة فتبعه فى الملك ابنه أوسركن الثانى الذى بسط نفوذه على طيبة ثانيا وأصلح التلف الذى أصاب معبد الأقصر اثر فيضان النيل العظيم وقتئذ ٠ ويستدل من دعــوات منقوشة على تمثــال لأوسركن الثــانى بتانيس أن حالة مصر الداخلية كانت وقتئذ خطيرة للغاية ، فقد جاء فى هذه الدعوات أن جلالته تضرع الى المعبود ليخلد ذريته فى الحكم ويمنحهم السلطة على رؤساء كهنة آمون رع ملك المعبودات وعلى رؤساء المشواش العظام ٠٠٠٠ أو كهنة حرشاف (Harsaphes) ، وهؤلاء الأخيرون هم أمراء ليبيون استوطنوا امارة اهناسيا واليهم ينتمى أوسركن الثانى ٠ ومما جاء أيضا فى هــذه الدعوات العبارة الآتى ترجمتها :

« اجعل أولادى فى الوظائف التى عينتهم بها ٠ ولا تجعل قلب أخ يكبر ويعظم على قلب أخيه » ، ومنها يستنتج أن أفراد الأسرة الحاكمة

كانوا يومئذ منشقين بعضهم على بعض ومتنافسين ، وأن قواد الجنود المأجورين كانوا دائما على استعداد لاثارة الفتن اذا أصابهم حيف أو رأوا في أنفسهم القوة الكافية لتحسين مركزهم ٠

ولا جدال في أن الحكام الليبيين تطبعوا تماما بالطباع المصرية ، فجد شيشنق الأول دفن ابنه بالعرابة واتبع العادات المصرية نحو الموتى فوقف على قبر ابنه الخيرات على حسب ما تقتضيه الديانة المصرية ٠ وبالرغم من احتفاظ الحكام الليبيين بأسمائهم الأصلية فانهم حافظوا على الألقاب والعادات الفرعونية التي ألفها المصريون لمدة تقرب من ألف وخمسمائة سنة ٠ أما القواد الليبيون فحافظوا على ألقابهم الليبية (كرئيس المشواش الأكبر) ، وقد اختصر هذا اللقب بعد ذلك فورد على الآثار بكثرة كرئيس مي (Me) الأكبر ٠ وعبد الليبيون المعبودات المصرية وقدموا لها القرابين كالمصريين وذلك رغم أنهم من البرابرة وأنهم شديدو المخالفة للمصريين ٠ وليس أقوى برهانا على تطبع هؤلاء القوم بالطباع المصرية من الفناء العظيم الذي شيده أوسركن الثاني بتل بسطه احتفالا بمرور ثلاثين عاما على تعيينه وليا لعهد المملكة المصرية جريا على عادة المصريين الأقدمين ، لكن هذا لا ينسينا الخطر الداخلي الذي أخذ يهدد الليبيين في تل بسطه ، فأخرج كثيرا من مركزهم ٠ وأشرك أوسركن الثاني ابنه شيشنق الثاني معه في الحكم لكنه لم يعش طويلا فأشرك معه ابنه الآخر تاكلوت لمدة سبع سنوات توفي بعدها فورثه تاكلوت وذلك عام ٨٦٠ قبل الميلاد ، وعرف هذا بعدئذ بالملك تاكلوت الثاني ٠

من هذا التاريخ أخذت الأسرة الثانية والعشرون تضمحل تدريجا كما يشاهد ذلك على آثار امارة طيبه التي تظهر بوضوح ما حصل بين حكام أقسام القطر وقتئذ من مشاحنات واضطرابات ٠ من ذلك أن رئيس كهنة آمون المدعو أوسركن لما وصل الى طيبة في السنة الحادية عشرة من حكم تاكلوت الثاني نقش على جدر الكرنك أعماله وعطاياه للمعبد باسمه الخاص ٠ لكن بالرغم من محاولته ارضاء أهل طيبه وكهنتها وما صرفه عليهم من الهبات والعطايا بمعبد تلك العاصمة الدينية فان أهالي طيبة قاموا عليه قيامة انتشرت بعد ذلك في الوجه القبلي والبحري هرب على اثرها هذا الرئيس الكهنوتي ولم يرجع الا بعد مضي عدة سنوات ، أمضأها في حرب ونزاع حتى اصطلح مع بعض أعوان والده ، وبذلك تمكن من الرجوع الى طيبة وسط أسطول نيلي عظيم ٠ عند ذلك قابله تمثال آمون في احتفال عظيم ثم أصدر أمره اللاهوتي بالعفو عن أهالي طيبه لما أتوه من ثورة وعصيان ٠ وبعد ذلك قام رئيس الكهنة بالاصلاحات والترميمات لمعبد آمون ٠

هذه المعلومات وردت مدونة بين نقوش رئيس كهنة آمون المذكور على جدر الكرنك وهى تشير الى أن حكم ثلاثة الملوك الليبيين الآخرين الحاكمين من تل بسطه كان مشحونا بالانقلابات والاضطرابات مدة مائة سنة تقريبا ٠ وقد تلفت تل بسطه تماما فلم نعثر فيها على أخبار تتعلق بهؤلاء الملوك ٠ وليلاحظ أن الاضطرابات الداخلية لم تنحصر وقتئذ على ما أوردناه سابقا بل تعدت ذلك ، فان امارتى اهناسيا وطيبة تشاحنتا أيضا بعضهما مع بعض ، كما تشاحن أيضا بعض القواد الأجانب بالوجه البحرى مع بعض ، وهكذا أصبح القطر المصرى وقتئذ فى حالة أشبه بما كان عليها أيام المماليك لما كانت الضرائب تفرض على أهالى كل بقعة وتجبى بالقوة فيثور القوم ثم يمتشق الحسام بمعونة الجنود المأجورين فيرجع الأمن الى نصابه ٠ ومن المؤكد أن نفوذ مصر بفلسطين وقتئذ انعدم ٠ ودلتنا الآثار أن ظهور مملكة نينوى الغنية العظيمة أفزع أحد ملوك تل بسطه ، وهو تاكلوت الثانى على الأرجح ، فأرسل هذا ألف مقاتل مددا الى اتحاد آسيا الغربى لمقاومة آشور ، لكن هذا الاتحاد ضعضعه شالمنصر (Shalmaneser) الثانى جهة قرقار (Qarqar) على نهر العاصى وذلك عام ٨٥٤ قبل الميلاد ٠

ولم نهتـــد للآن الى معرفة نـــوع العـــلاقة التى ربطت ثلاثة الملوك الآخرين الذين حكموا فى تل بسطه بعد تاكلوت الثانى ٠ أما هؤلاء الملوك الثلاثة فهم شيشنق الثالث وبمو (Pemou) وشيشنق الرابع ، والظاهر أنهم لم يرتبطوا بصلة ما بتاكلوت الثانى ، والمعروف عنهم أنهم احتفظوا بمنف وطيبه وأن أسماءهم وجدت فوق بعض الآثار فى عدة جهات بالقطر ٠ وقد هشم هؤلاء الملوك آثار مصر العظيمة بقسوة شديدة ، فحطم شيشنق الثالث تمثال رمسيس الثانى الضخم الذى كان بتانيس واستعمل أجزاءه أحجارا لتشييد صرحه العظيم بتانيس ٠ ولا حاجة بنا أن نذكر أن أمراء الوجه البحرى سعوا فى الاستقلال بالحكم فى عهد هؤلاء الملوك ، وأن عددا كبيرا منهم قطع علاقته السياسية معهم قبل وفاة شيشنق الرابع آخر ملوك الأسرة الثانية والعشرين (حوالى عام ٧٤٥ قبل الميلاد) ٠

ولمـــا توفى شيشنق الرابع ظهر بالدلتـــا أمـــير يدعى بدبست (Pedibast) بسط نفوذه على الأمراء الآخرين وانتزع الحكم من ملوك تل بسطه ، وقد اعتبره مانيتو مؤسس الأسرة الثالثة والعشرين ٠ قال مانيتو ان هذه الأسرة الجديدة حكمت من تانيس لكن اسم بدبست يشير بلا مراء الى تل بسطه عاصمة الأسرة المعزولة ، زد على ذلك أن هناك أسبابا تجعلنا نحكم بأن بدبست حكم من تل بسطه كما سيأتى الكلام بعد ، وعليه فلا يبعد أن تل بسطه كانت عاصمة القطر وقتئذ ٠ والمعروف أن بدبست قبض على ناصية الحال بطيبة حتى السنة الثالثة والعشرين من حكمه ،

لكنه ورد أنه اضطر فى السنة الرابعة عشرة من حكمه أن يقتسم الحكم هناك مع أحد حكام شرقى الدلتا المدعو يوبت (Yewepet) .

وبمتحف فيينا بردية تروى حكاية تشير الى حدوث قلاقل واضطرابات داخلية كالمذكورة ، سببها أمراء مصريون مثل بدبست ويوبت . ومما جاء فيه أن أمير تمى الأمديد المدعو كا أمنحتب (Kaamenhotep) ناضل أمير عين شمس الأجنبى المدعو بمو (Pemou) ، لأن الأخير استولى على درع حديدى ثمين ملك الأول . وقد عجز بدبست عن حقن الدماء بين أمراء الدلتا الذين أخذوا ينتمون الى أحد هذين الأميرين على حسب ما يتراءى لهم (٣) .

ولما تولى أوسركن الثالث الملك بعد بدبست أخذت داخلية القطر تسوء فانقسمه البلاد الى عدة امارات صغيرة مستقلة من الوجه البحرى شمالا الى الأشمونين جنوبا . وقد اهتدينا للآن الى أسماء ثمانية عشر أميرا تقاتلوا ، فتدهورت مصر وانقسمت البلاد بذلك الى عدة أقسام صغيرة كما كانت عليه قبل حكم الأسر ، أى قبل انشاء حكومة ثابتة وطيدة بالقطر المصرى .

لذلك شلت القوة المصرية وانعدم وجودها فلم يعد فيها رجاء لمساعدة بنى اسرائيل ضد آشور . والحق يقال ان نبوءات أنبياء بنى اسرائيل وقتئذ عن مصر لم تكن فى حاجة الى كثير تفكير ، لأن ضعف القطر المصرى وانحلاله كانا واضحين جليين .

وبلغ من شدة انشقاق أمراء مصر بعضهم على بعض أنه لما اقتربت جنود تجلات بليسر (Tiglath-pilaser) الثالث الآشورى من حدود مصر فيما بين عامى ٧٣٤ ــ ٧٣٢ قبل الميلاد عجز هؤلاء الأمراء عن اسداء أية معاونة لبنى اسرائيل ، كما أنهم لم يفكروا مطلقا فى قرب ميعاد مجىء جيوش آشور وجواز عبورهم الصحراء الفاصلة مصر عن فلسطين واحتمال ضم مملكة وادى النيل الى آشور . ولكن شاء القادر أن يعتلى عرش مصر قوم أجانب آخرون قبل أن تضرب آشور ضربتها القاضية على بلاد الفراعنة الأماجد .

---

(٣) Wiener Zeitsch. für die Kunde des Morgenlandes, XVII, sequel to Mitth. aus der Sammel der Pap. Erzherzog Rainer, VI, 19 ff.

الفصل السادس والعشرون

سيادة النوبة على مصر وانتصار آشور

استمرت مصر تحكم النوبة مدة تنيف على ألف وثمانمائة سنة ٠ أما ما بين الشلالين الأول والثانى فبقى تحت الادارة المصرية مدة تقرب من ألف سنة ٠ وقد تقدم القول الى أن تلك البلاد انصبغت بالصبغة المصرية تماما فشيد بكل مدينة فيها معبد مصرى عظيم وعبدت بها المعبودات المصرية فى عهد رمسيس الثانى ٠ وبالرغم من محافظة أهالى النوبة على لغتهم،فان اللسان المصرى صار اللغة الرسمية وقتئذ بتلك البلاد وازداد انتشارا بين الأهالى بزيادة هجرة المصريين اليها ٠

منذ ذلك الحين فقه النوبيون الى أهمية بلادهم وكثرة خيراتها خصوصا لما رأوا المصريين يثمرون أعالى النوبة الخصبة ويستغلون مناجم الذهب بأسفل النوبة ٠ زد على ذلك أن موقع بلادهم الجغرافى على الطريق التجارى العظيم بين مصر والسودان أوضح للنوبيين مع الأسباب السالفة عظم شأن بلادهم فأخذوا يبحثون عن حقوقهم الشرعية فيها ٠ وليلاحظ أن الغارات العرضية التى شنها زنوج أفريقية وغربى الصحراء الشرقية على النوبة لم تؤثر مطلقا فى نمو البلاد ورقيها اقتصاديا ٠

والمعروف أن شيشنق الأول حافظ على النوبة ، كما ورد أن رئيس كهنة آمون فى النصف الأخير لحكم تاكلوت الثانى وهب الى آمون ذهب النوبة ولذلك يرجح أن اقليم الشلالات استمر تحت النفوذ المصرى حتى منتصف حكم الأسرة الثانية والعشرين (أى حوالى سنة ٨٥٠ قبل الميلاد)٠ وقد ذكرنا فيما سبق أن النوبة كانت على اتصال تام بطيبة ومعبد آمون مدة طويلة من الزمن ، مثال ذلك أن معبد آمون كان صاحب الحق فى مناجم الذهب النوبية التى سميت وقتئذ « أرض آمون الذهبية » ابتداء من نهاية حكم الأسرة التاسعة عشرة ٠ وفى أواخر الأسرة العشرين أصبح

رئيس كهنة آمون حاكما على النوبة · وفى عهد الأسرة الحادية والعشرين كانت الامارة الدينية بطيبة تشغل هـذه الوظيفـة الرفيعة أيضـا · بهذه الطريقة أخذ حكام طيبة يبسطون نفوذهم على النوبة مائة سنة منذ أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد · بعد ذلك وضع المصريون يدهم بقوة على ذلك الاقليم مائتين وخمسين سنة · ولبعد النوبة عن مصر اتخذت منفى للعصاة وذلك فى عهد الأسرة الحادية والعشرين التانيسية لما أبعدوا اليها أمراء طيبة المنافسين لهم والذين أفرجوا عنهم بعد ذلك · وفعل تاكلوت الثانى هذا العمل أيضا مع ثوار طيبة ثم عفا عنهم بناء على طلب آمون · من هذا يتضح أن شلالات النوبة كانت حاجزا حصـينا لكل من يلتجىء اليها من طائفة كهنة طيبة وأفراد أسرهم فرارا من قسوة وعسف المصريين·

وبما أن مثل هذا الفرار لا يسجل عادة على الآثار نستبعد حصولنا على معلومات بصدده · والمعروف أنه فى القرن الثامن قبل الميلاد ظهرت فى أفق التـــاريخ بالنوبة مملكة كاملة عاصـــمتها نبتـه (Napata) أسفل الشـــلال الرابع بقليل · وبدهى أن نبته كانت حصـنا من حصون حدود مصر الجنوبية أيام أمنحتب الثانى ـ أى قبل العصر الذى نحن الان بصدده بسبعمائة سنة تقريبا ـ وقد كانت قبل ذلك الوقت محطة تجارية عظيمة على الطريق الموصل مصر بالسودان ، لذلك كانت نبته أبعد المراكز فى المملكة المصرية وآمنها من هجمات الشمال ·

وليلاحظ أن المملكة النوبية المذكورة جاءت مطابقة تماما لما ذكرناه عن أصلها فقد كانت بمثابة صورة طبق الأصل لامارة آمون الطيبية وكان آمون معبود هذه المملكة الرسمى شديد التدخل فى شؤون حكومتها بخطبه الخاصة وبدرجة فاقت تدخله فى مصر حتى صار يعزل الملوك ويولى غيرهم، ولا يخفى أن مثل هذا النظام حصل تدريجا · واعتقد اليونانيون خطأ أن اثيوبيا سبب حضـارة مصر لأنهم شـاهدوا كهنة مصر كثيرى الاعتبـار والاعجاب بالنوبة · ومما هو جدير بالذكر أيضا أن ملك اثيوبيـا نحل لنفسه جميع الألقاب الفرعونية « كسيد القطرين » مع أنه لم يحكم مصر ، كما أنه أطلق على نفسه اسما مصريا ، لكن ذلك لم يدم طويلا لأنه استبدل به بسرعة اســما نوبيـــا صميماً وبقى الاســم الرسمى الملكى والألقاب الفرعونية مستعملة مدة طويلة · وشيد ملوك اثيوبيا معابدهم على الطراز المصرى وزينوها بالرسوم المصرية والنقش الهيروغليفية وقدموا فيها قرابين وهدايا كما فعل قدماء المصريين · ثم انهم زخرفوا جدر المعابد بالدعوات كمعبد طيبة ، فثبت بذلك بلا مراء أن هذه المملكة النوبية مصرية الأصل مصـــبوغة بالصـــبغة الطيبيـــة · وبالرغم من ذلك فهناك بعض الأثريين لا يشاطروننا هذا الاستنتاج ·

وأول من عرف من ملوك هذه المملكة هو كاشــــتا (Kashta) ويرجع تاريخه الى أوائل القرن الثامن قبل الميلاد · ولا نعرف شيئا من حكم هذا الملك ولا منتهى نفوذه شمالا · والظاهر أن بيعنخي (Pienkhi) نجل هذا الملك حكم حوالى عــام ٧٤١ قبل الميــلاد وأخذ يستعمر مصر · وسواء أكان هذا صحيحا أم غير صحيح فالثابت أن بيعنخي استولى حوالى عام ٧٢١ أو ٧٢٢ قبل الميلاد على صعيد مصر حتى مدينة اهناسيا جنوبى الفيوم ووضع جنــوده النوبيين فى المدن المهمة · وفى هذا الوقت كانت سلطة أوسركن الثالث المستوطن بتل بسطة منحصرة فى امارته ومحاطة بأعــداء كثيرين من أمراء الوجه البحــرى أهمهم تفنخت (Tefnakhte) أمير صا الحجر غربى الدلتا ·

وفى الســنة الحاديــة والعشرين من حكم بيعنخي بلغه أن تفنخت أخضع كل أمراء غربى الوجه البحرى كلهم وشاطىء الصعيد الى مدينة بنى حسن وبسط نفوذه أيضا على أمراء شرقى الدلتا ووسطها فأصبح بذلك ملكا على جميع الوجه البحرى والجزء الأسفل من الوجه القبلى ·

ولم يقاومه فى الوجه القبلى الا امارة اهناسيا التى أشرنا الى قوتها وسلطانها ، فحاصرها تفنخت بجنوده وبامدادات حربية من أمراء الدلتــا تحت قيادتهم الشخصية ، فاتضح لبيعنخي وقتئذ أن ميزان القوى بالوجه القبلى اضطرب فصمم جلالته أن يستدرج عدوه جنوبى مستنقعات الدلتا الحصينة الصعبة ·

بعد ذلك بلغ بيعنخي أن ناملوت (Namlot) أمير الأشمونين سلم الى تفنخت فارســل بيعنخي جيشا قويــا تحت قيادة ضباط الى الجهات الشمالية بقصــد وقف تقدم تفنخت جنوبا وحصــار الأشمونين ، فنفذ جيشه هذه الأوامر · ثم أرسل الملك جيشا ثانيا الى الشمال لمساعدة قواته هناك فوصــل الى مدينة طيبة ثم سار شمالا فتقابــل مع أسطول تفنخت النيلى واشتبك الفريقــان فى معركة حربية انتهت بهزيمة المصريين وأسر كثير من ســفنهم ورجالهم · بعد ذلك زحف النوبيون شمالا متبعــين فى سيرهم بحر يوسف (على الأرجح) حتى بلغوا مدينة اهناسيا فوجدوا قوات تفنخت منهمكة فى حصارها فهزموا تلك القوات واضطروها للفرار شمالا برا وبحرا · وقد فر جنود تفنخت الشماليون عن طريق بحر يوسف فاقتفى أثرهــم الجيش النوبى فى الصــباح التالى واضطرهــم للفرار الى الدلتــا ·

وكان ناملوت منضما الى قوات تفنخت فلما انهزم هذا الأخير انفصل عنه وصمم على الذهاب الى الأشمونين مدينته والدفاع عنها ضد النوبيين·

فبلغ هذا الخبر القوات النوبية فعادت هذه ثانية عن طريق بحر يوسف الى الأشمونين وحاصرتها ٠

ولما بلغت بيعنخي هذه الأخبار استشاط غيظا خصوصا لما علم بهرب جيش الوجه البحرى الى الدلتا ٠ ولما كان وقتئذ آخر السنة عزم جلالته على الاحتفال بعيد رأس السنة في بلده ثم الذهاب الى طيبة للاحتفال فيها بعيد أوبت وذلك فى الشهر الثالث ثم الزحف شخصيا على مصر ٠ فى أثناء ذلك كان قواد النوبيين يستولون على مدن مصر الواحدة تلو الأخرى وأهم هذه المدن البهنسه (Oxyrhyncus) ولم تقـــاومـهم الا مدينة الأشمونين التى استمرت فى عنادها كثيرا ٠

ونفذ بيعنخي خطته السالفة فزحف بجنده شمالا فى أوائل السنة واحتفل بعيد أوبت بطيبة فى الشهر الثالث ، ثم ولى وجهه شطر الشمال وسار نحو الأشمونين فوجد جنده يحاصرونها مدة أربعة أشهر أو خمسة، وشدد جلالته عليها الحصار وأمطرها وابلا من السهام والحجارة من فوق الاستحكامات والبروج حتى تصاعدت الروائح الكريهة من موتاها فأخذت تسلم الى جلالته ٠ وأراد أميرها أن يرضى قلب بيعنخي نحوه فأرسل اليه هدايا ثمينة ضمنها تاجه الملكى ، لكن بيعنخي كان صلب الرأى فأرسل ناملوت زوجته الى زوجة بيعنخي لتسترحمه لزوجها ونجحت هذه الحيلة وسلم ناملوت على أثرها المدينة وجمـــع خيراتها الى الفاتح النوبى نظير السماح له بالبقـاء حيـا ٠ بعد ذلك تفقد بيعنخي قصر ناملوت وخزائنه وتفقد الخيل فرآها جائعة فقال جلالته : « أقسم برع الذى يحبنى لئن أرى خيلى جائعة ليكونن هذا أصعب على من كل جرم ترتكبه » ٠ بعد ذلك سلم ناملوت كل أملاكه الى خزائن بيعنخي وآمون المقدس ٠

ووصل بيعنخي الى اهناسيا بعد ما ذاقت الأمرين من حصار تفنخت لها فخرج أميرها المدعو بف نف دبست (Pefnefdibast) وحيا بيعنخي ومدحه كثيرا على تخليصـه من تفنخت ٠ ثم زحفت القوات النوبية بحرا بطريق بحر يوسف الى الدلتا واستولت فى طريقها على المدن المهمة الغربية التى كانت تسقط بمجرد رؤية بيعنخي ٠ ولم تتجاسر مدينة على مقاومة النوبيين الا مدينـة كيمـان فارس فى الفيـوم (Crocodilopolis) ، ومنه استنتجنا أن بيعنخي عدل خط سيره فزحف غربـا مارا باللاهون بمضـيق الفيـــوم ولم يذهب الى مدينة أطفيـح (Aphroditopolis) شرقى النيـل والبعيدة عن الطريق الموصـل الى ميـدوم واثتوى ومنف ٠ وقدم ملك النوبة القرابين لكل مدينة مر بها وأخذ معه كل ثمين لتقديمها الى خزانة آمون ٠

وبلغ بيعنخي منف فوجـدها محصنة جيـدا بقوات تفنخت الذى اعتبرها جزءا من مملكته منذ زمن بعيد والذى اعتبر نفسه كاهن معبودها الأكبر بتـاح ، فطلب بيعنخي من المدينة أن تسـلم نفسها لكنها أقفلت أبوابها ثم قامت حاميتها بحركة هجوم خارجا فلم تنجح . فجن الليـل ودخـل تفنخت المدينة وحث حاميتها على الدفاع والاعتمـاد على جـدرها ومئونتها الكثيرة وارتفاع مياه فيضان النيل شرقى المدينة . وطلب من جنـده هناك أن يستمروا على الكفاح حتى يذهب شـمالا ليحضر اليها امدادات أخرى .

ولما وصل بيعنخي شمالى منف دهش لمتانة حصونها ، فأشار عليه حينئذ بعض ضباطه أن يحاصرها وحبذ الآخرون الهجوم والاستيلاء عليها عنوة وذلك باقامة استحكامات وطرق خصوصية . لكن بيعنخي صمم أن يهجم عليها عنوة بلا استحكامات وابتكر لذلك فكرة صائبة تشـهد له بالبراعة فى الفنـون الحربية . وتفسـير ذلك أن جلالته لاحظ أن سور المدينة الغربى رفع عن مسـتواه حديثا وأن السور الشرقى مهمل نوعا ومحاط بمياه الفيضان . أما ميناء البلد ففى جهتها الشرقية وفيها سفن الأسطول مثبتة بجدر المنازل نظرا لارتفاع منسوب المياه وقتئذ . فأرسل بيعنخي أسطوله بسرعة الى الميناء واستولى على سـفنها عنوة وضمها الى أسطوله ثم قاد هذه القوة البحرية بنفسه وهاجم أسوار المدينة الشرقية وتسـلقها رجاله فاستولوا على المدينة قبـل أن يتمكن أهلها من تعزيز حصونها . بعد ذلك حصلت فى المدينة مذبحة عظيمة روعيت فى أثنائها حرمة المعابد وانتهت بنبذ تفنخت بواسطة المعبود بتاح والاعتراف ببيعنخي ملكا على مصر كما كان منتظرا .

هكذا خضع اقليم منف بأجمعه الى بيعنخي وعلى اثر ذلك أتى أمراء الدلتا الى جلالته بالهدايا معترفين له بالسلطة والسيادة ، وجزأ جلالته خيرات منف بين خزائن آمون وبتاح . ثم عبر النهر وأدى الصلاة بمعبد قديم ثم اتبع الطريق المقدس من هناك حتى بلغ مدينة عين شمس حيث استراح بمرفئها . وجاء فى أخبار جلالته الرسمية أنه دخل قدس الأقداس بمعبد عين شمس وهناك اعترف به رع بأنه ابنه من سلالته الجالس على عرش مصر كالعادة المتبعة منذ حكم الأسرة الخامسة . ووفد على جلالته فى ذلك المكان أوسركن الثالث (أمير تل بسطة) المنتمى الى الأسرة الثالثة والعشرين وقدم الطاعة لبيعنخي واعترف له بسـيادة النوبة على مصر . ثم زحف بيعنخي الى شرقى بنها (أتريب) بالقرب من مدينة تعرف باسم كهنى (Keheni) وهناك أقبل عليه أمراء الدلتا مظهرين له الولاء والخضوع وكان عددهم خمسة عشر أميرا وهم أوسركن الثالث (وكان موجودا فى

قبل) والأمير يوبت المسيطر على اقليم تنت رمو (Tentremu) شرقى الدلتا والمشترك سابقا مع بدبست سبق أوسركن الثالث فى حكم طيبة وتسعة أمراء مسيطرين على أقاليم تمى الأمديد (Mendes) وسمنود (Sebennytos) وسفط الحنة (Saft el-Henneh) وأبو صير (Busiris) وحسبكا (Hesebka) وهم القسم الحادى عشر للوجه البحرى) وفجروريوبوليس (Phagroriopolis) وخريجا بابل (Khereha-Babylon) وغير ذلك من مدن الدلتا المجاورة التى لم نعرف مواقعها للآن بالضبط · بعد ذلك حضر قائد قوات الأشمونين الأجنبى المدعو بارفا (Parva) بن أمير تمى الأمديد وكذا كاهن المعبود حورس الذى أسس امارة أوسيم (Letopolis) كما أسس كهنة اهناسيا الأسرة الثانية والعشرين · وامتاز بين هؤلاء الأمراء بنها المدعو بديس (Pediese) فأظهر احتراما واكراما عظيمين لبيعنخى ودعاه لزيارة بنها واضعا كل أملاكه تحت تصرف جلالته ، فذهب جلالته على أثر ذلك الى بنها وتسلم هدايا بديس مختارا لنفسه أجودها ، ثم دعاه الأمير لتفقد اصطبلات أجود خيله لعلمه بحب بيعنخى للخيل · وسمح بيعنخى هناك لأمراء الدلتا بالذهاب الى أقاليمهم (الا أمير بنها طبعا) واحضار الهدايا لجلالته ليتباروا فى ذلك مع ما قدمه بديس ·

أما تفنخت البائس فتحصن فى مدينة صغيرة مجهولة المركز تعرف باسم مسد (Mesed) يظن أنها على حدود صا الحجر · وخاف تفنخت من وقوع سفنه وخيراتها فى أيدى النوبيين فحرقها فأرسل بيعنخى قوة حربية الى مسد فتكت بحاميتها كلها ، واضطر تفنخت اثر ذلك الى أن يلجأ الى جزيرة بعيدة بأحد أفرع النيل الغربية حيث تفصله عن بيعنخى أميال عديدة من المستنقعات والترع فكانت كأنها محصنة · ثم أرسل تفنخت من هناك هدايا ورسالة الى بيعنخى أظهر له فيها الخضوع وطلب منه أن يرسل رسولا من قبله يذهب معه الى معبد مجاور يحلف فيه يمين الطاعة لجلالته ، فسر بيعنخى من ذلك كثيرا وهكذا اعترف تفنخت بسلطة بيعنخى طائعا مختارا · ثم ظهر أمير الفيوم وأمير أطفيح (Aphroditopolis) (اللذين لم يتعرض لهما جلالته بأذى وقت زحفه شمالا) وأحضرا معهما الهدايا لبيعنخى ، فأصبح هذا الأخير فرعون مصر النوبى الذى خضعت له جهات القطر كلها والذى نزع الملك من أيدى الليبيين ، وبعبارة أخرى أضحى بيعنخى حاكم مصر المطلق ·

وتشرف أمراء الوجه البحرى بزيارة بيعنخى لآخر مرة ثم شحن جلالته سفنه بالهدايا والغنائم العظيمة قاصدا عاصمته الجنوبية فى وسط تحيات الأهالى وهتافهم العالى ·

لقد أطلنا الكلام على هذه الغزوة لأنها تظهر لنا بأجلى وضوح أحوال مصر وقتئذ وهي سنة طبيعيه لتمزيـق شمل مصر كلما ضـعفت سلطة حكومتها المركزية وزاد نفوذ حكام أقسامها ، ومثل هذه الظروف تنتهى غالبا باستقلال الأقسام واغتصاب العرش ٠

ولما وصل بيعنخى نبته نصب بمعبدها شاهدا جرانيتيا بديعا نقش على جهاته الأربع أخبار هذه الرحلة تفصيلا ، وأظهر نفسه فيه كابن آمون ومذل أعدائه الشماليين ، ويعتبر هذا الوصف أتقن وأصح بيان تاريخى وحربى قديم بعد أخبار حروب تحوتمس الثالث ووصف معركة قـادش لرمسيس الثانى ٠ ويتضح من وصف الحجر المذكور أن حالة مصر كانت سيئة للغاية ٠ ولما كان النص الهيروغليفى المكتوبة به نقوش هذا الحجر خاليا من الأسلوب الجاف المتبع عادة فى مثل هذه الظروف فان القارىء يجد سهولة عظيمة فى فهم ومتابعة معانى الأثر وادراك أفعال أشخاصها ، كما تتضح له أيضا شهامة بيعنخى وحبه للخيل وظهوره بمظهر الرجال خلافا للعادة القديمة التى تظهر الملوك بمظهر الآلهة ٠ وهذا اللوح الجرانيتى هو مرجعنا الوحيد وأصل معلوماتنا عن غزوة بيعنخى للقطر المصرى ٠

لم يخضع تفنخت لبيعنخى الا اسميا لأنه ترقب رحيل ذلك النوبى ليجدد عداءه ، فأنشـأ فى الوجه البحرى مملكة مستقلة ونحـل لنفسه الألقـــاب الفرعونية وبقى حاكما على أمراء الدلتــا ثمانى سنوات كما فعل أسلافه وقت حكم الأسرة الثانية والعشرين ٠ وكان تفنخت هذا معاصرا لآخر أيام الأسرة الثالثة والعشرين المستوطنة تل بسطة والتى يرجح أنها خضعت لارادته وحكمه ٠

والمعروف عن تفنخت أنه كان رجلا عظيما ذا ميزات كثيرة على أمراء الوجه البحرى ولذلك رفع منزلة صا الحجر كثيرا ٠ فلما توفى ورثه فى الملك ابنه بوكوريس (Bocchoris) مؤسس الأسرة الرابعـة والعشرين الصاوية وذلك حوالى عام ٧١٨ قبل الميلاد ٠

أما فى الصعيد فقد استمر حكم بيعنخى مبسوطا مدة قصيرة أقام فى أثنائها بعض عمارات طفيفة بمعبد موت بطيبة ونقش رسوما تمثـل أسطوله فى النيل مبديا فرحه بالانتصارات التى حازها على الأرجح فى الجهات الشمالية ، وتشاهد بين وحداته سفينة تفنخت الصاوية الرسمية التى أسرت فى تلك الحرب ، ومنه يتضح أن نفوذ بيعنخى استمر باقيـا على صعيد مصر الى مدينة اهناسيا ٠ ودلتنـا النقوش السالفة أن حاكم اهناسيا كان قائد الأسطول النيلى لبيعنخى ٠

وطمع بيعنخى فى خيرات آمون فحاول الاستيلاء عليها بطريق شرعى، فعين أخته أمنارديس (Amenardis) فى منصب زوجة الاله آمون(١)، بعد أن أجبر ابنة أوسركن الثالث المدعوة شب نوبت (Shepnupet) زوجة الاله وقتئذ على تبنيها ، والظاهر أن هذه الحيلة لم تكن الأولى من نوعها لجواز تعدد حصول أمثالها سابقا • ولما انسحبت قوات بيعنخى اجتهد أوسركن فى ارجاع سلطة أسرته الثالثة والعشرين فبسط نفوذه على طيبة مدة يسيرة وأشرك معه فى ذلك حاكما يدعى تاكلوت الثالث • والظاهر أن حكم بيعنخى وما قام به من الأعمال حصل فى عهد أوسركن الثالث • لكن أمراء صا الحجر أخذوا ينافسون تل بسطة فى الحكم فاغتصب بوكوريس بن تفنخت الصاوى عرش مصر السفلى حوالى عام ٧١٨ قبل الميلاد وأسس بذلك الأسرة الرابعة والعشرين ، وصار بعد ذلك الملك الوحيد لهذه الأسرة بقدر ما تسمح لنا به معلوماتنا عن تلك العصور • أما الآثار المصرية فلم تفدنا كثيرا عن حكم هذا الملك القصير وكل ما وصل الينا هو لوح حجرى وجد بالسرابيوم يرجع تاريخه الى السنة السادسة من حكم بوكوريس أقيم وقت الاحتفال بدفن ثور آبيس بتلك المقبرة • وجاء فى رواية يونانية لا شك فى صحتها أن هذا الملك كان عادلا مجتهدا فى تنقيح القانون ساهرا على الحق بكل قواه ، ولا غرابة فى ذلك فأحوال البلاد الداخلية وقتئذ كانت سيئة للغاية تتطلب أمثال هذه المجهودات • ومن غرائب تاريخ هذا الملك ما ورد فى بردية مؤرخة فى السنة الرابعة والثلاثين من حكم الامبراطور الرومانى أوغسطس ، من أنه فى السنة السادسة من حكم الملك بوكوريس نطق كبش متنبئا بغزوة آشور لمصر قائلا ان المحن ستظل حالة بمصر تسعمائة سنة (٢) ، ويعتبر هذا التنبؤ آخر ما عرف من مثله فى التاريخ القديم ، أما أقدم تنبؤ ورد لنا من هذا القبيل فهو ما أشرنا اليه سابقا لما تكلمنا على ابور (Ipuwer) أيام المملكة الوسطى • وعلق مانيتو على حادثة هذا الكبش أهمية كبيرة واعتبرها شيئا مدهشا فى تاريخ الملك بوكوريس •

لايخفى على القارىء أن مصر ظلت محكومة بأمراء الأقسام العديدين مدة تزيد على قرن ونصف تقريبا • وبدهى أن انحلال السلطة المركزية الحكومية صحبه اضمحلال عظيم فى المالية فانعدمت بذلك تجارة مصر مع البلاد الأجنبية ، وانحطت الزراعة والصناعة وأصبحت موارد الخيرات فى

---

(١) منصب دينى حاول به الفراعنة الحد من طغيان نفوذ كهنة آمون رع ، وكانت الزوجة تختار من بنات الملوك ولا يحق لها الزواج وتختار قبل وفاتها فتاة تتبناها حتى تخلفها فى المنصب ـ (المحرر) •

(٢) Krall, in Festgaben für Büdinger. Innsbruck, 1898.

أيدى الأمراء يبتزونها لأغراضهم الشخصية · ثم أخذت أنظمة الزراعة تتلف تدريجا وكذا الطرق والجسور وانعدم الأمن فى المدن والحقول وهكذا انتقلت موارد ثروة البلاد من سيىء الى أسوأ · وبدهى أنه لا ينتظر أن نعثر على اثبات تاريخى لهذه الأحوال لعدم جواز تسجيل مثل ذلك وقتئذ ، ونحن نستنتج ما قلنـاه مما لحق القطر فى العصور التـالية · وأصدق رواية لذلك ما جاء بالكتاب المقدس عن حال مصر وقتئـذ ، فقد جاء فى الاصحاح التاسع عشر من سفر أشعيا ما يأتى :

١ ــ وحى من جهة مصر · هو ذا الرب راكب على سحابة سريعـة وقادم الى مصر فترتجف أوثان مصر من وجهه ويذوب قلب مصر داخلها ·

٢ ــ وأهيــج مصريين على مصريين فيحارب كل واحد أخـاه وكل واحد صاحبه مدينة مدينة ومملكة مملكة ·

٤ ــ وأغلق على المصريين فى يد مولى قاس فيتسـلط عليهم ملك عزيز يقول السيد رب الجنود ·

١٠ ــ ان رؤساء صوعن (تانيس) أغبياء · حكماء مشيرى فرعون مشورتهم بهيمية ·

٣ ــ رؤســاء صوعن (تانيس) صاروا أغبيــاء · رؤســاء نوف (نبته ؟) انخدعوا · وأضل مصر وجوه أسباطها ·

١٤ ــ مزج الرب فى وسطها روح غى فأضلوا مصر فى كل عملها كترنح السكران فى قيئه ·

١٥ ــ فلا يكون لمصر عمل يعمله رأس أو ذنب ، نخلة أو أسلة ·
بدهى أن هذا الوصف لا يمكن أن يؤتى بأصدق منه دقة ومتانة ·

فى أثناء هذه الاضطرابات الداخلية أخذ فن الحفر فى مصر يتقدم فى طريق جديد بدرجة مدهشة · ومثل هـذا التقدم فى الفنون الجميلة حصل فى أيام الاضطرابات فى عهد أسرة مديتشى فى ايطـاليا فعم هذا التقدم ايطاليا عموما وفلورنسا خصوصا حتى استرعى الألباب · ثم ان القارىء الذى تتبع تاريخ المماليك بمصر يجد أن عهدهم المصحوب بفوضى اضطرابات وجنايات من قتل وسلب وحيف عمومى بأنحاء القطر ، كان أيضـا مقرونا بتقدم عظيم فى عمارة المساجد · والحقيقة أن العمـارات النوبية تحدث الناس بجمالها وقتئذ · ففى ظروف كهذه فى العصر الذى نحن الآن بصدده تقدم فن الحفر تدريجا حتى بلغ أعظم درجاته فى عهد الاصلاح الذى تلاه بعد مضى خمسين سنة تقريبا ذاقت مصر فى أثنـائها مرارة حـكم الأجنبى وعسفه · وبدهى أنه لم يبق من هـذه العمارات

الا القليل كالهيكل الصغير الذى شيده أوسركن الثالث بطيبة حيث يحوى رسوما بارزة لا ينقصها الا رقى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حتى تصبح أعظم وأرقى ما تخرجه أيدى الصناع الشرقيين ٠

فى ذلك الوقت عصفت ريح التغيرات الآسيوية المذكورة آنفا بسرعة وصارت مصر من أجلها محفوفة بأعظم المخاطر ٠ وتفصيل ذلك أن مملكة الفرات القوية بذلت جهدها لتحتفظ بسيادتها على غربى آسيا ٠ وقد ألمعنا سابقا أن نسوبانبدد الذى يرجع تاريخه الى حوالى سنة ١١٠٠ قبل الميلاد كان أول فرعون تانيسى أرسل الهدايا الى تجلات بليسر الأول لما اقترب هذا الأخير من حدود مصر ٠ وبعد مضى مائتين وخمسين سنة تقريبا أمد فرعون مصر اتحاد ولايات آسيا الغربية بمساعدة حربية لسحق قوى شالمنصر (Shalmaneser) الثانى جهة قرقار (Qarqar) وذلك حوالى عام ٨٥٤ قبل الميلاد ٠ فلما أتى دور تجلات بليسر الثالث فى الحكم بآشور جمع موارد مملكته وشن الغارة على غربى آسيا فأخضع سوريا وفلسطين فيما بين سنة ٣٧٤ وسنة ٧٣٢ قبل الميلاد ووصلت جنوده الى حدود مصر ٠ وقد سقطت وقتئذ مملكة دمشق الآرامية فأصبح غربى آسيا تابعا لآشور بأجمعه ٠ وتوفى تجلات بليسر الثالث فتبعه فى الملك شالمنصر الرابع الذى حكم مدة قصيرة ثار فى أثنائها بنو اسرائيل وغيرهم بمساعدة ملك سوا (Sewa or So) الوارد ذكره فى الآية الرابعة بالاصحاح السابع عشر من سفر الملوك الثانى ٠ ولا يبعد أن يكون سوا هذا أحد أمراء الوجه البحرى المجهولين أو حاكما لولاية موصرى (Musri) شمالى بلاد العرب واسمها شبيه باسم مصر ، ولذلك حصل كثير من سوء الفهم لنصوص تلك الأزمنة ، ولا يبعد أن يكون قد وقع فى هذا الخطأ كتاب النصوص المسمارية السابقة الذكر ٠ وقاومت مدينة السامره (Samarie) سنوات قبل غزوة آشور ، لكن لما جلس سرجون (Sargon) الثانى العظيم عام ٧٢٢ قبل الميلاد على عرش آشور بعد شالمنصر الرابع استولى على هذه المدينة ثم نفى رؤساء بنى اسرائيل فلحقت الأمة اليهودية وقتئذ الذلة والمسكنة ، وفى تلك اللحظة أيقن أمراء مصر الصغار بعجزهم عن مقاومة آشور فأوقدوا نار الثورة والاضطراب ضد آشور فى ولايات سوريا وفلسطين لجعلها حاجزا بينهم وبين آشور ٠ وفى سنة ٧٢٠ قبل الميلاد ظهر سرجون للمرة الثانية غربى آسيا وأخضع ثورة هناك كانت لمصر يد فيها على الأرجح ، ثم أكمل انتصاره شمالا ثم زحف جنوبا نحو رفح (Raphia) - حيث هزم جنود أعدائه وكانت بينهم وحدات مصرية تحت قيادة الضابط سبعى (Sab'i) (٣) ٠ وهذه هى المرة الثانية لوصول

---

(٣) Winckler, Unters : zur Altoriental. Geschichte, p. 92.

الآشوريين الى حدود مصر ولذلك أيقن أمراء مصر وقتئذ بالمهالك . والظاهر أن تجلات بليسر الثالث وسرجون الثانى لم يستوليا على مصر لما لهذه الأخيرة من التاريخ القديم المجيد ، كانت آشور فى أثنائه تقدم الهدايا لمصر رغبة فى التخلص من حكمها . لكن حالة مصر الداخلية السيئة أصبحت أظهر من أن تكتم فانقلبت الأحوال السياسية عندئذ . وجاء فى نصوص آشور أنه فى عام ٧١٥ قبل الميلاد أرسل فرعون مصر (يرجح أنه بوكوريس) هدية عظيمة الى سرجون الثانى طالبا بذلك رضاء آشور وتحويل مطامعها عن القطر المصرى (٤) . وبعد ما مضى على رجوع بيعنخى الى النوبة عشر سنوات أخذ ملوك نبته يسترجعون سلطتهم على الوجه البحرى الذى كان فى حالة بؤس وشقاء . والمعروف أنه لما توفى بيعنخى ورثه فى الملك أخوه شاباكا (Shabaka) الذى اقترن بابنته فصار له بذلك حق شرعى فى السدة الملكية علاوة على حقه الطبيعى من حيث مولده. ولم نهتد الى أخبار تاريخية مصرية تثبت غزو شاباكا لمصر ، لكن مانيتو ذكر أن هذا الملك أحرق بوكوريس حيا وبسط نفوذه على الوجه البحرى بأجمعه وقوى مركزه حتى أسس الأسرة الخامسة والعشرين الاثيوبية . واتضح لشاباكا خطورة مركز مصر ازاء آشور فأرسل الى سوريا وفلسطين من أوقد الثورة ضد آشور ، ووعد ولاة سوريا بالمساعدة اذا هم ثاروا على سيدهم النينوى ، فانصاع له ولاة يهوذا (Judah) وموآب (Moab) وادوم (Edom) ، ارتكانا منهم على مجد مصر القديم جاهلين انحطاطها الداخلى وقتئذ ومؤملين التخلص من الحكم الآشورى الشديد(٥).ولم يفقه من هؤلاء الولاة خطورة الحالة الا النبى السياسى أشعيا حاكم ولاية يهوذا، فقد أكد أن الاعتماد على مصر لا طائل تحته لأنه اعتقد أن آشور ستستولى على مصر يوما ما (٦) . ولما علمت آشور بهذه المحالفة ضدها أدركتها بسرعة فانفك المتحالفون وأظهروا ولاءهم لها فى الحال . وقد نجح سرجون فى توطيد مركزه رغم ثورات بابل واضطرابات الأقاليم الشمالية ، ثم توفى عام ٧٠٥ قبل الميلاد فتبعه فى الملك ابنه سناخريب (Sennacherib) فوجد نفسه حاكما على أول مملكة سامية معروفة لنا فى التاريخ مدعمة الأساس قوية الأركان .

ولما تولى سناخريب الملك اشتبك فى اخماد اضطرابات بابل المعتادة التى سببها أحد أمرائها المدعو مردوك بالبدن (Mardukhbaliddin) وتفصيل ذلك أن هذا الأمير طالب بعرش بابل وسبب لوالد سناخريب

---

(٤) Winckler, Ibid., p. 94.

(٥) Winckler, Ibid.

(٦) أشعيا : ٢٠ .

متاعب جمة ، فلما عجز عن بلوغ مآربه أرسل رسله الى أعداء آشور الغربيين يحرضهم على الثورة والعصيان . فانصاع اليه ملك صور النشيط المدعو لولى (Luli) وحزقيال (Hezekiah) ملك يهوذا وأمراء ادوم وموآب وعمون (Ammon) ورؤساء العرب المجاورين لهم . بهذه الكيفية انضمت جميع مستعمرات آشور الآسيوية الغربية بعضها الى بعض ، ثم دخلت مصر هذا التحالف وقر قرارهم أخيرا على محاربة نينوى . لكن قبل أن يبدأ هذا التحالف هجومه ظهر سناخريب فجأة بالغرب مارا بفينيقيا مستوليا على قلاعها ما عدا صور ثم زاحفا جنوبا على مدن فلسطين العامة ، فعاقب عسقلان على عصيانها ثم زحف على التاكو (Altequ) ، حيث التقى بجيش التحالف الذى جمعه شاباكا من الولاة الشماليين الذين عبر عنهم سناخريب بملوك موصرى ، ولم نهتد للآن الى معرفة عدد هؤلاء الجنود وقتئذ لكن سناخريب وصفها بأنها تفوق الحصر ، والمحتمل أنها لم تكن قوية جدا . أما الجنود المصريون الذين اشتركوا فى المعركة ، فلم يكونوا بأية حال من الأحوال جديرين بقتال جيش آشور لعدم وجود السلطة المركزية بالقطر ولتفوق كلمة أمراء الوجه البحرى وعدم اعتنائهم بأمورهم الحربية . أما الجيش الآشورى فكان مدربا محنكا لدرجة جعلت آشور الشغل الشاغل فى آسيا الغربية .

والحق يقال ان الجيوش المصرية لم تلتق للآن مع جيوش آشور فى معركة كبيرة . أما الامدادات التى أرسلتها مصر الى سوريا وفلسطين ضد آشور فكانت ضعيفة لا يعبأ بها . ولما التقت القوتان السالفتا الذكر كان سناخريب يقود شخصيا قواته ، وكان طهراقه (Taharka) بن بيعنخى موكلا من شاباكا لقيادة القوات المصرية . ولصيرورة طهراقه فيما بعد ملكا على اثيوبيا نعته اليهود فى هذه المعركة بملك . وبدهى أن المعركة التى دارت رحاها انتهت بهزيمة المصريين كما هو منتظر ، وقد تم هذا بسرعة ، ثم عقبه حصار بيت المقدس وتخريب مقاطعة يهوذا . بهذه الكيفية وقف سناخريب كل مشاحنات الغرب وشتت شمل أعدائه . وبينما هو يحاصر بيت المقدس فشا بين قواته وباء ذريع أتى اليهم من مستنقعات الدلتا الموبوءة بالملاريا فحصد من جيش آشور عددا عظيما . وفى أثناء تلك المحنة وردت على سناخريب أنباء سيئة من بابل تفيد حصول اضطرابات خطيرة هناك ولذلك أسرع الى نينوى قبل أن يستولى على بيت المقدس . وهنا تحققت نبوءة أشعيا بنجاة هذه المدينة وقد عللتها بعد ذلك رواية مقدسة بمساعدة ملاك السيد الرب .

ولا يخفى أن رجوع سناخريب جاء بمثابة انفراج للكربة الحالة ببيت المقدس ومصر معا . ولابد أن القارىء قد علم الآن أن جيش آشور وصل

للمرة الثالثة الى حدود مصر ثم رجع ثانيا مضطرا لظهور حوادث اجبارية لم تكن فى الحسبان · أما فلسطين وسوريا فقد انعدمت ثقتهم بأثيوبيا حتى صموا آذانهم عن كل مشروع أشارت به هذه الأخيرة عليهم ، والسبب فى ذلك أنهم عرفوا حقيقة الحال كما عرفها الاسرائيليون قبلهم ، ودليلنا على ذلك ما جاء بخطاب ضباط سناخريب الذى أرسلوه لنواب بيت المقدس التعساء واليك ترجمته :

« لقد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة ، على مصر ، واذا توكأ أحد عليها دخلت فى كفه وثقبتها · هذا هو فرعون مصر وهذا شأن المتكلين عليه » ·

ويظهر أن شاباكا ظل حاكما أمراء القطر المصرى طول حياته ، ويرجح أنه اتفق مع سناخريب فى مخالفة بدليل وجود ختمى هذين الملكين يجاور أحدهما الآخر على قالب لبن جهة كيونجيك (Kuyunjik) وأظهر شاباكا عطفا ومساعدة نحو طائفة الكهنة والمعابد · ومن مآثر هذا الملك ترميمه لنقوش دينية قديمه على جدر معبد بتاح تعتبر الآن أهم القطع الأدبية القديمة المعروفة ، ثم أرجع أخته أمنارديس فى وظيفتها السابقة بمعبد آمون بطيبة بعد ما طردها أوسركن الثالث لمدة قصيرة · ثم اتحد مع أخته هذه وشيد معبدا بالكرنك وأرسلا لذلك بعثة لقطع الحجر اللازم من محاجر وادى الحمامات·وتوجد بطيبة نقوش تشير الى اصلاح شباكا للمعابد هناك ولذلك يظهر أنه أظهر عطفا واحتراما لمعابد مصر كما فعل فراعنة مصر قبله · أما أمنارديس فحكمت فى طيبة مستقلة استقلالا كبيرا · والظاهر أنه بالرغم من المساعدة التى أسداها شاباكا لكهنة مصر ، فانه شل نفوذ رئيس كهنة طيبة كما سيجىء الكلام على ضعفه وعجزه بعد ·

وتوفى شاباكا عام ٧٠٠ قبل الميلاد بعد ما حكم اثنتى عشرة سنة تقريبا ، ويرجح أنه حكم أطول من ذلك فى النوبة · وتبعه فى الملك ملك نوبى يدعى شاباتاكا (Shabataka) مانزال نجهل علاقته بالبيت المالك النوبى بالضبط ، رغم ما أورده مانيتو من أنه ابن شاباكا ، وقد سماه مانيتو فى تاريخه سبيكوس (Sebichos) · وبقى شاباكا حاكما فى هدوء وسكينة لأن مستعمرات آسيا الغربية بقيت ساكنة لا تتحرك ضد آشور ، زد على ذلك أن سناخريب كان مشغولا فى حروبه مع مستعمراته الشرقية · ولم نعثر للآن على اسم شاباكا على الآثار المصرية الا نادرا ، وانما يستدل من الحوادث التى تلت حكمه أنه كان ضعيفا غير كفء لمكافحة أمراء أقاليم مصر وجمع قوتهم ، كى يستعد لقتال آشور الذى كان ينتظر حصوله آنا فآنا ·

لقد وضح للعيان أن الاثيوبيين ليسوا أكفاء لاستلام مقاليد الحكم ، وقد زاد هذا وضوحا في أواخر حكم شاباكا الذى انتهى حوالى عام ٦٨٨ قبل الميلاد ٠

ويجدر بنا في هذا المكان أن نستقصى أخبار الأمير طهراقة بن بيعنخى الذى ترك نبته شابا بالغا من العمر عشرين سنة وتوجه الى مصر مع الملك شاباكا على الأرجح – فنقول : ان طهراقة هذا ابن امرأة نوبية وتبدو على وجهه ملامح الزنوج ٠ والحق يقال ان هذا الأمير قام بأعمال عظيمة تناسب علاقته ببيعنخى ، من ذلك ما ذكرناه آنفا من أنه قاد الجيوش المتحدة ضد سناخريب٠أما كيفية جلوس هذا الأمير على العرش فما نزال نجهلها،لكن مانيتو أخبرنا أنه قاد جيشا جرارا من اثيوبيا وقتل شاباكا ثم اغتصب العرش الفرعونى ٠ أما الآثار المصرية فلم يعثر على ما يشير الى مثل هذا الانقلاب فيها ، وكل ما وجد على آثار تانيس أن الملك طهراقة طلب من أمه أن تحضر الى مصر من نبته بعدما غاب عنها عدة سنوات ودعاهـا لتسلم مركزها السامى بمصر كالأم الملكية ٠ من ذلك يستنتج أن المصريين كانوا فى انتظار غزوة آشور للدلتا وأن الأثيوبيين اتخذوا تانيس عاصمة لقربها من آشور ٠

واستمر طهراقة يحكم بلا منازع من جهة آسيا لمدة ثلاث عشرة سنة شيد في أثنائها عمارات صغيرة بتانيس ومنف وأخرى أكبر حجما بطيبة، وأيقن قرب هجوم آشور عليه فأخذ يعد عدته لذلك ٠ وليلاحظ أن آسيا الغربية مضى عليهـا حوالى عشرين عاما لم تر فيها سناخريب الذى قتله أولاده عام ٦٨١ قبل الميلاد٠ بعد ذلك تولى ابنه اسرحدون (Esarhaddon) الملك فأخذ يستعد لغزو مصر والقضاء على فرعونها كي يستريح من تدخلها المستمر في شؤون مستعمراته الفلسطينية والسورية ، فوصل بجيشه العرمرم الى حدود الوجه البحرى عام ٦٧٤ قبل الميلاد (٧) وهناك التقى بقوات طهراقـة الذى كان أكثر شجاعة واقداما من سـلفيه ٠ ودارت رحى القتال بين الطرفين وانتهى الأمر بفوز المصريين على آشور كما ورد على الآثار عام ٦٧٣ قبل الميلاد ٠

بعد ذلك أخذ أسرحدون يستعد طي الخفـاء لغزو مصر ٠ وفي ذلك الوقت انضم بعل ملك صور الى المصريين ضد آشور ، وذلك على أثر علمه بهزيمتها الأخيرة على الأرجح ٠ وفي عام ٦٧٠ قبل الميلاد ظهر أسرحدون ثانيا في غربى آسيا قائدا جيشه وحاصر صور ، وانضم اليه بعض العرب٠

---

(٧) راجع مصادر الغزوات المقبلة لأسرحدون بكتاب ونكلر ٠

فدلوه على طريق الصحراء الى مصر ، وقد استخدم جمالهم لحمل مياه الشرب وقت اختراق الطريق · بعد ذلك التقى بجنود طهراقة الذى لم يكن مستعدا جيدا لهذا الكفاح ، فدارت رحى القتال بين الطرفين وانتهت بفوز آشور وتمزيق شمل المصريين · على أثر ذلك تقهقر طهراقة نحو منف لكن أسرحدون تتبعه بشدة وبسرعة لا تعرف الملل فاستولى على منف وسلبها من كل ثمين ، ثم فر طهراقة جنوبا تاركا الوجه البحرى فى أيدى أسرحدون الذى نظمه وضمه الى أملاكه · وذكر أسرحدون أسماء عشرين أميرا عينهم ملوك النوبة على الدلتا وقال عنهم انهم أتوا اليه وحلفوا له يمين الطاعة فسمح لهم بالبقاء فى مراكزهم بشرط أن يستمروا موالين له · وقد لاحظنا أن فى هذه الأسماء المكتوبة بالخط المسمارى ما يشير الى تكرار بعضها أو الى انتماء بعض هذه الأسماء المتشابهة الى أسرة واحدة ، وقد سبق لبيعنخى أن عامل أمثال هذه الأسر سابقا كما ألمعنا · وجاء بين هذه الأسماء اسم الأمير نخاو (Necho) بن تفنخت نعت بأنه أمير صا الحجر ومنف · وورد ضمن هذه القائمة أيضا اسم أمير طيبة لكن هذا القول يستبعد تصديقه لأن أسرحدون لم يحتفظ الا بالسلطة الاسمية على الوجه القبلى · ورجع أسرحدون الى وطنه متبعا طريق الساحل البحرى شمالا مارا بصخور نهر الكلب فنقش عليها لوحا أثريا أثبت عليه انتصاراته الحربية ، وهو يجاور الأثر الحجرى الذى تركه رمسيس الثانى المذكورة فيه انتصاراته أيضا (لوحة ١٢٣) · ولما بلغ أسرشدون شمال سنجرلى (Samal of Senjirly) شمالى سورية نصب فيها أثرا عظيما يمثله قابضا على أسيرين يغلب على أحدهما أنه فعل ملك صور وعلى الآخر أنه طهراقة المسكين لما تبدو عليه من ملامح الزنوج (لوحة ١٤٢) ·

وهكذا ، يتضح للقارىء أن القطر المصرى حكمه الأجنبى فى عهد الليبيين ثم فى عهد النوبيين ، ثم أتت آشور بعد ذلك فبسطت نفوذها على مصر · وبدهى أن القوة الأجنبية متباينة تماما عن السابقتين وأن الليبيين والنوبيين تمصروا وحكموا مصر كأنهم فراعنة · أما آشور فحكمت الدلتا من دون مراعاة شفقة أو عطف نحو المصريين وعاداتهم ولذلك لم يحتمل الأمراء المصريون ذلك العسف الآسيوى ، فحنثوا فى يمين ولائهم الذى أقسموه لآشور وأخذوا يتحدثون مع طهراقة ليستعيد الحكم فى الدلتا · على اثر ذلك أتى طهراقة الى الوجه البحرى بعد ما رجع جيش آشور الى وطنه ، فاضطر أسرحدون الى أن يعيد الكرة على مصر ، لكنه توفى فى أثناء زحفه عليها عام ٦٦٨ قبل الميلاد · فلما تولى الملك بعده ابنه آشور بانيبال (Ashurbanipal) اتبع خطة والده بسرعة وعهد الى أحد ضباطه بقيادة الحملة الى مصر ، فلما التحمت جيوش آشور مع جيوش طهراقة فيما بين منف وشرقى الدلتا انهزم طهراقة الذى لم يتحصن بعد ذلك بمنف كما فعل

سابقا ، بل فر نحو طيبة حيث تحصن · لكن الآشوريين جمعوا المدد من الوجه البحرى وزحفوا أربعين يوما حتى بلغوا طيبة فاضطر طهراقة الى أن يغادرها وأن يتحصن بأعالى النيل·عند ذلك لم يتعقبه جيش آشور بل تركه وشأنه·ولم يثبت للآن اذا كانت آشور استولت على طيبة وقتئذ أم لا،لكن الثابت أن سلطة آشور بانيبال لم تمتد الى الوجه القبلى·ولما أراد آشور توطيد نفوذه بالدلتا أخذ ولاته هناك يتراسلون سرا مع طهراقة لينقذهم من نير آشور · وكانت هذه العصابة برياسة نخاو الذى ولاه آشور بانيبال على صـــا الحجـــر وشـــارولودارى (Sharuludari) والى تانيس وباكرورو (Pakruru) ، والى ســـفط الحنة (Persepet) وأرسلت عيون آشور بمصر خبر هذه المؤامرة الى آشـــور بانيبال فأمر بارسال هؤلاء الرؤساء مصفدين بالأغلال الى نينوى · عند ذلك احتال نخاو بدهائه حتى استمال عطف آشور بانيبال عليه فصفح عنه وأغدق عليه النعم ثم أرجعه الى مركزه بصا الحجر وعين ابنه واليا على أتريب (بنها) لكنه أرســـل معه موظفين آشوريين لمراقبته · وقد نجحت هذه الحيلة جيدا فلم يظهر طهراقة ثانيا بالدلتا لعدم مساعدة ولاة الوجه البحرى له ، لكنه بالرغم من ذلك قد أرخ كهنة بتاح بمنف تاريـــخ وفاة عجل من عجول آبيس سرا باحدى الطرق المحفورة تحت الأرض بمدفن تلك العجول المعروف بالسرابيوم فكتبوا عليه السنة الرابعة والعشرين من حكم طهراقة (عام ٦٦٤ قبل الميلاد) ·

ومضى على هذه الحال عدة سنوات كان الوجه القبلى فى أثنائها تحت سلطة طهراقة الفعلية · أما رئيس كهنة آمون بطيبة فقد أصبح الآن قليل النفوذ ضعيف السلطة ، والسبب فى ذلك أن النفوذ كان هنـــاك فى يد شخص يدعى منتومحات (Mentemhet) الملقب «أمير طيبة» ، حاكم الجنوب ورئيس كهنة مصر » وذلك رغم كونه الرابع فى ترتيب طيبة الكهنوتى ، والظاهر أن زهرة طيبة ذبلت وقتئذ · والمعروف عن هذا الأمير أنه كان قويا ثريا صرف أموالا طائلة فى اصلاح ما تلف من المعابد بعد الذى أحدثه الآشوريين (على الأرجح) بالرغم من فقر مصر وبؤسها · واستولى طهراقة على دخـــل آمون بطيبة بأن عين أختـــه المدعوة شبنوبت (Shepnupet) بدل الأمـــيرة أمنارديس أمـــيرة طيبة الدينية التى عينها بيعنخى بطريقة مماثـــلة · ويعزى الى طهراقة أنه شـــيد أو أصلح معبدين عظيمين بنبته عاصمة اثيوبيا التى عظمت وصارت لها منزلة كبيرة تتناسب مع مقام مملكتها السامى وقتئذ ·

وبعد ما حكم طهراقة خمسا وعشرين سنة أشرك معه فى الملك ابن شاباكا المدعو تانوت آمون (Tanutamon) بدواع اجبارية على الأرجح ـــ

وعينه حاكما على صعيد مصر وذلك عام ٦٦٣ قبل الميلاد . والظاهر أن تانوت آمون استمر فى طيبة وقتما كان منتومحات أمير طيبة محافظا على سلطته هناك . أما طهراقة فرجع الى نبته متعبا من كفاحه مع آشور واستقر هناك حى توفى ، وذلك قبل أن تنقضى سنة تقريبا على تولية تانوت آمون (أى عام ٦٦٣ قبل الميلاد) . عند ذلك أسرع تانوت آمون الى نبته وتسلم عرش النوبة . وقبيل ذلك بقليل رأى تانوت آمون فيما يرى النائم حلما فسر بأنه سيستولى يوما ما على وجهى مصر ، فبدأ حال توليته الملك بتحقيق المنام وذلك سنة ٦٦٣ قبل الميلاد . ولعب على مسرح الحياة مثل الرواية التى مثلها طهراقة ، فلما بلغ الوجه القبلى حيته الأهالى بالمديح والتصفيق ، لكنه لما بلغ منف قابلته قوات آشور ومدن أمراء الدلتا الوجلين من آشور ، فتغلب عليهم واستولى على منف . والظاهر أن نخاو خر صريعا فى هذه المعركة وقال هيرودوت ان ابنه المدعو بسامتيك (Psametik) فر الى سوريا ، ففرح تانوت آمون بنصره كثيرا وأرسل بعض غنائمه الى نبته ليشيد بها معابد جديدة . أما ولاة الوجه البحرى فانهم لم يسلموا بلادهم لتانوت آمون لخوفهم من آشور ، فلم يتمكن تانوت آمون من الالتقاء بجيوشهم أو القبض على بلادهم فرجع الى منف وقابل هناك أمراء الوجه البحرى الذين أظهروا له الود والخضوع بشكل لا يفهم منه أنهم قطعوا صلتهم مع آشور .

واقتصر تانوت آمون على سيادته على الوجه البحرى فاتخذ منف مقرا له محققا بذلك منامه ، لكن ولاة آشور بالوجه البحرى كانوا قد طيروا خبرا على جناح السرعة الى آشور بانيبال فى نينوى حالما غادر تانوت آمون نبتة ، ولذلك أتى جيش آشور عام ٦٦١ قبل الميلاد الى مصر وطرد الاثيوبيين من الوجه البحرى نهائيا ففر تانوت آمون بشكل مخز الى الصعيد ، لكن الآشوريين تعقبوه حتى طيبة وسلبوا عاصمة القطر فلم يتركوا فيها ثمينا الا سلبوه ، فاستولوا مثلا على التماثيل البديعة والأثاث الجميل والأدوات الغالية التى أهداها الأمير منتومحات الى المعابد . وأخذ الآشوريون خلاف ذلك مسلتين فضيتين زنة كل منهما ٢٥٠٠ تالنت (التالنت يقرب من ٥٧ رطلا) كانتا منصوبتين على مدخل أحد المعابد (٨) وقد نقلوهما الى نينوى . ومن هذا يتجلى لنا أن معابد طيبة المهمة كانت محتفظة بثروة عظيمة حتى فى ذلك العهد . وانتشر نبأ خراب طيبة فى الآفاق ، فبقى ثابتا فى ذهن النبى ناحوم وقتما تنبأ بخراب نينوى بعد مضى خمسين سنة على هذه المحنة . واليك نص ما جاء بالكتاب المقدس بسفر ناحوم بالاصحاح الثالث آية ٨ — ١٠ :

(٨) Winckler, op. cit.

(٨) هل أنت أفضـل من نو آمون (طيبة) الجالسة بين الأنهار حولها الميـاه التي هي حصن البحـر ومن البحـر سورها ؟ (٩) كوش قوتها مع مصر وليست نهاية فوط ولوبيم كانوا معونتك . (١٠) هي أيضا مضت الى المنفى بالسبى وأطفالها حطمت فى رأس جميع الأزقة وعلى أشرافها ألقوا القرعة وجميع عظمائها تقيدوا بالقيد » .

منذ ذلك الوقت أخذت طيبة تضمحل وتندثر بعد ما كانت مضرب الأمثال فى الغنى والجاه وما تزال الى الآن حاوية أعظم الآثار والأطلال من تلك العصور القديمة .

وكان رجـوع تانوت آمون الى نبته نهاية الحكم الاثيوبى بمصر . أما حياة هذا الملك فمملوءة بالضعف وقلة الكفاية كأصله . ولا يخفى أن الاثيوبيين بدءوا ملكهم بوسط أفريقية ثم رغبوا فى منافسة سياسة غربى آسيا فى الوقت الذى كانت فيه آشور مسيطرة على الشرق ، ولم يكن فى وادى النيل الماجد التاريخ من يعارضها فى الحكم سوى الاثيوبيين الذين لم يحوزوا أقل كفاية فى مقاومة ومكافحة آشور . وعجز الاثيوبيون عن ضم سلطة أملاكهم لمكافحة آشور وحاولوا كثيرا مقاومتها لكنهم أظهروا فى كل محاولة مثالا من الضعف وعدم الكفاية . ونحن لا ننكر أن طهراقـة نجح فى صد أسرحدون وحافظ على كيان مملكته مدة يسيرة ، لكن ذلك لم يدم طويلا ، لأن آشور سرعان ما أرسلت اليه قوة حربية قضت عليه وأقصته بشكل مخز الى أعالى النيل . وقصارى القول أن كفاح آشور فى عزها مع اثيوبيـا لم يكن بحال من الأحوال كفاح الند للند من حيث المقدرة والقوة والكفاية .

ولما رجع الاثيوبيون الى بلادهم لم يحاولوا الاياب الى مصر بل صرفوا همهم فى ترقية النوبة ثم أخذ عدد المصريين فى تلك الجهات يقل بمرور الزمن ، فتلاشت تدريجا الصبغة المصرية بها ثم تدلت البلاد ودخلت فى طور البربرية وانتقلت سـلطتها تدريجا من الملوك الى الكهنة فأصبحت سلطة الملك اسمية .

ثم قويت شوكة الكهنة فكانوا يـأمرون الملوك أحيانـا بالانتحـار ويعينون غيرهم بدلهم . وبعد ما كان الملوك يستوطنون نبته ويشيدون بها العمارات ويزينونها اضطر خلفهم الى أن ينتقل الى أعالى النيل ، ولهـذا الانتقال عدة أسباب أولها غزوة بسامتيك الثانى للنوبة فى القرن السادس قبل الميلاد . والمعروف أن النوبة أخذت تتسـع من ذلك الوقت جنوبـا فانضم اليها وادى النيـل الأزرق الخصب المعروف عند العرب باسم ألوا (Aloa) فانفصلت بذلك نبته عن اقليم الشـلالات النيلية ، ثم أخذت

تجـارة النوبة مع الأقاليم الجنوبية تزداد كمـا كثرت أيضـا مستعمراتها بتلك الجهة ولذلك لم يحل عام ٥٦٠ قبل الميلاد حتى كان ملوك النوبـة مستوطنين عاصمتهم الجديدة المعروفة عند اليونان باسم مروى (Meroe) .

وبدهى أن انتقال العاصمة جنوبا قطع عنها الصلة بالعالم الشمالى وأدخل أثيوبيا تدريجا عالم الجهل والخيال مع أن اليونان اعتبروها منبع الحضارة ·

بعد ذلك امتنـع ملوكها من استعمال الخط المصرى القديـم واللغة المصرية القديمة فلم تبزغ شمس عهدنـا حتى صـار أهـالى تلك البـلاد يستعملون خطا مخالفا للخط الهيروغليفى كلية وللآن لم تحل رموز هذا الخط ·

ولما غزا الرومان تلك البـلاد تحطمت أركان المملكة الاثيوبية ولم يمض على ذلك قرن أو اثنان حتى احتل الأقوام المعروفون باسم البلميين (Blemmyes) لآتون من الشرق جزءها الشمالى ، أما الجزء الجنوبى فقد احتكرته مملكة الحبش المسيحية التى نشأت حول منابع النيل الأزرق فى القرن الرابـع بعد الميـلاد واحتكرت لنفسها الآن اسـم الوطن الأصـلى اثيوبيا ·

الكتاب الثامن

دور الإصلاح - النهاية

الفصل السابع والعشرون

دور الاصـــلاح

يرجح كثيراً أن نخاو امير صا الحجر توفى فى صراعه مع تانـــوت آمون وأن ابنه المدعو بسامتيك هرب الى الآشوريين كما سبق القول ، وعلى اثر ذلك عينه آشور بانيبال أميراً على اقليم والده الأصلى واضاف اليه ايضا اقليم منف ، ومنذ ذلك الوقت الوقت صارت مصر فى حالة بؤس وخضوع تحت حكم الآشوريين الذين شجعوا هجرة الأجانب اليهـــا ونظموا ترتيب ولاتهم .

ومعلوم أن الوجه البحرى كان تحت رحمة أمرائه الأجانب المأجورين منذ الأسرة الحادية والعشرين . أما الصعيد فلم يكن واضح النظـــام والتبعية ، لكن المعروف أن منتومحات استمر محافظا على سيطرته هناك . وفى وسط هذه الظروف السيئة لم يتصور احد ما قدر لمصر فى عالم الغيب من أيام البشر والسرور فى القريب العاجل ، والفضل فى فك هذه الكربة يرجع الى بسامتيك الذى بذل كل جهده للاستيلاء على موارد القطر ليحقق بذلك آمال أسرته من الاستقلال بمصر والجلوس على عرشها . ولا غرابة فى ذلك فهو من سلالة تفنخت الصاوى الشديد رئيس امارة صا الحجر فى عهد بيعنخى الذى امتاز على كل افراد أسرته بالقوة والحنكة السياسية كما ظهر لنا من تاريخهم .

وأول خطوة خطاها بسامتيك كانت الخلاص من سلطة ولاة آشور بمصر . والظاهر أنه كان عالما بقرب حصول نزاع شديد بين آشوربانيبال واخيه ملك بابل واشتراك بلاد عيلام (Elam) فى الأمـــر . وفى سنة ٦٥٢ قبل الميلاد قامت الحرب المنتظرة فارسلت بلاد العرب مددها الى بابل ضد آشور فاضطرت هذه الأخيرة الى ارسال جيش قوى لعقابها. ثم حصلت اضطرابات فى البلاد شمالى نينوى تطلبت ارســـال قـــوات

اخرى من آشور لاخضاع اهالى السميريين (Cimmerians) بقليقيا (Cilicia) واستمرت رحى الحرب الآشورية العظمى دائرة مدة اثنتى عشرة سنة فلم تهدأ الا فى سنة ٦٤٠ قبل الميلاد لما كانت حركة بسامتيك بلغت حدا بعيدا لم يجرؤ آشوربانيبال بعد ذلك على ما يظهر أن يخاطر باخضاعها .

لقد ترك لنا اليونانيون عدة حكايات عن عهد بسامتيك اعتبروها صادقة ، وهى فى الحقيقة تحوى كثيرا من الحوادث الواقعية · من هذه ما رواه هيرودوت عن كيفية جلوس بسامتيك على عرش مصر حيث قال : « ان بسامتيك كان واحداً من اثنى عشر أميراً مصريا اقتسموا مصر فيما بينهم . ففى يوم من الأيام اخبر أحد الكهنة أمراء مصر أن أحدهم لا بد أن يشرب الشراب ذات يوم للتقرب الى المعبود بتاح فى قدح من البرونز ، وبهذا يصير ملكا على الأقاليم المصرية . فلما كان هؤلاء الأمراء مجتمعين للمنادمة على الشراب تقربا الى تمثال بتاح ولم تكن أقداح الذهب المعروضة بينهم على قدر عددهم اذ كانت تنقص كأسا لسهو حصل من الكاهن المكلف تقديم الأقداح اليهم ، فبقى أحدهم وهو بسامتيك بدون قدح فنزع مغفره (١) من رأسه وكان من البرونز وشرب فيه الشراب فتذكر رفقاؤه بشرى الكاهن السابق فأكرهوه على أن يهاجر الى بعض أجمات الوجه البحرى خشية أن يستبد بالملك دونهم . وأقام ببعض الأجمات وبعد وصوله اليها أحضر كاهنا من الكهان وسأله عما سيقع له فأخبره أنه لابد أن يستبد وحده بملك مصر وأن ينصره على أقرانه رجال من البرونز يقدمون عليه من جهة البحر الأبيض المتوسط ، فانتظر وعده واتفق أن القت عاصفة بحرية سفنا بتلك الجهة فيها رجال أشداء من ملاحى اليونان (كاريين وأيونيين) مسلحين بأسلحة من البرونز فخرجوا فى البر واخذوا ينهبون الوجه البحرى . وتذكر بسامتيك خبر الكاهن فبادر الى الملاحين الوافدين واكرم نزلهم وتحالف معهم على أن ينصروه فدخلوا فى خدمته واستعان بهم على شن الغارة على اخوانه فظفر بهم واستبد بالملك وحده .

اذا استثنينا ما جاء بهذه الرواية من المبالغات فان القارىء يجد بها حقائق هامة عن أعمال بسامتيك الأولى . فالأمراء الاثنا عشر هم أمراء الوجه البحرى السابق الكلام عليهم . أما الجنود الأيونيون والكاريون فقد خبرنا عنهم ماير (Meyer) بأنهم ارسلوا من قبل جيجس (Gyges)

(١) المغفر بوزن المبضع زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة ·

ملك ليديا الى مصر بقصد الاتفاق معها على التخلص من حكم نينوى بعدما تخلص من أعدائه السميريين بالتجائه الى آشور سابقا . وجاء فى الآثار الآشورية أن هذا الملك أرسل مساعدة حربية الى مصر ، وعلى كل فلا بد أن يكون لبسامتيك يد فى الاضطرابات ضد آشور وانه اغتنم تلك الفرصة فانتصر على أقرانه أمراء مصر واعتلى العرش الفرعونى .

وأسرع بسامتيك الى لم شعث مملكته ففى سنة ٦٥٤ قبل الميلاد لما كانت الجيوش الآشورية زاحفة على بابل كان بسامتيك قد استولى على طيبه واعترف به منتومحات صديق طهراقه . أما امارة طيبه فقد تشتت وفرقت أثر الغزوات الاثيوبية ولذلك لم تعترض بسامتيك هناك اضطرابات أو مشاغبات . وأراد بسامتيك أن يستولى على ما بقى من دخل آمون فعين أخته نيتوكريس (Nitocris) بل شبنوبت سيدة كهنة طيبه وأخت طهراقه المتوفى . وقد عثرنا على المرســوم الملكى القاضى بذلك وهو النص الوحيد الطويل الذى عثر عليه للآن من آثار بسامتيك الأول . وجاء فى هذا المرسوم أن شبنوبت تنازلت عن أموالها وأمتعتها الى نيتوكريس ، ومنه يتضح أن هبوط كهنة آمون كان سريعا، ففى ظرف سقين سنة تقريبا تغير رؤساء كهنة آمون الأقوياء الأشداء واستبدل بهم أميرات مقدسات وهكذا أصبح رئيس كهنة آمون امرأة !

ان قضاء بسامتيك على أمراء مصر جاء رحمة ونعمة على القطــر الذى كان من أمد يتلظى بنار الفوضى ، وبهـذه الكيفيــة نجت مصر من حكم هؤلاء الأمراء وأتباعهم الحربيين الذين جروا على وطنهم الــذل والهوان مدة أربعمائة سنة تقريبا ، وصار بسامتيك بفضل هذه الأعمال من اعظم وأكفأ فراعنة مصر . ولقد واجهته مشاكل عديدة خطيرة زيادة على الآفات التى كانت متغلغلة بالقطر من قديم الزمن ، ومع ذلك فقد نجح بسامتيك فى حلها وأرجع النظام الى نصابه ، فساوى بسامتيك فى الشرف والمنزلة امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة وأحمس الأول طارد الهكسوس . وبالرغم من الأعمال التى قام بها بسامتيــك فانه لم يتمكن من استئصال الأمراء كما يدعيه البعض لأن بعضهم انضم اليه فلم ينله الضرر . وقد عثرنا على أخبار هؤلاء الأمراء على الآثار مثل الأمير منتومحات بطيبة فقد سمح له بسامتيك أن يبقى حاكما للجنوب وكذا أمير اهناس المدعو حور (Hor) القائد فقد سمح له بسامتيك أيضا بالبقــاء فى امارته حيث شيد معبدا عظيمــا باســمه بعــد وفاة بسامتيك الأول بجيل تقريبا . وعثر على مقبرة بطيبه لشخص يدعى بدى امناوبت (Pediamenemopet) غاية فى الجمال والرونق مما يؤكد أن صاحبها كان عظيم النفوذ فى مصر فى عهد بسامتيك . ومما يسترعى النظر أن الأمير

منتومحات بطيبه طلب منه أن يدفع الضرائب الى نيتوكريس كريمة بسامتيك الأول ؛ وأهم من هذا وذلك أن منتومحات لم يرثه ابنه المدعو نسوبتاح (Nesuptah) بل تبعه رجل يقال له بدى حور (Pedihor) لقب « أمير طيبه وحاكم الجنوب » . ولا يبعد أن تكون هذه نتيجة لسياسة بسامتيك التى كانت ترمى الى التخلص من نفوذ أمراء مصر ومحو توريث المراكز الحكومية .

يتضح من ذلك أن بسامتيك سمح لبعض الأمراء أن يحتفظوا ببعض نفوذهم ، لكن هؤلاء كانوا قليلى العدد مقيدى السلطة ، فجاء عمله هذا مشابها تماما لما فعله امنمحات الأول أيام الدولة الوسطى ، وبهذه الكيفية زال خطر انحلال الأمة المصرية .

وكان من أصعب الأمور على بسامتيك انشاء قوة حربية ففكر فى الأمر فوجد امامه الليبيين الذين عاشوا بمصر عدة قرون حتى كثر عددهم وهم كما لا يخفى حربيون لكنهم أصبحوا الآن عديمى الخطر على العرش المصرى . وقد غلا هيرودوت فى مقدار عددهم والحقيقة اننا ما نزال نجهل ذلك بالضبط انما المعروف عنهم انهم كانوا مستوطنين بالدلتا . وقد قسمهم هيرودوت الى قسمين قسم يدعى هرموتيبيس (Hermotybies) وقسم يقال له كالاسيريس (Calasiries) وهؤلاء لم تستفد منهم الأمة المصرية شيئا من الوجهة الاقتصادية بل كانوا عقبة كئودا فى سبيل بسامتيك ، لذلك لم يجد جلالته بدا من تسليط الجنود اليونانية والكارية (Carians) عليهم . وهكذا بعد ما قطعت مصر شوطا بعيد المدى فى الحياة الحربية اصبحت الآن تستخدم لحمايتها جنودا اجانب مأجورين تابعين لدول متباينة . والف بسامتيك جيشه من يونانيين وكاريين وسوريين من جهة ، ومن ليبيين وغيرهم من الأجانب المتمصرين من جهة أخرى . وحشد عسكره الأيونيين والكاريين بالقرب من دفنه (Daphnae) وهى على حدود مصر الشمالية الشرقية التى يخترقها فرع النيل . أما غربى الدلتا فكان محميا بقوة حربية أخرى من هذا النوع بجهة قلعة مريا (Marea) القريبة من الاسكندرية . ووضع بسامتيك حامية أخرى بجزيرة فيلة باسوان ، لمنع غارات النوبة من الجنوب .

قال هيرودوت ان مائتين وأربعين الفا من جنود مصر هجرت معسكرها جهة اسوان وعرضت مساعدتها لملك اثيوبيا لاستيائها من لبث ثلاث سنوات بمعسكرها بدون تنقل ، ولا يخفى أن هذا العدد مبالغ فيه كما هى العادة عند هيرودوت ، لكن الرواية فى حد ذاتها تحوى

شيئا من الحقيقة لأنها تتمشى مع معلوماتنا عن أحوال القطر فى عهد بسامتيك الأول . وقد اختار الملك الفا من جنود الهرموتيبيس والفا من الكاليسيرس ليكونوا ضمن حرسه الخاص · ما الجنود الأجانب الذين كانوا لدى جلالته فكانوا كثيرين جدا على حسب ما اقتضته الظروف ·

ان رقى مصر وحضارتها فى هذا العهد الذى نحن بصدده يختلفان كثيرا عنهما فى العصور السالفة ، لأن الأمة المصرية فقدت تلك الروح العسكرية التى دبت فيها أثر غزوة الهكسوس فاستحال على بسامتيك جعلها مة حربية وصرف مجهوده فى توطيد حالة البلاد الاقتصادية ، واتكل لنيل غرضه على الجنود الأجانب المأجورة التى صارت ضرورية لكل حاكم شرقى . لكن بسامتيك كان كثير الاهتمام بانشاء مملكة حربية بعد ما حسن حالة وطنه الاقتصادية وحشد لها جيشا مصريا عظيما وان كان معظمه أجنبى الأصل · وبدهى أن دخول العنصر الأجنبى فى الجيش كان أمرا لا يمكن التخلص منه . ومعلوم أن الاحتفاظ بجيش كامل فى مثل هذه الظروف تطلب ترقية مالية المملكة المصرية بازدياد ايرادها لأن وجود احد هذين الأمرين يحتم وجود الآخر . لذلك كان مركز بسامتيك وقتئذ أشبه كثيرا بمركز عمر والخلفاء الأول . وهكذا يتضح أن رقى القطر فى مثل هذه الظروف يتعلق كثيرا بكفاية حاكمه ومقدرته فى استعمال القوى التى لديه كالجيش والعمال كى ينتظم بذلك دولاب الأمور ويسير نحو النمو والتحسين . ولقد كان بسامتيك اليد المحركة والرأس المدبرة ، أما الأهالى فكانوا يقومون بالأعمال بحرية حيثما يوجههم ، لكنهم كانوا فاقدى الحماسة والغيرة (على عكس ما كانت عليه الحال ايام الخلفاء) . فلما انتظم دولاب الحكومة تبعه عهد الرخاء وانغمس القوم فى الرفاهية وعكفوا على التنعم الذى شمل أسلافهم أيام الأسرة الثالثة والعشرين . وبدلا من بذل المجهود فى ابتكار الطرق الجديدة لتحسين حال القطر كما فعل أهالى الامبراطورية رجع الأهالى الى اتباع نظام الحكم القديم السابق لعهد الامبراطورية والذى يرجع تاريخه الى ما ينيف على الف سنة . لذلك عبد القوم ملوك منف الأقدمين وجددوا القربان والهدايا التى كانت توزع على أرواحهم ورمموا اهرامهم العظيمة واستعملوا الألقاب والرتب التى تحلى بها أمراء عهد الأهرام فى القصر الملكى والحكومة وبذلوا جهد طاقتهم فى صبغ حكومتهم بصبغة حكومة أجدادهم الأقدمين . ولم يكتفوا بذلك بل استعملوا الخط الهيروغليفى فى مكاتباتهم وفى احتفالاتهم الرسمية ، ولا بد ان كتابهم لقوا صعوبة عظيمة للرجوع الى ذلك . أما الديانة فقد عمل فيها كل ما يمكن لتطهيرها من العقائد الأجنبية والبدع الحديثة ، فأبطلت عبادة ست المعبود الأجنبى الذى كان يرمز به للخراب والدمار · وهكذا انفردت

الأمة المصرية بنظام عام صعب التغيير كالذى حل بالأمة الاسرائيلية بعد ذلك بقليل . ثم أخذ القوم يستعملون نصوص الأهرام القديمة من جديد وينقشونها على توابيتهم الحجرية الضخمة رغم جهلهم بمعانيها فى أغلب الأحيان . ثم نظموا نصوص كتاب الموتى لآخر مره فصار طوله ستين قدما من الورق البردى ، ومنه تتضح لنا شواهد عديدة لاحياء ادبيات الموتى القديمة . وصار الانسان يشاهد على جدر المعابد والمقابر رسوم أحوال المعيشة فى البرارى والحقول وكذا رسوم المعامل ومصانع السفن . وقد أخذت هذه المناظر فى الحقيقة من مصاطب عهد الملكة القديمة بدقة يخيل لناظرها من أول وهلة أنها من العهد السحيق، فقد جاء فى الآثار ان رجلا من طيبه يدعى أبا (Aba) أرسل عماله الى مقبرة باسيوط من مخلفات الملكة القديمة ليرسموا له نقوشها على قبره لتتبه فى اسمه باسم صاحب تلك المقبرة القديمة .

ولا يخفى ان عودة الديانة وأحوال المعيشة والحكومة الخاصة بالعهد القديم لازمتها مصاعب ظاهرة وخفية ، لأن هذا التغير شمل حياة القوم وأحوالهم السياسية والاقتصادية ، وهذا أمر لا يحتاج الى بيان لأن التغيرات التى اعترت القوم مدة الفى سنة بعد الملكة القديمة ليس من الممكن القضاء عليها بسهولة ، ولذلك ترى أنه مع صبغ الأحوال الخارجية بالصبغة الوطنية القديمة ، فان الحقائق الثابتة الحديثة ما تزال باقية من وراء ذلك الثوب الخارجى ، وهذه الحالة تشابه تماما حالة بنى اسرائيل لما أرادوا الرجوع الى أحوال المعيشة والنظم التى كانوا عليها أيام سيدنا موسى ، فكانت نتيجة هذه المجهودات كلها أن القطر انتعش منها نظريا أكثر منها عمليا . ولم يكن هذا الانتعاش بالصعب فى العهد الصاوى لأن المصريين اعتادوا من قديم الزمان ان ينسبوا معظم نصوصهم الدينية وعلاجاتهم الطبية المحبوبة والأمثال والحكم الى عصورهم العتيقة . وبدهى أن هذه النسبة كانت صائبة أحيانا فى بعض أمور عهد الامبراطورية ، أما فى عهد الأسرة السادسة والعشرين فلم تكن كذلك .

وكان الرجوع الى الذوق القديم فى الفنون الجميلة من اصعب الأمور ، والسبب فى ذلك أن هذه الفنون ارتقت كثيرا فى العهد الاثيوبى فكان الذوق السليم فى العهد الصاوى يقظا لكل تغير يعتريه كالذى نحن الآن بصدده . وبالرغم من أن نصوص ورسوم العهد الصاوى كانت تؤخذ من المقابر المصرية القديمة فان الباحث بعد دقة الفحص والامعان كثيرا ما يميز رسوم العهد الصاوى من العهد القديم ، والسبب فى ذلك أن الأولى تحوى بعض الحرية فى اتقان جزئياتها كالتعاريج الدقيقة



لوحة ١٣٠ ـ تمثال رمسيس الثانى مصنوع من الجرانيت الأسود
(تورين).



لوحة ١٣١ ـ رأس مومياء رمسيس الثانى (دار تحف القاهرة).



لوحة ١٣٢ ـ نشيد النصر للملك مرنبتاح . ويحوي هذا النشيد أقدم ذكر لبنى إسرائيل على الآثار.

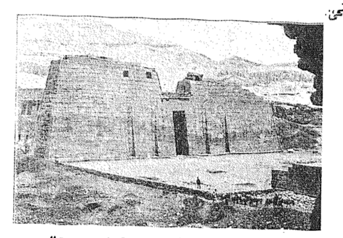


لوحة ١٣٣ ـ بعض الأسري الفلسطينين (بلست Peleset) الذين استولي عليهم رمسيس الثالث. رسوم بارزة علي الصرح الثاني لمعبد مدينة هابو.



لوحة ١٣٤ ـ صورة معركة بحرية انتصر فيها رمسيس الثالث علي اهالي شمالي البحر الأبيض المتوسط رسوم بارزة على الجدار الشمالي لمعبد مدينة هابو. وتري السفن المصرية إلي الشمأل صالية العدو نارا حامية حتي أجبرته علي الهرب (إلي اليمين) واوقعته في الهرج والمرج. وتشاهد احدي سفن العدو مقلوبة.

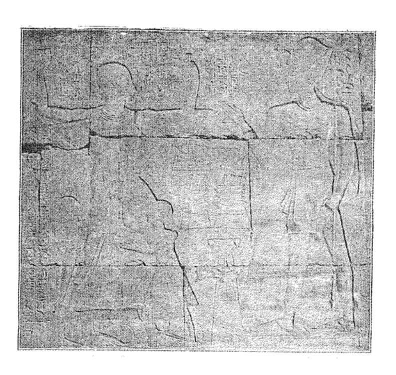
لوحة ١٣٥ ـ معبد رمسيس الثالث بمدينة هابو مأخوذ من قمة الصرح الأمامى. ويرى جزء من الساحة الأولى للمعبد ثم الصرح الثاني.



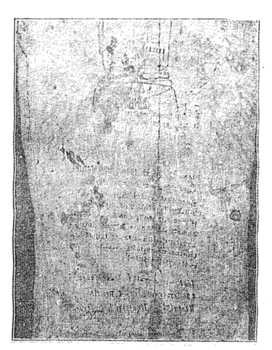
لوحة ١٣٦ ـ معبد رمسيس الثالث بمدينة هابو. صورة للصرح الأول مأخوذة من مدخل القصر المشيد بمقدم المعبد.



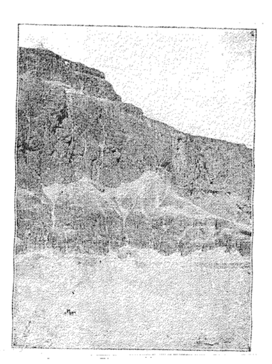
لوحة ١٣٧ ـ رمسيس الثالث يصطاد ثورا وحشيا. رسوم بارزة خلف الصرح الأول بمعبد مدينة هابو.



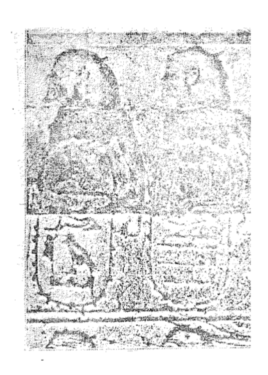
لوحة ١٣٨ ـ امنحتب رئيس كهنة امون يقبل انعام رمسيس التاسع. يلاحظ ان رسم هذا الكاهن (إلي اليسار) يتبادل في الحجم مع رسم الملك (إلي اليمين) الأمر المخالف للعادات القديمة المرعية.



لوحة ١٣٩ ـ ملاحظات كاتب على تابوت سيتى الأول تشير إلى تنقلات المومياء حتى وضعها الأخير فى مخبأ الدير البحرى فى عهد حكم الكهنة ملوك الأسرة الحادية والعشرين.



لوحة ١٤٠ ـ مخبأ الدير البحرى وترى فتحة هذا المخبأ كنقطة سوداء فى أخر الطريق المبتدئ من الحجر .



شكل ١٤١ ـ «حقل إبراهيم» اسم لمكان جغرافى وارد فى قائمة شيشنق الأول على جدار الكرنك وهذا النص هو أقــدم ذكــر لإسم إبراهيم فى الآثار.



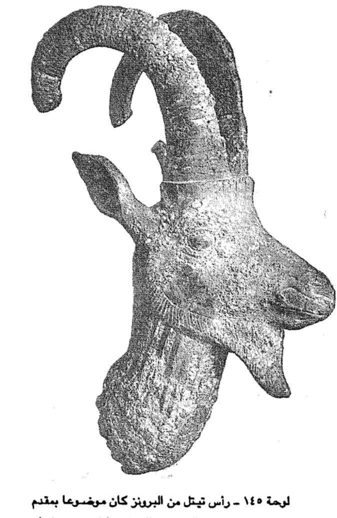
شكل ١٤٢ ـ شــاهد حــجــرى سنجرلى لاسرحدون يمثل هذا الملك قابضا على بعل مدينة صور وعلى طهراقه الجاثى على ركبتيه. وتشــاهد على الأخــيــر مــلامح الزنوج (دار تحف برلين).



شكل ١٤٣ ـ شاهد حجرى للملك بسامتيك الأول وجد بالسرابيوم مذكور عليه تاريخ وفاة العجل ابيس وذلك فى السنة الحادية والعشرين من عهد بسامتيك الأول. وكان عمر هذا العجل احدى وعشرين سنة وتاريخ ميلاده السنة السادسة والعشرون من حكم طهراقه.



لوحة ١٤٤ ـ منظر عام لمعبد الكرنك مأخوذ بآلة التصوير الشمسى من جهة الجنوب من صرح معبد خونسو الذى أسسه رمسيس الثالث. وتشاهد حُجَر معبد خونسو فى الجزء الأسفل للصورة. وتشاهد وسط الظلال القاتمة بقعة بيضاء هى عبارة عن ضوء داخل المعبد عن طريق الباب الوارد ذكره فى صلب الكتاب.



لوحة ١٤٥ ـ رأس تيتل من البرونز كان موضوعا بمقدم سفينة يرجع تاريخه إلى العهد الصاوى (دار تحف برلين).



لوحة ١٤٦ ـ رأس حجرى لشخص من العهد الصاوى مصنوع من حجر نارى أخضر (دار تحف برلين).

والانحناءات البديعة مما ينقص رسوم المملكة القديمة ، لذلك تجد أن رسوم العهد الصاوى استعاضت عن النقص فى النقل سلامة الذوق وطول باع صناعها من حيث الاتقان والعناية بدقائق الأجزاء . ويجد الباحث أحيانا أن رسوم الأشخاص فى العهد الصاوى مع دقة مراعاتها للأصول المرعية فى العهد القديم فانها تحوى أحيانا رسما تنصل فيه راسمه من ذلك القيد كرسم الشخص متناسب الكتفين خاليا من تحفظات المملكة القديمة البعيدة عن الصواب · وبدهى أن هذه الحرية فى الرسم والكفاية فى اظهار تناسق وتناسب أجزاء الصور اعلت كثيرا من منزلة رسوم العهد الصاوى على أمثالها من العهد القديم . ومثل هذا الأمر يشاهد كثيرا فى رسوم مقابر العهد الصاوى ، فالناظر اليها يجد صور الأشخاص مطابقة تماما لصور العهد القديم ، لكنه يعثر أحيانا على تمثال شخص مخالف لما جاوره ويمتاز عما حوله من الرسوم بتناسب أعضائه واعتدال رأسه وظهور معالم الحياة عليه (لوحة ١٤٦) ·

ولم يقتصر هذا التقدم فى رسم المسطحات فقط بل شمل ايضا التماثيل والأجسام ، ففى هذه الأخيرة يجد الناقد مهارة كبيرة فى اظهار معالم الوجه وبروز عظام الرأس وتجاعيد المحيا بشكل تشريحى دقيق لم يعثر على مثله فى أى عصر سابق . لذلك كثيرا ما يجد الباحث شبها عظيما بين تماثيل هذا العصر وأمثالها فى العهد اليونانى ، ففى الاثنين تتجسم دقة الصنع ومهارة الانجاز .

أما صناعة البرونز فقد بلغت فى العهد الصاوى منتهاها من حيث الدقة فقد عمل القوم القوالب الفارغة للحيوانات الكبيرة (لوحة ١٤٥) وللانسان بشكل بديع ولبسوها بالذهب والفضة وخليط هذين المعدنين (Electrum) مما ينطق لهم بطول الباع فى هذا الفرع . وانتشرت صناعة البرونز وقتئذ كثيرا ولذلك تجد معظم آثار البرونز المصرية المحفوظة بدور التحف الآن يرجع تاريخها الى هذا العهد .

أما المصنوعات الأخرى ففاقت أمثالها فى أى عهد سابق من حيث الدقة لدرجة جعلت الصانع المصرى فى ذلك الوقت عديم النظير فى العالم ، فصناعة الخزف بلغت أعلى أوجها وتوجد منها الآن أنموذجات فى جميع دور التحف · ومن الأسف أن عمارات تلك العصور انعدمت تقريبا لكن يستدل من رسوم الحفار المصرى أن فن البناء فى العهد الصاوى تقدم تقدما عظيما وأن خسارتنا بعدم العثور على شىء منها كبيرة لا تقدر · ويرجح أن عمد معابد البطالسة البديعة الجميلة ترجع فى الأصل الى العهد الصاوى .

وفى الوقت الذى كانت فيه الفنون الجميلة تتقدم بسرعة مع المحافظة على مشابهتها لفنون العهد القديم ، كانت ادارة الحكومة اقــرب الى النظام الحديث وأقل انصباغا بالأنظمة العتيقة . وما نزال نجهل اسلوب ادارة الحكومة فى العهد الصاوى بالضبط لأن آثار ذلك الزمن الباقيــة لا تحوى شيئا يذكر من ذلك . اما من الوجهة الجغرافية فالوجه البحرى كان دائما مفضلا من حيث الأهمية على الوجه القبلى ، لأن التجارة مع العالم الشمالى واتصال القطر بالبلدان الشمالية استلزمــا أن تكون للدلتا اهميه تجارية . وقد استوطن بسامتيك هو وخلــفاؤه مدينتهم هنا الحجر التى اتسع نطاقها وقتئذ وازدانت بالمعابد والقصور عــلى عكس طيبه التى فقدت منزلتها السياسية والدينية ، فنستدل من ذلك أن وادى النيل اصبح تابعا فى ادارتة وكل شؤونه للوجه البحرى .

سبق أن ذكرنا أن وراثة المراكز الحكومية أبطلها بسامتيك الأول لكنه سمح لبعض أمراء مصر الأقدمين مثل منتومحات امير طيبة بالاحتفاظ بمراكزهم طوال حياتهم فقط . وفيما عدا ذلك كانت أراضى القطر كلها ملكا للملك يسخر فيها الأهالى بشرط أن يدفعوا له ٢٠٪ من ايرادها . اما طائفتا الكهنة والجنود فكانتا معفاتين من الضرائب . وربمــا كان نظام الحكومة وقتئذ شبيها بنظامها فى عهد الامبراطورية ، ويتلخص ذلك فى وجود ادارة مركزية يتبعها موظفون لجمع الضرائب وتنفيذ نصوص القانون . والظاهر أن الموظفين نحلوا لأنفسهم القابا قديمة لا تمشى تماما مع اشغالهم الرسمية ، وأن ترتيبهم وتمرينهــم كانا على نقيض ما كان عليه كتبة الأمبراطورية لجهلهم غالبا بالخط الهيروغليفى القديم ، والسبب فى ذلك أن كتبة العهد الصاوى استعملــوا اختزال الخــط الهيراطيقى (الذى ظهر من العهد الاثيوبى) لسهولــة كتابتــه وكثرة موافقته للأعمال الادارية والتجارية ، وقد سمى هذا الخــط المختزل وقتئذ بالخط الديموطيقى وما يزال يعرف بهذا الاســم للآن . واستعمل القوم الخط الديموطيقى فى كتابة لغتهم بالأسلوب الدارج وقتئذ واقتصروا فى استعمال الخط الهيروغليفى على النصوص القــديمة التى يرجــع تاريخها الى عدة قرون سابقة ، ويدهى أن مثل هــذا الاختزال الكتابى صحبه اصلاح وتغيير فى نظام الحكومة . أما من الوجهة الاجتماعيــة فكان القوم ينقسمون الى عدة طوائف على حسب المهنة ، لكن هــذا التقسيم لم يكن واضح الحدود ولا تام الانفصال كما هى الحال فى التاريخ المصرى القديم .

كان الكهنة الصاويون اكثر نجاحا فى الرجــوع الى العــادات والاعتقادات القديمة من طائفة الموظفين ، والحق يقال ان الفضل فى

اصلاح ذلك العصر يرجع الى الكهنة . ولا يخفى ان المركز الدينى انتقل من مقره الاصلى كما انتقل المركز السياسى ، لأن طيبة فقدت اهميتها الدينية العظمى وفاقتها مدن الوجه البحرى مثل صا الحجر وبوتو واتريب (بنها) من حيث ثروة المعابد . وتختلف طبقة الكهنة الصاوية عن نظيرتها فى المملكة القديمة بامتيازها وانفراد وحدتها وانتقال وظائفها بالوراثة لأفرادها ، ولما كانت هذه الطائفة موضع احترام الرعية اقتضت ضرورة السياسة أن يمرح الكهنة فى بحبوحة النعيم ويعيشوا فى كنف الحكومة . والمعروف أن هذه الطائفة لم يعد لها نفوذ سياسى كأيام الامبراطورية لكننا مع ذلك نجد على الآثار ما يناقضه ، خذ مثلا ما ورد من أن الحكومة انتزعت من أمير طيبة (القريبة من العرابة) دخله القديم من الواحات ومعبر النهر واضافته الى دخل المعبود أزوريس . والظاهر أن الحادثة جاءت مستثناة لأن العادة كانت على عكس ذلك كما سيتضح للقارىء فيما يلى ، والسبب فى ذلك أن القوم اعتقدوا أن الآلهة لا تحيا من جديد ثم استثنوا من هذه القاعدة ازوريس الذى امتام بشدة تعلق الأهالى به · أما زوجته ايزيس فقد عظم اعتبارها فى نظر القوم حتى أصبح لها مذهب خاص عاد عليها فى العصور التالية بتبجيل واحترام عموميين · ومن التغيرات الدينية الحديثة وقتئذ أن الحكيم امحتب وزير الملك زوسر الذى يرجع تاريخه الى ٢٥٠٠ سنة قبل العهد الصاوى اعتبر ضمن المعبودات كابن بتاح ، على جهل الكهنة الصاويين بحقيقة أمره · ولا يخفى أن الديانة الصاوية جاءت نتيجة مباشرة لديانة أواخر عهد الامبراطورية ، فهى بعبارة أخرى تتلخص فى الاحتفاظ بالدين ومراعاته فى الأعمال الظاهرية وشدة الحرص عليه فيما يتعلق باحتفالاته كما حصل تماما للعقيدة اليهودية التى نشأت فى مثل هذه الظروف ، ولهذا السبب أصبحنا نجد الأمراء والموظفين يشيدون المعابد للمعبودات فى كل جهات القطر ، وصرنا نجدهم بعدما كانوا يحترمون فردا من طائفة حيوانية أضحوا الآن يقدسون كل أفراد هذه الطائفة . وزاد اعتقاد القوم واحترامهم للعجل آبيس — أحد أشكال بتاح — فعبدوه بعناية كبيرة وصاروا يدفنون جثته باحتفال مهيب فى جبانة السرابيوم الخاصة بذلك بجوار منف . أما تقديس هذا العجل فكان فى بدايته فى عهد المملكة القديمة ، لكنه أصبح له الآن شأن عظيم لدرجة بلغت حد التعصب الدينى بين أهالى الاسكندرية فى العهد الرومانى . والظاهر ان كهنة العهد الصاوى فسروا هذه المظاهر الخارجية بالفلسفة التى فسروا بها خرافاتهم الدينية ، فأوجدوا بذلك شيئا لم يكن موجودا ولا منسوبا لها سابقا ، ويجد القارىء مثالا لذلك عند الكلام على عهد الامبراطورية . والحقيقة أننا لا نعلم تماما اذا كان كهنة العهد الصاوى

علموا الأهالى كل المعلومات التى نسبها اليهم اليونانيون ، انما الثابت أن التعاليم الدينية كانت فى عهد الامبراطورية متمشية مع أحوال العالم أما فى العهد الصاوى فقد اضطر القوم الى أن يتعلموا لغة وخطا جديدين وأن يفهموا ادبيات قديمة تركها العالم منذ مدد طويلة ، ولهذا السبب اعتقد الأهالى أن الخط الهيروغليفى مقدس فنسبوه الى الآلهة واعتقدوا أيضا أن كل نص مقدس يجب أن يسطر بالخط الهيروغليفى ، وهذا هو السبب فى اطلاق هذا الاسم عليه لأن لفظ « هيروغليفى » يعنى باليونانية « الخط المقدس » .

هذه التعاليم الدينية حولت أذهان الكهنة الى العالم القديم من حيث حكمه ومعارفه ، والسبب فى ذلك أن أهالى العهد الصاوى اعتقدوا أن أهالى العصر القديم بلغوا من العلم ذروة لا يمكن تعديها ، ومثل هــذا النظام الرجعى شوهد فى تاريخ الصينيين والمسلمين فى عصــورهم المتأخرة . ومن هذا السبب يتجلى للقارىء السر فى شدة ولوع الصاويين بالبحث عن النصوص والقراطيس البردية القديمة التى عــلاها تراب الأجيال العديدة وفى جمعها وفحصها ثم تنظيمها . ومنه أيضا يتضــح للباحث سبب انتصار الماضى على الحاضر وسبب جهل الكهنة المعاضدين لهذه الحركة الرجعية بما هو سائر حولهم فى العالم . ويجد القارىء مثالا صادقا لهــذا التطــور الرجعى فى تاريخ مملكة بابل أيام الملك نبوخذنصر (Nebuchadrezzar) وقصارى القول أن الباحث فى أحوال العالم الصاوى يتخيل له شخص مسن يكر راجعا فى أعماله الى ما قام به وقت صباه البعيد الأمد .

ومع أن الاصلاح الداخلى فى العهد الصاوى كان رجعيا فى معظمه كما تشير اليه كلمة « الاصلاح » الا أن سياسته الخارجية كانت على النقيض ، والسبب فى ذلك أن بسامتيك اهتم كثيرا بالخارج خلافا لمــا ساد الأمة من الحركة الرجعية وقتئذ ، فزاد ثروة البلاد بتنظيم ســلطتها المركزية وتحسين مشروعات الرى كما كانت سابقا ، واستعمال تجاريبه التى اكتسبها فى أوائل حياته ولما شاهده من كثرة التجارة بين أنحاء امبراطورية آشور . وقد كان جلالته متيقنا تماما بأن التجارة والتعامل مع الأمم الأجنبية من أهم الدعائم لتقدم البلاد الاقتصــادى ، فضرب الضرائب المتنوعة على البضائع المختلفة الأمر الذى عاد على ماليــة القطر بالغنم الجزيل . وأرجع بسامتيك العلاقات التجارية القديمــة بين مصر وسوريا كما كانت سابقا فتقاطرت السفن الفينيقية على مصبات النيل وكثر التجار الساميون الذين صاروا فيما بعد أحدادا للآراميين

وكثر عديدهم في العهد الفارسي . واستخدم بسامتيك اليونانيين أيضا في ترقية تجارة مصر فأفادوه كثيرا في ذلك كما أفـادوه في الشـؤون الحربية التي تقدم الكلام عليها .

وقد ذكرنا سابقا أن الأقوام الأجانب المعروفين بأهالي البحـر الأبيض المتوسط أخذوا يهاجرون الى مصر جنوبا منذ القرن الثامن قبل الميلاد . وأقدم ذكـر لهؤلاء القوم يرجع تاريخه الى خمسـمائة سـنة تقريبا قبل العهد الصاوى . أما الهجرة اليونانية فقد ابتدأت أولا من أقاصي شمالى أوربا الى شبه جزيرة اليونان ثم الى الأرخبيل المجـاور ومراكزه الصناعية . ولما جاء العهد الصاوى ظهر اليونانيون أمة راقية غنية بحرية تمخر أساطيلها مياه البحـار وتنافس مراكبهـا السـفن الفينيقية . بعد ذلك انتشرت المستعمرات والمصنوعـات اليونانيـة بسرعة فعمت سواحل البحر الأبيض المتوسط حتى وصلت الى البحـر الأسود ، والظاهر أن بسامتيك هو أول حاكم مصرى شجع في أثناء حكمه هذه المستعمرات التجارية في القطر ، والمعروف أنه لم تمض مدة طويلة على انشائها حتى عم القـطر التجـار اليونانيون فصـارت مصنوعاتهم ترد على مصر وبالأخص غربى الدلتا حيث توجد صا الحجر المقر الملكى . ثم أصبح في منف حى خاص لليونانيين وآخر للكاريين ولا يبعد أن تكون المدن الكبيرة الأخرى حاوية لمثل هذه الأحياء الخاصة بمعاملة التجار الأجانب .

ولما توطدت التجارة بين مصر والولايات اليونانية توثقت عـرى الصداقة بين هذين القطرين فكثر عـدد الجنود اليونانيين باطـراد في الجيش المصرى عدا الذين استعملهم بسامتيك في غزواته ، واختلط هؤلاء الجنود مع تجار بلادهم النشيطين كثيراً فشرحـوا لهم خيرات مصر ونعيمها فنقل هؤلاء التجار هذه المعلومات الى اليونان حيث نشـأت الحكايات الخرافية الكثيرة الخاصة بالعالم المصرى الغريب ، ووصلت أخبار عجائب طيبة الى الأغانى الهومرية في آخـر عهـدها وظهـرت المعبودات المصرية في الخرافات اليونانية الدينية .

وقد عرف اليونانيون تماماً في آخر الأمر مظاهر الحضارة المصرية لكنهم لم يدرسوا الخط الهيروغليفى جيدا ليفهموا به نقوش المصريين القدماء الباقية ويعرفوا حقيقة تاريخهم . ثم ظهر بعد ذلك مترجمون كثيرون عالمون باللغة المصرية واليونانية صار لهم شأن بعدئذ فتكونت

منهم طائفة مخصوصة تأثر منها المؤرخون كثيرا امثال هيرودوت الذين زاروا القطر المصرى ووضعوا عنه المصنفات . وقد دهش اليونانيون لثبات المصريين وادعاءاتهم اللا نهائية ، ومما زاد ذلك ما سمعه هؤلاء القوم من عجائب مصر وعماراتها الشامخة ومعابدها المكونة السر ومنظر الخط الهيروغليفى الغريب الشاغل لمسطحات جدر تلك العمارات ووجود نهر النيل الفرد وديانة مصر المدهشة وقوانينها الغريبة التى ظهرت لهم مبنية على اصول صادقة وكذا كثرة الآثار العظيمة المؤثرة فى كل انحاء البلاد حولهم كل هذه الأمور وعدم امكان معرفة لصل المصريين وقتئذ وتاريخهم القديم حال بين اليونانيين ومعرفة احوال القطر المصرى الحقيقية مع ذكائهم المفرط وحرصهم الكبير . لذلك لم يفهم اليونانيون حقيقة المصرى ومدنيته فكتاباتهم فى هذا الموضوع غير مطابقة للصواب على ما اظهره كاتبوها من الهزء بعادات المصريين . ويدهى أن اليونانى انق كثيرا من المصرى من حيث اتباع الصدق والبحث وراء الحقيقة مع انه كان شديد الاحترام والتبجيل للمصرى . ولما دارت الأيام وأخذت البلاد تمر فى طريقها السياسى تحت أعين اليونانيين اخذ هؤلاء القوم يرقبونها جيدا فعرفوا حقيقة القطر المصرى . وقد عثرنا على عدة روايات يونانية شهيرة يرجع تاريخها الى عهد بسامتيك الأول لو فحصت جيدا لاستنتجت منها معلومات قيمة عن الأسرة السادسة والعشرين التى حكمت بالدلتا ، ذلك الاقليم المهلك للتاريخ والمدمر للآثار .

وقف المصرى موقف الحزم والرفعة والطهارة والثبات امام الجموع الأجنبية التى تدفقت على بلاده تدريجا على كرهه الشديد لهم ورغبته الصادقة فى طردهم ، لكنه كان مضطرا لأن يعاملهم بالحسنى لاستدراره الخير من هذه المعاملة . وهذا الموقف يشبه تماما مركز الصينى فى الوقت الحاضر . من ذلك يتضح انه فى الوقت الذى كان فراعنة العهد الصاوى يعجبون باليونانيين واخلاقهم كانت الرعية المصرية لا تألف هؤلاء القوم ولا تصبو اليهم . ويدهى أن اليونانيين كسبوا كثيرا من اختلاطهم بحضارة القطر المصرى ماديا وادبيا ، وتفسير ذلك أن اليونانيين لما أتوا الى القطر المصرى وجدوا فيه العلوم والمعارف مزدهرة فلججوا اذهانهم الوقاد فيها فنجمت عن ذلك حضارة ارقى منزلة وارفع مقاما من الحضارة المصرية . ولا مشاحة فاليونانيون تعلموا فى ايضا كثيراً من الفنون السياسية ، وأن وادى النيل اثر كثيراً فى مصنوعاتهم منذ عهد الأسرة الثانية عشرة (سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد) على الأقل ، فالناظر مثلا الى تماثيل المعبود الشمسى اليونانى أبولو

(Apollos) يجدها جارية على المثال المصرى واقفة وقدمها اليسرى مقدمة على اليمنى . وقد يتضح لنا أن اليونانيين تعلموا كثيراً من حفارى العهد الصاوى حتى فى أرقى عصورهم . أما من حيث العلوم والمعارف فالبراهين التى لدينا قليلة كالسابقة ولذلك لا يمكننا أن نجزم بالضبط بمقدار ما اكتسبه اليونانيون من المصريين ، والظاهر أن الرواية اليونانية القائلة أن اليونانيين استمدوا فلسفتهم من مصر تحوى بعض الصدق . ولا غرابة فى صدق هذه الرواية لأن الديانة المصرية القديمة تحوى البذور الكافية لنشوء الفلسفة اليونانية فى أذهان أصحابها . والمعروف أن علماء اليونان تأثروا كثيراً بآراء المصريين الخاصة بالكون قبل الخليقة وفى زمنها قبل أن يتأثروا بشىء من هذا القبيل فى بلادهم ولا شك فى أن القارىء يعلم أن قدماء المصريين فى عهد الأسرة الثامنة عشرة كانوا يفكرون فى كيفية خلق هذا الكون . أما ثبات المصرى فى الرأى واعتقاده فى الحياة الأخروية وما ترتب عليها من استعدادات القبر فقد اثر كثيرا فى آراء اليونانيين والرومانيين كما يستدل من انتشار الديانة المصرية وقتئذ فى سائر انحاء العالم . ولا تزال آثار هذه الديانة تكشف الى وقتنا هذا تحت أكرم التراب على شواطىء البحر الأبيض المتوسط . ويرجع تاريخ انتشار الحضارة والديانة المصريتين فى العالم الغربى الى عهد بسامتيك الأول . ومن دلائل اعجاب اليونانيين بالمصريين أن برياندر ((Periander)) ، حاكم كورنث (Corinth) باليونان سمى وارثه وابن أخيه باسم بسامتيك (Psammetichos) ولم يستعر هذا الاسم الا لمكانة هذا الفرعون المصلح العظيم .

وفى سنة ٦٤٠ أحس بسامتيك بقدرته على تجديد غزوات أجداده بآسيا فأراد أن يسترجع سلطة مصر بسوريا وفلسطين وينتزع تلك الأقاليم من آشور ، فبدأ بغزو فلسطين وحاصر مدينة أشدود (Ashdod) عدة سنوات ، لكنه اضطر أن يقف مشروعاته بالنسبة لغزوة الاسفوثيين (Scythians) الذين إتوا من الشمال بعدما زحفوا الى آشور ثم اقتربوا من حدود مصر . قال هيرودوت ان بسامتيك ارجع هؤلاء الغزاة ببعض النقود والهدايا ونجى وطنه بهذه الطريقة لكن المرجح انه قهرهم حقا . وتوفى بسامتيك بعدما حكم اربعا وخمسين سنة نجى فى اثنائها بلاده من الانحطاط والاضمحلال اللذين خيما عليها عدة قرون ، وترك جلالته القطر المصرى فى رخاء ونعيم لم ير مثلهما من وفاة رمسيس الثالث أى منذ خمسمائة سنة تقريباً .

الفصل الثامن والعشرون
الكفــاح النهائى : بابل وفارس

توفى بسامتيك الأول عام ٦٠٩ قبل الميلاد فتولى الملك بعده ابنه نخاو الذى لم يجد أمامه ما يمنعه من استرداد الامبراطورية المصرية بآسيا ، لأنه فى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية المصرية آخذة فى التقدم والرقى كانت مملكة نينوى ساقطة مضمحلة . ويرجع ضـــعف آشور هذا الى غارات الاسقوثيين (Scythians) الآتين من شمالى آسيا ، والى اتحاد بابل وأهالى الغرب واهمهم النبى ناحوم الاسرائيلى الذى تنبأ بسقوط آشور وهو فرح مسرور . وقد كانت آشور ضعيفة جدا فلم يتردد فى مهاجمتها نخاو حال توليه الملك ولذلك اخذ يحـــقق مشروعات والده الاستعمارية فشيد إسطولا بحريا ضخما فى البحـــر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر . وبدأ بغزوة فلسطين فى السنة الأولى من حكمه فاستولى على غزة وعسقلان عنوة وفرض عليهما العقـــاب ثم زحف شمالا وبلغ مقاطعة يهوذا فوجدها تحت حكم الأسرة النبويـــة وقد مضى على تحريرها من آشور مدة طويلة . عند ذلك ظن ملوك يهوذا أنهم سيتمكنون من صد مصر كما تخلصوا من سناخريب منذ قـــرن تقريباً ، فجمع ملكهم المدعو يوشيا (Josiah) جيوشه وهجم عـــلى القوات المصرية بسهل مجدو حيث وقعت أول معركة حربية منذ تسعمائة سنة تمكن بها المصريون من اخضاع آسيا . وانتهت هذه المعركة الأخيرة بهزيمة يوشيا التامة أصيب هو فيها بجرح توفى منه ببيت المقدس . ثم ظن نخاو أن آشور ستحاول استرداد أملاكها الضائعة فزحف مسرعا ميمما نهر الفرات ، لكن آشور كانت فى حالة الاحتضار ولذلك لم يجد قوة تقاومه هناك ففضل الرجوع الى مصر ولم يهجم على نينوى لعدم استعداده تماما وقتئذ . بهذه الكيفية تمكن من استرجاع سوريا كلهـا وجميع مستعمرات مصر التى كانت تابعة لها أيام الامبراطورية فى غزوة واحدة ، وقد بلغ وقتئذ مدينة ربله (Ribleh) على نهر العاصى بعدما

حارب بمعركة مجدو بثلاثة اشهر ، ثم ارسل الى يهوحاز (Jehoahaz) ابن يوشيا الذى عينه اليهوديون (Judeans) ملكا عليهم بعد وفاة والده وكبله فى الحديد وولى مكانه الياقيم (Eliakim) احد ابناء يوشيا ايضا وسماه يهوياقيم (Jehoiakim) ثم فرض عليه الجزية وقدرهـا مائة مثقال (تالنت والتالنت يساوى ٥٧ رطلا) فضة وتالنت واحد من الذهب . أما يهوحاز فارسل الى مصر حيث توفى . ثم اراد نخـاو كعادات تلك العصور ان يظهر شعوره وسروره لخـدمات المليزيين (Milesians) فى أثناء انتصاراته الحربية فاهدى اليهم درعه الذى لبسه وقت حروبه . وسرعان ما يتبادر الى ذهن القارىء مناقضة هذه الحادثة لما اعتاده قدماء المصريين الذين نسبوا كل انتصاراتهم لآمون وحده ، فان الحال تغيرت الآن واعتقد القوم ان النصر والفوز يأتيـان عن طريق مساعدة الجنود الأجانب . وعثـر فى صـيدا على اجزاء شاهد حجرى يرجع تاريخه الى عهد نخـاو ، عليه نقوش هيروغليفية خاصـة به لما كان مسيطرا على سوريا (١) .

لم تدم امبراطورية نخاو الأسيوية طويلا ففى اقل من سنتين تمكن نابوبلاصر (Nabopolassar) ملك بابل بمساعدة سياكسارس (Cyaxares) ملك ميديا من القضاء على آشور وتحطيم نينوى وشل نفوذها السياسى . بعد ذلك اقتسم ملكا بابل وميديا املاك آشور فاستولى ملك ميديا على الأملاك الشمالة والشمالية الشرقية واكتفى ملك بابل بالمستعمـرات الجنوبية والجنوبية الغربية ، وهكذا وقعت سوريا ضـمن نصيب نابوبلاصر لكنه كـان مسنـا فارسـل ابنـه المدعـو نبوخـذنصر (Nebuchadrezar) لقتال نخاو . فلما سمع بذلك فرعون مصر جمع قواته واسرع لملاقاته على الحدود الشمالية على نهر الفرات ، وذلـك عام ٦٠٥ قبل الميلاد ، فالتحم الفريقان بجهة كركميش (Carchemish) حيث انهزم الجيش المصرى المختلط . بعد ذلك لم يتمكن نخاو من مقاومة بابل مرة أخرى ولا من الدفاع عن فلسطين فتقهقر مسرعا نحو الدلتـا يعقبه نبوخذنصر . وقد تقهقر نخاو بسرعة فى فلسطين فتأثر أهـالى مقاطعة يهوذا منه كثيرا ، وكان اذ ذاك النبى ارميا يفهم أهالى دمشق احوال الأمم فأخذ يصب على المصريين المتقهقرين هزءه وسخريته ، وكان منتظرا بل مؤكدا وقتئذ أن اذلال مصر او غزوتها بأمير الكلدانيين الشاب أمر محتم ، لكن وفاة والده ببابل اجبرت نبوخذنصر أن يتفق هو ونخاو

(١) Proceedings Soc. of Biblical Arch., XVI (1894), pp. 91 f.

على فض المشاكل التي بينهما خوفا من بقائه مدة طويلة بعيدا عن بابل لأنه اراد أن يحضر هناك حفلة تتويجه ، وبهذه الطريقة اتضمت سوريا وفلسطين الى بابل منذ ذاك الوقت .

لا يخفى أن اتفاق نخاو وبابل حدد طمع المصريين بآسيا ولذلك صمم ملك مصر على الاحتفاظ بمملكته دون أن يبدى أية حركة حربية بتلك الجهات . وقد جاءت فى التوراة هذه الرواية « ولم يعد أيضا ملك مصر يخرج من أرضه لأن ملك بابل اخذ من نهر مصر الى نهر الفرات كل ما كان الملك مصر » . ولم تقتصر الحال على ذلك بل ان نخـاو لـم يتجاسر أن يتدخل فى حصار نبوخذنصر لبيت المقدس واستيلائه عليهـا ونفى أسر يهوذا الشريفة عام ٥٩٦ قبل الميلاد . ومنذ ذلك الوقت اكتفى نخاو بترقية تجارة مملكته وتوسيع مشروعات والده فى هذه السبيل ، فأعاد حفر القناة التى كانت موصلة فرع النيل الشرقى بالبحر الأحمر . قال هيرودوت ان مائة الف نسمة هلكت فى تنفيذ هذا المشروع حتى اضطر نخاو أن يوقفه قبل انجازه. وروى ديوردور الصقلى ان المهندسين نصحوا بعدم حفر تلك القناة خوفا من غرق مصر لعلو سطح ميـاه البحر الأحمر عن سطح الدلتا وهو الأقرب الى الصواب . وبدهى أن اتصال الملاحة بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط عاد على مصر بالمكسب التجارى العظيم كما انه ساعد كثيرا من الوجهـة الحربية . ويستدل على شدة رغبة نخاو فى ترقية الملاحة ببعثته الفينيقية التى قال عنها هيرودوت انه ارسلها لارتياد سـواحل افريقية المعروفة وقتئذ باسم ليبيا (Libya) . وكان اعتقاد المصريين قديما أن الأرض تحيط بها المياه من جميع الجهات وهذه المياه تسمى عند اليونان أوقيانوس وان مياه النيل متصلة بتلك الماه جنوبا وهذه البعثة الفينيقية اسـتغرقت من الوقت ثلاث سنوات .

وتوفى نخاو عام ٥٩٣ قبل الميلاد فتبعه فى الملك ابنـه بسـامتيك الثانى الذى وجد إن القيام بحركات استعمارية بآسيا أمر مستحيل ولذلك لا يبعد أنه فضل المحافظة على نصوص معاهدة والده مع بابل . ولما ايقن باستحالة الاستعمار شمالا وجه همه جنوبا فحـاول اسـترجاع النوبة التى انفصلت عن مصر منذ تأسيس مملكة اثيوبيا فغزا ذلـك الاقليم وبلغت مقدمة جيوشه إقليم الشلال الثانى حيث تركت جنوده نقوشـا يونانية على احـد تمـاثيل رمسيس الثـانى العظيمة امام معبد ابى سنبل إثبتوا فيها زيارتهم لتلك الجهة . وقد اشرنا فيما سبق الى أن هذه الغزوة كانت من أسباب إنتقال عاصمة النوبة الى اعـالى

الشلالات (أى مروه) ومع ذلك فان الاستعمار المصرى هناك لم يدم طويلا فلم ينضم اسفل النوبة مطلقا الى المملكة الصاوية . واستمرت علاقات المودة ، الصفاء سائدة بين المصريين واليونانيين حتى روى هيرودوت أن الاليين (Eleans) أرسلوا وفدا الى بسامتيك الثانى يحكمونه فى ادارة الألعاب الأولمبية وقتئذ . أما فى داخل المملكة فقد بسط بسامتيك الثانى نفوذه على طيبة بأن عين ابنته انخنس نفراب رع (Enekhnesnefribre) رئيسة دينية بدل عمته المسنة ابنة بسامتيك الأول المدعوة نيتوكريس . ثم انعم بلقب « رئيس كهنة آمون » على ابنته فتسلمت دخل نيتوكريس التى توفيت بعد ذلك بتسع سنوات. أما كريمته فبقيت حاكمة لطيبه مدة تقرب من سبعين سنة حتى غزوة فارس (١) .

وتوفى بسامتيك الثانى فتبعه فى الملك نجله أبريس (Apris) عام ٥٨٨ قبل الميلاد ويقال له بالمصرية حعبرع (Ha'abre') وباليهودية هوفرع (Hophra) . وورد عن هذا الملك أنه تطلع الى آسيا واخذ يحقق آمال أسرته القديمة لاسترداد مستعمرات مصر هناك بسرعة . وقد سبقت الاشارة الى حصار نبوخذنصر لبيت المقدس فى سنة ٥٩٧ قبل الميلاد أيام نخاو ، والآن نرجح أن هذا الأخير كانت له يد خفية فى اشعال تلك الفتنة . والمعروف أن هذه المدينة تسعة سلمت لعدوها فى السنة التالية فعقب ذلك نفى ما يتراوح بين تسعة وعشرة آلاف نسمة راقية الى بابل حتى لم يبق ببيت المقدس « الا مساكين شعب الأرض » (٢) . بعد ذلك عين نبوخذ نصر صدقيا (Zedekiah) عم يهوياكين (Jehoiachin) ملكا على تلك الأرض الخربة فمكث بها تسع سنوات ثم شق عصا الطاعة على بابل . والسبب فى هذه السياسة الخرقاء ظاهر واضح فتاريخ هذا العصيان يوافق يوم تولية ابريس ملك مصر الذى أخذ يؤثر فى صدقيا للاتحاد معاً تخلصاً من بابل . وكان صدقيا تحت تأثير رسل صور وصيدا وموآب وآمون الذين كانوا ولا يزالون يحرضونه على ذلك ويعدونه بالمساعدة ، فانصاع صدقيا فى آخر الأمر الى نصائح أبريس ، لكنه أصابه من بابل ما أصاب عصاة حكم آشور لأن محالفى صدقيا لم يساعدوه بسرعة فى الوقت المناسب . ولا غرابة فى ذلك فقد جعل أبريس هذه المساعدة مستحيلة ، لأنه هجم على صور وصيدا باسطوله

---

(١) ٤ : ٩٨٨ . A-988 J.

(٢) ٢ : ملوك ٢٤ : ١٥ .

رغبة منه فى محاربة نبوخذ نصر على نهر الفرات كما فعل جده نخاو سابقا . وتفصيل ذلك ان أبريس حارب اولا اسطول صور وقبرص وانتصر عليهما ثم أنزل جنده بصيدا فسلمت له مدن فينيقيا على اثر ذلك (٣) . والظاهر أن ابريس قصد بهذه الحركة ابعاد اهتمام نبوخذنصر من الولايات الجنوبية التى أرسل اليها جيشا فى أوائل عام ٥٨٧ قبل الميلاد ، وربما أراد بهذا العمل قطع خط الرجعة على جيش بابل الذى كان محاصرا بيت المقدس وقتئذ . فاذا كان هذا هو الواقع كانت هذه الفكرة غاية فى الحكمة وسداد الرأى . لكن الحملة التى قام بها ابريس لم تتوغل ببلاد آسيا كثيراً لدرجة أقلقت بال بابل ، كما أن نبوخذنصر اختار ربله التى هى الى الشمال على نهر العاصى قاعدته الحربية ، فتمكن بذلك من مراقبة حركات جيش مصر بتلك الجهات دون خوف ولا وجل . زد على ذلك ان أعداء نبوخذنصر كانوا يضعفون كل يوم بنزاعهم الداخلى ولذلك لو فرض أن أبريس زحف على ملك بابل وقتئذ فان هذا الأخير كان بوسعه وقف ذلك الزحف بسهولة بقوة من ربله . والظاهر أن الآثار الصاوية التى عثر عليها رنيان (٤) فى أرواد وصور وصيدا يرجع تاريخها الى هذا العهد القصير الذى كانت فيه فينيقيا تحت حكم فرعون . ويرجح أن فرعون مصر كان مسيطرا وقتئذ ايضا لمدة قصيرة على أحد أقاليم لبنان .

وفى ربيع عام ٥٨٦ قبل الميلاد ظهرت جيوش أبريس اخيرا فى جنوبى فلسطين فهددت قوات بابل المحاصرة لبيت المقدس وبذلك نجت تلك المدينة مدة قصيرة ، لكن الجيوش المصرية أظهرت وقتئذ عدم كفايتها لمكافحة جوش آسيا ويرجح كثرا أن ابريس تخلى وقتئذ عن فلسطين ، فجاء هذا تأكيا لتنبؤات أرميا الذى نصح دائما بالتخلى وعدم الاعتماد على مصر ورمى كل من يقوم بذلك بالغباوة وقصر النظر . وهذا الرأى السياسى أتعب أرميا وعرضه لمخاطر كثيرة اضطر فى آخرها الى أن ينجو منها بحياته . وفى صيف عام ٥٨٦ قبل الميلاد سقط بيت المقدس فخربه جيش بابل تخريبا واسر الذليل صدقيا الى معسكر نبوخذنصر بربله حيث شاهد مصرع ولديه قبل فقء عينيه . بهذه الطريقة ذلت الأمة اليهودية تماما . أما مصر رأس هذه الاضطرابات فلم توجه اليها الضربة القاضية والسبب فى تأخير ذلك أن نبوخذنصر صمم أولا على عقاب صور التى استمرت مستقلة ثلاث عشرة سنة الى أن سلمت له عام ٥٧٣ قبل الميلاد .

---

(٤) Rougé, letter to Renan, Revue arch. n. s., VII, 1863, pp. 194-8.

وبالرغم من سوء حظ ابريس بآسيا فقد كان عائشا فى رفاهيــة ونعيم لأن مملكته كانت محافظة على رقيها وثروتها كما كانت أيام جده الأكبر مؤسسـها . وورد أن الصحراء الغربية كانت تدفع جزيتها لمصر وأن حاكم الصحراء الشمالية المدعو وح اب رع نوفر (Wahibrenofer) شيد معبدا فى تلك الجهة (٥) ومع كثرة هذا النعيم فقد كتب على أبريس أن يتوفى فى ظروف محزنة غير منتظرة وتفصيل ذلك أنه عجز عن التوفيق بين افراد جيشه المتباين الوحدات ، فقد تمرد الجنود الليبيون واليونانيون والسوريون ، ثم هجروا الجيش المصرى رغبة فى الانضمام الى النــوبة كما حصل أيام بسامتيك الأول . ولا نعرف عدد الهاربين بالضبط وان كان عظيما حتى جاء بأخبار تلك العصور الرسمية أن الملك قلق لذلك .
ووصل الهاربون الى الشلال الأول فقابلهم هناك حاكم ذلك الاقليم المدعو نسوحور (Nesahor) فاقنعهم بخطئهم وأخيرا أرسلهم الى الملك أبريس الذى عاقبهم على هذا الذنب . ثم تألبت وحدات الجيش المصرى مرة ثانية ولكن هذا العصيان لم ينته بسلام كالسابق ، وسببه أن بعض اليونانيين استوطنوا جهة قورنيئة (Cyrene) حيث أسسوا مستعمرة غنية راقية أخذت تنمو وتزداد على حساب ليبيا التى هى بينها وبين مصر . ورأى أبريس أن يصــد نمو مستعمرة قورنيئة فأرســل الى ليبيا قوة حربية خاليا طبعا من العنصر اليونانى لمكافحة سيرين . وســـار المصريون مستهزئين ومستهترين بأعدائهم لكنهم لما التقوا مـــع يونانيى سيرين فى آخر الأمر دارت رحى القتال بين الطرفين وانتهت بهزيمـــة المصريين ، فاغتاظ الجنود المصريون من هذا الأمر وظنــوا أن ابريس أرسلهم الى قورنيئة ليتخلص منهم فقامت الثورة بين وحدات الجيش المصرى وارسل ابريس على أثرها أحد اقربائه المدعو احمس الذى سماه هيرودوت أمازيس (Amasis) ليخمد الهياج . وكان احمس هذا ذكيا وسياسيا محنكا فتمكن من انقاذ أبريس من خطر الموقف واستمال الجنود العصاة نحوه فاختاروه ملكا عليهم . وارسل ابريس رسولا الى أمازيس يطلبه لكن الرسول رد باحتقار وسخرية ، فاستشاط أبريس غيظا من ذلك وأنزل شدة غضبه على الرسول المنكود الحظ على كبر مرتبته وأمر بجدع أنفه وقطع أذنيه . ورأى اتباع أبريس من نبــلاء ومساعدين ما حل بزميلهم ظلما فهجروا ابريس وانضموا الى امازيس .
قال هيرودوت :«ثم نشبت معركة حربية بين الطرفين انتصر فيها أمازيس بجنوده المصريين العديدين على أبريس وجنوده اليونانيين المــأجورين

---

(٥) Steindorff, Berichte der phil-hist. Cllsse der ûönigl. Sächs. Gesellschaft der Wissenschaftten zu Leipzgi, 1900, p. 226.

وانتهى الأمر بأسر أبريس » . والظاهر أن هيرودوت أخطأ فى فهم الموقف بالضبط فخلط بين هذا النزاع والحرب التى حصلت بين هذين الطرفين بعد ذلك بقليل كما تشير الى ذلك آثار تلك العصر . ومهما كان الأمر فقد استمر امازيس يعامل ابريس بالحسنى فلم يعزله لكنه وضع يده على زمام الحكم وناصية الحال مقتسما بذلك الحكم مع أبريس لكن الاول كان طبعا اقوى من الثانى . وقد عثرنا على بعض آثار يرجع تاريخها الى عهد تضامن هذين الحاكمين وقد كتب أمازيس اسمه داخل خانة ملكية لكنه استمر مستعملا أيضا القابه القديمة التى هى أقل اعتبارا بجانب الخانة المذكورة . وفى السنة الثالثة من تضامن هذين الملكين قامت مشاحنة بينهما فاستمال أبريس الى جانبه الجنود اليونانيين (كما رواه هيرودوت) واستعان بأسطول بحرى ثم زحف فى الشمال على صار الحجر ، لكن امازيس أسرع فى الوقت نفسه فجمع جنده وهجم على أبريس وشتت شمل جيشه ومكث أبريس مع جنده بالوجه البحرى ينهبون البلاد ويقطعون السبيل فأرسل اليهم أمازيس حملة وكان أبريس ظاهرا وقتئذ بمظهر الهارب العاصى ، والمعروف أن أمره انتهى بقتله وهو على ظهر احدى سفن أسطوله الباقية ، واحتفل أمازيس بجنازته على الوجه اللائق بالملوك ودفنه بين اجداده العظام بصا الحجر وقدم له الهدايا والقرابين بسخاء .

وربما يخيل الى القارىء أن أمازيس الذى نال مركزه السامى بتهييج الشعور الوطنى العام ضد اليونانيين اتخذ لنفسه خطة ضد النفوذ الأجنبى بمصر ، لكنه لم يفعل ذلك لانه كان أحرص وأعقل من الوقوع فى هذه الهفوة . والحقيقة أنه كان يتظاهر باخضاع النفوذ اليونانى لكنه كان يعطيه فى الحقيقة كل ما يلزمه ، مثال ذلك انه أصدر أمره الى اليونانيين الا ينزلوا بضائعهم فى أية جهة من الوجه البحرى يرغبون فيها وقصرهم على جهة معينة هى مدينة نقراتيس (Naucratis) على فرع النيل الكانوبى فى الدلتا . والراجح أن هذه المدينة كانت مستعمرة يونانية صغيرة فى بادىء الأمر فاصبحت بفضل تأسيس أمازيس لها من جديد وبفضل ورود البضائع اليونانية عليها أهم مركز تجارى بمصر بل بها وبالبحر الأبيض المتوسط . وكانت هذه الميناء يونانية بكل صفاتها كما أن مصنوعاتها كانت مصبوغة بالصبغة اليونانية غالبا وليس عليها الا القليل من المسحة المصرية . والمعروف أيضا عن هذه المدينة أن حركتها التجارية والصناعية وتنسيقها وادارتها اليومية كانت كالمراكز الصناعية والتجارية ببلاد اليونان ، فعلوا ذلك لأن ارتياح اليونانيين بمصر كان موقوفا على نجاح وثروة هذه المدينة . لذلك لما أريد

انشاء معبد كبير بمدينة نقراتيس وردت لأجله التبرعات من مدن أيونيا (Ionia) الشهيرة مثل كيوس (Chios) وتيوس (Teos) وفوسيا (Phocaea) وكلازوميني (Clazomenae) وجزيرة رودس (Rhodes) وسنيدس (Cnidus) وهاليكارناساس (Halicarnassus) وفاسليس الدورية (Dorian-Phaselis) ومديله الأيولية (Aeolian Metylene) كل هذه الجهات اشتركت معاً فى تشييد معبد نقراتيس المدعو هيلينيام (Hellenium) فكان بناء ضخما شاهقا حوله فناء كبير يحيط به سور عظيم . ثم ان كلا من أقاليم ايجينا (Aegina) ومليتس (Melitus) وساموس (Samos) القوية كان له معبد خاص بمدينة نقراتيس . ويبدو لنا من ذلك انه بالرغم من القيود التى فرضت على اليونانيين فقد كانوا يتمتعون بامتيازات عظيمة . وتدلنا قوانين أمازيس أن جلالته لم يعتبرهم خطرا ولا أعداء لمصر ، فقد ورد أنه قدم عليه وفد من الدلفيين (Delphians) ملتمسين مساعدته فى تشييد معبد بدلا من الذى التهمته النيران عامَ ٥٤٨ قبل الميلاد ، فقابلهم مرحبا وتبرع لهم ببدرات الأموال . زد على ذلك انه ارسل الهدايا الى معابد ليندوس (Lindos) وساموس (Samos) وقورنيئة (Cyrene) كما اهدى ايضا درعاً جميلا الى الاسبرطيين (Spartans) . هكذا وطد جلالته معاملته مع اليونانيين بأوربا وآسيا وزاد فى مودته مع بوليكراتيس (Polycrates) حاكم ساموس الثرى حتى يخيل انه عقد معه معاهدة . هذه الأعمال كلها جعلت امازيس محبوبا جداً عند اليونانيين داخلا وخارجا فكثرت الحكايات عن أخلاقه ومعاملته مع اليونانيين .

ومن دواعى الأسف أن معظم معلوماتنا عن أمازيس تنحصر فى معاملته مع اليونانيين . والمعروف انه لم يهمل مصالح مصر بدليل حسن تصرفه وقت المصيبة التى لحقت ابريس وكاد شررها يتطاير الى أنحاء القطر . ومن مآثر هذا الملك أنه شيد بعض ملحقات جميلة بمعابد صا الحجر ومنف وأحضر محرابا جميلا مصنوعا من صخرة واحده من محاجر الشلال الأول نصبه بمدينة صا الحجر وقد أعجب به هيرودوت كثيراً . اما أهالى القطر فكانوا فى رخاء عظيم حتى قال هيرودوت : « أن القطر . ومن مآثر هذا الملك أنه شيد بعض ملحقات جميلة بمعابد المدنى « فحتم على كل ساكن أن يخبر حاكم مدينته كل سنة بموارد الثروة التى يعيش منها » وقد اخذ سولون (Solon) هذه المادة عن المصريين وقت زيارته لهم ونفذها فى اثينا عند عودته اليها . والظاهر أن ميل امازيس نحو اليونانيين لم يخف على المصريين لأنه اضطر الى ان ينقل

---

(٤) Revilliout, Revue tgyptololgique ff. III, 105.

حامية مدينة دفنه اليونانية (أحد حصنى مصر شمالى وشرقى الدلتا) الى منف القوية النفوذ الكبيرة ، ليرتاح فؤاده من تألبها ويأمن شرهـــا فقد كان قلقا منها لقربها كثيرا من محل اقامته . لكن أمازيس اضطـــر فى آخر الأمر الى أن يظهر بثوبه الحقيقى، لأنه لم يجد بدا من صرف ايراد المعابد على جيشه اليونانى واسطوله ، فاستحال بذلك على كهنة القطر ان يستنزفوا خيرات البلاد كسابق العهد . ولا غرابة فى ذلك فأسطول مصر وقتئذ وكثرة جنودها المأجورين كلفت أمازيس أموالا جزيلة حتى اضطر الى أن يستعين بدخل المعابد. وقد صارت هذه الحركة مبدأ لأمثالها فيما بعد فى عهد فارس والبطالسة لما ضعفت ثروة الكهنة تدريجا وفرضت الضرائب على أملاك المعابد ، ولما كانت طائفة الكهنة فاقدة النفوذ السياسى وقتئذ خضعت لتلك الظروف التى شملت أيضا طوائف البلاد الراقية ، لكن أمازيس مضرب الأمثال فى الحكمة والتروى تمكن بمواهبه الفكرية من القبض على ناصية الحال والاحتفاظ بقواته حتى اضطـــر المصريون الى أن ينصاعوا لرغباته وأوامره .

ومما وطد مركز أمازيس على سواحل البحر الأبيض المتوســط حسن تفاهمه مع اليونانيين . أما فى الغرب فكان نفوذه مبسوطا على الواحات وقد شيد معبدا فى الواحة البحرية . ولم يكن حسن الحظ فى تعامله مع الشرق . ثم ان اغتصابه للعرش شجع نبوخذنصر على اذلال مصر ، لأنه علم بطبيعة الحال أن مثل هذا الاغتصاب لا يحصل الا من انشقاق واضطراب داخليين ، ففى سنة ٥٦٨ قبل الميلاد ـ أى قبل وفاة ابريس بقليل ـ ظهر جيش كلده على حدود الدلتا الشرقية ، لكنا لا نعلم ماذا تم فى أمره . والظاهر ان نبوخذنصر اراد وقتئذ غزو مصر فوجدها مخالفة تماما لما كانت عليه تحت الحكم الاثيوبى اضطرب لمـــا التهمها آشور طعمة باردة . والثابت أنه لم يغز مصر وقتئذ ، وطبيعى أن أرميا وحزقيال اللذين كانا يتوقان الى سقوط فرعون مصر المبغض تكدرا كثيرا ؛ لأن الطامة التى انتظراها وتنبأ بهـــا لم تحصل . ونجم من حملة نبوخذنصر أن امتنع أمازيس من التدخـــل فى استعمار سوريـــا وفلسطين ، لكنه تمكن بأسطوله القوى من اخضاع قبرص وقهرها على دفع الجزية . وليلاحظ أن قوة هذا الملك البحرية كانت نواة قوة مصر البحرية فى عهد البطالسة لما سيطرت مصر على سواحل البحر الأبيض المتوسط .

(*) Steindorff, Berichte der phil.-hist. Classe der Königl. Sächs. Gesellschaft der Wissenschaften zu Leipzig, 1900, p. 226. (Mes).

وتوفى نبوخذنصر عام ٥٦٢ قبل الميلاد فاختفى بذلك نفوذه العظيم وضعفت هيبة بابل فقامت فيها الاضطرابات الداخلية واستحال بقاء المعاهدة مع ميديا كما كانت . وفى عام ٥٥٠ قبل الميلاد اسقط قورش (Cyrus) ملك انشان (Anshan) الفارسى الأسرة المالكة بميديا وعزل ملكها المدعو استياجيس (Astyeges) فضعف بذلك مركز بابل كثيرا واحاطت به المخاطر . وظهر قورش بعد ذلك فى العالم الغربى بشكل يدعو الى الاعجاب مع الوجل ، فتحقق أمازيس خطر هذا الملك الفارسى نحو مصر وكافة أمم الغرب . لذلك اتحد أمازيس عام ٥٤٧ قبل الميلاد هو وكريسوس (Croesus) ملك ليديا والاسبارطيين فى الغرب ، وملك بابل المدعو نابونهيد (Nabuna'id) لصد نفوذ قورش.وقبل أن يتم هذا التحالف العظيم كان كريسوس هزم وخلع (٥٤٦ ـ ٥٤٥ قبل الميلاد) فاتجهت بعد ذلك قوات فارس نحو الاستعمار والغزو بعدما قضت قرونا عديدة بين تلال مملكتها ، واول غرض لفارس وقتئذ كان اخضاع بابل التى سلمت لها عام ٥٣٩ قبل الميلاد . عند ذلك عجز أمازيس عن صد زحف فارس التى بزغت شمسها الآن فى أفق التاريخ على أطلال المملكتين الساميتين اللتين نشأتا ببلاد النهرين وايضا على أطلال ممالك آسيا الصغرى . وكان ضروريا ان يتجه نظر هذه الدولة الجديدة نحو مصر ، وكان الحزن والكدر يخالجان قلب أمازيس وهو فى آخر ايامه كلما فكر فى سيادة قورش المطلقة . لكنه توفى قبل موت كريسوس وذلك فى آخر عام ٥٢٦ قبل الميلاد أو أوائل عام ٥٢٥ قبل الميلاد قبل مجىء الطامة الكبرى المنتظرة الى مملكته .

لقد تمكن أمازيس مدة حكمه الطويلة البالغة اربعا واربعين سنة من اثبات كفايته السياسية العظيمة للملأ ، ويلاحظ أن هذه المواهب السامية والهمة التى لا تعرف الملل كانتا نتيجة المدنية اليونانية والأصل اليونانى . وامتاز هذا الملك بعدم اهتمامه بالعمارات والأصول الدينية العتيقة التى راعاها فراعنة مصر فى سابق الزمان ، والتى جسمت فى آثارهم والتى صبغتهم بصبغة واحدة وازالت من بينهم الفروق لاعتبارهم فى نظر الرعية من أصل مقدس . كل هذه الاعتبارات الكهنوتية والعادات الدينية الرسمية التى تحلى بها فراعنة مصر الأقدمون لم يعرها أمازيس اعتبارا كبيرا ، فقد اعتاد مثلا أن يبدأ يومه بانجاز أعماله العمومية ، ثم يدعو الى مائدته بعض خلانه فيرفع عنهم حجاب الكلفة ويدعوهم لمنادمته من دون حشمة ويشرب معهم احيانا الخمر . ولم يكن كثير الرفاهية بل كان كثيرا ما يضع نفسه تحت المؤثرات والأفراح بدون أن يحرج مركزه ، فكان هذا سببا فى رفع منزلته فى العالم السياسى كثيرا .

وما أكثر الحكايات التي رواها اليونانيون عنه بشأن دهائه ومزحه اللذين تمكن بهما من سياسة الناس وتصريف الأمور بدرجة أدهشت العالم .
ولا بد أن القارىء قد لاحظ من أخلاق وسياسة أمازيس أن حالة القطر المصرى وقتئذ كانت مناقضة تماما لحالته القديمـــة التى انعــدمت من الوجود ، وأن وميض تلك الحضارة القديمة الذى لمع فى العهد الصاوى لم يلبث أن انطفأ بسرعة والى الأزل . والسبب فى ذلك أن الحكومة الصاوية كانت فى الحقيقة هيكلا اصطناعيا شيده وحافظ عليه حكام مهرة ، أما الحياة القومية والشعور الوطنى اليقظ فكانا معدومين فى نفوس الأهالى . لذلك كان سقوط مصر وختام تاريخها الفريد ظاهـــر القرب قبل وصول قمبيز بجيشه الجرار الى أبواب بلوزيوم (Pelusium) بمدة طويلة .

وامتاز الملوك الصاويون ببعد نظرهم فى المستقبل وحبهم للانشاء والتجديد ومقتهم للأخلاق الرجعية ، ولذلــك لم يكن هـــؤلاء المـــلوك ولا البطالسة الذين حكموا مصر بعد الفرس مصريى الطباع تماما . ولم يكن الغزو الفارسى الذى حصل عام ٥٢٥ قبل الميلاد والذى اغتصب الملك من بسامتيك الثالث نجل أمازيس سوى تغير فى الهيئة الحاكمة ، أو بعبارة أخرى لم يكن سوى تغير ظاهرى . أما المحاولات المصريـــة التى حصلت عدة مرات للتخلص من الحكم الفارسى وارجاع الحكم المصرى، فكانت أشبه شيء بتشنجات وقتية تعترى أحد أعضاء الانسان بعد فقدان صوابه بمدة طويلة . وبسقوط بسامتيك الثالث دخلت مصر فى عالم جديد كانت لها فى انشائه اليد الطولى ، لكنها أصبحت وقتئذ عاجزة عن القيام بأى عمل جدى . وقد أتمت مصر مأموريتها الكبيرة بنجاح لكنهـــا عجزت عن الاحتجاب عن العالم كنينوى وبابل فبقيت عائشة فى حيـــاتها الاصطناعية تحت حكم الفرس والبطالسة ، ثم أخذت تضمحـــل حتى صارت فيما بعد مزروعة للملكة الرومانية يؤمها الســـياح اليـــونانيين والرومانيين لمشاهدة آثارها الضخمة . وقد كتب هؤلاء أسماءهم على تلك الآثار كما يفعل السياح الحديثون لشدة اعجابهم بها ، ومع ذلك فان أهلها المسالمين بطبيعتهم ما زالوا عاكفين على الفلاحة جـــاعلين وطنهم حديقة العالم دون أن تبدو عليهم علامات اليقظة والانتبـــاه ، فتحققت بذلك حرفيا نبوءة حـــزقيال الرئيس الاسرائيلى حيث قال : « ولا يكون بعد رئيس من أرض مصر » .

قائمة ملوك مصر

الأسرة الأولى ٢٩٢٠ ـ ٢٧٧٠

مينا (نعرمر أو حور عحا ؟) جر ـ واج ـ دن ـ عج ايب ـ سمرخت ـ قاعا .

الأسرة الثانية ٢٧٧٠ ـ ٢٦٤٩

حتب سخموى ـ رع نب ـ نثرى خت ـ برايب سن ـ خع سخم (خع سخموى) .

الأسرة الثالثة ٢٦٤٩ ـ ٢٥٧٥

سانخت (نب كا ؟)	٢٦٤٩ ـ ٢٦٣٠
جسر (نثرى خت)	٢٦٢٠ ـ ٢٦١١
سخم خت	٢٦١١ ـ ٢٦٠٣
خع با	٢٦٠٣ ـ ٢٥٩٩
حونى (؟)	٢٥٩٩ ـ ٢٥٧٥

الدولة القديمة ٢٥٧٥ ـ ٢١٣٤

الأسرة الرابعة ٢٥٧٥ ـ ٢٤٦٥

سنفرو	٢٥٧٥ ـ ٢٥٥١
خوفو	٢٥٥١ ـ ٢٥٢٨
رع جدف	٢٥٢٨ ـ ٢٥٢٠
خفرع	٢٥٢٠ ـ ٢٤٩٤
منكاورع	٢٤٩٠ ـ ٢٤٧٢
شبسسكاف	٢٤٧٢ ـ ٢٤٦٧

الأسرة الخامسة ٢٤٦٥ ـ ٢٣٢٣

أوسر كاف ٢٤٦٥ ـ ٢٤٥٨
ساحورع ٢٤٥٨ ـ ٢٤٤٦
نفر اير كارع ٢٤٤٦ ـ ٢٤٢٦
شبسس كارع ٢٤٢٦ ـ ٢٤١٩
رع نفر ف ٢٤١٩ ـ ٢٤١٦
نى أوسر رع ٢٤١٦ ـ ٢٣٩٢
من كاو حور ٢٣٩٦ ـ ٢٣٨٨
جد كا رع ٢٣٨٨ ـ ٢٣٥٦
ونيس (أوناس) ٢٣٥٦ ـ ٢٣٢٣

الأسرة السادسة ٢٣٢٣ ـ ٢١٥٠

تتى ٢٣٢٣ ـ ٢٢٩١
ببى الأول (مرى رع) ٢٢٨٩ ـ ٢٢٥٥
مرن رع ٢٢٥٥ ـ ٢٢٤٦
ببى الثانى (نفر كارع) ٢٢٤٦ ـ ٢١٥٢

الأسرتان السابعة والثامنة ٢١٥٠ ـ ٢١٣٤

فترة غامضة تعاقب فيها على العرش عدد كبير من الملوك الذين حكموا لفترات قصيرة واشهرهم نفر كارع .

عصر الاضمحلال الأول
٢١٣٤ ـ ٢٠٤٠

الأسرتان التاسعة والعاشرة (هيراكليوبوليس) ٢١٣٤ ـ ٢٠٤٠

مجموعة من الملوك باسم خيتى ومرى كارع وايتى .

الأسرة الحادية عشرة (طيبة) ٢١٣٤ ـ ٢٠٤٠

انيوتف الأول ٢١٣٤ ـ ٢١١٨
انيوتف الثانى ٢١١٨ ـ ٢٠٦٩
انيوتف الثالث ٢٠٦٩ ـ ٢٠٦١
نب حبت رع ، منتوحتب ٢٠٦١ ـ ٢٠١٠

الدولة الوسطى

٢٠٤٠ ـ ١٩٩١

الأسرة الحادية عشرة (توحيد مصر من جديد)	**٢٠٤٠ ـ ١٦٤٠**
نب حبت رع ـ منتوحتب	٢٠٦١ ـ ٢٠١٠
سعنخ كارع ـ منتوحتب	٢٠١٠ ـ ١٩٩٨
نب تاوى رع ـ منتوحتب	١٩٩٨ ـ ١٩٩١

الأسرة الثانيـة عشرة ١٩٩١ ـ ١٧٨٣

(معظم ملوك هذه الاسرة اشركوا خلفائهم معهم فى الحكم فى سنيهم الاخيرة)

امنمحات الأول (سحتب ايب رع)	١٩٩١ ـ ١٩٦٢
سنوسرت الأول (خبر كارع)	١٩٧١ ـ ١٩٢٦
امنمحات الثانى (نوب كاو رع)	١٩٢٩ ـ ١٨٩٢
سنوسرت الثانى (خع خبر رع)	١٨٩٧ ـ ١٨٧٨
سنوسرت الثالث (خع كاورع)	١٨٧٨ ـ ١٨٤١
امنمحات الثالث (نى ماعت رع)	١٨٤٤ ـ ١٧٩٧
امنمحات الرابع	١٧٩٩ ـ ١٧٨٧
نفرو سوبك (سوبك كارع)	١٧٨٧ ـ ١٧٨٣

الأسرة الثالثة عشرة ١٧٨٣ ـ بعد ١٦٤٠

حوالى ٧٠ ملكا ومن اشهرهم

امنمحات الخامس ـ سوبك حتب الأول ـ حور ـ امنمحات السابع ـ سوبك حتب الثانى ـ خنجر (أوسر كارع) ـ نفر حتب الأول) مونتو ام ساف

الأسرة الرابعة عشرة

مجموعة من الملوك المعاصرين للأسرتين الثالثة عشرة أو الخامسة عشرة ٠

عصر الاضمحلال الثانى
١٦٤٠ ـ ١٥٣٢

الأسرة الخامسة عشرة (الهكسوس)

ساليتس ـ شيشى ـ خيـان ـ أبوفيس (١٥٨٥ ـ ١٥٤٢) - خمودى (١٥٤٢ ـ ١٥٣٢) ·

الأسرة السادسة عشرة

أسرة صغيرة من الهكسوس معاصرة للأسرة الخامسة عشرة ·

الأسرة السابعة عشرة ١٦٤٠ ـ ١٥٥٠

مجموعة من الملوك الطيبيين المعاصرين للهكسـوس فى الشـمال ومن أشهرهم إنيوتف (١٦٤٠ ـ ١٦٣٥) ـ سويك ام ساف الأول والثاني ـ تاعا الأول ـ تاعا الثانى (سـقنن رع) ـ كاموس ١٥٥٥ ـ ١٥٥٠ ·

الدولة الحديثة
١٥٥٠ ـ ١٠٧٠

الأسرة الثامنة عشرة ١٥٥٠ ـ ١٣٠٧

أحمس (نب بحتى رع)	١٥٥٠ ـ ١٥٢٥
أمنحتب الأول (جسر كارع)	١٥٢٥ ـ ١٥٠٤
تحتمس الأول (عا خبر كارع)	١٥٠٤ ـ ١٤٩٢
تحتمس الثانى (عا خبر ان رع)	١٤٩٢ ـ ١٤٧٩
تحتمس الثالث (من خبر رع)	١٤٧٩ ـ ١٤٢٥
(تداخل مع عهد تحتمس الثـالث)	
حتشبسوت (ماعت كارع)	١٤٧٣ ـ ١٤٥٨
امنحتب الثانى (عا خبرو رع)	١٤٢٧ ـ ١٤٠١
تحتمس الرابع (من خبرو رع)	١٤٠١ ـ ١٣٩١
امنحتب الثالث (نب ماعت رع)	١٣٩١ ـ ١٣٥٣
امنحتب الرابع (أخناتون)	
(نفرو خبرو رع ـ وع ان رع)	١٣٥٣ ـ ١٣٣٥

سمنخ كارع (عنخ خبرو رع)	١٣٣٥ ـ ١٣٣٣
(شريك فى الحكم لاخناتون)	
توت عنخ آمون	١٣٣٣ ـ ١٣٢٣
أى (خبرو رع)	١٣٢٣ ـ ١٣١٩
حور محب (جسر خبرو رع)	١٣١٩ ـ ١٣٠٧

الأسرة التاسعة عشرة ١٣٠٧ ـ ١١٩٦

رمسيس الأول (من بحتى رع)	١٣٠٧ ـ ١٣٠٦
سيتى الأول (من ماعت رع)	١٣٠٦ ـ ١٢٩٠
رمسيس الثانى (أوسر ماعت رع ستب ان رع)	١٢٩٠ ـ ١٢٢٤
مرن بتاح (بان رع حوتب اير ماعت	١٢٢٤ ـ ١٢١٤
سيتى الثانى (أوسر خبرو رع ستب ان رع)	١٢١٤ ـ ١٢٠٤
أمون مس (مغتصب للعرش ابان عهد سيتى الثانى)	
سـيبتاح	١٢٠٤ ـ ١١٩٨
تاوسرت (ملكة)	١١٩٨ ـ ١١٩٦

الأسرة العشرون ١١٩٦ ـ ١٠٧٠

ست نخت	١١٩٦ ـ ١١٩٤
رمسيس الثالث (أوسر ماعت رع ـ مرى آمون)	١١٩٤ ـ ١١٦٣
رمسيس الرابع	١١٦٣ ـ ١١٥٦
رمسيس الخامس	١١٥٦ ـ ١١٥١
رمسيس السادس	١١٥١ ـ ١١٤٣
رمسيس السابع	١١٤٣ ـ ١١٣٦
رمسيس الثـامن	١١٣٦ ـ ١١٣١
رمسيس التاسع	١١٣١ ـ ١١١٢
رمسيس العاشر	١١١٢ ـ ١١٠٠
رمسيس الحادى عشر	١١١٠ ـ ١٠٧٠

عصر الاضمحلال الثالث
١٠٧٠ ـ ٧١٢

الأسرة الحادية والعشرون ١٠٧٠ ـ ٩٤٥

سمندس (حدج خبر رع ستب ان رع)	١٠٧٠ ـ ١٠٤٤
آمون أم نسو (نفر كارع)	١٠٤٤ ـ ١٠٤٠
بسوسنس الأول (عا خبر رع ستب ان آمون)	١٠٤٠ ـ ٩٩٢

امنموبى (أوسر ماعت رع ان رع)	٩٩٣ ــ ٩٨٤
أوسركون الأول (عا خبر رع ستب ان رع)	٩٨٤ ــ ٩٧٨
سى آمون (نتر خبرو رع ستب ان آمون)	٩٧٨ ــ ٩٥٩
بسوسنس الثانى (تيت خبرو رع سبت ان رع)	٩٥٩ ــ ٩٤٥

الأسرة الثانية والعشرون ٩٤٥ ــ ٧١٢

شيشنق الأول (حدج خبر رع ــ ستب ان رع)	٩٤٥ ــ ٩٢٤
أوسركون الثانى (سخم خبر رع ــ ستب ان رع)	٩٢٤ ــ ٩٠٩
تاكيلوت الأول	٩٠٩ ــ ؟
شيشنق الثانى	؟ ــ ٨٨٣
أوسركون الثالث	٨٨٣ ــ ٨٥٥
تاكلوت الثانى	٨٦٠ ــ ٨٣٥
شيشنق الثالث	٨٣٥ ــ ٧٨٣
بامى	٧٨٣ ــ ٧٧٣
شيشنق الخامس	٧٧٣ ــ ٧٣٥
(أوسركون الرابع ينتمى للأسرة الثالثة والعشرين المعاصرة لتلك الأسرة انظر ما يلى)	
أوسركون الخامس	٧٣٥ ــ ٧١٢

الأسرة الثالثة والعشرون ٨٢٨ ــ ٧١٢

مجموعة من الملوك المتعاصرين حكموا فى مناطق مختلفة فى طيبة وهرموبوليس وهيراكليوبوليس وليونتوبوليس وتانيس ، وترتيبهم وتواريخهم مازالت موضع خلاف كبير ومن أشهرهم : بادو باستت الأول (٨٢٨ ــ ٨٠٣) وأوسركون الرابع (٧٧٧ ــ ٧٤٩) .

الأسرة الرابعة والعشرون ٧٢٤ ــ ٧١٢

تف نخت (شبسس رع)	٧٢٤ ــ ٧١٧
بوخاريس (واح كارع)	٧١٧ ــ ٧١٢

المرحلة الأولى من الأسرة الخامسة والعشرون ٧٧٠ ـ ٧١٢

(النوبة ومنطقة طيبة)

كشتا (نى ماعت رع)	٧٧٠ ـ ٧٥٠
بيى أو بعنخى (وسر ماعت رع)	٧٥٠ ـ ٧١٢

العصر المتأخر

المرحلة الثانية من الأسرة الخامسة والعشرون

(النوبة وسائر مصر) ٧١٢ ـ ٦٥٧

شباكا (نفر كا رع)	٧١٢ ـ ٦٩٨
شبيتكو (جد كاورع)	٦٩٨ ـ ٦٩٠
طهراقا (خو رع نفر تم)	٦٩٠ ـ ٦٦٤
تانوت آمون (عاد الى النوبة بعد ان غزا الأشوريين مصر)	٦٦٤ ـ ٦٥٧

الأسرة السادسة والعشرون ٦٦٤ ـ ٥٢٥

نخاو الأول	٦٧٢ ـ ٦٦٤
بسمتيك الأول (واح ايب رع)	٦٦٤ ـ ٦١٠
نخاو الثانى (وحم ايب رع)	٦١٠ ـ ٥٩٥
سمتيك الثانى (نفر ايب رع)	٥٩٥ ـ ٥٨٩
ابريس	٥٨٩ ـ ٥٧٠
أحمس الثانى	٥[illegible] ـ ٥٢٦
بسمتيك الثالث	[illegible] ـ ٥٢٥

الأسرة السابعة والعشرون ٥٢٥ ـ ٤٠٤

قمبيز	..
داريوس الأول	..

أجزركسيس الأول	٤٨٦ ـ ٤٦٦
أرتاجزركسيس الأول	٤٦٥ ـ ٤٢٤
داريوس الثانى	٤٢٤ ـ ٤٠٤

الأسرة الثامنة والعشرون ٤٠٤ ـ ٣٩٩

أميرتايوس	٤٠٤ ـ ٣٩٩

الأسرة التاسعة والعشرون ٣٩٩ ـ ٣٨٠

نفريتس	٣٩٩ ـ ٣٩٣
بسموتيس	٣٩٣
هكوريس	٣٩٣ ـ ٣٨٠

الأسرة الثلاثون ٣٨٠ ـ ٣٤٣

نختانبو الأول (خبرو كا رع)	٣٨٠ ـ ٣٦٢
تايوس	٣٦٥ ـ ٣٦٠
نختانبو الثانى (سنجم ايب رع ان اينحور)	٣٦٠ ـ ٣٤٣

الغزو الفارسى الثانى ٣٤٣ ثم المقدونى على يد الاسـكندر الأكبر الذى يعتبر نهاية للعصر الفرعونى وفاتحة للعصر البطلمى ٠

لم

مازالت

٨٢٨ ـ ٣

الرابعة والعشرون

تف نخت (شبسس رع

بوخاريس (واح كارع)

فهرس

الموضوع **الصفحة**

الكتاب السادس:
الامبراطورية فى عهدها الثانى

الكتاب السابع:
دور الاضمحلال

الكتاب الثامن:
دور الاصلاح - النهاية

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب
ماز الت
٨٢٨ _ ٣

الرابعة والعشرون
رقم الايداع بدار الكتب ١٠٤٧٧ / ٩٩
I.S.B.N 977-01-63
تف نخت (شبسس ر
بوخاريس (واح كارع)



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل. للشاب. للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع 1999

